أقدام على الطريق

تأليف

محمد زكى عبد القادر

أقدام على الطريق

بقلم
محمد زكي عبد القادر

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة

هذه الصفحات بعض حياتى ، لست أدرى ما اذا كنت قد وفقت فى روايتها ام جانبنى التوفيق • ولكننى ـ على كل حال ـ سكبت فيها تجربتى وفهمى ووجدانى ، وتحريت الصدق مع نفسى ومع الحوادث ومع الناس جهد ما يستطيع انسان ان يفعل •

محمد زكى عبد القادر

أقدام على الطريق

« نحن نضرب في الدنيـا بمصير محتوم ... هل نحن الذين صـــنعناه ، أو هو القدر ..! »

نحن الآن فى مساء يوم من ايام سنة ١٩٢٥ . الريف ناعم راض باسم . اهله يســعون الى رزقهم ، كما فعل آباؤهم واجـدادهم منذ آلاف السنين ... الطنابير تهدر والسواقى تدور والماء يتدفق من العرق والجهد، والارض تبتلع الماء والجهد ، وانا طالب فى كلية الحقوق ، اقضى الاجازة الدراسية بين اهلى وابناء قريتى ، اشعر ان لى امتيازا بينهم ، واعزازا فى قلوبهم ، أحبهم ويحبـــوننى . أنظر اليهم وأتســـاءل : كان يمكن ان أكون مثلهم أسعى كما يسعون ، واشقى كما يشــقون ، تأتيهم اللقمة جافة ، والهدمة مهلهلة ومع ذلك يشكرون وينعمون .. كان يمكن ألا أذهب الى مدرسة أو الى جامعة ، فاعيش فى جهل صـابر كما يعيشون؟ القرية اسمها « فرسيس » اسم غريب ، لست أعرف على التحقيق منشأه أغلب الظن انه ليس اسما عربيا ولا تركيا ربما كان اسما فرعونيا ، فعلى مقربة منها « تل بوبست » الذى كان فى عهد قدماء المصريين مدينة كبيرة عامرة ، وعلى مسيرة اميال قليلة توجد الزقازيق . القرية اشبه بالدوحة او الغابة تنظر اليها من بعيـد ، فاذا هى ملفوفة فى شجر أخضر مرفوع الهامة ، لا يبدو من أبنيتها الصغيرة المتواضعة الا اقل القليل .

لمحت فى هذا المساء نشاطا غير عادى فى « الدوار » . و « الدوار » ـ اذا لم تكن من اهل القرى ـ هو المكان المخصص للضيوف . عم «حسن أبو قنديل » بحزامه الابيض ووجهه المتغضن، وعمامته التى يلوح لى انه لم يكن يخلعها ليلا أو نهارا ، هل كانت عمامة أو شـبه عمـامة ؟ كان يلف على الطاقية الصـوف شـالا أبيض ... هذا لمن يدقق النظر ، وما أقلهم فى الريف ، أما للناظر المتعجل فهى عمامة كاملة محترمة وقور .. وعم حسن

يتحرك هنا وهناك يلمع الشبابيك ، وينفض الكراسي والكنب ، يساعده « عمارة » ٠٠ عمارة ٠٠ لأدعه لفرصة أخرى ، فان وصفي له يطول ٠

عم حسن يتمتم : وقت ايه ربنا حيتوب علينــا من الانتخابات ٠٠ النهارده واحد تاني جاي ٠٠ وسألت من هو القادم ؟ قال من طرف لسانه ابن عم الشيخ البنداري بتاع ـ « بنايوس » وبنايوس قرية مجاورة لنا ٠ وابن عم الشيخ البنداري هو الاستاذ محمد كامل البنداري المحامي ومرشح حزب الاحرار الدستوريين حينئذ (وكيل الديوان الملكي ووزير الصحة وسفير مصر في موسكو بعدئذ) ٠

لم يكن الريف في هذه الفترة بالذات في مثل هدوئه الظاهر ، كان يضطرم بما كانت تضطرم به مصر يومئذ ٠

سعد زغلول اقصى عن الحكم ، وضربت عليه وعلى انصاره رقابة شديدة واضطهاد أشد ٠ وزارة أحمد زيور خلفته ، اعضاؤها خليط من الاحرار الدستوريين والاتحاديين والمستقلين ، حلت البرلمان ، وها هي تنوى اجراء انتخابات جديدة لعلها تبلغ في مجلس النواب الجديد مالم يكن لها في المجلس القديم ، اغلبية ضد سعد زغلول والوفد ٠٠ الريف والمدن ومصر كلها تؤمن بزعامة سعد زغلول وتهتف باسمه ٠٠ ما اشقها من مهمة !٠٠ لم يكن زيور رجلها ، ولكن وزارة الداخليــة اســندت الى اسماعيل صدقي رحمه الله وهو القدير ان يدير المعركة ويوجه امرها ، ويطفيء اسم الزعيم الذي يشتعل به الوادي اشتعالا ٠ كانت المعركة على اشدها بين الوفد وخصومه ، وامتد لهيبها الى الريف ، فاخفى وراء سكونه الظاهر ، انتفاضات عجيبة خطيرة ٠٠ كان الناس يجتمعون في « الدوار » عندنا كل مساء ، وتجرى مناقشات انصت اليها اكثر الاحيان ، واشــترك فيها بعض الاحيان ٠ كان من الحاضرين من يكرهون ســعدا وزعامته ، ومنهم من ينتصرون له ٠ كانت المناقشات اشبه ببرلمان صغير ٠ لم يكن احد يضغط على حرية احد ٠ كل واحد يقول رأيه ٠ وكنت اسمع هذه المناقشات واعجب بهؤلاء الريفيين وجمال منطقهم وسذاجة تخريجهــم للحوادث وكان « الشيخ علي » رحمه الله اشدهم لسعد خصومة ٠ وكان جهير الصــوت قوي العارضة ، ولذلك كان يلوذ به الكارهون لســعد ، ولا يجرؤون ان يبدوا رأيهم الصريح الا اذا كان موجودا ، كي يرد عنهم الهجمات ويحميهم من اذى التجريح ، وكان اقله حينئذ الخيانة والكفر والمروق ٠

وكامل البنداري خصم لسعد ، من حزب الاحرار الدستوريين ،

كيف يكون استقباله فى القرية الوادعة التى لم تعرف العنف ولم تسىء الى احد ، واهم الامر والدى رحمه الله ، كما اهم كل افراد الاسرة. ان الاستاذ البندارى سيكون ضيفا قبل ان يكون مرشحا .. لا بد أن يلقى من الاكرام غايته ، ولكن كيف نستطيع ان نمنع اهل القرية من الاساءة اليه ؟ واذا ضمنا كبراءهم وعقلاءهم ، فكيف نضمن شبانهم وصغار السن فيهم ؟ انتقلت المسألة فى ذهن والدى من خصومة سياسية الى مسألة كرامة له وللاسرة .. وانا ، ماذا كان موقفى ؟ لا اذكر على التحديد هل كان لى رأى معين ام لا ؟ ولكننى اذكر ان تيار الكرامة جرفنى أنا الآخر واصبحت المسألة بالنسبة لى ، كما كانت بالنسبة لاسرتى كلها ، ان الاستاذ البندارى ينبغى ان يخرج من بيتنا ومن قريتنا ، دون ان يسمع ما يسوؤه .

وكان فى المسألة شىء آخر ادق .. ربما استطعنا ان نحميه وهو فى بيتنا ، فان للبيت فى الريف حرمة والناس يحترموننا ويهابوننا فى الوقت نفسه .. قد يمنعهم الخوف او الاحترام او الحب من ان يسيئوا الى ضيف فى بيتنا ، ولكن ماذا يحدث بعد ان يخرج ليرتاد ازقة القرية وحواريها فى طريقه الى سيارته أو فى طريقه الى زيارة أخرى . قد تقف مسئوليتنا وتقف كرامتنا أيضا عند بيتنا ، ولكنها حينئذ تكون مسئولية العاجز وكرامة العاجز ، وهو ما لانرضاه لانفسنا .... لابد ان نحرسه ونحميه طوال الفترة التى يقيمها فى قريتنا !.. مهمة شاقة ، ما فى ذلك شك ولكنها مهمة تستحق العناء ايضا. واقترب موعد الزيارة ، وانطلق فى القرية الصغيرة الهادئة النفير ، كانت الحركة غير عادية .. الشوارع والحوارى والازقة ، امتلأت بما لم تمتلىء به من قبل .. المصاطب والمناظر اصبحت فيها حلقات .. همس خطير خفيف وصوت يرتفع أحيانا على استحياء ، وشاب لايعنيه شىء ولايزعجه او يخيفه ان يصرح برأيه الصريح فى الزائر القادم .. وكما يحدث فى الريف عادة ، انقلبت المسألة شيئا فشيئا من رأى سياسى خالص الى خصومة أسرية محض .. انصار لنا وخصوم . من الانصار من يؤمنون بزعامة سعد زغلول ويكرهون من يعارضه ، ومن الخصوم من يكرهون سعد زغلول ويؤمنون بسياسة خصومه ، ولكن المسألة الآن لم تعد انصار سعد زغلول وخصومه ، بقدر ما اصبحت انصار اسرتنا وخصومها .. الاولون يعنيهم ان تنتهى الزيارة على خير ، وأن يرتفع هام الأسرة ، وتثبت فى القرية كرامتها وهيبتها ، والخصوم يريدون ان تفسد الزيارة وتنقلب شر منقلب .

وكان الحياء لايزال فى الريف بكرا لم يمس ، والاحترام التقليدى

قويا فى النفوس على الرغم من كل الظروف · كانت اللمة من الشبان تأتى من بعيد على نية ان تفسد الاستعداد ، وتصرخ مستنكرة هذه الزيارة حتى اذا اقتربت من « الدوار » تولتها الهيبة التقليدية فمرت بسلام وألقت التحية وكأنها من الانصار ·

واقبل الليل وبدأت الظلمة تزحف والزائر لم يحضر ، واخذ القلق يساورنا ، والناس يكادون يشمتون بنا ، وما هى الا لحظة حتى برق على الطريق الزراعى نور سيارة ، بل سيارات قادمة · كان موكب المرشح العتيد ، ونزل من السيارات عدد كبير ··· الاستاذ كامل البندارى وفى معيته الحكمدار ومأمور المركز وعدد من ضباط البوليس ، وعدد من الاعيان والاقرباء والانصار ·

وملأوا الغرف والبهو واحتشد الناس فى الفضاء الواسع امام البيت، كان الجمع في سكون · لم نسمع حركة اعتراض قريبة ، فيما عدا صوتا لايكاد يصل الينا سوى صداه يرن من وقت الى آخر يطلقه صبى ويطلق ساقيه للريح « يحيا سعد ·· يحيا سعد » ولكن هذا الصوت الضعيف الواصل من بعيد لايكاد يسمع ، كان كل انسان يسمعه ، كانت فيه قوة الحقيقة ، وسحر الواقع الذى يريد هؤلاء المجتمعون إن يتناسوه ·· عكر عليهم الصفو ، لا لأنه قادر ان يعكر أى صفو ولكن لانه يذكرهم بان كل هذا الحشد زائف ، وانه لولا الجند والحكام الواقفون والجالسون مالقى المرشح احدا يستقبله · وتلا القارىء بعض آيات القرآن ، واختار منها ما يناسب المقام ، واديرت اقداح القهوة والشراب ، وجاء دور الخطباء لكي يحيوا المرشح ودور المرشح لكى يتكلم الى ناخبيه ·

ونادانى ابى وطلب الى ان القى كلمة تحية لضيفنا الكريم ، وكانت مفاجأة لم اكن اتوقعها ولكنها ايضا تقليد من تقاليد الريف ، فلابد ان يحيى الضيف احد أهل البيت ، ولست اذكر ما قلته حينئذ ، ولكننى اقتصرت على التحية والتكريم لشخص الاستاذ كامل البندارى دون ان اتجاوز ذلك الى حديث عن السياسة والخصومة السياسية القائمة حينئذ · ولم اكن اعرف انه فى هذه اللحظة التى القيت فيها هذه الكلمة قد تحدد مستقبلى ، لقد فعلت امتثالا لارادة أبى وتحية لضيف هو جار لنا ، نحبه ونعزه · لم يكن فى خاطرى شىء آخر · وصافحنى الاستاذ كامل البندارى وعرف اننى طالب حقوق ، فصافحنى مرة اخرى بحرارة وقال : لابد ان تزورني متى عدت الى القاهرة · وانقضت زيارة الاستاذ كامل البندارى للقرية على النحو المرسوم ، وعلى النحو المعتاد فى كل الزيارات الانتخابية :

الطبال أجهد نفسه ، ونافخ المزمار أجهد نفسه ، وأولاد القرية أجهدوا انفسهم في التصفيق ٠٠ انتهت الخصومة السياسية في لمحة ، وتخلت الزيارة عن طابعها السياسي ، واتخذت طابعا آخر ٠٠ الطبال يريد اجره والزمار يريد اجره ، والمصفقون يريدون اجرهم ٠٠ والهتافون يريدون اجرهم ٠٠

كان فى دائرة « القنايات » مرشحان آخران غير الاستاذ كامل البندارى ، هما الاستاذ على الشمسى (باشا) مرشح الوفد والاستاذ امين على منصور (بك) مرشح حزب الاتحاد (وكان حينئذ وكيلا لدائرة الامير سيف الدين) وسافرت الى القاهرة لاتمام دراستى ، ولكننى تابعت انباء المعركة ، وكانت تأتينى أولا باول ٠ ان الريف هادىء بطبعه ، ومعركة كمعركة الانتخابات تثير فيه زوبعة ضخمة ٠ كان كل واحد يأتى الى القاهرة يروى لى شيئا من حوادثها وطرائفها ٠ وكانت الموجة المؤيدة لسعد زغلول طاغية الى اقصى حد ٠ وفى قريتنا اسرة من مشايخ الطرق هم اسرة الشوادفى ، افتى عميدها بأن من ينتخب غير سعد زغلول يكون كافرا وتكون امرأته طالقا ، واقسم آخرون انهم رأوا اسم سعد زغلول منسوجا على ورق البرسيم ٠ ولم يكن ممكنا فى مثل هذا الجو أن يرتفع صوت ضد سعد زغلول ، ما لم يكن مؤيدا من سلطان الحكومة والادارة ٠ وقد بذل المرحوم اسماعيل صدقى كل ما اوتى من مكر وحيلة وقدرة لكى يقاوم هذا المد الطاغى ٠ وقف العمد ونقل الموظفين وفصلهم ، وارهبهم واشاع فى البلاد جوا من الخوف والقلق ومع ذلك فلم ينجح فى تحويل فرد واحد عن مذهبه ، ولكن هذا موضوع آخر ، فلأعد الى دائرة القنايات ٠

كان الاستاذ امين على منصور كثير الولائم للمندوبين الثلاثينيين ٠

كانت الانتخابات تجرى حينئذ على درجتين فيختار كل ثلاثين ناخبا مندوبا عنهم ٠ وهؤلاء المندوبون هم الذين يختارون عضو مجلس النواب٠ فكان يدعوهم من وقت الى آخر ، حيث يعد لهم الموائد ويقدم الأطعمة الفاخرة وهم يلبون الدعوة مرحبين ٠

كان عدد من يحضرون هذه المآدب يتراوح أحيانا بين الستمائة والألف وأحيانا أكثر ، وكان الفلاحون يعرفون المدعوين فى ذهابهم ويرقبونهم وهم مارون بهم فى الحقول راكبين حميرا او خيلا ، فيهتفون : «ليسقط حزب البلوظة» وكان هتافا عجيبا يلخص فلسفتهم ، وسياستهم، انهم يرون فى هؤلاء الأعيان طبقة أخرى تستمتع دونهم بالطعام الجيد ، وتذهب مع الهوى أينما ذهب ٠ قال احد الفلاحين ، وهو يرفع رأسه عن

فأسه ويرى موكبا من هؤلاء الاعيان الذاهبين للوليمة : صحيح ياعم الشيخ ياسين انت عدلى ؟ (كان انصـار سـعد زغلول يسـمون « السعديين » وخصومهم يسمون « العدليين » نسبة الى المرحوم عدلى يكن باشا) كان السؤال فيه تحد وتقريع ، وكان الشيخ ياسين فارع الطول حاد الطبع فاجابه بلهجة قاطعة حازمة : « ايوه عدلى يا ابن الـ ٠٠ »

وبلع الفلاح الشتمة ، وارتد الى فأسه يدق بها الارض ، ويجتر مع دقاتها أساه ٠٠ انه لا يستطيع ان يرد ٠ وســأل فلاح آخر احد افراد الموكب : صحيح انتم بعتم البلد ياعم الشيخ عبده ؟ ٠ وكان الشيخ عبده رحمه الله رجلا رقيق المزاج سريع النكتة حاضر البديهة ، فرد ضاحكا : انا بعت نصيبى يابنى بس ؟ ٠٠

وعرفت وأنا فى القاهرة ان الاستاذ امين على منصور زار قريتنــا وزار بيتنا ٠ وكانت معركة جديدة اعنف من سابقتها ٠ ان فى الريف قدرة عجيبة على المقاومة ، على الرغم مما هو عليه من جهل وفقر ، وما يسوده من تقاليد هى نتاج البيئة ، منها توقير الصغير للكبير وادراك معنى الاسرات والجوار وحق الاسرات والجوار ، ثم هذا الخوف التقليدى الذى لاتستطيع ان تسميه خوفا وتكون دقيقا فى تسميتك ، فقد يكون أيضــا نوعا من الهيبة التى تزرعها فى نفوسهم ظروف الحياة فى الريف ٠

اعلن ان المرحوم الاستاذ امين على منصور مرشح الاتحاديين سيزور قريتنا « فرسيس » وسيزور بيتنا ضمن ما يزور من بيوت ٠ ووقعــت الاسرة فى مشكلة مماثلة ، لابد ان تتم الزيارة على خير ما يكون ٠ والاستاذ منصور مرشح حزب الاتحاد ، وله صفة أخرى هى أنه وثيق الصــلة بالقصر وهو وكيل دائرة سيف الدين ، والحكومة القــائمة حينئذ وان كانت شركة بين الاتحاديين والاحرار الدستوريين ، الا انها كانت وزارة القصر فى طابعها الغالب ، فهو شخصية اخطر بالنسبة للادارة والبوليس والسلطات الحاكمة من الاستاذ كامل البندارى ، وهو بالنسبة للشعب ابعد واكثر اثارة للعداء من الاستاذ كامل البندارى ٠

كانت المشكلة بالنسبة لاسرتنا وللقرية كلها ، ادق واخطر ، والمهمة أكثر تعقيدا وأقرب الى أن تكون أكثر مضاعفات٠ ووصلت سيارات مرشح القصر ، فاذا جموع من الفلاحين من قرى أخرى تتلقاها ، وبيد كل منهم عصا او فأس ٠٠ لم تكن المسألة اذن مجرد هتافات عدائية ولكنهــا فى ظاهرها تبدو كأنها نية مبيتة على الاعتداء ٠ ولم يكن مع الاستاذ امين على منصور احد من رجال الادارة والبوليس ، لا لانهم لم يكونوا على استعداد

لمرافقته ولكن لانه من الدائرة وله اسرة كبيرة فيها ، ولاسرته اصدقاء وأصهار وأقارب فى أكثر من قرية فيها • ولعله أراد أن تكون زياراته حبية بعيدة عن هذا المظهر الكريه ، مظهر السلطة الحاكمة تسند مرشحا مفروض أنه يتقدم الى ناخبيه ، يريد أن يحصل على ثقتهم طواعية واختيارا •

ودخل الركب القرية وسط عاصفة من الهتافات والوعيد الى ان دخل افراده بيتنا • وعندئذ خرج والدى رحمه الله ، يقول لهم : من منكم يريد ان يدخل البيت فليتفضل ، وحينئذ ستكون معركة تسيل فيها الدماء • وتحمس اهل قريتنا وتحفزوا لرد الاعتداء عن ضيف نزل بديارهم • اختفت النزعات السياسية وطغت على السطح النزعات القبلية والريفية •

ولم يتقدم الغرباء عن القرية ، ارتدوا بعصيهم وفئوسهم ، وتمت الزيارة فى جو من التوتر عجيب •• وزار المرشح بقية الاسرات ، وادى الطبل والمزمار دورهما ، وادى المنافقون دورهم ، وادى الصبية والفتيان والاطفال دورهم فهتفوا وصفقوا وسار المرشح فى الزفة المعتادة •• شيخ الخفر يهتف « فليحى المنصور أمين على منصور » واحد الهتافة ممن ينتظر الأجرة آخر الليل يقول « الكرسى لمين » فيرد عليه الصبيان والفتيان والخفراء وشيخ الخفراء وجمهرة المنافقين « للمنصور امين على منصور » •

هكذا كان الجو وهكذا كانت المعركة فى دائرة القنايات بمديرية الشرقية ، ولم تكن الا صورة من المعركة فى بقية الدوائر • وامسكت الوزارة بأنفاسها وامسكت الاحزاب انفاسها وامسك الوفد انفاسه وامسك القصر انفاسه ونتائج الانتخابات تذاع •

وكنت حينئذ فى القاهرة أتابع دراستى ، وكان أهم ما يعنينى أولا أن أعرف نتيجة دائرة القنايات ، وقد فاز فيها الاستاذ على الشمسى (باشا) مرشح الوفد فوزا ساحقا حاسما • هل كنت اظن وانا اقرأ نتيجة الانتخابات فى دائرة القنايات ، اننى بعد ذلك بعشرين سنة سأكون مرشحا فيها ، والقى من التجربة مالقيه من سبقونى ؟ •• هل كنت اظن اننى وانا المتفرج على معركة الانتخابات ، ساكون فارسا من فرسانها ؟ •• ولكن لهذا حديثا آخر ، فلندعه الى ان يجىء وقته •

اما نتيجة الانتخابات العامة فقد انتهت بفوز الوفد باغلبية ١١٦ مقعدا مقابل ٨٧ مقعدا نالتها الاحزاب غير الوفدية والمستقلون • ووقعت وزارة زيور كما وقع القصر فى ورطة كبيرة ، انقذه منها مرسوم ملكى

صدر بحل مجلس النواب بعد تسع ساعات من إنعقاده ٠٠ وتولى وزير الداخلية اسماعيل صدقى ابلاغ الامر فور صدوره الى المديريات والمراكز والقرى مع تعليمات مشددة بالاعتقال والضرب لكل من يحاول الخروج على القانون ٠

الخروج على القانون ٠٠ ما اكثر ما ظلم القانون وما اكثر ما يظلم ٠

ماذا كان صدى هذه الأحداث فى نفسى سواء وأنا فى القاهرة أو وانا بين أهلى فى قريتى الصغيرة ، التى لم يكن يعرفها أحد ؟ كنت مشغولا بدراستى ولكننى كنت أيضا دائم الاهتمام بقراءة الصحف ٠٠ ماذا كان مذهبى السياسى حينئذ ؟ هل كنت متحمسا للوفد أو كنت من أنصار الاحرار الدستوريين ؟ الجواب على هذا ليس واضحا فى ذهنى تماما ، وانى لأحاول أن أتذكر فلا أستطيع الا أن أذكر بضع محاورات كانت تدور بينى وبين طالب زميلى ٠ كان يقول ان صدقى باشا له حق فى اجراءاته ، وكان لا بد من حل مجلس النواب حتى لا يحكمنا الرعاع ٠٠ فكنت أرد عليه : ولكن هذا هو رأى الشعب اذا كان يريد أن تحكمه الرعاع ، فليكن له ما يريد ٠٠ وكانت المناقشات تطول على هذا النحو ، هل كنت وفديا ؟ كلا ، ولكننى فى الواقع كنت مؤمنا بالحق ، بفكرة الحق ٠٠٠ كانت صورته تنبض وتومض فى قلبى وفؤادى ، وكنت مؤمنا أيضا بشىء آخر ظل معى طوال المراحل التى مرت بى ، كنت مؤمنا بالشعب ، بحقه فى ان يعبر عن ارادته على نحو ما يريد وبالوسيلة التى يريد ٠٠ لماذا اذن خطبت للاستاذ كامل البندارى ؟ خطبت بدوافع أخرى ، هى دوافع قبلية أكثر منها دوافع سياسية ٠٠ هى تراث من تقاليد الريف الذى نشأت فيه ٠ لم يكن ممكنا ان نقفل بيتنا فى وجه جار من جيراننا ، وفرد من اسرة نرتبط بها بأكثر من سبب ٠٠ وهى الدوافع نفسها التى حملت اسرتى وحملت اهل قريتى على استقبال كل المرشحين ، واكرامهم والترحيب بهم ٠٠

وكنت من وقت الى آخر ارسل مقالات للجرائد المعروفة حينئذ ، للسياسة والمقطم ، والاخبار والبلاغ ٠٠ ولم ارسل للاهرام اية مقالة ، لماذا ؟ ربما لاننى كنت أجد الصحف الاخرى تنشر مقالات من الخارج ، ولم اكن ارى الاهرام تفعل هذا ، ربما كان هذا هو السبب ، وربما كانت هناك اسباب أخرى ٠

وكان زملائى يقرأون مقالاتى ويجعلونها احيانا موضوعا للتعليق

المرح ، واعتاد احدهم ·· اين هو الآن ·· لا أدرى ·· اعتاد هذا الصديق الزميل كلما لقيني ان ينادينى ضاحكا : ازيك يامازنى ··

ولا بد أن أذكر شيئاً آخر ·

كنت ارسل مقالات ايضا لجريدة الصباح ، فكانت تنشرها ،وتصبح هى الاخرى مادة للتعليق المرح او الجاد ·· واذكر اننى ارسلت الىجريدة المقطم مقالا فى مناسبة ذكرى الهدنة فى ١١ نوفمبر سنة ١٩٢٥ نشرته فى الصفحة الاولى ·

لماذا كنت ارسل مقالات الى الصحف ، لست ادرى ؟ ربما كانت تعبيرا خفيا عنِ رغبة من رغبات عقلى الباطن ، ربما كانت اشارة من القدر حددت مصيرى دون ان اعرف · ربما كانت تعبيرا عن آراء اضطرم بهــا فؤادى ولم تجد وسيلة للتعبير غير ان تكتب ؟ ربما ··· وربما ··· ان فى النفس الانسانية خبايا وزوايا لاندركها ولا نفهمها ·· انها تتصرف فى مصيرنا بالطريقة التى تحب ان تتصرف فيها بمصيرنا ··

وما أشد الغبطة التى كنت اشعر بها حينما ارى مقالى منشورا فى جريدة من الجرائد ·· وكنت فى كثير من الاحيان انتظر اياما حتى يتولانى اليأس من النشر ، ثم تنشر السطور التى ارسلتها ، وتحتها اسمى ···· يالسحرها حينئذ ، وكنت انظر الى الناس وهم منثورون فى المقــاهى والشوارع والحوانيت ، وارقب ما بيـــدهم من صحف ·· هل يقرأون الصحيفة التى فيها مقالى ·· هل يقرأون مقالى ؟

يالاحلام الشباب حينئذ ، ليتها تعود ·· كنت فتى فى الســابعة عشرة من عمرى ، يغمرنى ما يغمر الفتيان فى هذه السن من المنى والاحلام، هل كنت احلم ؟ كنت راضيا عن نفسى مغتبطا مبتهجا ·· وكانت خيبــة الامل ترافقنى احيانا ، اذ ابعث بمقالات لاتنشر ، فلا اسخط ولا اضيق ، ولا ايأس ، ولكننى اعود الى المحاولة من جديد · وكان فى حياء وخجل شديدان · لم اجرؤ مرة على الذهاب الى جريدة من الجرائد ·· كنت ارسل مقالاتى بالبريد ، وانتظر وارقب وافتح الجريدة فى الصــباح او فى المساء ، وانا ادعو ربى ان يكون مقالى منشورا فيها ·· كان يســتجيب احيانا ، وكان يخذلنى احيانا · كنت اقرأ حينئذ مقــالات الدكتور طه حســين والدكتور هيكل وهما يصــفان اوربا : جمالها ووديانها وآثارها وازهارها واروح فى الوصف وانسى الدنيا حولى ·· كان الكتاب بالنسبة لى حينئذ آلهة ·· كانت مقالات محمود عزمى بفواصلها الكثيرة وفقراتها

المتعددة ٠٠ ووضوحها احيانا وغموضها اكثر الاحيان تتعبنى ولكننى كنت اقرأها دائما ٠٠ وكانت جريدة «السياسة» تنشر كل يوم مقالين ٠ احدهما فى صدر الجريدة والآخر فى صدر الصفحة الرابعة وعنوانه « حديث اليوم » ٠٠ كنت المح فى المقال الافتتاحى جفافا فى العرض ، والمح فى « حديث اليوم » رقة وحرارة وفنا رفيعا للكتابة الجذابة الجميلة ٠

وكانت مقالات عبد القادر حمزة فى البلاغ اشبه بالعصا المعقوفة الطرف لاتتجاوز العمود الا بما يكفى لثنى يد العصا ، كنت احبها لوضوحها وايجازها وتصويبها الى الهدف المقصود تماما ٠٠ كانت البلاغ جريدة المساء الحزبية ، جريدة الوفد المناضلة ، جريدة سعد زغلول الزعيم ٠٠ وانى لاذكر مساء يوم ، والباعة ينادون على جريدة البلاغ ان لمح فى خاطرى شيء يشبه الامنية ان تكون لى جريدة ينادى الباعة عليها ٠ ولكن هذا الخاطر اللامح ، كان اشبه بومضة البرق ، لم يستمر الا ريثما ومض ٠٠ هل كان هذا ايضا ايحاء بالمستقبل الذى اختاره القدر لى ؟

وكان هناك شيء آخر ٠ كنت اقرأ الاهرام فى الصباح ثم استبدل به جريدة « السياسة » ٠ او اشترى « السياسة » ابتداء ٠٠ كانت الجريدة فتحا فى عالم الصحافة حينئذ ، لها روح وفيها تفكير جديد ، كنت ارتاح لقراءتها وأشعر فيها بنبض من الفكر والوعى ، وكانت « السياسة الاسبوعية » جريدة مفضلة عندى ٠٠ كان يكتب فيها طه حسين وهيكل وتوفيق دياب ومحمود عزمى ومصطفى عبد الرازق وكنت أحس فيها لمحة من فكر مضيء وادراك يفتح الآفاق ٠٠ كنت ألتهمها ٠

وكنت آخذ جريدة السياسة معى وانا ذاهب الى كلية الحقوق ، واخفيها عن اخوانى بين الكتب ٠ وقد حدث ان ضبطها احدهم معى ، فقال دهشا : هو انت حر دستورى ٠٠ اضبط !

من كان يدرى اننى بعد وقت قصير ساصبح سكرتيرا لتحرير السياسة والسياسة الاسبوعية ٠ لو قال لى احد حينئذ هذا لسخرت منه ٠٠ كنت اعد نفسى لاكون محاميا فلم تكن النيابة أو القضاء يستهوينى ٠٠ كان منظر الروب فى المحاكم يفعمنى سرورا وغبطة وفخرا ٠٠ وكنت استعجل اليوم الذى افرغ فيه من دراستى لكى ارتدى هذا الروب ، واقف موقف المحامى الذى يهز المحاكم بمنطقه وقوة لسانه وبيانه ٠ كانت امامى مهنة الكفاح والمجد والشهرة ٠ كانت اسطورة فى خيالى ٠

اشارة من المدير باستدعائي

« وانقضت سهرتنا وأمضيت ليلى افكر فى الدعوة واقدر لها كل شىء الا الشىء الذى وقع فعلا ٠

لم تنته معركة الانتخابات بحل مجلس النواب فى ٢٣ مارس سنة ١٩٢٥ ، ففى الوقت الذى استصدرت فيه وزارة زيور باشا مرسوما ملكيا بحل المجلس ، قررت اجراء انتخابات جديدة فى ٢٣ مايو من السنة نفسها ، فاستمرت صلة المرشحين بدوائرهم وكان أنشطهم مرشحى الدستوريين والاتحاديين ، فالحكومة منهم ، وهى احنى عليهم وأكثر تأييدا لهم ، بل كانوا وحدهم الذين يسمح لهم بالمرور فى دوائرهم ٠

وبقيت تبعا لذلك صلة الاستاذين أمين على منصور (بك) بدائرة القنايات ، وبقريتنا الصغيرة « فرسيس » والاستاذ أمين على منصور من هذا الطراز الذى نجح فى المدينة ولم يفقد صلته بالريف ، لا من حيث التردد عليه فحسب ، ولكن من حيث الخلق والطباع والاتجاهات ٠ كنت تجد فيه سماحة أهل الريف ، وترحيبهم الحار ٠ يعرف الاسرات القديمة ، ويقدر متاعب الناس ، ويبذل جهده للتخفيف منها ٠ وقد قلت من قبل انه كان وكيلا لدائرة سيف الدين ٠ وانقلبت الدائرة الى شبه «مضيفه» لأهل دائرة القنايات لم يكن يرد صاحب حاجة ٠ وكان له من جاهه وماله ما يسمح له بذلك ٠ وأهل الريف كغيرهم ماهرون فى الانتفاع بالفرص ، وكانت لهم طلبات عجيبة ، واحد منهم ـ وهو من أقربائى ـ رهنت أرضه واستغرقتها الديون جاءنى راجيا أن أزور معه الاستاذ أمين على منصور كى أطلب اليه تسديد الدين والحلول محل البنك العقارى ٠ وكان المبلغ المطلوب كبيرا ، وصاحب الارض غير قادر حتما على السداد ٠

ولما ناقشته فى الامر قال : أمال احنا بنساعده فى الانتخابات ليه :

وقد أتيح لى أن أزور الرجل فى مكتبه بالدائرة ومعى بعض أهل الريف • ودخلنا فاذا غرفة واسعة أنيقة فاخرة ، فغمزنى أحد رفاقى وهمس فى أذنى : سبحان العاطى شوف ابن أبو طهباج (اسم أسرة امين منصور) ولم أفهم شيئا سوى اننى أدركت ان النجاح كما يثير البهر فى النفوس يثير فيها الغيظ أيضا •

كان يتحدث فى التليفون حينما دخلنا ، ونهض لتحيتنا باشا ، فى وجهه لمعان رقيق وروح تجعلك تأنس اليه ، رجل ليس عنده مايخفيه • ظلت فيه براءة الريف وسذاجته ، سمعته يحدث صاحبه فى التليفون ويقول : « أنا امبارح ماسبتش المكتب طول النهار ، تغذيت لقمة عيش وحتة جبنه وبصله •

كلام غريب فى المدينة الصاخبة اللاعبة ، وكلام غريب أيضا بالنسبة لوكيل دائرة تعد حينئذ من أسخى الدوائر وأعظمها أهمية ، ومن رجل معروفة صلته بالقصر ، والقصر حينئذ كل شىء • ولكنه لم يكن غريبا على آذان أهل الريف •• أحسست ان الرجل لا يزال يحن الى قريته وأهله ، وان كل ما بلغه فى دنيا المدينة لم يمس أعماقه العميقة •

ولم تنقطع صلة الاستاذ كامل البندارى (باشا) مرشح الاحرار الدستوريين هو الآخر بالدائرة نفسها (القنايات) وبالقرية نفسها (فرسيس) كنت أزوره فى القاهرة ، وكان يحسن استقبالى والترحيب بى ، ولكنه كان شخصية أخرى غير الاستاذ أمين على منصور ، كلاهما نبع من الريف ، ولكن الاستاذ البندارى كان أوربيا فى مظهره ولباسه وتصرفاته وطريقة حديثه • كان يتكلم الفرنسية بطلاقة ، ويبدو محاميا ناجحا غاية ما يبلغ النجاح بصاحبه • كان مكتبه فى شارع قصر النيل رقم ٣٥ ، (وقد شغل المكتب نفسه فيما بعد الاستاذ حمادة الناحل والاستاذ سعد الدين عطية)

وكنت حينما أزوره يذهب خيالى ، فأتمنى أن يكون لى فى المستقبل مكتب كهذا ، أناقة ووقارا وفخامة ، ثم يتولانى احساس ان هذا محام ضخم الفهم والعمل والتفكير • ترك كامل البندارى القرية تماما ، فلم تترك فيه أثارة من خلق أو تصور •• لم يكن يعرف شيئا عن الاسر فى الدائرة ، ولا عن أشخاصها •• ولولا ظروف الانتخابات ، ماكنت أحسبه يفكر يوما فى زيارتها أو التعرف عليها ، كنت أحس وأنا فى زيارته بجو مختلف تماما عن الجو الذى أحسه وأنا فى زيارة الاستاذ أمين على منصور •

وربما كان هذا هو السـبب فى ان وفود الريفيين كانت تؤثر بالزيارة للاستاذ أمين على منصور ٠

ليس من المحتم أن تترك القرية طابعها على أبنائها الذين نشأوا فيها، منهم من يخلع رداءها تماما ، وكأنها كانت فى حياته عارضا لا أصالة فيه ، ومنهم من يظل حنينه اليها يربطه بها ، وكأن الارض التى نشأ فيها هى التى سقته كل ماكسبه من فضائل وكل مابلغ من نجاح ٠

وذات يوم فى صيف سنة ٢٥ وردت الى عمدة قريتنا (فرسيس) اشارة مستعجلة من المديرية تفيد ان سعادة المدير يستدعينى لمقابلته فى الصباح الباكر ، وتنادت القرية بالنبأ العظيم ٠ كل واحد يسأل نفسه ويسأل الآخرين : ترى ماذا وراء هذه الدعوة ٠٠ لابد ان فيها خيرا عظيما٠ وهز الماكرون من أهل القرية رؤوسهم وقالوا فى تمتمة ظاهرة أو غير ظاهرة : ما هو صحيح !٠ خطب للاستاذ كامل البندارى ، لازم حيعينوه فى وظيفة كبيرة ٠٠ لكن ده تلميذ ٠٠ الحكومة تقدر تعمل كل حاجة ! ولمحت على وجه أبى سرورا عميقا ، وكذلك لمحت مثل هذا السرور على وجوه أعمامى ، وذهب كل منهم يضرب فى خيال بعيد ، ٠٠ وأنا ٠٠ ماذا كان شعورى ، لا أنكر ان شيئا من الزهو تولانى ٠٠ مهما يكن من أمر هذه الدعوة ، فان فيها شيئا واضحا ، هو اننى أصبحت شخصية يستدعيها المدير ٠٠ وانت لا تستطيع أن تعرف ماذا يعنى المدير لأهل الريف فى هذا الوقت الا اذا كنت فعلا من أهل الريف ٠ ان مجرد زيارة معاون البوليس كانت ترج القرية رجا ٠٠ أما وكيل النيابة فكان الناس ينظرون اليه كأنه آله ٠٠ لك أن تتصور هذا وأكثر منه اذا عرفت ان العسكرى اذا زار القرية ، كان الناس يعظمونه تعظيما ٠٠٠ وها هو ذا المدير ، مدير المديرية كلها يستدعينى ! يا للهول كما يقول الاستاذ يوسف وهبى !٠

وقضينا سهرتنا على شاطىء الترعة الرقيق ، وأشجار الحديقة الصغيرة الجميلة ممدودة أمامنا ، يداعبها النسيم ، والقمر الساحر يتسلل ضوؤه بين الاغصان ، كأنه طيف المنى ورجع الصدى ٠٠ قال عم «الشيخ على» وهو صديق قديم لاسرتنا وقريب لها أيضا : ابق افتكرنا٠٠ أنا والله حلمت لك حلم كويس ٠٠ انت حتكون فى مركز كبير خالص ٠ وقال الشيخ عبد الدايم ، وهو صديق آخر للاسرة : نفسى ما أموتش قبل ما اشوفك مستشار ٠

وبدت الغبطة على وجه أبى وهو يسمع هذا كله ٠٠ كانت فى الرجل

فراسة عميقة ورضا بالقدر أمين ساكن ٠٠ لم يكن يرى ان هذه الدعوة تستحق كل هذا الضجيج ٠ ولكنه لم يتكلم ، آثر أن يسمع ويغتبط ٠٠ انني ابنه الاكبر ، وأمله كله يكاد يكون معلقا بى ٠ ولم تكن أسرتنا حينئذ فى حالة مالية حسنة تدعو الى الاطمئنان ، وكذلك لم تكن فى حالة مالية سيئة تدعو الى الانزعاج ٠٠ ولعله بينه وبين نفسه كان يستعجل الوقت الذى أفرغ فيه من دراستى ، لكى أحمل معه أو عنه بعض العبء ٠ وكنت أنا شديد الحساسية من هذه الناحية ، ولعلنى كنت أكثر منه استعجالا لهذا الوقت ٠ لم أكن أكلفه ما لا يطيق ٠ كنت أحس مدى الجهد الذى يبذله لكى لا يجعلنى أشعر بشىء من المتاعب التى تواجهه ٠٠ ولكن كيف لى ألا أشعر بها ، وأنا خافق الفؤاد لكل ما يخفق به فؤاده من همس ، عميق الاحساس حتى لدبيب المنى والشكوك ٠

وانقضت سهرتنا ، وقضيت ليلتى أفكر فى هذه الدعوة ، وأقدر لها كل شىء الا الشىء الذى حصل فعلا ٠ لم أكن مبالغا ولا متفائلا أكثر مما يجب ٠ كان فى طبعى ألا أعوم مع الامانى المطلقة ٠ اميل الى تقدير الاسوأ ، حتى اذا جاء الخير كان مفاجأة جميلة ، فاذا جاء الشر لم يكن كارثة مزعجة ٠٠٠ ثم انا ٠٠٠ من أكون ٠٠ طالب حقوق فى قرية مجهولة ليس لى امتياز ظاهر ، خجول أشد مايكون الخجل أقرب الى أن أكون منطويا على نفسى ، من أن أكون انسانا منطلقا مع الحياة ٠

وأصبح الصباح ، وركبت القطار ومعى عمى الى الزقازيق ٠ وقابلت المدير وتلقيت النبأ العظيم ، قال وكأنه يأمرنى : معالى توفيق دوس باشا وزير الزراعة حيزور الزقازيق النهاردة ، وعاملين له حفلة تكريم فى النادى الرياضى ٠ عاوزك تلقى كلمة فى الاحتفال ٠

لم أنزعج ولم أتضايق ٠٠ ولكننى شعرت بخليط عجيب من الزهو والضآلة ٠ أما الزهو فلأن اختيارى للخطابة فى حضرة وزير خطير كتوفيق دوس يدل على ان الآخرين يرون فى انسانا يستطيع أن يخطب بطلاقة فى حفل كبير كهذا الحفل ٠٠ وقدرت فى نفسى ان أحد رجال الادارة ممن كانوا يرافقون الاستاذ كامل البندارى عند زيارته لقريتنا وبيتنا لابد انه اشترك مع المدير وغيره من رجال البوليس والادارة فى ترتيب الحفل التكريمى للوزير الكبير ، ولا بد انهم حينما عرضوا لبند الخطابة والخطباء قال لهم : والله أنا شفت ولد كويس أوى خطب للاستاذ البندارى فى «فرسيس» اسمه ايه مش عارف ٠٠ ولابد ان آخر ساعده فى تذكر الاسم ومن ثم أمر المدير عامله بأن يرسل الاشارة التليفونية التى أثارت فضول

ألفى شخص هم سكان قريتنا الصغيرة ، وجعلتنا نبنى الآمال ، ونحن فى سهرتنا الصغيرة المتواضعة على حافة ترعة لم تكن تعرف شيئا عن الاحداث الخطيرة الجارية حولها • أو لعلهــا تعرف ؟ من يدرى •• أحسست فى هذه الليلة كأن لمياهها نغما لم أعهده •

أما الضآلة ، فلأننى أصبحت بهذا الوضع انسانا يؤمر أن يخطب فيخطب ، ويؤمر أن يمدح فيمــدح • ويظهر ان هذا الخــاطر أزعجنى ، فأضعف الى حد كبير الزهو الذى أثاره الحادث •

مرة أخرى اســـتولى على الخــاطر القروى أو القبلى • لقد ارتقيت درجة • خطبت فى قرية صغيرة ، وهأنذا الآن أدعى الى الخطابة فى مدينة كبــيرة • كان المستمعون فى المرة الاولى خليطا من القرويين المســاكين ، سواء منهم الاعيــان أو المزارعون فهموا أو لم يفهمــوا ماقلته •• وراقتنى الفكرة فقضت على احساسى بالمهانة ، وأنا أساق كشىء لا ارادة له ، لكى أمدح وزيرا لا أعرفه •• ولكن لا بأس ، لابد ان أبى سيفرح لان ابنه على الأقل سيخطب أمام وزير ، وسيتصل بوزير ، ولا بد أن أسرتى ستفرح هى الاخرى ، ولا بد ان أنصــارنا فى القرية سيفرحــون •• ولا بد ان خصومنا سينالهم كمد شديد •• أنصار وخصوم ، شد ما أكره هذا فى قرية صغيرة أو كبيرة أو فى العالم كله ، ولكن هكذا كان الريف ، ولكن لهذا حديثا آخر ، أرجو أن يجىء فى وقته المناسب •

المساء يزحف رويدا رويدا •• الزقازيق فى حركة مائجة، العساكر ورجال الادارة والبوليس يملأونها بسياراتهم • المدير يسأل ربه الستر ، فتمر الزيارة على خير ما يريد مدير أو موظف فى هذا العهــد •• ان أى هتاف عدائى للوزير أو أى ضعف فى الهتاف وقلة فى عدد المصفقين معناها ان المــدير غير كفء وانه غير قادر على تثبيت هيبــة الحكومة يعنى كبت خصومها وادخالهم الجحور •• كانت الشهادة العظمى لأى مدير فى هذا العهد انه مسح الوفديين فى مديريته مسحا ، ومعنى المسح هنا ليس انه حولهم الى أنصار للوزارة ، ولكن معناه انه جعلهم غير قادرين على الحركة •

والشرقية معقل الاباظية ، وهم من أنصار الحكومة القائمة، ونفوذهم لا شك فيه •• كانوا مساعدين لا يستهان بهم لرجال الادارة • ثم ان فى الشرقية تفاتيش كثيرة للأمراء وأعضاء البيت المالك حينئذ • والتفاتيش فى هذه المناسبة الحكومية تعنى عددا من الناس ، مئات أو ألوفا ، يحشدون للهتاف والتصفيق•• ومع ذلك فان مهمة المدير كانت شاقة جدا ، فالناس يكرهون الحكومة ويضيقون بها ، ويشعرون انها تلى مناصبها قهرا عنهم.

ووزير الداخلية اسماعيل صدقي كان اسما يثير الرعب فى القلوب ، ولذلك كان الكره ، فى أكثر الاحيان ، لا يتحول الى عمل ايجابى ، كان سخطا مكتوما ٠٠ ولكن من يستطيع أن يضمن ألا يتحول السخط المكتوم الى عمل مكشوف ٠٠ واتخذت المديرية احتياطات شديدة ٠٠ وجاء موعد الاحتفال ٠

وأقبل توفيق دوس باشا يحف به الكثيرون ممن لم أعرفهم حينئذ، ولا بد انه كان منهم بعض ذوى المقام الحزبى أو الحكومى فى ذلك العهد٠ عرفت منهم فقط ابراهيم دسوقى أباظة (باشا) كان بارزا بقامته المديدة ووجهه المبتسم وروحه التى تفيض حيوية وحركة ٠٠ كان دوس باشا دستوريا وكان أباظة باشا دستوريا ، وكانت الحكومة مؤلفة من الدستوريين والاتحاديين ، وكانت المنافسة بينهم ، سواء فى الحكم أو فى استرضاء الناس قائمة ، مرة وعميقة ، ولكن ضخامة المعارضة الوفدية واجماع الناس تقريبا على الميل اليها جعل الائتلاف بينهم ضرورة لا بد منها ، وعلى الاقل الى حين ٠

ورميت بنظرى فى السرادق المنصوب ، فألفيت بعض المقاعد خالية، وبعض الصفوف ليست متكاملة ، ولمحت على الوجوه ما يشبه الوجوم ، الا بضعة أفراد نشطين يذهبون هنا وهناك ، ويجمعون الناس من هنا وهناك ٠ كان الاصطناع ظاهرا والضيف ذكيا لا تخفى عليه خافية ، ولكن كان لا بد له أن يزور الشرقية ، وأن يخطب ويدعو الناس الى مذهبه ومذهب حزبه ومذهب الاتحاديين فى الحكم ٠ ولم يكن مذهبا آخر غير مذهب القصر ، والهتاف باسم الملك والتمجيد له ، ثم لا شىء آخر ٠

وتوفيق دوس خطيب قدير ، ورجل فيه وقار وأصالة وفى عبارته متانة وجزالة ٠ وألقى خطبة تعد فى موازين الخطب ناجحة رائعة ، ولكنها فى ميزان الشعور الشعبى حينذاك لم تحرك الا تصفيقا فاترا ، وهتافا أشد منه فتورا ٠ كان أكثر المتحمسين للتصفيق رجال الادارة والموظفون من مرافقيه ، ومن حشدهم البوليس من الهتافة ، لقاء أجر معلوم ٠

وألقيت كلمتى وأنا أرتجف ٠ كان الخوف والقلق يشملاننى ٠٠ لماذا ؟ ربما ٠٠ من الموقف ؟ ربما ٠٠ شعورا بالمهانة وقد ساقونى كما ساقوا هؤلاء الحاضرين مع فرق واحد هو انهم حضروا وصفقوا أو تهربوا من التصفيق ، بينما حضرت أنا وخطبت ، ربما ٠٠ كان بعض أهلى وأبناء قريتى حاضرين ، لا تحية للوزير الدستورى ولا اعتناقا لمبدئه أو مبدأ الحكومة التى ينتمى اليها ، ولكن لكى يشهدوا ابنهم وهو يخطب أمام

وزير ·· كان أخطر ما يضايقنى أن يخيب أملهم فى هذا الذى تعلق به الامل · كان الموقف حرجا ومثيرا ·· ابن القرية المنطوى على نفسه اذا أقام فى القاهرة أو أقام فى الريف ، الذى يخجل من المجتمعات والجموع ويؤثر العزلة على صحبة الناس ·· ترى ماذا سيصنع ؟

وأدهشنى أن أبدى اعجابه بكلمتى توفيق دوس (باشا) ودسوقى أباظة (باشا) وكان الحكمدار أشـدهم تحية لى واعجـابا ·· ألم أقل من قبل انه لا بد أن يكون هو الذى دلهم على ·· ولعله وقد ألقيت كلمتى أراد أن يثبت لهم حسن اختياره ·· لاح لى ان اعجابه مدخول فيه متهم ، ومع ذلك كنت مغتبطا شديد الاغتبـاط وأهلى وأبنـاء قريتى يروننى موضع حفاوة من الوزير والمدير والحكمدار ·

استنفدت الخطبة أغراضها ، وعدت الى قريتى وأنا أشـعر اننى ازددت أهمية ، وتولانى الغرور لحظة ، لا أنكر ، ولكننى حينما خلوت الى نفسى أحسست بضـآلتى تزداد · لم أكن الا آلة للمـدير والحكمدار ، استخدمانى لكى يزدادا حظوة عند الوزير والحكومة ، ثم لا شىء غير هذا·· لماذا قبلت ؟ بل لماذا أغتبط ؟·· وفعلت ما كان يفعله « سانكوبانزا » وهو يحارب طواحين الهـواء وتخيلت نفسى والمدير يطلب منى أن أخطب ، وكأننى أقول له : ولـكننى لا أعرف الوزير ، ثم اننى لست مجرما حتى أستدعى عن طريق الادارة ·· كلا ، اننى أعتذر بل أرفض ··· وهكذا أخذت أرضى كرامتى التى أحسست أنها جرحت بامثال هذه التخيلات ·

لست أدرى ماذا كان اثر هذا الحادث فى نفسى ؟ أتراني نسيته ، أم تراه انحدر فى أعماقى فكون جزءا لا يتجزأ من شخصيتى فيما بعد ، وهو اننى رفضت أبدا أن أكون مادحا لأحد أو تابعا لأحد أو متطفلا على أحد ·· أردت دائما أن أكون أنا ، بضعفى وقوتى ، بخطىء وصوابى ، بغوايتى ورشادى ·

ووقع فى هذا الصيف حادث خطير غير موازين السياسة الحزبية ، بل السياسة المصرية كلها بعض الشىء ·

ألف الاستاذ على عبد الرازق (باشا) كتابا عن « الاسلام وأصول الحكم » أثبت فيه ان الخلافة ليست أصلا من أصول الاسلام · وغضب الملك فؤاد الذى كان يصبو فى هذا الوقت أن يكون خليفة للمسلمين بعد الغاء الخلافة فى الآستانة · وسرعان ما اجتمعت هيئة كبار العلماء وقررت فى شهر أغسطس من هذه السنة (١٩٢٥) اخراجه من هذه الهيئة ، وكان

الاستاذ على عبد الرازق قاضيا فى محكمة المنصورة الشرعية ، وأراد الملك فؤاد امعانا فى الانتقام من الرجل أن يكون الحكم مؤديا بطبيعته الى عزله من وظيفته . وحولت هيئة كبار العلماء قرارها الى وزير الحقانية حينئذ المرحوم عبد العزيز فهمى (باشا) فأحال القرار بدوره الى قسم القضايا لكى يبحث عما اذا كان قرار العلماء يقتضى حتما فصل الاستاذ على عبد الرازق من وظيفته أو لا . وغضب الملك من هذا التصرف ، فأوعز الى يحيى باشا ابراهيم رئيس الوزارة بالنيابة حينئذ (كان زيور باشا رئيس الوزارة فى أوروبا) بأن يطلب الى عبد العزيز باشا أن يستقيل ، ولكنه رفض . فصدر أمر ملكى بتكليف على ماهر باشا وزير المعارف بتولى وزارة الحقانية .

وأحدثت اقالة عبد العزيز باشا ضجة فى أوساط الاحرار الدستوريين وفى أوساط الوفديين وفى أوساط الشعب عامة ، وبلغتنا أنباؤها فى الريف ، فكان لها مثل هذه الضجة . ولم يقف الأمر عند اقالة عبد العزيز فهمى ، فقد أصدر حزب الاحرار الدستوريين قرارا طالب فيه وزراءه فى الحكومة بالاستقالة . وكان هذا القرار تقليدا دستوريا سليما ، كما كان عملا أثبت فيما بعد انه كان حاسم الأثر فى وقف حكم السراى عند حد ، وفى التمهيد لعودة الحياة الدستورية .

واستقال وزراء الأحرار من الحكومة : محمد على علوبة باشا وتوفيق دوس باشا ، واسماعيل صدقى باشا . وأصيبت الحكومة بضربة قاصمة، وازدادت ضعفا ، وانكشفت القوى الحقيقية التى تحكم البلاد بوجهها الصريح .. وأخذ التقارب بين الوفدين والأحرار الدستوريين يبدو شيئا فشيئا ، فقد توجهت سهام النقد من المعسكرين للحكومة ولوسائلها .. وأعلن ان حزب الاحرار الدستوريين سيعقد اجتماعا كبيرا فى داره يوم ٣٠ اكتوبر .

كانت هذه التطورات مثيرة .. وكنت قد عدت الى القاهرة لبداية العام الدراسى ، وذهبت الى الاستاذ كامل البندارى كى أحصل على تذاكر لحضور خطبة عبد العزيز فهمى باشا .. وآصطحبنى الى مبنى حزب الاحرار الدستوريين فى شارع المبتديان وكان أيضا مقر جريدتى « السياسة » « والسياسة الاسبوعية » .. تولتنى الهيبة وأنا أدخل هذا المبنى ، وتولتنى الهيبة وأنا أتناول التذاكر ، كان الجو حولى فيه من الجد والصرامة أكثر مما فيه من الهدوء والانطلاق .. كنت أشعر من الحركة

حولى أن أحداثا خطيرة توشك أن تقع · وكان السرادق الكبير ، حيث ستلقى الخطبة قائما فى فضاء ملاصق لمبنى الحزب والجريدة ·

وكنت أقرأ «السياسة» و «السياسة الأسـبوعية» منذ أمد طويل ، ولكننى لم أدخل ادارة الجريدتين الا اليـــوم ·· وتصورت اننى سألقى هيكل وطه حسين وعزمى وتوفيق دياب ومصطفى عبد الرازق ·· تخيلت اننى سألقى كل من أقرأ لهم وأحس اننى عرفتهم وعشت معهم وأعجبت بهم ·· أتراني لو لقيتهم أشـعر اننى لقيت غرباء عنى ؟ كلا ·· ولكننى لم ألق أحدا منهم ، لا بد أن يكونوا موجودين فى غرفهم ومكاتبهم على قيد خطوات منى ·· لكم تمنيت أن أسأل الاستاذ البندارى لو أتاح لى هذه الفرصة ، ولكننى كففت نفسى عن هذا الخاطر ، وقلت بينى وبينها ، ومن تكون ؟ طالب صغير من الريف ·· شأنك هنا شأن الآلاف والملايين الذين لا يجوز لهم أن يرتفعوا عن واقعهم الصغير الى الواقع الكبير ·· ولم أكن أعرف اننى بعد فترة قصيرة سأدخل هذه الغرف كلها ، وستكون لى غرفة منها ، وسأعمل مع هيكل وعزمى وأرى طه حسين وتوفيق دياب ومصطفى عبد الرازق وعلى عبد الرازق ، وعشرات آخرين ممن كانت مصر كلها تدوى بأسمائهم ·

وجاء يوم ٣٠ اكتوبر · وفى المساء كنت أجلس على أحد المقاعد فى السرادق الضخم الكبير · كان مجتمعا من طراز آخر ، غير مجتمع القرية الصغيرة وغير سرادق الحكومة لتوفيق دوس باشا فى الزقازيق · كان بالنسبة لى شيئا عظيما جليلا ، هائلا ، بعث الرهبة فى نفسى ، كما بعث فيها الزهو ·· لقد أصبحت شيئا ، أستمع لخطبة عبد العزيز فهمى التى رجت مصر كلها رجا ·· كأنما كنت أنا صانع الخطبة وصانع الرجة ·· بالأحلام الصبا ، وبالغرور النفس التى لا تستطيع الأعظم ، فتحلم ــ فى الأصغر ــ كأنها صانعة الاعظم ·

خطب الدكتور هيكل ، وعرفت لأول وهلة انه ضعيف البصر · كان يضع نظارة على عينيه وكان يتلو خطبته من ورقة يدنيها من نظارته ومن عينيه · كنت سعيدا وأنا أرى الرجل الذى أقرأ له يخطب أمامى ، وكأنه يخطب لى ·

ووقف عبد العزيز فهمى ·· رجـل ضئيل الحجم ، ممـلوء حيوية وقلقـا وحركة · نظارته على عينيه لا تسـتقر · جبينه العريض ينضح بالذكاء والعزم ·· واشتعلت وأنا أسـمع له · بدأ خطبته هادئا يروى الوقائع ، كيف دخل الوزارة ــ وزارة زيور ــ وهو كريم على نفسه وعلى

الناس ، وكيف خرج قبل أن تذهب البقية الباقية من كرامته ·· وتكلم عن تعطيل الدستور والحكم الفاسد غير المستند اليه ، وتكلم عن ارادة الامة وكرامة الامة ، ثم صرخ ، والرجل صوته ضعيف ، وجسمه ضئيل ضئيل ، حتى لقد تصورت ان الصرخة أكبر منه جسما وجرما ، ولكنها لم تكن من جسمه ، كانت من قلبه ·· صرخ ، والسرادق كله محبوس الأنفاس : « موظف كبير فى السراى » ··

واسترد الناس أنفاسهم وتولاهم بهر عجيب من التحمس والتطلع·· لقد نطق الرجل بما كان كل مصرى يريد أن ينطق به حينئذ ولايستطيع·· وعرف الكل انه يقصد حسن نشأت باشا · وظنوا أول الامر ان الرجل لم يؤت الشجاعة كلها لكى ينطق بالاسم ، ولكنهم بعد لحظات ، سمعوه يصرخ أو يستصرخ وفى قلبه شبه حسرة وشبه تصميم وشبه دعاء : « حنانيك يانشأت ·· حنانيك يانشأت » هل يصفق الناس للرجل الشجاع ، أم يبكون للأمة التى يلعب بمصيرها وحقوقها أشخاص غير مسئولين ·· هل يصفقون لان رجلا منهم علق الجرس فى رقبة القط ، أم يحزنون لان أمة كبيرة عريقة لم تستطع أن تنفذ ارادتها وتقول مشيئتها، فخضعت لارادة غير ارادتها ومشيئة غير مشيئتها ·· وانتظرت سنة وبضعة أشهر لكى يقف رجل ، رجل واحد قوى يصرخ وكأن فى صوته ١٤ مليونا هم أهل مصر « حنانيك يانشأت ! » ·

كانت خطبة عبد العزيز فهمى باشا قنبلة زلزلت مقاعد الحكم من تحت الوزراء ·· أما أنا فتابعت دراستى ، أذهب كل صباح وأعود كل مساء لكى أراجع دروس القانون المدنى وقانون العقوبات والمرافعات ·· وآوى اذا جاء الليل ، الى غرفتى الصغيرة فى حى سيدنا الحسين ، ضئيلة النور ، ضئيلة الأثاث ، محبوسة الهواء والأنفاس ·· ولكننى كنت سعيدا بدراستى ، راضيا ، صابرا ، مؤمنا ·

وكان عمى وهو طالب فى الازهر يقيم معى ويرعانى ويوفر لى كل أسباب الراحة · وكنت لهذا كثير الذهاب الى الازهر ، كثير الاختلاط ببعض طلبته ، أنصت لهم وأسمع منهم وكنت فى بعض الاحيان أؤثر أن أصحب كتبى معى ، وأجلس فى فناء الازهر أقرأ قانون المرافعات أو العقوبات وثريات الكهرباء مرصوصة ذات اليمين وذات اليسار ، وآلاف الطلاب الازهريين متجمعون يطنون كخلية النحل ، يقرأون تفسير الزمخشرى وعلم الاصول وعلم التوحيد المسمى الكلام ، والحاشية والمتن ·· كلهم جالسون على الحصر · منهم من تتعبه الجلسة الجافة على الحصر ،

فيضع تحته فروة أو مخدة أو يتكىء على ذراعه ٠٠ كان مجتمعا غريبا ، عجيبا ، جميلا أيضا ٠ كان الاصطدام بينى وبينهم كثيرا ما يحدث كلما تناقشنا فى شيء ٠٠ قال واحد منهم ذات يوم : لماذا لا أكون مهندسا ٠٠ قلت له : تسألنى أنا ٠٠ هل أنا الذى أستطيع أن أجعلك مهندسا ٠٠ انت تدرس الدين ٠

قال : أعنى لماذا لا تكون فى الازهر دراسات كدراسات الجامعة فى القانون والآداب والهندسة ٠٠ كان هذا الطالب سابقا لعصره ٠٠ وكان هناك أيضا طلبة فى الازهر متخلفون حتى عن الازهر ٠٠ كان منهم من يبلغ من العمر الخمسين والستين ، ومنهم من جاوز هذه السن ٠٠ وكنت أعجب لواحد منهم لا يكاد يترك مقعده طول النهار ٠٠ فاذا جاء الليل نام فى نفس المكان ٠

وكان الشيخ الصاوى ـ وهذا اسمه ـ كثير العطف على ، كان اذا رآنى سأل عما معى من كتب ، وأخذها منى يقلب فيها ويقول وهو يردها لى : ربنا يفتح عليك ٠٠ انت بتصلى والا لأ ٠٠ أصل أولاد آلمدارس دول ماعنــدهمش دين ٠٠ ويرد عمى مؤكدا له اننى مختلف عنهم ٠٠ واننى لا أكاد أدع فرضا دون أن أؤديه ٠

ماذا كان اثر صلتى بالازهر فى مراحل حياتى الاولى وفيما تلا ذلك من مراحل ؟ لا أستطيع أن أقول ٠ ربمــا كانت هذه الصــلة هى التى جعلتنى فيما بعد أقرب الى أن أكون متحررا فى كل الافكار ، وفى الوقت نفسه حريصا على ألا نفقد صلتنا بتاريخنا وتقاليدنا ٠٠ ربما كانت هى التى بثت فى قلبى شيئا من الطمأنينة كلما تراكمت الهموم ورق ما بينى وبين الله ، ربما كانت هى التى عصمتنى من أن أنبهر بما رأيته فيما بعد وكان جديرا أن يبهر أى انسان ، ويحوله عن رأيه وعقيدته ٠٠ ربما كانت هى التى جعلتنى من أكثر الناس تسامحا فيما يتعلق بالاديان ومن أكثر الناس دعوة الى الاخاء والمحبة ٠

وهــذا غريب ، فان جــو الازهر كان حينئذ جو تعصــب وتزمت شديدين ، ولــكن الانفعــالات المضادة كثيرا ما تأتى نتيجة الاسراف فى القيود ٠

كنت أسمع فى الازهر حينئذ السخط على زكى مبـارك (المرحوم الدكتور زكى مبارك) ٠٠ كانوا يقولون عنه انه يتعلم اللغة الفرنسية ٠٠ انه كافر زنديق ٠

وكانوا يسخطون أيضا على الدكتور طه حسين ويقولون : انظر انه رجل مارق ٠٠ احذر أن تكون مثله ٠٠ ان التعليم الاجنبى يفسدكم ٠

وكنت أطمئنهم الى اننى لن أكون مارقا مثل الدكتور زكى مبارك أو الدكتور طه حسين ، ماذا حدث بعد ذلك ؟ هل وفيت بوعدى لهم ؟

زملائي في كلية الحقوق

« الاسماء التي لمعت في تاريخ مصر السياسي خرجت كلها او معظمها من كلية الحقوق »

كان من زملائي في كلية الحقوق حامد زكي وزكي عبد المتعال ووحيد رأفت وعبد المنعم بدر وأحمد سويلم العمرى « هم فيما بعد الدكتور حامد زكي (باشا) الاستاذ بكلية الحقوق ووزير الاقتصاد ووزير المالية بالنيابة والدكتور زكي عبد المتعال (باشا) الاستاذ بكلية الحقوق ووزير المالية والدكتور وحيد رأفت (بك) الاستاذ بكلية الحقوق القاضي بالمحاكم المختلطة ومستشار الرأي لوزارة الخارجية والدكتور عبد المنعم بدر (بك) عميد كلية الحقوق والدكتور أحمد سويلم العمرى عميد معهد العلوم السياسية » .

وكانت كلية الحقوق حينئذ الكلية الممتازة بين سائر الكليات ... تحولت من مدرسة الحقوق الى أولى كليات الجامعة الجديدة ، كانت كلية الامتياز في مستوى الطلبة والمراكز الخطيرة التي تنتظر طلابها ... وكانت أيضا ، سواء وهي مدرسة أو بعد ان تحولت الى كلية ، مثابة الوطنية الخالصة والقيادة المشتعلة لحركات التحرير ... كانت المدارس والمعاهد وبقية كليات الجامعة تنتظر الكلمة من كلية الحقوق .. وكان الجميع ينظرون الى طلابها نظرة فيها الاحترام والتقدير ... واني لاذكر وأنا طالب في المدارس الثانوية ، وقد جلست مع احد اقربائي على قهوة السنترال التي كانت في مواجهة الاوبرا (كازينو الاوبرا الآن) ان قال قريبي : أنظر الى هؤلاء الجالسين الى جوارنا على قهوة الجندي انهم طلاب في مدرسة الحقوق ... واذكر انني نظرت وتولتني الهيبة والاحترام ، ولم ينصرف نظري عن هذه الجماعة التي طار خيالي معها

فى كل مجال ... طلاب فى مدرسة الحقوق ، منهم القضاة والمستشارون والوزراء ورجال السياسة وزعماء الوطنية ..

اجل ، فقد كانت مصر حينئذ وقبل ذلك بعشرات السنين ، وظلت بعد ذلك بعشرات السنين محكومة فى الصدر والقياده برجال الحقوق . كنت تعد فى الوزارة عشرة وزراء كلهم متخرج فى الحقوق . وكنت تعد فى المديرين عشرين مثلا ، أكثرهم متخرج فى الحقوق . وكنت ترى الزعماء فى الاقتصاد والسياسة والوطنية ، فترى اكثرهم من رجال الحقوق ، ... كانت كلية الحقوق حينئذ الكلية التى يهوى اليها فؤاد كل طالب ، ويحسب أنه بلغ الغاية اذا دخلها ، وكانت تشترط مجموعا كبيرا ويجرى الاختيار بين طلبتها بعد ذلك . وكانت أيضا مثوى الارستقراطية فى الاسرات ... هذا قريب وزير ، وذاك قريب وكيل وزارة ، وهذا من أسرة تستولى على مئات أو آلاف الافدنة ... كانت مصر حينئذ فى فترة المطالبة بحقها والثورة من اجل الاستقلال ... كانت فى حاجة الى خطباء وزعماء قادرين على اثارة الجماهير والسيطرة عليها ، ومن أقدر على ذلك من رجال الحقوق ؟ ... كانت فى حاجة الى من يؤيد مطالبها بالحجج والاسانيد القانونية ومن اقدر على ذلك من رجال الحقوق ؟ ... كانت فى حاجة الى التنظيم والتشريع وهى تبنى نفسها وتدعم كيانها .. ومن أقدر على ذلك من رجال الحقوق ؟ .. ونظرة على زعماء مصر وقادتها ووزرائها وخطبائها وكتابها وصحفييها حينئذ تثبت هذه الظاهرة بوضوح كبير ، سعد زغلول ومكرم عبيد وويصا واصف ومرقس حنا ومصطفى النحاس ونجيب الغرابلى وعبد الرحمن الرافعى وامين الرافعى وعبد العزيز فهمى واسماعيل صدقى وحسن نشأت ويحيى ابراهيم وتوفيق دوس دسوقى اباظة وفكرى اباظة وهيكل وعزمى وعزيز ميرهم ووهيب دوس وعبد القادر حمزة وغيرهم عشرات ومئات فى شتى الميادين هم من رجال الحقوق .

وعندى انها كانت ظاهرة لابد منها ، ولم تنفرد بها مصر ، فقد شوهدت فى كل الدول فى مثل المراحل التى مرت بها بلادنا ... كان قادة الاستقلال الامريكى وواضعو الدستور الامريكى كلهم من رجال القانون .. وكان قادة الثورة الفرنسية من المحامين ورجال القانون ... وكان الامر كذلك فى انجلترا فى مراحلها الاولى لدعم حياتها الدستورية واعلاء ارادة الشعب حينما اعلنت « الماجناكارتا » أو العهد الاعظم ، فاذا تجاوزت الدولة مرحلة الحصول على الاستقلال أو استكمال الشكل

الدستورى لبنائها ، تراجع رجال القانون والحقوق من صفوف القيادة ، وحل محلهم المهندسون والعلماء ورجال التجارة والاقتصاد والمال .

لا أريد أن أستطرد ، فلأعد الى كلية الحقوق فى مستهل عام ١٩٢٦. كانت الكلية فى مبنى انيق على شاطىء النيل فى شارع الرماح المقابل لمبنى مديرية الجيزة ... كان النيل الجميل يطالعنا كلما دخلنا فصولنا، وكلما خرجنا منها ، بل كان يشرف علينا بنبله واصالته ونحن نستمع الى شرح الدكتور عبد السلام ذهنى للالتزامات أو الرهن العقارى والحيازى ... كان موقعها جديرا بالكلية العتيدة ، وارثة المدرسة العتيدة ، التى لخص تاريخها فى آواخرالقرن الماضى وفى أوائل هذا القرن تاريخ الكفاح الوطنى ، تاريخ الاستقلال والدستور .

يا لأيامها الحلوة العذبة ، .. كانت أيام المنى والأحلام ، أيام المسئوليات المطوية والشباب الطرى يجرى فى الخاطر كأنه همس الماضى والحاضر والمستقبل .

كان وحيد رأفت الطالب يلفت نظرنا نحن أبناء الريف، بأناقته ... قال احد زملائى ، وهو ريفى مثلى من قرية شرويدة المجاورة للزقازيق اسمه سعيد صابر ، وقد أصبح فيما بعد مستشارا فى محكمة الاستئناف : .. انظر .. ويشير الى وحيد رأفت .. ألم يظلمنا أهلنا اذ أدخلونا هذه الكلية .. انظر الى وجهه الناصع البياض .. انظر الى مشيته الارستقرطية ... تأمل حقيبة كتبه .. وقد حسبته أول الأمر من أولاد الذوات الذين لا يطيقون الجلد على المذاكرة ، ولكننى كنت مخطئا اشد الخطأ ، فقد كان وحيد من أوائل الدفعة ، وكانت عادتى أن اقضى اجازات الصيف فى الريف ، اقرأ واؤلف القصص .. ويظهر ان تأليف القصص هواية ، لابد منها فى مثل هذه السن الباكرة ... ألفت رواية اسميتها « وحيد وسوسن » وكانت كما هو ظاهر من اسمها رواية حب وغرام بين اثنين ، انتهت كما لابد ان يدرك القارىء بمأساة . لما عدت الى القاهرة فى أول العام الدراسى ، الح على خاطر شديد عنيف أن أطبعها .. كان هواى أن أرى اسمى على كتاب ..

ولكن من اين لى نفقات الطبع ، ودرت بها على المطابع لعلى أجد من يطبعها فكان بعض أصحابها ينظرون الى من فوق الى تحت ثم يبدون أسفهم دون أن يتناولوا منى الاصول المعروضة عليهم .. هذا هو الفريق المؤدب منهم ، أما الفريق غير المؤدب ، فكان لا يكلف نفسه حتى

مشقة الرد علي ، فاشعر بخجل شديد وانكسار أشد ، واخرج اضرب في شوارع القاهرة ، حتى اذا رأيت عنوان مطبعة فى حارة صغيرة ، تشجعت ودخلت ٠٠ كنت أخاف دخول المطابع الكبيرة ، لست أدرى لماذا ؟ ربما لانني قدرت نفسي قدرها ٠٠٠ فلابد ان يكون للمطابع الكبيرة مؤلفون أهم مني ... حسبى مطبعة فى حارة .. نعمة كبيرة من الله لو قبلت ان تطبعها .. ولكن احدا لم يقبل .. بل ان احدا لم يطلب ان يقرأها ..

وكنت ارجع من هذه الجولات المتكررة وأنا أشد ما أكون الما واسفا ٠ وأشد ما أكون شعورا بالضآلة ، ولكنني لم أكف عن المحاولة ، حتى اذا تبين انمحاولاتي ضائعة حتما ، اتجه خاطرى الى ادخار ثمن الطبع من مصروفي ٠ ولجأت الى مطبعة صغيرةفى حى سيدنا الحسين ، واتفقت معها على طبع الرواية نظير مبلغ صغير ، لا اذكر الآن كم كان ، ولكن أؤكد أنه لم يتجاوز أربعة جنيهات أو خمسة ٠٠ وفرحت فقد كان ما ادخرته يقرب من هذا المبلغ الا قليلا ٠٠ وتم طبع الرواية وواجهتنى مشكلة التوزيع ٠٠ لم أكن أقصد الكسب ، كنت أقصد ان أرى اسمى على كتاب ٠ وقد تحقق أملي ٠٠ ولكن اين القراء ؟ ان الانسان تتدرج آمانيه خطوة خطوة ، فاذا حصل على امنية ، بدت له امنية اخرى ، حتى يظل ابدا متعلقا بالحصول على شيء ، دائم السعى له ... اعطيت بعض المكتبات نسخا من الرواية لبيعها لحسابى ٠ وصباح اليوم التالى لظهور الرواية ، ذهبت الى كلية الحقوق ومعى نسخ منها ٠٠ ورآها زملائى معى ، وعجبت حينما اخذ كل منهم نسخة ودفع ثمنها ، وكان بسيطا جدا ، قرشين ٠ وطلب آخرون ان آتيهم بنسخ اخرى فى اليوم التالى ٠٠

كان وحيد رأفت بين من اشتروا نسخة من الرواية ، ولم اتنبه الى المصادفة بين اسمه وبين اسم البطل الا فى هذه اللحظة بالذات .. ترى لماذا اخترت هذا الاسم ؟ ٠٠ من المؤكد اننى لم اختره مشابهة لاسم وحيد رأفت ، ولكن كل طالب لاحظ هذا ٠٠ بينما كنت أنا مشفقا خائفا ، ارقب فى نفسى اثر ما سيقرأونه .. هل ما كتبته شيء يقرأ ؟ لم أكن اتصور اننى سأطبعه وان زملائى سيقرأونه .. وأنا من الناس الذين لا يبالغون فى قيمة أنفسهم ، وحتى الآن قلما اكتب شيئا واشعر بالرضا عنه ٠٠ احس دائما انه أقل مما يجب ٠٠ أشعر شعورا خفيا انه لابد ان يكون كلاما فارغا ٠ ولك ان تتصور كم انكمشت فى نفسى

وأنا أرى زملائى كل منهم يقلب فى الرواية ويقرأ سطرا من هنا وسطرا من هناك .. تمنيت لو ابتلعتنى الارض ، واسفت لاننى اقدمت على هذه المغامرة ، قد يكون منهم من يحسن الظن بى ، وقد يسوء حينما يقرأ السخف الذى كتبته ... قد يكون منهم من يظن انى طالب مجد ، فاذا بهم يروننى أنفق وقتا ضائعا فى تأليف رواية تافهة .. وحمدت الله ان أحدا لم يسخر منى .

وحمدت الله أكثر ان ما أحضرته فى اليوم التالى من نسخ نفد فى لحظات .. سوق جميلة للبيع ، كلية الحقوق هذه .. ولكن هل كانت سوقا للبيع او كانوا زملاء ارادوا ان يجاملونى أو يشجعونى ، أو ارادوا ان يعرفوا ماذا كتبت وماذا صنعت بالبطل وحيد ، ووحيد رأفت زميلهم فى خاطرهم وأمام أعينهم ..

أما حامد زكى فكان مديد القامة وسيما ، دائم الابتسام هنا وهناك .. كان سمته وأسلوبه وطريقته فى الحديث والمشى والكلام تنفى عنه انه ارستقراطى ، وان ظننت أنا وبعض اصحابى ممن يرجعون بمنابتهم الاولى الى الريف ، انه لابد ان يكون تركيا أو شركسيا ، فوجهه الناصع البياض بالنسبة لنا ، كان ينبىء بذلك .. ولعله لا يذكر الآن هذه الواقعة ، فقد ركبت الترام من الجيزة الى القاهرة عائدا من الكلية ، وكان هو جالسا على بضع خطوات منى ، ثم قام بينى وبين الكمسارى خلاف حول الاجرة ، وماذا كنت قد ركبت من الكلية أو من محطة الكوبرى الاعمى (كوبرى الجلاء) فاذا حامد زكى ينطلق وهو بعيد عنى ، مدافعا عن وجهة نظرى . وكانت فى الواقع صحيحة ، ولكنى لم ألمح ان حامدا شاهدنى وأنا أركب .. هل فعل هذا لأنه شاهدنى فعلا ، أم فعله لأننى زميله ولأن وجهة نظرى لابد ان تكون صحيحة ؟ .. مهما يكن من أمر فقد حييته شاكرا ، وظلت هذه الواقعة الصغيرة ثابتة فى ذهنى حتى اليوم كأنها وقعت فى الأمس القريب .. وما من مرة رأيت فيها حامد زكى الا قفزت الى ذهنى ، وكأننى أرى صديق اليوم وزميل الامس طالبا مبتسما ضاحكا ، كثير المرح والابتسام ، وهو يرد الكمسارى عنى ويقف الى جانبى .. ما أعجب الحياة .. ان فيها لمحات قليلة صغيرة تبدو كالبرق الخاطف ، ولكنها تظل فى النفس دبيبا رقيقا ، يطفو على السطح من وقت الى آخر ، وكأنه يقول : ان الحياة كل متصل .. انت اليوم تلميذ الأمس لاتستطيع ان تنسى ماضيك .. كنت احسب حامد زكى فى ظاهره ، كما حسبت وحيد رأفت ، طالبا لايعنى بالدرس

والتحصيل بقدر ما يعنى بأن يضحك ويمرح ، ولكنني كنت مخطئا أيضا .. كان حامد زكي أول الدفعة كلها .. هل كان ذكيا ذكاء خارقا أو كان مجدا جدا خارقا ؟ هل كان يبدو وهو في الكلية لاهيا لاعبا حتى يرد عنه العين ، فاذا أوى الى بيته سهر حتى لم تبق فى جفنه حفنة من نوم ؟ ..

ومحمد عبد المنعم بدر الطـالب ، كانت فى وجهه طيبة عجيبة ، وفى عينيه اشراق مبتسم يدعو الى الحب والصفاء . كان هو الآخر مديد القامة جميل الوجه فيه نبع خفى ، يجعلك تأنس اليه . لم يكن يتكلم كثيرا ، ولكنك مع ذلك تشعر انك تحب ان تتحدث اليه . كان فيه هذا الشعاع العجيب الذى لا يوهبه الا الاقلون ، فاذا الناس كلهم له أصدقاء ، وان لم يكونوا ، واذا الدنيا كلها تحبه ، وان بدا هو قليل الاحتفال بها . ماذا أقول .. ان الدمع ينحبس فى عينى وأنا أكتب هذه المذكرات . فقد ذهب عبدالمنعم بدر فى بعثة وحصل على الدكتوراه، وقضى حياته استاذا فى كلية الحقوق ثم عميدا لها . كان أقرب الاساتذة الى قلوب الطلبة واحبهم اليهم .. وما أحسب الا أن قليلين من الاساتذة يستطيعون ان يجمعوا ما جمعه عبد المنعم بدر من صفات اكسبته مركزا ممتازا فى بيئته بين زملائه وطلبته ، وبين من عرفوه أو اتصلوا به .. ثم ذهب الى لقاء ربه اصفى ما يكون قلبا ، وانقى ما يكون رجولة ، واسعد ما يكون نفسا ..

وزكي عبد المتعال ..كان دائم التجهم ، يبدو جادا أكثر مما تحتمل سنه ، لا اذكر اننى رأيته مرة ضاحكا لاهيا ، كما يضحك التلاميذ والطلاب ويلهون .. كان واضحا أنه مثلنا من الريف أو من الصعيد ، فقد كان أسمر الوجه ، لا تبدو فيه ارسـتقراطية وحيـد رأفت ولا عبد المنعم بدر ، وليست له وسامة حامد زكي ولا مرحه .. ترى هل كانت الاقدار تعده لما اختارته له فيما بعد ، استاذا فى الاقتصاد ووزيرا للمالية ؟ ربما .. ان الاقتصاد بطبعه متجهم ، والمال يتطلب الجد ويكره اللهو .. هل كان القدر يخط بيده مستقبل كل منا ، ونحن نخطو فى كلية الحقوق الخطوة الاخيرة التى تدفع بنا الى معترك الحياة ؟

يالمجد هذه الكلية بطلبتها واساتذتها وتاريخها العجيب المديد .. نحن الآن فى السنة النهائية ، لم يبق على تخرجنا الا أسابيع ، ولـكن ما أعظم ما أحببت هذه الكلية وما اعمق ما تركت فى نفسى من أثر .. - رأيت فيها حسن يس وهو يقف على السور الخارجي والطلبة مجتمعون

حزنه ، يستمعون له وهو يقرأ كتاب سعد زغلول الذى ارسله الى عبد الخالق ثروت ردا على طلب ثروت الاحتكام الى الامراء لفض ما بين الرجلين من خلاف .. سمعته وهو يقرأ بلثغته المعروفة وصوته العاصف قول سعد زغلول لعبد الخالق ثروت : « أمامك المنابر فاعلها ان وجدت سميعا ، أمامك الصحف فأكتب فيها ان وجدت قارئا .. اما الاحتكام الى الامراء فشرف لا يناله الا الاكفاء » ورأيت وسمعت طلبة الحقوق تستطيرهم الحماسة ، فاذا أكفهم يدميها التصفيق .. رأيت الحماسة للزعيم كيف تصبح كأنها رعد عاصف وقوة لا تقف فى وجهها قوة ..

وذات يوم فى ديسمبر سنة ١٩٢٢ ونحن عائدون الى بيوتنا . بعد ان انتهت — دروسنا ، سمعنا طلقات الرصاص تدوى عند الكوبرى الأعمى .. اطلق مجهولون الرصاص على مستر روبرتسون الاستاذ بمدرسة (كلية) الحقوق .. كم كان الرعب والخوف والقلق حينئذ .. وكم كان مجد الشعب المتحفز اليقظ الساخط .. الذى يتململ فى قيوده ، فلا يستطيع ان يحطمها ،فيبدو لسخطه صرير عجيب يصم الآذان .. كأن جيلا من العمالقة ، ارتفعوا الى مستوى الحوادث وجاوزوه .

كلية الحقوق ، ما أكثر امجادها وما أكثر آلامها .. عاشت فى وسط المعمعة ، بينأكوام الضحايا ، وفى قمة النصر والزهو .. ما أكثر ما يجور الزمان ؟ . انه ليجور على الاشياء كما يجور على الاشخاص .. انهيدور ويطحن ، ويعز ويذل ويرفع ويخفض .. رجعت كلية الحقوقعن مكان الصدارة ، فأصبحت الآن تجد من يقول بأغلاقها ، وتجد من يقول وكأنه جاد : لم نصبح فى حاجة الى رجال الحقوق ، اننا فى حاجة الى المهندسين والعلماء والاطباء ورجال المال والاقتصاد .. لم يشفع لها تاريخها المجيد ، والنور الباهر الذىاشعته فى أرض هذا الوادى ، ولا هذا الرعيل العجيب الامين الضخم الذى اهدت منه طاقة بعد طاقة ، لهذا الوطن العزيز فجعلوه على ما هو اليوم .. لم يشفع لها المجد الماضى ، لكى يرد عنها حملة المتحاملين . كان الطالب فيما مضى اذا سئل يرد وهو مزهو أنا فى كلية الحقوق .. فأصبح يخفض رأسه اسفا وهو يقول بصوت متلعثم : ما لقيتش غيرها .

يالهوان العزيزة التى بلغت فى السماء أعلى المراتب ، تصبح اليوم كأنها تهمة ، كل واحد يتبرأ منها .

– حتروح كلية الحقوق ٠٠ لا ياشيخ ٠٠ بتوع الحقوق مش لاقيين ياكلم ٠

دورة من الزمن عجيبة ! ولكن هـكذا الزمن ، لا يثبت على حال ، وكما يرفع الافراد ويخفضهم ، يرفع الكليات والمعاهد والمبانى والمعالم ٠٠ بل يرفع الجمادات التى لا تحس ويخفضها ٠

اساتذة الحقوق فى هذاالعهد .. ما من فريق من اساتذة الكليات كانت له القيادة فى الوطن كما كان لاساتذة الحقوق ٠٠ كان فريقـــا مهيبا محترما بين الاساتذة والمعلمين ٠

كان الدكتور عبد السلام ذهنى رحمه الله ، اذا دخل الفصــل سبقته كوكبة من السعاة يحملون اكداسا من الكتب والمجلدات .. وأول مرة رأيت فيها هذه الظاهرة ، سقط قلبى بين ضــلوعى فقد ظننت ان كل هذه الكتب والمجلدات يجب ان نقرأها ، والا فلماذا سبقت الاستاذ المحاضر ؟ ثم يجىء الاستاذ ، الدكتور ذهنى ، يدق أرض الفصل كأنه حصان يبدأ السباق ، فى وجهه بسمة ضائعة بين صرامة ، أو صرامة مشرقة وسط بسمة . عينان كعينى الصقر ، وصوت كهدير الرعد .. رجل ، أستاذ بطبعه ، ومحام بطبعه .. كان يدرس لنا القانون المدنى والى جانبنا فصل آخر يدرس له الدكتور صادق فهمى .. هل يذكر طلاب هذا العهد ، ما كان يحدث من منافسة رقيقة جميلة ، مرحـــة ضاحكة بين الاستاذين الكبيرين ٠٠ كان صوت صادق فهمى أكثر جلجلة من صوت عبد الســــلام ذهنى ٠٠ وكان الرجل يبذل غاية جهده لكى يغطى على صوت زميله ، ثم يشعر انه خسر الســـــباق ، فينظر الينا صارما أو كأنه صارم وهو يقول : دول فاطرين لحمة والا ايه ؟

ويضج الفصل بالضحك .. ولكن عبد السلام ذهنى لا يضحك .. حتى لا يفـوته السباق أكثر مما فاته بل ينتهز فترة الضحــك لكى يستعيد لصوته بعض القوة ، لعله يستطيع الصمود فى وجه منافسه العنيد . ولا يكاد الدكتور ذهنى يفتح كتابا واحدا من الكتب العديدة التى تملأ المنضدة أمامه ، ولكنه يشير اليها بأصبعه فقط ، كأنه يظن اننا لن نصدقه الا اذا كانت الكتب برسمها وكسمها مرصوصة امامنا ٠٠ ثم خفة دمه ، وهو مكشر متجهم ولكن كل انسان يشــعر ان هــذه التكشيرة وهذا التجهم ، ليسا الا ستارا يخفى روحا مرحة وقلبا طيبا، وانسانا مناضلا ارتفع من محام فى أقصى الريف الى أستاذ فى كلية

الحقوق .. رجل علم نفسه بنفسه ، حصل على الحقوق فى البيت والعمل ·· واشتغل بالمحاماة وسافر الى فرنسا ·· وكان يزعجنا ، وفى الوقت نفسه يضحكنا ، وهو يتحدث عن فترة التحضير للدكتوراة الاولى والثانية ·· وحمدنا الله ان معه اجازتين للدكتوراه لا أكثر ، فاذا به فى محاضرة تالية يتحدث عن فترة التحضير للدكتوراة الثالثة ·· ويشهد على وجوهنا ما يشبه الابتسام أو ما يشبه الشك فيقول صارخا : أيوه يا أولاد ثلاثة دكتورات وينفجر الفصل ضاحكا ·· ويبتسم هو فى زهو رقيق أنيس ، ثم يعود الى تجهمه ويتابع درسه عن الحوالة والمحيل والمحال له والمحال عليه ، لعنة الله عليهم جميعا ، فلم اكن اسيغ المدنى كله ، وخاصة هذا الموضوع الجاف الثقيل ..

وكان هناك الشيخ زيد الابيانى ، وهو رجل اختلط اسمه باسم كلية الحقوق حينئذ · كان سمة واضحة من سماتها الكثيرة الواضحة ·· فى وجهه سماحة وذكاء لماح . يكثر فى كتبه من كلمة «تأمل» كلما عرض لموضوع من الموضوعات ولم يعجبه تخريج الفقهاء له والرأى الذى انتهوا اليه .. جعل لنا الشريعة الاسلامية مادة محبوبة بفضل روحه العذبة ، وحبه لطلبته ورغبته فى مساعدتهم .. اذكر اننى لقيته بعد الدرس ، وقلت له : فى نفسى سؤال احب ان اعرف الجواب عنه .. لقد فهمت من محاضراتك ان احكام الشريعة يجب ان تسود ، سواء فى المعاملات أو العقوبات أو الاحوال الشخصية .. من المسئول عن عدم التمسك بها فى باب المعاملات والعقوبات ؟ .. تبسم الرجل وهو يقول : وبعدين معاك بقى ؟·· وعرفت الجواب ، دون ان ينطق به الرجل ·

وكان هناك الاستاذ محمد صفوت (فيما بعد صفوت باشا ، رئيس محكمة الاستئناف) ·· كان يدرس لنا تحقيق الجنايات ·· اذا دخل الفصل لم يخلع نظارته ، ولم يحرك وجهه ذات اليمين أو ذات اليسار ، بل القى درسه كلمة وراء كلمة ، حتى اذا فرغ منه ، انصرف فى دقة بالغة من حيث موعد الحضور والانصراف . ولاعجب فقد اتم علومه فى بعثة لانجلترا . وكان هناك الاستاذ عبد الرحمن فكرى (فيما بعد عبد الرحمن فكرى بك وكيل وزارة التجارة) بوجهه الاسمر الشديد السمرة ، يخلط شرحه للاقتصاد بعبارات انجليزية من وقت الى آخر ، ويختار لأمثلته « الجزم » اذا فرضنا انك اشتريت « جوز جزم » أو بعت « جوز جزم » أو صانع صنع « جزم » ما هى تكاليف الانتاج وثمن البيع .. ما هى العلاقة بينهما .. وهكذا قلما فكر ان يجعل الشارى

والبائع والمستهلك والمنتج ، يشترى أو يبيع أو يستهلك أو ينتج الا « الجزم » حتى لقد كنا نبتسم اذا بدأ يروى مثلا لكى يشرح فكرة ونتراهن هل سيكون عن « الجزم » أو عن غيرها وكان فريق « الجزم » هو الذى يكسب الرهان حتما ..

وكان هناك الدكتور كامل مرسى (بعد ذلك كامل مرسى باشا الوزير ومدير الجامعة ورئيس مجلس الدولة) والاستاذ وايت ابراهيم (بك) والدكتور سامى جنينة (مدير جامعة الاسكندرية فيما بعد) والدكتور عبد الفتاح السيد (رئيس محكمة النقض فيما بعد) والاستاذ الشيخ احمد أبو الفتح والاستاذ مصطفى الصادق (فيما بعد مصطفى الصادق باشا من رجال السلك السياسى) .

لا استطيع ان اطيل ، ولا تستطيع الذاكرة ان تسعف فى كل التفصيلات .. ولكن لا بد أن أذكر مستر ملفل وهو انجليزى عجوز كان يدرس لنا القانون الرومانى .. وكانت الألفاظ تتوه فى فمه الخالى تماما من الاسنان .. ولذلك كان الطلبة ينصرفون عنه الى الحديث أحدهم مع الآخر ، لانهم لم يكونوا يفهمون شيئا ... كانت محاضرته خليطا عجيبا ، رجل عجوز جدا ، جاوز السبعين ، يتحدث بصوت خفيض غير مفهوم بالانجليزية والطلبة فى ضجة وضحك وحديث مختلف تماما عن درس القانون الرومانى .. وكنت أشعر باشفاق شديد على الرجل ، وهو يرى انه بعيد عن طلبته لا يستطيع ان يسترعى انتباههم ، ولا يستطيع ان يعيدهم اليه ، ولذلك كان يحاول جاهدا ان يلفت نظرهم ويثير اهتمامهم بأساليب أخرى ، فيقول بصوت مرتفع جهد ما يسمح به ضعفه وشيخوخته : أخبار سارة .. سأقول لكم أخبارا سارة .. وسرعان ما يسكت الطلبة ويلتفتون اليه فهم يعرفون ما هى أخبار مستر « ملفل » السارة .. انها شطب كميات كبيرة من الصفحات من كتاب القانون الرومانى وسرعان ما يفتح كل منهم الكتاب بينما يقول مستر ملفل من صفحة ٦٥ الى ٨٠ شطب ومن صفحة ١٥٠ الى ١٩٠ شطب ، ويشطب الطلبة الصفحات بين التهليل والمرح ، ومستر ملفل سعيد مغتبط .

وفى بعض الاوقات الاخرى ، حينما يرى الهرج فى الفصل يقول ضاحكا : سأروى لكم نكتة .. فيسكت الطلبة ويسمعون .. وكانت نكتة مستر ملفل تستمد طرافتها من شكله وصوته وتقدم سنه ، ووجهه المبتسم الذى يندفع فى ضحكة طويلة عميقة من قلبه لنكتته متى فرغ من روايتها .. ومن نكتته ان واحدا مر على آخر فرآه يضحك ، فذهب اليه غاضبا وسأله ، لماذا تضحك وأنا أمر عليك فرد عليه الآخر : وانت لماذا تمر وأنا أضحك ..

نكته انجليزية مائة فى المائة ، ومع ذلك فقد ضحك مستر ملفل وضحكنا مجاملة له .

شهدت محاكمة ماهر والنقراشي

« وجرى همس قصير فى اللجنـــة ثم اعلن رئيسها ان محكمة الجنايات اصدرت حكمهـا الآن ببراءة ماهر والنقراشى »

كان العام الدراسى يبدو مسرعا ، ونحن نقبل على استذكار دروسنا ·· كان هذا العام آخر أعوامنا فى كلية الحقوق· والترتيب مهم ، والتفوق فى النتيجة النهائية يحدد مستقبل كل منا · وكانت وظائف النيابة هى الهدف الأكبر لطلاب الحقوق ، فاذا خانهم الحظ ولم يكن الترتيب مواتيا قنعوا بوظائف فى أقلام القضايا فاذا كان أقل مواتاة فلا مجال أمامهم الا المحاماة ·

وكانت المنافسة شديدة · واذا كان أول العام ينقضى بين الاهتمام بالسياسة والاشتراك فى النشاط السياسى، فان آخر العام يمتاز بالاقبال الشديد على الدروس ، فما البال وهذه السنة هى سنة التخرج ·· بدأت أحاديث الطلبــة تبتعــد شيئا فشيئا عن السياسة ، وتتجه شيئا فشيئا نحو المــذكرات والمقررات وأسئلة الامتحان ، وطبيعــة الاســاتذة الذين يضعونها ·· وبدأ كل طالب يحسن من علاقتــه بالاساتذة الذين ساءت علاقته بهم أو ينشىء علاقات معهم ·

وكان نظام الامتحان حينئذ يقضى بالامتحان فى أربع مواد تحريرية، أما الامتحان فى بقية المواد فكان شفويا ، ومن هنا كان الاهتمام بتوطيد الصلات بالاساتذة ، ومحاولة كسب عطفهم ، وحسن ثقتهم · ولم أكن على صلة وثيقة بأحد من الاساتذة · كان فى خجل شديد يحول بينى وبين هذه المحاولات ، ولذلك قنعت باستذكار دروسى ، وكلما تقدمت الأيام ازداد خوفى وقلقى وازداد انطوائى ، وازدادت ســاعات السهر وساعات التقليب فى المذكرات ، وانشاء الموجزات للمطول منها ·· كانت الكتب

كثيرة ، والصفحات لا حصر لها ، والدفعة قوية بحيث بدا أن السباق يجهدنى .

وشعرت فى أوقات كثيرة بوحدة أزعجتنى ، وبمظاهر وان لم تكن خاصة بى وحدى الا أنها كسرت خاطرى ، كما لا بد أنهـا كسرت خاطر الكثيرين. كان بعض الطلاب يفدون الى الكلية ويروحون منها فى سيارات جميلة أنيقة . كانت ملابسهم زاهية غالية ، وشخصياتهم فيما يبدو لى أقوى من شخصيتى .

هل كان هذا صحيحا أو كان وهما ؟.. ان الشخصية تصنعها أشياء كثيرة منها الثروة والمظهر ، ولم أكن أملك كليهما أو احدهما ، وكان العهد تطبعه المظاهر بطابع لا يستطيع التخلص منه . كان بعض الطلبة يربطه صلات أسرية أو اجتماعية بالأساتذة ولم تكن لى هذه الصلات .. وكان ما يدور بيننا يوحى الينا أن مثل هذه الصلات لهـا اعتبارها فى النجاح والتفوق ، ولم أكن ميالا الى تصديق هذا كله ، وكنت أعارضه أحيانا ، فيتحمس أصحاب هـذا الرأى ويروون روايات عديدة عن طلاب أخذوا درجات التفوق فى الامتحان الشفوى ، دون أن تكون لهم شفاعة من علم أو اجتهاد... كان يشفع لهم فقط مظهر جميل أو أسرة معروفة أو قريب ذو نفوذ .

كنا نتجادل فى هـذا فقال طالب منا ــ لا بد انه كان مثلى مقطوع المظاهر والصلات بأصحاب النفوذ ــ تصور أن وكيل وزارة الداخليـة (وأظن أنه كان على جمال الدين باشا) قال فى معرض الحديث عن كلية الحقوق كيف تساوى بين ابن الوزير والباشا والبيـه وبين من أبوه فلاح من الريف ؟ ولم يكن هذا يسوءنى من حيث مستقبلى ، فلم أكن أفكر فى غير المحاماة ، ولكنه كان يثيرنى ويرسل الدم حارا فى عروقى ، فأسخط لهذه العقليـة التى تأبى الا أن تفكر بصـورة منفرة عن الفـلاحين وغير الفلاحين ، وكأن الله الذى خلق غير الفلاحين لم يخلق الفلاحين ؟.

كانت ثورة١٩١٩ قد غيرت الكثير فى مصر ، ولكنها لم تستطع تغيير كل العقليات . كان سـعد زغلول فلاحا ، وكان أكثر زعمـاء الثورة من الفلاحين ، ارتقى الكثيرون منهم الى منصب الوزارة ، وبلغ آخرون المناصب الكبرى ، ولكن رواسب الماضى كانت لا تزال قائمة ، لانها ترتد بجذورها الى أجيال وأجيـال . فلم تكن مصر قد حكمت بأهلها لا منـذ قيام أسرة محمد على فى أوائل القرن التاسع عشر فحسب ، ولكن قبل ذلك ، حينما كان المماليك يقتتلون على السلطان ويستعينون بشتى الاجناس ، فانفتح

المجـال للشراكسـة والارمن والاتراك ، فأصبحوا سـادة أو فى ركاب السادة ، وعاشوا فى البلاد أجيالا أصبحوا من أهلهـا لهم الغنم الكبير وليس عليهم ان يحسوا بآلام اهلها ، وارتد الفلاحون واصحاب الارض عن الصفوف الاولى ، وقنعوا بالفتات الذى يتركه لهم السادة ٠

ورسب فى أذهان العامة ما يشبه الاعتقاد بأن هذا هو حظهم، وانهم أدنى من غيرهم ٠ فلما قامت ثورة سنة ١٩١٩ ، نفضت التراب عن أهل البلاد ، وقدمتهم جهد ما استطاعت ، ولكن الرواسب كانت والاحساس بالمهـانة والذلة كان لا يزال أقوى من ثورة ، لا بد لها من وقت طويل ، حتى ترسى جذورها ٠

والمتأمل فى ثورة سنة ١٩١٩ يرى انها كسبت تأييد البلاد كلها ، ولكن أسباب التأييد كانت تختلف من طبقة الى طبقة ومن فريق الى فريق، طبقة آزرتها مؤمنة متحمسة هى طبقـة الفلاحين من الملاك الصـغار والمتوسطين ومن لا أملاك لهم من الاجراء ٠ وطبقة أيدتهـا الى حين ، وهم طبقة كبار الملاك من الفلاحين ، ثم انفصلت عنها بصورة أو أخرى، حينما أوغلت الثورة فى مراحلها، وبدأ التناقض بين مصلحة كبار الملاك وجماهير الفلاحين ٠ وطبقة مالأتها خوفا أو رغبة فى استدامة المصالح فى ظل المد الجديد ، وكانت على استعداد أن تأتمر بها اذا انتصرت ، أو تحولهـا عن غاياتها اذا استطاعت ٠ وهؤلاء كانوا من المصريين غير الخلص ، من الاتراك والشراكسة والارمن ومن اليهم ممن اثروا فى مصر وأصبحوا سادة ٠

ولا أحب أن أستطرد ، فان تحليـل المجتمع المصرى فى هذه السنة بالذات (١٩٢٦) يحتاج الى كلام كثير ، ربمـا كانت هذه المذكرات التى قصدت بها تصوير الحوادث والانفعالات التى مرت بى فى حياتي ، لاتسعه٠ كل ما أردت تصـويره هو أن شعورى وأنا فى كليـة الحقوق بين مجتمع متناقض متضارب ، لا يزال يخضع لفـكرة فلاح وغير فلاح ٠٠ ابن باشا وابن مزارع ، كان فيه غير قليل من الألم ، وفيه كثير من السخط ٠

وهأنذا أوشك فى نهـاية هذا العام أن أفرغ من دراستى وأواجه الحياة العملية دون نصير أو شفيع ، الا الجهد والسعى الذى لا يتوقف ولا يهدأ ٠ كنت فى بعض الايام أسير وأصدقائى فى شوارع جاردن سيتى أو الزمالك ، فيقول أحدهم : انظر كيف يعيش الناس ؟ هـل نحن نعد بين الأحياء ؟٠

ولم يكن يقول هذا الكلام ولم أكن أقله عن شعور من السخط أو الثورة ، بقـدر ما كان شعورا بالاسـتكانة والتسليم ٠ كنـا نحسب أن

مجتمعنا هكذا ، ودنيانا هكذا ، وأن قدرنا لا بد أن يسير فى هذه الدنيا وفى هذا المجتمع دون تغيير أو تبديل • ومن هنا كانت وظيفة فى النيابة تبدو أمام طالب من الريف فى كلية الحقوق شيئا عظيما • كانت مفتاح الترقى الى المناصب العليا • ورجال النيابة والقضاء بالذات ، يعدون حينئذ من أسعد من يعيش فى مصر •

وربما كان انصرافى الى التفكير فى المحاماة راجعا الى أننى .قدرت الظروف كلها، وأدركت أن من كان مثلى ليس له نصيب فى هذه الوظائف، وانها ــ هكذا أحسست ــ لابد أن تقصر لا على المجدين من الطلاب فلم أكن كسولا ولا متخلفا ، ولكن على من تقدمهم اسراتهم وقراباتهم •• نعم ، ربما كان اعجابى بالمحاماة والسحر الذى أخذتنى به ، نوعا من التعويض والعدول عن غير الممكن الى الممكن•• ربما كان ، لست أدرى على التحديد، عملية قام بها اللاوعى ، وقدمها الى التفكير الظاهر كأنها جزء من الارادة الاصيلة ، وليست فى الواقع الا املاء ظروف أحسست بها وقست امكانياتى بالنسبة اليها •

وعلى الرغم من انصرافى الى المذاكرة انصرافا تاما ، لم أغفل متابعة الحوادث السياسية ، كانت وزارة زيور باشا لا تزال تتولى الحكم من غير دستور • ولم تكن تفعل ذلك صراحة ، ولكنها كانت تدعى أنها مشغولة بالتحضير للانتخابات ، وانها على وشك اصدار قانون جديد ، ولكنها فى الواقع كانت تماطل التماسا للبقاء • وكانت قد أصدرت فى أواخر سنة ١٩٢٥ قانونا للجمعيات والهيئات السياسية يحتم على كل جمعية أو هيئة اخطار جهة الادارة بمقرها ومقر فروعها وأسماء أعضائها وأعضاء مجالسها الادارية ولجانها الفرعية واخطار جهة الادارة بكل تغيير يقع فى هذه البيانات ، وأعطى القانون مجلس الوزراء حق حل كل جمعية أو هيئة سياسية لا تتبع هذه الاجراءات • وليس هذا فحسب ، بل ان الاعتراف بالهيئة السياسية كان لا يتأتى الا بمرسوم ملكى •

وأحدث هذا القانون رجة هائلة فى البلاد ، لأنه يعنى الغاء الاحزاب السياسية ، والابقاء فقط على الاحزاب التى تريدها الحكومة ، وفى عبارة أخرى اعطاء الحكم الديكتاتورى سلطة شرعية • وكان طبيعيا أن تحتج الاحزاب جميعا على هذا القانون وأن تعده ستارا للحكم الاستبدادى • احتج عليه الوفد ، والاحرار الدستوريون ، والحزب الوطنى • ودعا المرحوم أمين الرافعى الى اجتماع البرلمان من تلقاء نفسه فى السبت الثالث من شهر نوفمبر (٢١ نوفمبر سنة ١٩٢٥) وبرر دعوته بنص

الدستور الصريح ، وبأن حل مجلس النواب فى مارس سنة ١٩٢٥ عمل باطل ، وأن المجلس لذلك لا يزال قائما • ورحبت الاحزاب بهذه الفكرة، وعقد البرلمان بمجلسيه فى الموعد المحدد فى فندق الكونتننتال وقرر مجلس النواب عدم الثقة بالوزارة ، وقرر البرلمان بمجلسيه الاحتجاج على تصرفات الوزارة المنافية للدستور واعتبار دور الانعقاد موجودا قانونا ومستمرا •

كان هذا الاجتماع ضربة قاضية لوزارة زيور ، وبتعبير أدق ضربة لسياسة العهد ، وأحست الوزارة بالكراسى تزداد اهتزازا ، وضاعف من الكارثة التى حلت بها أن أمراء الأسرة المالكة حينئذ طلبوا من الملك اعادة النظام النيابى بوثيقة وقعوها فى ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٢٥ •

وبدا أن المعركة بين الأحزاب والقصر تبلغ غايتها ، وأرادت الوزارة أن تقابل هذه الموجة المتزايدة بما يدل على أنها غير معنية بهذا الاجتماع الذى لم يسبق له مثيل ، فأصدرت فى ٨ ديسمبر قانونا جديدا للانتخابات من درجتين وضعت فيه قيودا ثقيلة على حرية الناخبين، وردت البلاد من الناحية الدستورية خطوات الى الوراء • فزاد هذا من تقارب الاحزاب ، واحتجت من جديد على هذا العبث الجديد بالدستور وطالبت باعادة قانون الانتخاب المباشر، واضرب العمد عن تنفيذ قانون الانتخابات واشتعلت المعركة من أجل الدستور أقوى ما يكون الاشتعال ، وعنفت أعظم ما يكون العنف • وبدا أن البلاد تجعل الدستور فى مرتبة مساوية تماما للاستقلال ، ان لم يكن يزيد فى مرتبته على الاستقلال •

وتردد صدى المعركة بيننا نحن طلاب الحقوق فى هذا العهد ، ولا أقول قام الجدل ، ولكن أقول اشتدت الحماسة • وما من شك فى أنه كان هناك من ينصرون وزارة زيور على العبث بالدستور ، ولكنهم لم يكونوا يفعلون ذلك حبا فى الوزارة ، ولكن خوفا من انتصار جماهير الشعب • فقد كان الدستور حينئذ ، ليس حكم الشورى فحسب ، ولكنه كان أيضا المتنفس الصحيح للتطور الاجتماعى السليم ، كان الشعب ينظر اليه كصخرة النجاة ازاء استبداد القصر وتحكم الانجليز ، لم يكن أمامه الا القوة الشعبية المناضلة والدستور هو الوسيلة لتجميعها ، واظهار كيانها •

وكان لورد اللنبى قد عزل من منصب المندوب السامى البريطانى وحل محله لورد جورج لويد ، وكان استبدال المندوب السامى فى هذا العهد حادثا خطيرا ، بل اخطر حادث فىحياة الاحزاب وحياة القصر وحياة

الكفاح الوطنى ٠٠ كان بمثابة الاعلان عن سياسة جديدة ٠ وأخذ الناس يتباحثون فى التطور الجديد ، ويسألون أنفسهم ويسألون الحوادث : ترى ماذا يعنى ؟

وكان طلاب الحقوق يختلفون فى تفسيره كما تختلف سائر الطوائف والهيئات ٠٠ منا من قال ان الدستور قادم ما فى هذا ريب ٠ ومنا من قال بل ان وزارة زيور باقية ، وأن الدستور لن يعود بصورته التى تريدها الأمة ٠ سيظل القصر هو الحاكم من وراء دستور هزيل مصنوع مفروض٠

وكان للتغيير المنتظر صدى خاص بيننا نحن طلاب الحقوق ، كان هذا التغيير يعنى وزارة جديدة وربما موظفين كبارا جددا وسقوط وزراء قدماء وزوال السلطات عن موظفين قدماء ٠٠ وليس هذا فحسب ، بل كان يعنى أيضا عودة السلطان لأسر كبيرة ، وانقضاء السلطان بالنسبة لأسر كبيرة ٠٠

قال زميل لى وفى وجهه ابتسامة عريضة : كأنما عودة الوفد الى الحكم قد جاءت فى الوقت المناسب تماما ٠٠ من المؤكد أن فلان باشا سيكون وزير الحقانية (العدل) وهو صديق لأسرتنا ٠٠ والابتسامة هنا معروفة، فهى تعنى انه سينتهى من دراسة الحقوق بعد أشهر قليلة ، ويكون وزير الحقانية صديقا للأسرة ، أعنى تكون وظيفة عضو فى النيابة جاهزة له ٠ وكبت زميل آخر أسفه الشديد ، بل الم الشديد ، لأن اباه كان من أنصار العهد ، وزواله يعنى زوال السلطان عن أبيه ، يعنى تعذر الحصول على وظيفة فى النيابة أو أقلام القضايا أو السلك السياسى ٠ أما نحن الذين لا أنصار لنا ولا اقرباء ولا أصهار ولا أسرات مسموعة الكلمة فى هذا العهد أو ذاك ، فلم نكن نناقش المسألة من هذه الناحية ٠ كنا بهوانا وآمالنا وآلامنا فى الصف الذى فيه الشعب ، كان سعد زغلول حينئذ أقرب الينا من كل الزعماء ٠ وكنا وكان أمثالنا ، وهم الملايين ، النصراء الحقيقيين لحركة استعادة الدستور، وكان هذا هو سر قوتها وسر انطلاقها ، كان هؤلاء الانصار من جماهير الشعب هم غذاؤها ووقودها ٠

ومضت الايام كما تمضى كل الايام ٠٠ فيها لمحات من اشراق ، ونزوات من شيطان وسكون من تأملات ، وهوى عذب من الأهواء العذاب ٠٠ السن طرية العود ، والامل ممدود من غير حدود ٠٠ الدموع تملأ العين انكسارا ، والبهجة تملأها حبا وسلاما ٠٠ وقد كنت فى السنة النهائية وبينى وبين امتحان الليسانس شهور ، ومع ذلك فقد كنت قد الفت مسرحية فى الاجازة ، ودرت على الفرق التمثيلية فى هذا العهد أعرضها

عليها ٠٠ لم اتعلم من درس المطابع التى مررت عليها منذ سنة وارتددت كاسفا وأنا حسير ٠٠ قلت : لعلى أكون فى هذه المرة أسعد حظا ٠٠

كان يوسف وهبى حينئذ فتى المسرح الاول ٠ ٠ كانت رواياته ومسرحه وفنه هوى الافئدة ٠ كانت رواية « الذبائح » لانطون يزبك تملأ عقول مشاهديها بمنظر الدم والذبائح ٠ كان المسرح يومئذ مجزرة ، ولكنه مع ذلك كان شيئا جميلا عزيزا قويا ٠

لماذا فكرت فى أن أضع مسرحية ؟ ربما كان اتجاها عميقا خفيا فى نفسى أردت أن أرضيه ؟ لقد الفت رواية للقراءة ، فلماذا لا أؤلف مسرحية للتمثيل ٠٠ وربما كان لاننى وأنا طالب فى الدراسة الثانوية ، وقبل ذلك وأنا صبى فى المدارس الابتدائية كنت أشهد تمثيل فرقة عكاشة : وآل عكاشة من قريتنا ٠ ولذلك كان شهود مسرحياتها وأغانيها ميسرا لى ولغيرى من أفراد أسرتى وقريتى ٠٠ رأيت عبد الحميد عكاشة يغنى فى « دوار » بيتنا فى القرية وأنا صبى فى التاسعة من عمرى ، وسهرت معه حتى انفلق الفجر وأهل القرية مأخوذون بالصوت الجميل ٠٠ رأيت عبد الله عكاشة وعبد الحميد عكاشة وزكى عكاشة فى روايات « غانية الأندلس » و « صباح » و « انجومار المتوحش » و « تليماك » و « القضاء والقدر » و« مغاور الجن » وعشرات من الروايات الاخرى فى تياترو حديقة الازبكية وفى دار الاوبرا الملكية ورأيت حريم العهد الماضى باليشمك والالواج والبناوير مسدلة عليها الدانتل ، وعيون ساحرة تطل من ورائها ٠٠ وراح الخيال كل مراح فى هذا الجو المعطر المثير ٠٠ رأيت زكى عكاشة يخرج بين الفصول لكى يغنى وخاتمه الماسى أو الذهبى يضوى فى عيون المتفرجين ، والعيون الناعسة أو الساهمة وراء الدانتل .. رأيت الشيخ عبد الحميد عكاشة يخرج هو الآخر بين الفصول بعمامته الجميلة وزيه الرقيق يغنى بابتسامة أحلى من الغناء ، وغناء أجمل وقعا فى الآذان من الابتسامة وما يكاد يفرغ من أغنيته أو دوره حتى أراه فى الصالة أو عند باب الخروج يحيى الناس ويحييه الناس ٠ كان المساء الذى يهمس لى فيه عمى وأنا طالب فى المدارس الثانوية ، أو فى كلية الحقوق ، اننا ستذهب الى حديقة الازبكية ، هى أسعد الامسيات عندى ٠ فاذا بلغنا المسرح ، قابلنا الشيخ عبد الحميد بوجهه الحلو وقال : عايزين تصريح لكام .. ربما كان هذا هو الذى جعلنى أحب المسرح ، وجعل حبه مقيما معى حتى الآن ، وربما كان حبا أصيلا فى نفسى ، ولم يفعل هذا الظرف أكثر من أنه أشبع هواية من هوايات النفس ٠

ما أكثر ما تتزاحم الذكريات .. اننى لاعيش فى الجو الذى أصفه، واستحضره ، فأكاد أنسى السنوات التى مرت وارتد صبيا أو فتى ، ويرتد الجو كله الذى عشته منذ عشرات السنين ، وكأننى لم ابرحه ، وسميت روايتى « خطيئة امرأة » وتقدمت بها عن طريق عامل من عمال مسرح يوسف وهبى كان من قريتنا .أخذها وأعطاها للأستاذ يوسف وهبى أو هكذا قال لى .. ثم ردها لى بعد اسبوعين أو ثلاثة لا برفض كامل ولا بقبول كامل .. ردها مع شخص رقيق الوجه فيه طيبة محببة اسمه حسن الشريف قال ان فكرة الرواية حسنة ولكن الحوار فى حاجة الى المراجعة والتعديل . ، وقضيت وإياه امسيات جميلة فى مقهى سانتس فى حديقة الازبكية أقرأ له وهو يشطب ويعيد ،وأنا أتعلم منه الكثير ... وطالت مواعيدنا وطالت جلساتنا وطالت الأيام التى القاه فيها ، وكان العام الدراسى يتقدم ، فاعتذرت له من عدم متابعة المراجعة وأستمهلته ريثما انتهى من الامتحان ..

ولأعد الآن الى جو السياسة ... تقاربت الاحزاب حتما ، وبدا أن البلاد كلها تضيق بحكم القصر ، وبدأ المندوب السامى الجديد حركته البارعة التى كان لا بد لكل مندوب سام أن يقوم بمثلها عند توليه منصبه .. قابل الملك فؤاد مرتين ، أعلن بعدهما أن نشأت باشا نقل من منصبه فى القصر الى منصب آخر فى السلك السياسى .

كان هذا الحادث وحده ايذانا بالخط الذى ينتظر أن تسير فيه سياسة البلاد وعرف الكل ان الانتخابات ستجرى وأن الدستور سيعود ، وأن القصر سيخضع لرأى الشعب . هل كان خضوعا لرأى الشعب أو كان استجابة لضغط الانجليز .. لم يكن النـاس يعنون حينئذ بالشكل قدر عنايتهم بالجوهر ، ولنفرض أنه كان خضوعا لضغط الانجليز، فان الانجليز لم يكونوا يقدمون على هذا الضغط لولا أنهم يعرفون انه رأى الشعب ، وانه وسيلة لاسترضائه وتهدئته . وتم الائتلاف بين الاحزاب التى طالبت بعودة قانون الانتخاب المباشر ، واجتمع مؤتمر وطنى ضم كل الاحزاب يوم ١٩ فبراير سنة١٩٢٦ فى حديقة منزل محمد محمود بشارع الفلكى. ونظم شوقى قصيدة القاها الاستاذ فكرى اباظه فى المؤتمر جاء فى مطلعها هذه التحية للدستور :

صرح على الوادى المبارك ضاحى   متظاهر الأعلام والأوضاح
صافى الجلالة كالعقيق مفصل   ساحات فضل فى رحاب سماح

ولم يكن ممكنا الا أن تخضع الحكومة لما طالبت به الاحزاب ، ولما بدا من أن الانجليز لا يعارضونه فاستصدرت في ٢٢ فبراير مرسوما باجراء الانتخابات طبقا لقانون الانتخاب المباشر ٠ وجرت الانتخابات فعلا فى ٢٢ مايو بعد أن اتفقت الاحزاب المؤتلفة على تقسيم الدوائر بينهما ، وقد فاز الوفد بطبيعة الحال بالنصيب الاكبر سواء فى التقسيم أو بعد اعلان النتيجة النهائية للانتخابات ٠

وكان هناك شيء آخر يشغلنا نحن طلبة الحقوق اكثر من كل شيء آخر ٠٠ هو قضية الاغتيالات السياسية المتهم فيها الدكتور أحمد ماهر « باشا » ومحمود فهمى النقراشى (باشا) وعبدالحليم البيلى (بك) ومحمد فهمى على ومحمود عثمان مصطفى والحاج أحمد جاد الله ٠٠ وكانت تنظر حينئذ أمام محكمة الجنايات فى باب الخلق فى الغرفة الجانبية من مبنى محكمة الاستئناف حينئذ ٠

كانت تشغلنا كما تشغل البلاد كلها ، ونشعر ازاءها بما يشعر ازاءها كل المواطنين ٠٠ رجال من الصف الاول فى الجهاد ، يحاكمون بتهمة ارتكاب اغتيالات لبعض الموظفين الانجليز ٠ وكانت هيئة المحكمة مؤلفة برياسة قاض انجليزى اسمه مستر كرشو وعضوية مصريين هما كامل ابراهيم (بك) وعلى عزت (بك) وكان يمثل النيابة مصطفى حنفى (بك) ٠

وكانت تشغلنا من جانب آخر ونحن على وشك التخرج فى كلية الحقوق ٠٠ كمحاكمة خطيرة ، لها صفة القضية لنا كطلاب فى الحقوق ، ولها صفتها السياسية العامة ، حشد فيها جمع كبير من المحامين غلب عليهم الطابع السياسى كما غلب الطابع الفنى ، مصطفى النحاس (باشا) ومكرم عبيد (باشا) ومرقس حنا (باشا) ونجيب الغرابلى (باشا) وسلامة ميخائيل (بك) ومحمد يوسف (بك) ومصطفى الشوربجى (بك) وزهير صبرى ووهيب دوس (بك) وعبد الله حسين ٠

وتاقت نفوسنا أن نشهد المحاكمة٠ واصطحبت زميلا لى فى الصباح وذهبنا الى دار محكمة الاستئناف العالى فى ميدان باب الخلق ، ودخلنا من الباب الرئيسى ، واتجهنا الى قاعة المحاكمة ، فاذا « كوردون » من الجنود يمنعنا ويطلب الينا ابراز البطاقة الخاصة بمن يحضرون المحاكمة ٠ ولم تكن معنا بطاقات ، فارتددنا قليلا عن المكان الذى يقف فيه رجال البوليس ٠٠ وترقبنا الفرصة لمحاولة جديدة ٠ واذا الاستاذ نجيب الغرابلى (باشا) بقامته الضخمة قادم من بعيد ، يرتدى روب المحاماة٠٠

وتقدمنا اليه وافضينا اليه برغبتنا أن نشهد المحاكمة وقلنا له اننا طلاب في الحقوق .. فهز الرجل رأسه في أسف وعطف وقال : والله يا أولادى .. دول مارضيوش يدخلوا الكاتب بتاعى .. وتركنا ودخل قاعة المحاكمة . ولم ننصرف . ولم نيأس .. ثم جاء مكرم عبيد بوجهه المتفجر حيوية وجبهته العريضة وطربوشه المندفع الى الوراء حتما ، وهو يشير بيديه لست أدرى لمن ؟.. كان الرجل يبتسم أو هكذا خيل الى .. ظننت أنه يبتسم لنا ونحن نتقدم ونفضى اليه بأمرنا ، وحسبنا أنه سيصرفنا بالاسلوب نفسه الذى صرفنا به الاستاذ الغرابلى ، ولكنه أدهشنا اذ قال فى تصميم عجيب واندفاع سريع : طيب تعالوا وراى ... ادخلوا على طول وراى .. وسرنا وراءه حتى اذا بلغنا كوردون البوليس وأردنا أن ندخل وراءه طبقا لتعليماته ، فاذا بالبوليس يمنعنا ، واذا بمكرم عبيد يلتفت اليه وهو يقول جادا ، وربما آمرا : سيبهم دول محامين .. ولكن البوليس كان أصم أبكم .. لم يسمع له ولم يسمع لنا .. وهز لنا مكرم عبيد رأسه أسفا وهو يندفع الى قاعة المحاكمة .

واستطعنا فيما بعد أن نحصل على بطاقة لحضور المحاكمة .. لا أستطيع أن أنسى المنظر الذى شهدته حينئذ .. انه حى فى خاطرى تماما . ولم تكن القاعة واسعة ولم تكن ضيقة كذلك ، لها نافذتان تطلان على فناء المحكمة .. رأيت مستر كرشو بوجهه الاحمر المكتنز جالسا وسط العضوين المصريين . كانت المقاعد كلها مشغولة .. ونظرت فى قفص الاتهام فرأيت النقراشى (باشا) بقامته الممتلئة ووجهه الذى ينضح بالعزم والتصميم . لم يكن مبتسما ولم يكن مقطبا ، لم يكن مهموما ولم يكن خاليا من الهم.. كان يبدو أمامى صامتا صمت أبى الهول .. صمته وثباته ... وكان الدكتور ماهر أكثر ابانة منه ... كانت قسمات وجهه تحمل تعبيرات عديدة ، وكان الى جوار زميله وصديقه يحس بالأمن والسكينة .. وكانت أعين كل من فى القاعة مركزة على الرجلين تفيض عليهما عطفا واحتراما يود كل واحد أن يكون فداء لهما ، لهذين المناضلين اللذين ارتفعا فى أعين الشعب الى مكانة لم يبلغها غير قليلين ، وأحسست برهبة لم أحس بمثلها من قبل ، وألقيت نظرة على المحامين ، وازددت حبا لهذه المهنة الرفيعة . كان كل منهم يقلب فى الأوراق التى أمامه ويسر الى زميله برأى أو بكلمة أو بخاطر من خواطر الخوف والانزعاج . كان مستر كرشو رئيس المحكمة يشعر انه العدو الوحيد فى هذه القاعة ، وأنه الغريب الوحيد فيها .. لا المتهمون يريدونه ولا النيابة تريده ولا زميلاه على المنصة يريدانه . كان قاضيا ولكنه أيضا

لم يكن يستطيع ولا أحد يستطيع أن يجرده من صفته كانجليزى جاء يجلس مجلس القضاء فى بلاد لا تريده ٠

وسمعت مصطفى النحاس وهو يترافع ، صوته يرتجف ويتهدج ٠٠ وسمعت مكرم عبيد وهو يجمع كل ما أوتيه من ذكاء وقدرة لكى ينقذ زميليه من حبل المشنقة ، ورأيت الرجلين صامدين مؤمنين بأنهما أديا واجبهما ٠

ستمر صور كثيرة وتنمحى من خاطرى ، ولكن الصورة التى رأيتها فى هذا اليوم ظلت معى ، وستظل أبدا ٠ وان من صور الحياة لما يبلغ فى الوجدان مبلغ العمق الذى يجعله بعض الوجدان٠وبعد ذلك بأيام قليلة ـ يوم ٢٥ مايو سنة ١٩٢٦ كنا فى السرادق المقام بجوار كلية الحقوق على شاطىء النيل نؤدى امتحان الليسانس ٠٠ الجو ساكن ساكت ، لا تسمع الا صوت طالب يهمس فى اذن المراقب بكلمة ، أو صوت المراقب يهمس فى أذن طالب بكلمة ٠٠٠ كان كل من فى اللجنة وكل ما فى اللجنة ساكنا ، وحر شهر مايو يكاد يحبس الانفاس ونحن نجاهد لكى نجيب على الاسئلة التى أمامنا جهد ما نستطيع ومن وقت الى آخر تهب نسمات قليلة من النيل ترطب حر المكان ٠٠ فيما عدا خطوات المراقبين وصرير الاقلام والاوراق لم يكن أحد ولا شىء يتحرك ٠

وفجأة سمعنا حركة غير عادية ٠٠ حركة قادم من بعيد متعجل ، يهمس فى أذن رئيس اللجنة ، وتنفتح أساريره ويقول بصوت مرتفع فيه دهشة وفرحة وذهول « صدر حكم محكمة الجنايات الآن بتبرئة الدكتور ماهر والاستاذ النقراشى والاستاذ الشيشينى » ٠

وقبل أن ينتهى من عبارته كان التصفيق يهز أرجاء المكان ٠

أخذت الليسانس وعدت إلى قريتي

« لاعد اذن الى من يحملونني مريضا أو صحيحا، ناجحا أو فاشلا صاحب عمل او لا عمل لى »

صباح يوم من أيام شهر يونيو سنة ١٩٢٦ كنت جالسا فى مقهى الكلوب الحسينى أو المشهد الحسينى أو العلم الحسينى ، لا أعرف على التحديد ، فكل المقاهى فى هذا الحى العتيق ٠٠ لا المقاهى وحدها ، بل لوكاندات النوم والمحال التجارية تحمل بصورة أو أخرى ما يصلها بالشهيد الامام الحسين ، وكان الحى كله مكتظا ممتلئا ٠٠ العمامة هى اللباس الغالب حينئذ بين الغادين والرائحين ٠٠ محل الحلوجى للطعمية والفول ، الناس مزدحمون عليه ٠ كل المحال غاصة ، عربات اليد وعليها الخيار والموز ، والباعة الجالسون والبائعات يعرضون بضاعتهم ، كل شىء تلقاه على الأرض أوفى العربات ، أصوات المنادين والمناديات على البضائع المعروضة مختلطة بنداءات أحباب الحسين والمؤمنين بشهادته ، واستشهاده : يا ابن بنت رسول الله الشفاعة ٠٠ يا حسين ٠٠ احنا فى رحابك يا سيد الشهداء ٠٠ أصوات باعة الجرائد تأتى من بعيد وقريب : « السياسة » ٠٠ « الاهرام » لم يكن يصدر فى الصباح حينئذ غير هاتين الجريدتين ٠٠ السياسة لسان حال الأحرار الدستوريين ، و « الاهرام » مستقلة لكل الأحزاب ٠

كان الصباح مشرقا ٠٠ لم أر صباحا بهذا الاشراق ، والمسجد الحسينى فى عراقته وأناقته رابض ، كما ظل رابضا منذ مئات السنين ، عيون الناس وأفئدتهم تهوى اليه ، السيارات الجميلة الأنيقة تقف فى ساحته ، وتنزل منها « هوانم » اليشمك يخفى ابتسام العيون ، وابتسام العيون ينفذ من اليشمك الشفاف فكأن اليشمك والابتسام فى سباق للفتنة والاغراء ٠٠ ويدخلن المسجد مؤمنات ، يرجون الثواب والمغفرة ،

تائبات من ذنوب أو راجيات تقربا وزلفى للشهيد الذى ارتجت الأرض والسماء لاستشهاده ٠

وفى المقهى الذى اخترته ، خليط من النـاس ٠٠ أكثرهم معمم ، والاقلية من لابسى الطرابيش ٠٠ منهم ريفيون قدموا القاهرة لزيارة الضريح العتيد وقراءة الفاتحة ، أو لقضاء المصالح أو لزيارة الأقارب ، ولكن لابد قبل كل شيء أو بعد كل شيء من كوب من الشاى أو فنجان من القهوة فى رحاب الحسين ٠

وأخذت مقعدى وجلست وحدى ، فى ركن ٠٠ وانى لأحب دائما أن أختار ، اذا جلست فى المحال العـامة ، ركنا من الأركان ، كنت مجهدا قلقا مهموما ، فرغت من امتحان الليسانس منذ أسبوعين ، وهأنذا يوما بعد يوم ، أترقب النتيجة ، وما أثقل الانتظار على النفس ، وكان ثقله أشد اضعافا على نفسى ، كنت أشعر بخوف يتزايد يوما بعد يوم ، ولست ممن يؤثرون التفاؤل على التشاؤم ، وكان هذا مما يزيد فى قلقى وخوفى٠٠ وقبل أن أجلس فى المقهى درت حول مسجد الحسين ، وتوجهت اليه وقرأت الفاتحة ٠٠ وكثيرا ما كنت أدخل المقصورة حيث مثوى الجثمان ، وأضع يدى على شبابيكها وأقرأ الفاتحة والتوسلات ٠٠ كنت كالعوام الجأ للوساطة والشفاعة ٠٠ وماذا كنت مستطيعا أن أفعل وأنا شاب صغير قليل العون والنصير ؟ كنت أشعر بطمأنينة ورضى وشيء من القوة بعد أن أفرغ من زيارة الحسين ومن الصلاة فى مقصورته ٠٠ يالجوها المعطر ، انه ليعيش فى خاطرى حتى الآن ، والناس يدورون حول القبر فى تمتمـة وخشوع واستسلام ، وايمان عجيب كأنه السحر وما هو أشد من السحر ٠٠ ان منظر هذا الرجل الذى كان راكعا أبدا فى رحاب المقصورة الضيق ، يتلو القرآن والأدعية ولا يستطيع أحد ممن يزورونها الا أن يضع فى يده أو حجره بعض قطع النقود ٠٠ لا يزال حيا فى خاطرى ، وهذا المجذوب الذى كنت ألقاه كلما غدوت أو رحت ، فيضربنى بمقرعته على ظهرى ، ويقول : صلى على النبى ٠٠ وكثيرا ما ساءلت نفسى : هل لابد لكى أصلى على النبى من أن أضرب على كتفى ؟ ولكننى كنت أتقبل هذا كله ، وكأنه شيء مسلم به ، لا استطيع أن أجادله ولا أن امارى فيه ٠٠ وكنت أجد شيخا من شيوخ الأزهر يقرأ ما يسمى بدرس العشاء فى صالة المسجد ، وكنت كلما دخلت المسجد أقف عند طرف الحلقة الملتفة حوله ٠٠ الناس فى خشوع والشيخ يفسر بعض آيات القرآن ٠٠ وانى لاذكر أننى سمعته يعرض لتفصيلات الوضوء والطهارة ، وسمعت منه ألفاظا صريحة خدشتنى وأزعجتنى حينئذ، ولكننى لم أكن أجرؤ على الاعتراض عليها ، حتى ولو فى خاطرى ٠٠ كنت

أشعر أن كل شيء من السماء ، وان هذا الشيخ المتفقه في الدين لابد أنه يعرف خيرا مما نعرف ، وهذه المقصورة القائمة على أمتار منه ، كأنها تنفح ببركاتها كل من في المسجد ومن حول المسجد ٠

كان صوت المؤذن في الأسحار يأسرني ، وكان بريق هذا الحي العجيب يعيش في خيالي طول الليل ٠٠ انه لا ينام حتى الساعة الثالثة صباحا ، أنه يقظ مضيء ، الناس يغدون ويروحون ، فاذا انفلق الصبح ، بدأت أفواج المصلين تذهب الى المسجد العتيد ، وهي أكثر ما تكون خضوعا وسلاما ٠

مرت هذه الصور بخاطري ، وأنا آخذ مقعدي في قهوة المشهد الحسيني ، ومر ما هو أكثر منها ، تذكرت ذات يوم ، وكنت أعاني أزمة نفسية عاطفية ، فلجأت أيضا الى المقصورة الطاهرة ، اسأل صاحبها العون ، والدموع في عيني ، والأسى المكتوم في قلبي ٠٠ وهأنذا الآن في آخر مراحل دراستي ، أرقب الثمرة التي انفقت في سبيل بلوغها أربع عشرة سنة ٠٠ منها سنتان في مدرسة القرية ، واثنتا عشرة سنة في المدارس الابتدائية والثانوية والجامعة ٠٠ هل أبلغها ؟ هل أنجح في الليسانس أم يخونني الحظ ؟ انني حتى الآن لم أرسب سنة واحدة ، كان النجاح يحالفني دائما ، وكنت متفوقا في ترتيبي ، ولكنني في كل مرة كنت أخاف وأجزع واضطرب وأنا اليوم أشد اضطرابا وجزعا وخوفا ٠٠ ثم هناك أبي في القرية ينتظر وأمله معلق بابنه البكر ، مشفق عليه أكثر ما هو مشفق من النتيجة كيفما تكون ؟ وهناك الأمل الأكثر المعلق بي ، أن أكون له في حياته سندا ، وأكون لأسرتي معتمدا ٠

ودق الجرسون قدمه وهو يقف أمامي مرحبا ، ويسألني ماذا أريد ٠٠ وقلت : فنجان شاي ٠٠ كنت مضطربا حتى وأنا أطلب هذا الطلب ، لأنني أعرف أنني بعد لحظات سأقرأ الصحف وقد تكون النتيجة ظهرت ٠٠ وجاء بائع الصحف ، دخل المقهى وهو ينادي « السياسة » « الأهرام » وترددت أن أشترى الجريدة مباشرة ٠٠ انني لم اشترها وأنا في طريقي ، وكنت أستطيع أن أفعل ، كنت مشفقا أن يكون فيها خبر مزعج ، فيرجني وأنا سائر بين الناس ٠٠ آثرت أن أؤجل الشر الى أن أستقر وأجلس ٠

وناديت بائع الصحف واشتريت جريدة « السياسة » وفي قلب واجف ، ووجدان كله دعوات وابتهالات ، أخذت أفتح صفحاتها بأصابع مرتجفة ، وأنظر اليها بعين متنقلة قلقة ٠٠ ووقفت عند عنوان « نتيجة

الليسانس » وأخذت أقرأ الأسماء وما هى الا بضعة منها حتى وجدت اسمى ٠

ان من اللحظات فى الحياة ما لا يستطيع الانسان أن يصفها ، يشعر أن القلم واللسان والتعبير وكل ما أوتيه من احساس وشعور يقصر عنها٠٠ انتفضت ، وانفتحت أساريرى وشعرت كأن الدنيا قد تغيرت ٠٠ وحل محل القلق والخوف والانكسار شيء كثير من الرضا والابتسام والزهو ٠٠ كدت أترك مقعدى ٠٠ أردت أن أخرج الى الناس وأصرخ فيهم : لقد نجحت، ولم يكن أحد معى ، تمنيت لو كان الناس كلهم معى لكى أقرأ عليهم النبأ العظيم ٠٠ وسكنت لحظة وعدت اقرأ الأسماء ، وأدقق فى اسمى ، هل هو او وقع فيه خطأ ، هل حقا نجحت أو أن ما أراه خيال ووهم ٠٠ وانتابنى الشك ، انتابنى شيئا فشيئا ٠٠ واشتريت جريدة « الاهرام » أيضا ، ورأيت اسمى فيها أيضا ، وذهب الشك وطغى السرور مرة أخرى ٠٠ جف ريقى ، وتوترت أعصابى ، واندفع الفرح الى عقلى ومخى وكيانى وكاد يشل كل شيء فيه ٠٠ ان الفرح الطاغى خطر أيضا كالحزن الطاغى٠ وناديت على الجرسون لكى أعطيه حسابه وأنصرف ٠٠ ماله يتلكأ ؟ ألا يعرف أننى أصبحت حامل ليسانس ؟ ماله لايحدثنى بالاحترام الواجب ؟ ماله يعاملنى كتلميذ ضائع ؟ ألم يعرف ما حدث ؟ وكدت أقول له ما حدث ولكننى استأنيت وارتددت الى شيء من الوقار الذى لابد أن يكون سمة من سمات حملة الليسانس فى الحقوق ٠

وخرجت من المقهى ٠٠ الى أين ؟ لم أكن أدرى ، أردت أن أمشى وأمشى ٠٠ أردت ان أرى أثر النبأ العظيم فى الناس ٠٠ أنهم كما هم ، لم يتغير فيهم شيء : طلبة الأزهر يروحون ويغدون ومعهم محافظهم وكتبهم ، وعلى ألسنتهم الحديث المعتاد عن دروسهم ومشايخهم وحلقـــاتهم ٠٠ الباعة والبائعات ، السائرون والسائرات ، الزحمة كما هى ، ومئذنة الحســين بأناقتها لا تزال مرفوعة الذرى ٠٠ لماذا لم تتغير الدنيا وقد تغيرت ؟ لماذا لا يفرح الناس كما فرحت ٠٠ انهم يسيرون على أرجلهم ، وأسير أنا بأجنحة من البهجة والسعادة ٠٠ وخيل الى كأن كل شيء قد تغير ٠٠ المكتئب خيل الى أنه يبتسم ٠٠ الحزين خيل الى كأنه مبتهج ٠٠ تصورت الدنيــا كلها أزاهير وأغاريد ٠٠

هل أرسل برقية الى أبى أبلغه النبأ العظيم ؟ ولكن لابد أنه قرأ فى الصحف ما قرأت وفى الوقت نفسه وربما قبله ٠٠ هل أذهب الى معارفى وأقربائى لكى أنشر بينهم النبأ ٠٠ وكدت أفعل ولكننى رددت نفسى الى

شيء من الاتزان والتعقل .. أنا اليوم حامل ليسانس لا يجمل بي أن أفعل ما يفعله الصغار من التلاميذ .. وماذا هي شهادة الليسانس ؟ ينبغي أن تكون بالنسبة لطالب مجد صغير مثلي شيئا مسلما به .. ماأعجب الانسان .. منذ لحظات كنت أذوب خوفا وقلقا ،والآن ها أنذا أحب أن أقنع نفسي بأن شهادة الليسانس ليست بالنسبة لي الا شيئا صغيرا مسلما به .. كان هذا نوعا من الغرور والزهو ، ولم يكن أحدهما من طبعي ، ولكنها لمحات تصيب الانسان ، ولا تلبث أن تزول .

وقد زالت فعلا بعد ذلك بقليل . ففي مساء اليوم نفسه ذهبت الى مكتب الأستاذ البنداري المحامي في شارع قصر النيل ، لكي أحمل اليه النبأ وأسأله أن يقبلني للتمرن في مكتبه ، كنت ذاهبا اليه مفعما بالآمال، خيل الى أن ليس بيني وبين أن يتحقق املي في ان اكون محاميا ، الا ان انقل الى الأستاذ البنداري الخبر ، فاذا هو يرحب بي ، ويغمرني بعطف عهدته منه ..

ما أكثر ما تخدعنا المنى ، حسبت أن شهادة الليسانس ستكون جواز المرور الذى لا يرده أحد بل لن يجرؤ أحد أن يفعل .. كنت واثقا .

وقابلت الأستاذ البنداري وأفضيت اليه بالنبأ السار ، وهنأني الرجل في ابتسامته الرقيقة . ثم قال : ان المحاكم الآن ستبدأ عطلتها ، وتستمر شهري يوليو وأغسطس ولابد لك من غرفة مستقلة تليق بمحام ، ولابد من اعداد هذا كله ، وسيتم ان شاء الله متى بدأ الموسم القضائي .

كان كلام الرجل معقولا ومقبولا ، ولكن هل يجدي العقل مع شاب متحمس يريد أن يشتغل ويظن ان شهادة الليسانس التى حصل عليها منذ ساعات ، ونقلته نقلا الى عالم من الأحلام والهناء ، يجب أن تفعل مع الناس ما فعلت معه ؟ .. كانت دنياه محدودة ، وظنونه ممدودة .. قلبه قبل عقله هو الذى يقوده . وقد أحببت الأستاذ البنداري وأحبني فيما أعتقد .. ما هو الموسم القضائي يبدأ أولا يبدأ .. ما هي المحاكم تتعطل أو تعمل ؟ غرفة مستقلة لي .. هل هي في حاجة الى اعداد ؟ أنني أرى غرف المكتب كثيرة .. وأرى المكتب يعمل .. لماذا اذن لم يقل لي : تفضل. هذه غرفتك .. وهذه قضاياك .. وهذا عملك .. ولكنه لم يقل ، بل التمس المعاذير .. هكذا تصورت . وانهارت الآمال في لحظة كما بنيتها في لحظة وأنا في مقهى المشهد الحسيني .

وخرجت من عنده كسير الخاطر .. كان احتفاله بي اذن من أجل

الانتخابات وقد انتهى موسمها .. فما حاجته الى ؟ لم تعد هناك منافسة بين الأحزاب ، بين الوفد والأحرار الدستوريين . تم الائتلاف بينهما وبين الحزب الوطنى وجرت الانتخابات فى مايو سنة ١٩٢٦ بعد أن اتفقت الأحزاب على تقسيم الدوائر بينها ، وكانت دائرة « القنايات » من نصيب الوفد وفاز فيها على الشمسى (باشا) .. لم يعد كامل البندارى (باشا) مرشحا ، ولا طامعا أن يكون فى وقت قريب مرشحا ، ما له هو اذن ووجع الدماغ .

لقد صفا الجو السياسى من حولى ولكننى أنا مكتئب .. استقالت وزارة زيور (باشا) وكان لابد أن تخلفها وزارة الوفد طبقا للمبدأ الدستورى المعترف به ، وهو أن يتولى حزب الأغلبية الحكم ، وقد حصل الوفد على١٦٥ مقعدا ، وحصل الأحرار الدستوريون على ٢٩ مقعدا والحزب الوطنى على ٥ ونجح عشرة من المستقلين و ٧ من الاتحاديين ، ومعنى ذلك أن يدعى سعد زغلول زعيم الأغلبية لتأليف الحكومة الجديدة ، ولم يكن عند الأحزاب الأخرى أى اعتراض ، فقد أحسوا بسبب الاعتداءات المتكررة على الدستور أنه لا بد من صيانته والتقيد بأحكامه ، ومن ثم تعاهدوا على لايحيدوا عن هذه الأحكام .

وبدا ان سعد زغلول يفضل التنحى على التمتع بهذا الحق ، ايثارا لاقصاء الزعامة الوطنية عن الاصطدام بالسياسة البريطانية وابقاء عليها فى أوج توهجها . وكانت تجربة وزارته الاولى لا تزال حية فى ذهنه وأذهان أنصاره ، ومع ذلك فقد كان منهم من يرى التمتع بالحق الدستورى وعدم التنازل عنه ، ولكن سعد باشا كان يرى العكس ، وبدا أنه يرشح أحد رجلين لتأليف الوزارة الجديدة ، عدلى يكن باشا وعبد الخالق ثروت باشا . حدث هذا باختيار سعد ورضاه ، ولكنه عرف فيما بعد ان لورد لويد الذى خلف لورد اللنبى فى منصب المندوب السامى البريطانى يشترط تنحيه فرجع الى التمسك بحقه الدستورى . وقال كلمته الكريمة المشهورة « تنحيت فى الاول برضائى اما الآن فلا أستطيع أن أتنحى عن واجبى لأن الأمر أصبح ارغاما » .

وعندنا ان سعد باشا كان ينبغى أن يستمر فى هذا التمسك ، ولتكن النتيجة ما تكون ، ولكنه خضوعا منه للظروف القاسية التى كانت تسود البلاد حينئذ .. القصر متربص بالحياة الدستورية ، يرجو أن يطعن ائتلاف الأحزاب فى الصميم ، والانجليز مؤتمرون بالزعامة الوطنية كلها يريدون ارغامها واذلالها ، رأى ورأت الأحزاب انقاذا للدستور واحتفاظا

به ، أن يعود سعد باشا الى التنحى ، وقبل الزعيم ٠ وعندنا انه لم يكن له أن يقبل ٠ لقد فعل ذلك انقاذا للدستور ، ولكن الحوادث أثبتت فيما بعد أن انقاذ الدستور لا يكون بالتهاون فى أحكامه ، ولكن بالتشدد فيها وقد سبق له أن وقف منذ عامين وقفة خالدة حينما قام الخلاف بينه وهو رئيس للوزارة ، وبين القصر على تعيين أعضاء مجلس الشيوخ ومنح الرتب والألقاب ٠ وكان رأى الوزارة ان هذا حق من حقوق الأمة والحكومة التى تمثلها ، وان نصوص الدستور فى مجموعها وروحها صريحة فى هذا ، وكان رأى القصر ان ممارسة الحكومة لهذين الحقين خاضع للقصر ، بمعنى أن يكون له حق الاثبات والالغاء (فيتو) ٠ ووقف سعد عند رأيه صامدا ، ووقفت السراى عند رأيها صامدة ٠ وتأزم الموقف ، وتنادت جموع الشعب أمام قصر عابدين « سعد أو الثورة » ٠ واتفق سعد مع الملك فؤاد على أن يحتكما الى مسيو « فاندنبوش » النائب العام أمام المحاكم المختلطة لكى يقول ما هو الرأى الدستورى السليم ؟ ٠

وجلس سعد والملك فؤاد ينتظران رأى الفقيه الذى انتحى فى غرفة أخرى يبحث الأمر من الوجهة القانونية ، وخرج عليهما يقول « ليس لى الحق فى أن أقيم نفسى قاضيا على النظام الدستورى الذى ينظم الآن مصير مصر ٠ ان عدم مسئولية الملك يعد أساسا لهذا النظام الذى يقضى بأن الملك لا يتولى سلطته الا بوساطة وزرائه ، وهو مبدأ لا يحتمل أى استثناء من الوجهة القانونية ، بل يمتد الى جميع أعمال الملك ، فاذا استثنى عمل واحد فان هذا الاستثناء يصيب النظام الدستورى فى روحه وأساسه ، ولذلك أرى ان تعيين أعضاء مجلس الشيوخ يجب أن يكون بناء على ما يعرضه مجلس الوزراء » ٠

وانما ذكرنا هذا المثل الذى انتصر فيه الدستور على رغبة واضحة فى نقضه ، لكى ندل على ان التمسك باحكام الدستور هو أفضل وسيلة لصيانته وتثبيته ٠٠ وها نحن الآن نواجه رغبة أخرى فى نقضه باقصاء زعيم الاغلبية عن ممارسة حقه الدستورى ٠٠ كان ينبغى أن تعامل بنفس الطريقة التى عوملت بها المشكلة السابقة ٠

انتهى الأمر بتأليف الوزارة برياسة عدلى يكن باشا فى ٧ يونيو وكان من أعضائها عبد الخالق ثروت باشا للخارجية وفتح الله بركات باشا للزراعة ونجيب الغرابلى باشا للأوقاف وأحمد محمد خشبة باشا للحربيـــة والبحرية ومحمد محمود باشـــا للمواصـــلات وأحمد زكى

أبو السعود للحقانية ومرقس حنا باشا للمالية وعلى الشمسى باشا للمعارف وعثمان محرم باشا للأشغال ٠

وانتخب سعد زغلول باشا لرياسة مجلس النواب ٠٠ وبدا ان الأمور تسير بين البرلمان والحكومة فى رفق وهوادة ٠ سعد باشا هو الذى اختار الوزراء ، وهو الذى اختار رئيسهم ٠٠ وبدا ان البلاد كلها تبارك هذا الائتلاف وتغتبط كل الاغتباط لعودة الدستور وعودة الزعيم ٠٠ ولا شك انها كانت تؤثر أن يكون زعيمها هو حاكمها ، ولكنها أحست انه وهو فى مقعد الرياسة فى مجلس النواب قادر على ان يرقب كل شىء ويدير ، عن طريق أو آخر ، كل شىء ٠

كانت البلاد فى غبطة وكنت أنا فى أزمة وأنا خارج من مكتب الاستاذ البندارى ، تبدو أمامى الدنيا أضيق من ثقب الابرة ٠٠ هذه العصا السحرية (شهادة الليسانس) التى انتفضت فرحا بحصولى عليها تحولت ، بعد ساعات قلائل ، الى عكاز ضعيف قديم عتيق ، يتوكأ عليه فتى صغير ، كأنما هو وشهادته لا وجود لهما ٠

وتلقيت الدرس الاول فى حياتى ٠ لقد أحببت الاستاذ كامل البندارى ، وجعلت أملى كله فيه ٠٠ وها هو يتخلى عنى ٠٠ لقد كنت دائم الاهتمام بشئون بلادى السياسية شديد الحرص على أن يعود الدستور وتنتصر كلمة الأمة ، وها هو الدستور قد عاد ، وها هى كلمة الأمة قد انتصرت ، ولكننى أنا فى سخط وألم وضياع ٠٠ ان الانسان لا ينظر الى المرئيات الا بعينه الخاصة ، قد تكون الدنيا كلها فى رخاء ، وأنت فى أزمة وضيق ، فلا ترى من الرخاء الا الأزمة والضيق ٠

وآويت الى غرفتى الضيقة المكتومة الأنفاس ، وأنا أشد منها ضيقا ، ونظرت الى كتبى وأوراقى ، وأخذت أقلب فيها بعيون مفعمة وقلب فيه انكسار وراح الخاطر يذكر ماضيها معى وماضى معها ٠٠ فى هذه الغرفة سهرت وذاكرت ٠٠ تألمت وابتسمت ، شعرت انها أحيانا كالقصر المسحور كل ما أريده أجده فيها ، وشعرت أحيانا انها كالجب العميق ٠٠ وتمددت على فراشى ٠٠ انسان لا عمل له ٠٠ انسان متعطل ٠٠ منذ قليل كنت قلقا مهموما أنتظر نتيجة الليسانس ، كأننى أرجو ان تفتح لى الأبواب المغلقة ، وهأنذا قد حصلت عليها ، فاذا بها تغلق الأبواب المفتوحة ٠٠ كنت متعجلا متطيرا متشائما ـ وهو طبع فى ـ ولكنى قدرت ان اعتذار الاستاذ البندارى من عدم قبولى فى مكتبه ، وكان أقل ما أطلبه ، وأكثر ما أعتقد أنه سهل ميسر ، بمثابة انذار لى

بأن ما هو أصعب منه جدير ان يكون أبعد عنى بمراحل ٠٠ وظيفة فى النيابة دون سند أو وساطة أو قريب يقدمنى أمر مستحيل ٠٠ لقد قدرت امكانياتى ورضيت بالمحاماة ٠٠ وها أنا حتى هذا الأمل المتواضع الح انه بعيد ٠٠ محام آخر أذهب للتمرن فى مكتبه ٠٠ هذا ممكن ، ولكننى كنت أضع الأمل كله فى مكتب الأستاذ البندارى ٠

لا شك اننى كنت مبالغا فى هذا الضيق ، ولكننى أسجل هنا انفعالاتى والأطوار التى مرت بها حياتى ٠٠ ولا شك اننى ظلمت الاستاذ البندارى (باشا) ، كما عرفت فيما بعد ، وتعلمت درسا نافعا : ليس من الحكمة أن تتعجل فى الحكم على الناس والأشياء ٠ ولكن هذا تعلمته بعد أن كبرت ٠٠ ومن للشباب فى سن الامل بدروس الحكمة والتعقل ؟

مرت السنوات الأربع التى قضيتها فى هذه الغرفة على خاطرى وأنا ممدد فى فراشى شبه نائم ، شبه مستيقظ ، شبه حالم ، شبه واع ٠٠ هذا اليوم الذى عدت فيه من قريتى منذ سنتين مفعم القلب والخاطر فى أزمة عاطفية عنيفة ، الليل يزحف بظله الكئيب وأنا وحيد ، أشعر كأنه يوشك أن يفترسنى ٠٠ ولم أستطع مغالبة دموعى ، لم أبك ، بل صرخت ٠ كان ألما شديدا فى قلبى ونفسى ٠٠ وحسبت أننى وحدى وأن أحدا لا يسمعنى ٠٠ واذا الباب يدق ، سكنت وذهبت أفتحه ٠٠ ترى من يكون الطارق ؟ اننى لا أتوقع أحدا ٠

كان الطارق طالبا هنديا يستأجر الغرفة المجاورة لى ٠٠ قال فى عطف ظاهر : مالك تبكى يا أخى ؟ وخجلت ، قلت له : لا شىء ٠٠ قال : كنت أحب أن أتعرف بك من مدة طويلة ، ولكن مواعيدى لم تكن توافق موعيدك ، ثم لمحت أنك تؤثر العزلة ٠٠ شكرت له رقته ٠ وبدأت أثوب الى نفسى ، وابتسمت ٠٠ قال ، ان عندى طالبا فى دار العلوم ٠٠ تعال نجلس معه فى غرفتى ٠٠ وسكت قليلا ثم استطرد : ان عينيك تشبهان الى حد كبير عينى أخى الذى تركته فى الهند ٠ لماذا لا تعتبر نفسك أخى ٠٠

وذهبت واياه وقضينا فترة رقيقة من الوقت طمأنت صدرى ، وملأت قلبى سكونا وسلاما ٠٠ وتعلمت ان ما من حزن يدوم ، وان العطف المتبادل بين الانسان والانسان فى أزمات العواطف والقلوب هو بلسم ناجع الأثر ٠٠ واتصلت بينى وبين « فصيح » (هذا اسمه) صداقة رقيقة جميلة ٠

وذكرت أيام رمضان ، اذ كنت أسهر الى السحور أو أنام قبله ، فلا أجد من يوقظنى فأصوم اليوم كله من غير سحور ٠٠ وذكرت ذات ليلة والباب يدق فاصحو فاذا أمرأة من جيرانى تقول : اصح يا ابنى علشان تسحر ٠٠ هذه المرأة المجهدة المسكينة التى كنت اسمعها فى الاسحار وقبيل الفجر تدعو ربها ان ينتقم لها من الظالم ، واسمع صراخ أطفالها وهى تمنحهم من العطف ما تستطيع وما لا تستطيع ٠٠ وأسمعها وهى تصلى من قلبها بصوت مرتفع كله ابتهال ودعاء ٠٠ كنت أمر بها وأنا عائد الى غرفتى أو خارج منها ، فأخجل ان أحييها ، واغض بصرى عنها ٠٠ لم تكن شابة ولم تكن جميلة ولكننى كنت ريفيا أكثر مما يجب ٠٠ كنت أخاف ان أنظر الى امرأة ، بل كنت أخجل أن أفعل ٠

وذكرت وأنا أغالب السهر ، فاصنع لنفسى من وقت الى آخر فنجانا من الشاى ، حتى أقرأ مزيدا فى المدنى أو العقوبات أو الدستورى ٠٠ ماذا جنيت ؟ لا شىء ٠٠ قصاصة من الورق ، أصبحت عبئا على ٠٠ ونهضت من فراشى ورحت مرة أخرى أقلب فى الكتب ، لاح لى انها تمثل مرحلة من حياتى انقضت ٠٠ ترى ما ستكون المرحلة القادمة ؟

لا أحد يعرف ؟ ٠ أو هكذا الحياة تعطينا كفاء ما تأخذ ٠٠ وتأخذ كفاء ما تعطى ٠٠ نضرب فيها مغمضة عيوننا لا نعرف ماذا نفعل ولا ماذا نترك ٠٠ شعرت بحيرة وقلق ٠٠ ماذا أصنع ؟ أعود الى قريتى ٠٠ نعم أعود اليها ٠٠ انها الملجأ ٠٠ أعود لأرى أبى واخـوتى وأهلى ٠٠ ولكن هل أعود اليهم متعطلا من غير عمل ؟ ٠

ولماذا أبقى فى القاهرة ؟ انها تموج بالخلائق ، وتضطرم بالحركة والحياة ، ولكنها بالنسبة لى جثة لا حياة فيها ٠٠ لا أعرف فيها أحدا ٠ ليس لى قريب صاحب نفوذ ألجأ اليه ٠٠ ليس لى نصير يقول لى : هات يدك يا بنى ٠٠

لأعد اذن الى من يحملوننى مريضا أو صحيحا ، ناجحا أو فاشلا ، صاحب عمل أو لا عمل لى ٠

لأعد الى قريتى ٠٠

ومر شريط طويل

« كان ليل الريف فى صمته النـــاطق ، كأنه يؤنسنى ، هزات النخل الباسق كأنها الصعود الى أعلى ، الى السماء ، حيث الرجاء والدعاء »٠

عدت الى قريتى بخليـط عجيـب من الانفعـــالات ، حصـلت على الليسانس فالفرحة تغمرنى ،ولـكن الخوف من المستقبل يملأنى اشفاقا وقلقا، تركت القاهرة بموجها الزاخر وأثوابها الغالية وسياراتها الفاخرة، واستقبلت القرية الســاكنة بهدوئها الجميل القــاتل ، وناسـها الطيبين الراضين ، كنت أشعر بالضياع والضآلة فى المدينة الكبيرة ، وهأنذا فى القرية الصغيرة ، أشعر بالأهمية والمكانة الممتازة ٠٠

وأفضيت الى أبى بكل ما حدث بينى وبين الاستاذ كامل البندارى فقال : لا عليك يابنى ، لقد حصلت على الليسانس فى السن التى يحصل فيها اقرانك على البكالوريا وهم راضون ، لا يزعجك شىء ، اتم دراستك ، سأدفع لك المصروفات فى الجامعة لكى تحصل على الدكتوراه ٠

وطامن هذا الـكلام من خوفى بعض الشىء ، ولـكننى كنت أعرف أيضا أنه أب يريد أن يخفف عن ابنه القلق ، ولم أكن فى حاجة الى كثير من الذكاء لكى أشعر أن مستقبلى بدأ يقلق والدى ، لقـد ظهرت النتيجة منذ بضعة أيام، ولكن المسألة ليست أن الايام التى مضت قليلة أو كثيرة، ولكن أن الوسائل ضعيفة أو لا وسائل على الاطلاق ٠٠ نحن فى حاجة الى رجل ذى نفوذ لكى يمهد لى الحصول على وظيفة اذا آثرت الوظائف ، وفى حاجة الى رجل يسندنى ومال أبدأ به الحياة اذا آثرت المحاماة ٠٠ وليس لنا رجل ذو نفوذ تعنيه مصلحتنا فى المقام الاول ، وليس لنا مال كثير ٠

وقضيت ليلتى الأولى فى الريف أسترجع ذكريات طفولتى وصـــباى ،

وأنا على عتبة مرحلة من الحياة ، لست أعرف الى أين تقودنى ، ومرت الصور سريعة متلاحقة ٠٠ كان ليل الريف فى صمته الناطق ، كأنه صديق يؤنسنى ٠٠ هزات النخيل الباسق كأنها الصعود الى أعلى ، الى السماء، حيث الرجاء والدعاء٠ وانغمرت فيما يشبه سكون الخاطر المطلق، وانسرح الخيال يطوف حياتى من أولها الى حيث أنا الآن ٠٠

ولا بد من كلمة توضح نظام الأسر فى الريف وهو نظام أشبه بنظام الباتر فاميلياس الرومانى رب الاسرة الاكبر هو المرجع فى كل أمورها ، وقد يكون جدا أو أبا ، يستوى الامر .. أولاده لا يخرجون عن طاعته بل عن الخضوع له . أموال الاسرة تحت يده ، وهو الذى ينفق عليها جميعا ، يزوج الابن متى كبر ، ويرعاه ويرعى زوجته وأولاده ، انهم ينضمون الى هذه المجموعة التى تأخذ مع الايام فى الازدياد والتضخم ، لا يستطيع أحد أن يستقل فيها ، حتى ولو كبر ، حتى ولو أصبح ذا ايراد خاص ، حتى ولو أصبح ذا نشاط خاص .

وهو نظام فرضته ظروف الحياة فى الريف ، فالأسرة اما أنها تملك أرضا أو تزرع أرضا لا تملكها ، وفى الحالين لا بد من التضامن والتجمع، فلا تزال فى الريف عصبية قبلية أو أسرية ، والاعتداءات فيه كثيرة ، والأمن ليس مستتبا تماما ، وانعزاله عن المدينة وعن سلطات البوليس فى كثير من الحالات ، يجعل الاسرات مضطرة الى هذا النظام لكى تحمى أرضها وزراعتها ومصالحها ، ومن هنا كان الارتباط بين أفراد الأسرة ،حتى ولو بعدت درجة القرابة ، قويا ٠

وقد نشأت فى أسرة من هذا الطراز ، كان جدى عمدة القرية ، وكان هو رأس الاسرة ، كان يعيش هو وأولاده وزوجات أولاده وأبناؤهم وبناتهم فى بيت واحد٠٠ وحينما أقول بيتا واحدا، لا أعنى مبنى واحدا، ولكننى أعنى مجموعة واحدة تعتمد فى كيانها على هذا الجد ، لا تستطيع أن تقضى فى أمر أو تنقضه الا بارادته ، كان هو المسئول عن طعامهم وكسائهم ٠٠ هم أولاده وأحفاده ، وهم «عزوته» يثبت بهم هيبته ويصون مركزه ، اذا جد ما يدعو الى الدفاع عن مصالحهم ، خفوا الى الدفاع عنها ، لا امتثالا لأمر القانون ولكن امتثالا لامره هو، كان القانون والنظام شيئين فى ظهر الصورة ، أما الشيء البارز فيها فهو سلطة الجد الباترفاميلياس حتى ولو تعارضت مع القانون والنظام ٠

وتوفى جدى فى مستهل هذا القرن (١٩١٧) بعد أن ظل عمدة فى القرية ٣٨ سنة ، وآل منصب رب الأسرة الى ابى فأصبح عليه أن يرعى اخوته الاشقاء ، الصغير منهم حتى يكبر ، والكبير منهم حتى يتزوج وينجب ، ويرعى اخواته من أبيه ، وكانوا صغارا ٠٠ فقد تزوج الجد فى آخر أيامه فتاة صغيرة ٠٠ كان هذا هو تقليد الريف ، كان الرجل يتزوج امرأة واثنتين وثلاثا واربعا ، طبقا للشرع الشريف ٠٠ هكذا كانوا يفهمون الحياة وهكذا كانوا يفهمون الشرع الشريف ؟

وكان للأسرة فى أواخر القرن الماضى ثراء طويل ، بلغ فى بعض الاحيان مائتين وخمسين فدانا ، أخذ الاسراف فى الزواج ، والاسراف فى المظاهر والوجاهة ، مقرونين بسوء التصرف والنزعات القبلية يضيعان منه شيئا فشيئا ، حتى اذا توفى جدى لم يكن لهذه الأسرة سوى ستة عشر فدانا ، ولولا أن أبى كان له نشاط خاص فى تجارة القطن ، لما أمكن ستر المظاهر الاسرية فى قرية محدودة ، اعتادت اسرتنا أن يكون لها فيها مركز خاص ٠ كان الموقف سيئا تماما ، فقد خسرنا مظاهر العمودية ، وأمامنا أسرة منافسة ، أيسر حالا وأقرب احتمالا أن يكون العمدة القادم منها ، وهذا فى ذاته كارثة كبرى ، واشتدت الخصومة فى القرية أعظم ما يكون الاشتداد وانقسم أهلها فريقين ، فريقا معنا ، وفريقا مع الاسرة المنافسة ، وأنا حينئذ تلميذ صغير ، أروح كل صباح الى مدرستى الابتدائية فى الزقازيق وأعود منها اذا أقبل المساء ٠٠ لا يشغلنى شىء الا ما يشغل صبيا صغيرا ، ولكننى لم أكن أستطيع أن أفصل نفسى عن الجو الذى تعيش فيه اسرتى ٠٠ كان الهمس يدور هنا وهناك ، وكان أبى كثير الهم ، بادى الانقباض ، وزاد من كوارث الزمن أن انهار مبنى « الدوار » ذات صباح فجأة بينما كانوا يعدون العدة لترميمه ٠

حقا ان كوارث الزمن تتنادى ، وكأنها على ميعاد ٠٠ تحول هذا المبنى الضخم الى تراب ، وكأنه ابى الا ان يلحق بالرجل الذى طالما جلجل صوته فيه ، وهو يتوعد أهل القرية اذا أساءوا السيرة وينذرهم بالعقاب الشديد ، وبدا أن أسرتنا تتدهور الى الحضيض ، فمن اين يمكن بناء « دوار » جديد والارض المملوكة محدودة والأسرة كبيرة والمظاهر المطلوبة أكثر من الطاقة الممكنة ، وأنا وآخرون من أفراد الأسرة يتعلمون فى المدارس أو فى الأزهر ٠٠ كان هذا أيضا تقليدا من تقاليد الأسر القديمة فى الريف ٠ كانوا يتركون أكثر العائلة فى القرية تزرع الارض وتتواجه وتحفظ التراث القديم ، ويرسلون الى المدينة واحدا أو أثنين أو ثلاثة الى

المدارس يتعلمون فيها لكى يصبحوا « افندية » موظفين يحمون بنفوذهم فى الحكومة نفوذ الأسرة فى الريف ، ويرسلون واحدا أو أكثر الى الأزهر الشريف بركة وتقربا الى الله ، فلابد أن يكون فى العائلة على الآقل رجل من رجال الدين ٠

وهذا ما فعلته أسرتنا ولكن بدا أن الانفاق على هذه الصورة يكاد يصبح مستحيلا ٠ كانت التركة التى تلقاها ابى ثقيلة ، وكنت أحس ثقلها ، واشعر مدى الضنى الذى يواجهه وتواجهه هذه الاسرة ، وارتبط تفكيرى حينئذ بالتفكير فى المصير المنتظر ٠ ولم اشـــهد حولى أى تغيير واضح فى أى مظهر من المظاهر التى اعتدتها ، ولكننى كنت أحس شبح الفقر الكريه يزحف علينا رويدا رويدا ٠ وازعجنى ذات ليـلة همس سمعته ٠٠ البنك الزراعى له قسط على الارض لابد من دفعه (١٥٠ جنيها) والا نزعت ملكية الارض ، ولمحت فى الفجر الباكر حركة غير عادية ٠٠ بعض أفراد الأسرة يسوقون ما نملك من مواش الى السوق لكى يبيعوه ٠٠ لم يكن أمامنا شىء آخر نفعله ٠٠ فى ستر من الظلام أرادت الأسرة ان نستر عن الشامتين من خصومنا فى القرية مانعـــانيه من ضيق ، وما يتهددنا من افلاس ٠

وبينما كنت استعد للذهاب الى مدرستى فى الصباح الباكر ، كانت الدموع تترقرق فى عينى ، وذهبت الى المحطة كى آخذ القطار الى الزقازيق وسرت فى أزقة القرية مخفوض الرأس ، شاعرا بالخجل والاسى ، لم يكن احد فى هذه الســاعة المبكرة فى الشـــوارع والازقة ، ولم يكن احد قد عرف بعد شيئا عن كارثتنا ، ولكننى توهمت ان كل انســـان يعرف ، وتوهمت ان الندى على الشــــجر ، والضوء الجميل الطالع مع النهـــار ، والعصافير الرقيقة التى تتنـــاغى ٠٠ توهمت كأن كل هذا الجمــــال فى حداد ٠٠

كانت كل هذه الكوارث اقوى من ان تتحملها صحة ابى ، فساءت سوءا كبيرا ، وتولته حالة نفسية من الحالات التى لم أعرف لها تفسيرا حتى الآن ٠ كان اذا اصبح الصباح ذهب الى الغيط هو أو اخوته وبعض اصدقائه ، حيث يظل هناك الى أن يقبل المســـاء ثم يعود ، كان أى خير سىء يصيبه بدوار ، كان يكره ان يرى من الناس الا المقربين منه ، وكنت اذا جئت من مدرستى عصرا ، ذهبت اليه فى الغيط ، لا أعرف كيف أعبر له عن أساى وحزنى ، وكان يجهد نفسه كى يبدو أمامى صحيحا معافى ، كان يسألنى ماذا أخذت من الدروس ؟ وماذا حفظت وماذا فعلت ؟ كان

فى مظهره معافى تماما ، لم يكن فى جسده مايؤلمه ، ولكن متاعبه النفسية كانت ترتد على جسده سوء هضـم وقلة نوم ، وانزعاج خاطر ٠٠ كنت أحومْ حوله كالقط الاليف ، أحاول أن ابدو أمام نظره ، اينما اتجه نظره لعلنى كنت اريد ان يزداد اطمئنانا او يزداد رغبة فى الحيـاة ، لعلنى كنت اريد ان ازداد أنا اطمئنانا أو رغبة فى الحياة ٠٠ وما احسب ان هناك علاقات كثيرة بين اب وابن كما كانت العلاقة بينى وبين ابى ، لم يكن الفارق فى السن بيننا يزيد على عشرين عاما ، تزوج فى بكور عمره وكنت أنا أول أولاده ٠ وعندما كان عمرى سنتين انتابه مرض شديد ٠٠ وروى لى القصة فيما بعد ٠ قال : كنت أنظر الى عينيك واشعر بمرارة شديدة ٠ وزاد الامر سوءا اننى حلمت ذات ليلة كأننى فى أرض الاموات وهم يقولون لى : تعـال ٠٠ نحن فى حاجة اليك ٠ قلت لهم منزعجـا : ولكننى شاب صغير وعندى ابن صغير طفل فى حاجة الى تربية ٠٠ سألونى كم سنة تكفى لهذا ؟ قلت لهم : ان الأمر متروك لكم ٠٠ واختلى الاموات بأنفسهم ، عقدوا ما يشبه المؤتمر ، ثم اعلنونى بقـرارهم ، وهو انهم سيتركوننى ١٩ سنة ٠

وتتابعت الصـور امام عينى : عوفى ابى ، وجاءت سـنة ١٩١٩ وارتفعت أسعار القطن ارتفاعا جنونيا ، وكسب ابى من تجـارة القطن مكاسب طائلة ، وبنى « الدوار » الذى انهدم بناية حديثة جميلة ، ولاح لى أن أمورنا تتحسن باطراد ٠

وجاءت سنة ١٩٢١ وانحدرت اسعار القطن انحدارا سريعا مفاجئا وكان عند ابى آلاف القناطير ، فأصيب بصدمة شديدة ، ولكن مظاهرنا ظلت كما هى معتمدة أساسا على الارض القليلة التى نملكها ، وعلى الأمل الذى لم يكن يتخلى عنه أبى فى ان يكون العام القـادم عام خير وبركة ٠ كنت اذهب الى الغيط فى وقت الاجازات وارقب النبات وهو يكبر والقطن وهو يتفتح ، والذرة وهى ترتفع الى السماء عيدانا انيقة رقيقة خضراء ٠٠ ارقب الاولاد والبنات وهم يجنون القطن ويغنـون ، ذاهبين الى الغيط ومنصرفين عنه ٠٠ كانت اناشيدهم تثيرنى وتهزنى ، والجداول الجميلة تجرى معهم او يجرون معها ، يقفزون ويتعاركون ، يبتسمون ويصخبون ، ولكنهم كانوا دائما راضين ٠٠ أشجار الصفصاف التى تحف بغيطنا ٠٠ تلك الحديقةالصغيرة الجميلةالمجاورة لبيتنا ، أشجار الكافور والجازورين ، نبات اللوبية المتسلل ، الفاصوليا التى زرعناها لاول مرة ٠٠ النخيل والبلح ، نسائم الصباح والعصر والمساء ٠٠ تلك الجلسات على شاطىء

الترعة والحلقة الحافة بأبى ، فيهـــا عمد واعيان من الريف وفلاحون ، فيها أحيانا موظفون قادمون من القاهرة وطلاب او مشايخ من الازهر ، صور وشخصيات متعددة ٠٠ اجلس أنا على طرف « المصطبة » اذا كانوا جلوسا عليها او على كرسى فى طرف الغرفة اذا كانوا جلوسا فى الدوار ، اسمع احاديثهم وانصت اليهم ٠٠ فاذا انصرفوا قام ابى يحييهم وابى الا ان يصحب كلا منهم مسافة طويلة او قصيرة ٠٠ كانت سهرات ممتعة ، ندوات فيهـا كل فن من فنون الحديث ٠٠ الدين والســياسة والادب والصحف والاخبار والزراعة والقطن واسعاره والاحزاب والحـكومات ، رجال الادارة ، معاون البوليس ، الحوادث التى وقعت ، الجـرائم التى هزت الناحية هزا ٠

وتدور الصور في خاطرى ، واتلبث عند واحدة منها : الشيخ محمود وهو يقترب منى وانا بعد تلميذ فى المدرسة الثانوية ويهمس فى أذنى : ان شاء الله حتكون قاضى ٠٠ ابى وهو يقول لى وقد اشتعلت البلاد بثورة سنة ١٩١٩ : ياريت كنت دلوقت وكيل نيابة ٠٠ ولم يكن ابى متحمسا للثورة تماما ، بينما كنت انا شديد التحمس لها ٠٠ كنت قد عدت من القاهرة أنا وعمى نصف الطريق على العربات الكارو ونصـفه مشيا على الأقدام ٠٠ كانت المواصلات قد قطعت تماما ٠٠ وكان الانجليز رابضين عند كوبرى بنها ، واقتربنا منها والشمس قد غابت ، والحقول من حولنا غام عليها ضوء المساء الباهت الغامض ٠٠ كنا نجد فى السير ، انا معلق فى ذراع عمى ، اجهدنى طول المسير ، وانا صبى ليست لى قوة البدن وان كان فى جلد الاحتمال ٠٠ قال عمى وهو مشفق على : لا عليك يابنى ، ها هى بنها قد أوشكنا أن نصلها وسنستريح فيها ٠٠ ولـكننا ما كدنا نقترب منها ، حتى التقينا بريفى يسير فى الطريق المضاد يسألنا : الى أين ؟ قلنا الى بنها ، قال حذار ان تدخلوها ٠٠ ان الانجليز رابضون تحت الكوبرى وعند مشارف المدينة ، وهم يطلقون الرصاص على كل داخل بعد غروب الشمس ٠

والتفتنا الى الشمس التى لم يعد لها وجود ٠٠ وكأننا عتبنا عليها ان تركتنا فى هذه الحيرة ٠٠ لو تريثت قليلا ، اذن لدخلنا بنها ، وارتحنا من هذا الترويع الخطير ٠٠ واضطرب علينا الأمر ووقفنا حيث كنا نتدبر ما نصنع ، وكان معنا ثالث طالب فى الازهر من قريتنا وقريبنا أيضا وهو الشيخ عبد السميع شبانه الذى أصبح استاذا بكلية اللغة العربية ٠٠ قال نبيت فى احدى هذه العزب ، نطرق الباب على أى انسان ونقضى

عنده الليل وليفعل الله ما يشاء ·· وقال عمي رحمه الله : ليس أمامنا الا هذا ، لا نستطيع ان نجازف · لقد هربنا من القاهرة المضطربة بالمظاهرات وبنادق الانجليز وخوذاتهم لكى نلقاهم هنا فى طريقنا ·· لم نجد قطارات تسير ، وعز علينا فى كثير من الاحيان ان نجد حتى عربة كارو تنقلنا ·· سرنا على أقدامنا ، وها نحن آخر المطاف نقابل بهذا الخطر الداهم ·· انت يارب على الظالمين · ·ماذا صنعنا ·· وأخذ يتلو آيات من القرآن يؤكد انها ستحفظنا حتما من عدوان القوم الظالمين ، وتابعه الشيخ عبد السميع ، وأخذ يتلو أدعية وابتهالات ، بينما انطلقت انا اتمتم بفاتحة الكتاب ، اقرأها وأعيدها وأعيدها ، ولم اكن احفظ غيرها ·

وحزمنا أمرنا على أن نأوى الى عزبة قريبة منا ، لم يكن بيننا وبينها الا مسيرة دقائق وبينما نحن نتأهب لكى نفعل هذا ، اقبل علينا رجل يبدو من لباسه انه من العمال ، كان متوسط العمر ، يلبس طربوشا وبدلة عليها غبار العمل والجهد : اقرأنا السلام فرددنا عليه ، قال : مالكم واقفون هكذا ·· وافضينا اليه بأمرنا فقال فى صوت حازم : لأ · ماتخافوش ·· تعالوا معاى انا نازل بنها ·· وأعدنا عليه مخاوفنا ، ولكنه أكد لنا أن لا مخاوف هناك ·· وقال أنا من بنها ، لا تخافوا شيئا ،

وسرنا مع الرجل ، المساء يتقدم والظلام يكثف رويدا رويدا ·· المسافة بيننا وبين كوبرى بنها أو المزلقان ليست طويلة ولكننى خلتها دهرا ·· كلما اقتربنا أخذت ركبى تتخلخل ، والصوت المكتوم الذى أدعو به الله يزداد انحباسا ، دقات قلبى تتزايد ·· الصمت القاسى يشملنا فلا نكاد نتكلم ·· حتى أنفاسنا خيل الى أنها لا تتردد ، كنا أشبه بالأموات الذين يسيرون ·· كيف يسيرون ؟ لم يكن ظاهرا فينا من علامات الحياة الا أننا نتحرك ·· حتى وقع أقدامنا غاص فى التراب ، ونحن نقترب من المزلقان ·· النسائم كانت تهب رقيقة ·· لا صوت حولنا الا الصمت ·· ولا دبيب الا القلوب المكتومة فى الضلوع ·· وساءلت نفسى وأنا أسير كالشبح : لماذا ألقينا بأنفسنا الى التهلكة ·· لماذا لم نقض ليلتنا فى أية قرية قريبة ، حتى اذا أصبح الصباح انطلقنا فى أمان ·· ولكن ما فائدة التساؤل الآن ·· لقد أصبحنا كمن دخل فى وسط البحر ، لا يستطيع الارتداد ، حتى ولو كان واثقا أن الغرق يترصده ، وأسلمت أمرى لله ·· وليس للانسان حين تنقطع كل أسباب النجاة الا ان يدع لله الامر ··

واقتربنا ·· خطوات أخرى ·· الليل اقبل ·· الظلام أصبح أكثر كثافة ·· ورأيت شبح جندى ·· لم اتبين وجهه ، بل لم استطع النظر

اليه ، كان امامى شبح الموت ، وانتظرت طلقة الرصاص ، ثم رأيت شبح جندى آخر يتحرك ، على كتفه ما يكون على كتف الجنود عادة من ذخيرة ومعدات ٠٠ وانتظرت الطلقة ٠٠ ولكنها لم تقع ٠٠ لم يقع شيء ٠٠ مررنا على نقطة من الجنود الانجليز ، رأينا اشباحا فى الظلام ٠٠ لم يعترضونا ٠٠ لم نتحدث اليهم ، ولم يتحدثوا الينا ٠٠ واجتزناهم بخطوات فارتدت الحياة الى قلبى ، وجرى الماء فى ريقى واستنشقت ريح الحياة الحلوة ٠٠ وغمرنى نوع عجيب من الراحة والسلام ٠٠ وبعد خطوات أخرى ٠٠ أخذت أنفاسنا تظهر ، بدأ صوتها يرتفع ٠٠ وخطوات أخرى بدأنا نتكلم ٠

وفى المعدية التى نقلتنا عبر الرياح التوفيقى الى بنهـــا ، كانت الجواميس والابقار وبنو آدم فى اختلاط تام ٠٠ والمراكبى يجد بمقاذيفه ، والناس متعددة اغراضهـــم وحرفهم ، فلاحون وعمـــال وطلبة هاربون من القاهرة الى الريف ٠٠ كان منظرنا لافتا للنظر وأخذ الناس يسألوننا عن القاهرة ومظاهراتها ، عن الثورة المجيدة ، عن سعد زغلول العظيم ٠٠ عن ابن الوطن وقائد الوطن وامل الوطن ٠٠

وهبطنا بنها ٠٠ وبحثنا عن لوكاندة ننام فيها ، وقال صاحبهـــا ليست عندى غرف خالية ٠٠ أفرش لكم حصيرة هنا وتنامون ٠٠ وخلعنا ملابسنا ، واشترينا طعاما وأكلنا ، وشكرنا لله أن انقذنا من شر يوم عصيب ٠

وتتابعت الصور أمام خيالى ٠٠ نزلنا القرية حوالى الظهـــر ٠٠ وفرح ابى وهو يتلقانا ٠٠ قال : لقد ارسلت لكم « عمارة » أمس ٠٠ الم يلقكم ٠٠ قلنا : لقد تركنا القاهرة فى الصباح الباكر وقد ذهب عمارة الى القاهرة على قدميه ٠٠وضحك ابى وهو يقول : لابد ان عمارة سيغضب لأنكم لم تنتظروه ٠٠ لقد ســـألته : هل تستطيع أن تذهب الى القاهرة يا عماره مشيا على الاقدام ٠٠٠ أجاب : حمامه يا عمى ٠٠ فى دقيقه ؟

كان هذا هو « عماره » لا تسأله ما اذا كان يستطيع ان يفعل شيئا أى شيء ويقول لك : لا ٠٠ انه يفعله دائما وفى دقيقه ٠

ولم يصل عمارة فى دقيقة بطبيعة الحال ٠ وصل بعد ١٥ ساعة ٠٠ ولما علم أننا عدنا ، رجع هو الآخر فى اليوم التالى ٠

ومر الشريط ٠٠ قضيت فى الريف فترة من الوقت ورأيت الجنود الانجليز بدورياتهم يجوبون القرى ٠٠ لقيتهم على جسور المصارف والترع يركبون خيولهم وهم بكامل معداتهـــم ٠٠ كان منظرهم يرعب الكبـــار

والصغار ، عسكرت فرقة منهم فى ظاهر قريتنا بين دوحة من النخيل الجميل ، ربطوا خيولهم الى جذوع النخل ، ونصبوا خيامهم هنا وهناك واشتروا من القرية البيض والزبد والجبن ، وألف الصبية والاطفال ان يذهبوا اليهم ويعاكسوهم ، يأخذوا منهم علب « البولوبيف » ويعطوهم سعف النخل .. لم يكونوا انجليزا ، كانوا استراليين ونيوزيلنديين .. واستدعوا عمدة القرية يسألونه ويخيفونه .. واستدعوا عمد القرى المجاورة ، وسألوهم عمن قطع السكة الحديد .. اين ذهبت الفلنكات والقضبان .. واجبروا الاعيان والعمد والفلاحين على ان يخلعوا ملابسهم وينزلوا الى الترعة ويبحثوا عن الفلنكات ويرفعوها .. كانت القرية تنام فى رعب وتصحو فى رعب .. والصحف تأتينا قليلا فنقرأ أخبار الثورة .

لم يكن الشيخ عبد الدايم متحمسا للثورة .. كان يقول : ان الانجليز نظموا بلادنا .. أنت لا تعرف يا أبنى ماذا كان قبل أن يجيئوا الينا .. « العملية » كان الفلاح يساق لها أياما وشهورا ، لا يعطى الا أقل القليل .. كان الباشوات يسومونا العذاب ويرد الشيخ على مؤمنا مؤكدا ان الظلم سيعود وان السمك الكبير سيأكل السمك الصغير ؟

كان الخليط من الحديث فى مجالس ابى التى كنت اشهدها يصور مختلف الآراء فى الريف . كان الجيل الجديد شديد التحمس للثورة . وكان الجيل القديم منقسما ، بعضه مع الثورة وبعضه يخشى نتائجها ، ويشفق أن يعود الظلم القديم ، ولم يكن ابى ـ كما قدمت ـ شديد التحمس للثورة وكذلك لم يكن شديد التحمس ضدها ، وقد عجبت ان يكون موقفه هكذا ، وهو حينئذ فى الواحدة والثلاثين من عمره .. كان الشيخ عبد الدايم والشيخ على وغيرهما من كبار السن لهم عذرهم اذا توجسوا من الثورة ، لكنه هو ما عذره ؟

وانى لاذكر الآن والصور تتابع على خاطرى تفسير كلمته التى قالها لى حينئذ : لو كنت انت وكيل نيابة دلوقت ؟ .. اذكر كيف اتضح لى موقفه فيما بعد وهو يروى لى شيئا مما كابده قال : انت لا تعرف ماذا حدث بعد موت جدك . خلا منصب العمودية فى القرية ، وانت تعرف انه ليس فى طبعى ولا فى خلقى أن أكون ميالا لهذا المنصب ، ولكن الكثيرين أغرونى أن أرشح نفسى . وكان هذا أمرا طبيعيا ، فان أبى ظل عمدة فى القرية ٣٨ سنة ، والمنافسة القبلية بين أسرتنا والأسرة المواجهة لها ، كانت توجب على أن أفعل ، وقد فعلت على كره منى ، وجاء مأمور المركز رمضان بك أيوب وهو رجل رقيق أمين عافاه الله .. جاء الى القرية

وأجرى بين أهلها ما كان يسمى حينئذ بالترغيب ، جمعنى والمرشح الآخر وقال : ليقف كل منكم فى جانب وقال لاهل القرية ليقف كل منكم فى صف المرشح الذى يريد أن يكون عمدة فى القرية٠٠ويتابع ابى روايته : وانضم الى صـــفى ثلاثة ارباع القرية ٠٠ وقدم المأمور تقريره بنتيجة الترغيب ٠ ولكن الترغيب ليس هو كل شيء ٠٠ هناك لجنة الشياخات ويرأسها المدير وهى التى تبت فى التعيين ٠

وتلقى المدير توصية من رجل كبير ، موظف كبير ، وعرفت النتيجة مقدما ، ورفضت أن ادخل اللجنة ، تنحيت ٠٠ بينما كان الكثيرون يلحون على أن أدخل ٠٠ وانت تعرف النتيجة بعد ذلك ٠ عين المرشح الآخر ٠٠ لقد حز فى نفسى هذا ٠٠ انه لا يكفى ان تكون صاحب الحق ، بل لايكفى أن يكون لك حق على الاطلاق ، المهم أن يكون لك فى الحكومة من ينصرك ٠

لم يكن متحمسا لثورة ١٩١٩ لانه ظن انها ستفتح الطريق للخواطر والشفاعات ، وتمنى لو جاءت الثورة وانا موظف فى الحكومة ، وكيل نيابة كما كان يرجو ، اذن لجنيت مع غيرى ثمرات الثورة ، واصبحت فى منصب كبير ، احمى فيه أسرتى واذود عنها الظلم ٠

كانت وجهة نظر مفهومة الدوافع فى وقتها ٠ كانت صادقة بالقياس الى الظروف التى مرت به والتجربة التى عاناها ٠

ومر الشريط ٠٠ لم يختر لى كلية الحقوق ، ولكنه ارتاح اذ اخترتها ٠٠ كان يظن انها الكلية التى نخرج كبار الموظفين ٠٠ وهو يريدنى حتما من هؤلاء الكبار ٠

وملأ وجهى الاسى ، وملأ قلبى الانقباض ٠٠ لقد جاء الوقت الذى كان يرجو أن يقطف فيه الثمرة ويرى ابنه موظفا ، وكيلا للنيابة مثلا ، وها هو ابنه لم يدخر جهدا ٠٠ تعب وذاكر وتألم وتحمل وحصل على ليسانس الحقوق وجاء ترتيبه متفوقا ومع ذلك فهو لا يرى الامل قويا فى ان يكون موظفا ، واجهته المأساة نفسها التى واجهته حينما رشح نفسه للعمودية ٠٠ كان يستحق ان يكون عمدة بارادة أهل القرية ، ولكن حيل بينه وبين ذلك لانه لا يوجد رجل كبير فى الحكومة يسنده ٠٠ وهاهو ابنه ، أمله ، له الحق فى أن يكون موظفا ، وموظفا كبيرا ، ومع ذلك فانه لا يستطيع لانه لايوجد فى الحكومة من يسنده ٠

لم يقل ابى لى شيئا من هذا ، بل قال العكس ، ولكننى كنت ادرك كل شيء ، وكنت المح الاسى على وجهه ، لقد استقبلنى بقلب الاب ،

والدمع مكتوم في العين ، انه يرى نفســـه ويراني ، كلانا عاجز عن أنه يفعل شيئا ٠

ومر شريط آخر ٠٠ وأنا تلميذ في مدرسة الامريكان الابتدائية في الزقازيق اذهب كل صباح وأعود مع المساء الرقيق ٠٠ أرى النبت والزهر والطير فى طريقى ، فاذا هبطت المدينة رأيت لونا آخر من الحياة ٠٠ حتى اذا أخذت الابتدائية ، أقامت المدرسـة حفلا فى اخر السـنة ، وأقامت مباراة فى الخطابة بينى وبين طالب آخر وحددت للمباراة جائزة ٠٠ أنى لاذكر هذا اليوم تماما ٠٠ المسـاء الجميل الذى هبطت فيه الزقازيق ، حتى اذا أوغل قليلا ، وحل موعد الاحتفال ذهبت وأنا راجف القلب لكى ألقى الخطبة التى عهد الى القاؤها وكان موضوعها « آمال وآلام » وتدور حول نهضة مصر وتقدمها ٠٠ وألقيتها وعرقى لا يجف ، وقدمى الصغيرة لا ثبات لها ، وصوتى لا أعرف كيف أخرجته ، والعبارات ، لاأعرف كيف نطقتها وانزويت بعد ذلك فى ركن وراء المسرح أدعو وأدعـو ، أدعـو يائسا ، لم أكن أظن أننى ألقيت كلمتى القاء جيدا ، فقد سمعت منافسى يرفع صوته ويدق برجله ويلوح بيديه ، ولم أفعل شيئا من هذا ، كان الخجل والخوف يستوليان على ٠٠ هل يمكن أن انجح ؟ هذا مستحيل ٠٠ وتصورت أبى مرة أخرى حين نذهب اليه فى الصـــباح ، فيعرف اننى فشلت ٠٠ كان ابى صورة دائمة امامى ، وأنا طفل ، وانا صبى ، وانا فتى ٠٠ وها هى صورته الآن أمامى وانا على عتبة الحيـــاة ٠٠ كنت تلميذا من أجـله ، كنت ناجحا من أجـله ، كنت كل شيء لديه ولم أكن شيئا لنفسى ٠٠ كان يخيل الى أنه لابد أن يفرح ، واننى مســـئول عن فرحه ، فاذا اخفقت فانه سيتألم حتما ، وانا مسئول عن هذا الألم ! لم أكن أشعر بالفوز والنجاح لنفسى ، كنت انشده اولا من اجله ، كنت أشعر انه رجل مثقل فى حياته ، كان رقيق القلب ، يغمرنى برحمة لم أر مثيلا لها ٠٠ كانت رحمته الصفة الظاهرة فيه ٠٠ كان يعطى القطة ماتأكل ، ولا يطيق ان يطرد كلبا ٠٠ كان يقرأ أبا العلاء وابا تمام والبحترى وكتاب الاغانى ، والعقد الفريد وكل كتب الأدب القديم ، ويتابع الصحف كلها والمجلات ٠٠ الهلال والمقتطف ٠٠ وكان يشترى كل كتاب جديد : سر تقدم الانجليز السكسونيين ، وقصة مدينتين والاسلام والنصرانية للامام محمد عبده ، والرد على الدهريين وتفسـير فريد وجدى للقرآن الخ ٠٠ وحينما كبرت وجدت مئات الكتب عنده ٠٠ روايات وكتبا وقصصا وادبا وتاريخا ودينا ٠٠ كنت لا أراه اذا كان فارغا من العمل الا وهو يقرأ ٠٠ رأيته ذات مرة يمسك بكتاب انجليزى من كتب السنة الأولى الابتدائية يقرأ

أيضا الانجليزى ، وعجبت · ولم أسأله ، ولكن سألت عمى ، فقال لى انه يأخذ درسا فى الانجليزية ، ان جرجس افندى غطاس يقضى معه كل عصر ساعة ، يعلمه الانجليزية · كان أبى يتاجر فى القطن ، وكان يتعامل مع اليونانيين ، وهم حينئذ سادة هذه التجارة ، ولا ريب أنه كان يشعر بشىء من الضيق وهو لا يعرف لغة أجنبية ·· لماذا اختار الانجليزية ولم يختر اليونانية مثلا ؟ ربما لأنه رأى الانجليزية اللغة الشائعة حينئذ ؟ وربما لأنه لم يجد وسائل تعلم اليونانية ميسرة أمامه ·· وربما لأنه قصد أن يتعلم أية لغة والسلام ··

مرت هذه الصور أمامى وانا منزو فى ركن وراء المسرح فى مدرسة الامريكان بالزقازيق ، منكمشا كالقط الخائف ، ضارعا لله أن يجبر خاطرى ، ومستبعدا فى الوقت نفسه أن يجيب ضراعتى ·· ترى هل يقلب الله سنن الكون من أجلى ·· لقد ألقيت خطابى القاء سيئا والقاه زميلى القاء حسنا ·· وسلمت أمرى لله ، وبينما أنا فى هذه الخواطر ، اذا بولس افندى (أحد المدرسين فى مدرسة الامريكان) يقبل نحوى متعجلا متهللا وهو ينادينى : عبد القادر ·· عبد القادر تعال ·· وهرولت اليه وسرت خلفه وانا لا أعرف شيئا ، واستدار الى الباب الرئيسى لسرادق الاحتفال وسار فى الطرقة الفاصلة بين المقاعد ، وسرت وراءه حتى اذا اصبحت فى الصف الامامى ·· رأيت مدير الشرقية وكان حينئذ محمود قطرى باشا يقول لى مبروك ، ، ويقدم لى مبلغا من المال على صينية فوقها جوخة خضراء ·· وعرفت ان هذه هى الجائزة وان خطابى نال الاستحسان وكانت لجنة التحكيم حينئذ مؤلفة من بعض المدرسين فى المدرسة ومن الاستاذ عبد العظيم عيد المحامى الشرعى فى الزقازيق (النائب الوفدى فيما بعد) ·

واستمر الشريط ·· حصلت على الكفاءة من مدرسة الالهامية الثانوية فى القاهرة ، ثم افتتحت مدرسة الزقازيق الثانوية الاميرية ، فانتقلت اليها ، وتابعت دراستى فى السنة الثالثة الثانوية ·· يا لهذه المدرسة الجميلة الواسعة وذكرياتها الطويلة العريضة ·· كنت فى القسم الداخلى ·· ناظرها محمود بك قاسم ، ومدرسوها هم الاساتذة أحمد محمد العدوى (رئيس قسم الجغرافيا فى جامعة الاسكندرية فيما بعد والأستاذ مصطفى عامر بك (مدير مصلحة الآثار فيما بعد) ·· والأستاذ على حسنين (المفتش بوزارة التربية فيما بعد) كان الثلاثة قد قدموا توا من بعثاتهم فى انجلترا ·· كان الأستاذ العدوى يعطينا التاريخ ، والأستاذ مصطفى عامر يدرس لنا الجغرافيا ، والأستاذ حسنين يدرس لنا اللغة

العربية ، وكان قد نسيها تقريبا بعد ثلاث سنوات بعثة فى انجلترا فلما جاء عينوه مدرسا للغة العربية ، وهى الوظيفة نفسها التى كان يستطيع الحصول عليها من غير بعثة ٠٠ الشر قديم ، وقديم جدا ٠٠

والأستاذ مصطفى عامر يصعب عليه هو الآخر أن يدرس لنا باللغة العربية ، ويعطينا مذكرات مكتوبة بلغة ركيكة مكسرة والاستاذ العدوى أفضل من زميله فى اللغة العربية ، وان كان هو الآخر يعانى نفس المشقة ٠٠ كانت ابتسامته رقيقة ٠٠ كل الفصل عنده مخمد ٠٠ اسكت يا محمد ، بلاش ضحك يا محمد ٠

كنا نحبهم ، نحب هؤلاء المدرسين الذين يعاملوننا برقة جميلة ، وابوة اجمل ٠٠ كان هناك أيضا الاستاذ أمين كحيل يدرس لنا الكيمياء كان انجليزيا مائة فى المائة ، البيبة فى فمه ، والألفاظ عنده بمقدار ، يعطى درسه ويخرج ، ويصحبنا الى المعمل ، فلا نستطيع أن نحدث الجلبة التى يحدثها التلاميذ عادة لأنه كان متجهما ، رسميا مائة فى المائة ٠

سرت في شوارع القاهرة بلا نقود

« قد يكون الصديق أقرب اليك من كل الناس »، فاذا طلبت منه شيئا من المـــال ، قرضا حسنا، تبين لك انه أبعد الناس عنك»

تتابعت الذكريات أمـــام خاطرى وآنا أستعيد فترة دراستى فى مدرسة الزقازيق الثانوية ٠٠ كان هناك مستر « هودجس » يدرس لنا اللغة الانجليزية ويأبى الا أن يعلمنا كيف نؤلف شعرا انجليزيا ، كان أنيقا جدا ، واذا لم تخطئنى فراستى ، فلابد أنه ابن ذوات انجليزى ، ولابد أنه فشل فى دراسته فأراد أهله أن يرسلوه الى مصر للتفرج عليها ٠ لم يكن يتعب نفسه اطلاقا ٠٠ كان يظل خلال الحصة جالسا على كرسيه ، لا يعنى بالمقرر علينا ، بقدر مايعنى بأن يعلمنا الشعر الانجليزى أو يقرأ لنا بعض فقرات أعجبته فى كتابات « رسكن » ٠

وأذكر كيف لاح لنا ذات مرة أن نرد هذا المدرس عما هو عليه من سخف ، فلن نصبح شعراء فى الانجليزية ، ولن نجيد « رسكن » ، اننا نريد أن ننجح فى آخر السنة ٠٠ المقرر علينا رواية « ألان كواترمين » لريدر هاجارد ، ولكنه يتركها الى رسكن ٠ وقررنا أن نقاطعه ٠٠ اتفقنا فيما بيننا على ألا نجيب على أسئلته وألا نقف اذا دخل ٠ كان ماقررناه نوعا من المقاومة السلبية ٠ ودخل الرجل الفصل ، وفى ابتسامته الجميلة ، ونظارته الأنيقة وقف فى وسط الفصل على عادته وحيانا ، فلم نتحرك ، وكان من عادتنا أن نقف ردا على تحيته ، وأدرك الرجل الروح العدائية التى تشيع بيننا ، فجلس على كرسيه ، وبدأ يسأل من أول الصف ، وكان مقعدى عند أحد طرفى الفصل ، ومن حسن الحظ أنه بدأ بسؤاله من الطرف الآخر ، فلم يتحرك التلميذ الذى سأله ، وتركه الى غيره فكانت

النتيجة واحدة ·· وكانت كذلك مع التلميذ الثالث ، فكف عن السؤال ، ووضع وجهه فى كتاب أمامه أخذ يقرأه ، وجلسنا نحن ساكتين الى أن دق الجرس فوقف فى وسط الفصل على عادته ، ولكننا لم نتحرك ، وكان من عادتنا أن نقف لتحيته ، فقال بالانجليزية : سأثبت لكم أن عندى أخلاقا ، ولذلك فاننى أحييكم ··

ورفع يده بالتحية ، وانصرف وتركنا نحن جالسين ، ولكننا شعرنا بالخجل والعرق وأدركنا أنه انتصر علينا ببروده وقوة أعصابه ·

وكان هناك أيضا مستر « براونل » كان يدرس لنا فى البكالوريا·· وكان ارلنديا خفيف الدم « مبهدلا » فى لباسه ، طربوشه لا خوصة له ، مطبق من الوسط ومنخسف من أعلى ، وجهه مثل وجه الكلب «البولدرج» ولذلك أطلقنا عليه هذا الاسم · كان ذكيا مافى هذا ريب ، ولكنه أيضا كان جريئا وسليط اللسان ·· وكثيرا ماكان يجادلنا فى السياسة ويسأل باستخفاف : ـ لماذا تريدون الاستقلال ؟ ونشتبك معه فى جدل حام فيقول : أنتم تتعلمون مجانا ·· وتأكلون مجانا ·· (كنا ندفع حينئذ ٢٠ جنيها مصروفات للقسم الخارجى و ٤٠ جنيها للقسم الداخلى) ·

حدث ذات مرة أن نشب جدال عنيف من هذا النوع فى القسم العلمى بينه وبين الطلبة ، وكان منهم طالب طويل عريض ، يبدو قوى البنية ، فنظر اليه براونل وقال : مجيد هل تقاتلنى ؟ أجابه عبد المجيد الشيخ (فيما بعد اللواء عبد المجيد الشيخ) نعم أقاتلك بكل سرور ·· وخلع مستر براونل جاكتته ، وخلع عبد المجيد جاكتته ، وانقلب الفصل الى حلقة ملاكمة ، وبين ضحك التلاميذ ومرحهم ، انتصر عبد المجيد وقال له براونل : صحيح ·· لقد هزمتنى ··

مر كل هذا على خاطرى ·· اننى فى مفترق الطرق · ان الانسان يحلو له فى مثل هذه المرحلة من الحياة أن يستعيد كل شىء مر به ·· وتذكرت ذات يوم وأنا فى القسم الداخلى أننا شكونا من سوء الطعام · وقررنا الاضراب عن تناوله · فلما انتهت الدروس نزلنا الى المدينة ، واشترينا طعاما جافا ، وعدنا قبل موعد اقفال الأبواب · ودقت صفارة العشاء ·· فلم نذهب الى قاعة الطعام ـ (اليمكخانة كما كانوا يسمونها حينئذ) وانتشرنا فى فناء المدرسة الفسيح نأكل على الرمل أو على المقاعد جبنة وزيتونا وسردينا وبيضا الخ ··

وأخذ الفراشون بايعاز من مجدى آفندى الضابط النوبتجى يدعوننا

الى الدخول ، ولكننا رفضنا ، وجاء هو بنفسه ، وكان شديدا قاسيا . وأخذ يصرخ ظانا أننا سنهابه ، ولكننا صنعنا ودنا من طين وودنا من عجين ٠٠ وأشفق من النتائج ، وحدث هرج ومرج ، وكنا فى بواكير الصيف ٠ وارتفعت أصواتنا بالاحتجاج على سوء الطعام ٠ كنا نقول ان الضباط يأكلون أطيبه ، وان المتعهدين لا يوردون أصنافا جيدة ، وكان طباخ مدرسة الزقازيق حينئذ رجلا ضخم الجثة جدا ، كنا نقول ان الطباخ أيضا يأكل نصفه ٠٠

وأحس الناظر محمود بك قاسم (وكان بيته فى المدرسة) بالضجة ، فلبس بدلته وخرج الينا وسألنا عما نشكو منه ، وأخذ بعضنا يعبر عن مطالبنا ولاح لمجدى أفندى أن يقاطعه فقال له محمود بك قاسم بلهجة آمرة غليظة : اسكت أنت يامجدى ٠٠ وانتهى الأمر بتحقيق مطالبنا كلها٠٠ قرر الناظر انشاء لجنة من التلاميذ تتسلم من المتعهد مايورده من اللحم والفاصولية والارز واللوبية والحبوب الخ ٠٠ وبينما نكون فى الفصل منهمكين فى الكيمياء أو الطبيعة أو التاريخ أو الجغرافيا ، اذا بالفراش يدق الباب ، ليستدعى عضو اللجنة ، فيخرج من الفصل ثم لا يعود الا بعد ساعة أو أكثر أو أقل ٠ ولم يستمر هذا النظام طويلا ٠ فقد تخلف كل أعضاء اللجنة الواحد بعد الآخر ، فقد كان خروجهم يعطلهم ٠٠ وتحسن الطعام بعض الشىء وبعض الوقت ، ثم عاد الى سابق عهده ٠

وذكرت يوم دخل محمود بك قاسم الفصل فى نصف السنة لكى يعلن لنا النتيجة وقال : من الغريب أن الألفه بتاعكم هو أصغركم سنا (وكنت أنا المقصود) وحيانى وشجعنى ٠٠ ذكرت هذا وقلت فى نفسى : كثيرون ممن كانوا معى ، سيجدون الآن واسطة تدنيهم من وظائف النيابة والقضاء ٠٠ أما أنا فلا أجد وظيفة ٠٠٠ وتألمت ٠ انحبست الدموع فى عينى وذكرت يوم أعلن الاستاذ العدوى أننى أخذت أحسن درجة فى التاريخ ٢٤ من ٢٥ وأهدانى كتابا عن حروب نابليون ويوم أعلن الاستاذ مصطفى عامر أنى أيضا أخذت أحسن درجة فى الجغرافيا ١٤ من ١٥ وأعطانى هو الآخر كتابا هدية ٠٠ ماذا صنعت بهذا كله ؟ لاشىء ٠٠ أنا الآن انسان ضائع ، لا قيمة له ٠٠

وذكرت يوم زار السلطان فؤاد مدرسة الزقازيق وما حدث قبل ذلك بأسابيع ٠٠كان الناظر والمدرسون والتلاميذ والفراشون وكل شىء فى المدرسة يرتج ويضطرب وينفعل ٠٠ الناظر لا يكف عن الحركة ، والمدرسة كلها لا تكف عن الحركة ٠٠ ولما أحس الناظر أن كل شىء قد تم

على ما يرام صف التلاميذ ومر هو والمدرسون بيننا كأنه السلطان والوزراء ٠٠ كانت تجربة للزيارة ، وكان المطلوب منا أن نهتف للسلطان والوزراء وهتفنا للناظر والمدرسين : يعيش السلطان ٠٠ يعيش السلطان ٠

وانتهت البروفة ، كان الهتاف فاترا ، فاترا جدا ٠٠ واذا بمنشور يذاع علينا عقب ذلك بتوقيع الناظر فيه أن أى تلميذ يبدو منه تهاون فى الهتاف أثناء زيارة عظمة السلطان للمدرسة سيتعرض لأقسى العقوبات ، منها الطرد فورا من المدرسة ٠٠ وامتلأت المدرسة بجو من الارهاب شديد ٠٠ الانذارات من الناظر والمدرسين تتوالى ، كان التلاميذ بطبيعة الحال كارهين للزيارة وكارهين للسلطان وكارهين لسياسة الحكومة حينئذ ، كان سعد زغلول قد عاد من أوربا فى أوائل سنة ١٩٢١ ، ووقع الخلاف بينه وبين عدلى يكن رئيس الوزارة حول تأليف الوفد الرسمى لمفاوضة الانجليز وحول الأهداف من هذه المفاوضة ٠ وكان من رأى سعد أن تكون رياسة الوفد له وأن تكون أغلبية أعضائه من الوفديين وأن يكون الهدف من المفاوضة الغاء الحماية والاعتراف بالاستقلال التام داخلا وخارجا والغاء الأحكام العرفية والرقابة على الصحف ٠٠ ولم يقبل عدلى أن تكون الرياسة لسعد وقال ان العرف الدولى يوجب أن تكون الرياسة للحكومة ، فرد عليه سعد بخطابه المشهور فى شبرا الذى قال فيه انه لو تولت الحكومة المفاوضة لكان معنى ذلك أن جورج الخامس يفاوض جورج الخامس ، ٠ وانحازت أغلبية الشعب لجانب سعد ، ولم يكن مع عدلى أحد تقريبا الا هذا الفريق الكاره للثورة وهو عدد ضئيل وان كان واسع النفوذ حينئذ ٠

فى هذا الجو تمت زيارة السلطان فؤاد لمدرسة الزقازيق الثانوية ٠ كان التلاميذ والمدرسون والفراشون وربما كان الناظر أيضا وفديا ، ومع ذلك امتلأ جو المدرسة بالارهاب والتخويف حتى لا يشذ تلميذ عما ينبغى من سلوك ٠٠ ولا يضعف صوت فى الهتاف للسلطان ٠

وأعاد الناظر والمدرسون التجربة ، مروا بين صفوف التلاميذ كما لو كانوا السلطان والوزراء ، وهتف التلاميذ بحماسة أشد ، وارتاح الناظر للنتيجة وجاء يوم الزيارة ، وكان الدرس عندنا فى اللغة الفرنسية ٠٠ ومنذ الصباح الباكر وقف مسيو « سوردو » وهو فرنسى طويل القامة عصبى النظرات ، يربى ذقنه على نحو ما يفعل الفنانون ، وكان أشبه بأبى قصادة ، نحيفا ، خفيف الحركة ٠٠ كان يقف لحظة فى الفصل ثم ينطلق الى خارجه ، وينظر من الشرفة على قطار السلطان ٠٠ هل أهل أم لا ٠٠ وكان شريط السكة الحديد مما يمكن رؤيته من هذه الشرفة ٠

وانقضت الساعات مسرعة ، وأشرفنا على الحادية عشرة صباحا ..
وسمع أزيز القطار الخاص فى الأفق ، فانتفض مسيو « سوردو » وخرج كأنما لسعته حية ، وما ان رأى القطار حتى عاد الينا ممتقع اللون ، وقال فى عصبية ظاهرة : « السلطان . السلطان .. » وأخذ يعيد علينا درسه الذى أعاده عشرين مرة ، وكان موضوعه : « البلح والبرتقال فاكهتان فى مصر » كانت هذه هى السنة الأولى لنا فى دراسة اللغة الفرنسية . وكانت معلوماتنا صغيرة . والدرس نفسه صغيرا . وقد حفظناه جيدا . ورتب التلاميذ الذين سيسألهم . وارتجت المدرسة حينما وصل السلطان، وجلسنا فى فصلنا نرقب دورنا .. مامن حركة .. مامن همسة سوى مسيو سوردو تخرج الكلمات من فمه بصعوبة ـ كان قلبه يدق ، ووجهه يزداد امتقاعا . ثم اذا وقع أقدام كثيرة فى الطرقة ، واذا الباب يفتح ، واذا الغرفة تمتلىء .. السلطان فؤاد وقف على الأستاد ومن حوله الوزراء ورئيسهم عدلى يكن والناظر .. حيـــا السلطان مسيو سوردو ، فكاد الفرنسى المسكين أن يقع من طوله وهو ينحنى ، وأخذ الدرس مجراه ، وكان موفقا غاية التوفيق ، وكنت أجلس فى أول الفصـل ، كان الســلطان أمامى مباشرة ، والوزراء حول السلطان ، وحولى من حيث لا يدرون .. استند الى درجى عبد الفتاح يحيى باشا وزير الحقانية ووقف على خطوة منه مدحت يكن باشا وزير الاوقاف .. والى جواره محمد شفيق باشا وزير الأشغال ونجيب بطرس غالى باشا وزير الزراعة ، بينما وقف على استاد الفصل الى جوار السلطان عدلى يكن باشا رئيس الوزراء وحسين رشدى باشا نائبه وثروت باشا وزير الداخلية .. وفجأة سمعت كحة عنيفة صادرة من حيث يقف السلطان ، لم تكن كحة ، كان صوتا أضخم ، وكان مفاجئا .. فاضطربت وكدت أنتفض من مقعدى ، ولكن الخوف والرهبة اللذين شملانى وشملا الفصل كله والجو كله جعلانى وجعلا غيرى يجلسون حيث هم ساكتين صامتين موهومين خائفين .

ومر الشريط .. حلقة أخرى انتقلت الى القاهرة ودرست الحقوق وانتهيت من دراستى .. وهأنذا مرة أخرى فى قريتى .

ونمت ليلتى وهذه الذكريات جميعا معى .. عاشت فى عقلى الباطن، وفى خيالى ولونت أحلامى وأصبح الصباح ، وتلاه غيره وغيره .. أبى فى حيرة وان كان لا يظهرها ، وأنا فى حيرة وان كنت لا أظهرها . أصدقاؤنا فى القرية فى حيرة هم الآخرون ، لقد أعدونى لكى أكون الموظف الكبير الذى يحميهم ، وهاهو الأمل المرتجى بينهم فى قريتهم ، مثلهم تماما

لا موظف ولا يحزنون ٠٠ ليته مادرس ولاذهب الى مدرسة ٠ ليته بقى فى الغيط ، اذن لكان أجدى لأبيه ولنا ٠٠

أحسست بهذه الخواطر كلها ، والايام تتقدم ، أصبحنا الآن فى شهر يوليو ولا جديد ٠ وضقت بالبقاء فى القرية بلا عمل وبلا أمل ٠ قلت لأبى : أريد أن أعود الى القاهرة ٠٠ قال : لماذا يابنى ٠٠ لقد بذلت مجهودا كبيرا ، يحسن أن ترتاح شهرا أو شهرين ٠٠ اعتبر نفسك مازلت تلميذا ٠٠

ولكن هل أستطيع أن أفعل ؟ هل مازلت تلميذا حقا ٠٠ ولمح على وجهى الأسى والقلق والحيرة ، قال : لا تخف ٠ ان عمك الشيخ بندارى عمدة بهنا باى (قرية مجاورة لنا وموطن السيد على صبرى) يعرف راغب بك فودة نائب السنبلاوين ٠ وقد أكد لى أنه صاحب نفوذ فى هذا العهد ويستطيع أن يهيىء لك الأمر كما تريد ٠٠ سيزورنى الليلة وستسمع منه ما يرضيك ٠

وجاء الشيخ بندارى ، رجل دائم الابتسام ، ريفى مائة فى المائة فيه سماحة أهل الريف وطيب عنصرهم ونقاء سريرتهم ، قال لوالدى : لا عليك ، محمد ابنى ، الشيخ عبد الله عمدة اكوه يعرف راغب بك فوده ٠٠ انه لا يرد له طلبا ٠ سنسافر معا الى القاهرة وسيكون الاستاذ معنا (الاستاذ هنا هو أنا) ٠٠

وفى الصباح كنت ورجلان من الاعيان ، عمدتان ، فى طريقنا الى القاهرة ، وهبطنا المدينة الكبيرة ، كان الحر شديدا ٠٠ شهر يوليو كأنه يغلى ، والقاهرة قطعة من الجحيم ٠٠ وبدا أمامى الموج الزاخر من الخلائق فى باب الحديد كأنه يسخر منى ومن صاحبى ، وماذا يصنع عمدتان٠٠ رجلان معممان ، ريفيان ٠ ؟ ماذا يستطيعان فى مدينة ذات قصور ، وقصور ٠٠ ، شيخان ، جهد ما يستطيعان أن يرجوا فى سذاجة الريف وجهد ما يعرفان شارعا أو شارعين وجهدما صح لهما فى الحياة أحاديث على المصطبة وفى الدوار ٠ يزعجهما ضابط البوليس ومأمور المركز ووكيل النيـابة ، وينزل الرعب بهما وكيـل المديرية أو المدير ٠٠ أو أرجو خيرا من وساطة كهذه ؟ وأين أنا من وساطة غيرى : تليفون يدق من قصر الى قصر ومن باشا الى باشا ، يعرف الست والاولاد صيفوا معا فى أوربا أو على الاقل فى الاسكندرية ، تشابكت بينهما المصالح ، واتصلت أسباب التعاون ٠

وبتنا ليلتنا ، وفى الصباح ذهبنا كالمقعد والاعمى ، نجوب شوارع القاهره سيرا على الاقدام ، والشيخ بنداری معه ورقة فيها العنوان : شارع الشريفين رقم ٤ ·· علينا أولا أن نعرف أين يقع شارع الشريفين ، وقيل لنا انه على مقربة من شارع المدابغ (وهو الان شارع شريف) · واهتدينا أخيرا الى العنوان المقصود ، وصعد العمدتان الطيبا القلب على السلالم في العمارة ·· وهما يقولان : يا ساتر ·· يا ســـاتر ·· بسم الله الرحمن الرحيم ·· تقليد من تقاليد الريف اذا صعدا سلما أن يقولا هذا القول ، حتى ينبها الساكنين الى أن رجالا يصعدون السلم ، فتختفى المرأة الواقفة وتتستر المرأة العارية الوجه ·· ولم يسمع أحد لهما ، ان كل انسان ينظر اليهما ، وهما يقودان أفنديا صغيرا منكمشا يقرأ الفواتح والتعاويذ ويسأل ربه المعونة والصبر ، وهو مع ذلك واثق أو شبه واثق أن هذه الوساطة لن تجدى ·· لكنه كالغريق يتمسك بقشة ··

وفتح « نوبى » الباب ·· كان أنيقا ومؤدبا : قال ان راغب بك نائم ، وطلب أن نعود اليه بعد قليل ·· هذه هى الفاتحة ، انها سيئة مافى ذلك شك ، ولكنها لم تكن غير متوقعة ، وعلى الأقل بالنسبة لى ·· أما الرجلان الكريمان فشعرا بأسف وألم شديدين ، ونظرا الى ·· وفهمت كل شيء · كانا يريدان أن يقولا كثيرا · أحسست أنهما شعرا بمهانة ، وشعرا بما هو أقسى منهــا ، لأننى اعتمدت عليهما ، وهاهما يبدوان عاجزين ، وأرادا أن يسترا موقفهما أمامى ، فقالا : صحيح دا راجل « خم نوم » وجلسنا على قهوة قريبة فترة من الوقت حتى اذا أوغل النهار قليلا عدنا واستقبلنا راغب بك بوجه باش وتحية ردت الينا بعض الثقة الذاهبة واعتذر للرجلين الطيبين من سوء تصرف السفرجى ، واصطحبنا الى أخيه أو ابن عمه ـ لا أعرف ـ سيد بك فودة ، وكان حينئذ سكرتيرا أو مراقبا فى مجلس الشيوخ · واستقبلنا الرجل استقبالا فاترا ، وأفضى اليه الرجلان بما جاءا من أجله ونظر الى الرجل من فوق لتحت وقال : انت أحسن اشتغل محامى ··

انكسر خاطرى ، وانكسر خاطر الرجلين الطيبين ، وخرجا من عنده يشتمان ويلعنان ، ولكننى أنا شــعرت بتحد عجيب للزمن والنــاس والاشياء . انقلب الخاطر المنكسر فى نفسى الى أسد يتوثب . اشتعلت فى قلبى ثورة من السخط على كل شيء ، ولست ادرى ماذا جعلنى اضحك واسخر وابدو قويا ، اقوى من الرجل الذى استقبلنا منذ لحظات وردنا خائبين ، أقوى من الرجل الذى لجأنا اليــه ، وأقوى من الدنيا كلها .

أن هناك لحظات تمر بالنفس ، تتبدى فيها القوة الكامنة . وكأنها رد على الضعف القاهر والخوف الظاهر والامل الخائب .. وسرت في الشوارع ، وكأن كل ما فيها عدوى وكأن كل من فيها يسخر منى ، وكأننى أرد لهم عداواتهم بأشد منها وسخريتهم بما هو أقسى منها .. قلت بينى وبين نفسى : أو هذا ذنب لى ؟ اننى انسان مقطوع الوساطة ، ليس لى قريب بيه أو باشا ، ولو كان .. أما كان كل شىء يتغير .. حتى نظرتى للناس والحياة ، حتى حديث هذا الرجل الجاف غير المهذب لى .. لماذا قال لى : انت تشتغل محامى ؟ . من المؤكد انه فعل ذلك لأنه كان من هذا الفريق من الناس الذى يرى ان أبناء الفلاحين لا ينبغى ان يشتغلوا فى وظائف وكلاء النيابة .. انها وقف على أولاد الاعيان والذوات .. لمن وجدت المحاماة اذن ؟

واثارنى هذا الخاطر أكثر وأكثر ، ملأنى رعبا وقلقا واحســاسا بالثورة والضعف .. ومن عجب ان تختلط الثورة فى النفس بالضعف ، لا بل العجب ألا تختلطا ، ان الثورة تنشأ من الضعف والعجز .. والخوف والضعف ميراث من حقب عشناها فى هذا الوطن ، ونحن ننظر إلى الأعلى منا ، وكأنهم من طينة أخرى .

ولم يسلم الرجلان الكريمان بالهزيمة ، وان حاولت أنا أن اخفف عنهما ، وان أؤكد لهما اننى سأشتغل محاميا ، واننى لا اريد ان اكون موظفا .. ولكنهما اصراعلى أن يتابعا سعيهما قالا : نذهب الى محمــود حسن باشا انه وكيل وزارة الداخلية ، وهو من مشتول ، وهى قرية قريبة منا ، ونحن نعرفه ونعرف أسرته ولم أمانع . ســـكت ولكننى احسست مرة أخرى بألم أشد .. أنا اشبه بالبضاعة المعروضة التى لا يريدها أحد .. أو اتعرض لتجربة قاسية أخرى ؟ .. قلت لهما : اذهبا وحدكما وسأنتظركما ..

وعادا وهما يؤكدان لى ان كل شىء على مايرام ، وان محمود حسن باشا وعدهما خيرا .. وادركت كل شىء . ادركت ان مالقياه عند راغب فودة بك وسيد فودة بك هو عينه مالقياه عند محمود حسن باشا .

ورجعا الى الريف ، وآثرت أن أبقى أنا فى القاهرة . كرهت أن أرجع الى قريتى كسيرا مهيضا ، متألما . قلت سأبقى هنا فى هذا الموج .. ان أحدا هنا لا يعرفنى .. اذا سرت فى الشوارع لن يقول أحد : هـــــذا حامل ليسانس متعطل صايع . ثم اننى سأجاهد ..ســأول أن أفتح لى بابا ، أى باب .

والح الرجلان الطيبان على أن أصحبهما ، ولكننى أكدت لهما ان عندى بعض المصالح التى تتطلب بقائى فى القاهرة .. ودعتهما ، وانطلقت فى الشوارع وحدى . مئات الالوف من الناس حولى ولكننى أشعر أننى وحيد .. سيارات تمرق ، وناس يضحكون ، ترامويات تجلجل وباعة ينادون على ماعندهم من بضائع ، نساء فاتنات وشباب لامع ودنيا معطرة ذات اريج ، وأنا .. أنا .. ماذا أنا ؟ وابتسمت . ان فى الدنيا فترات لا يستطيع الانسان أن يحزن فيها ، حتى الحزن يعز عليه ، حتى الشكوى لا تجدى ، حتى الأنين كأنه حرام ، ومن يسمع ومن يقف ومن يعنى بك ؟ لا أحد . لا يكون أمامك الا أن تبتسم ، تبتسم . ومن الابتسام ماهو أشد ألما من البكاء . ان البكاء يفجر الالم الى قطرات من الدمع ، أما الابتسام فانه يجمده ، وهو باق لم يذهب . ومرت أيام وجاء شهر أغسطس ، وأنا أخرج فى الصباح ولا أعود الا فى المساء ، فارتمى على فراشى الموحش الخشن ، أرقب واتألم وأفكر واتبسم وأدير أمرى .. وكتب لى أبى يرجونى ان أعود .. قال وعباراته لا تزال ترن فى خاطرى وتعيش عبر السنين فى أعمق أعماقى : لماذا يابنى تجهد نفسك كل هذا الاجهاد .. أو تظن اننا فى ضيق .. كلا يابنى ان الله يوسع علينا .. تعال لترتاح بضعة أشهر ، أرجوك . وكتبت اليه أقول اننى باق فى القاهرة وليس هناك مايضايقنى .

ومرت أسابيع أخرى وحر أغسطس يكاد يسلخ الجلود . ونفد ما كان معى من مال ، أو أوشك ، وكنت يوما بعد يوم انتظر ما يرسله لى أبى عادة من نقود ، وكنت كل يوم ارتد خائبا ولكننى لا أفقد الامل فى اليوم التالى ، وكنت أعطى دروسا خاصة لابناء رجل ميسور وكان من قريتنا ، وكان الاجر الذى أستحقه عنده قد تجمع ثلاثة أشهر ، وكنت انتظر يوما بعد يوم ان يدفع ما عليه ولكنه لم يكن يدفع ، ولم أكن استطيع أن أطالبه ، ولا أرضى أن أفعل ، كنت أشعر ان هذا لا يليق بى .. ولكن ماذا اصنع ؟ أن لى اقرباء عديدين فى القاهرة ، هل الجأ الى أحدهم واقترض منه .. اننى فى حياتى لم أصنع هذا أبدأ ، ولن أصنعه ، واستبعدت الفكرة .. وذات صباح جمعت نحو ستين نسخة كانت باقية عندى من رواية « وحيد وسوسن » وقلت ابيعها . واخذتها فى حزمة صغيرة ، ودرت على مكتبات شارع درب الجماميز وعرضتها فى استحياء على واحدة بعد أخرى ، فكان أكثر من أعرضها عليهم يرفض شراءها . ثم لقيت صاحب مكتبة بدأ يساومنى فى الثمن : قال : أربعة مليمات النسخة ؟ قلت : لا .. ان النسخة

الواحدة تكلفت قرشين .. قال : السوق كده .. وبعد جهد قبل ان يأخذ النسخة بستة مليمات .. ودفع لى الثمن ٣٦ قرشا ..

ان العبرة فى المال ليست بكميته ولكن بمدى الحاجة اليه .. كانت هذه الستة والثلاثون قرشا أثمن لدى من كل مافى الدنيا من مال ..شعرت بغبطة شديدة وأنا اتناول المبلغ البسيط من الرجل .. وتمثل لى حينئذ ـ وهذه بعض خيالات السن الباكرة فى الشباب ـ اننى اشبه بالعظماء الذين ذاقوا الاسى والالم فى أول حياتهم .. يا للسخرية .. وضحكت من نفسى .. ولكن هكذا الانسان يحاول دائما ، حتى وهو فى اتعس حالاته ، ان يفلسف الدنيا على هواه ..

مسحت حذائى فى باب الخلق ، وقرأت الصحف ، ودخلت دار الكتب أقضى فيها بعض الوقت ـ ونظرت فى الصناديق الزجاجية التى تعرض فيها أحداث المؤلفات ، وسرعان ما استقرت عينى على رواية كنت قد ألفتها وطبعها لى كتبى فى شارع عبد العزيز وسميتها « عذاب الشهداء » أو « فى سبيل الحرية » .. لا استطيع أن اصور مدى الغبطة التى احسست بها حينئذ . شعرت كأننى انسان له قيمة ، والا لماذا عرضت دار الكتب روايتى ؟ لابد انها شىء يستحق الاهتمام والا فلماذا اختاروها دون غيرها لتكون معروضة على الناس ؟

وجلست أطالع بعض الكتب وأنا فى شبه نشوة لا مثيل لها .. اذن أنا انسان معروف .. ونسيت متاعبى وضياعى ونسيت اننى لاأملك من الدنيا الا ستة ثلاثين قرشا نقص منها قرش مسحت به حذائى .. نسيت كل شىء . ان فى الحياة لحظات تعوض الاسى والالم ، وتملأ القلب رضى سلاما .. فكرة التعويض أو مذهب التعويض الذى آمنت به فيما بعد ، فكلما استحضرت حوادث حياتى ، أجد انه صدق معى ، كما لابد أن يصدق مع كل الناس فى كل وقت .

بعد يومين نضب ما معى من مال .. وواجهت الازمة مرة أخرى ، وتولتنى فى الازمة والضياع الفكرة التى راودتنى مرة : كل الناس الذين سيكتب لهم المستقبل العظيم يشعرون بالضياع والحاجة ، وربما احسوا ألم الجوع ، واستهوتنى الفكرة فساعدت عليها .. كنت استطيع أن احصل على النقود من أى واحد من اقربائى ، وما أكثرهم فى القاهرة .. كنت استطيع ان اطلب من أبى نقودا ولو بالتلغراف ولكننى رفضت الفكرة الاولى لاننى لم اعتدها ورفضت الفكرة الثانية ، لاننى ، طول حياتى الدراسية .. لم أطلب من أبى نقودا .. كان يرسل لى بانتظام

ويعطيني ما انا فى حاجة اليه . واكثر مما أنا فى حاجة اليه دون ان اطلب اليه شيئا .

وتمنيت لو تأخر وصول النقود لكى تتم الامارة العجيبة على اننى سأكون فيما بعد انسانا له ذكر ومقام ·· سخافة من غير شك ، ولكن هذه السخافه وامثالها . بعض احلا مراصبا ... لم تصل النقود ، ولم يدفع الرجل الذى أستحق عنده ثلاثة اشهر على تعليم أولاده مالى عنده من نقود ·· والتقيت مصادفة بصديق موظف ممن كانوا منتسبين لكلية الحقوق ، وكثيرا ما ساعدته فى الحصول على المذكرات وفى شرح ما غمض عليه من الدروس .. كنت له خير عون وخير صديق .. ولعل المنتسبين يدركون ما هى قيمة الطالب النظامى المجد للطالب المنتسب ·· دعانى هذا الصديق لتناول طعام الغذاء معه ·· قال ان عنده لحما جاءه من بلده المنيا ، وأطنب فى ذكر محاسن لحم المنيا ·· ووافقت على الدعوة·

وبعد ان تناولنا طعام الغداء ، راودتنى فكرة ان اسأله اقراضى ٥٠ قرشا ·· وطوال الفترة التى قضيتها معه كنت بين الاقدام والاحجام ·· ترددت وترددت ·· استكثرت أن افعل ، ولكننى قلت بينى وبين نفسى خير أن أقترض من انسان غريب عنى من أن أقترض من قريب ، ثم ان هذا الصديق طالما عاونته وطالما اسديت له المعروف ، وهو موظف لا شك عنده مال ، وهو مقتصد مقتر فلا شك ان عنده مالا كثيرا .

وأوشكت أن ينطلق لسانى بالكلمة ، ولكننى قتلتها على طرفه .. وجلست قلقا ، متألما ، فى مثل ضياع الأيام التى أقضيها ·· ثم جاء الوقت الذى لا بد أن انصرف فيه ·· نهضت ، وبينما أنا على الباب اودعه ، شعرت ان لسانى ينطق عبارة متلجلجة ، والعرق يتصبب من جبينى ··.كنت كأنى انسان آخر هو الذى يتكلم ·· لست أذكر ما قلت لا لأن الوقت الطويل مر عليها ، ولكن لاننى قلت ما قلت من غير وعى واذا بى اتلقى الجواب ومعه ابتسامة خبيثة صغيرة باهته صفراء : والله أنا آسف جدا ·· ماعنديش فلوس ··

ولم انظر فى وجهه ·· انصرفت ، ونزلت الى الشارع ، وشعرت بألم لا حد له . وتلقيت درسا لم انسه قط . ان الانسان لا يستطيع أن يعتمد على انسان · قد يكون صديقك أقرب اليك من كل الناس ، فاذا طلبت منه شيئا من المال تبين لك أنه أبعد الناس عنك .. ارتبت فى كل شىء . وسرت فى الشوارع على غير هدى أضرب حيث اشاء وليس فى جيبى غير بضعة قروش أو بضعة ملاليم ··

خطاب صغير غير طريق حياتي

« من عجب أن تجتمع كل المتناقضات في النفس ، ولـكنها كثيرا ما تجتمع ثم يلفهـا النوم وكأنه غطاء يسع كل المآسي والمباهج »

ان للقدر لمصـادفات عجيبة .. أتراه يجرى فى خط مرسوم أم أنها مجرد مصادفا ت؟ لئن قلت أنها مجرد مصادفات ، نقض هذا القول أنها مصادفات تتكرر ، وبصورة تحمل عظة ومعنى ، والمصادفات خبط من غير عظة ولا معنى .. ولئن قلت أنها تجرى فى خط مرسوم كأن قوة عليا تسيرها وتصورها ، لم استطع أن اجد فى كل الحالات ما يؤكد هذا الاحتمال ... لاعترف اذن بعجزى عن تفسير الحوادث تفسيرا ثابتا بمدلول علمى لا يتخلف ، ولأكتف بهذا الاحسـاس الذى يلهمنى أن القدر فيه من العـقل والحكمة ما يفوق أحيانا كل عقل وحكمة ، وفيه من الجهالة والقسوة ما يفوق أحيانا كل جهالة وقسوة .

كان الزميل الذى اعتذر أو بتعبير أدق رفض أن يقرضنى مبلغـا زهيدا (٥٠ قرشا) موظفا حينئذ فى احدى الوزارات ، وكان ـ كمـا قلت منتسبا لكلية الحقوق .. وحصل على الليسانس ، وانتقـل من السلك الكتابى الى السلك القضائى ، وبلغ درجة مستشار فى مجلس الدولة ... حدث فى سنة ١٩٤٢ وكنت حينئذ فى جريدة « الاهرام » أن جاءنى ، وكان قاضيا فى المحاكم ، ودفع الى باعلان وفاة لوالدته ، وقال ارجو أن تدفـع قيمتـه وساحاسـبك عليها فيما بعـد . ودفعت القيمة وكانت ٥٠ قرشا .. أعجب مافى الأمر ، وما لفت نظرى فيه أن المبلغ الذى دفعته له ، ولم يسدده حتى الآن ، هو نفسه المبلغ الذى رفض أن يقرضنى اياه قبل ذلك بستة عشر عاما .

وهذا شيء جانبى محض ، ولكننى تعلمت منه درسا لم انسه ابدا ،

لا بل تعلمت درسين : الاول وهو الأهم ، أن هذا الحادث رج نفسى من أعماقها رجا ، وجعلنى ارتب حياتى فيما بعد ، على الا احتاج الى انسان ابدا . ادركت أن المال مهم جدا فى الحياة ، وانك تستطيع أن تخسر اصدقاءك كلهم اذا دخل المال بينك وبينهم ، وأن النـاس قد يبذلون لك كل شيء ، فاذا اقترب البذل من المال ، تبدلوا تبديلا .. أخذت نفسى على ألا أقترض من أحد ، والا أعرض نفسى للاقتراض من أحـد .

اما الدرس الثانى فقد تعلمته متأخرا جدا (فى سنة ١٩٤٢) وهو انك قد تظن انك لن تحتاج الى الناس ، فاذا الظروف تدفعك دفعا الى ان تحتاج الى معونة من قد تتصور انهم لن يستطيعوا أن يقدموا لك عونا .. تعلمت أن اساعد الناس ما استطعت ، والا أكسر خـاطر أحد لانني شعرت بالانكسار أكثر من مرة .

ولأتابع القصة .. خرجت من عند هـذا الصديق ، ولا مال فى يدى أو فى جيبى .. وأمر المال يهون ، ولكننى خرجت وقد اضطربت فى ذهنى الصغير حينئذ أشياء كثيرة .. ماكنت أظن أن الحصـول على ٥٠ قرشا أمر عسير .. كنت أحسب فى النـاس أخوة وشهامة ومروءة تجبر خاطر الكسير ، وتطامن من الصدر الذى ألم به هذا العسر العسير .. أكنت متألما ؟ أكنت ثائرا ؟ أكنت حزينا ؟ كنت كل هؤلاء ... كنت متألما وثائرا وحزينا ، وكنت فوق كل هذا ضائعا .. وكان أشد ما آلمنى اننى طلبت هذا القرض .. كان ينبغى الا أفعل ، وان أدبر أمرى بأية صورة من الصور ، الا أن اضع نفسى فى هذا الوضع .. وعضضت أصبعى ندما ، وتمنيت لو كان لسانى قطع قبل ان انطق ، أو عقلى توقف قبل أن يصدر هذ القرار الاهوج .

ثم هززت رأسى ، كأننى انفض عنها هـذه الهواجس .. أن فى خلة صـاحبتنى فى حياتى .. اخطىء أو أتهور أو اندفـع أو تضـطرب على الأمور مايشاء الله لها أن تضطرب ، واضيق بها ما اضيق ، ولكننى سرعان ما أطردها طردا ، وأعود الى صفاء الذهن وسكون الخاطر .. ما مضى مضى .. ان كنت قد اخطأت ، فقد اخطأت وانتهى الأمـر ، لآخذ حذرى للمستقبل . لأتهيأ بحيث لا أقع فى الخطأ مرة أخرى .. بل لماذا لا أقع ، اننى اتعـلم منه ، أتمرس به ، أعيش الحيـاة كمـا لابد أن يعيشها كل انسان : مزيجا من الخطأ والصواب ، من الرضى والسخط .

كان صديقى يسكن فى حى السيدة زينب .. فرحت اضرب فى

شوارعه بعد أن خرجت من بيته .. الى اية وجهة لا ادرى ؟ كان الناس حولى والزحمة تملأ كل مكان .. كانت الساعة حوالى الثالثة بعد الظهر، والغبار والحر ، .. والألم فى نفسى أشد من الغبار والحر ، .. ماذا أصنع ؟ لابد أن احصل على نقود .. اقترض من أى أحد آخر حتى ولو كان من اقربائى ؟ .. لا ... ولا .. ونظرت الى أصابع يدى .. كان فيها خاتم صغير من الذهب عزيز على عزة الحياة نفسها ، ولكن ماهى الحياة ؟ . هل احتفظ به واريق ماء وجهى ؟ كلا ... وعرضته للبيع ..

لا أطيل ، كان الألم يعصر قلبى ، ونظرت الى الخاتم الصغير ، وهو بين يدى الصائغ يزنه ويقلبه فى يديه ، وتخيلت كأنه يعتب على .. شعرت كما لو كان كائنا حيا ،له قلب ووجدان ولسان يتكلم .. تخيلت كأنه يقول لى : ياصاحبى .. أو هكذا تتخلى عنى ؟ أنا الذى طالما آنست وحدتك ، وملأت قلبك سلاما وأمنا .. انا الذى طالع وإياك القمر وهو ينير ، والفجر وهو ينبثق .. أنا الذى لمح دموعك وهى محبوسة ، ولمحها وهى تنزل على خديك ساخنة محرقة .. هكذا يا صاحبى تدعنى فى ذمة رجل لا يعرفنى ولاأعرفه ؟

وتخيلت نفسى وكأننى أرد عليه : لن انساك ياصاحبى .. اننى لم اتخل عنك .. تمنيت لو فديتك بأى شىء ، ولكنك تعرف أن ليس معى شىء .. ستذهب ياصاحبى ، ولكنك لن تذهب .

وصحوت من أحلامى ، والرجل الفظ الجامد القلب ينظر الى من وراء نظارته السميكة الكريهة ويقول : خمسة وثلاثون قرشا ياابنى .. ولم يكن فىيدى أن أقول نعم أو لا — أن المسألة لم تكن بالنسبة لى أن الثمن قليل أو كثير .. أن الخاتم يساوى أكثر أو أقل .. كانت بالنسبة لى شيئا آخر لايفهمه هذا الصائغ الذى يتعامل بالموازين والدنانير ، بالذهب والحساب والعيار . هززت رأسى ولم اتكلم .. كان فى هذه الحركة من الألم والأسف والحزن أضعاف مافيها من الرضى والقبول وفهمها الرجل على الصورة التى اردت أن يفهمها عليها ، وكما لايستطيع أن يفهم صورة غيرها ... واعطانى المبلغ ... وتركته ، وسرت بقدم متثاقله ، اتلفت ورائى من وقت الى آخر ، كأننى أريد أن أعود اليه ، ثم لفتنى الزحمة فى غمارها ، وغرقت فى تأملات وخواطر لا حد لها .

حقا ما أعجب القدر .. فى هذا المساء بالذات وصلتنى من أبى حوالة بثمانية جنيهات .. وفى هذا المساء بالذات ، دفع الرجل الذى أعطى

أولاده درسا خاصا ما كان فى ذمته لى ، وكان ستة جنيهات ... وزاد الندم وزادت اللوعة فى نفسى .. لو لم اطلب من هذا الصديق القرض الذى طلبته منه ، لو تريثت بضع ساعات .. لو لم اتسرع فى بيع الخاتم العزيز الذى بعته ؟ .

يوم ومساء وليل حفلت باضطرابات وانفعالات لاحد لها .. واغرقنى الصمت فى التأمل ، وأغرقنى التأمل فى النوم وقلت وأنا أغمض جفونى : كان يمكن ألا أتعرض لهذه المحنة لو صبرت ســاعات وكان ينبغى ان أفعل .. كنت متعجلا أكثر مما يجب ، وأعود فأرد على نفسى : ولكن من أين لى أن هذا كله سيحدث .. لا فائدة من الندم .. ما فات فات .

نمت مجهدا نادما مسرورا راضيا ساخطا .. ومن عجب أن تجتمع كل المتناقضات فى النفس ، ولكنها كثيرا ما تجتمع ، ثم يلفها النوم وكأنه غطاء يسع كل المآسى والمباهج ، وأصبح الصباح ، وتلاه صباح وصباح والحيرة واحدة .. التفكير فى المستقبل يلح الحاحا .

لم يكن فى استطاعتى أن أقيد اسمى فى جدول المحامين ، الا بعد سنتين على الاقل ، حينما أبلغ الواحدة والعشرين ، وكانت هذه الحقيقة غائبة عنى ، ثم عرفتها ، فزادت من حيرتى .. لا وظيفة ممكنة الآن ، والمحاماة نفسها التى تسع الجميع ليست متاحة هى الأخرى .. لم يكن أمامى الا أن أفعل ما أشار به أبى وهو أن أتابع دراستى فى قسم الدكتوراه . وبر أبى بوعده ، وأرسل لى ١٥ جنيها قيمة القسط الاول ودفعته ، واعددت نفسى لكى استأنف حياة الدراسة من جديد .

وتولانى شيء من الرضاء ،ولكنه كان رضاء زائفا ، فلست استطيع أن أذود عن خاطرى اننى حامل ليسانس وأنه يجب أن اكسب رزقى وأن اريح أبى من مصروفات لا شك أنها تثقله ، وان أبدى لى غير ذلك .. وحتى اذا لم تكن تثقله ، فانه يثقل على نفسى أن أبلغ هذا المبلغ من التعليم والنجاح ، ثم أستمر عالة على أهلى .

ورجنى هذا الاحساس وآلمنى آلما شديدا ، وذهبت اطرق أبواب الوظائف وحدى . فقدمت طلبا لوزارة الاوقاف رجاء ان التحق بقسم القضايا فيها .. قلت اذا كانت وظائف النيابة للاعيان والذوات ، فربما كانت وزارة الاوقاف لغيرهم ممن هم ليســوا من الاعيان أو أولاد

الذوات .. قدمت الطلب بطريقة عادية تماما .. استمارة رقم ٦٧ أو شيء من هذا ، لا شك ان كل من التمس عملا فى الحكومة يعرفها .. ولست ادرى لماذا نظرت الى وزارة الاوقاف هذه النظرة .. ربما لأن مبناها نفسه اوحاها لى .. ربما لأن موظفيها الذين قابلتهم وأنا أقدم الطلب وما احسست من تواضعهم هو الذى اوحى لى هذا المعنى .. ربما لاننى اذ تجولت فى ابهائها وطرقاتها ولمست عن كثب أكداس الورق والدوسيهات والنوم والتثاؤب والمكاتب الخالية ، والشاى والقهوة ، والساعى الزرى يملأون ابهاءها ومكاتبها وطرقاتها ، ربما كان هذا كله مجتمعا هو الذى ثبت فى ذهنى هذا الخاطر ، وجعل وزارة الاوقاف أقرب الى من وزارة الخارجية أو الداخلية أو الحقانية مثلا ..

لست أعرف على التحديد ، ولكن هذا هو ما حصل ... قدمت الطلب ، وهز الموظف رأسه وهو يمر مسرعا على سنى والدرجة الجامعية التى حصلت عليها وقال : خسارة والله ياابنى .. ياريت يقبلوك .. ماعندكش واسطة ، وهززت رأسى أنا الآخر آسفا حزينا .. الواسطة .. الواسطة فى كل طريق ، احسست أنها تسد على حتى مسالك الهواء الذى أتنفسه ..

وخرجت أتجول فى طرقات الوزارة ... واقرأ ما على الأبواب من لافتات .. قسم الزراعة .. قسم الاوقاف الاهلية .. قسم السكرتيرية .. قسم القضايا .. ووقفت عند اللافتة النحاسية ونظرت من الباب الى المكاتب الاكثر أناقة ، والى الموظفين الاكثر وجاهة .. وكنت أرقب بعضهم وهم يخرجون حاملين الدوسيهات ، ذاهبين الى مدير القسم أو الى الوكيل .. كنت اتابعهم بعينى وأحيانا بخطواتى ... واتأمل : ترى هل يمكن أن أكون واحدا منهم .. أى واسطة كانت لهم ؟ .. لاح لى من وجوههم البيضاء وأناقتهم الزائدة ، أنه لابد أن يكونوا أولاد ذوات .. هل يمكن أ نيكونوا مثلى من ابناء الفلاحين ؟ .. ولعنت حظى ومصيرى ولكننى سرعان ماارددت نفسى عن لعنة الحظ والمصير .. ماهو الحظ ؟ انه ليس شيئا آخر غير سلوكنا ، ولو سلمت أو استسلمت لما بلغت من حياتى ولا فى حياتى شيئا ..

ونفضت تراب قدمى وانا انصرف من وزارة الاوقاف ، ونظرت الى مبناها العربى العريق وكأننى تمنيت لو أكون من موظفيها .. موظف حكومة يأتينى رزق سهل هين لين ، أروح وأغدو بين المكاتب ، أعرض الورق على المدير والوكيل .

وكما قدمت طلبا فى وزارة الاوقاف ، قدمت فى غيرها من الوزارات والمصالح ... وقلت بينى وبين نفسى : ان تيسرت الوظيفة ، أى وظيفة ، كان بها ، والا فأنا طالب دكتوراه ، لا بأس من سنة أو سنتين اخريين ، ثم أواجه المعركة الحاسمة بينى وبين الحياة .. اشتغل محاميا ، وافرغ فى هذه الصناعة النبيلة العظيمة كل ماتجمع فى نفسى وقلبى وعواطفى من قدرات وانفعالات ، من علم وتحصيل ومعرفة .. لتكن متنفسى ومن يدرى لعلنى حينئذ احتقر الوظائف واشكر لله أن سد طريقها أمامى .

وجاء شهر سبتمبر بنسائمه الرقيقة ، وبدأت الحياة تدب أكثر وأكثر فى القاهرة .. اخذت حرارتها تخف شيئا فشيئا . زاد الظل فى الشوارع ، وكان مهما بالنسبة لانسان يمشى كثيرا .. وجاء شهر أكتوبر وتهيأ كل من فى المدينة العظيمة الكبيرة للموسم .. الذين كانوا فى المصايف عادوا ، التلاميذ والطلاب ملأوا الشوارع ، المدارس بدأت تفتح أبوابها .. والجامعة هى الأخرى على وشك أن تفتح أبوابها ، وأنا أيضا طالب فيها ، فى قسم الدكتوراه .. لست هنا لكى ابحث عن عمل أنا هنا لكى استعد لدخول الجامعة ..

وارضانى هذا التكييف لحالى ، واطمأننت اليه بعض الاطمئنان ، ورحت اتابع — كما أفعل دائما — ظروف بلدى السياسية .. كان البرلمان قد قد أنهى دورته فى شهر سبتمبر .. وربما كانت هذه أول دورة منذ وجدت الحياة البرلمانية فى مصر تبلغ نهايتها فى مثل هذا الموعد المتأخر ، ولكن هذا البرلمان أيضا بدأ دورته فى وقت لم يسبق له مثيل . بدأها فى شهر يونيو ورأس الاجتماع حسين رشدى باشا . واجتمع مجلس النواب بعد ذلك وانتخب سعد زغلول باشا رئيسا له ومصطفى النحاس (باشا) والاستاذ ويصا واصف وكيلين .. كان البرلمان والحكومة نتاج الائتلاف بين الاحزاب . وكان الائتلاف بين الاحزاب نفسه أول تجربة من نوعها فى الحياة البرلمانية المصرية ، وكان الشعب يرقب نتيجة التجربة ويتساءل : هل تنجح ؟ هل يصمد البرلمان فى وقاية الحياة الدستورية ودفعها الى الأمام ؟ . هل يذود عنها شر الائتمار بها ، من أى طريق جاء هذا الائتمار : من القصر أو من الانجليز ؟

كانت التجربة فعلا داعية الى مزيد من اليقظة والحذر والأمل . ولم يفت هذا سعد باشا فطالب فى خطبة الافتتاح بوضع التدابير التشريعية لوقاية الحياة الدستورية من التعطيل مرة أخرى . وقال ان أمامنا طرقا تشريعية كثيرة يمكن أن نتقى بها العبث بهذه الحياة

الغالية لأن حياة الأمم تحت حكومة مطلقة ليست حياة مطلقا ، ان الحياة هى التى يشعر فيها كل فرد من الأمة انه ليس خاضعا الا لأمر واحد هو الدستور والقانون ٠

وهذا الكلام كان مفهوم الدلالة ، فان الأمة لا تعبث بدستورها ، ولكن يعبث به صاحب المصلحة فى هذا العبث ٠٠ كانت الاشارة قوية وجريئة وواضحة ، ولكن القصر لم يكن يستطيع ان يفعل شيئا حينئذ . كانت البلاد قد ضجت من الحكم المطلق ، والانجليز أنفسهم كانوا يريدون أن يجربوا الاتفاق مع حكومة تمثل الشعب والاحزاب ٠ يؤيدها الزعيم الذى أثار روح الوطنية واشعل البغضاء ضد الانجليز ٠٠ ترى هل يقبل وتقبل الاحزاب اتفاقا معقولا مع انجلترا ، أو أنه لايزال ــ كما كان ــ عصيا متطرفا ٠٠ كان المندوب السامي ورجاله ودولته من وراء البحار يرقبون التجربة أيضا ٠٠ نظر اليها الشعب من زاويته ، على انها عودة الى سلطانه وارادته ثم لا شىء آخر ، ونظر اليها القصر على أنها تقليم لاظافره ونزع للسلطة منه ، فهو يتربص بها ، ويرجو أن يكسب يوما من الأيام ، قريبا أو بعيدا ، تأييد الانجليز له فيعصف بالحياة النيابية كلها ..

كانت مصر تتمتع حينئذ بدستور وبرلمان وارادة حرة ، ولكنها جميعا كانت معلقة بإرادة بريطانيا ٠٠ لم تكن هذه المكاسب كلها نابعة تماما من قوة الشعب وبأملائه .. بل كانت نابعة أصلا من الارادة البريطانية ٠ ولم يكن هذا ليقلل بصورة أو بأخرى من الحقيقة التى لم يكن هناك مجال للشك فيها ، وهى أن الشعب يريد الحياة النيابية ، وأنه ابتهج بها وشعر بكرامته ترتد اليه ، وانه انتصر على خصومه ممن أرادوا حرمانه منها ، وحقيقة أخرى لم يكن فيها شك أيضا ، وهى أن الشعب يريد الاستقلال الكامل ... أما ما كان يأمله الانجليز وما كانوا يدبرونه فكان فى ظل الصورة ، وليس فى ظاهرها الواضح للعيان ..

ثم حدث شىء لم أكن اتوقعه .. لقد طامنت نفسى ورضيت وبدات أعد عدتى لاستئناف الدراسة ، وبينما أفعل هذا ، اذا بخطاب يصلنى من أبى ، وفى داخله خطاب تلقاه من الاستاذ كامل البندارى يرجوه فيه أن أقابله فى مكتبه فى أقرب فرصة لأنه «وفق فى ايجاد عمل لى» والعبارة الاخيرة هى تماما ماورد فى خطاب الاستاذ البندارى ٠

وفرحت ٠٠ وطغى الفرح على كل ما قاسيته من ضياع وألم ٠ مسح أساى خلال الشهور الثلاثة أو والأربعة التى انقضت منذ ظهرت نتيجة الليسانس حتى الآن ، ومسح غضبى على الرجل الكريم ، واسفت

إذ سارعت الى اتهامه .. اخذت أفكر : ترى أى عمل وفق اليه الاستاذ البندارى .. هل هو وظيفة فى الحكومة ؟ هل هو وظيفة فى النيابة ؟ هل هو الاشتغال فى مكتبه محاميا ؟. هل هو ؟ هل هو ؟ وأخذت أفكر وأفكر، ولكننى لم اهتد الى تفسير اطمئن اليه ، ثم كففت عن التفكير .. ماذا يعنينى .. انه عمل والسلام ، وأنا فى حاجة اليه .

ولم أضيع وقتا .. ذهبت الى مكتب الاستاذ البندارى فى شارع قصر النيل ، وكانت الساعة حوالى الحادية عشرة صباحا ، فقيل لى أنه فى محكمة مصر فى باب الخلق .. وطرت اليها ، وأنا فى أمل يفرحنى، وقلق يزعجنى وكثيرا ما يكون الفرح مشوبا بالقلق والخوف .. سألت عن الاستاذ البندارى فى قاعة المحامين ، وعرفت أنه يحضر مع الدكتور طه حسين فى التحقيق الذى تجريه معه النيابة فى شأن كتابه عن الشعر الجاهلى . وكان الدكتور طه حسين حينئذ قد كسب شهرة واسعة بأسلوبه الجديد فى الكتابة وآرائه الجريئة .. وكان قد اندمج فى الصراع السياسى واشتهر بعدائه للوفد ، واشترك فى تحرير جريدة السياسة لسان حال الاحرار الدستوريين منذ صدورها فى سنة ١٩٢٢ وكانت « السياسة » تحمل على حكومة الوفد الاولى حملات قوية قاسية ، وظلت على هذه الحملات الى أن قام الائتلاف منذ شهور ، أو بتعبير أدق الى أن عصف القصر بالحياة النيابية » وبدا أنه لا يريد أن يؤثر الدستوريين بالحكم بل يريد أن يعصف بهم هم أيضا .. وقد بدا هذا فى موقفه من كتاب « الاسلام وأصول الحكم » للاستاذ على عبد الرازق .. كانت جريدة السياسة اذن تؤيد الائتلاف مخلصة أو غير مخلصة .. هذا أمر لا يمكن القطع به ، ولكنها فى الظاهر كانت تفعل هذا .. وكان طه حسين وغيره من كتاب الجريدة : الاستاذ توفيق دياب والمرحوم الاستاذ محمود عزمى والمرحوم الاستاذ عبد الحميد حمدى ورئيس تحريرها الدكتور هيكل قد كفوا عن معارضة الوفد والوفديين وجنحوا الى نوع من الهدوء فى العبارة ، بل التأييد للوزارة القائمة حينئذ برياسة عدلى يكن باشا ــ وكان رئيسا للحزب أيضا ..

هل كان مصادفة ان كان الرجلان اللذان أثارا فى مصر أضخم معارك الرأى ينتميان لحزب الاحرار الدستوريين .. الاستاذ على عبد الرازق منذ عام أو أكثر قليلا بكتابه « الاسلام وأصول الحكم » والآن الدكتور طه حسين بكتابه « الشعر الجاهلى » .. هل كان هذا مجرد مصادفة ، أو كان لأن حزب الاحرار الدستوريين كان يضم الصفوة

المفكرة المتحررة ، الطليعة التى تعمل للآراء الجديدة ٠٠ أن الامر ليبدو غريبا أن يكون حزب الاحرار الدستوريين ، وهو حزب كبار الملاك الزراعيين ، هو أيضا الرائد فى الأفكار الجديدة والمتحررة ٠٠ وعندى ان الحزب بذاته وبطبيعة تكوينه لم يكن جديرا أن يحمل هذا اللواء .. بل لم يكن متوقعا منه أن يفعل ذلك ، ولكنه فعل .. كيف حصل هذا ؟. والاغرب أن تكون المعركتان اللتان أثارهما الحزب أو بتعبير أدق أثارهما رجلان ينتميان للحزب ، متعلقتين بصورة أو أخرى بالدين والعقائد التقليدية الثابتة فى اذهان المسلمين .. كيف حصل أن يكون الحزب الذى يتألف من كبار الملاك الزراعيين ، وهم بطبيعة الحال أيضا كبار المحافظين والمتمسكين بتقاليد الدين وغيرها من التقاليد هو أيضا الذى فرضت عليه الظروف أن يحمى ويدافع ويحتضن معركتين مهما يكن الرأى فيهما ، فانهما معركتان تمسان الدين أو على الأقل ظن الجمهور حينئذ انهما تمسان الدين ؟

ثم هناك ما هو ادعى للتساؤل ٠٠ ان حزب الاحرار الدستوريين الذى تألف سنة ١٩٢٢ انما هو امتداد لحزب الأمة الذى تألف فى سنة ١٩٠٧ ، ان لم يكن هو بعينه .. و « السياسة » لسان حاله الآن هى امتداد « للجريدة » التى كانت فى سنة ١٩٠٧ ان لم تكن هى بعينها . وكانت « الجريدة » لمحررها لطفى السيد هى أيضا رائدة للافكار الجديدة وداعية الى حرية المرأة وسفورها واشتغالها بالوظائف ، وكانت مثل هذه الدعوة فى أوائل هذا القرن أقرب أن تكون كفرا ..

تفسير هذا عندى أن الآراء التى كانت تنشرها « الجريدة » والآراء التى كانت تنشرها « السياسة والسياسة الاسبوعية » فيما عدا الجانب السياسى كانت نتاج محرريها وكتابها ، ولم تكن بصورة أو أخرى تعبر عن الرأى الاصيل سواء لحزب الأمة أو لحزب الاحرار الدستوريين ، واذا كان حزب الاحرار قد وقف سواء فى كتاب الاستاذ على عبد الرازق أو فى كتاب الدكتور طه حسين في جانب المؤلفين ، وأثار معركتين من أعنف المعارك فى التاريخ المصرى ، فانما فعل ذلك لاعتبارات عديدة أولها أن المعركتين اتصلتا عن قرب أو بعد بالسياسة والآراء السياسية ٠٠ وهذا واضح جدا فى كتاب « الاسلام وأصول الحكم » اذ كان يمس فكرة الخلافة ، وكان الملك فؤاد يمهد لها ، والحزب لا يحب الملك ولا يحب نزعته فى الحكم المطلق .. ولعل المعنى السياسى أقل وضوحا فى كتاب الشعر الجاهلى للدكتور طه حسين ٠٠ ولكنه عند النظر العميق يظهر أن الصلة قائمة ، فان طه حسين كاتب سياسى من

كتاب جريدة السياسة ، جريدة الاحرار الدستوريين ، وقد أثار اسلوبه اعجاب القراء وكان شيئا جديدا بالنسبة لهم ، فكان يقرأه خصوم الوفد وأنصاره على السواء ، يقرأه الخصوم فينتشون ، ويقرأه الانصار فيضيقون ولكن لا يسعهم الا أن يؤخذوا ببهر هذاالاسلوب الجديد ، فكان لا بد لهم أن يحاربوا هذا القلم الجديد ، الذى رماه سوء حظهم عند خصومهم .. ومن هنا كانت الثورة على كتاب « الشعر الجاهلى » ليست خالصة تماما لوجه الله ووجه الدين .. كانت العناصر التى اثارتها خليطا من الخصوم السياسيين والمتزمتين من رجال الازهر وعلمائه : الاولون انتهزو الفرصة للفتك بالكاتب السياسى العتيد ، ووجدوا الرداء الذى يستترون وراءه .. فلم يكن مستطاعا حينئذ أن يصارحوه بخصومتهم السياسية والائتلاف قائم ، والآخرون كانوا مخلصين فى خصومتهم للكتاب ، وان كان اخلاص بعضهم أيضا مشكوكا فيه .. ولعل بعض الحقد كان يغلفه ، فطه حسين ازهرى انفتحت له آفاق المعرفة ، وانفتح له الطريق الى مجال السياسة والجامعة ، وهو الآن أستاذ فى كلية الآداب ، يحميه حزب كبير ويحميه رأى عام جديد نام مثقف وان كان قليل العدد الا انه واسع النفوذ . كل هذا أثار عليه حقد زملائه القدامى فانتهزوا الفرصة هم الآخرون للفتك به .. ومن هنا ذهبوا فى تأويل ما قاله فى كتابه مذاهب شتى ، فهو يشكك فى نزول القرآن على النبى صلى الله عليه وسلم وهو يفرق بين السور المكية والسور المدنية ويكاد يشعر القارىء أن الفارق بين النوعين يعنى أن النبى صلى الله عليه وسلم قد تأثر بالحياة الجديدة فى المدينة .. وليس بعد هذا كفر الخ ..

وجاء الاستاذ كامل البندارى بعد ان ظللت انتظره ساعة أو بعض ساعة أتأمل قاعة المحامين وأتمنى اليوم الذى البس فيه مثل هذا الروب الجميل . حيانى الرجل فى رقة بالغة ، وأبدى أسفه لأنه تأخر فى التحقيق وقال : ارجو ان تزورنى فى مكتبى فى الساعة الثامنة مساء .

وذهبت فى الموعد . وبعد فترة قليلة صحبنى الاستاذ البندارى فى سيارته الى دار حزب الاحرار الدستوريين فى شارع المبتديان . وقال ان الدكتور هيكل رئيس تحرير « السياسة » كان قد طلب منه ان يدله على شاب متخرج فى الجامعة لكى يشترك فى تحرير «السياسة» وما ان وصلنا دار الحزب حتى دخل غرفة الدكتور هيكل وسلم عليه ، وقدمنى اليه تقدمة لطيفة ثم استأذن فى الانصراف واصبحت انا والدكتور هيكل وحدنا .

أول لقاء بيني وبين الدكتور هيكل

« من النـاس من تألفـه من النظرة الأولى
أو من الاتصال الأول أو من اللقاء الأول » ٠

كان مكتب الدكتور محمد حسين هيكل (باشا) فى الغرفة الأولى على يمين الداخل الى مبنى حزب الاحرار الدستوريين في شارع المبتديان، كانت الغرفة متوسطة لا هى واسعة ولا ضيقة ٠ فيها مكتب كدست عليه الأوراق من غير نظام ، بينما جلس وراءه الدكتور هيكل بجسمه النحيل ونظارته السميكة ، ووجهه الذى اختلطت فيه سمات الريف الاصيل بما أضيف اليها من ثقـافة باريس وروحهـا ٠ ٠كنت أنا كما كنت أنت لا تستطيع أن تقطع بأنه قضى حياته الدراسية كلها فى مصر ٠

تصورت انه من هذا النوع من المصريين الذى لا تقوى ثقافتـه الغربية مهما يكن عمقها ان تلغى شخصيته ولا ان تكسبه الى صفها ٠٠ كان رجلا التقت فى نظراته ثقافة الشرق بثقافة الغرب دون أن تنتصر احداهما انتصارا ظاهرا ، قال وهو يبتسم ابتسامة جعلتنى آنس اليه : لازم الأستاذ البندارى أعطى لك فكرة عن الموضوع ٠

قلت : نعم ٠

قال : قصدنا ان نرتقى بمستوى الصحفيين ٠٠ أكثر المشتغلين بالصحافة لا ثقافة لهم ٠٠ قلنا لو استعنا ببعض المتخرجين فى الجامعة تكون خطوة كويسة للمستقبل ٠ دلوقت يمكن أحسن صحفى ما كملش تعليمه ٠

وسكت الدكتور هيكل لحظة ، بينما سرحت بخاطرى فى تأملات عديدة مختلطة ، حتى لقد تصـورت اننى انفصـلت عن الرجل الذى يحدثنى ، وردنى اليه انه تابع حديثه : ما اعرفش اذا كنت تحب تتعاون معانا فى « السياسة » والا لأ ٠

أجبت : أنا سعيد بالفرصة التى مكنتنى من اننى أشتغل معك ٠

ولاح على وجهه ابتسام رقيق مختلط باحســـاس من الرضى لم يخف على ، قال : انت يمكن تحب تشتغل فى النيابة ٠٠ يمكن تحب تشتغل محامى ٠٠ أنا نفسى كنت محامى فى المنصــــورة لكنى أؤكد لك اننى سعيد بعملى هنا فى « السياسة » ٠

قلت : وأنا أيضا ٠٠

قال : فاضل حكاية المرتب ٠٠ احنا حنديلك ١٢ جنيه ، وسكت لكى يعرف رأيى ، وقلت متعجلا : زودهم شوية ، خليهم ١٥ جنيه ٠٠ على الاقل علشان ما أحسش اننى أقل من اخوانى اللى حيروحوا النيابة أو أقلام القضايا ٠٠ أنا باختار الصحافة ، وهى مورد رزق غير مستقر ٠٠ أرجو ألا يضاف الى هذا ضآلة فى المرتب ٠

تبسم ابتسامة أبوية فيها عطف وقال : أنا ما أقدرش أعدك بأكثر من كـده دلوقت ، لازم أرجـع لاخوانـــا فى الجريدة ، وعلى كل حال دى مسألة يمكن تتحل بعـدين ووافقته شـاكرا ، وودعنى راجيا لى التوفيق ثم قال : بكره ، الصبح تكون هنـا الساعة حداشر ، حاشوفك مرة تانية ٠

تباطأت قليلا ، ثم التفت اليه وأنا منصرف وسألته : هل يمنعنى هذا من الاشتغال بالمحاماة ٠ أجابنى والابتسامة الرقيقة على وجهه الطيب « ما افتكرش » ٠

كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة ليلا ، وأنا أخرج من الباب الضخم لحديقة جريدة « السياسة » وأعود مسرعا الى بيتى ، كنت نهبا لخليط من العواطف والانفعالات ٠٠ ولكننى كنت أسرع الخطى فرحا مبتهجا ٠٠ هل كنت فرحا فرحا خالصا ، هل كان ابتهاجى كاملا ؟ كلا ، لم يكن ٠٠ كنت فى هذا الموقف من مواقف الحياة الذى يبدو بسيطا جدا ، واضحا جدا ، مفرحا جدا ، ولكنك تحس ازاءه على الرغم من ذلك بأن هناك شيئا خفيا خطيرا فى أعماقك ، وكأنه يقول لك : ان القرار الذى أصدرته الآن ليس بهذه البساطة ، ليس بهذا الوضوح ، وليس مفرحا جدا ٠٠ ما هــو هذا الشىء ، لم أتبينه ولكننى أحسسته ٠٠ لم أستطع تفسيره تماما ، ولــكن ظله كان قائما فى نفسى يجعل فرحتى من وقت الى آخر مشــوبة وكأنها ليست كاملة ٠٠كان هذا الشىء أشبه بالنقطة السوداء غير الواضحة على صفحة ناصعة البياض ٠

لقد أحببت الصحافة والصحف منذ كنت تلميذا فى المدارس الثانوية، وحينما دخلت كلية الحقوق كنت أكتب مقالات وأرسلها الى الصحف فكانت تنشرها فى كثير من الاحيان ·· وليس هذا فحسب ، بل اننى وأنا طالب فى كلية الحقوق ، أرسلت الى الاستاذ عبد القادر حمزة (باشا)صاحب البلاغ رسالة أرجوه فيها أن يأذن لى بالتمرن فى جريدته « البلاغ » من غير مقابل ، ولم يرد على بطبيعة الحال ، وقد حزنت لأنه لم يفعل ، وهأنذا الآن يعرض على أن أشتغل بالصحافة وبمرتب فلماذا الخوف والقلق ، لماذا هذه النقطة السوداء التى أحس بوجودها ؟ ·· لماذا لا أفرح فرحا كاملا شاملا ، لماذا أشعر وأنا فى غمرة السعادة وكأنها سعادة زائفة لا حقيقة لها ، ·· لماذا كنت أكتب فى الصحف ؟ لماذا رجوت الاستاذ عبد القادر حمزة أن أتمرن فى جريدته ؟·· لماذا ألفت روايتين للقراءة ورواية ثالثة للمسرح ؟.أليست هذه الامارات كلها دليلا على أن«اللاوعى» فى نفسى يكاد يقول لى هذا مستقبلك ، هذه هى حرفتك ·· ولكننى لم أقتنع بهذا اقتناعا كاملا ·· كان هواى وميلى واتجاهى ، كل أولئك يؤكد لى أننى أسير فى الطريق الصحيح ، ولكن شيئا آخر خفيا كان يقول لى : بل انك أسأت الاختيار ·· كنت تكتب فى الصحف ·· هذا صحيح ، كنت تؤلف روايات ·· هذا صحيح ·· ولكن الكتابة فى الصحف كانت لمجرد الهواية ، وما قصدت أبدا ان أشتغل بالصحافة ، أما تأليف القصص والروايات فنزوة من نزوات الشباب المبكر ، ولا يمكن أن تليق بمتخرج فى كلية الحقوق ، متى نضجت تجربته وتقدمت به السن ·

كنت أسير فى الشارع مسرعا ، وعقلى يضطرب كأنه فى دوامة ، والفرحة تطغى على كل شىء ·· مهما يكن من أمر فأنا الآن صاحب عمل ، ثم ما ضرنى ما دمت سأقيد اسمى فى جدول المحامين وأشتغل بالمحاماة·· ان أحببت الصحافة ووجدت فيها بغيتى ظللت فيها ، والا هجرتها الى المحاماة التى أعددت نفسى لها اعدادا ·· لا بأس ·· ثم لماذا أنسى ، كنت أقرأ مقالات الاستاذ عبد الله حسين المحامى فى الاهرام وأقول بينى وبين نفسى · ليتنى أستطيع متى تخرجت فى كلية الحقوق أن أكون مثله ·· وها هو الدكتور هيكل محام قديم ترك المحاماة واشتغل بالصحافة ، وكنت أعرف ان الاستاذ محمود عزمى درس هو الآخر الحقوق ، وان الاستاذ عبد القادر حمزة درسها أيضا .. كلا ، يجب أن أبتهج .

ثم يطرأ على خاطر آخر · الصحافة ليست مستقرة ، والصراع الحزبى يجعلها فى مهب الريح ، قد تغلق الصحيفة ويشرد المشتغلون بها ، ولكن كل هذه الخواطر المتعارضة المتضاربة لم تقلل من الغبطة التى

شعرت بها ، لا بل من النشوة التي شملتني ·· لقد حلت مشكلتي على خير وجه · أستطيع الآن أن أتابع دراستي للدكتوراه وأن أتكفل بمصروفاتي ·· لم راودني خاطر آخر أزعجني ··؟ أتراني سأوفق في عملي أو لا ؟ ان هذه أول تجربة لي أواجه فيها المجتمع ·· المجتمع العملي ·· لقد نشأت في حرية مطلقة ·· لم أشعر بقيد يحد من هذه الحرية سواء وأنا طفل أو وأنا صبي ، وبعد أن خطوت الى مراحل الشباب ·· لم أشعر بقيد وأنا تلميذ في المدارس الابتدائية والثانوية ، ولا وأنا طالب في الجامعة ·· لم أتعرض لكلمة شديدة من أبي ولا من أساتذتي ·· كنت أؤدي عملي كما يجب ، ولم أرسب مرة واحدة ، فلم تأذن الفرصة لأحد أن يؤنبني أو أن يقسو في معاملتي ·· كنت أحافظ على المواعيد وأؤدي الواجبات في المدرسة وفي البيت ، فلم أشعر الا انني حر في كل شيء ، آخذ ما آخذ وادع ما أدع ·· كانت مع الحرية مشاعر عميقة من الاحساس بالواجب ، وهذا ما صان لي حريتي ، ثم ان حياتي في الريف علمتني الانطلاق ، كنت آنس اليه في مشرق الشمس وغروبها ، في ظلال الليل الذي لا حد له وفي انفساح الافق حولي ، والحقول الخضراء تمتد الى لا نهاية ، وفي النظر في السماء وتأمل غيومها ، زرقتها الداكنة وزرقتها الصافية ، كل أولئك جعل قلبي ينبض بالجمال والحب والهناء في اطار من الحرية المطلقة ·· وجعلتني اللحظات السعيدة العميقة الطويلة القصيرة التي كنت اتأمل فيها النبت وهو ينمو ، والنبت النامي وهو يكبر ·· جعلتني أؤمن بأعجوبة الخلق ، وأنا أرى الطبيعة تتم معجزتها يوما بعد يوم ، وشهرا بعد شهر ·· وحصادا بعد حصاد ، وموسما بعد موسم ·· رأيت أعواد الذرة تجف ، ولقمة العيش تنبض في أغصانها ، وسنابل القمح كالذهب فاذا نفضناها أعطتنا الخير والنعمة ·· زرعت بيدي الازهار ، وتركت في الريف شجرة بل شجرا عمره من عمري ، حفرت بيدي ووضعت بذرتها ·· وهي الآن نامية هناك · .

وهأنذا هنا أواجه مجتمعا جديدا ، فيه أناقة ونور وعطور ، مجتمعا مختلفا تماما عن المجتمع الذي نشأت فيه وغذتني تربته وكونت أحاسيسي ومشاعري ·· قضيت في القاهرة أربع سنوات في كلية الحقوق ، وقبل ذلك سنتين في المدرسة الثانوية ، ولكنني لا أستطيع الزعم بأنني اندمجت في مجتمعها ·· كنت منعزلا ، ربما عن طبيعة في ، وربما لأن ظروفي لم تكن تسمح لي بالاختلاط في أوساط كثيرة ·· ومع ذلك فقد كنت شديد الملاحظة لكل ما يدور حولي ، دائم الاهتمام بالنفسيات والشخصيات

والانفعالات ٠٠ كنت أرقب الجموع ويشوقني تأمل تصرفاتها ،وكنت أؤلف من هذا وذاك لنفسي منهجا في الحياة ٠

كيف أواجه المجتمع الجديد اذن ، سأعمل في الصحافة ٠٠ شيء لم أعد نفسي له تماما وان كنت تمنيته في عقلي غير الواعي ، ثم هو مستقبل غير مكفول ولا هو واضح ٠٠ لست أعرف أحدا من زملائي جرت به طرائق الحياة كما جرت بي ٠٠ كنت القى بعضهم ، فاذا فريق يسعى للالتحاق بالنيابة ، وفريق التحق بها فعلا ، وفريق اتجه الى أقلام القضايا وفريق اتجه الى المحاماة أو الى وظائف السلك السياسي ٠ لم أجد أحدا نحا هذا النحو الذي أوشك أن أجري صوبه ٠٠ هل هو خير أو شر ، هل هو ضمان للمستقبل أو أنه يدفع بي الى مستقبل لا ضمان فيه ٠ وتمنيت لو سمعت آراء الناس في هذا الذي حدث ٠٠ تمنيت لو سمعتها لكي آنس بها ، لكي تقويني اذا كنت قد اخترت الطريق الصحيحة ، ونصحح الخطأ اذا كنت قد انحرفت في الاختيار ٠٠ وكثيرا ما يشعر الانسان ــ حينما تضطرب عليه المسالك ــ انه في حاجة الى رأي عام يسنده ٠ والرأي العام هنا بالنسبة لي هو الوسط الذي يحيط بي ، أصدقائي وأقاربي وأهلي ، ولكم تمنيت في داخل نفسي أن تجيء آراؤهم مؤيدة لاتجاهي وسبيلي ٠٠ انني مغتبط لأن الفرصة تهيأت لي للاشتغال بالصحافة ، ولكنني مشفق من المستقبل ، مضطرب ، لا أعرف ما اذا كنت قد أحسنت الاختيار أو أسأت ٠٠

كان يسكن معي حينئذ صديقان طالبان في السنة النهائية ، وهما شقيقان احدهما الاستاذ ابراهيم نصر علي في مدرسة التجارة العليا (فيما بعد مدير ادارة بوزارة المالية أو شيء من هذا) والثاني الاستاذ أحمد نصر علي في مدرسة المعلمين العليا (ولا بد انه أصبح من كبار رجال وزارة التربية والتعليم) ٠٠ أفضيت لهما بما حدث ، فأبديا اغتباطهما وشجعاني وقضيت ليلتي في خواطر عديدة ومخاوف عديدة ، ومباهج عديدة ٠٠ انني أبدأ مرحلة جديدة وفي بداية كل مرحلة يشعر الانسان كأنه يطرق باب الحياة لأول مرة وكأن أيامها ليست متصلة تماما ٠٠ كأن بعضها ينفصل عن ماض عرفه لكي يستقبل غدا لا يعرفه ٠

وفي الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي كنت في جريدة « السياسة » ولم يكن الدكتور هيكل (باشا) قد وصل بعد ٠

قلت للساعي : ولكنه أعطاني ميعادا في الساعة الحادية عشرة ٠٠ قال : انه لا يأتي قبل الثانية عشرة ظهرا ٠٠ وتضايقت ٠ بدا علي كأنني

ألوم الساعي وألوم الدكتور هيكل (باشا) ٠٠ قلت له مؤكدا : ولكنه أعطاني ميعادا ٠

ولمحت على وجه الساعي شيئا من الضجر مني والاستغراب لشأني وكأنه بينه وبين نفسه يقول : يا لهذا الجاهل ، انه لا يعرف شيئا عن الدنيا ولا شيئا عن الدكتور هيكل ، انه لا يجيء قبل الظهر ، وربما بعده بكثير وربما لا يجيء مطلقا ٠٠ اعطاه ميعادا ٠٠ هل اعطاه صكا ، ما أكثر ما يعطي من مواعيد ، ونظر الى الساعي وقال في غيظ : اقعد يا افندى استناه هنا اذا كنت عاوز ٠

ولم يكن أمامي الا أن اجلس ٠ وجلست في غيظ وضيق شديدين ٠٠ كنت انسانا شديد الايمان بالصدق والدقة في المواعيد ٠٠ وهكذا من أول خطوة أصدم ٠٠ وكنت أيضا انسانا تعلمت في الريف أن أكرم كل الناس وأقابلهم بوجه باش وقلب فيه ايناس ٠٠ وها هو هذا الرجل الجلف يضيق بي لمجرد انني راجعته في حديثه ٠٠ وأحسست كأنني بدأت أدخل سجنا ٠٠ بل تصورت ان هذا المبنى الضخم الجميل الانيق كأنه أسوار سجن حقيقي ، وتصورت هذه الصالة الانيقة الواسعة ذات السقف المرتفع والاثاث الثمين كأنها شيء كئيب كريه ، وجرى خاطري مسرعا الى لون الحياة الذي تعودته ، ونوع المعاملة التي كنت القاها ، سواء وأنا في قريتي أو وأنا في القاهرة ٠٠ لم تكن تدليلا بقدر ما كانت احتراما وتقديرا ٠٠ حتى وأنا صبي شعرت دائما بميزة تحيطني وتقدير جعلني دائما شديد الاعتزاز بنفسي ٠

بدأت البهدلة ٠٠

وأفقت من تأملاتي على وقع أقدام وضحكة عالية ، ووجه الدكتور هيكل يطل علي وأنا جالس شبه غريب ، شبه متطفل ، وقال الرجل في سماحه : تأخرت عليك شويه ٠٠ تفضل ٠

ودخلت معه غرفته في ضوء النهار وسرني ان الساعي الذي أساء استقبالي شهد بعينه ترحيب الدكتور هيكل بي ، فنظرت اليه بعين ليس فيها من الغيظ بمقدار ما كان فيها من الشماتة ٠٠ وأحسست أن كرامتي ارتدت الي ، وان هذا الجلف تلقى درسا لن ينساه ٠٠ هل هو جلف ، ولماذا أظلمه ، ان رجلا كالدكتور هيكل لا بد أن له زوارا كثيرين ولا بد ان بعضهم يدعي انه أخذ ميعادا ، لكي يدخل ويجلس جلستي ، ويفرض نفسه على الرجل فرضا ٠

قال الدكتور هيكل : أرجو ان تعاوننا فى قسم الاخبار ٠٠ الاستاذ عبد الحميد حمدى ، وهو صحفى قديم ، سيصحبك الآن لكى يقدمك الى كبار الموظفين وكبار الشخصيات كى تتعرف اليهم ويتعرفوا بك ٠

وسقط فى يدى ، وشحب وجهى ٠٠ اذن سأشتغل فى قسم الأخبار ، وكان الظن أن أكتب مقالات وينشر اسمى ويذاع بين الناس ٠٠ وحتى هذا كنت مترددا فى اختياره ٠ فكيف يكون الآمر الآن ، والمسألة لا تتعدى أن أكون مندوبا أو حتى رئيسا للمخبرين ، وأجبت وأنا أكاد أبلع ريقى ، كانت هزة رأسى بالموافقة أوضح من الكلمات التى نطقت بها حينئذ ٠٠ مخبر بالليسانس ، شىء مؤلم حقا ، ولكنى لم أتراجع ٠٠ لم أتردد فى أن أقبل ٠٠ كان همى أن أتصل بالصحافة ، أراها وهى تعمل وتدور ٠٠ وهى تنطلق كل صباح نداء فى أفواه البائعين ، وحقيقة ثابتة من حقائق الحياة ٠٠ ولم يكن مندوبو الاخبار فى الصحف حينئذ مثل ما هم عليه اليوم ٠ كانوا أضعف الصحفيين شأنا وأقلهم احتراما ٠٠ وكانوا على الاكثر ممن لا ثقافة لهم أو ممن حصلوا على حظ ضئيل من الثقافة ، وكانت مرتباتهم ضئيلة ، يبلغ بعضها ثلاثة جنيهات فى الشهر ، ويبلغ يوم يبلغ غايته ١٥ جنيها ٠٠

وصحبنى الاستاذ عبد الحميد حمدى فى جولة استغرقت ساعتين تقريبا ، ودار بى على الوزارات والمصالح ، يقدمنى الى كبار الموظفين تقديما رقيقا ٠٠ كان عبد الحميد رجلا فيه طيبة أصيلة ، ونزعة واضحة للظهور ٠ كان شديد العناية بلباسه ، يضع على عينة نظارة من غير أسلاك ، يسندها على أرنبة أنفه ، ولا يكف عن خلعها وتثبيتها من وقت الى آخر ٠٠ بدا لى عصبيا بعض الشىء ، ولكنه لم يكن يكف عن الابتسام لدرجة انك تحس انه جدير أن تأنس اليه ولا تخاف منه ، أحاطنى برعاية أشبه برعاية الاب ، وقال بعد أن خرجنا من عند الشيخ عبد العزيز جاويش ، وكان فى ذلك الوقت مديرا للتعليم الاولى فى وزارة المعارف ، ان الشيخ جاويش من رجال الحركة الوطنية الأوائل ٠٠ حكم عليه بالحبس ثلاثة أشهر بسبب مقال كتبه فى ذكرى حادثة دنشواى ٠

قلت له : ولماذا يرتدى هذا اللباس (كان لباس الشيخ جاويش الكاكولا والعمامة ولم تكن عمامته شبيهة بالعمامة المعهودة فى مصر بل كانت أشبه بلباس الاستاذ أمين الخولى رحمه الله) ٠ قال الاستاذ حمدى : انه ليس مصريا فى الاصل ، ولكنه رجل من الرجال الذين ضحوا من أجل الوطن ، وقد أعطوه هذه الوظيفة أخيرا مكافأة له ، انها أقل مما يستحق ٠٠

من الناس من تلقاه كل يوم ، ومنهم من تلقاه كل يوم طوال سنوات عديدة ولا تشعر انك عرفته ، بل تشعر انك غريب عنه ، فيه شيء غير واضح ٠٠ شيء يبعدك عنه ، أو يبعده عنك ٠ ومن الناس من تألفه من النظرة الأولى ومن الاتصال الأول ومن اللقاء الأول ٠ كان الاستاذ عبد الحميد حمدى من هذا النوع ، شعرت وأنا أسير معه كأنني أسير مع رجل أعرفه من قبل ٠ له فؤاد رقيق ، ونفس مهذبة ، وروح بدا لى انها مثقلة بأسى الزمن ، ولكنها قادرة أن ترتفع على كل أسى ، وتبتسم وكأنها فى راحة وريحان ، وكأن الدنيا على صفاء معه ، ليس بعده صفاء ٠٠ كان من هذا النوع الذى لا يعبأ بالدنيا ، سارت أو تعثرت ، يأخذها على أنها شيء جميل مهما يكن ما يحيط بها من شوك ٠ يعب منها جهد ما يستطيع ، يريد أن يريح نفسه ، ولتجر الدنيا بعد ذلك كما تشاء وكما تريد ٠٠ هل الصحافة هى التى جعلته هكذا ؟ هل هى التى جعلته انسانا رقيقا مع كل الناس ، رقيقا مع نفسه يحبها أشد ما يكون الحب ، يريد أن يتيح لها كل ما يستطيع أن يتيح من راحة بال ونعومة عيش ٠٠ هـل هى التى كونت فلسفته ؟ هل يمكن أن تكون الصحافة التى ذاق حلوهـا ومرها ولم تمنحه الاستقرار ولا المرتب الدائم الثابت ، وارتفعت به وانخفضت ولكنها لم تجرفه قط الى الاعماق ٠٠ هل يمكن أن تكون هى ـ بطبيعتها ـ التى جعلت منه الرجل الذى عرفته ؟ ٠

واستهوتنى شخصيته ٠٠ ليتنى أو ليت الصحافة تجعلنى مثله فلا آسو على شيء ٠٠ ولكن هل أستطيع ؟ هل أستطيع أن أتخلى عن مسئولياتى وأعيش لنفسى ؟ هل أستطيع أن أدع الدنيا حولى تضطرب كما يريد لها الله أن تضطرب فلا أشغل نفسى بشيء سوى نفسى ٠

اننى الآن لست كذلك ، فهل تصنع منى الصحافة رجلا كالأستاذ عبد الحميد حمدى ؟ هل تعلمنى فلسفة جديدة ؟ اننى أعيش فى ضميرهم مسئول عن مشاركة أبى وأسرتى فى متاعبهم ، اننى أعيش فى ضميرهم وكيانهم وهم يعيشون فى ضميرى وكيانى ٠٠ هل تصنع منى الصحافة شخصا آخر ؟ ٠

والتقيت بالاستاذ محمود عزمى فى مساء اليوم نفسه ٠٠ لأول مرة رأيته٠لم أعرف على التحديد ماذا هو ؟ كانت ابتسامته رقيقة ،وصوته خفيضا ، ولكنه عندما يثور كان يضطرب ويقلب الدنيا رأسا على عقب ، فاذا هدأ فهو وديع كالطفل ، هادىء كالنسيم ، يضحك من الاعماق ومع ذلك فلم آنس اليه أولا كما فعلت مع الاستاذ عبد الحميد حمدى ٠ عرف

اننى حامل ليسانس فابتهج لأننى قبلت أن أشتغل بالصحافة ،كان صحفيا بدمه وقلبه وأعصابه ٠٠ وكان يجلس فى غرفة الاجتماعات الواسعة ، مكتبه فى مواجهة الداخل وأمامه وبعرض الغرفة تقريبا امتدت طاولة ضخمة فاخرة وحفت بهـا الكراسى والمناضـــد ٠ كانت هذه هى غرفة الاجتماعات المخصصة للحزب ٠

كانت فى عزمى نكتة ساخرة مكتومة ٠ كنت المح فى وجهه عمقـا يبدو كأنه المكر ٠ أنف مفرطح وعينان ضيقتان وفم فيه امتداد الى يمين والى يسار ٠ ولكنه كان رجلا تحس معه انك مع انسان تمثل فيه الفهم الأصيل ، وانطلاقة الروح التى تأبى القيود ٠ كانت فيه لمحات من المفكر ولمحات من الثائر ، ولمحات من المتآمر المكير ٠٠ كان خليطا عجيبا قلما وجدت مثله يجتمع فى رجل واحد ٠٠ وعرفت انه من الشرقية ، من مركز منيا القمح من « شيبة قش » فجذبنى هذا اليه ، انه ريفى مثلى ، ومن المديرية التى أنتمى اليهـــا ، ومن مركز أقرب مايكون الى قريتى ٠٠ ولمحت فعلا ان كل ما حصله عزمى من ثقافة وتعليم وما صح له من تجربة واسفار ، لم يخف منه طابع الرجل الريفى ، فى شكله وفى بعض تصرفاته ٠٠ اذا مشى فهو مندفع تارة متريث أخرى ، فيه قلق واستقرار ، فيه طيبة ومكر ، فيه ظاهر وله باطن بل فيه باطن وله ظاهر ٠ لم يكن من السهل أن تعرف عزمى تماما ٠٠ كان لابد أن تقرأ مافى داخله أكثر مما تنصت الى حديثه ٠٠ كان لبقا ورقيقا ومجاملا ولكنه كان أيضا « حويطا » اذا صح هذا التعبير ٠٠ ماذا بلغ فى حياته ٠٠ كان حينئذ حينما التحقت بالعمل فى جريدة السياسة فى نحو الاربعين من عمره ٠٠ ماذا بلغ ؟ ماذا حقق فى دنياه ؟

وتمثل لى كأنه صورة من بعض مستقبلى ٠٠ يحتمل أن أكون مثله حينما أبلغ من حياتى شيئا ٠٠ كان يكتب مقالاته كأنه يقيسها ، كأنه مهندس ، كل شىء له معناه ، وكل عبارة لها مغزاها ٠٠ كانت شخصية عزمى تبدو فى كتاباته : رجلا يكتب ما يكتب ويعتمد على فطنة القارىء لكى يعرف ما وراءه ، لم يكن عزمى فى حياته ولا فى شخصيته واضحا ، وكانت كتاباته هى الاخرى تحمل طابعا من شخصيته ليس فيها الوضوح الكافى ، وليست فيها المعانى الصريحة ، وان كان القارىء يحس ان هذا الكاتب رجل عميق ، يعرف أكثر مما يكتب ، ويخفى أكثر مما يبين ٠٠ كان خطه مرتبا واضحا ٠٠ وهذا غريب ٠٠ ولكن لا غرابة هناك ٠٠ ان خطه كان يمثل ظاهره الواضح ، أما كتابته فكانت تمثـــل باطنه غير الظاهر ٠

كنت أحب أن أقرأ له ·· كان يكثر من الاقواس · يكتب المقالة القصيرة فاذا بك لا تقرأ سطرا الا وفيه كلمة داخل قوس ·· وكان مغرما بوضع الفواصل بين الفقرات ، تواجهك « النجوم الثلاثة » فى مقـالاته كثيرا · ولم يكن عزمى غامضا فى شخصيته وتصرفاته وتلميحاته وأحاديثه فحسب ولكنه كان غامضا أيضا فى اتصالاته وزواره ·· وكانوا ذوى طابع يختلف عن زوار غيره ·· ولم يكن عزمى متدينا ، بل لم يكن عزمى مؤمناً ، كان متحررا من كل عقيدة ، وان لم يكن يجاهر بهذا الا قليلا ·· وكثيرا ما ساءلت نفسى فيما بعد : هل كسب عزمى هذا التحرر والانكار لكل شىء من الصحافة ، أو انه كان سيصبح متحررا ومنكرا لكل شىء حتى ولو لم يشتغل بالصحافة ؟

ولم يكن تساؤلى عبثا وانما كان لاننى اخترت الصحافة ، وكانت بغيتى أن أعرف هذه الصناعة لا فى ظاهرها ، ولكن فى أعماقها البعيدة ؟

ماهو الطابع الذى تتركه على المشتغلين بها ؟ الطابع النفسى والعقلى والمادى والروحى ، الطابع الذى يجعل الانسان ماهو الانسان ·

وشغلتنى شخصية عزمى كما لم تشغلنى شخصية أخرى ·· كان الدكتور هيكل أمامى فلاحا ذهب الى باريس فيه طيبة أهل الريف وأصالة منبتهم ، وفيه ثقافة أهل الغرب وتحرر أفكارهم ، دون أن يقطع صلته ببلاده وتقاليدها وروحها ودينها ، ولكن عزمى كان صورة أخرى ·· بقى فيه من الريف بعض الطابع الظاهر ولكنه طرد الريف جملة من قلبـه ووجدانه ، وأحل محله شيئا آخر غريبا · انفصل عنه انفصالا تاما ·

كنت ألمح نوعا من المنافسة بين عزمى وعبد الحميـد حمدى ·· كان حمدى يشغل حينئذ فى « السياسة » مركز سكرتير التحرير ، وكان عزمى يعد المحرر الأول ·· وكان واضحا أن عبد الحميد حمدى أقل عمقا وثقافة ومكرا من عزمى ، وأكثر منه طيبة وصفاء قلب ·· وأخذت ألمح عن بعد وعن قرب ألوانا جديدة من الحياة ، صورا فيها عراك مر خفى ·· لماذا ؟ لم أكن أدرى ·· كانت أخلاقى لا تعرف اللف والدوران وكثيرا ماكنت أسائل نفسى : لماذا الغدر والمنافسة العنيفة ، لماذا هذا الهمس من حين الى حين ؟ ·

وتقدمت الأيام ولمحت أسبابا والوانا من الحقد والمنافسـة والحسد

رجتني رجا ، وأوقفتني في حيرة بيني وبين نفسي ، بين عالمي كما رسمته أو رسمته الاقدار لي ، وبين هذا العـالم الذي اندمجت فيـه ٠٠ قرأت ودرست ودخلت الجامعة ، وخرجت ٠ خالطت ألوانا من الناس ، ريفيين وغير ريفيين ، مثقفين وجهالا ، طلابا وأساتذة ، ناسا من صفوة الناس ، ولكنني خالطتهم جميعا ، في غير عمل ، في غير مصلحة ، في غير منافسة ، والآن ٠٠ هذا مجتمع يلتقي فيه الناس في العمل ٠

انه جو جديد من الحيـاة ؟ عالم جديد ٠٠ أدخله دون أن أعرف ما سيكون مصيري فيه ٠

الصحافة ! ... لا يا شيخ

صدق المثل « لما يسعد الفقى تيجى له ختمتين فى ليـــلة واحـــدة »

ما أجمل الحياة فى مشرقها ، والعمر غض ، والآمال واسعة المدى ٠٠ أكانت لى آمـــال محددة وأنا أغـــدو كل يوم الى عملى فى جريدة « السياسة » وأروح منها ؟ كلا ، لم يكن ٠٠ وانه لأمر عجيب اننى طوال الأدوار التى مرت بى ، لا أذكر اننى مددت نظرى الى ما هو أبعد من يومى ، أو مددت أحلامى الى ما هو أبعد مما أنا فيه ٠ ولكن لا عجب هناك ٠٠ كنت انسانا كثير الشك فى المستقبل ، كثير الخوف منه ، شديد الارتباط بالماضى ، أحيا وأعيش فيه ٠٠ أصبح الماضى ملكى ، عرفت أوله وآخره ، أما الغد فماذا أملك فيه ؟ لا شىء ، سوى اننى أداة له ، قد يأتى ولا يجدنى ٠٠

وبهرتنى الحياة الجديدة ، وفى الوقت نفسه ملأتنى خوفا واشفاقا ٠٠ كان كل شىء جديدا ٠ كنت اصطدم بالحياة كل يوم ، وأرى أشـــياء كثيرة تتهاوى أمامى ، وأشياء كثيرة ترتفع ٠٠ كانت جريدة «السياسة» ، حينئذ رائدة فى الفكر والفن والسياسة والأدب ، كانت اللمعة المتحررة فى وطننا ، وكانت فى الوقت نفسه مكروهة من الناس ، تتهم منهم بكل اتهام صادق وكاذب فهى جريدة الملحدين : هيكل وطه حسين وعزمى ، وهى جريدة المنحرفين عن حقوق الوطن أو على الأقل المتسامحين فيه : عـــدلى يكن وعبد الخالق ثروت ولطفى الســيد ومحمـد محمـــود وأصدقائهم وممن يغشـون جريدتهم : الشيخ المراغى والدكتـــور على ابراهيم والدكتور عبد الحميد بدوى والأستاذ عزيز ميرهم الخ ٠٠ وهى الجريدة الصفراء فى نظر صحف الوفد ، وهى العدو اللدود فى نظر رجال الوفد ، وهى فى نظر الشعب كل أولئك مع استثناء قلة مســتنيرة مهما يكن نفوذها وفهمها فهى قلة منفصلة ــ أو تكاد ــ عن جماهير الشعب ٠

ولئن كان الائتلاف الذى كان قائما حينئذ (١٩٢٦) ردها الى نوع من المهادنة والاعتدال ، وردها الناس الى نوع من حسن الظن بها أو السكوت عنها ، فانه كان واضحا انها فترة مؤقتة ، وان نظر الناس اليها لم يتغير ، وكنت أحس بهذا كله ، ولكننى لم أكن أضيق به ٠٠ كنت سعيدا لأننى أرى هيكل وعزمى وعبد الحميد حمدى وأرى طه حسين وتوفيق دياب، وأرى الشيخ مصطفى عبد الرازق والشيخ على عبد الرازق، وأرى فى زوار الجريدة لونا من الناس ، أشعر أن فيهم فكرا وفهما وانطلاقا ٠٠ وكنت حينئذ فى حاجة شديدة الى الفهم والفكر والانطلاق ٠٠ كنت أرقب الدكتور هيكل وهو يكتب مقاله اليومى ، وأتأمل خطه الذى لم يكن أحد يعرف كيف يقرأه ٠٠ أراه وهو ينمنم الورقة ويوشيها بخطوط متوازية ومتعارضة ، قلما تزينها نقطة واحدة ، وأعجب آخر الأمر كيف يستطيع صفافو الحروف أن يجمعوه ويظهروه على الناس فى اليوم التالى شيئا يقرأ ٠

واخذ الضيق الذى انتابنى اول الامر يذهب شيئا فشيئا ٠ ألفت العمل الجديد كما يألف كل انسان عمله ، وكنت راضيا به مغتبطا ٠٠ ذهبت مخاوفى أو تبددت امام الامر الواقع ٠ وليس لنا ولن نستطيع ان نخاف دائما ، ان الخوف طارىء نحسه عادة ازاء كل شىء جديد ، فاذا الفه الانسان تبدد ٠٠ واخذت اندمج فى العمل اكثر واكثر ٠ لم يكن جمع الاخبار هوايتى ولا هو ما يتفق مع طبيعتى وميولى ، والاهم من ذلك اننى كنت ارى فيه عملا غير مناسب لى ، كنت اكره ان يسىء احد استقبالى ، ولم اكن املك الوجه السميك الذى يتحمل الصد مرة ومرة ، ومع ذلك فقد اديت عملى وبذلت غاية جهدى فيه ٠

كان الاستاذ محمود عزمى يذهب الى مجلس النواب ويسجل مايدور فيه على صورة جديدة فى الصحافة المصرية حينئذ ، كان يرسم بالقلم صورة للجلسة ويحرك اشخاصها ويبعث فيهم الحياة ويعرض الصورة على القارىء فاذا هو لايقرأ محضرا ، ولكن يشهد فيلما سينمائيا ٠ وكانت فى عزمى لمحات فيها خبث وله غمزات يستطيع اذا احتج المقصود بها ، ان يضحك فى وجهه ويفسرها على النحو الذى يرضيه ، فاذا انصرف، انفجر ضاحكا ٠٠ وقال : الحمد لله اللى الناس مابتفهمش ٠

نادانى ذات يوم وقال : ارجو ان تشهد جلسات مجلس الشيوخ وتسجل لنا وقائعها ٠٠ وانفتح امامى مجال جديد للعمل احببته ورأيت فيه لونا امتعنى ، كنت اجلس فى شرفة الصحافة ، واشرف على القاعة

الفاخرة وارى حسين رشدى باشا رئيس المجلس بقامته القصيرة الضئيلة وروحه الفكهة وذكائه اللماح ، وارى عشرات الباشوات والأعيان ، ما بين لابس للطربوش ولابس للعمامة ، ما بين عالم فى الأزهر ومالك من كبـار الملاك في الريف ·· كانت مصر تبدو امامى فى هذا المجلس ، مصر الاعيان وكبار الملاك وكبار المشرعين وكبار الساسة ·

وجريت فى تسجيل الجلسات على رسم النفسيات والانفعالات دون الحاح فى التفاصيل التى تضايق القارىء ، وأبدى عزمى ارتياحه الى هذا الاسلوب وشجعنى عليه ·

كان محمد محمود خليل بك مراقبا للمجلس وكان على غير وفاق مع الصحفيين ، لا يحبهم أو لا يحترمهم ، لست أدرى ؟ وأغلب الظن انه كان لا يحبهم ولا يحترمهم فى وقت واحد · وكانت له حركات لا تضايق غيرى من الصحفيين أو يرونها شيئا مسلما به ، كانوا يكثرون من التودد اليه وتملقه ، وكان يرتاح لهذا ، ويزهو ويزداد انتفاخا ، ولم أكن أفعـل هذا ، كنت اؤدى عملى ولا القى بالا اليه ، ولكن هذه المظاهر ردتنى مرة أخرى الى صلتى بالصحافة ، كنت أحبها كحرفة وكنت سعيدا بهـا ، ولكن مثل هذه الحركات كانت تجعلنى أفكر مرة ومرة مـا اذا كنت قد احسنت الاختيار أم اننى أسأته ، غير ان هذا الخاطر كان لا يلبث أن يزول امام بهر هذه الصناعة العظيمة المجيدة التى كانت تعطينى كل يوم مزيدا من المعرفة ومزيدا من التجربة ومزيدا من الناس ومزيدا من الضوء ممزوجا بالظلام ، ومن الظلام تتخلله اشعة من ضوء ·

وذات ليلة دعانى الدكتور هيكل الى مكتبه وقال متلطفا : انت متعرفش عبد العزيز رضوان (باشا) وكنت أعرفه بالاسم طبعا وأراه فى مجلس الشيوخ ايضا ·· كان عضوا فيه ·· واستطرد هيكل (باشا): هو له شكوى منك ·· انت بتختصر كلامه فى الجلسه ·

والتفت هيكل الى عبد العزيز رضوان وقال له : انت ماتعرفش ان زكى بلدياتك ·

وقال عبد العزيز رضوان وقد ابتسم فى رفق وايناس : كده ·· امال يا اخى ليه متقصدنى ؟ ·

قلت له : مش معقول ، وعلى كل حال سأفعل كل مايرضيك ·

وانصرف عبد العزيز رضوان وقال هيكل وقد اصبحنا وحدنا : كل واحد بيجيب كلامه ينشر ، كأن مافيش كلام غيره · وتبسط فى الحديث واستطرد

قائلا : انا باشوف الويل من اعضاء الحزب٠٠كل واحد يقول خطبة عاوزها تنشر زى ماهى ٠٠ أنا ماكنت محامى فى المنصورة ومبسوط ٠٠ كنت كل سنة اروح اوربا اقضى بها تلات اربع شهور ٠ انا كان مالى ومال الشـغلة الزفت دى ٠

وبعد أن خرجت من عنده ، أخذ هذا الحديث يرن فى أذنى رنينا ويطن طنينا ٠٠ الدكتور هيكل صاحب الاسم الضخم والمتحدث باسم حزب شريك فى الحكم ورئيس تحرير الجريدة ، يضيق بالصحافة ٠٠ ترى ماذا أقول انا وماذا افكر ؟ ٠ لم يكن قد مر على حينئذ فى الصحافة سوى اشهر قليلة ، وذكرت أول التحاقى بالعمل وقول الدكتور هيكل أنه سعيد بعمله فى جريدة « السياسة » ترى ما الذى حوله وجعله يكره الصحافة فى هذه الليلة ؟ ٠ ربما كان طارئا من الضيق من الحزب واعضاء الحزب٠

ربما كان قلقا أصابه كما أصابنى كثيرا وكما يصيب كل انسان فى فترة من فترات حياته ٠ وما أحسب أنه كان يقصد تماما معنى مايقوله٠٠ فقد غمرت الصحافة هيكل بمجد كبير ، واذا كان قد لمع اسمه فى الادب بعد ذلك ، فان أثر الصحافة فى هذا اللمعان غير منكور ٠ عرف الناس هيكل أول ماعرفوه فى جريدة « السياسة » ثم فى جريدة « السـياسة الاسبوعية » بعد ذلك ، وكانت الفصول التى يتبادلها هو والدكتور طه حسين سببا فى شهرة كليهما ، والتفات الادباء والمفكرين والمثقفين الى هذين النجمين الطالعين ٠

كان كل منهما منذ أوائل هذا القرن يكتب فى « الجريدة » تحت كفالة لطفى السيد وأستاذيته ، ولكنهما كانا حينئذ ناشئين ، وكان قراء الجريدة وقراء الصحف عامة حينئذ قليلين ٠٠ أما ظهورهما على صفحات السياسة والسياسة الاسبوعية فقد أعطاهما فرصة ذهبية ٠ وأكثر الكتب أو الجزء الأكبر من الكتب التى صدرت لهيكل أو طه حسين ، انما نبتت بذرتهـا على صفحات الجريدتين أو نشرت فصـولا متتابعة فى السياسة الاسبوعية ٠ ٠وكنا نحـن الطلاب والشـباب حينئذ ننظر الى الكاتبين الكبيرين فى بهر عجيب ، وننتظر حوارهما وفصولهما بشغف شديد ٠٠ لماذا اذن قال هيكل ماقال ؟ ٠ ٠لماذا ضاق بالصحافة هذا الضيق ؟ وآثر عليها المحاماة وأصبح حنينه اليها قويا كسف كل بهر وكل مجد أضفته عليه الصحافة ؟ ٠٠

وتأملت الصورة مرة أخرى ، وراجعت نفسى ٠٠ أتراه حينما قبل أن يدخل ميدان الصحافة فعل ذلك على أنها ميدان الظهور السياسى ، ومن ثم

طريق الى الوزارة والمناصب الكبرى ٠٠ كان هيكل يتكلم بأناة ويضحك من قلبه ٠٠ أكان راضيا ؟ أكان ساخطا ؟ أكان سعيدا مبتسما حقا ، أم هو طلاء على الوجه لابد أن يلبسه الانسان لكى يخفى متاعبه أو يهوش عليها ٠٠ تصورت أن هيكل سعيد غاية السعادة ٠٠ وكنت أغبطه اذ أرى مكتبه غاصا بذوى الرأى والمناصب فى الدولة حينئذ ، وزراء وكتابا وأطباء ومحامين ٠٠ اذن يمكن أن تعطى الصحافة الانسان الاحترام الكبير ٠٠ هل هى الصحافة التى أعطته المركز أو هى السياسة ؟ هل هو القلم أو هو النفوذ السياسى ؟ واضطرب على الجواب ، وأنا أرى ما أراه فى قاعات جريدة السياسة من زوار كبار ، وما أراه حينما أذهب الى مجلس الشيوخ ، ويقابلنا محمد محمود خليل بك بوجهه المتجهم ونظراته المتعالية ، وكأنه ينظر الى حشرات لا ينبغى أن تعيش على الارض ٠٠٠ أصدر أمره ذات مرة بألا يختلط الصحفيون بأعضاء المجلس فى البوفيه ٠٠٠ واحتج الصحفيون ، وأقاموا عليه حربا شعواء ، فاضطر آخر الأمر أن يسحب أمره ٠٠٠ ولكن الموضوع عمق فى خاطرى عمقا شديدا ٠٠ لا ينبغى أن يختلط الصحفيون بأعضاء المجلس ٠٠٠ لماذا ؟ هل الصحفيون من طينة أخرى أوطأ وأقل ؟

كانت كل المظاهر تؤكد هذا ، ولكن شيئا عميقا فى خاطرى كان يؤكد لى العكس ٠٠ كنت أشعر باعتزاز فى نفسى وأنا أشتغل بالصحافة ، ولكن الناس لم يكونوا يشعرون بهذا الاعتزاز ٠٠ قال لى أحد أقربائى وهو آسف حزين : أرجو ألا تستمر فى الصحافة ٠٠ لا ٠٠

وحز فى نفسى الاسلوب الذى تحدث به ، والطريقة التى ألقى بها كلامه ٠٠ « الصحافة ، لأ » وأعقب هذا الكلام بحركة فى وجهه تعنى « ياشيخ بلاش هم ، صحافة ايه » ، وأنا حينئذ كنت ما أزال فى حيرتى ، لا أعرف على التحديد هل أحسنت توجيه حياتى أو أسأت ٠٠ كنت لا أريد أن أعدل عن الصحافة الى أى عمل آخر ، ولكننى كنت أريد أن أجد فيما حولى مايقوينى ويثبت أقدامى ٠٠

سمعت الدكتور هيكل يحدث وهيب دوس بك بالتليفون يقول له . الله يا وهيب انت بقيت جرنالجى والا ايه ؟ وكانت عبارة هيكل تشعر كأن « الجورنالجى » عمل لا يليق بوهيب دوس بك المحامى الكبير ؟

وأكد هذا الخاطر فى نفسى أن أكثر المشتغلين بالصحافة ، ماعدا رؤساء التحرير بل وربما بعضهم ، يعيشون فى شظف ، وشىء يشبه أن يكون الفقر ، ان لم يكن الفقر نفسه ٠٠ كنت أرى منهم ذوى الملابس

المهلهلة ٠٠ كنت أرى منهم جهالا جهلا تاما ونصف جهل ٠ وكان يزورنا بعض الصحفيين من أصحاب الصحف ، وأرى بعضهم يدق الارض بعصاه ، ويرد طربوشه الى الوراء ، لا ربطة عنق مع بدلته ، أو لا بدلة مع ربطة العنق ٠٠ حذاء يجره جرا ، وعقل يجره أيضا جرا ٠٠ ٠وكنت أراهم فى الوزارات يجرون وراء الموظفين ويقدمون لهم تحيات مباركات طيبات . هى الى النفاق والشعور بالضعة أقرب منها الى الاحترام والشعور بالمساواة ٠٠ ولم يكن هؤلاء الموظفون من كبارهم ، بل كانوا فى كثير من الأحيان من الصغار ٠٠ رأيت هذا كله ، وقر فى ذهنى مالابد أن يقر فيه ، وهو أن الصحافة مهنة لاتزال صغيرة ضئيلة القيمة ٠٠ وكنت اذا ضمنى مجلس مع بعض الناس ، وقدمونى الى من لا أعرفه منهم على أننى صحفى ، لم أجد احتفالا ولا اهتماما وكان الأمر يزداد سوءا حينما يقال لهم اننى متخرج فى كلية الحقوق ، فاذا بهم يبدون الأسف ويقولون : ليه ٠٠٠ تعمل كده ٠٠ شوف لك وظيفة أحسن ٠٠٠ وكنت أقابل بعض زملائى وكانوا يزورونني فى بعض الأحيان ، فأرى منهم المحامى ، وأرى منهم وكيل النيابة ٠٠ وزارنى صديق كنت واياه أيام الدراسة لا نكاد نفترق ٠٠ قال انه مرشح لوظيفة فى السلك السياسى وان أمر التعيين سيصدر قريبا ٠٠ لست أدرى لماذا نظرت اليه باحترام أكثر مما نظرت الى نفسى ، ورأيت أنه أحسن الاختيار ، وبت ليلتئذ فى ضيق ٠٠ ان هذا الصديق كان من أواخر الدفعة ، ماذا فعل حتى وصل الى هذه الوظيفة ٠٠ كنت أعرف أن له قريبا ، عمه وكيل احدى الوزارات ٠٠٠ أتراه هو الذى مهد له الحصول على هذه الوظيفة ؟

على أن هذه الخواطر وهذا القلق لم يكن ليثبت معى الا فترات قليلة جدا ، فاذا ذهبت الى جريدة « السياسة » والتقيت بالحياة الحافلة فيها ، ردتنى الى شىء كثير من الرضا ، وشىء كثير من التحمس ٠ وأخذت أترجم بضع قصص لجريدة « السياسة الاسبوعية » وأكتب بعض مقالات ينشر بعضها فى السياسة والسياسة الاسبوعية ، فكنت أشعر بتعويض ضخم جدا ، وأحس كأننى انسان له اعتبار ، خير من كل الموظفين ، وخير من كل رجال السلك السـياسى ٠٠ أدركت حينئذ ، فى كل مرة رأيت اسمى مدرجا فى آخر مقال ، ان هذه هى وظيفتى ، وهذا هو عملى ، وهذا هو قدرى فى الحياة ٠

لم يعترض أبى على اختيارى الصحافة ، ولم يبد لى أية ملاحظة ، وان كنت قد لمحت على وجهـه مايشبه الدعاء ألا تكون هذه وظيفتى الى آخر الشوط ٠٠ وعرف أهل القرية بما كان من مصيرى ٠٠٠ ومن حسن حظى

انهم لم يكونوا يعرفون ما هى الصحافة ولا ما هى الجرائد ، فظنوا أنها وظيفة بالغة الأهمية ، وهكذا الانسان يعظم ما يجهله • وحمدت الله انهم لا ينظرون الى الصحفيين النظرة نفسها التى أراها فى القاهرة • ولعلهم ظنوا ان الصحافة شيء جديد فى الحياة ، وما أكثر ماكانت تأتيهم الحياة بالجديد •

عرفت فى جريدة السياسة وزاملت على بليغ : « فرفورة » لا يستقر ولا يهدأ ، •• يتكلم كثيرا ولا يغضب أبدا ، يعرف الرؤساء ومن بيدهم الأمر فيغرقهم فى سيل من المديح والاطراء •• قصير مع طربوش طويل ووجه لا يخلو من وسامة ، وعين لا تخلو من ذكاء وفم لا يكف عن الابتسام ، وسيجارة فى يده كأنها قلم ، وحديث يدور به لسانه • كان على فهم ومعرفة بالناس •• خفيف الظل ، يخلط أحاديثه بمبالغات ، أو يخلط مبالغاته بأحاديثه ، فلا تعرف هل هو يقول الصدق أو يحـــاول أن يرضيك ••

وزكريا منصور ، طويل ، شعره كث ، يبدو عالما بكل شيء ، وكأنه هو الذى أنشأ « السياسة » ولولا فضله ما كانت لتظهر •• كثير الصمت قليل الكلام ، يتحدث بمقدار ويتحرك بمقدار ، ويطلق الكلام من أنفه كأنه هيكل أو عزمى ، يعرف الموظفين ويوهم السامع بأنهم كلهم مدينون له ، وهو ليس مدينا لاحد منهم •

وعزيز طلحة ، أنيق طويل ، رقيق يريد ان يكون رئيسا ولو لم يكن ، يشعر انه أفضل من اخوانه ، لانه فعلا أكثر منهم ثقافة ، يعرف بعض الانجليزية ويعرف بعض الفرنسية ، يمسك التليفون بيدء ، وكأنه ملك ، ويدير القرص لكى يسأل مدير ادارة عن خبر ، فنشعر كأنه يدير الدنيا ويلفها حول عنقه •• فاذا وضع السماعة بعد همس قليل أو كثير ، نظر الى من حوله وكأنه عرف أسرار الدنيا جميعا ، فاذا راجعته فى شيء قال لك : انت لسه صغير أو انت راجل طيب •• اذا سار ، سار وكأنه « دون جوان »واذا جلس ، جلس وكأنه صاحب الصولجان •

وعبد الحليم الغمراوى ببدلته السوداء ، وقامته القصيرة ، ونظارته التى لا تتحرك ، ووجهه الجامد مثل نظارته ، يدور ويلف ، ولا يكف عن الدوران واللف •• يعرف الانجليزية ويضعبيبته فى فمه، ويحدثك كأنك بالنسبة له مسكين لاتعرف من أسرار الدنيا مايعرف •• سمت واحـد وشكل واحد وقالب واحد ، كنت ترى فيه عبد الحليم الغمراوى ، حتى لتحسب أنه ولد هـــكذا ، وتجمـد حيث هو ، لا يرتفع ولا ينخفض ، لا يسرع ولا يبطىء ، لا يتبدل ولا يتغير كأنه الله فى سماوآته •

وأحمد فؤاد رجل متقدم فى السن ، لا تراه الا جالسا على مكتبه ، يترجم ويقرأ ويقلب فى الصحف . نظارته على عينيه ، لاتفارقه أبدا ، أنفه ضخم ، وعيناه بهما ذبول واحمرار ، ووجهه فيه هم كئيب وشعور بالحزن مقيم ·· رجل هدته الصحافة ، وهده طول ماترجم وقلب فى الصحف وانبرى قلمه وهو يحرر ويحبر ويكتب والمطبعة تدور فتقلب كلامه حروفا ، ثم تطلب منه المزيد ، لا تشبع ، هى حديد وهو دم ولحم ، برته المطبعة أو أوشكت وأغلب الظن أنه كان يشرب ·· لماذا ؟ عن رغبة فى المتعة أو رغبة فى النسيان ؟ ·· لا أدرى

وكريم ثابت جاءنا فيما بعد ·· وكان واضحا انه ذو مركز ممتاز فى الجريدة ·· كان يدخل وكأنه قيصر ، وينصرف وكأنه قيصر ·· فاذا جلس ليكتب وضع أنفه فى الورقة وعينيه أيضا وغاب عن كل ماحوله ، فاذا أفاق ضرب المكتب بقبضة يده طالبا فنجانا من القهوة أو شاخطا « ناطرا » فى الفراش المسكين ، وكان مع ذلك رقيقا وديعا ، كثير النكتة، بادى المرح فى غير ظل خفيف عند بعض زملائه وان حاول أن يكون ·· قال لى ذات مرة وقد وضع يده على مؤخرة رأسى : لابد انك شامى ·· ان مثل هذا الرأس لايمكن أن يكون الا لشامى ·· قلت له : ربما ·· ولكن سجلات العائلة المحفوظة عندنا تدل على أن أجدادنا هاجروا من شبه الجزيرة العربية ، وان هناك قبيلة عربية مقيمة فى الشرقية لاتزال تحمل اسم عائلتنا ·· وضحك وقال : أهو شوف لك طريقه بقى ·

وكنت قد انفصلت شيئا فشيئا عن عملى فى الاخبار الى أعمال التحرير ، كنت أكتب مقالات فى جريدة السياسة أصور بها بعض الشخصيات ·· فقال لى كريم ثابت ياريت تكتب لى مقال زى دول فى جريدة « العالم » وكانت جريدة « العالم » هى جريدة كريم ثابت يصدرها لحسابه وباسمه · اغتبطت وشعرت بشىء غير قليل من الاعتزاز بنفسى·· هاهو صحفى مرموق ، أبوه صحفى كبير ، يثنى على مقالات لى ، وأنا محتاج حينئذ الى أقل كلمة من كلمات التشجيع ، تثبت قدمى على الطريق التى اخترتها ·

وكان أهم عمل يقوم به كريم ثابت فى ذلك الوقت هو الاتصال بالدوائر الأجنبية ، بالسفارات والقنصليات ، ولعله أول صحفى مصرى قام بهذا العمل ، وكان يدور على الوزراء المفوضين ومعتمدى الدول الاجنبية بسألهم رأيهم فى الامتيازات الاجنبية والغائها ، وحصل منهم كلهم تقريبا على أحاديث كتبت بأسلوب شائق ، واتجه أكثرهم فيها الى ضرورة الغاء

الامتيازات أو تغيير نظامها بعد أن أصبح القضاء المصرى منظما ، واصبحت القوانين المصرية قائمة على أحدث المبادىء العصرية ٠

كان كريم ثابت شعلة من الحركة والنشاط ، لا يستقر ولا يهدأ ، صحفيا يبحث عن الخبر أينما وجد ، يشعر أنه أكثر امتيازا من المشتغلين بالصحافة وقتئذ ، فهو ذو صــلات عديدة بالدوائر الاجنبيــة ، يتحدث الانجليزية والفرنسية شديد العناية بلباسه ، ربطة عنق فاخرة وبدلة فاخرة ، ومنديل مهفهف يطل من جيب جاكتته ٠٠ كانت جريدة « العالم » مسلية تماما ، ولعله من أوائل الصحفيين الذين وجهوا عناية الى الأخبار الشخصية ، وكان ينشرها فى لباقة وأسلوب لطيف ، ويقبل عليها القراء اقبالا شديدا ٠ وكان كريم اذا مشى دق الارض برجله ، ورفع رأسه ونظر ، واذا تكلم ففى سرعة مع ألفاظ مأكولة فى الاطراف ٠٠ ولكنك اذ تسمع اليه تشعر أنه يعرف الغامض من الأسرار ٠٠ وكان يتحمل من زملائه الكثيرمما يغيظونه به ويحاولون أن يخرجوه عن طوره ، فاذا به بارد كالثلج يبتسم وكأن ما يوجه اليه من غمز ، ليس الا المديح والثناء ٠

ودعانى زميل كبير ليلة الى مكتبه وقال : يازكى مامغاكشى جنيه٠٠ وأعطيته له ٠٠ وهذا حادث بسيط جدا ، ولكنه رجنى رجا ٠٠ حتى الزميل الكبير المحرر الاول أو نائب رئيس التحرير والكاتب الكبير ذو الماضى الطويل فى الصحافة يحتاج الى نقود ٠٠ وقبل هذا لمحت أمارات عديدة على الحاجة الى المال تستبد بالكثيرين من المشتغلين بالصحافة ٠٠ كانوا يقترضون قروشا ويتعاركون من أجل الحصول على سلفة من مدير الادارة ٠ وهو حينئذ الاستاذ المرصفى ٠٠ والاستاذ المرصفى رجل عجيب، لا تستطيع أن تعرف من هو على التحديد ؟ هل هو طيب خير ؟ هل هو كفء أو غير كفء .. هل هو انسان ذو قلب رقيق أو انه إنسان قاسى القلب ٠٠ كانت فيه لمحة من الشيوخ ولمحة من اليهود ، خازن مال من الطراز الاول ، أو هكذا بدا لى ٠٠ كان يتنقل فى مكاتب جريدة «السياسة» بنظارته التى تبدو فاحصة ، وعقله الذى يبدو ذكيا ، ولمحات خاطره التى تكاد تسأل الناس ان يشتغلوا فى الجريدة ولا يطلبوا منها أجورا ولا مرتبات ٠٠ وكان مكتبه فى آخر طرقة داخلية فى الجريدة ، وكان المحررون يدخلون عليه مرة كل شهر ، وعشرات المرات فى أثناء الشهر يطلبون سلفة ، وقلما كان يجيبهم ٠٠ كان يغتبط اذا رآهم يلاحقونه ويرجونه . وكان يبتسم فى كبرياء فيها من الخبث أكثر مما فيها من الطيبة .. كان يسره أن يشعر أن الجميع يحتاجون اليه ٠٠ وقد كففت نفسى عن هذا

كفا .. لم أدخل غرفته الا مرة واحدة كل شهر ، ومتى دعانى الى ذلك.. لم أطلب منه سلفة قط .. كان الدرس الذى تلقيته من قبل مازال واضحا فى ذهنى وضوح الحقائق الكونية . كنت أنفق على مقدار دخلى .. ولم أكن أدخن أو أشرب أو أجرى وراء النساء ، ولذلك كنت فى مظهر حسن ، دون حاجة الى الاستدانة أو السلفة .

وليس هذا هو المهم ، المهم ان الصحفى الكبير حينما طلب منى هذا المبلغ الزهيد ، راجعت فكرى كله مرة أخرى عن الصحافة وعن الاشتغال بالصحافة وعن المشتغلين بها وكأنهم فى فقر أو كأنهم يكافحون الفقر ، وحتى من قضى منهم فترة طويلة فى عمله .. هل هذه الحاجة المستمرة الى المال بعض خصائص هذه الصناعة المجيدة العظيمة ..

وهل سيصبح مصيرى مثل من سبقونى ؟ ربما كنت لا أشعر الآن اننى محتاج الى المال لان نفقاتى قليلة وليست لدى أسرة أنا مسئول عنها ، وربما لاننى كنت منظما فى حياتى ، ولكن كيف يكون الموقف اذا تقدم بى العمر وزادت أعبائى ؟ ترى هل تمنحنى الصحافة موردا كافيا للرزق أو انها ستضعنى كما وضعت هؤلاء فى الموقف الذى يحتاجون فيه الى الاقتراض ؟

ومرة أخرى ، امتلأت جزعا واشفاقا من المصير ، ولكن القلم الذى أمسكته بهرنى ، والاسم الذى طلع على الناس ظل يسحرنى ، ويغمض عينى عن كل شىء .. وصدق المثل القائل : يوم يسعد الفقى تيجى له ختمتين فى ليلة .. ففى صباح اليوم التالى ، صباح هذه الليلة التى أرقنى فيها مصير الافلاس المدمن فى الصحافة ، تلقيت طلبا من وزارة الأوقاف للكشف الطبى تمهيدا لتعيينى فى احدى وظائفها .

ووقعت فى حيرة جديدة .. كنت فى الليل أضيق بما أنا فيه ، وأكاد أترك الصحافة لاننى أخشى أن تعرضنى فى حياتى للحاجة .. وهأنذا أدعى لوظيفة لها من الثبات والاستقرار والمستقبل المضمون اضعاف مافى الصحافة وتولتنى حيرة جديدة وأصبحت أشبه بالواقع بين حجرين ثقيلين ، كل منهما فيه وقاية وفيه عزاء كأنه الظلام ، وفيه طمأنينة كأنها القلق .. أيهما أختار ؟ الصحافة ببريقها ومجدها وهدير مطابعها ، واشراق ألوانها ، الاسم الذى يمكن أن يذاع ، والفكر الذى يمكن أن يلمع ، والصوت الذى يمكن أن يرتفع ، مع قلق فى الحياة وخوف من المستقبل ، وربما فقر دائم أو ما يشبه أن يكون الفقر .. كانت أسرتى

حينئذ فى الريف ترقبنى ، وتظن أننى أصبحت لها سندا أو أوشك أن أكون ٠٠ ماذا تكون الحال لو ارتددت اليهم بعد سنة أو سنتين متعطلا من العمل ، أرجو معونتهم ، وقد لا يستطيعون أن يبذلوا معونة ٠٠ ؟! هل أختار المستقبل غير المكفول تحف به الأضواء اللامعة ، أو أوثر عليه ركنا فى ديوان ، مكتبا فى وزارة ، وظيفة فى قلم قضايا الأوقاف ، وربما انتقلت منها الى القضاء والنيابة ٠٠ ومع هذا أوامر تطاع ولوائح ثقيلة ، ودرجات أسعى اليها ، وعلاوات أنتظرها وحديث لا ينتهي عن الكادر ومن سبقنى ومن سبقته ومن أحقد عليه ومن يحقد علي ، وتخيلت الوظيفة سجنا أو شيئاً يقرب منه ٠٠ وكرهت أن أربط نفسى بهذه العجلة ٠٠ ولكن مع هـــذا السجن لقمة العيش مضمونة ٠٠ والترقيات مضمونة والوظائف الكبيرة هى الأخرى ربما كانت مضمونة ٠

أيهما أختار : الصحافة أم الوظيفة ؟ ونمت ليلتى دون أن أقطع برأى وقلت : ربما جاء الصباح بالقرار الحكيم ٠

شهدت مصرع على فهمي كامل
وهو يخطب

« تمثلت امامي قصة الموت والحياة ٠٠ ما اقصرها ٠٠ البرزخ الفاصل بينهما ، ما اضيقه ، لحظة . لمحة ، همسة ، برهة من زمن أو من كلام »

في الوقت الذى كنت مترددا فيه بين الذهاب الى الكشف الطبى فى وزارة الأوقاف أو الامتناع عنه ايثارا لعملى فى الصحافة ، زارنا الأستاذ محمد خالد وهو حينئذ محرر فى جريدة الاتحاد وكانت أول مرة أراه فيها ٠ وهو لم يزرنى أنا فلم يكن أحدنا يعرف صاحبه ، ولكنه زار صديقا كان يسكن معى هو الأستاذ سيد أحمد سليم نوار (أصبح فيما بعد وكيل مديرية) وكان نوار قد حدثنى من قبل عن الأستاذ خالد وقال انه من قريته ميت أبو عربى مركز ميت غمر ، وانه استطاع أن يبلغ مركزا حسنا فى جريدة الاتحاد ، وفرحت للتعرف به ، انه صحفى يشتغل فى المهنة نفسها التى اختارتها الأقدار لى ، وأنا فى حيرة من أمرى بين وظيفة معروضة على وبين الاستمرار فى الصحافة ٠

قال الأستاذ خالد وقد عرف اننى فى جريدة (السياسة) : ان الصحافة بالنسبة لك يجب أن تكون عملا اضافيا ٠

وأسفت مرة أخرى ٠٠٠ ولكن هذا الكلام رجح لدى ان ألبى طلب وزارة الأوقاف ٠٠٠ وزارنا أيضا الأستاذ عبد الحليم الجندى (رئيس ادارة قضايا الحكومة فيما بعد) وهو صديق منذ أيام الدراسة ، عرفت فيه انسانا رقيقا دائم الابتسام ، فيه طيبة أصيلة ونقاء قلب ، وصفاء روح ، وشفافية فهم ٠٠٠ كان يهوى الأدب ويحب الكتابة ، وما أحسبه تخلى عن هذه الهواية ، بعد أن بلغت به المناصب مابلغت ٠٠٠ ألف كتابا عن أبى حنيفة النعمان ، لا أزال أحتفظ به فى مكتبتى فأرى كيف يكون البحث الخالص للعلم ، فى لغة بديعة منتقاة ، وفى ذهن رائق من الاستنتاج والتخريج ٠

كان عبد الحليم الجندى من الريف أيضا ٠٠ وكنت آنس اليه وكان يأنس الى ٠٠ وربما كان حبه الكتابة والأدب هو الذى حمله على أن ينظر الى ، وقد اتصلت بالصحافة كأننى سلكت الطريق المستقيمة ٠٠٠ كانت زيارته فى هذا الوقت ذات أهمية كبيرة بالنسبة لى ٠٠٠ لم أحدثه فى شأن ماتلقيت من وزارة الأوقاف ، ولكننى أحسست فى وجوده ، مجرد وجوده ، كأنه هاتف يقول لى : لاتعدل عن الصحافة ٠٠٠ لاتخف ٠٠٠ تشجع ٠

ولكن لا هذا ،ولا ذاك ٠ لارأى الأستاذ خالد ولاوجود الأستاذالجندى حل لى المشكلة ٠٠٠ لقد بقيت فى خاطرى ، وكان لابد أن أجد لها حلا وحدى، وفلسفتها على نحو ما أفعل عادة٠٠٠ لا بأس، اذهب الى الكشف الطبى فى وزارة الأوقاف ٠٠٠ فمن يدرى لعل الصحافة تطردنى من بلاطها ، ولعلها هى كلها يعتدى على بلاطها ، لعل جريدة « السياسة » تقفل أبوابها ٠٠ أو لعل الحكومة تعطلها ٠٠٠ ، نعم ، كانت الوزارة حينئذ ائتلافية ، يشترك فيها حزب الاحرار الدستوريين ، ويرأسها عدلى يكن رئيس الحزب ، ولكن من يدرى ماسيكون عليه الموقف بعد شهر أو شهرين ، لا بعد سنة أو سنتين ٠

كانت الصحافة حينئذ ، فيما عدا (الاهرام) و (المقطم) ، صحافة حزبية ، تقوم على الصراع الحزبى وتتغذى منه ، تتلقى اعانات من الأحزاب، ولا تستطيع أن تعيش بغيرها ، وتتلقى اعانات من الحكومة اذا كانت من الحزب الذى تنتمى اليه ، وتتلقى صفعات منها اذا كانت معادية لها ، فهى من حيث الفن الصحفى ، لم تكن تعنى به ولا تلقى بالها اليه ٠٠ كانت النزعة الحزبية هى الغالبة ٠٠ كان من واجبها من حيث القيمة الصحفية أن تعنى بالأخبار والتحقيقات الصحفية ، وتحور وجوهها وتحقق تطورها، ولكنها فى الواقع لم تكن تعنى بالأخبار العناية الواجبة ، كانت المقالات السياسية هى أهم مادة تشتمل عليها ، وكان الكتاب السياسيون هم أهم الشخصيات فى الجريدة ، ومن عداهم مساعدون يمكن الاستغناء عنهم ٠٠ كانت الجريدة تباع ــ حينما تباع ــ بسبب كاتب سياسى معين أو كتاب سياسيين معينين ٠٠ فى البلاغ عبد القادر حمزة وعباس العقاد وفى كوكب الشرق أحمد عوض ، وفى الكشكول سليمان فوزى وفى السياسة هيكل وعزمى ٠٠٠ جريدتان فقط لم تكونا تعتمدان فى البيع على الأسماء أو على الحزبية هما (الاهرام) و (المقطم) وكانت الصحافة الحزبية ، كل واحدة منها تنشر مقالتين سياسيتين ، احداهما فى صدر الجريدة والأخرى فى وسطها ، عدا أعمدة صغيرة أو لمحات هنا وهناك لا تخلو من الطـــابع

السياسى وفيما عدا ذلك كانت الأخبار تأتى فى الصف الثانى أو الثالث ٠٠٠ كانت الجريدة لا يعنيها أن يفوتها خبر ، ما دامت تحمل المقالات السياسية النارية المفعمة بالألفاظ الضخمة والعبارات الحماسية ، والشتائم المنتقاة ٠٠٠ كتب العقاد يعارض هيكل ذات مرة ، فلم يعرض لمقاله ولكن عرض لشخصه ، ولمح تلميحا ، بل صرح تصريحا بأن هيكل كتب ماكتب وهو غير واع ، كان فى غيبوبة ، اشتهرت عنه حينئذ ٠

لقد ألقيت بنفسى فى هذا الغمار ، دون أن أكون داعية سياسيا لحزب من الأحزاب أو شخص من الأشخاص ٠٠ ترى هل يحولنى هذا العمل الى أى لون ؟ ترى هل أصبح حرا دستوريا ، وآخذ المنهج السياسى الذى سار فيه هيكل أو عزمى ٠٠ ترى هل أتقلب بين الأحزاب ، أمدح هذا وأذم ذاك طبقا لمصلحة أو رأى ؟

وساءلت نفسى وأنا أحاورها وهى تحاورنى ٠٠٠ أى مستقبل تريده وسط هذه الدوامة الهائلة التى لا تقف ولا تهدأ ؟ ولم أجب ٠٠ ولم يكن فى استطاعتى أن أجيب ٠٠٠ التمست العمل فى الصحافة ، وفى الصحافة وحدها ٠٠٠ مالى أنا وللصراع الحزبى ، ولست فى أعماقى مؤمنا ايمانا تاما بحزب من الأحزاب ٠٠ بل ربما كنت ، ولكننى كنت أشعر بروح من التمرد على أن أكون تابعا أو بوقا ٠٠ وما هو الايمان بحزب الا أن تكون لسانا له أخطأ أم أصاب ؟ كنت حينئذ على الرغم من ضآلة تجربتى وقلة معرفتى ، أشعر بنبض من الرأى المستقل يحول بينى وبين أن أمدح أحدا أو أحرق البخور لأحد ، حتى ولو كنت موافقا على سياسته ٠٠ ولكن المدارج الأولى التى كنت أقطعها فى طريق حياتى جعلتنى أتأثر بما حولى ٠٠٠ هل كنت حرا دستوريا ؟ ان أجبت بنعم كنت غير دقيق ، وان أجبت بلا كنت أيضا غير دقيق ، والصحيح اننى لم أكن حينئذ قد كونت لى رأيا مستقلا تماما ٠٠٠ كنت فى هذه المرحلة من الحياة التى تتشابه فيها الأمور أمام عينى الانسان ، فينحرف الى ماهو متصل به لا عن عقيدة ولكن عن تأثر عاطفى وربما مصلحى أيضا ٠٠ وكثيرا مايختلط فى نفس الانسان الأثر العاطفى والمصلحى ، فيحسب انه الرأى ، وما هو من الرأى فى شىء ٠٠٠ كنت متصلا بحزب الأحرار الدستوريين وبجريدتهم ، أسمع آراءهم وأقرأها ، وأتأثر باللامعين منهم كتابا وأصحاب فكر ومدرسة ٠٠٠ ربما كانت الآراء السياسية عندى حينئذ فى الصف الثانى ٠٠ أو ربما كان بهر ذكائهم ولماحيتهم والدعوة الجديدة فى الأدب والفن والفكر التى حملوا لواءها ، كسفت ماعداها بالنسبة لى ٠٠٠ ثم لعل التحاقى بالعمل فى جريدة (السياسة) والائتلاف قائم والزعماء على وفاق وعلى رأسهم سعد

زغلول ، يسر لى الأمر تيسيرا كبيرا ٠٠٠ كنت مؤمنا بزعامة سعد زغلول، وان لم أكن فى يوم من الأيام من حزبه أو لجان حزبه ، ولكن شجاعته التى غلبت كل شجاعة ، ومضاء نظرته وتهدج صوته ، وارتفاع هامته حتى لكأنه عملاق والحوادث من حوله أقزام ، كل أولئك سحرنى أعظم مايكون السحر ، وبهرنى أعظم ما يكون البهر ٠٠٠ رأيتشيخا يناهضامبراطورية لها من السلطان ما ليس لدولة فى العالم وبلاده صغيرة ، ومع ذلك قام هذا الشيخ يناهض ويناضل ، ويساق الى السجن وتتعرض حياته للموت، ويلوحون له بشتى العروض ، ولكنه لا يمل ، ولا يميل ، ولا يلين ٠

هل تخليت حينما اشتغلت فى جريدة (السياسة) عن هذا الايمان ؟ كلا ، ما تخليت عنه وما كان لى ان أفعل ، ولكننى حينئذ صغير السن ، ألتمس العمل وقد عرض على ، ومن حسن حظى انه كان فى الصحافة التى أحببتها ، ومن حسن حظى أكثر انه كان فى جريدة (السياسة) و (السياسة الأسبوعية) وهما حينئذ فتح فى الصحافة ببهر العيون ٠٠٠ التحقت بالصحافة وأنا ألتمس العمل وليس النضال الحزبى ، ألتمس الصحافة كمهنة ، لا كوسيلة أعوم على موجها الى وظيفة أو مركز سياسى ٠٠٠ لم يكن فى خاطرى شىء من هذا ، ولذلك قست عملى طبقا لهذه الموازين ، وأخذت أفكر فيه على هذا الاعتبار وحده ٠٠٠ مجردا من المنافع الحزبية التى لم تطرأ لى على بال ٠٠ وأخذت أوازن بين الصحافة كوسيلة أبنى عليها حياتى ، وبين الوظيفة المعروضة على ٠٠٠ ان الوظائف عالم لم أشعر مرة واحدة أثناء دراستى اننى خلقت له أو أحب الدخول فيه ، حتى وظائف النيابة والقضاء لم تستهونى ٠٠٠ آثرت عليها المحاماة لما فيها من حرية العمل والفكر والانتاج ولما كانت تمتاز به من انها مدرسة خرجت القادة والزعماء والكتاب وصهرت فى بوتقتها الكفايات ، ومزجت بين الدراسة النظرية وبين انتفاضات المجتمع ٠

ولكن لماذا لا أجرب الوظائف ؟ ولماذا لا أندمج فى هذا العالم ، أراه وأحسه وأعانيه ٠٠٠ لقد ذهبت الى كلية الحقوق وحضرت الدروس الأولى للدكتوراه وأحسست انها شاقة تحتاج الى جهد كبير ، كان أكثرها يلقى باللغة الفرنسية ، ومحصولى منها ليس قويا الى الدرجة التى تمكننى من متابعة المعانى من غير مجهود كبير ، وتحضير سابق يستغرق ساعات ٠٠٠ واشتغالى فى الصحافة يتطلب السهر والضنى ٠٠ أليست الوظيفة أكثر ملاءمة لى ، حتى أستطيع متابعة الدراسة فى الجامعة ؟ كل ما تتطلبه الوظيفة منى بضع ساعات فى الصباح ، أقضيها فى العمل ، ثم أفرغ فى المساء الى الجامعة ، وأفرغ فى الليل لمراجعة دروسى والتحضير لها ٠٠٠

خيل الى أن الوظيفة أكثر ملاءمة فى هذا الظرف الذى أجتازه ، لانها تساعدنى على اتمام دراستى فى الدكتوراه ، وهذا يعنى أن أترك الصحافة، وعز على أن أفعل ٠

وترددت مرة أخرى ، ولكننى حزمت أمرى ، لابد أن أبت فى الأمر٠ ان المسألة هنا ليست مسألة هوايتى للصحافة ، ولكنها مسألة دراستى العالية ، وأنا حريص عليها ، وأبى أيضا حريص عليها ، ثم أنا فى سن مبكرة ، ولو قضيت فى الدراسة ثلاث سنوات ـ أخرى لتخرجت وانا فى السن التى يتخرج فيها كثرة الطلاب النابهين فى الليسانس ٠

وقررت أن أذهب الى الكشف الطبى ٠٠٠ وراودنى خاطر ، والطبيب يضع ورقة على عينى ، ويطلب الى أن أرى العلامات البعيدة بالعين الاخرى٠ لماذا كل هذا العناء من أجل الوظيفة ؟ ولماذا لم أطلب للكشف الطبى حينما التحقت بعملى فى الصحافة ؟ هذا دليل آخر على ان الوظيفة أهم وأثبت وأكثر احتراما ٠٠ ان الصحافة كالباب المفتوح وهو مغلق ، والوظيفة كالباب المغلق ، فاذا فتح فكأن الداخل فيه قد دخل الجنة ٠٠ واستعذت بالله من هـذا الخاطر ٠٠ كانت الوظيفة دائمـا فى نظرى شـيئا مكررا كريها ، واذا كنت ألتمسها الآن ، فاننى أفعل على أن تكون عملا مؤقتا محضا ريثما أفرغ من دراسة الدكتوراه ٠

وفحص الاطباء قلبى وصدرى ، قال الطبيب وهو يدق صدرى : كح ٠ وبعد أن تشاور مع غيره فترة قصيرة ، اذن لى بالانصراف ٠٠ وبينما كنت أرتدى ملابسى شعرت بضيق شديد ، وأحسست اننى كانسان أهنت اهانة بالغة ٠٠ ماذا يريدون من هذا الكشف الطويل العريض ؟ هل هم سيستخدموننى لأكون فرسا للصيد أو بغلا لجر الأثقال ؟

خرجت وبقى ان أعرف نتيجة الكشف الطبى ، وترددت على الوزارة مرة ومرة ثم قيل لى اننى لائق للخدمة طبيا ، وان خطاب التعيين سيصلنى قريبا ٠

وفرحت ٠٠ ان كل نبأ بالنجاح يفرح ، حتى ولو كان نجاحا فى الكشف الطبى ، ولكن فرحى لم يطل ٠٠ تمنيت لو لم أكن قد نجحت حتى يذهب ما بنفسى من تردد وحيرة ، ولا يصبح أمامى غير الصحافة وكأنها فرضت على فرضا ثم عدت الى نفسى أحدثها : لا بأس من تجربة فى عالم الوظائف ٠٠ لابد ان أرى كل شىء ، اننى فى مشرق الحيـــاة ، ولابأس من سنة أو سنتين أو ثلاث ٠٠ ان الرصيد عندى كبير ٠

وذهبت فى مساء اليوم نفسه الى كلية الحقوق ، واستمعت الى بعض الدروس ·· ولكننى لم أستطع متابعة الحضور ، فان جلسات الشيوخ كانت تعقد ثلاث مرات فى الأسبوع ، وتبدأ فى الساعة الخامسة بعد الظهر ، بينما تبدأ محاضرات قسم الدكتوراه فى الرابعة ، وقلت فى نفسى: لابأس ، متى التحقت بالوظيفة استطعت ان أنتظم فى الجامعة ·

وفى الليلة نفســـها نادانى الدكتور هيكل الى مكتبه فلقيت عنده الدكتور حافظ عفيفى (باشا) ·· كان واقفا وفى يده جريدة (التايمز) وكانت هذه أول مرة أراه فيها ، وان كنت قد سمعت من قبل أنه همزة الوصل بين الحزب والجريدة وأنه (الدينامو) الذى يحركها ·· لم يكن الدكتور حافظ عفيفى واقفا تماما ، كان يتمشى فى الغرفة خطوات الى الأمام ثم يعودها راجعا الى الوراء بينما جلس هيكل على مكتبه ، وكله آذان مصغية لما يقوله ، وتحيرت أين أقف ، ولم تمض لحظة حتى قال الدكتور هيكل موجها كلامه الى الدكتور حافظ : زكى من الشـــبان الكويسين قوى ··· وقال الدكتور حافظ من غير ان يرفع عينه عن الجريدة التى فى يده : أهلا وسهلا يا أستاذ · ·أنا عاوزك تترجم لى الفقرة دى ·· دا ملحق (التايمز) عن القطن ·· عاوزها علشان (السياسة الأسبوعية) ·

احترمت الدكتور حافظ عفيفى منذ رأيته ، وتأملت وجهه وأنا واقف ، فأحسست انه يختلف تماما عن هيكل وعزمى ، وكل من رأيتهم حتى هذا الوقت من رجال (السياسة) و (السياسة الأسبوعية) ·· شعرت انه طراز آخر ، رجل فى وجهه سكون عجيب وهدوء أعجب ، يتكلم كأنه يقيس كلامه وينظر كأنه يقيس نظراته ، ويفكر كأنه يقيس أفكاره ·· ونادانى حتى أصبحت فى محاذاته وأخذ يشير لى على القطعة التى يطلب ترجمتها ، وقد حددها بقلم أحمر ·

لقد عرفت الدكتور حافظ عفيفى فيما بعد أكثر وأكثر واتصلت به أكثر وأكثر ، وكان عميق التأثير فى نفسى ، فلادع الحديث المفصـــل عنه الى أن يجىء موضعه من هذه المذكرات ، ولكننى ـ وهذا شأنى ـ يقودنى احساسى وقلبى أكثر مما يقودنى عقلى ومنطقى فيما يتعلق بتقدير الأشخاص وما ينطوون عليه ، شعرت بانجذاب الى الرجل ، وأحسست من نظرته أنه يشجعنى ، وان لم يتحدث بكلمة ، وأحسست أكثر من ذلك ، أنه يحترمنى ·· لست أدرى لماذا ؟ ·· لقد كانت هذه هى المرة الأولى التى ألقاه فيها وهو قطعا لا يعرفنى ، واذا كان الدكتور هيكل قدمنى

اليه على أنني من « الشبان الكويسين قوى » فانها لا تعدو أن تكون مجاملة أو كلمة عطف من رجل رقيق الاحساس كالدكتور هيكل ٠

وخرجت من الغرفة ، وأنا مبتهج راض ، أكاد أطير من الفرح ٠٠ ومرة أخرى تذكرت الكشف الطبى والوظيفة التى أوشك ان أوثرها على الصحافة ، وهززت رأسى وأنا أقرأ « ملحق التايمز » وأبدأ فى ترجمة القطعة التى طلب الى ترجمتها ٠٠ أتراني فى الوظيفة ، مهما تكن ، سأشعر بمثل هذا الشعور ؟ هل يتاح لى أن ألقى الدكتور حافظ عفيفى ومن على شاكلته ومن فى طبقته وان أرى مثل هذا التقدير ؟

وتركت الأمور تسير كما يريد الله لها ان تسير ، وكففت نفسى عن التفكير فيما سيحدث غدا ٠٠ ليكن ما يكون ٠٠ أحسست بحاجتى الى القراءة أكثر مما أحسست فى أى وقت مضى ٠٠ ان الصحافة ليست تخصصا فى القانون أو الأدب أو السياسة أو الاقتصاد أو العلوم أو الهندسة أو الطب ٠٠ انها كل ذلك مجتمعا ، انها المعرفة فى أوسع حدودها ، لا معرفة الكتب والحوادث فحسب ، ولكن معرفة الناس والمجتمع وما يضطربون فيه من خير أو شر ٠٠ كنت أراجع الصحف الأجنبية وأقرأ مايستهوينى فيها ، وأراجع المجلات الانجليزية والفرنسية ، وأرى مقدار مايفصل صحافتنا عنها ، ومقدار الخطوات التى لابد أن تقطعها حتى تقف على مقربة منها ٠٠ كانت بالنسبة لى تعليما ولغة وصحافة وفنا ٠٠ معينا لا ينضب ٠

ما كان أرق هذا الضحى وأنا أدخل قاعة واسعة فى مبنى وزارة الحقانية (العدل الآن) فى الدور الثانى منها ، وأرى أربعة أو خمسة من الشيوخ ، زاهية الوان جببهم وقفاطينهم ، بعضهم خلع عمامته ووضعها أمامه ، وبعضهم شمر أكمام القفطان ،واندمج فى ملف يقلب أوراقه وينعم النظر فيه ، وبعضهم وضع رجلا على رجل ودفع العمامة الى الوراء ، واستدار بكرسيه بعيدا عن الملفات والأوراق وأخذ يقرأ جريدة من الجرائد ٠٠ والغرفة كلها فيها وقار وهدوء ، لا تكاد تسمع حركة ولا حتى همسا ٠٠ وفى غرفة داخلية جلس شيخ آخر بدا لى أنه أكثر أهمية منهم ، خلع عمامته ، وأخذ يتحدث الى شيخ آخر جلس فى مواجهة مكتبه ، كأنه يملى عليه تعليمات أو توجيهات ٠٠ كان هذا هو رئيس التفتيش الشرعى ، الشيخ محمد مخلوف ٠ وكانت الغرفة الواسعة ذات الأربعة أو الخمسة المشايخ تضم المفتشين فى المحاكم الشرعية ٠

وفى ركن منها على يسار الداخل جلس شيخ وسيم فى وجهه هدوء

رقيق وفي عينيه نظرات فيها نبل واصالة ، وفي صوته رنة عذبة ٠٠ كان هو الشيخ مصطفى عبد الرازق ٠٠ كان واضحا انه شيء آخر غير زملائه الشيوخ ٠ كان قد سافر الى فرنسا وأقام فيها فترة من الوقت ، وهو الى ذلك فرع من دوحة عالية ، من أسرة عبد الرازق ٠٠ أخوه الشيخ على الذى أخرج من زمرة العلماء ، وفصل من وظيفته وكان قاضيا بمحكمه المنصورة الشرعية ، وأخوه حسن عبد الرازق باشا العضو البارز فى حرب الاحرار الدستوريين ، والذى قتل هو والمحامى اسماعيل زهدى بك على سلم دار الحزب أثناء خروجهما ٠٠ وبيتهم ، بيت آل عبد الرازق فى ظهر سراى عابدين ، لا ينقطع عنه الزوار وأصحاب الحاجات ، ولا ينقطع عنه المثقفون: الكتاب والفنانون ورجال السياسة ، طلاب العلم والمعرفة ، يلقون من أصحاب الدار اكـــراما وترحيبا ووجوها نبيلة فى غير استعلاء ، رضية راضية ، ناعمة فى ثروة واسعة وكرم ليس فيه من ، وطيبة ليس فيها التماس للشكر والعرفان ٠٠ بيت من هذه البيوت التى اجتمعت فيها تقاليد الشرف العريقة أو تقاليد الصعيد الأصيلة فى اطار من المدنية ، لا تعرف على التحديد أيهما منح هذا البيت وأهله هذا الرواء والجلال ٠٠ هل هو الاستمساك بالتقاليد أو هو هذا الاطار الجديد ؟

البيت كما قلت فى ظهر سراى عابدين ، والملك فؤاد حينئذ ينفس على آل عبد الرازق ما هم فيه من سعة ، وما يستمتعون به من مركز فيه مهابة واحترام وحسب ، ثم هم من خصومه الألداء منذ كانوا أنصارا لحزب الامة أو منشئيه يناوئون ابن عمه الخديو عباس ، فلا يستطيع ان يبطش بهم ، لان المعتمد البريطانى لم يكن يسمح للخديو فى أوقات كثيرة ان يسرف فى نزواته ، وبعد أن أصبحوا أنصارا أو مؤسسين لحزب الأحرار الدستوريين ، يؤلف واحد منهم كتابا عن الخلافة ينكر فيه أنها من أصول الاسلام فى الوقت الذى كان فيه الملك فؤاد يطمع أن يكـــون خليفة للمسلمين ٠٠ لم يكن الملك فؤاد اذن يحبهم ، بل لم يكن يطيقهم ، ومع ذلك كان بيتهم أو قصرهم فى ظهر قصره ، يستقبلون الناس ويرحبون بهم ويرعون كل فكر ناهض ، وكل قلب فيه لمحة من استقلال الرأى واباء الضيم والعبودية للقصر والجالس على العرش ٠٠ وتمنى الملك فؤاد لو استطاع أن يهدم هذا البيت ويشتريه أنقاضا أو يشتريه بناء عاليا ثم يهدمه ولكنه لم يستطع ٠

وتأملت وجه الشيخ مصطفى عبد الرازق وهو جالس فى هذا الركن من هذه الغرفة ، وتمثلت كل هذه المعانى وأنا أحييه والرجل يرد التحية فى حياء وذوق وترحيب رقيق ٠٠ كان يقرأ فى كتاب باللغة الفرنسية

عن المرأة الأوروبية ٠٠ قال وهو يرفع رأسه انك لا تستطيع أن تدرك أثر المرأة فى المجتمع الأوروبى ، انك تراها هناك فى كل مكان وتحس بوجودها فى البيت والشارع والمكتب وتشريعات الحكومة ٠٠ سأعيرك هذا الكتاب لكى تقرأه ٠

كان هذا هو اللقاء الأول بينى وبين الشيخ مصطفى عبد الرازق ، وطال حديثنا وتناولنا موضوعات عديدة عن الجامعة وكلية الآداب وتدريس الفلسفة فيها ، وحاولت ان ادخل فى السياسة ولكنه ردنى فى لطف ٠٠ وكانت فى الشيخ مصطفى لمحة من مكر لا تضيق بها ٠٠٠ كان يستشف من ملامح وجهك اكثر مما يستشف من حديثك وكان دقيقا فى انتقاء الفاظه رقيقا فيها ، يحب أن يشعرك انه يعرف ماتخفيه عنه فى عبارات وتلميحات فيها شىء من جمال الذوق الباريسى ممزوجا بشىء من مكر الصعيد ٠

وراعنى منه انه يتحدث بلغة الصعيد ، ولكنه ايضا يضيف اليها اسلوب اهل باريس ، ولك ان تتصور لهجة الصعيد منطوقة بلسان اهل باريس ٠٠ وكان فيه تواضع يحملك على المزيد من احترامه واجلاله، كان تواضع النبيل الأصيل ، لا تستطيع أن تخطىء معه أن هذا الرجل ذو خلق مترفع ، وقلب كريم ٠

وفى اثناء الحديث معه ، سبقت الى لسانى وانا أخاطبه كلمة «بيه» فنظر الى من تحت اهدابه وقال وهو يبتسم هو أنا بيه يا أخى ؟

***

قال لى الدكتور هيكل : يازكى ٠٠٠ غدا (٣١ ديسمبر) الاحتفال بذكرى وفاة محمد بك فريد ، أرجو ان تحضر الاحتفال فى سينما متروبول وتكتب عنه ٠

ولم اكن اتصور ولا خطر ببالى اننى سأشهد فى هذا الاحتفال المنظر الذى شهدت ٠٠٠ امتلأت قاعة السينما بجمهور كبير من الناس من مختلف الطبقات ممن يحترمون ذكرى محمد فريد ويقدرون جهاده وتضحيته فى سبيل بلاده ٠ كان خليفة مصطفى كامل والرئيس الثانى للحزب الوطنى ، هجر بلاده بسبب ضغط الانجليز عليه وسافر الى اوربا حيث اقام فترة طويلة من الوقت يدعو الى قضية بلاده فى المحافل والمؤتمرات وبين الهيئات والافراد ، ونفد ما كان معه من مال ، فقضى سنوات لايكاد يجد ثمن الدواء والقوت دون ان يلين او يسلم او يستسلم او يستهويه ما كان يعرض

عليه من مال وسلطان وأغراء حتى انتقل الى جوار ربه فى آخر سنة ١٩١٩ .

ووقف على فهمى كامل بك يخطب فى ذكرى الفقيد وسمعت صوته مدويا متحمسا مثيرا يلتف به من فوق المنصة العلم المصرى ، واشتعل الحاضرون بالتحمس والتأثر ، وما هى الا لحظة حتى رأيت الرجل الذى كان منصوبا امامى كأنه شعلة من نار ، يهوى ويصطدم ويتكور ، ويسود الحفل هرج شديد ولا يعرف الناس ماذا حدث ؟ .... كانت المفاجأة قاسية ... ظن البعض أنه وقع أو تعثر ، وظن آخرون انه أجهد من التأثر فاغمى عليه ، وظن الاقلون ماحدث فعلا ، وهو ان على فهمى كامل بك المجاهد القديم وشقيق الزعيم الكبير مصطفى كامل يلفظ آخر انفاسه ... لم تنجح جهود الطب ، وخرج الرجل الذى دخل الى المنصة قويا ثائرا ، جثة هامدة .

ماكان اشد تأثير هذا الحادث فى نفسى .. تمثلت قصة الموت والحياة .. ما اقصرها .. البرزخ الفاصل بينهما ما اضيقه ، لفظة ، لمحة ، همسة ، برهة من زمن أو برهة من كلام .. كان موجودا امامنا أقوى مايكون وأصح مايكون ، وهاهو أمامنا أيضا لا قوة ولا حركة ولا حس ولا ثورة ولا همس ولا زعامة ولا يحزنون ... لم تطفر الدموع من عينى ، اخذنى مايشبه الذهول ... وتجربتى حتى هذا الوقت فى هذه الناحية لاشىء .. لم أر احدا يموت .. ولم ار احدا يقف امامى ثم يهوى ويموت ... لم أجلس الى فراش مريض يعانى سكرات الموت .. كانت الحياة أمامى مزهوة بالصحة والأمل والحب والرجاء ... كانت الدنيا رخاء والأهل مكتملين فى مدارج العمر الأولى ، والاخوة مازالوا أطفالا .. والأم والأب فى شرخ الشباب ... لماذا الموت الآن ؟ بل لماذا التفكير فى الموت ؟ .

كانت تجربة قاسية لمن كان فى سنى ؟ بل كانت محنة .. أو هكذا الحياة ؟ لماذا نسعى اذن ؟ لماذا أشق على نفسى بالتفكير فى المستقبل .. لماذا احب الصحافة أو اكرهها ؟ لماذا احب الوظيفة او اكرهها .. بل لماذا اضطرب بين الاثنتين ؟ لماذا يذهب خاطرى أن أكون أو لا أكون ؟ لماذا أشقى أو أسعى وأدب فى الأرض وكأننى قيصر أو هرقل ؟ لماذا ... لماذا ... عشرات لماذا .. وبقيت بلا جواب .

وعدت الى الجريدة أجر قدمي جرا ، وكتبت وصفا لما حدث ، انتزعته من قلبي ووجداني ، رأيت الالفاظ تتوالى والمعانى تتزاحم ٠٠ او هكـذا يبعث الموت كما تبعث الحياة القوة فى اللفظ والتعبير ٠٠٠ ما هو الموت وما هى الحياة ؟ اختلط امرهما فى نفسى ابشع مايكون الاختلاط ،واخذت انظر الى الناس وهم يسعون ويجرون ويضحكون ويتقاتلون ويتفاهمون ويتباغضون ويتحاسدون ، ونظرت اليهم كما لو كنت مسـيحا أو نبيا ٠٠ ياللجهال الاغرار ٠٠٠ ياللغافلين المساكين ٠٠ انهم لايرون المنجل الذى يحصد ، والقدر الذى يظل سماءهم ، لا يعرف أحد متى ينقض ومتى ينفض ٠

ولم تطل هذه الحالة بنفسى ٠٠٠ يوم ٠٠ يومان ٠٠ ثلاثة ، ثم اخذت صورة الموت تتلاشى وصورة الرجل الذى هوى امام عينى ترجع الى ظهر الصورة ليحل محلها من جديد النور المتلألىء والحياة الصاخبة والدنيا الناعمة ، وبين السعى والكد والرزق المغموس بالقلق والخوف ، والمستقبل الملفوف فى اطواء الغيب ٠٠ اسأله سره ولغزه ٠٠ اخذت مرة اخرى اندمج فى الحياة ، استولت على وانتزعتنى من خواطر الموت ٠٠ وهكذا الحيـاة اقوى من الموت دائما ٠

وأصبحتُ موظفًا

« لقد استعبدته الوظيفة ، لم تصبح بابا للرزق بالنسبة له ، اصبحت كيانا ووجودا حتى ما فيها من خوف وقلق ومهانة » ٠

ذات يوم فى أوائل مارس سنة ١٩٢٧ ، ولم يكن قد انقضى على اشتغالى بالصحافة غير أشهر قليلة ، تلقيت أمر التعيين فى وزارة الاوقاف، وصباح يوم شديد البرد ، ذهبت الى الوزارة ، الى قلم المستخدمين ، ثم أسلمنى موظف هناك الى رئيس قسم الاستبدال ، وقال له : هذا هو الموظف الجديد ، ليسانس حقوق ٠

وأذهلتنى الغرفة التى دخلت فيها ، كانت مظلمة كئيبة فيها من الدوسيهات والتراب أكثر مما فيها من الكراسى والمكاتب ، وفيها موظفون خمسة أو ستة لو جمعت أعمارهم لجاوزت ثلاثة قرون حتما ٠٠ وضاقت أنفاسى ، وتولانى شعور من الكآبة عجيب عميق ، تمنيت لو وليت هاربا أستنشق النسيم خارج هذا القبر ٠

ودرت بنظرى فى الغرفة ، ورئيس القسم ينظر الى من تحت نظارته السميكة ويقول لى فى صوت أجش : شرفتنا يا أستاذ ٠٠ ولم أتنبه لكى أرد عليه أو رددت عليه بطريقة تلقائية بينما كل خاطرى مشغول بغرفة جانبية داخلية فى الغرفة الرئيسية وأحد الموظفين قد ارتقى سلما ، وأخذ ينفض التراب ، ينفخه بفمه ويزيله بيده عن دوسيهات لا حصر لها، ويقول وهو يلهث ، وطربوشه الطويل المطبق ، عليه من التراب أكثر مما على الدوسيهات : يا سيد ببلاوى ٠٠ دوسيه وقف المناسترلى مش كده اللى انت عاوزه نمرة ٦٨٦٥ ٠

وتتحرك عينى من السلم الى المكاتب المرصوصة فى الغرفة ، فاذا

السيد الببلاوى يرفع رأســـه عن الورق الذى أمامه ويقول له : تعيش يا أسعد أفندى هو ده اللى أنا عاوزه ٠

ومن طرف الغرفة انبعث صوت موظف فى نصف العمر فى وجهه سماحة وفى فؤاده ذكاء ، وعلى عينيه نظارة أيضا وقال ضاحكا : السيد الببلاوى حيدنه ورا وقف المناسترلى لغاية مايخلص عليه ٠٠ ويرد السيد الببلاوى وقد غطى طربوشه أذنيه وبعض جبهته ، ورفع نظارته عن أنفه: وبعدين يا جبريل ٠٠ انت مش حتبعد عنى بقى ؟

وفى ركن آخر جلس رجل ، لاشــك أنه جاوز الســتين وربما أشرف على السبعين ٠٠ ولم يكن يتحدث ٠٠ كان يلبس نظارة أيضا ، وفى اصرار عجيب أخذ يقلب أوراق دوسيه أمامه ٠٠ وفى اصرار وغيظ وحقد على الدنيا والناس ، ينبعث من عينيه شعاع ليس فيــه خبث ولا دهاء ، ولكن فيه ضعف وقسوة ، وليس العجيب أن يجتمع الضعف مع القسوة ، بل العجيب أن لا يجتمعا ٠

وأفقت من ذهولى ورئيس القسم عبد المجيد أفندى يقول : ياجبريل ٠٠ خد الاستاذ لغاية التوريدات وخلصــوا الاجراءات ٠٠ اتفضــل يا أستاذ ٠٠

ونهض على أفندى جبريل وقال باسما مشجعا متلطفا : اتفضل يا أستاذ ٠٠ ووضع يده تحت ذراعى ، وخرجت واياه فى طرقات الوزارة ، أكاد أدوخ مما رأيت وأكاد لا أنطق وقد تمثل لى هذا المصير المظلم ٠٠ كان خيال الغرفة الكئيبة أمام عينى وأسعد أفندى يرتقى السلم ويتكلم بلثغة فيها بلاهة وخفة روح وسلامة طوية ، والســيد الببــلاوى يقلب فى الدوسيهات التى لا حصر لها ، وأكداس التراب التى لا حد لها ٠

وأحس جبريل أفندى بما استولى على من دهشة ونظر الى وجهى ، ورأى ما أنا عليه من حيرة ، فأخــذ يضحك مع من يقابلهم من الموظفين ويقدمنى اليهم ويقدمهم الى ٠٠ وقال وقد أحس بكل ما فى نفسى وأدرك صغر سنى وقلة تجربتى وضعف تحمسى للوظيفة الجديدة:عندك ليسانس حقوق ٠

وسكت قليلا ثم استطرد :

سيفيدك العمل فى قسم الاستبدال ، سترى منازعات وقضــايا من نوع جديد ٠

وأخــذ الرجل فى سماحة واقبال يشرح لى عمليــات الاســتبدال للاعيان الموقوفة ، والاجراءات التى لابد من المرور بها حتى تصل القضية

الى المحكمة الشرعية ، وهى صاحبة الحق فى الاذن بالاستبدال أو اهماله ·· ثم انتقل الى الحديث عن الموظفين فى القسم ، وأعطانى صورة سريعة عن كل واحد منهم ، خلقه وطباعه وقدرته فى العمل ·· ثم قال : أما انت فستشتغل معى ·

وكنا قد بلغنا قسم التوريدات ، ودخلنا غرفة واسعة ، فيها مكاتب وأوراق وأقلام ومحابر ومساطر وسجاجيد وكراسى وكنبات الخ ··

واختار لى الاستاذ جبريل مكتبا وكرسيا وقلما وورقا ونشـــافة ودواة ، وغير ذلك من لوازم المكتب ، ووقعت بامضائى ·· ونقلت كل هذه الاشياء الى الغرفة المظلمة الكئيبة ، وجلست فى ركن منها الى جوار الاستاذ جبريل ·

لم تمض سوى ساعة وبعض الساعة حتى أصبحت موظفا فى وزارة الاوقاف ودخلت تجربة من أقسى ومن أخصب التجارب التى مرت بى فى حياتى ·· جلست أتأمل شأنى وشأن الظروف التى قادتنى الى هــذا المكان ، وظللت أدير عينى فى المكان والناس الذين حولى ، القاعدين على مكاتبهم ، والخارجين والداخلين ·· كان عالما جديدا تماما بالنسبة لى ·· كنت أتأمله فى شغف وخوف وقلق ، وأقيس أمرى وأمورهم ، وأبحث شأنى وشؤونهم ·· من أنا ومن هم؟ سنى وأسنانهم··عقليتى وعقلياتهم· تفكيرى وتفكيرهم ، وشغلنى هذا كله عن الدوسيهات التى أخذت تنزل على كالمطر ·

انها ساعة أخرى ثم نقل الاستاذ جبريل الى مكتبى أكثر من عشرين دوسيها ·· قال : لا تنزعج ·· الذى تريد أن تعــمله اعمــله ، والذى لا تريد أن تعمله دعه لى ·· ان هذا الرجل كان رقيقا الى حد كبير ، وكان مدركا للدهشة والقلق فى نفسى بالدرجة التى أحس بها تماما ، وحاول أن ييسر من أمرى ، ويهون من قلقى ، ريجعلنى شيئا فشيئا آلف هذا الجو الجديد وأندمج فيه جهد استطاعتى ·

***

كانت نيتى أن أدع الصحافة وأقتصر على الوظيفــة كى أستطيع متابعة دراسة الدكتوراه ، ولكننى وقد أحسست بالسجن الذى دخلت فيه ، ترددت كثيرا فى أن أترك الصحافة ، وأمهلت نفسى بعض الوقت ، وأضحيت أسعى فى الصباح الى الديوان ، وأسعى فى المساء الى الجريدة ، آخذ من هذا بحظ ، وآخذ من هذا بحظ ، كلاهما يمنحنى تجــربة ، وكلاهما يمنحنى هما وقلقا ·· كنت أشرف على الدنيا من الجريدة وأراها

بابا منطلقا لا حدود له ، فيه الفهم والمعرفة والسياسة والادب والفن والحياة ٠٠ وأشرف من كوة فى غرفة مظلمة فى ديوان عتيق على نوع من الحياة ، فيه من القدم الشيء الكثير ، ولكنه أمتعنى أيضا ٠٠ كنت اذا ضقت بعملى فى الجريدة أو وقع ما يمس احساسى قلت : لا بأس ٠٠ عندى الوظيفة ٠٠ واذا ضقت فى الوظيفة بشيء قلت : لا بأس عندى الصحافة ٠

كانت الجريدة والديوان يكملان بعضهما بعضا ، ويرسيان فى نفسى نوعا من الطمأنينة والشجاعة ٠٠ وشيئا فشيئا ، طردت فكرة ترك الوظيفة أو الصحافة ، واستطعت أن أجمع بينهما دون مشقة أو عناء ، وكنت أحاول جهد استطاعتى أن أجمع اليهما الدراسة المسائية فى الدكتوراه ، وكانت تتاح لى حينا ، ولا تتاح أحيانا ٠٠ ثم أغرقتنى الحياة فى الديوان والحياة فى الصحافة ، فلم أعد أجد الوقت الذى يتيح لى أن ألم بالجامعة ولو بعض الالمام ٠٠ ومرت الايام ، وأخذت الدوامة تطوينى فى عجلاتها فنسيت الجامعة ٠٠ كلا لم أنسها ، ولكننى اضطررت أن أنصرف عنها الى حين ٠

كانت صور الجريدة فى المساء تختلط فى خاطرى بصور الديوان فى الصباح ٠٠ عبد المجيد أفندى رئيس القسم بنظارته السميكة ونظرته الماكرة ، والسبعين أو الستين سنة التى يحملها على ظهره وصوته الاجش الكريه ، يحاول أن يظهر بأنه يحبنى ويعزنى كابنه ، فتفضحه نظرته التى لا يستطيع أن يخفى ما بها من حقد وحسد للناس والدنيا ٠٠ يبدو وكأنه يخشانى ، ويحسب لى حسابا واذا به من وراء ستار يضربنى فى ظهرى — كما عرفت فيما بعد — ونير أفندى ٠٠ وكيل القسم أو هكذا قدرت من جلسته الى جوار الرئيس ومن سنه المتقدمة ووجهه المتغضن ونظارته التى تبرق من ورائها عينان فيهما خبث مثل خبث الرئيس ومكره ٠٠ يتحدث وكأنه لا يتحدث أو هو لا يتحدث على الاطلاق ، يزيح الدوسيه من أمامه لكى يحل محله غيره ٠٠ لايكف عن النظر فى الدوسيهات ولا يكف عن العمل ، قلما رأيته واقفا يمشى ، حتى تصورت أنه هكذا خلق ٠ جالسا وأمامه دوسيه وفى عينيه نظرته التى لا تتحول وفى فمه كلمة لا تريد أن تبقى أو تنطلق ٠ وفى دماغه أفكار لا تريد أن تجد طريقها الى النور ٠٠ كتوم ٠٠ كتوم لا يعرف أحد سره ولا نجواه ٠٠ اذا قام أو مشى — وقلما كان يقوم أو يمشى — يخيل اليك انه شيخ البلد التمثال المصرى القديم ٠٠ يمشى وكأنه متصلب وينقل أقدامه وكأنها عيدان من الحديد تتحرك بزمبلك ٠٠ كان طويل القامة نحيفا معروق اليدين والوجه

•• قلما كلمته وقلما كلمنى ولعله بينه وبين نفسه كان يقول : ما هـذا الولد الذى جاء لنا على آخر الزمان ، يجلس مثلنا كما نجلس ويصبح موظفا كما نحن موظفون ، ولا يكاد يعنى بأمورنا ولا يشعر بمهابة لنا •• لقد فسد الزمان •

والمستكاوى أفندى رجل فى نصف العمر ، بل لعله أقرب الى الشباب منه الى الكهولة •• فى وجهه لمعة من ذكاء غرست فى هذه الغرفة البلهاء ، وفى عينيه نظرة من استسلام ماكر ، عرف كيف يتقرب بها من عبد المجيد أفنـدى الرئيس ونير أفندى الوكيل وان يوازن بينهما ، فلا يحقد عليه أحدهما •• وعرف كيف يعامل الآخرين ، فيبدو متواضعا وكأنه عصا فى يد كل من فى القسم ، وهو فى حقيقته يعرف من أين تؤكل الكتف •

والسيد البابلى •• هكذا كانوا ينادونه ، فان نسبه يرتد الى أصل أو فروع من الدوحة النبوية المباركة ، له طربوش كان ينبغى أن يستقيل من الخدمة من أمد طويل ، وهو نفسه •• لا بد انه قد غالط الوزارة فى عدد من السنين •• لا بد أن أكثرهم ، فيما بدا لى ، غالطوا الوزارة فى عدد قليل أو كبير من السنين •• ومن يدرى هل كانت توجـد شهادات ميلاد حين وجدوا فى الدنيا •• السيد البابلى كان فيما أراه رجلا أخف مكرا من الآخرين •• له لحية سوداء •• لست أدرى كيف حدث هذا •• شعرها منثور فى وجهه على غير نظام •• كث فى ناحية وخفيف فى ناحية •• أنف كبير وعينان حائرتان وفم واسع يبتسم أحيانا أو يبتسم أحيانا كثيرة •• اذا اشتد به العمل أو أراد أن يعطيه كل كفايته طوى رجله تحت الرجل الاخرى وتربع على الكرسى ودفع طربوشه الى الوراء وطلب فنجان قهوة واستعاذ بالله من الشيطان ، ونادى أنبياءه المرسلين ، وأخذ يقلب فى أوراق الدوسيه •

وهنـاك أسعد أفنـدى •• رجل كموظفى الدوائر وشماشرجية السرايات الكبيرة بدا لى انه أقل شأنا من أصحابه ، وأضعف مقاما وعرفت فيما بعد أنه موظف زهورات ولأول مرة يطرق سمعى الاسم ،وكان الاسم الاول فى قائمة الوظائف والموظفين التى عرفتها فيما بعد ، والتى أضافت الى تجربتى القليلة عالما جديدا ، ما أخصب ما عرفت منه ، وما أخصب ما دفع الى صدرى الكثير من التجربة والفهم • كان أسعد أفندى ضعيف الشأن كما قلت ، وهذا ما عطفنى اليه ، شعرت أن كل انسان فى القسم يكلفه بالاعمال الصغيرة •• دوسيه يا أسعد أفندى •• شوف الساعى بره ابعته ياأسعد أفندى •• يا أسعد أفندى •• يا أسـعد أفندى •• حتى

كأنه لم يبق فى الوزارة كلها الا أسعد أفندى ·· وهو راض مبتسم ، لا يغضب أو يثور أو يسخط ·· حتى لقد ظننت انهم لو لم يعاملوه هكذا لغضب وثار ·· كل ما كان يقوله وهو يرتقى السلم الذى يرتقيه فى اليوم لا أقل من خمسين مرة والرئيس يستعجله : حلمك ياحضرة الريس ·· أما أنفض التراب ·· دى دوسيهات من أيام المماليك ·· وينظر جبريل أفندى من تحت منظاره وهو يضحك متخابثا فى وجه الريس : يا حضرة الريس ·· دى لسه بدرى عليها ·· دى مش حتدخل الجلسة دى ··

ويتضايق « الريس » لأن جبريل أفندى يقاسمه سلطته أو يحاول أن يفعل ، فيرفع صوته لأسعد أفندى غاضبا ناهرا مستحثا اياه أن يأتى بالدوسيه المطلوب ، وكأنه لم يسمع كلام جبريل أفندى أو سمعه ولا يريد أن يعنى به ·· كل الغضب المقصود وغير المقصود ينصب على رأس أسعد أفندى ·· حتى الالفاظ القاسية التى يريد أحد الموظفين فى القسم أن يوجهها الى زميل له تنصب ايضا على رأس أسعد أفندى ·· انه موصل جيد للحرارة والبرودة ·· للشتائم وللكلمات الطيبة ··

ما أكثر ما أثرت فى شخصية هذا الرجل الامين الطيب الصابر ، كان يتحمل الاذى وكأنه الحسين ·· وما أكثر ما التقيت فى الحياة فيما بعد بمئات مثل أسعد أفندى ، وما أكثر ما أحسست بانعطاف شديد نحوهم ·· رأيت فيهم صورا من الحياة حينما تكبو بأصحابها ، فكأنها قذفت بهم من على كاهلها ، وطردتهم من رحمتها ، وأمرتهم أن يعيشوا على الهامش يسمعون ولا يجيبون ، يتألمون ولا يشكون ، يغضبون ثم يبتسمون ·

وارتبطت بينى وبين الرجل الطيب صلة انسانية لم أكن أعجب منها ·· أحس اننى الوحيد الذى أعطف عليه ولا أريد أن أستخدم سلطتى أو أطلب منه شيئا ·· كنت بين وقت وآخر أجلس اليه فيأنس الى ·· وأعطيه سيجارة فأشعر كم هو سعيد بالطريقة التى كنت أقدمها بها ·· ان طربوشه الطويل الهزيل ووجهه وسط الدوسيهات وهو فى أعلى السلم يضحك ويبتسم وكل من فى القسم غاضب يهاجمه ، لا تزال تطالعنى عبر السنين ، وأتساءل : ترى ماذا صنع القدر به وماذا كان مصيره ؟

وكنت أنا بالنسبة لزملائى فى الديوان طارئا فيه من الشر أكثر

مما فيه من الخير ‥ فلم يجدوا فى الخضوع الذى كانوا يرجونه من فتى صغير السن ، قليل التجربة ، جديد فى عالم الوظائف ‥ يا للمسكين ‥ وماذا يعرف من هذا العالم الواسع الذى داخوا فيه عشرات السنين الى أن استقروا حيث هم ‥ ماله لا يزرر الجاكتة حينما يحدثهم ‥ ماله حتى اذا جاء فى الصباح لم يعن بأن يقرئهم تحية الصباح ‥ ماله يخرج اذا أراد ، ويدخل اذا أراد ، وقلما سألهم تفسير شىء ، أو استعان بهم فيما يعرض له من عمل ‥ ماله لا يعنى بغير أسعد أفندى ‥ اتعس من فى الديوان ‥ أتراه سينفعه اذا جاء دور العلاوات والترقيات ؟

كنت ألمح وأقرأ فى داخلهم هذه الخواطر ‥ لم أكن موظفا مثاليا على نحو ما يصورون الموظف المثالى ‥ ولكننى كنت موظفا على طريقتى وأسلوبى وطبقا لما نشأت عليه ودرجت أخلاقى وتصورى للمسائل ‥ لم أكن أعرف أن المجاملة أو بتعبير أدق النفاق طبع أصيل فى عالم الوظائف ‥ كنت أعبر عن نفسى وأتركها على سجيتها ‥ وكما قلت قبلا لم أشعر بضغط فى حياتى ، لا وأنا طفل ولا وأنا صبى ، ولا وأنا تلميذ ولا وأنا طالب فى الجامعة ‥ وكان من حظى اننى خرجت الى الحيــاة واشتغلت بالصحافة ومع قوم من نخبة القوم : هيكل وعزمى وعبد الحميد حمدى . لم أشعر انهم أمرونى أو وجهونى فى عنف ولم أحس قط وأنا أؤدى عملى فى جريدة السياسة بشىء يغض من حريتى أو يشعرنى بأننى مجرد أداة ‥ وعاملت الوظيفة على هذا القياس ‥ اذا لاح لى أن أخرج خرجت ، واذا لاح لى أن أبقى بقيت دون استئذان ، فقد كنت أكره هــذا كرها شديدا ‥ أكره أن يكون هناك انسان ـ مهما يكن ـ فى يده أن يسمح لى بأداء عمل معين أو لا يسمح ‥ كنت أنجز عملى وأفرغ من واجبى على خير وجه فلا سبيل لأحد على ‥ ولم أكن مندمجا فيمن حولى ‥ ولم أستطع أن أفعل ‥ كنت منعزلا بتفكيرى وتصورى للامور عنهم تماما ‥ كنت أنظر وأرقب وأتأمل وكأننى أجتاز تجربة لا استمرار لها ‥ وكانت كذلك فى خاطرى . جفلت من مجرد التصور اننى سأقضى حياتى عــلى المكاتب يأتينى رزق رتيب فى آخر كل شهر ‥ كرهت أن أحصر نفسى حيث هى الآن ، ولم أكن أنوى أن أفعل ، ولم يكونوا يعرفون ومن ثم دهشوا من هذا الفتى الذى لا يبدو عليه أنه يقدس الوظيفة كما يقدسونها ‥ ولا يأخذ بتقاليدها كما يأخذون بها ‥ يتكلم اذا تكلم من غير تحرز وفى انطلاق كان يزعجهم ‥ ويبدى رأيه فى السياسة ـ اذا أبداه ـ دون تقدير لأى اعتبار من الاعتبارات ، ويتحدث عن الوزير والوكيل ‥ وعن

مدير القسم كما لو كانوا أقرانه ٠٠ كما لو كانوا ناســـا من طبقته ودرجته ٠٠

يدخل اذا دخل ، فلايبدو منه الخضوع والاحترام، ويخرج اذا خرج، فلا يبدو منه الحرص على الاستئذان ٠٠ يقرأ الصحف علنا ، يترك عمـل الديوان ويأخذ ورقة وقلما وينشىء ويحرر ٠٠ ماذا يصنع هذا الانسان ؟ يا لجهالته انه لا يعرف الدنيا حتما ٠

ولم أكن أعرفها فعلا ٠٠ كنت فى كلية الحقوق أدخل الدرس أو لا أدخله ٠٠ أستمع الى المحاضرة أو لا أستمع لها ، أجلس على البوفيه أو أنطلق الى بيتى ٠٠ أفأستطيع وقد أصبحت موظفا أن ألتزم مايلتزمونه ٠٠ كان الامر شاقا على نفسى ولم أكن لأستطيع أن أحملها عليـــه ٠٠ تركتها على سجيتها ، ومالى أضغط عليها ٠٠ لقد منحتنى حتى الآن ومع هذه الحرية الكاملة المطلقة ، مركزا ممتازا فى فصول دراستى وبين أهلى واخوتى وأبى وأمى ، وأخـيرا ، بلغت بى ما بلغته ، ما لى أعدل عنهـا اليوم ٠٠ وماذا يريد منى هؤلاء القوم غير أن أؤدى عملى ، وانى لأفعل ٠

نعم ، كانوا يريدون شـيئا آخر ، لم أعرفه أو عرفته وتجاهلته لأننى أنكرته ٠٠ كانوا ينظرون الى فى استغراب أحيـانا وفى اشـفاق أحيانا أخرى ٠٠ قال لى نير أفندى ذات يوم : يا ابنى خد بالك ٠٠ الوظايف مش كده ٠

وضحكت وقلت له : أمال الوظايف ايه ؟

وتوليت عنه بينما كان يوشك أن يبدأ محاضرة طويلة يردنى بهـا الى الصواب أو يرد الصواب الى ٠٠ كنت أعرف ما سيقول ، فأرحته منه، انه يظن اننى موظف نموذجى أو أستطيع أن أكون ، وانه لا ينقصنى حتى أكون الا أن آخذ الأمور برفق أكثر ، وأعامل الرؤساء بمجاملة أكثر ، هى النفاق وان لم يسموه ، وان أعد نفسى ليوم الحساب العسير ، يوم العلاوة والترقية ٠٠ لا بل يوم التثبيت ، فقد كنت موظفا تحت التجربة، هكذا كانت أمور الدواوين تجرى ٠٠ لا بد من مضى سنة أو سنتين ، يثبت بعدهما الموظف ويصبح مستحقا للمعاش ٠٠

وكان جبريل أفندى هو الموظف الوحيد الذى يعرفنى أكثـر من غيره ، واستخلصته من بينهم ، أو استخلصنى من نفسى وحاول فى رفق شديد من وقت الى آخر أن يحملنى على نوع من الرضـــا والاندماج فى

الموظفين ٠٠ قال لى : ان رئيس القسم عبد المجيد أفندى يحبك ٠٠ فقط ٠٠ أرجوك اذا خرجت أن تستأذنه ، واذا عدت أن تشكر له أن أذن لك بذلك ٠٠ وكان الامر ثقيلا على نفسى ، ومع ذلك فقد حملتها عليه حملا ، وراعنى ما رأيت من اشراق أسارير الرجل ، وانبهار نفسه وصوته وهو يرانى أستأذنه وأشــكره ، فيقول لى فى عطف جميل : اتفضل اقعد جنبى ، ثم يحاول أن يروى لى قصة أو حكاية عن ماضيه فى الوظيفـة وكيف بدأ وكيف انتهى ، فأوافقه وأشكر له وأبنسم راضيا فى الظاهر ، ومشفقا عليه بينى وبين نفسى ٠٠ نعم ، فما أكثر ما كنت أشفق على هذا الرجل وعلى صاحبه نير أفندى ٠٠ كانا أمامى صــورة عجيبة أليمـة للانموذج الذى تصنعه الوظيفة من الانسان ٠٠ كان كل منهما آلة لا تكاد تفكر ولا تكاد تتصور فى الدنيا شيئا آخر غير المدير والوكيل والوزير ، وغير هذا العالم الذى يضطرب داخل وزارة الاوقاف ٠٠ اذا دق التليفون فلا تسمع الا انتفاضات : أيوه ياسعادة البيه ٠٠ سعادة الباشا ٠٠ أفندم تحت أمرك ٠٠ المادة دى حاضر ٠٠ دقيقة واحدة يكون الدوسيه موجود عندك ٠

ويتكهرب جو القسم كله ، وتقع المصيبة كلها على رأس أسعد أفندى ٠٠ فاذا به يتحرك بكل جارحة منه ، واذا السلالم تشد من موضـــعها واذا أسعد أفندى فى أعلى السلم يبحث وينقب فى الاضابير وقد تولى وجهه اهتمام شديد ، هو انعكاس لاهتمام الرئيس أو الوكيل ٠٠ واذا بقية الموظفين ، وان لم يكن لهم شأن بالموضوع ، فى خوف شديد ، كأن السماء توشك أن تنطبق أو كأن الارض زلزلت زلزالها ٠

وينهض عبد المجيد أفندى ، وقلما يفعل ، وينهض نير أفنـــدى ، وقلما يفعل ، يستعجلان أسعد أفندى ويشخطان فيه ٠٠ الغرفة مظلمة ونور الكهرباء يضيئها طول النهار ، وشبحا الرجلين يتحركان هنا وهناك ، وجهاهما فى كظم وغيظ وخوف يريدان لو طار كل شىء طيرانا ٠٠ ويقول أسعد أفندى : الدوسيه مش موجود ! ٠

وتقع الواقعة ، ويضطرب الامر اضطرابا شديدا ٠٠ ويدق التليفون مرة أخرى ، ويمسك عبد المجيد أفندى بالسماعة فى يد مضطربة ووجه ممتقع ولسان لا يكاد ينطق ، ثم ترد فيه الروح فلم يكن المتكلم سعادة المدير ولا سعادة الوكيل ٠٠ كان انسانا آخر لا بد انه من صغار الموظفين ، فقد رد عليه ردا موجزا جافا سريعا ، وعاد الى بلوته ٠٠ الى الدوســيه المفقود ! ٠

ويزداد احساس أسعد أفندى بالمسئولية أكثر وأكثر ٠٠ اذا كان الدوسيه غير موجود ، فهو المسئول ، وان لم يكن فى الحقيقة كذلك ، لابد أن يكون كضارب الرمل أو قارىء الكف أو عفريتا من الجن ، لابد أن يجد الدوسيه والسلام ٠٠ وينجده الله بسر من عنده ، فيذكر عبد المجيد أفندى أن الدوسيه فى مكتبه ، ويعود اليه ويخرجه وهو يحوقل ويشكر لله نعمته، ويتهم أسعد أفندى انه هو الذى أضاع عقله ، وانه كان ينبغى أن يقول له ان الدوسيه فى المكتب ٠٠ ولا يستطيع أسعد أفندى أن يعترض ، فيضحك وتظهر أسنانه ويقول وكأنه يشكر : حقك على يا حضرة الريس ٠٠ أما صحيح مخى تخين ٠٠ ويأخذ الرئيس الدوسيه وقد زرر جاكتته وعدل طربوشه وساوى شعره ، واستعان بالله وبدأ رحلته الى سعادة الوكيل أو سعادة المدير ٠٠ كنت أنظر اليه وهو خارج فأشفق عليه أكثر مما أضحك منه ٠٠ انه لا يستطيع أن يفعل أكثر من هذا ٠٠ لقد ربى على هذا منذ كان موظفا صغيرا ٠٠ ربى على الخوف والقلق والاستسلام ٠٠ وكنت ألمح شفتيه ، فاذا هما تتمتمان ، يقرأ فاتحة أو تعويذة ٠٠ لا شك ٠٠ انها مقابلة مع القدر ٠

وتهدأ هذه الغرفة المظلمة الكئيبة بعض الشيء ، ويعود نير أفندى الى جلسته التقليدية ، ويستنشق ، أسعد أفندى نسيم الراحة بعض الشيء وهو يقول : دوسيهات ٠٠ دوسيهات هو فيه حاجه بتخلص ٠٠ وهو لا يقول هذا الا همسا لى ٠٠ بينما يهمس لى جبريل أفندى من أذن أخرى: تصور الراجل ده فاضل له شهور على المعاش ، هاين روحه ليه ؟

ولم أجب ، ولكننى أعرف الجواب ، لقد استعبدته الوظيفة ، لم تصبح بابا للرزق بالنسبة له ٠٠ أصبحت كيانه ووجوده ، حتى ما فيها من خوف وقلق ، حتى ما فيها من « مرمطة » واستعباد ٠٠ كل أولئك أصبح فى دمه ، لا يستطيع أن يعيش بغيره تسلل اليه وجرى فى شرايينه وعاش معه ونما ٠٠ ولو استطاع أن يتخلص منه فلن يستطيع ٠

كنت أعيش فى هذه الصور فى الصباح ، فاذا ذهبت فى المساء الى جريدة السياسة رأيت صورا أخرى ، مفترقة عنها أشد الافتراق ٠٠ كانت هذه المرحلة من حياتى خصبة ممتعة ، جميلة عظيمة ، شحنت خاطرى وقلبى ووجدانى ، وجعلتنى أفهم شيئا جديدا فى الحياة ٠٠

سعادة الباشا الوكيل عايزك

« وسرت مع الساعى على سلالم وزارة الأوقاف كأننى متهم يساق الى قفص الاتهام »

كرهت منذ اليوم الاول لاشتغالى بالصحافة أن يطلق على لقب صحفى ، وظل هذا الكره باقيا معى حتى الآن ٠٠ وفى كل الادوار التى مرت بى لم أقرن اسمى فى أى تعريف بهذه الصفة ، وحتى البطاقات التى كتبت فيها اسمى ، خلت دائما من مثل هذه الصفة ، عامة أو محددة ، وقد توليت فى الصحف التى اشتغلت بها مراكز ، لعل كل انسان ، فى مثل ظروفى ، كان يفخر بذكرها ، ولكننى كنت أضيق بهذا ولا أحبه ولا أذكره أبدا ٠٠ كل ما كتبته فيما مضى وما أكتبه الآن على بطاقتى هو اسمى مقرونا بصفة « المحامى » ثم لا شىء آخر ٠

وقد حرت فى تعليل هذه الظاهرة حيرة كبيرة ، اننى لا أكره الصحافة ، فلماذا اذن أكره أن أنسب اليها ؟ بل اننى لأحبها حبا شديدا ، وقد استولت على شبابى وكهولتى وأرقت فيها ضوء البصر ونبض القلب وجهد العقل ، ولم أضن عليها بشىء أبدا ، لماذا اذن أكره أن آخذ مكافأتى منها ٠٠ كيف أحبها وأكره اسمها أو على الاقل أكرهه منسوبا الى ؟

وكانت المقالات التى أنشرها فى « السياسة » و « السياسة الاسبوعية » خلال المراحل الاولى لاشتغالى بالصحافة تظهر وفى آخرها اسمى مقرونا اما بكلمة « ليسانس فى الحقوق » أو بكلمة « المحامى » ٠

ربما انحدر هذا النفور من اسم الصحفى ومن اسم الصحافة الى عقلى الباطن لما كنت أشهده أحيانا من استهانة الناس أو من عدم احتفالهم بها ، وربما جاء لأن الكثيرين من المشتغلين بها كانوا يتخذونها وسيلة للارتزاق وليس وسيلة للعمل ٠٠ ربما لأننى سمعت فى أوقات كثيرة

ومن أشخاص لهم احترامهم وثقافتهم فى المجتمع ما يشبه الاحتقار لها ·· وللمشتغلين بها ·

لست أدرى على التحديد تعليــلا أستريح له لهذا الشـعور الذى استولى على فيما مضى ولا يزال مستوليا على حتى اليوم ، فاذا كان سببه ضآلة شأن الصحافة والصحفيين فيما مضى وضــآلة الجزء المادى الذى يحصلون عليه وقلة الثقافة التى كانت طابعا لكثيرين منهم ، فلماذا يستمر هذا الشعور معى وقد ارتفع شأن الصحافة ، وزادت مكافآتها المادية زيادة كبيرة ، وأصبح لا يباح الاشتغال بها الا لمن حصل على درجة جامعية ، وأصبح كل متخرج فى الجامعة يتمنى لو أتيح له مركز متواضع فى أى صحيفة أو فى أية مجلة ؟

وانى لأحار أحيانا فى بعض خلجات نفسى وانعكاسات تفكيرى ·· ومن الغريب أيضا أننى بعد أن توظفت كرهت أن أوصف بأننى موظف ، بل ان كرهى لهذه الصفة يزيد اضعافا على كرهى لصفة الصحفى ·· وربما كان تفسير هذا ميسورا ، فلم أكن ، حتى وأنا طالب فى المدارس الثانوية أو فى كلية الحقوق ، أريد أن أكون موظفا سواء أكان فى النيابة أم فى القضاء أم فى غيرهما ·· كان ما يستهوينى حينئذ نوع من الحياة الحرة المملوءة بالنضال الفكرى والعقلى ·· كنت أرجو أن أكون محاميا وعضوا فى مجلس النواب ·· كان هذا هو نوع العمل الذى أحبه ، وكانت أمامى فى مراحل حياتى المدرسية وفى الجامعة أمثلة باهرة من رجال مصر الذين وهبتهم المحاماة والعمل الحر شخصـــية تستهوينى ، كنت أقرأ مقالاتهم فى الصحف وخطبهم فى مجلس النواب وفى الندوات والاجتماعات، فيبهرنى أن شخصيتهم غلبت على كل عمل يزاولونه ، بحيث أصبح الاسم نفسه مجردا من كل شىء علما على كل شىء ·

هل كنت أحب أن يكون اسمى مجردا من كل صفة ، ثم يكون دليلا على صفة بذاتها أو مجموعة من الصفات والاتجاهات بذاتها ، ربما كان تفسيرا مقبولا فيما بعد ، ولكن كيف يكون تفسيرا مقبولا فى أول مراحل حياتى وأنا انسان مجهول الاسم والصفة والاتجاه والميول ·· مهما يكن من أمرى فهكذا كنت ولا أزال ، وهكذا تحيرت فى تفسير نفسى ولا أزال ·

هل كان حبا لها واعتزازا بها ؟ هل كان نوعا من الغرور الخفى ؟ هل كان نوعا من حب الظهور أو الشعور بالامتياز ؟ ·· ربما كانت كل هذه النقائض مجتمعة فى ، ولكن كيف التوفيـــق بينها ــ اذا كانت

موجودة ــ وما كنت أحسه فعلا من ضآلة شأنى ، وضعف تجربتى وقلة علمى واضطراب الأمر فى شأن مستقبلى وخوفى الدائم أن لا أجد الضمان الصحيح فى الحياة ٠

ان المغرور أو الشاعر بالامتياز ومن يحب الظهور ، لا بد أن يكون فى الوقت نفسه واثقا من وضعه ــ وعلى الاقل وثوقا وهميا ــ مطمئنا الى أن مستقبله مكفول ، وعلى الاقل اطمئنانا وهميا ٠٠ ولكننى لم أكن كذلك ٠٠ لم أكن واثقا من وضعى ولا مطمئنا الى أن عملى فى الصحافة أو فى الوظيفة ، عمل حسن مرضى عنه ٠٠ كنت فى كل وقت أتوقع أن يستغنى عنى سواء فى الصحافة أو فى الوظيفة ، وليس هذا الشعور شأن المغرور ولا شأن الشاعر بالامتياز ٠٠ أما حب الظهور فلم يكن قط من طبعى ٠٠ بل العكس هو الصحيح ٠٠ كنت منعزلا ، ولا أزال حتى الآن الى حد ما ٠٠ وكثيرا ما أحسست اننى أبالغ فى هذه الناحية الى درجة انها أصبحت نقصا ، وأصبحت شيئا أضيق به ٠

كان عملى فى جريدة « السياسة » هادئا لينا ، بينما ازداد عملى فى الديوان تعثرا ، كنت من وقت الى آخر أصطدم مع هذا أو ذاك ٠٠ كان جهالة منى أن أجرى على السيرة التى جريت عليها ٠٠ كانت الدنيا أمامى شيئا آخر ، حسبتها حرية مطلقة من غير قيود ٠٠ حسبتها عملا حسنا وأداء جيدا للواجب ثم لا شىء آخر ، ولكن ما أكثر ما فجعتنى التجربة وعلمتنى الكثير ٠٠ رأيت فى الديوان أشخاصا لا يعملون شيئا . ومع ذلك يؤثرهم الرئيس أو الوكيل والمدير والوزير ، ويبدون أمامى أصحاب السلطة والنفوذ وكثيرا ما ساءلت نفسى : ماهو السحر الذى وراءهم ؟ ماهى العبقرية التى اختصهم الله بها ؟ ٠ كنت أراهم فى نظافة المكتب الذى يجلسون عليه ، وفى أناقة الأثاث الذى يزين غرفهم ٠٠ ثم أراهم لا يكادون يبقــون فى مكاتبهم الا أقل القليــل ٠٠ أين هم ؟ ماذا يصنعون ؟ كنت أراهم يهمسون ويبتسمون ، ويلتقون مع آخرين ، ويلتقى آخرون معهم فى غير عمل ظاهر ٠٠ ما أكثر ماكنت جاهلا ، ولكن ما أكثر ماكنت حكيما أيضا ، وان من الحكمة لما ينبع من الجهالة ٠٠ ولو أننى اعتنقت حكمتهم لسرت فى طريقهم وبقيت فى وظيفتى وبلغت فيها ما أريد وأكثر مما أريد ٠٠ ومن يدرى ، لعل هذا الذى أكتبه الآن ما كان ليظهر ولعل الصورة التى أرسمها لحياتى حينئذ لم تكن على هــذا النهج ولكن كانت تكون على نهج آخر ٠٠ أكان يكون خيرا من هذا أم شرا منه ؟ لست أدرى ٠٠ هل كانت جهالتى بعض ارادة القدرة حتى تسير حياتى فى الطريق

التى سارت فيها ، أو كان مصادفة كل أولئك الذى قادنى الى حيث أنا الآن ٠٠ لست أدرى ؟

وبينما أنا جالس فى مكتبى فى ديوان الاوقاف ، اذا بالساعى يقول لى : اتفضل عند سعادة المدير ٠٠ ما كان أثقلها على نفسى ، كنت قد رأيت هـذا المدير مرة أو مرتين ورأيت كيف يصنع الغرور بالانسان؟ رجل طويل فيه خفة فى الصوت والعبارة ، وذكاء لاشك فيه ، ولكنه من هذا الذكاء الثقيل الذى تكرهه وتكاد كراهيتك له تحيله غباء أو ما هـو أسوأ من الغباء ، يحاول أن يكون أنيقا رشيقا ابن ذوات ، ولكن تفضحه لهجة تشير بأصلها الى الريف ، وليس فيه مع ذلك سماحة أهل الريف ، ولا أصالتهم ٠٠ بل لعله كان يحاول أن يخفى أصله أو يتنكر له ، طامعا أن يقنعك بأنه ليس من الفلاحين ولا من أبناء الفلاحين ، وما أسوأ الانسان حينما يحاول أن يدعى ماليس له وينسى ماله ٠٠

قال وهو متعاظم ، يحاول أن يخيفنى : الدوسيه ده ما خلصش ليه يا عبد القادر أفندى ؟

لست أدرى ماذا وقع داخل نفسى من تفاعلات ، ولكن كل الذى أدريه أن كل نوازع التحدى تحركت فيها ، وشعرت كأن هـذا الرجل ضئيل ضئيل ٠٠ نسيت اننى موظف صغير وهو مدير كبير ، ولم أذكر الا أن لهجة خطابه لم تعجبنى ، وانه يحاول بصورة أو أخرى اذلالى ٠٠ لقد نقلوا له قطعا الكثير عنى ، ولا شك أن ما نقلوه كان سيئا جدا ، ولا شك ان أخفه اننى لا أعنى بأحد أو بتعبيرهم « مافيش حد مالى عينه » ٠٠ ولم أكن هكذا قطعا ٠٠ كل ما فى الامر انى أحسست بقيود الوظيفة أو أحسست بسجنها ، فتحركت فى نفسى نزعاتها الطبيعية للنفور من هذه القيـود ٠٠ وكأنما كنت أريد أن أثبت لنفسى اننى ما زلت حرا ، وان الوظيفة لم تجترىء على الاقتراب من هذه الحرية أو الغض منها ٠٠ كنت أعرف اننى موظف غير ذى شأن ، أكثـر ما أكون متلقيـا الاوامر وأقل ما أكون صاحب الأوامر ٠٠ ولم أكن أحب أبدا أن أصدر أمرا لأحد ، وكذلك لم كن أحب أن أتلقى الاوامر من أحد ٠٠ كانت فى خشونة تبدو فى أسوأ صـورها اذا أحسست بشىء من هذا ، وكانت فى استجابة رقيقة أبعد ما تكون الرقة ، وتواضع جم أكثر ما يكون التواضع ، اذا شعرت أن من يحدثنى لا يأمرنى ٠٠ لقد خفت هذه الخشونة فيما بعد ، براها الزمن الذى علمنى الكثير ، وان ظلت أصولها فى نفسى ، تبدو كلما بلغت الامور حدا لا أطيقه ٠٠ تهذبت هذه الخشونة ولكننى لم أتخل عنها

٠٠ هل هذا التعبير صحيح ؟ هل كان فى استطاعتى أن أتخلى عنها ، كلا ٠٠ لقد حاولت جهد استطاعتى أن أكون موظفا مطيعا ولكننى لم أستطع أن أكون مطيعا بالصورة التى تعنيها الدواوين ٠٠ كنت مطيعا فى صورة كريمة ، لا يختفى منها العنصر الاساسى الذى عاش معى وعشت معه وهو النفور من الشعور بالذل ، كان هذا يقتلنى قتلا ، ويدفع فى نفسى بثورة لا أكاد أعرف نفسى خـــلالها ٠٠ وكثـيرا ما أنكرت عليها تصرفها ، وكثيرا ما لمتها على هذا الاندفاع الاحمق وهذا التحدى الذى لم أكن أعرف كيف تفاعلت معه فاذا هو شىء يسيطر على ، أحاول أن أسيطر عليه فلا أستطيع ٠

قلت للمدير وقد أحسست أنه تعمد اذلالى وأغاظنى : ما خلصش لأن أوراقه مش كاملة ٠

كان صوتى متهدجا والشرر يتطاير من عينى ، وأعصابى كلها فى ثورة أحاول كتمها فلا أستطيع ٠٠ أحاول أن أبدو مستهينا بالموقف كله فلا أستطيع ، وأحس الرجل بالصورة التى انقلبت اليها فهدأ فى غيظ ، أو اغتاظ فى هدوء ، وحدجنى بنظرة شملنى فيها من فوق لتحت وقال : طيب اتفضل ٠

كنت قد استدرت عائدا الى مكتبى قبل أن يقول ما قال ٠٠ ولما دخلت الغرفة وجـــدت كل من فيها ينظر الى بشـماتة ، وكأنهم جميعا اشتركوا فى المؤامرة ، نعم ، فقد عرفت فيما بعد انها مؤامرة فعلا ٠٠ ومرة أخرى تحركت فى نوازع التحدى فابتسمت بل تعمدت الضحك وأنا أداعب أسعد أفندى ، حتى أرد على شماتتهم وحتى أشعرهم أنه ولا المدير أيضا ٠٠

وكانت جهالة منى وخشونة وتصلبا من غير شك ، وقد علمت فيما بعد أن الحياة لا تطيق هذا كله ، وانى لأنصح الشباب الذين أراهم الآن والذين يسألوننى عن فلسفة الحياة ألا يكونوا بهـــذه الخشونة وهــذه الجهالة ٠٠ وان يلونوا الحياة بشىء من اللباقة ، وكثيرا ما أسائل نفسى حينما تعود ذكريات حياتى الاولى وما ارتكبت فيها من حماقات : هل لو عادت هذه المرحلة مرة أخرى أؤثر أن أسلك خيرا مما سلكت ، وأتصرف على صورة غير الصورة التى تصرفت عليها ؟ ثم لا أستطيع أن أجيب ، ولكن هل وأنا أقف موقف الناصح الآن أبدو مخلصا مع نفسى ومع من أنصحهم ، اننى أتحدث اليهم بعقل وعى الحياة وهو الآن يناقشها وكأنها

كتاب مفتوح ، وكأن الشاب ذا العشرين ربيعا يستطيع أن يسلك طبقـا للكتاب والنصيحة ، وأنسى أن الخطأ والتجربة ضروريان ، وان الاندفاع الاحمق الذى طبع حياتى فى الديوان لم يذهب بغير ثمن ٠

كان امرى فى الديوان اذن مضطربا شديد الاضطراب ، ولكنه كان أيضا ممتعا شديد الامتاع ، كنت أعيش فى زوبعة مسـتمرة ، لا تهدأ الا لكى تثور ، وكنت فى المساء أتزود بشىء جديد ، وأنا أرى لونا آخر من الحياة فى الصحافة ٠٠ كان هيكل بذكائه اللماح وعزمى بقدرته العقلية التى لاتبارى وزوار السياسة واصدقاؤها الشيخ مصـطفى عبد الرازق والشيخ على عبد الرازق وعزيز ميرهم وعبد الحميد بدوى ووهيب دوس وغيرهم ٠٠ كان كل أولئك يذهب بالصدأ الذى قد تخلفه فى نفسى أو عقلى صور الحياة فى الديوان فى الصباح ٠٠ كنت لا أكاد أنطبع بطبع الديوان ، حتى تذهب حياتى المسائية فى الصحافة بكل ما رسب أو أوشك أن يرسب فى نفسى مما أكره أن يستقر فيها ، وما قاومته أشد المقاومة ٠٠ وانى لأتساءل : ترى لو لجأت الى الوظيفة ابتداء ، ولم تكن الصحافة عملا امارسه ، هل كنت استطيع ان اتخلص من الوظيفة كما فعلت فيما بعد ؟ الم يكن ممكنا ان تتسرب بكل ما فيها من طاعة وخضوع وروتين وخلق فى دمى وعقلى وكيانى ، فاذا بى موظف ابد العمر ٠٠ لو لم يكن عملى فى الصحافة يسند ظهرى ، اما كان ممكنا ألا أسلك فى الديوان كما سلكت ٠٠ أما كان ممكنا أن تتحول خشونتى الى نعومة ، واحسـاسى المتزايد بفقد حريتى الى خضوع يتسلل شيئا فشيئا لكل ماهو متعلق بالوظيفة ومعاملة الرؤساء والمديرين والوكلاء ، ثم الم يكن ممكنا ان انجح حينئذ فى الوظائف التى طبعت بطابعها ، وفهمت قواعدها واصـولها ، واسرارها والغازها ؟

وتكرر احتكاكى بالمدير وتكرر استدعاؤه لى ، وتكررت محاسبته لى على ما أعمل وما لا أعمل ، وفى كل مرة كنت أرده ردا خشنا ، حتى جاءنى ذات يوم جبريل افندى وقال مشفقا : اننى اشعر ان الرجل يدبر لك امرا ٠٠ انه ناعم ولكنه مكير ، وهو يسكت عنك ريثما يقع لك على غلطة فيفتك بك ٠٠ خذ حذرك منه ٠ وشكرت له نصيحته ، ولكنى قلت له ايضا فى غرور او جهالة ، او غرور وجهالة معا : وماذا يسـتطيع ان يفعل ؟ لا يهمنى ٠

وكرر الرجل تحذيره فى رفق شـديد ، وكررت الظهور بمظهر الاستهانة ، أو الجرأة أو بتعبير أدق التهور ، ولكننى حينما خلوت الى نفسى

راجعت بينى وبينها الامر كله ٠٠٠ وكانت قد وقعت أزمة بين وزارة عدلى يكن الائتلافية وبين مجلس النواب ، اذ تقدم احد الاعضاء باقتراح يتضمن شكر الوزارة لما اظهرته من التعضيد لبنك مصر ويرجو لها الاستمرار فى هذه السياسة ، فاعترض الاستاذ عبد السلام جمعة (باشا) على هـــذا الاقتراح لما ورد فيه من شكر للوزارة ٠ ورفضت اغلبية المجلس الاقتراح ٠ ورأى عدلى يكن باشا فى هذا الرفض معنى عدم الثقة بالوزارة ، وحاول مصطفى النحاس (باشا) وكان يرأس الجلسة ــ أن يخفف من حدة الموقف فسأل الأعضاء هل جالت فكرة عدم الثقة بأذهانهم ٠

ولكن عدلى يكن (باشا) اصر على الاستقالة وذهبت جهود سعد زغلول باشا فى حمله على سحب الاستقالة عبثا ٠٠ وقبل الملك فؤاد الاستقالة ٠٠ وبدا ان الائتلاف كله فى خطر ٠٠٠ حدث هذا وانا فى ازمة شديدة فى ديوان الاوقاف ، وكان له اثره وانا اراجع الامر ــ امرى ــ بينى وبين نفسى ٠٠٠ قد يتصدع الائتلاف وترتد جريدة السياسة الى صفوف المعارضة ، وقد تعصف بها الحكومة القادمة فأصبح بلا عمل ٠٠ أليس من الخير لى أن اطأمن من حدتى وخشونتى مع رؤسائى فى الاوقاف ٠٠ قد تسوء الامور واصبح ولا عمل لى غير وظيفتى هذه ٠٠ اليس من الخير ان احرص عليها ولا أعرضها هى الأخرى للأعاصير ٠٠ انها أنسب شىء لى الآن ، حتى أتمكن من اتمام دراستى فى الدكتوراه وهى ــ أعنى ــ الوظيفة ــ وان كانت أقل شأنا ــ أفضل عندى من وظيفة فى النيابة ستكون حتما خارج القاهرة ٠

واضطرب على الامر كما يضطرب عادة ، ولم اعرف وجه الصواب اين يكون ، ولكننى صبح اليوم التالى حينما ذهبت الى الوزارة ، شعرت بغربة اشد وضعف اشد ، وحاولت جهدى ان اتلطف مع عبد المجيد افندى وأن أعدل من سلوكى ازاءه وازاء غيره من الرؤساء ، ولكننى أحسست فى نفسى بما يشبه النفور من نفسى ، حتى لقد اغرورقت عينـــاى بالدموع ، وتولانى وجوم شديد ٠٠ كان الصراع قاسيا مرا ، أليما ، ولم أشرك فيه احدا ، حتى ابى وهو اقرب الناس الى لم يكن يعرف شيئا عن كل هـــذه الزوابع التى القاها فى الوزارة وفى الجريدة ولا عن هـــذه الحيرة التى كانت تنتابنى من وقت الى آخر ٠

كنت اذهب الى الريف مرة فى كل شهر ، اقضى فيه ليلة استعيد ذكرياتى ، وآخذ منه زادا لقلبى وكيانى وفؤادى ٠٠ أرى مغانيه فأذكر طفولتى وصباى ، وارى ابى واهلى وما يلقون من مشقة فيزداد عزمى على

ألا أفاتحهم بشيء مما ألقاه ، كان أبى يسألنى : هل أنت بخير • ؟ هل أنت مرتاح فى عملك ، فكنت أجيب بأننى راض كل الرضى •

وكثر المال فى يدى ، وكثرت المقـــالات التى تنشر باسمى فى السياسة والسياسة الاسبوعية ••• كان المظهر يؤكد تماما ما أعلنه من رضاء ، ولكن القلق كان يزداد شــيئا فشيئا ••• او بتعبير ادق كان يزداد أحيانا ويختفى أحيانا •• فاذا حسن حالى فى الجريدة والوزارة ــ وقلما حسن فى الجهتين ــ فرحت وازددت اقبالا وعملا ، فاذا ساء فى احداهما ــ وكثيرا ما كان يسوء ــ اقف حائرا ماذا اصـــنع ؟ هل اترك الصحافة ام اترك الوزارة ؟ ولم اكن استطيع ان اقطع برأى • فالصحافة وحدها ، وان أعطتنى العمل الذى أحبه لا تعطينى الضمان الذى أنا فى حاجة اليه ، والوظيفة وحدها وان أعطتنى الضمان ، لا تعطينى العمل الذى يمتعنى ويسعدنى •

وانتهت الازمة الوزارية باســـتقالة عدلى يكن وتكليف عبد الخالق ثروت باشا فى ابريل سنة ١٩٢٧ بتأليف الوزارة الجديدة مع استمرار الائتلاف بين الاحزاب ، وسرنى هذا ، فانه يعنى ان جريدة «السياسة» ستعيش فترة اخرى فى امان ••• ما هو مداها ؟ لم اكن اعنى بالجواب ولا بالبحث •• يكفى ان ازمتى انا الآخر قد انحلت ، واستطيع ان اتابع حياتى مرة اخرى على الصورة التى الفتها ، اسعى فى الصباح الى الديوان ، فاذا جاء المساء سعيت الى الجريدة •

وكتبت فى هذه الاثناء فى جريدة « السياسة » الحلقــــة الاولى من سلسلة مقالات جعلت عنوانها « موظفو ديوان » صورت فيها ديوان وزارة الاوقاف تصويرا دقيقا امينا ، ورسمت بالقلم الخطوط البارزة فى الموظفين الذين اعمل معهم •• لم اذكر اسم الديوان ولم اذكر اسم احد منهم ومع ذلك فاننى لما ذهبت الى عملى فى صباح اليوم الذى نشر فيه المقال ، كنت ارى الموظفين فى الوزارة يمرون على الغرفة المظلمة الكئيبــــة وفى الطرقة المظلمة الكئيبة ، ويطيلون النظر الى عبد المجيد افندى وهـــو منكب على اوراقه وملفاته ونظارته السميكة تلمع فى شعاع الشمس الخافت الذى يتسلل من بين القضبان فى الضحى ، ويطيلون النظر فى نير افندى ووجهه ينضح بالضيق والحقد ، وكان بعضهم يدخل خطوة فى الغرفة لكى يرى اسعد افندى على السلالم وهو يلهث من اكوام الدوسيهات التى ينقلهـــا من هنا الى هناك بحثا عن دوسيه مطلوب •• وينظرون الى جبريل أفندى والمستكاوى افندى والسيد البيلاوى ••

وكما يحدث عادة .. كان كل من يرى يروى لمن لم ير ، فاذا موظفون من الاقلام والادارات الاخرى يفدون لكى يشاهدوا ما شاهده زملاؤهم .. وضقت ضيقا شديدا لما حدث . لم اكن اتصور ان احدا ممن يقرأون هذا المقال سيعرفون من اقصد .. لقد غيرت بعض السمات ولم اذكر اسماء على الاطلاق ، لا أسماء الموظفين ولا اسم الديوان ، ولا القسم .. ولم أكن اقصد ان اسيء الى احد .. استهوتنى الصورة ووجدت انها غنية خصبة فرسمتها وليس فى خاطرى الا الجانب الفنى منها ،

وتابعت نشر الحلقة الثانية فى الاسبوع التالى ، وكان لهـــا من الصدى ما كان للحلقة الاولى ، وحسبت ان الامور تسير على ما اريد .. لم يحدثنى احد من الرؤساء فى الوزارة بشأن الحلقة الاولى ولم يعترض عليها ، بل ان عبد المجيد افندى ونير افندى والسيد الببلاوى وغيرهم ممن تناولتهم بالوصف لم يعتب احد منهم على ولم يعترض ، غير اننى لمحت ان فى الجو شيئا ، كان الصفاء الذى يسود الموقف اشبه بالســـكون الذى يسبق العاصفة .

وانه لاحساس خفى فى الانسان ، هذا الاحساس الذى يجعله قادرا على ان يصل الى الاعماق فلا يخدعه السطح . كان عبد المجيد افندى يبالغ فى اكرامى ، وكذلك السيد الببلاوى .. اما نير افندى فقد ازدادت نظراته ضيقا وحقدا .. كان لايطيق ان ينظر فى وجهى .. ولمحت ان عبد المجيد أفندى رئيس القسم يكثر من الخروج والدخول ، ويكثر من الهمس مع نير افندى والسيد الببلاوى .. لمحت جوا غير عادى .. ما هو ؟ ما تفسيره ؟ ماذا يخفى ؟ لم استطع ان اجيب تماما ، ولكن احساسى لم يكن يكذبنى .. كنت احس ان هناك شيئا ، وكنت اتوقعه من وقت الى آخر .

وكان مدير القسم يطلبنى من حين الى حين ، ولكنه كف عن ذلك تماما .. وكنت انا من ناحيتى اجرى على خطتى ، احضر فى الصباح حوالى التاسعة بينما كلهم يحضرون فى الثامنة ، واخرج اثناء النهــــار اذا كان هناك ما يحملنى على الخروج ، غير اننى كنت أؤدى عملى تماما ، فلم يكن لاحد سبيل على .

وانقضى يوم .. يومان .. ثلاثة على ظهور الحلقة الثانية ولم يقـــع شيء مما كنت اتوقع .. وفى اليوم الرابع ، وبينما انا جالس أؤدى عملى وقد خلا بالى ، واطمأنت نفسى ، أداعب جبريل أفندى من وقت الى آخر وأنظر الى أسعد أفندى بوجهه السمح المملوء طيبة وأقول له : يا أسعد

أفندى انت بتشرب سجاير لف ليه ٠٠ خد سيجارة ماكنة ٠٠ فيضحك ملء وجهه الرقيق ويأخذها منى راضيا مبتسما ٠٠ كل هذا وعبد المجيد أفندى يضع عينيه فى الورق يدخن سيجارة وينفخ النفس فى ضيق وهم شديدين ٠٠ نبر أفندى ليس على مكتبه ٠٠ جبريل أفندى كالنحلة يدور على هذا المكتب وذاك ٠٠ السيد الببلاوى يضع رجله تحت الأخرى ويضع أنفه فى الورق ٠

كان هذا هو جو المكتب والنهار قد انتصف او كاد حينما فوجئت بساع طويل عريض ، له شوارب كثـــة وطربوش طويل ووجه كوجه الخارجين من الليمان .. دق الباب ودخل وقال فى صوت اجش فيه ارهاب ليس من الساعى المسكين ، ولكن من مصدر آخر قال : عبد القادر افندى .. تفضل .. سعادة الباشا الوكيل ..

كان مجرد دخول الساعى هذا المكتب المتواضـــع حادثا خطيرا ٠٠ انتفض عبد المجيد أفندى وترك الورق وخلع نظارته بعض الشىء وانطلقت اساريره ٠٠ لست ادرى لماذا ؟ ونظرت الى نبر افندى وكان قد دخـل فى اللحظة التى دخل فيها الساعى ، فاذا به الآخر قد شد اذنيه لكى يسمع أكثر وأكثر كلام الساعى العظيم ، واذا السيد الببلاوى ينزل رجله من تحت صاحبتها ويعتدل فى جلسته ويتأمل الحادث الخطير ٠

تركت مكتبى ونظرت اليهم ضاحكا ٠٠ فقد ادركت انهم شامتون بى ، وقلت وانا منصرف : سعادة الباشا الوكيل ٠٠ عاوزنى ٠٠٠ حاجة عظيمة خالص ٠

كان مكتب ابراهيم فهمى باشا وكيل وزارة الاوقاف فى الدور الثانى امام السلالم العريضة التى تتوسط مبنى الوزارة ، وارتقيت السلالم مع الساعى ، وانا مبتسم ضاحك اسائل نفسى : لماذا يطلبنى سعادة الوكيل ؟

وكان واضحا ان الاستدعاء ليس خيرا ، بل كان واضحا انه شر ٠٠ ماذا كان هذا الشر ؟ تصورت كل شىء الا ما حدث فعلا ٠٠ وتصـــورت نفسى وأنا سائر مع الســـاعى ذى الشوارب الطويلة الكثة كأننى متهم مساق الى قفص الاتهام حتى اذا بلغنا باب المكتب الضخم ، فتحه الساعى ودخلت ٠

وقعت تعهداً بالامتناع عن الكتابة

« نظرت الى أبى وطفر الدمع من عينى أو كاد ، وتمنيت لو كنت أقوى مما أنا وأكثر حكمة وتجربة » .

كانت غرفة ابراهيم فهمى باشا وكيل وزارة الأوقاف واسعة جدا ، أنيقة جدا ، وكان المكتب الذى يجلس عليه كبيرا جدا اذا قيس الى حجم الباشا ، لم يكن يظهر من المكتب غير رأسه ، وجه فيه سمرة شديدة وطيبة شديدة ، الا انه لايخلو من قسوة وتصميم .. وتحت ظل هذه القسوة والتصميم تلمع ابتسامة لاتعرف ماذا هى على التحديد ، هل هى الطيبة أو القسوة أو التصميم .. كان واضحا انها انعكاس لشىء فى داخل نفسه .. ماذا هو بالضبط ؟ لاتستطيع أن تعرف ، كان فيه غموض شبيه بالشعور الذى يستولى عليك وانت تراه .

دخلت من باب الغرفة ، وكان على أن أقطع نحو عشرة أمتار الى أن أبلغ مكان المكتب ومكان الوكيل .. كنت ـ كما قلت ـ أشعر أن هناك شرا ينتظرنى وتهيأت له .. تهيأت له بماذا ؟ بشجاعة أو باستهانة ، بخوف واحساس بالمسئولية ؟ . لا أستطيع أن أحدد بالضبط ماذا كان شعورى حينما دخلت ، وماذا كان شعورى وأنا أقترب من مكتب الرجل ، وهو يرقبنى بعين فاحصة متحفزة .

كل ماحصل اننى اذ بلغت المكتب استندت اليه بكلتا يدى .. وضعتهما على حافته ووقفت فى مواجهة الرجل ، ولمحت على وجهه أمارات لم تخفنى ولكنها أيضا لم تدفع الطمأنينة الى نفسى .. قال وقد أخرج من درج المكتب اعداد جريدة « السياسة » التى نشرت فيها المقالات التى عنونتها « موظفو ديوان » : انت اللى كتبت المقالات دى ؟

قلت : أيوه ٠٠

ويظهر أن طريقة ردى لم تعجبه ، أو طريقة وقفتى ، لأنه ، ومن غير مناسبة ، قال لى غاضبا : أقف كويس ٠ وارتددت خطوة الى الوراء ورفعت يدى من فوق المكتب وأنزلتهما الى جانبى واتقدت بالغيظ ولكننى لم أتكلم ٠٠ لابد أننى جبنت أو لابد أننى أحسست أننى « زودتهـــا شويه » أو لعل ضخامة الغرفة وأناقتها وفخامتها ، ومن على بابها من سعاة واللقب الذى يحمله الرجل والوظيفة الكبيرة التى يشغلها ، لعل كل أولئك أضعف من مقاومتى وشملنى بنوع من الخوف ، وردنى الى حالة من تقدير المسئولية .. ولعل أشياء أخرى تفاعلت فى داخل نفسى ولا دخل لها بالشجاعة والجبن ، بالخوف أو عدم الخوف .. لعلنى قدرت أن الموظفين القابعين على مكاتبهم فى انتظارى سيشمتون بى حتما لو اصطدمت اصطداما حاسما بسعادة الوكيل ، وسينتصر هو حتما وسأخذل انا حتما ٠٠ ولعلنى قدرت اننى قد اخسر وظيفتى وانا فى حاجة اليها ٠

قال ابراهيمفهمى باشا وقد عادت اليه ابتسامته الطيبة : انت مش عارف ان ده ممنوع طبقا لنص المادة ١٤٤ من القانون المالى ، واخذ الرجل يقرأ نص المادة وخلاصتها انه ممنوع على الموظفين أن ينقلوا أخبارا أو يزودوا الصحف بأخبار ٠٠

قلت له فى هدوء : ولكن ماكتبته ليس أخبارا ثم انى لم أخص ديوانا بالذات ولم أذكر اسم أحد ،

أجاب الرجل وقد ازداد طيبة ورقة : احنا بنعينكم علشان ترفعوا المستوى والا علشان تضحكوا عليهم ٠

قلت : اننى لم أضحك منهم ٠٠ رسمت صورة من الناحية الأدبية ولا شىء آخر ٠٠ ولم أقصد شخصا أو أشخاصا بذاتهم ، قصدت الصورة باعتبارها نموذجا لحياة الوظائف ، قال دون أن يتخلى عن هدوئه : على كل حال اذا كان عندك موهبة الكتابة ، أكتب فى موضوعات تانية ، ومافيش داعى تزعل اخوانك ٠٠ دول اشتكوا منك ٠٠ عاوزك تكتب تعهد انك ماتستمرش فى الكتابة عنهم ٠

ولم أتردد ووقعت تعهدا بهذا المعنى ٠٠ وخرجت من غرفة الوكيل ونزلت الى الغرفة الكئيبة المظلمة ، ودخلت باسما أضحك ، وأخذت أداعب جبريل أفندى واسعد أفندى وأنا مبتهج غاية الابتهاج ٠٠ ادركت الجو

كله ، وادركت المؤامرة كلها ·· كانوا ينتظرون حتما أن يشنقني ابراهيم فهمي باشا أو على الأقل يرفتني أو يخصم مني مرتب شهر ، ولاشك أنهم كانوا يتوقعون أن يروني بعد مقابلة سعادة الوكيل متهالكا ضعيفا خائفا كسيرا ، أو كانوا يتوقعون أن يروني أجمع أوراقي وأودعهم عائدا الى بيتي ، ولكن ادهشهم انني عدت ضاحكا مبتهجا ، وقد قصدت أن أفعل ، تحركت في أيضا نوازع التحدي ·· كرهت أن أكون غرضا لمؤامرة وطعنة من وراء الظهر وتعلمت حينئذ درسا لم أنسه ، ان الذين يضحكون في وجهك ليسوا دائما اصدقاء، قد يكونون متآمرين ، وليس الضحك الا ستارا ، ليس الا الدخان الذى يطلقه الجيش المهاجم لكى يستر غرضه ·

توقفت عن متابعة السلسلة التى كنت أكتبها وفاء بتعهدى ، ولم يضايقني هذا التوقف ، الا انه لفت نظرى الى حقيقة كانت غائبة عني أو على الأقل لم تكن واضحة في الصورة أمامي ، وهو انني لست حرا أكتب ما أشاء ، وان الوظيفة ليست قيدا في الحضور والانصراف واحترام أشخاص قد لا تحس في نفسك باحترام لهم ، والاستماع لأوامر أشخاص قد تشعر انهم ليسوا أهلا لاصدار الأوامر ، ليست قيدا في هذا كله فحسب ، ولكنها أيضا قيد على تفكيرك وحريتك وتصرفك حتى فيما لادخل له بالوظيفة وواجباتها ·

وحدث شيء آخر ·· سافرت الى قريتى كما اعتدت أن أسافر في كل شهر وقال لي أبى والأسى فى وجهه والألم يعصر قلبه : يابنى ·· هناك مشكلة أريد أن اتحدث فيها اليك ·· لقد نزع البنك الزراعى ملكية ثلاثة أفدنة ونصف من أملاك جدك ، لأن الدين استغرقها ، ونحن لا نستطيع سداده ، لقد ذهبت كل جهودنا عبثا ، وهى أرض عزيزة علينا جدا ، لأن منها الحديقة المجاورة لمنزلنا وهى بمثابة منزلنا ، نلاقى فيها ضيوفنا · وسكت برهة بينما ذهب خاطرى الى ماهو أبعد ، وسرعان ما مر شريط طويل بديع جميل اختلط بهذه الحديقة بالذات . . تحت أشجارها جلست، وفى سحر أزهارها المتفتحة عشت طفولتى وصباى ·· وعلى حشائشها الخضر سمعت وقرأت ورأيت ·· كانت بعض حياتى ، ونخيلها العالى الذرى ·· هذا الأنيق الرفيع الرقيق ، الذى بلغ عمره سبعين سنة وربما أكثر ، ونخيلها الصغير ، زرعت بعضه بيدى ، وارتقبت بعضه الآخر وأنا طفل · هل يذهب هذا كله ؟ جزء من حياتى وهنائى وذكرياتى ·· وفتحت أذنى وقلبى ووجدانى لكى اسمع ما يهمس به أبى ·· وتابع حديثه وفى عينه اشفاق الأب على الابن الطرى العود : البنك الزراعى سيبيع الأرض ،

وهو يفضل فى بيعها أولاد المالك وأحفاده • تستطيع أن تشتريها بالدين الذى عليها وهو نحو ٣٥٠ جنيها ان هذا الدين أكثره فوائد ولكن ماذا نصنع ؟ • البنك الزراعى خـرب بيوتا كثيرة •• لاتنزعج أنا أعرف ان المسألة ستؤلمك • أنا مدرك كم هى عزيزة عليك ، تلك الحديقة ، ونحن لا يعنينا غيرها •• ما بقى من الأرض قطع متناثرة هنا وهناك ، نستطيع أن نبيعها لآخرين •

قلت وقد أدركت خطورة الموقف : ولكن من أين لى هذا المبلغ الكبير الآن •• قال : لقد قابلت مندوب البنك وهو على استعداد لتقسيط المبلغ مع دفع جزء منه أولا •• قلت : ان مامعى الآن ٧٠ جنيها ، ادخرتها وهى فى دفتر بالبوستة ••

ابتهج أبى وانطلقت اساريره وقال : لقد انحلت المشكلة ، تستطيع أن تدفع هذا المبلغ الآن ، وما بقى يقسط على سنتين ، تدفع كل شـهر عشرة جنيهات •• هل يضايقك هذا ؟ قلت : كلا ، لايضايقنى لو سارت ظروفى كما هى الآن ، ولكننى أخشى أن يضطرب أمرى •• وكيف يكون الحال لو ارتبطت مثل هذا الارتباط ثم لم استطع أن افى به •

قال : اعتمد على الله •• انه لن يفضحنا •

واغرورقت عينى بالدموع ، وأنا انظر الى الرجل وقد امتلأ وجهه بالاشراق والنور •• قال : لم أنم ثلاث ليال •• كنت أفكر كيف يكون مركزنا فى البلد اذا نزعت ملكية هذه الحديقة •• لم يهمنى كل مانزعت ملكيته منا ، عشرات الأفدنة لم تهمنى •• أما الحديقة ، منزلنا ، بيتنا •• انت لا تعرف كيف يسترنا الله ان ايمانى به لاحد له • لقد مرت بنا ظروف شديدة ، وفى كل مرة كنت أظن فيها ان الأمور ستبلغ غايتها من السوء ، ينبثق نور ، لا أدرى من أين ، فاذا المشكلة التى حسبتها مستعصية ، تحل من أهون سبيل •• لم أكن اتصور ان معك مثل هذا المبلغ •• كنت أعرض عليك المسألة عرض اليائس ، وهاهو ربى يكرمنى فيجىء الفـرج عن طريق ابنى •• وانى لسعيد أن تؤول ملكية هذه الأرض اليك ••

ونمت ليلتى فى الريف ، وخواطرى موزعة هنا وهناك •• كان الوقت صيفا ، الظلام رقيق والنسائم عذبة ، والقرية كأنها قبر ، لاحركة ولا حس ، لاوقع قدم ، ولا صوت انسان •• وتأملت الحياة •• اختلطت صورها الكثيرة فى نفسى وأنا أذود النوم ع ن عينى أو تذوده عنها خواطرى

وهمومى وقلقى ٠٠ عبد المجيد أفندى ووكيل الوزارة ونير افندى ، والمعركة القائمة فى الديوان بينى وبينهم ، وظيفتى التى لاضمان فيها مع هـذا الجو المضطرب ، عملى فى الصحافة وهو أيضا لاضمان له ٠٠ ان الائتلاف بين الأحزاب تدخلت فيه الغـايات ، والاغراض والنزوات ، الأحـرار الدستوريون يريدون أن يخلو لهم الحكم ، والوفديون يرون انهم مظلومون فى الصفقة ، ان الوزارات المهمة من نصيب الدستوريين ، لماذا ، وهم ـ أعنى الوفديين ـ أصحاب الأغلبية واصحاب السلطة الشعبية ؟ ٠ ماذا لو انفض هذا الائتلاف واقفلت الحكومة جريدة « السياسة » واصبحت مشردا بلا عمل ٠٠ لا الوظيفة مضمونة ولا الصحافة مضمونة ٠٠ وأنا مع ذلك أقـدم على ربط نفسى بتعهد قد لا اسـتطيع الوفاء به ٠٠ شراء أرض ، ولكن كيف اترك بيتنا تنزع ملكيته .. الحديقة ، هذه الحديقة كانت عندى هى البيت ٠٠ وابى وأهلى كيف اتركهم فى اساهم ٠٠ هل أستطيع أن انفصل عنهم مؤثرا أن أكون فى مأمن من أحداث الزمان ٠٠ لماذا اذن ربانى أبى وآثرنى بالرعاية التى كانت من حظى ؟

وقضيت الليلة فى أرق وهم وتفكير .. لقد ادخرت سبعين جنيها لكى تكون عونا لى اذا تركت العمل ، او أصبحت بلا عمل ، فهل اجازف بأن أضعها كلها فى شراء أرض ، ولو كانت خالصة لهان الخطب ، ولكنها ستربطنى مع ذلك باقساط شهرية .. وماذا لو عجزت عن دفع هذه الاقساط ؟ ستنزع ملكية الارض مرة أخرى منى ؟

وأصبح الصباح .. وحوالى الساعة العاشرة كانت شمس الضحى تملأ الدنيا ، وأنا مرهق مهموم ، وأبى مبتهج راض يسألنى : مالك مؤرق يابنى ٠٠ هل لم تنم نوما كافيا ؟ هل يضايقك شىء ٠٠ الا تستطيع أن تبقى يوما آخر بيننا ، تستطيع أن تستريح فيه فأجيبه : لا شىء يضايقنى ٠٠ اننى سعيد ، كل مافى الأمر اننى أشعر بصداع ، لعله من أثر برد خفيف ٠٠ لابد أن اسافر ، ان عملى لايقبل التأجيل ٠

لم أشأ أن أكشف له شيئا عن مخـاوفى واوهامى ٠٠ لم أشأ أن أفجعه فى الأمل الذى بناه ٠ لم أشأ أن أقول له ان ابنك الذى تعتمد عليه هذا الاعتمادمهدد فى وظيفة الديوان ، ومهدد فى عمل الصحافة ٠٠ انه ليس قويا كما تظن ، وليس ثابت الأساس كما يخيل لكل أب فيما يتعلق بابنه ـ كان أبى ـ كأى أب ـ يظن أن ابنه لامثيل له ٠٠ كان ينظر الى فى فخر واعتزاز ، ويشعر اننى سأكون العكاز الذى يسير معتمدا عليه اذا أضناه طول المسير ..

وفيما أنا متهيىء للسفر قيل لابى ان ضيفا يريده ، وجاء الضيف ·· كان هو مندوب البنك الزراعى ، ونظرت اليـه ، نظرت الى الرجل الذى جاء كى ينزع ملكيتنا للارض التى تعد بيتنا ، للحديقة التى كانت تعنى طفولتى وصباى ــ واكرمه أبى اكراما شديدا ، كما يكرم عادة كل ضيف· كان يبتسم ويضحك ويحدث الرجل فى أشياء كثيرة الا الشىء الذى جاء من أجله .

وما هى الا دقائق ، حتى طرق بابنا فتى رقيق ، ليس غريبا عنا . انه ابن أحد أقربائنا الأقربين وقال دون تحية لنا ·· وجه كلامه مباشرة للافندى الضيف وقال وفى لهجة صوته رنة غريبة : قوم سلمنا الارض ·

وسكت أبى ·· كظم غيظه ·· وسكت أنا ·· كتمت غيظى ·· قال أبى فى رحمة ممزوجة بألم ، وفى صبر انتزعه من قلب مجروح لم يعد فيه منزع للصبر : اقعد ياابنى ·· تفضـــل · قال الفتى موجهـا كلامه للافندى الضيف مرة أخرى : قوم سلمنا الأرض ·· قال الافندى : حلمك شويه يا ابنى ·· حنسلمك الأرض ·· قول لوالدك أنا حأجيله حالا ·

وانصرف الفتى · وقال الضيف مندوب البنك الزراعى ان أب هذا الفتى ذهب الى البنك لكى يشترى الأرض ·· وان البنك أرسله الينا لكى يتأكد مما اذا كنا لن نشتريها ، وقال ان من تقاليد البنك الا يبيع الأرض الى أى أحد الا اذا لم يكن هناك مشتر من أولاد المدين أو أحفاده ·

وقال أبى : ابنى حيشترى الارض ·

لا يمكن لقلم فى الدنيا أن يصف كيف قال ابى هذه الـكلمة ، ولا كيف سمعتها ·· لا يمكن أن أصف هذه اللحظة التى مرت بى فى حياتى ·· ان حياتى بسيطة عادية ، ليست فيها مواقف باهرة ، ليست فيها بطولات ولا أسرار ولا مغامرات ولا ادعاءات ·· انها حياة انسان فيه نقائص الناس وعيوبهم ، فيه ضعفهم وخوفهم وقلقهم ·· فيه كل ما فيهم من طمع ورضى وغضب ·· وفيه أيضا ما فيهم من لمسات القلب الرحيم والعين التى يند يها الدمع ، والفم الذى يملأه الابتسام ·· حياة انسان عادى جدا ، وهو يسجلها كما هى فى بساطتها ·· نظرت الى أبى وطفر الدمع أو كاد من عينى ، وتمنيت لو كنت أقوى مما أنا وأكثر حكمة وتجربة ومعرفة ، حتى أستطيع أن أدفع الطمأنينة الى قلب هذا الأب الذى بدا كأن عواصف الدنيا لم تبق منه شيئا ·· « ابنى حيشترى الأرض » ·· لم تذهب منه ، ان ابنه قطعة منه ، لقد عادت اليه ·

والمأساة التى كنا نعيش فيها هذه اللحظة ليست ان أرضنا معرضة للضياع فحسب ولكن لأن أحد أفراد اسرتنا هو وحده من دون أهل القرية الذى تقدم لشرائها ‥ ان من تقاليد الريف اذا نزعت ملكية أرض فى القرية ، الا يتقدم أحد من أهلها لشرائها اكراما لصاحبها ومشاركة له فى مصابه ، لم يتقدم أحد منهم الى الشراء ، تساوى فى ذلك أفراد اسرتنا وغيرهم الا هذا القريب ‥ وليست اسرتنا فى هذا بدعا بين الاسرات ‥ لقد علمتنى الحياة فيما بعد الشيء الكثير ‥ علمتنى أن أعفو عن أغلاط الناس وشهواتهم ونزواتهم ‥ علمتنى أن أقيس نفسى بهم ‥ وأسألها كيف تتصرف لو كانت فى مكانهم ‥ وقد نما هذا الفتى وكبر ، وانه ليعرف مقدار ما أعزه وأحبه ٠ بل انه ليعرف مقدار ما أعزته وأحببته قبل أن يدخل علينا منزلنا ، ويطلب الى مندوب البنك أن يسلمه الأرض ‥ وعلى هذه الارض حديقة نجعلها بمثابة بيتنا .

وكثيرا ما عادت هذه الذكرى الى خاطرى فيما بعد ، وكثيرا ما ساءلت نفسى : هل لو كنت فى مكان هذا الفتى اما كنت أفعل ما فعل ؟ أغلب الظن أننى كنت أفعل ٠ ولذلك لم أكرهه ، بل لم ألمه ‥ ان الحياة صراع ، الضعيف ألذى يسقط لا يجد أحدا يقول له : انهض وان وجد كثيرين يعطفون عليه ويبكون من أجله ‥ وتبقى القرابة ‥ كنت أحسبها تعصم من كثير ، ولكن الحياة علمتنى أنها لا تعصم من شيء وأنها عواطف تظهر أحيانا وتختفى فى أكثر الأحيان ، وان من الأقرباء أعداء الداء وانه كلما كان الأمر متعلقا بمال أو ملكية مال ، فلا قرابة ولا يحزنون ٠

لم يفجعنى هذا وان كان أرسل الدمع الى عينى ‥ واذا كنت قد تألمت فلأن أبى شعر بجرح عميق شديد ‥ ولا يستطيع أحد أن يعرف مدى الحرج الذي تتركه أرض تنزع ملكيتها الا اذا كان من أهل الريف ، ورأى كيف يقدس الناس الأرض ، وكيف يجعلونها هى والحياة سواء ٠

وسافرت مع مندوب البنك الى القاهرة ، وتم الاتفاق على أن أدفع ما أملكه وهو سبعون جنيها ، وان أقسط الباقى ، أدفع كل شهر عشرة جنيهات وأمضيت الاتفاق ، وبعد أيام كان رصيدى صفرا ، وان أصبحت مالكا لثلاثة أفدنة ونصف الفدان ، مالكا ملكية معلقة على شرط ، من يدرى ما اذا كنت سأوفى به أم يقع معى ما وقع مع أجدادى ٠

وتابعت حياتى فى الديوان والصـــحافة الا أننى أحسست بثقل المسئولية أكثر وأكثر ، وأصبحت أشد ما أكون حاجة الى الاحتفاظ بالعملين معا ‥ كنت فيما مضى أظن أن أحدهما يسند الآخر ، وانه اذا ذهب واحد

ففى الثانى الغناء ٠٠ أما الآن فأصبحت اشعر ان احد العملين يكمل الاخر ٠٠ كان لابد اذن من شىء من الهدوء سواء فى الديوان أو فى الصحافة ٠٠ ان العاتق المثقل بالمسئوليات أجبن من العاتق المحرر من المسئوليات . انتهى الشاب الصغير الذى كان يسير فى الدنيا يحسبها ملكه ، يطالبها بكل ما يشاء ، ولا يسمح لها بأن تطلب منه ماتشاء ٠٠ ما أسرع ما انتهت هذه الفترة القصيرة ! ٠٠ شهورا لم تزد على ثمانية ٠٠ حل محل الشاب المحرر من كل قيد ، انسان آخر مثقل بالقيود ٠٠ أصبحت حياتى دقيقة جدا ٠٠ كنت مرهفا لاخبار السياسة وتطوراتها ، ومرهفا لاخبار الديوان وتطوراته ٠ كنت أعيش فى خوف مستمر ، يخيل لى أننى سأصحو غدا ، فلا أجد عملى فى الصحافة أو لا أجد عملى فى الديوان أو لا أجد الاثنين معا ٠٠ وكان مجرد التفكير يزعجنى ٠٠ ماذا أصنع حينئـــذ ؟ وكيف أستطيع أن أعيش وأسدد الالتزامات التى وضعتها على عاتقى ٠

حاولت جهد ما استطعت أن أحسن أمورى فى الديوان ، وحاولت جهد ما استطعت أن أتبع النظم والقوانين ، ولكننى لم أستطع أبدا أن ألائم بين نفسى وبين جو الدواوين ٠٠ قد تستطيع أن تؤدى عملك ، وان تنفذ ما يطلب اليك ، ولكنك تشعر مع ذلك بغربة فى المكان الذى تعمل فيه ٠٠ كان هذا هو شأنى ٠ لم يزدنى مرور الأيام الا نفورا من هذا العمل ، ورغبة فى التخلص منه ، ولكن الأمر الواقع أيضا له حكمه ٠٠ الفت متاعب الديوان كما يألف الانسان أى شىء ، وجعلتها بعض الخبز اليومى ٠٠ وكنت استعجل مرور الأيام لكى أتخلص مما على من دين ، واسترد حريتى فى العمل فى الديوان والصحافة ، وقد شعرت أن هذا الدين ربطنى بهما ربطا ٠

لم يضف ما اشتريته الى ما نملكه شيئا ٠٠ فان الأفدنة الثلاثة تحت يدنا منذ أمد طويل ، ولكننى أصبحت اذ أسافر الى الريف ، أشعر كأننى ازددت ارتباطا به ، وكأننى انسان له اعتبار خاص .. قلت لأبى ذات يوم : لعلك راض الآن ؟ قال : ان الله سترنا من الفضائح .. إنك لم تفعل شيئا فى حياتك الا هذا لكفانا .

اغتبطت وأنا أسمع منه هذا الكلام ٠٠ ان ما فعلته شىء صغير لاقيمة له ، ولكن قيمة الاشـــياء لا تقاس بأنها صغيرة ، ولكن تقاس بأهميتها وأثرها . وكما قلت قبلا ان حياتى ليس فيها أشياء عظيمة ، ولكن فيها أشياء كثيرة صغيرة .. ولكن لماذا قال أبى « الفضائح » هل الفقر فضيحة؟ وتصورت الأمر كما يلى : ان أبى واخوته لم يستدينوا ، لقد ورثوا أرضا

مدينة مثقلة ، تتكاثر فوائد الديون عليها ، ولا تستطيع غلتها أن تفى بما عليهـــا ٠٠ انهم يدفعون ثمن جهالة ليسوا مسئولين عنها ٠٠ كان أجدادهم مسرفين أساءوا التصرف ٠٠ لماذا يحاســـبون هم عن شيء لم يفعلوه ؟ ولماذا اذا ضاعت الأرض سمى الناس هذا فضيحة ؟

كانت الحياة فى الريف هكذا ٠٠ الغنى هو السيد المطاع ٠٠ من عنده هو الوجيه وهو الفاضل وهو الأمين ، ومن ليس عنده هو الشقى التعس ، كل رذائل الدنيا فيه .. فضيحة أن تضيع الارض .. فضيحة الا يجد الانسان المال .. فضيحة ألا يحصل عليه . وشى عظيم جدا ان يكون عنده مال ، ســـواء كان بالوراثة او بالعمـــل الشريف أو غير الشريف .. المال هو الستر .

لأترك الريف والديوان بعض الشيء ، وأرجع الى السياسة وجريدة السياسة ، قال لى الدكتور هيكل وأنا أسأله عن وزارة عبد الخالق ثروت ما هو طابعها : اعتبرها شبيهة بوزارة عدلى يكن ٠٠ الائتلاف مستمر ٠

ولكن هل كان الائتلاف بمثل قوته فى وزارة عدلى يكن ٠٠ بدا لى أن هناك أشياء تضعفه ٠٠ الزمن نفسه عنصر من عناصر الضعف ٠٠ يوم تم الائتلاف كان كل واحد يقول انه كالحديد والأسمنت ٠٠ لن يضعف أو يذهب ٠٠ كان الدافع اليه هو صيانة الدستور وحفظه من التلاعب به ٠٠ كان الوفد صاحب الأغلبية الكبرى ، وكان زعيمه سعد زغلول أبا الشعب وموضع ثقته ، والكراسى التى حصل عليها الدســـتوريون حصلوا على أكثرها برضاء من الوفد وبتأييد منه ٠ وكان الوفديون يشعرون لذلك أنهم أصحاب الفضل على الدستوريين ، وانه لولاهم ما اشتركوا فى الحـــكم ولا تولوه ، ولكن زعماء الوفديين كانوا يعرفون شـــيئا آخر ٠٠ كانوا يعرفون أن من الدستوريين من يستطيع تولى الحكم دون تأييد من الوفد باتفاق مع القصر والانجليز ولذلك كانوا أكثر حـــكمة وأكثر رغبة فى استمرار الائتلاف وكان سعد زغلول يعرف جيدا حقيقة الوضع ، ولذلك كان يهون على أنصاره ويردهم الى الرفق واللين ٠٠ كان الدستوريون يتولون أهم المناصب الوزارية فثروت باشا رئيس الوزارة ووزير الداخلية ومحمد محمود باشا وزير المالية وجعفر ولى باشا وزير الحربية والبحرية ٠٠ صحيح كان سعد زغلول هو رئيس مجلس النواب المهيمن على الوزارة ، ولكن أهم المنـــاصب التنفيذية ، مناصب السلطة المبـــاشرة ، فى يد الدستوريين ٠

وشيئا فشيئا أخذت صفوف الوفد تهمس بالشكوى ، وأخذت صفوف

الأحرار الدستوريين تتأهب للتحفز .. كان هناك فريق الطبقة الثانية في الوفديين ، وهم طامعون في المناصب الوزارية وغيرها التى يحتلهـــا الدستوريون وغيرهم ، وكان هناك صفوف الطبقة الثانية من الدستوريين وهم طامعون أن يخلص لهم الحكم لكى يكون لهم نصيب فيه .. وانهم ليعرفون أن الشعب ليس معهم ، ولكن ماذا يعنى الشعب فى تولى الحكم ؟ لقد أقصى الوفديون عنه فى سنة ١٩٢٤ وهم أصحاب الأغلبية الظاهرة ، وتولى الحكم الدستوريون والاتحاديون ، ثم الاتحاديون وحدهم وليس لهؤلاء أو هؤلاء نصيب كبير أو قليل من تأييد الشعب .

كنت أحس بالتيارات الخفية التى تجرى وراء الوزارة وفى داخلها ، وأسمع الهمس فى جريدة « السياسة » والحديث العالى بين زوارها وكبار محرريها عن وزارة جديدة يتولاها الدستوريون .. وكنت أســـمع ان الائتلاف فشل وأنها مسألة شهور وكان سعد زغلول مشفقا أن ينتهى الائتلاف ولكنه أيضا كان مشفقا أن يضطرب أمر البلاد اذا استمر هذا الائتلاف ينخر فيه السوس ويضعف شيئا فشيئا .

ولم تكن صحته قوية .. كانت بوادر المرض تأخذ به من حين الى حين .

وفى هذا الوقت وقعت أزمة الجيش طلبت لجنة الحربية فى مجلس النواب الغاء منصب السردار وتحسين أسلحة الجيش وتعديل قانونه بحيث لايكون المفتش العام للجيش ، وكان حينئذ سبنكس باشا ، عضوا فيه .. وعلمت دار المندوب السامى بهذه الاقتراحات فتقدمت بمذكرة شـديدة حاسمة طلبت فيها أن يبقى سبنكس باشا فى وضعه وبحريته فى العمل وان يعين ضابط بريطانى كبير مساعدا له وان تكون مصلحة الحدود وخفر السواحل تحت اشرافه .

كانت هذه المطالب اذلالا تاما لا لمجلس النواب والحـــكومة القائمة فحسب ، ولكن للائتلاف كله أيضا ، للشعب ولزعيمه سعد زغلول . ورد عبد الخالق ثروت باشا رئيس الوزارة على هذه المطالب بمذكرة ليست قوية كما يجب ، كان فيها ضعف كثير ، وان صيغت بلباقة السياسى الذى كانه عبد الخالق ثروت ، كان رجلا لينا واقعيا يظن أن ما يمكنه الحصول عليه خير من التعلق بما لا يمكن الحصول عليه ، ولم تكن هى سياسة سعد زغلول ، ولاسياسة الشعب الثائر من أجل حقه .. ولسنا نعرف ماذا كان ثروت باشا أعد هذه المذكرة بنفسه ، أو أشرك معه فيها سعد زغلول وأغلب

الظن ان سعدا لم يشترك فيها ، وربما ظن ثروت باشا انه يستطيع أن يحل الأزمة بلباقته ، والتسليم بجانب من المطالب والمفاوضة فى جانب آخر ..

وسمعت الهمس مرة أخرى فى جريدة السياسة وبين زوارها ان الأمور تسوء سوءا شديدا ، وان الوزارة موشكة أن تذهب ، ولم تكن هذه الهمسات تنم عن الأسف بل لعلها كانت تنم عن الرضا ، والارتياح .. وفجأة أذيع نبأ تلغرافى من لندن ان ثلاث بوارج بريطانية أمرت بالسفر من مالطة الى الموانئ المصرية .. وتكهرب الجو ، وغاصت فيه الشائعات .. والصحافة فى مثل هذه الأزمات تفرح وتبتئس . فالأزمة غذاء جيد للأخبار ، ولكن الصحافة الحزبية تنظر نظرة أخرى .. انها ليست مجرد أنباء ، انها أنباء من لندن ، قد تؤدى الى تغيير فى الوزارة أو تغيير فى الوزراء وهذا معناه مناصب جديدة ورئيس جديد ونياشين جديدة ..

وسقط قلبى وأنا أسمع نبأ البوارج القادمة الى ميناء الاسكندرية .. ترى ماذا يكون المصير .. ومن عجب أن يؤثر خبر قادم من لندن وخطبة لمستر تشمبرلين فى مجلس العموم البريطانى عن الساسة المصريين المعادين لبريطانيا فى شاب صغير يحاول أن يقيم حياته ويؤمن مستقبله .. أمامه أقساط سيدفعها ، وأمامه أيام قد تحسن أو تسوء .. ولكن هكذا كان حالى ، وهكذا وضعتنى الأقدار .

سمعت خطبة الوداع من سعد

« ان الرجل العظيم فى سير التاريخ أشبه بالاعصار العنيف يقلب الاوضاع ، من مكان الى مكان »

كان مقدم البوارج البريطانية الى ميناءى الاسكندرية وبور سعيد حادثا هز وجدان الوطن كله ، واحس بمهانة لا مثيل لها ، واضطرم الشعور العام بسخط ممزوج بخوف ، وألم مكبوت فى ثورة عنيفة ، ولم يكن ممكنا أن يتطور هذا الشعور الى ثورة صاخبة ذات مظاهر مادية ، لان الحكومة القائمة بالحكم حينئذ (يونيو ١٩٢٧) كانت حكومة ائتلاف يسندها مجلس نواب يرأسه سعد زغلول زعيم ثورة سنة ١٩١٩ وزعيم الحزب الذى كان يعد حينئذ حزب المتطرفين المعادين عداوة شديدة لبريطانيا وسياستها فى مصر ، وكان سعد زغلول بهذه المثابة يتحمل مسئولية الحكم ويساند الوزارة التى يشترك فيها حزبه بل ويشترك بأغلبية كبيرة .. ثم ان الموقف كان دقيقا غاية الدقة .. جيش الاحتلال منبث فى انحاء البلاد ، فى القاهرة والاسكندرية والقنال والصعيد ، والقصر متربص بالائتلاف كاره له ، ضائق بالدستور والبرلمان يريد ان يفتك بهما جميعا .

كانت هذه الازمة من أشد الازمات التى مرت بالوطن ، الشعب ثائر وهو مع ذلك يكتم ثورته ، والحكومة القائمة فى ورطة ، وحزب الاغلبية وحزب الثورة يسندها وهى ـ اعنى الحكومه ـ بطبيعة تكوينها لا تمثل تماما حقيقة الشعور فى الوطن ، فرئيسها عبد الخالق ثروت من الاحرار الدستوريين وعضوان فيها أيضا من هذا الحزب وهو لا يشارك الوفد وجهة نظره الكاملة فى الوسيلة لاقرار العلاقات بين مصر وبريطانيا . كان ثروت يرى أن يقنع بما هو ميسر ، ولا يثير ازمة مع قوات الاحتلال ،

خشية ان تعصف الازمة بكل ما كسبته البلاد فى هذا الوقت · الدستور والبرلمان وتصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ الذى اعترفت فيه بريطانيا باستقلال مصر واعلنت به الغاء الحماية .

وقد ظن الكثيرون ان الائتلاف يعطى الوطن قوة ، ولكن تبين من هذا الاحتكاك الاول بينه وبين السلطة المحتلة انه لم يعطه قوة بل اعطاه ضعفا واظهر الثورة ، وقد انطوت تحت علم الائتلاف ، كأنها تؤثر الاتفاق ولو على حساب التساهل فى بعض المطالب الاساسية لكل بلد مستقل.

وكانت صحة سعد زغلول كما قلت من قبل قد اخذت تتدهور ، ويلوح لى ان الرجل ، وقد احس بقرب النهاية ، اراد ان يختم حياته الفنية بالكفاح من أجل الوطن باقرار شريف للعلاقات بين مصر وبريطانيا ، ولذلك كان فى حيرة ، كما كان انصاره فى حيرة ايضا .. بعضهم متحمس متهور ، وبعضهم معتدل متزن ، وهم جميعا لا يريدون ان يهان الوطن ·· ولكن ما هى الوسيلة لرد هذه الاهانة ؟ انها الوقوف فى وجه بريطانيا والتمسك الكامل بمطالب الوطن .. هذا هو ما تمليه الوطنية الصحيحة وما يمليه ماضى الكفاح والثورة ، ولكن الى جانب ذلك توجد القوى المتحفزة للانتقاص من حقوق الوطن .. القصر وهو مستعد ان يبطش بالائتلاف والدستور والبرلمان استنادا الى قوة الانجليز ، وهم مستعدون ان يبطشوا بالدستور والبرلمان ومعهما الحركة الوطنية من أجل تحقيق مطالبهم .

وكان الجيش هو سبب الازمة ، كان مجلس النواب يريد أن يزيد عدده ، ويخلصه شيئا فشيئا من نفوذ الضباط البريطانيين وكان البريطانيون يقولون اذا زاد عدد الجيش المصرى وجب أن يزيد عدد جيش الاحتلال ، واذا زادت أسلحة الجيش المصرى وجب أن تزيد أسلحة جيش الاحتلال .. كان واضحا انهم يريدون أن يظلوا محتفظين بتفوقهم العسكرى ، ويظل الجيش المصرى مجرد اداة فى أيديهم ليست له قوة ذاتية .

كان الائتلاف ضعيفا اذن ، ومن وراء الائتلاف بدا الشعب ضعيفا ، وبدت القوى المناهضة له أقوى منه ، وهزم الائتلاف أمام تحرش الانجليز ، وقبلت البلاد ان تنهى الازمة بالخضوع للمطالب البريطانية ، ومدت الحكومة خدمة سبنكس باشا وأنعمت عليه برتبة الفريق وعينت انجليزيا آخر نائبا عنه ·

من كان المسئول عن هذا الضعف .. ومن كان المسئول عن هذا التسليم وكان فى الاستطاعة ان تصمد البلاد وتقف كائنة ما تكون النتائج .

عندى ان المسئول هو الائتلاف ، ولو كانت فى الحكم وزارة ثروت باشا وحدها دون أن تكون مسنودة بحزب الاغلبية ، وحزب الثورة وقائدها ، لما كانت المهانة بهذه الشدة ولا بهذا الشمول .. كان يمكن حينئذ ان يعلن سعد زغلول كما أعلن فى مناسبات كثيرة سابقة ان ما ترتبط به حكومة الاقلية لا يربط الشعب وان ما سلمت به لا يسلم به الشعب ، ولكنه لم يكن يستطيع ان يفعل وهو يسند الائتلاف ويسند الوزارة القائمة باسمه .

ولكن لنا أن نتساءل من جهة أخرى .. هل كان فى استطاعة البلاد أن تقف فى وجه الانجليز ، ولتكن النتائج ما تكون .. عندى أنه كان يجب أن تفعل ، حتى ولو انفض الائتلاف وعادت البلاد كما كانت مقسومة الى متطرفين ومعتدلين . كان واضحا ان الائتلاف جر الحركة الوطنية الى الاعتدال ، ولم يجر المعتدلين — وهكذا كانوا يسمون — الى الحركة الوطنية .. لقد القوا عليها من مائهم البارد ، ولم تستطع هى ان تلقى عليهم من ثورتها الساخنة .. وهذه هى الخسارة ، وهذا هو الخطأ الاول أو بتعبير أدق كان بعض النتائج المترتبة على انطفأ نار الثورة قبل تحقيق مطالب البلاد الكاملة .

ومع ذلك فلابد ان نكون منصفين . لم يكن الائتلاف قويا الى الدرجة التى يستطيع فيها ان يفرض ارادته على القصر والانجليز وقد يصلح هذا عذرا للحل الوسط الذى قوبل به قدوم البوارج البريطانية الى المياه المصرية ، ولكنه لا يصلح عذرا بالنسبة للثائر الذى يؤمن بحقه من حيث هو حق دون قيامه بامكانيات الحصول عليه . الاول منطق السياسة والثانى منطق الثائر . وقد تحولت ثورة سنة ١٩١٩ الى منطق السياسى ، فلم يكن فى استطاعتها ان تفعل غير ما فعلت ، والا ما قبلت الائتلاف مع عدلى يكن وعبد الخالق ثروت ، ولم يكن ايهما ثائرا .. كان كلاهما سياسيا ، ولست اتهم احدهما بالتفريط فى حق الوطن ، ولكننى اذكر فقط طبيعة كل من الحالتين ، كانت خطة ثورة سنة ١٩١٩ استخلاص حقوق الوطن كاملة ، وكانت خطة عدلى وثروت ومن سار سيرتهما التدرج فى الحصول على هذه الحقوق ، كانت الوسيلة هى

المختلفة ، وان كان من المرجح ان الاهداف واحدة ، ولـــكن كثيرا ما يكون اختلاف الوسائل أقرب ما يكون الى اختلاف الاهداف .

والائتلاف نفسه الذى ضحى سعد زغلول والوفد بهذه التضحية الكبيرة من أجله لم يستمر الا ريثما تعثر ، والدســـتور نفسه الذى ضحى كل منهما هذه التضحية الغالبة من أجله لم يستمر الا ريثما سنحت الفرصة للاعتداء عليه ثم الغائه الغاء .

ترى هل كانت صحة سـعد باشا التى اخذت فى التدهور هى السبب فى هذا الضعف الذى بدا ، والسبب فى هذا التعلق بآمال كانت كل الدلائل تدل على انها آمال صعبة التحقيق ان لم تكن مســتحيلة التحقيق ؟

اغلب الظن ان الرجل القوى الثائر ، المكافح العظيم ، قد هدت منه بوادر المرض والشيخوخة ، ولا يستطيع انسان ان يقدر كيف كانت الظروف تسير لو كان سعد زغلول فى اوج صــحته ، وعوامل الثورة والقوة الباهرة التى وهبها يضطرم بها قلبه .. هل كان يقبل الانذار البريطانى ؟ . هل كان يحاذر الدخول فى معركة اخرى مع القصر ومعركة اخرى مع الانجليز .

لم ار سعد زغلول فى حياتى الا ثلاث مرات .. واحدة منها وأنا طالب بمدرسة الالهامية الثانوية فى سنة ١٩٢٠ ، وكان الوفد مجتمعا فى بيت الامة والمظاهرات تجوب القاهرة شمالا وجنوبا ، وذهبت مع بعض التلاميذ وكنا حوالى عشرة الى بيت الامة واطل علينا سعد زغلول من شرفة البيت وقال : احسن روحوا بيوتكم ولا تصطدموش برجال البوليس .. دول اراذل ..

وأنا اذكر هذه الكلمات حتى الآن ، وربما اكون قد نقلتها بنصها ، فان من المشاهد ما يثبت فى الذهن وكأنه ولد معه وفيه ، ومن الكلمات ما يرسب فى العقل والوجدان ، وكأنها بعض الكيان والوجود .. كان الرجل طويل القامة مهيبا ، وخط الشيب شاربه ورأسه ، وبدأ أمامنـــا اعجوبة من اعاجيب الخلق والتكوين لا تستطيع وانت تراه الا ان تشعر كأنه رجل يجب ان يأمر ويجب ان تطيع ..لم يزد سعد زغلول باشا على هذا وتركنا ودخل غرفته .. ولكننا وقفنا ولم ننصرف ، ترك فينا ما يشبه الوجوم ، لم نستطع ان ننصرف ، وقفنا ننظر الى ردهة البيت والى الشرفة وباب الغرفة التى دخل فيها سعد زغلول .. لماذا وقفنا ؟ هل

كنا نتوقع ان يأتي مرة اخرى . لقدامرنا بالانصراف ، فلماذا لم ننصرف؟ .. كنا نريد أن تبقى حيث يوجد هذا الرجل .. شعرنا انه يستطيع ان يحمينا .. احسسنا انه قوة تستطيع ان نستند اليها .

والمرة الثانية في نادي سيروس سنة ١٩٢٢ .. وسمعته في هذه المرة خطيبا ، كان السرادق المنصوب مكتظا عن آخره ، والانفاس تكاد تختنق لكثرة الزحام ، والناس لا يشعرون ان أنفاسهم تختنق ، كانت معلقة بالرجل الذى جاءوا يسمعونه ، ووقف ، وكنت فى آخر السرادق احاول ان أشب على قدمى لارى الرجل الطويل القامة المهيب الطلعة الذى اخذ المشيب بناصيته ، واخذت القوة بنفسه وقلبه ووجدانه .. لم استطع ان اسمع الا فقرات محدودة .. سمعته يتحدث عن صدقى وثروت وكيف تسللا في الظلام الى دار المندوب السامى لكى يتفقا على اصدار تصريح ٢٨ فبراير ، وسمعته يهاجم التصريح هجوما صريحا عنيفا .. ورأيته وأنا واقف على كرسى والناس من حولى يزحموننى ويكادون يوقعوننى .. انفاسي تكاد تنقطع ولكنى مبهور اريد ان ارى الرجل تماما واسمعه تماما .. وسمعته يصرخ لا بصوت عال ، ولكن بصوت صادر من قلب مبحوح مثقل ، «يقولون ان زغلولا يناصب العرش أوسمته وشاراته .. كبرت كلمة تخرج من افواههم ان يقولون الا كذبا »

انها جمل متناثرة من هنا وهناك لاادرى كيف بقيت في قلبى ووجدانى وكأنها بعض القلب والوجدان .. ان صورة الرجل الشيخ وهو واقف في شرفة بيته أو وهو واقف في نادى سيروس لا تزال حية في خاطرى ، كأنها قيلت بالامس القريب .

وفى نهاية الاحتفال ذهبت الى البيت وكنت اقيم مع عمى — الطالب بالازهر وكان يرعانى ويتكفل بأمرى قال لى غاضبا : اين كنت ؟ قلت كنت فى نادى سيروس اسمع خطاب سعد زغلول ..

ولم يكن هو معجبا بسعد زغلول ، ولا كان ممن يعنون بشئون السياسة وكان من جهة أخرى يخشى على الاندفاع في مثل هذه الشئون .. رد وقد ازداد غضبا : ما كنت تخليك هناك كمان .. جاى الساعة ٩ مساء .. اقول لابوك ايه ؟

وقلت له : وماذا فى هذا ؟ . قال مش ناقص الا أن تشترك فى مظاهرات زى التلامذه الضايعين .. تانى مرة مش عاوزك تعمل كده .

ولم اسلم بوجهة نظره ، ولكنني وافقته احتراما له ، وحتى لا اثير مشكلات لا داعى لها . ان الكثير من الآباء وأولياء الامور لم يكونوا ينظرون للثورة والجهاد من أجل الوطن من الزاوية التى كان ينظر منها الشباب والتلاميذ والطلاب . ان الانتفاضات الاولى لتغيير المجتمع تجىء دائما من سفح الجبل وليس من قمته .. من مجموع الشعب ، من صغار السن ، اما الذين نضجب منهم السن واستقرت لهم شئون الحياة فقلما يتحمسون للتغيير ، ان فيهم جمودا او رضاء او تسليما ، واذا ساورهم بعض السخط ، فانه لا يتجاوز الشكوى ، وقلما يبلغ مبلغ العمل الايجابى .

اما المرة الثالثة التى رأيت فيها سعد زغلول فكانت قبيل وفاته بقليل وفى سرادق اقيم الى جوار بيت الامة ، وشهد الاجتماع اشتات من الناس ، من كل الطبقات والاحزاب والهيئات والاتجاهات ، باشوات وفلاحون ، دستوريون ووطنيون ووفديون ، رجال حكم وموظفون ورجال خارج الحكم والوظائف .. كان الاجتماع لمن يرقب الامور بالقلب الحساس الواعى بمثابة وداع للرجل العظيم الذى جاء الحفل ، وهو ملفوف الرقبة فى شال والذى دخل السرادق وحوله رجال يكادون يحملونه عن الارض حملا ، والرجل لا يقوى على المسير والسرادق يلتهب بتصفيق وحماسة يعجز القلم عن وصفهما ، .. سار سعد زغلول من بيت الامة الى حيث السرادق والمسافة لا تتجاوز بضع خطوات ، ومن أول السرادق الى حيث صدر السرادق ، والمسافة أيضا ليست طويلة ، ولكننى لمحت الاجهاد والاعياء عليه ، وكان أنصاره يحسون مثل هذا الاحساس ويحيطونه بمزيد من العناية والرعاية .. والرجل يسير وكأنه يودع ، وينظر وكأنه يقول : « اترانى أعود مرة أخرى الى مثل هذا الحفل » بل انه حينما دعى للخطابة حاول ان يعتذر لضعف صحته ، ولكن الشعب المتلهف لم يقبل الاعتذار .. ضج السرادق بالتصفيق والهتاف والاصرار ، عايزين سعد .. عايزين سعد .. كانت النغمة أشبه بدعوة من الابناء للاب الاكبر ، للرجل الذى تركزت فيه حينئذ كل أمانى الوطن .. كان الائتلاف قائما ، كان عدلى يكن وعبد الخالق ثروت وحافظ رمضان ومحمد محمود حاضرين ، كان الوطن كله بأحزابه وهيئاته ، بالمعتدلين فيه والمتطرفين .. كان بمثابة تدشين لزعامة الرجل ، واقرار شامل كامل بأنه أقوى رجل فى هذا الوطن وان الشعب ، الشعب كله معه ..

ونهض سعد وارتقى المنبر وحوله الكثيرون يسندونه ويحفون به حتى اذا ارتفعت هامته فوق المنبر ، سكت الشعب الصاخب ، وشمل السرادق الضخم الكبير صمت كبير ، حتى الانفاس حسبتها لا تنبض، كان سعد زغلول وهو واقف مرتفع الهامة ، وحوله هذا الموج من الخلائق ينظر اليه أشبه بالامل المرتفع فى السماء أو المرتفع الى السماء .. قال بعد برهة من الصمت : « يعز على ان أرى منبر الخطابة مرفوعا ولا أستطيع له رقيا ، وان أرى مجال القول فسيحا ولا أجد لسانا فتيا » .

كان صوت الرجل يرتعش ، ولكنه لم يفقد صلابته التى خيل لى انها تذوب مع العمر المتقدم والشيخوخة التى ترمى ظلها عليه . خيل لى ان الرعشة ليست ضعفا ، ولكنها مقاومة للضعف .. واحتار الناس ماذا يفعلون .. يصفقون أم يسكتون ؟ أيصفقون لان الرجل الذى طالما هز قلوبهم ومشاعرهم يهز قلوبهم ومشاعرهم الان ايضا ، أم يسكتون لان الرجل الذى اسرهم ببلاغته وقوته وفصاحة لسانه يوشك ان يضعف، هو الذى لم يكن احد من الشعب يتصور انه يمكن ان يضعف ، يقول انه ضعيف .. ويقول انه لا يجد لسانا فتيا .. هل يمكن ان يجوز عليه الزمن كما يجوز على الاخرين ؟ هل يمكن ان يضعف ويشيخ كما يضعف ويشيخ الآخرون ؟ .. لقد قاد الثورة وهو شيخ ، ولكن احدا من الشعب لم يشعر الا انه اقوى من الشباب واقوى من الفتوة .

وسكت الناس برهة ، ولكنهم لم يستطيعوا الا ان ينطلقوا فى تصفيق كالرعد .. والمرة الاخيرة التى رأيته فيها .. كان محمولا على النعش .. نعم ، فان سعد زغلول كان فى هذا الاجتماع يودع الشعب ، ويودع منابر الخطابة ، ويودع ميادين الجهاد .. وقد سمعت من فى السرادق يقولون : ان الرجل يموت .. انه يخطب خطبة الوداع . وكان هذا هو احساسى ايضا .. مات سعد زغلول مساء يوم الثلاثاء ٢٣ اغسطس سنة ١٩٢٧ . وجاءنا الخبر فى جريدة « السياسة » .. حقا ان الرجل العظيم عظيم فى حياته وفى مماته ايضا .. لم تكن جريدة السياسة ولا الاحرار الدستوريون من انصار سعد زغلول ، ولم يكونوا من المعجبين به المؤيدين له .. كانوا يقولون انه قائد الرعاع ، وانه يلعب بعقول الناس ويفسد عليهم امرهم ، وقد بذلوا غاية الجهد لهدمه بأقلامهم ، فلم تجد اقلامهم شيئا ، خطبوا وارسلوا خطباءهم هنا وهناك فلم تجد الخطب شيئا . حاولوا ان يهدموه اذ اشتركوا فى الحكم مع

الاتحاديين فلم ينجح الحديد والنار فى صرف الناس عنه .. كانوا اكثر خصومه السياسيين غيظا منه وحقدا عليه .. كانوا يظنون انهم اكثر اهل الوطن ثقافة ومعرفة وعلما وحسن ادراك ، ولكن الشعب لم يكن يسمع لهم ، بل كان يسمع لسعد زغلول .. قالوا انه ينوم الشعب ، هذا الخطيب الساحر ، هذا الرجل الذى صادق الانجليز ، وكان من رجالهم ينتقل فجأة ومن غير تمهيد الى بطل وطنى ، لا يكاد احد يستطيع ان يحول الشعب عما يقوله هو للشعب .. كان كلامه انجيلا ، بلغ من قوة تأثيره انه كان اذا قال ان احدا من الناس غير مخلص للوطن ، نبذه الشعب ، ولم تفد مياه المحيطات فى (غسله) من اتهام سعد زغلول ٠٠ بينما كانت كلمة واحدة منه كافية ان ترفع عنه غضب الشعب وترده الى صفوف المخلصين ..

كان بالنسبة لهم كابوسا ثقيلا يحول بينهم وبين قيادة الوطن ، وكانوا يحسبون انهم أولى بها منه ، وقد كان منهم فعلا حكام وقادة وفلاسفة وكتاب ومؤلفون ٠٠ كانوا هم صفوة المثقفين الذين اثاروا فى هذا الوطن موجة من موجات التحرر فى الفكر ، فلما جاء سعد زغلول كسف قيادتهم الفكرية والثقافية ، وانتزع منهم كل شىء تقريبا ٠

***

مات سعد زغلول .. تجاوبت ارجاء جريدة السياسة بالنبأ العظيم ٠٠ لم يكن هناك اسف ولا ألم ، ولكن كان هناك وجوم ثم ابتسام وتفكير .. انه الرجل الذى استولى على مشاعر الناس ثمانى سنوات طوال ٠٠ ترى ماذا يحصل بعد وفاته ٠٠ ايا كان الرجل الذى يخلفه ، فلن يكون سعد زغلول .. لا يوجد الا سعد زغلول واحد ؟

قال لى الدكتور هيكل : غدا ستشيع جنازة سعد زغلول .. أرجو ان تصف لى الجنازة فى وقت خروجها من بيت الامة .. وجانبا من الطريق حدده لى ، وعهد الى آخرين اكمال الوصف فى بقية الطريق ٠

ما من شىء فى الدنيا يمكن ان يمحو مناظر معينة استقرت فى خاطر الانسان لانها انتزعته من خاطره بل من كيانه وشدته اليها شدا. وقد كان نعش سعد زغلول وهو خارج من بيت الامة بعض هذه المناظر. ان جموع الشعب التى كانت تبكى لم تجعل من سعد زغلول زعيما سياسيا ، ولا رجلا قاد ثورة ، ولكنها جعلت منه أبا .. كان البكاء والنشيج والصراخ العالى من أفراد من الشعب ـ لعلهم لم يروا سعد

زغلول فى حياتهم ابدا ، منظرا لا يمكن أن ينسى . ومرت الجنازة بالشوارع ، انتقلت القاهرة كلها الى مشيعين ، ووقف النساء والاطفال فى شرفات منازلهم ، المناديل فى أيديهم ، والدموع فى عيونهم .. كان الوطن كله فى مأتم .

واذاع مجلس الوزراء بيانا نعى فيه للامة بعميق الحزن « حضره صاحب الدولة الرئيس الجليل وزعيم الامة العظيم ورئيس مجلس النواب سعد زغلول باشا عقب مرض لم يمهله طويلا ولم يعطف على مستودع آمال الامة ومحل رجائها وقائد نهضتها وحامل لواء الدفاع عن حقوقها » ..

كان هذا هو نعى مجلس الوزراء فى الحكومة الائتلافية التى يرأسها عبد الخالق ثروت .. ولكن هل يستمر الائتلاف بعد ان مات سعد ؟ ومن يكون خليفته ؟ وماذا يكون موقف الاحرار الدستوريين المشتركين فى الائتلاف .. ؟ وماذا يكون مصير حكومة ثروت ؟

وعدت الى جريدة السياسة فى المساء وسمعت الاحاديث والآراء المختلفة حول كل هذه الموضوعات .. لقد بكيت وأنا أسير فى جنازة سعد زغلول ، وشعرت بشىء يرجنى فى أعماقى ، فلما عدت فى المساء الى جريدة السياسة احسست ان الدنيا لا يمكن أن تقف ، وان القبر الصغير الضيق الذى حوى سعد زغلول ، اطلق وراءه فى أفق السياسة المصرية الفسيح ضجة وهولا ، وكأنه كان يخبىء مع الاقدار مصيرا لهذا الوطن ، للائتلاف والاحزاب وزعامة الوفد .. ترى هل كانت تكون هكذا ، لو عاش سعد زغلول أطول مما عاش ؟

ان الصحف البريطانية ابنته وشهدت له انه كان زعيما قويا ولكنها ـ بعضها على الاقل ـ لم تخف ابتهاجها لان خصما عنيدا من خصوم السياسة البريطانية فى مصر قد ذهب من على المسرح ، والبلاد العربية المجاورة والبعيدة ابنته وبكته وشعرت بالفراغ الهائل الذى تركه الرجل فى المنطقة كلها .

والرجل العظيم اذا كان يثير المتاعب ويضنع المفاخر وهو حى ، فانه بعد موته جدير ان يثير المتاعب والقلاقل والمخاوف .. انه فى سير التاريخ أشبه بالاعصار العنيف يقلب الاوضاع وينقلها من مكان الى مكان .. فاذا مات كان موته أشبه بسكون العاصفة أو توقف الاعصار .. هل تعود الاوضاع التى قلبها الى ما كانت عليه ؟

انه أشبه بالامواج يحرك البحر الســاكن وهو حى ، فاذا مات سكت الموج ، ولكن هل يسكت حقا ، أو ان الموج الذى حركه يســتمر فى انطلاقه الى غايته بقوة الدفع ، أو بقوة الشعب الذى اشعل الشرارة فيه أو بقوة الانصار الذين تلقوا رسالته ؟

ان موته ايضا مشكلة ، كما ان حياته مشكلة .. وقد كان سعد زغلول اعصارا قلب الكثير من الاوضاع ، وحرك الكثير من الامواج ، واصطنع الكثير من الخصوم .. قاوم امبراطورية لم تكن الشمس تغيب عن أملاكها حينئذ وهى تحتل بلاده بجيوشها .. وقاوم فى الداخل خصوما لم يكونوا اخف فى خصومتهم من الامبراطورية العتيدة ، فهو معها يعرف كيف يحاربها ، يعرف طريقه وطريقها .. اما مع خصوم الداخل فكيف يعرف طريقه وطريقهم ، وهم فى داخل الوطن يمكن ان يطعنوه من الظهر ، وطالما فعلوا ..

كل هؤلاء الخصــوم .. لابد لهم من تعديل خططهم بعد توقف الاعصار الهائل عن الحركة ، وتوقف الموج الصاخب عن الهدير .

لقد خلا مسرح السياسة المصرية من الرجل الذى ملأ المسرح ، وجعل كل اللاعبين عليه اقزاما لا يكاد يراهم الناس .. هل يظهرون ؟ هل يظهر لاعبون آخرون ؟

كان هذا هو السؤال عندما مات سعد زغلول .

دوار محمد محمود فى شارع الفلكى

« كثيرا ما يحب الانسان أن يخدع نفسه ،
ففى الخديعة تهدئة وتبرير »

اختير مصطفى النحاس باشا رئيسا للوفد ، وكان مقعد سعد زغلول اخطر من ان يملأه مصطفى النحاس أو غيره . فقد كان سعد زغلول زعيما وخطيبا ، له شخصة متسلطة وقوة ذاتية لاتقاوم . جمع الشعب حوله دون ان يفرض نفسه عليه ، واختاره الشعب زعيما ورئيسا روحيا ، بل جعل له من المكانة ، ماهو ابعد من هذا كله .. لم يجتمع بضعة عشر شخصا لكى يختاروه رئيسا ، انما اختارته الملايين فى القرى والمصانع والمعامل والدواوين والشوارع والبيوت — فى كل بقعة فى مصر .. لا باقرار كتابى ولكن باقرار نابع من القلوب .

وهكذا الثورات تشعر بفراغ هائل بعد موت زعيمها .. ومهما يكن الرجل الذى يخلفه فهو حتما أقل منه . لانه لو كان مثله لكان هو موقظ الثورة وصاحبها . وخليفة الزعيم وارث ، والوارث يجد الشىء مهيأ ، قد يبدده اذا كان سفيها ، وقد يحافظ عليه اذا كان حريصا ، وقد يزيد منه اذا كان ذكيا ، ولكنه فى كل هذه الحالات لن يبلغ مبلغ المورث الذى وضع الاساس وأقام البناء .

كل ما يمكن ان يقال حينئذ ، وكل ما قيل فعلا هو ان البلاد فقدت زعيما وعينت رئيسا ، ولم يكن هناك قول آخر يمكن ان يقال ، كان سعد زغلول متفردا فى كل ما وهب من صلابة وثورة واندفاع وقوة وتراجع ، وقد أقام ثورة تزعمها ، وها هو يمضى الى جوار ربه ، فلا بد من رجل يخلفه ، وقد تم أختيار هذا الرجل .. ما هو مصيره ؟ ما هو قدره ؟ ما هو مبلغ كفايته ؟ هل يستطيع ان يحتفظ بالتراث الضخم

الذى آل اليه ؟ وزملاؤه فى الجهاد هل يخضعون له كما خضعوا لسعد زغلول ؟ هل ينظرون اليه نظرتهم الى سعد زغلول ؟ ان أحدا منهم لم يخلق سعد زغلول ، هرعوا اليه وأيدوه وناصروه وفتنوا بشجاعته وصلابة جنانه ، كانوا أنصاره واتباعه وحوارييه .. أما الرئيس الجديد فهم الذين انتخبوه ، وهم الذين أقاموه ، وهذا فرق كبير بين الزعيم الذى دان لطاعته الانصار ، وبين الرئيس الذى اختاره الزملاء والاخوان

لقد انتخب الوفد مصطفى النحاس رئيسا بالاجماع ، ولكن هذا كان شكلا ظاهرا فقط ، فقد كانت فى النفوس أشياء وأشياء . كان فتح الله بركات باشا وهو ابن أخت سعد زغلول منافسا على الرياسة وكان يطمع فيها ، وكان على قدر كبير من الذكاء والدهاء ، ثم هو اقرب الناس الى سعد زغلول ، ولكن التيار فى الوفد لم يكن معه ، ولذلك تنحى ، بل أعطى صوته لمصطفى النحاس ، ولكن هل زالت من نفسه المرارة ؟ كلا .. لعله كان يرى ان وراثة سعد زغلول يجب أن تبقى فى بيته .

وكان هناك كبار أعضاء الوفد من زملاء مصطفى النحاس ، ولعل بينهم من يظن أنه أبلى فى الجهاد أكثر مما أبلى ، ولعل منهم من يظن أنه كان أقرب الى قلب سعد زغلول منه .. وكانوا حينئذ يرجعون الى الزعيم الميت ، يدرسون تصرفاته ويذكرون أقواله ، لعلهم يستشفون منها اتجاه نيته فى تعيين خليفة له .. القصة واحدة لم تتغير ولن تتغير . كلما مات زعيم عظيم ، حاول أنصاره دائما أن يمدوا حياته وتأثيره حتى بعد أن يموت وتنقطع كل صلة له بهذه الحياة .

مهما يكن من أمر ، فقد انتخب مصطفى النحاس رئيسا للوفد . واختياره ذاته قضى على الكثير من المطامع فى الظاهر ولكنه لم يقتلها تماما . ودخل الرجل فى تجربة مرة وأليمة . أحس قطعا أن ثوب سعد زغلول فضفاض عليه وحاول جهده أن يرفع قامته حتى تبلغ قامة العملاق الذى كان من نصيبه أن يرثه ، وأن ينفخ جسده حتى يبلغ جسد الرجل الذى حشد الملايين حوله ، وكأنه نومهم تنويما .. وما من مرة بلغ هذه القامة، ولا ادرك القمة التى ارتفع اليها الزعيم الراحل وان بذل غاية جهده أن يفعل ، وكان السؤال الذى يتردد فى كل الأذهان : هل يظل الوفد بقوته بعد أن فقد زعيمه ومنشئه ؟ وما هو مصير الائتلاف ومصير الوزارة الائتلافية ؟ وكان الأحرار الدستوريون أكثر الناس ترديدا لهذا السؤال ، وكان القصر أيضا أكثر الناس حرصا أن يضعف الوفد وأن ينشق الائتلاف

وان تتمزق البلاد أحزابا وكتلا ليس فيها عملاق يضمها ضما • وكان الانجليز أيضا يرجون أن يكون هذا هو المصير •

ولست أكتب تاريخا ، ولكننى أمس شئون السياسة المصرية بمقدار ما مستنى ، فليس من همى أن أحدد المسئوليات ولا أن أوزعها ، ولا أن أحصى التيارات المتعارضة التى خيل الى حينئذ ، وأنا وثيق الاتصال بجريدة « السياسة » ورجال حزب الأحرار الدستوريين ، انها تضطرم أشد ما يكون الاضطرام ، وقد انطلقت أوسع ما يكون الانطلاق بعد أن مات الرجل الذى كان قادرا على أن يحصرها فى أضيق نطاق ممكن ، و أن يملى عليها ارادته أو يكاد يمليها •

أحسست أن الاحرار الدستوريين بدأوا يظنون ، ان لم يكن قد بدأوا يوقنون ، أن دورهم بعد وفاة سعد زغلول سيكون حاسما فى السياسة المصرية وأن ميدان المناورة أمامهم سيتسع الى أبعد الحدود • وكان رأيهم ان مصطفى النحاس لن يكون فى ضخامة سعد ولا قوة نفوذه ، بل سمعت من بعضهم ما يشبه التأكيد بأن الوفد قد انتهى •

ربما كان هذا أيضا هو ظن السراى والانجليز ، ولذلك بدا ان الائتلاف يوشك أن ينفض ، وأن وزارة عبد الخالق ثروت توشك أن تلفظ أنفاسها الأخيرة • ولم يكن عبد الخالق ثروت فى مصر حينما مات سعد •• كان فى أوربا مرافقا للملك فؤاد فى رحلته وقد انتهز فرصة زيارته لندن ، فأجرى محادثات مع سير اوستن تشمبرلين وزير الخارجية البريطانية لتسوية المسائل المعلقة بين البلدين ، وهى المسائل الأربع التى احتفظت بها بريطانيا حينما أصدرت تصريح ٢٨ فبراير •

وكان لابد أن يعود ثروت الى مصر بعد وفاة سعد زغلول • ولا شك أنه فكر هو الآخر فى أثر هذا الحادث على وزارته وعلى الائتلاف كله وعلى المباحثات التى كان يجريها فى لندن ، وقيل حينئذ انه كان يحيط سعد زغلول علما بها ، أولا بأول ، وعاد ثروت فعلا الى مصر ، والتقى مع أعضاء وزارته ومع أعضاء حزب الأحرار الدستوريين ومع رئيس الوفد الجديد ، ثم عاد مرة أخرى الى لندن لاستئناف مباحثاته •

واستمر الائتلاف بعد وفاة سعد زغلول واستمرت الوزارة الائتلافية تؤدى عملها ، وان كان قد أصبح من الواضح أن التيارات التحتية انطلقت أكثر حرية مما كانت ، وشعر كل متتبع للسياسة المصرية أن فى الأفق حوادث خطيرة توشك أن تقع •• ما هى ؟ لم يكن أحد يستطيع أن يجيب

بالتحديد ، ولكن كل انسان كان يتوقع أن يتعرض الوفد لهزة عنيفة ويتعرض رئيسه لتجربة شديدة يعرف منها مدى صلابته وكفايته ٠٠ نعم، كان لابد من هذه التجربة من جانب القصر والانجليز ومن جانب أحزاب الأقلية اختبارا للمسرح الجديد ومدى استعداده واستعداد اللاعبين عليه ٠

وافتتح البرلمان دورته الجديدة فى شهر نوفمبر سنة ١٩٢٧ وانتخب مصطفى النحاس رئيسا له خلفا لسعد زغلول ، وانتخب ويصا واصف وحسين هلال بك وكيلين ، وبدأ من جو المجلس أن روحا جديدة سادته ، ليست قريبة من الائتلاف ولا بعيدة عنه ، ولكنها كانت روح ريبة شديدة بين المعسكرين ٠ كان ثروت قد أبقى نتائج مباحثاته مع تشيمبرلين سرا لا يبوح به لأحد ، ولكن الشائعات ترامت من هنا وهناك أنه انتهى الى مشروع كامل معد للعرض ، وأخذت جريدة « السياسة » تزيد من تأييدها لثروت ، وتغمز من وقت الى آخر رياسة الوفد الجديدة وان لم تكشف عن نياتها بوضوح لأن الائتلاف كان لايزال قائما ٠

ماذا كان موقفى حينئذ من هذا الجو كله، كنت أودى عملى فى الديوان والصحافة راضيا ولكننى لم استطع أن أفصل نفسى عن المخـــاوف التى يضطرب بها جو السياسة ، ولابد أن مزيدا من الخوف داخل قلبى ، وأنا أرى الجو مشحونا بتيارات عديدة ظاهرة وخفيـــة ٠ وكثر زوار جريدة « السياسة » وكثرت همساتهم وطالت سهراتهم وانطلق فى عالم الصحافة وعالم المقاهى والأندية هذا النوع من الناس الذين يفرضون أنفسهم على الصحافة والسياسة فرضا ، يسعون بين الاندية يذيعون الأنباء وينشرون الشائعات ، يمطون شفاههم ، ويعقدون ما بين حواجبهم ، ويغمضـــون عيونهم نصف اغماض ، ويهمسون فى الآذان بما يعرفون ٠٠ ان الائتلاف منته ٠٠ ان فى الوفد ثورة على وزارة ثروت ٠ ان النحاس يريد ان يعرف نتائج المباحثات بين ثروت وتشيمبرلين ، وثروت يراوغ ويطاول مدعيا أنه ينتظر ايضاحات عن بيانات طلبها من لندن ٠٠ ان النحاس لن يسكت ٠٠ ان القصر يضيق بثروت ٠٠ حكومته ذاهبة حتما ٠

نشط الشيخ صالح « روتر » وصالح على عيسى السودانى واضرابهما وهم كثيرون ، يملأون الأندية ، ويسمع لهم الناس ويسألونهم ما عندهم من الأخبار ٠٠ الشيخ « روتر » شيخ ضامر الوجه ، فيه ذكاء لماح ، يضع عمامة مبرومة جيدا ، ليست نظيفة وليست غير نظيفة ، أبيض الوجه فى احمرار ، حتى لتحسبه تركيا أو شركسيا لولا العمامة ومعها الفقر ، ولولا الجبة والقفطان أو « الجلابية » ٠٠ ثم هذا الصوت الهامس ، يقرب فمه من

أذنك ، فاذا لم تسمع تولى عنك وذهبت توسلاتك له عبثا ٠٠ لأنه يعرف انك لن تعطيه شيئا ٠٠ ان شغله الأساسى مع المنتظرين من الباشوات والبكوات ٠٠ مع الطامعين فى المناصب الوزارية والتعديلات الوزارية ، وهو ذكى يعرف من أين تؤكل الكتف ٠٠ ومن حسن حظه أن هؤلاء المنتظرين لم يكونوا أذكياء جدا ، أو كانوا ولكنهم يحبون أن يسمعوا الأخبار التى ترضيهم وتسرهم ، حتى ولو لم تكن معقولة ولا مقبولة ، حتى ولو لم تكن مما تسمح بها الظروف أو الملابسات السياسية ٠

وقد بلغ من شهرة الشيخ « روتر » بهذا الاسم ان قلة قليلة جدا من الناس هم الذين كانوا يعرفون اسمه الحقيقى ٠

أما صالح على عيسى السودانى فقلما كنت تراه الا وهو يسير فى الأرض ، وتحت أبطه مجموعة من الجرائد قديمة وجديدة ٠٠ لا يكف عن الضحك ، ولا يكف عن الكلام ، السياسة عنده محفوظة ، والأحزاب محفوظة والمشتغلون بها محفوظون ، ما من واحد منهم الا وهو صاحبه أو خله الوفى .. ما من واحد منهم الا وهو منه أثير قريب .

كان محمد محمود باشا فوق أنه من رجال السياسة البارزين فى أفق السياسة المصرية ، ومن رجال الأحرار الدستوريين المهيئين حتما لرياسة الحزب ، يسلك فى القاهرة سلوك أهل الصعيد وأبناء البيوتات الكبيرة ٠٠ يفتح بيته الواسع الأنيق الفخم فى شارع الفلكى لزواره ليلا ونهارا ، لأصحاب الحاجات والاتباع والانصار والمحاسيب ٠٠ ويعقد ندواته كل ليلة وفيها سماره وحواريوه وهو بينهم أشبه بصاحب الأمر والصولجان ٠٠ قلما رد سائلا أو كشر فى وجه محتاج ٠٠ عن أصالة فى العائلة والمنبت ، عن رحمة بالناس ، عن ايمان بالله وتقرب اليه ؟ .. ربما كانت كل هذه مجتمعة هى التى جعلته قريبا الى نفوس حوارييه وسماره وأصحاب الحاجات ، وهذا الصنف الطفيلى من المشتغلين بالسياسة والحزبية أو المحسوبين عليهما ، يدخلون عليه ويمثلون بين يديه ويروون له ما يشاء من أخبار وأنباء ٠٠ كان طرازا فريدا من أبناء البيوتات وعواهل الصعيد الاكرمين .. مزج السياسة بالبيوتات ، ونظر اليها كأنها وجاهة قبل أن تكون لباقة ، وفروسية قبل أن تكون مداورة ومداهنة ٠٠ رجل أدنى الى الصفرة منه الى السمار أو البياض ، تقاطيع سمحة وان لم تكن جميلة ، فيها نبل أصيل وذكاء اختلط بارستقراطية تخفيه أو تجعله الى الترفع أقرب ٠٠ طربوش طويل وزر أقرب ما يكون الى المقدمة وأبعد ما يكون عن المؤخرة ٠٠ صوت مبحوح يخرج من صدر فيه احساس بالتفوق ٠٠ لا فى

العلم ولا فى الغنى ولا فى الأدب ، ولكن تفوق فى الأصل والمنبت ٠٠ نشأ فى عائلة غنية ، وانحدر من أرض الصعيد ، حيث التقاليد أعظم ما تكون سلطانا ، وحيث الاسرات الكبيرة أعظم ما تكون مهابة وجلالا .. ولد وفى فمه ملعقة من الذهب ، وتعلم فى أوكسفورد وجاء منها ولم تضع عليه خاتمها وحدها ولكن وضعته الى جانب خاتم الصعيد الأصيل ، تحار وأنت تسمعه وتقترب منه ٠٠ هل هى أوكسفورد التى جعلته هكذا ، أو هو الصعيد الذى جعله هكذا ٠٠ بقدرة قادر امتزج فى محمد محمود طابع أوكسفورد وطابع أسيوط ٠٠ ولعله بين الانجليز لايخطئون أنه تربى فى الصعيد ولم تكن أوكسفورد الا حلم صيف تبدد كما تتبدد الأحلام ٠

« دوار » فى شارع الفلكى ٠٠ هذا ما كان يهتم له محمد محمود ٠٠ نقله معه من الصعيد .. « دوار » لا يختلف عن « دواوير » أعيان الوجهين البحرى والقبلى الا انه اكثر اناقة واعظم شمولا ، صاحبه اكثر اصالة ونبلا واوسع جاها ونفوذا واقدر على اصطناع الانصار والمحاسيب ٠٠ لا تعرف هل انصاره فى السياسة هم انصار الوجيه الصعيدى او انهم حقا مؤمنون بمذهبه السياسى ؟ ٠ يصعب عليك ان تجيب ٠٠ كانت كل الشائعات حينئذ ترشحه لكى يخلف الائتلاف بعد أن ينفض ويخلف ثروت فى الحزب ورياسة الوزارة ٠٠ وكانت الشائعات تكفى لكى تحيط الرجل المنتظر بهالة لا تخفى على أحد ٠٠ زاد زوار بيت محمد محمود فى شارع الفلكى اكثر واكثر ، وازداد هو وجاهة ، اصبحت الاصابع كلها تشير اليه ، وانطلق حواريوه وسماره ومحاسيبه وأنصاره فى المجتمعات يروون عنه القصص والحكايات وهى قصص وحكايات لا دخل لها بالمذهب السياسى ،ولكنها قصص وحكايات عن كرمه ونبله وشهامته ومساعدته للمحتاجين ٠٠ كان أشبه بالخلفاء فى أزهى عصور الخلافه العباسية ، له شعراؤه وأدباؤه ومادحوه ، وله بطانة تجرى فى المجالس هنا وهناك ، وكان الوفد يرقب المسرح جاهدا يقظا خائفا ، مدركا أن الامور لا تسير كما يجب ، له أيضا حواريوه وأنصاره وأتباعه المؤمنون به ، وهم كثرة الشعب حينئذ تجدهم فى كل مكان ، يردون على ما يثيره الآخرون ، ويؤكدون ان هناك مؤامرة تلوح فى الأفق ، وامتلأت اندية القاهرة بالهمس والخوف والقلق ، وامتلأت جريدة السياسة بالزوار ، وعلت ضحكات هيكل باشا ، وكثرت زيارات محمد محمود له ٠٠ وبدا ان الأزمة تشتد بين ثروت والنحاس ، النحاس يطالبه بأن يطلعه على ما انتهت اليه مباحثاته مع بريطانيا ، وثروت يستمهله ٠٠ وأفضى اليه ثروت

أخيرا بالمشروع الذى عرضه الانجليز ،ورأى النحاس انه مشروع غير مقبول فرفضه كما رفضه مجلس الوزراء ـ واستقال ثروت باشا فى مارس سنة ١٩٢٨ والف مصطفى النحاس الوزارة الجديدة واحتفظ بأكثر الوزراء وضم اليهم وزراء جددا هم الأستاذ مكرم عبيد للمواصلات ومحمد صفوت باشا للزراعة وابراهيم فهمى كريم بك للاشغال ، واستمر الائتلاف طابع الوزارة ولكنه ـ كما قلت ـ كان يلفظ انفاسه الاخيرة واختير ويصا واصف رئيسا لمجلس النواب ٠

وقل تحمس جريدة « السياسة » للوزارة الجديدة ، لأن طابع الائتلاف أخذ ينحسر عنها شيئا فشيئا ، كان رئيس الوزارة السابقة من الاحرار الدستوريين ، ورئيس الوزارة الحالية من الوفديين ، بل رئيس الوفد ، وبدا أن الأمور لا يمكن ان تقف عند هذا الحد ٠ وكثر اتصال محمد محمود باشا بجريدة « السياسة » وكنت اسهر انا بعد خروج الدكتور هيكل ، فقد كان من عملى ان اترجم التلغراف الخارجية ٠٠ وكان يبدو لى احيانا ان انتقل الى غرفة الدكتور هيكل فأجلس فيها ٠ وكان هذا العمل الصبيانى يرضينى بعض الشىء ٠ كنت أحس كما لو أصبحت انسانا ذا أهمية كبيرة ، كنت ادور فى كرسيه الفخم واتلقى المكالمات التليفونية وارد عليها ، واستقبل زوار آخر الليل ٠٠ وكنت أتلقى أحيانا زوارى ، فيروننى فى هذه الغرفة الفاخرة فيدهشون ولا يسألون ٠٠ كانت لعبة صغيرة جميلة ، سخيفة ولكنها سرتنى وامتعتنى، وذكرتنى بحكاية الحاجب والقاضى حينما سئل الحاجب عن مرتبه فقال اننى والقاضى نأخذ فى الشهر ١٢٠ جنيها ٠

وذات ليلة دق جرس التليفون ، واذا المتحدث يقول انا محمد محمود باشا ـ وكانت أول مرة اسمع فيها صوته ـ قال ما قاله فى نغمة فيها من الاستعلاء ما ضايقنى ، ولكننى لم استطع الا أن ابتهج واشعر كأننى كبرت عما انا ادوارا ومراحل ٠٠ ومن الطبيعى انه لم يكن يطلبنى ، فمن المؤكد انه لم يكن يعرف حتى اسمى ٠٠ كان يسأل عن الدكتور هيكل قلت له انه غير موجود ٠٠ قال اين ذهب ؟ قلت اظن انه فى الانجلو أو فى سان جيمس ٠٠ واقفل السكة دون ان يشكرنى ٠٠ لابد انه ظن اننى ساعى المكتب ، وحتى لو عرف اننى انا الذى ارد عليه لما تغير سلوكه ٠٠ ووضعت السماعة وقد تبخر شعور العظمة الذى انتابنى لحظة ، وارتددت الى حقيقة الوضع ، فشعرت بضآلة شديدة وضيق اشد وتمنيت لو استطعت ان انتقم لنفسى من هذا الباشا الضخم الذى يحدث

عبيد لله وكأنهم نمل يسعى فى الارض مذعورين لانهـــا ليست لهم ، للاسياد وحدهم .

لعلنى ظلمت الرجل .. ولعلنى لو اتصلت به اكثر واقرب لرأيت منه غير ما بدر الى ذهنى .. ولم تشأ ظروفى ولا طباعى أن أعرف محمد محمود باشا أكثر من هذا .. لم أكن من هذا النوع من الناس الذى يسعى الى معرفة الكبراء ، بل كنت أؤدى عملى فى جريدة السياسة ثم لا شىء آخر .. لم أحاول ان اتصل بعضو فى الحزب اتصالا خاصا الا الاتصال الذى كان يوجبه عملى ، والا الاتصال الذى لا يتجاوز حدوده المعقولة ، بل الضيقة .. لست ادرى لماذا ؟ لعل ذلك راجع الى ما أشعر به عادة من الضيق اذا رأيت من أتحدث اليه ، أو أتصل به لا يحفل بى كما يجب أولا ينظر الى النظرة التى ارجوها لنفسى .. ولذلك ذدتها عن ان تتعلق بمجالس الباشوات والوزراء ، وعودتهـــا على ان تعيش فى جوها الذى تستطيع ان تتنفس فيه بحرية كاملة ..

طلبنى الدكتور هيكل بعد ذلك ، وكان صوته غير متماسك .. بدا لى أنه شرب أكثر مما يجب ، وكنت أحب هذا الرجل وآنس اليه .. كنت أشعر انه أقرب لى من اى شخص آخر فى الحزب أو فى الجريدة .. قال وهو يتلعثم : حد سأل على ؟ قلت له : محمد محمود باشا ..

وظلت الطريقة التى حدثنى بها محمد محمود باشـــا فى التليفون تضايقنى فترة من الوقت . وكعادتى حللت كل شىء ورددته الى اصله.. وكعادتى أيضا اخذت ارضى نفسى واتصور كأننى رددت على محمد محمود باشا وقلت له : لماذا تحادثنى بهذه الطريقة ؟ اننى انسان مثلك تماما .. ولكن هل كان مثل هذا الكلام فى هذا الوقت يقبل من أحد .. محمـــد محمود باشا صاحب الآلاف من الافدنة ، ابن محمود سليمان باشا رئيس لجنة الوفد المركزية عند تأليف الوفد .. وعضو حزب الامة منذ عشرين أو ثلاثين سنة .. محمد محمود باشا الوزير والمرشح لرياسة الوزارة وصاحب الصالون او الدوار الذى لا دوار ولا صالون مثـــله .. صديق الأمراء والكبراء والوزراء ، ورجل السياسة المرموق العظيم المخوف .. من أنا بالنسبة له ؟ ومرة أخرى فكرت . .هل لو لم أكن محـــررا فى جريدة « الســـياسة » أكان سلوكه يتغير ؟ لو كنت مثلا وكيل نيـــابة ؟ أتراه كان يعاملنى بهذه الطريقة ؟ لعله كان يظن ان جريدة «السياسة» بالنسبة له كالدائرة الزراعية المملوكة له .. انه ينفق عليها أو يشترك

بجانب كبير في نفقاتها ، وهي بالنسبة له اداة سياسية لا أكثر ولا أقل .. عدة الشغل فى مجال السياسة والوزارة والوجاهه والنضال الحزبى ..

مرة أخرى اتصلت بمحمد محمود باشا أو بتعبير أدق رأيته ، كان ذلك عقب اختياره رئيسا للحزب وتوليه رياسة الوزارة فى منتصف سنة ١٩٢٨ ، وكنت حينئذ قد أصبحت سكرتيرا لتحرير السياسة والسياسة الاسبوعية أجلس فى غرفة وحدى مجاورة لغرفة الدكتور هيكل ، وبينما أنا مستغرق فى عملى اذا بباب الغرفة يفتح واذا بى أرى محمد محمود باشا ومعه الدكتور هيكل ، وانتفضت واقفا، وقال الدكتور هيكل : الاستاذ زكى عبد القادر من الشبان الكويسين قوى .. واذا بمحمد محمود باشا يمد يده مسلما وهو يقول بصوت كأنه آت من بعيد فيه حشرجة .. أهلا وسهلا يا أستاذ ، تصورت انه يقول لى : الله يلعنك يا أستاذ ، ولم يزد. بعد أن سلمت عليه ، خرج ، وجلست وحدى اتأمل كل ما يدور حولى ... كان محمد محمود باشا بعد أن أصبح رئيسا للحزب ورئيسا للوزارة ، يزور جريدة السياسة ويمر على محرريها وكأنهم موظفون فى الدائرة ..

واننى لواثق اننى اظلم الرجل ولكننى واثق أيضا اننى أصور انفعالاتى .. فلم يكن محمد محمود باشا بهذا التعالى الذى احسسته .. كان من يعرفونه عن قرب يؤكدون طيبة قلبه ، ونبل أخلاقه .. وليس لى ما اقوله ضد هذا كله ، وليس لى ما أعرفه ضد هذا كله.. ولكنى درجت فى هذه المذكرات على أن أصور ما رأيته وسمعته وعرفته وكابدته .. ولم أتصل بمحمد محمود باشا اتصالا قريبا ، لم أغش قصره كما كان يفعل غيرى ، لم اغش مجالسه كما كانوا يفعلون .. ولعلنى لو فعلت لغيرت رأيى ... هل هذا ذنبى أو ذنبه ؟ انه ليس ذنب أحد .

وبعد قليل فى هذا المساء نفسه، زارنى زميل من زملاء كلية الحقوق هو الاستاذ محمد حسين عونى ، وقد بلغ فيما بعد منصب مستشار فى محاكم الاستئناف ، وكان حينئذ فى قلم قضاياوزارة الحقانية (العدل الان) ... قال وقد رأى الغرفة الجميلة التى أجلس فيها وحدى ورأى المحررين يدخلون عندى ويخرجون ورأى عمال المطبعة يسألوننى وأجيبهم، ورأى التليفون يدق من وقت الى آخر ، وأرد على سعادة الباشا أو سعادة البيه .. ورأى ما هو أهم ، رأى الدكتور هيكل يدخل غرفتى ، ويعطينى مقاله « حديث اليوم » ويسألنى عما اذا كنت أريد منه شيئا ..

وانبهر عونى المسكين ، وهو يجلس فى قلم قضايا وزارة العدن مع ثلاثة أو أربعة فىغرفة واحدة ، يزعجه عبد الرءوف بك زكى مدير القسم ويزعجه وكيل القسم ، ويزعجه أكثر وأكثر سعادة وكيل الوزارة ومعالى وزير الوزارة ·· قال : انت أحسن واحد فى الدفعة ·· (يقصد الدفعة التى تخرجنا فيها فى كلية الحقوق) ·

نظرت اليـه وقد ارتدت صـورة محمـد محمود الى خاطرى ، وهو يحدثنى فى التليفون كأننى ساع أو أقل من ساع ، ثم وهو يسلم على وأنا سكرتير تحرير السياسة والسياسة الاسبوعية وكأنه يشتمنى وقلت له وأنا سـارح الذهن ، والصور تتلون أمام خاطرى وتجـرى بسرعة ، ثم أرتد منها لكى أثبت له أن ما ظنه صحيح ، أو على الاقل أردت من قبيل التعويض بينى وبين نفسى أن اقنعها انه صحيح : يا شيخ ·· ماتقولش كده ·· ولكنه قال كده ، وقال ماهو أكثر من كده·· أكد لى اننى أحسن المتخرجين فى الدفعة كلها ·· وحاولت أن أصحح له هذا الظن ولكنه لم يقبل · ولم أكن مخلصا بطبيعة الحال فيما حاولته ، وسرنى أنه لم يتحول عن رأيه · ان الانسان يحب أحيانا أن يخدع نفسه ·· ويجد فى الخديعة تهدئة وتبريرا ·

وفى الصباح ذهبت الى الديوان ·· ما أعظم المفـارقات التى كنت أعيش فيها ·· كان نهارى حافلا وليلى حافلا ·

وكنت أشبه بحقل التجارب ، يزرع فيه بالنهـار الفول ، ويزرع فيه بالليل الكرنب ···

اية تربة هذه التى تسـتطيع أن تغذى الفول والكرنب فى وقت واحد ؟

تفضل عند معالى الوزير

« ما أسوأ الهدوء لان معه يجىء العقل والمصلحة والحكمة والمنطق »

هدأت المعركة بينى وبين زملائى فى الديوان ، أو قل سكنت ، ولكنها لم تنته ، لم أغير خطتى فى شىء الا اننى لذت بنوع من الرضى المغصوب ، لا بد أن اطامن من ثورتى وأقبل الامر الواقع ، اننى مضطر الى وظيفتى فى الديوان بعد أن أصبحت مثقلا بدين كبير على أقساط ، وكان زملائى ليسوا راضين عنى حتما . ان الجرح الذى انفتح فى قلوبهم بما كتبته عنهم لم يندمل ، ولم يكن له أن يندمل ، فانما يدخل فى النفس مرة يصعب أن يخرج منها فى سهولة ، وكان ظنهم أن ابراهيم فهمى باشا وكيل الوزارة سيبطش بى ولكنه لم يفعل ، ظللت معهم ، وظل شأنى كما كان . أدخل الديوان بعد أن يدخلوا ، وأخرج قبيل خروجهم ، كنت مؤدبا معهم جدا ، ولكنهم كانوا يشعرون أننى شخص آخر غيرهم ، وأن حسن معاملتى لهم ليس راجعا الى احترام بقدر ما هو راجع الى اشفاق .

وكانوا لذلك يتربصون بى ، كنت أرى فى ابتساماتهم الصفراء أن المعركة بينى وبينهم قادمة لا شك ، وقادمة فى عنف عنيف .. اما أين ومتى ، فهذا ما لم أعرفه ، ولذلك كنت أسير على حذر ، واتكلم على حذر ، وأفتح آذانى وقلبى جميعا لهمساتهم وتصرفاتهم ، وكنت ارتاب فى الهمسات والتصرفات ، ولكنها لم تكن لتلبث معى الا ريثما تنتهى ، ثم أعود الى هدوئى ورضائى ، ويعودون الى نوع من التملق لى ، اذا صح هذا التعبير .. لم أكن أرقى منهم درجة ولا أكثر مرتبا ، ولا أقوى نفوذا ، ولكنهم كانوا يروننى أكثر توهجا وأقرب اندفاعا ومن التوهج والاندفاع

تكون القوة ، لا يعرف أحد مأتاها وان كان يخشاها ٠٠ وهى قوة مستندة الى وهم أكثر مما هى مستندة الى واقع ، وخاصة فى ديوان من الدواوين ٠٠ ولكنها كانت موجودة ، وقد افادتنى بعض الشيء ونشرت على وجودى فى الديوان نوعا من الهيبة أرضانى ، وان كان اخافنى أيضا ، فأنا قبل كل الناس ، أعرف أن لا قوة لى فى هذا الديوان ، واننى أعيش فيه يوما بيوم ، بل ساعة بساعة ومع ذلك فقد قبلت المصير ورضيته ، وتمنيت لو تعجلت الايام فى سيرها حتى أخلص مما على من دين واسترد حريتى كاملة ٠٠ وكان الدين التزاما آخر وهو قيد على الحرية ثقيل ٠

وسارت الايام هادئة حينا ، عاصفة حينا ، ولكنه لم يكن هدوءا كاملا يريح ويطمئن ، ولم تكن عاصفة قوية تقتلع وتدمر ٠٠ كان الهدوء ـ اذا وجد ـ هدوء الحياة التى تخفى الغدر وأن لم تفصح عنه وكانت العاصفة ـ اذا وجدت ـ عاصفة التذكير أن الهدوء كاذب ٠٠٠ الى أن كان يوم ، قال فيه عبد المجيد افندى فى صوت أجش فيه تعال وأمر ، ليس مصدره منه ولكن مصدره من الصيغة التى نطق بها : معالى الوزير أمر أن الموظفين يرجعوا بعد الظهر علشان يخلصوا الشغل المتأخر ٠٠ الامر ده حينفذ من النهارده ، الساعة ٦ تكونوا كلكم هنا ٠٠

وسكت ، وأحس انه أرضى نفسه وأرضى مركزه وأرضى سنه المتقدمة ٠٠ انه موظف قديم عتيق ٠٠ أعتاد أكثر ما اعتاد أن يتلقى الاوامر ، وحتى الاوامر التى يكون من حظه أن يصدرها ، يصدرها على لسان غيره ٠ وكان راضيا بهذا كل الرضاء ، انه يرجو أن يتلقى كل ساعة الاوامر ، اذا كان بدوره سيلقيها على غيره ، ليكن الوزير هو الآمر أو الوكيل أو المدير ٠٠٠ انه فى كل الحالات ناقل الاوامر وناقل الاوامر سيد بصورة أو أخرى ٠٠٠ كانت عملية تعويض عن ذل فى النفس أصيل أو مكتسب من طول العهد بالوظائف ٠

نظرت دهشا وأنا أسمع الامر الجديد ٠٠ ان الحضور بعد الظهر سيضايقنى أنا أكثر مما يضايق أى انسان آخر ٠٠ اننى لا أكاد أشعر أن الساعة بلغت موعد الانصراف من الديوان ، حتى أشعر أننى انطلقت من أسر ٠٠ هل أعود اليه مرة أخرى فى المساء ٠٠ ثم هناك عملى فى الصحافة ، وهو يتطلب منى أن أكون فيه حوالى هذا الموعد ٠٠ وهناك أيضا محاولاتى التى أخذت تضعف شيئا فشيئا فى أن أذهب الى الجامعة واستمع الى بعض المحاضرات فى قسم الدكتوراه ، وموعدها قبيل هذا الموعد أيضا ٠٠ وسكت ، ولكننى كظمت غيظا مريرا ٠٠٠ وأفضيت بما

فى نفسى الى جبريل افندى فقال : الراجل عبد المجيد افندى هو السبب ·· هو اللى قال لهم لازم الموظفين يرجعوا بعد الضهر ، وكل ده علشانك انت ·· علشان يغيظك ··

وزادت المرارة فى نفسى وزاد الغيظ ، وأدركت كيف تجرى الاوامر أحيانا ، وكيف ترتدى مظهر الحرص على انجاز العمل المتأخر ، وهى ليست فى جوهرها الا كيدا لبعض الناس ·

وجئت فى الموعد المحدد تماما بعد الظهر · وظللت فى مكتبى الى الساعة الثامنة مساء ، ولكننى لم أتلق ورقة واحدة ، ولم أؤد عملا قليلا أو كثيرا ، ولاحظت أنالآخرين أيضا لم يؤدوا أى عمل، كانت عملية حبس بسيطة لفريق من الناس دون سبب ظاهر أو معقول، وتحقق لدى ما قاله جبريل أفندى ، لم يكن هـــناك عمل متأخر ، ولـــكن هناك حقد دفين فى نفس انسان ·

وجئت فى اليوم الثانى ولم أجد عملا يذكر ولم يجد الآخرون عملا يذكر ··قضيت وقضوا الوقت فى شرب القهوة وتبادل النكت والقفشات·· بعضها سمج جدا ، وأقل القليل يثير الضحك ولكنهم كانوا يضحكون من الاعماق ، وعبد المجيد افنـدى سعيد كل السـعادة ، ينظر الى أحيانا من تحت منظاره السـميك ويقول : آنستنا يا أستاذ عبد القـادر ·· وكان أحيانا ـ اذا لم يستطع أن يخفى غيظه يقول: يا عبد القادر افندى·· كان يرفعنى ويخفضنى طبقا لحالته النفسية ومدى رضائه عنى أو غضبه على ·· ولم أكن لأرتفع أو أنخفض أمام نفسى ، ولكننى كنت أتعجب كيف يتصرف النـاس ، وكيف يحلو لهم أن يؤذوا النـاس ·· وكنت أرد له التصرف تصرفين ، والكلمة كلمتين ·· كانت حركة واحدة منى تثيره الى أقصى حد ثم لا يستطيع أن يفعل شيئا ، لأنه لا يستطيع أن يفسرها تفسيرا واحدا ·· لعلها كانت حركة أدب لو حسنت النية ، ولكنها تكون حركة استهتار واستهانة اذا كانت النية سيئة ، وكانت نيتى سيئة حتما ، كما كانت نيتـه سيئة حتمـا ·· ولم أكن البـادىء ، كنت أرد الاهانة المقصـودة المستورة الملفوفة فى عبارات الترحيب ، فاذا بدا منه روح طيب جازيته عليه اضعافا ··

وانى لاعود بخـاطرى الى هـذه الايام ، وأرى اننى وقـد بلغت من التجربة ما بلغت ، ما كنت مستطيعا الا أن أسلك هذا السـلوك ·· انه سلوك انسان ،ولن استطيع الا أن أكون انسانا ·· لا أستطيع أن أكون ملاكا أو مسيحا ··

وتخلفت فى اليوم الثالث، لم أذهب فى موعد بعد الظهر ٠٠ وتخلفت أيضا فى اليوم الرابع ، ولم يحدث أن سألنى أحد عن هذا التخلف ٠ وأحسست ان عدم مساءلتى امارة سيئة ، انك حينما تريد أن تحفر حفرة لانسان تتركه على عماه ، تمد له فى حبال التسامح الذى يبلغ حد الاهمال، وقد ادركت هذا كله ، ولكن روح التحدى عاودتنى ٠٠ ليس لاننى زدت فى وظيفتى طمأنينة ، أو تحسن حالى هنا أو هناك ، ولـكننى لم استطع أن أخلص نفسى من طبيعتها، حلا لى أن اتحدى مرة أخرى، وليكن مايكون، كنت لا ازال حتى هذا الوقت موظفا تحت التجربة ، لا حق لى فى المعاش، ولا حق لى فى الضمانات المقررة للموظفين المثبتين ، ولكننى مع ذلك، وفى دوامة التحدى التى شملتنى ، نسيت كل شىء ، الا أن قوما يأتمرون بى ، وليس ادعى الى اثارة كل قوى المقاومة فى النفس من الشعور بأن مؤامرة تحاك فى الظلام لك ، قد لا تعرفها ٠٠ ولم أكن أنا أعرفها ، ولكننى كنت أحسها ، وقد كابدتها مرة حينما شكونى الى وكيل الوزارة ، وها هى الظروف تتكرر ٠٠ ما هو نوع المؤامرة الجديدة ؟ لم أكن أعرف ، ولم تكن تجربتى الصغيرة حينئذ تسمح لى أن أعرف ٠

وبينما كان الجو فى الديوان على هذه الصورة ، كان الله يعوضنى جزاء أحسن وأوفى فى الصحافة ٠٠ نادانى الدكتور هيكل وقال لى : ان شوقى سيسافر الى لندن مراسلا للسياسة فيها ٠٠ سأعهد اليك بسكرتيرية تحرير السياسة الاسبوعية ٠٠ لا أستطيع أن أصور مدى البهجة التى غمرتنى حينئذ ٠٠ ان فى حياة الانسان لحظات من الحبور يشعر فيها أن موجاتها أكثر مما يستطيع أن يتحمل ٠٠ نظرت الى الدكتور هيكل وقد انفتحت اساريرى ، ولو استطاع أن يرى لوجد أيضا قلبى وروحى قد اتسعا حتى لاحسست انهما يشملان العالم كله ،يسعانه ٠٠ ويسعان ما هو أضخم منه ، أحسست بأن الدنيا تعطينى كلما تعثرت بى ٠٠ ان الانسان المذعور الخائف يترقب الشر أكثر مما يترقب الخير ، يترقب الطرد من الوظيفة والصحافة أكثر مما يترقب التثبيت فيهما أو فى احداهما ٠٠ قلت له : أنا شاكر لك هذه الثقة الكبيرة ٠٠ كانت ألفاظى قليلة ، ولكن شعورى كان أضعافا مضاعفة ٠٠ أحسست أن الدكتور هيكل أب لى أكثر مما هو رئيس ٠٠ أحسست لبريق عينيه وانطلاقة وجهه أكثر ما أحسست لهما فى كل مرة مضت ، شعرت أنه لا يخاطب شابا صغيرا مبتدئا ، هو رئيسه ، ولكننى أسست أنه أب أكثر من أى شىء آخر ٠

وقد مس هذا الشعور قلبى مسا عنيفا رقيقا ، حتى لأوشكت الدموع أن تطفر الى عينى وأنا أنظر الى وجه الرجل الرقيق الكريم ٠٠ كنت فى حاجةأشد الحاجة الى شىء يعيد الى ثقتى بنفسى ، أو يثبتها ٠٠ كنت فى مرحلة دقيقة جدا فى حياتى ٠٠ أمرى فى الديوان مضطرب شديد الاضطراب وأنا مثقل بأقساط لا بد أن أدفعها ، وأهلى ينظرون الى نظرتهم الى جبل راس يستطيعون أن يعتمدوا عليه ويفخروا به ٠٠

قال الدكتور هيكل : لا تشكرنى يا زكى ٠٠ انت أهل لكل ثقة ٠

وانحدرت دمعة من عينى ، ولم أستطع أن أرد عليه مجاملته الرقيقة ٠٠ وانى لاعرف فى نفسى اننى عاطفى أكثر مما يجب ٠٠ أحسست أن هذه الكلمات أشبه ما تكون بطوق النجاة لانسان صغير ضعيف مضطرب غارق ، لا سند له فى الحياة ٠٠ ليس له قريب ذو نفوذ ولا ثروة يعتمد عليها ولا أهل ذوو جاه وسلطان ٠٠ وخرجت من عنده الى مكتب الاستاذ محمد شوقى ، وكان يعرف طبعا أننى سأتولى عمله قبل سفره ، بل انه شهد لى شهادة حسنة عند الدكتور هيكل ، وشوقى من الاشخاص الذين أحببتهم حبا جما ، كان رقيقا دقيقا ، صوته خفيض فيه حياء بديع رائع ٠٠ وقد ألفته منذ التحاقى بجريدة السياسة ، وكنت أجلس واياه كثيرا ، اتحدث اليه ويتحدث لى ، شعرت نحوه بانعطاف سريع ، وكنت اترجم بعض القصص فينشرها لى فى « السياسة الاسبوعية » أو أكتب بعض الموضوعات والصور الريفية والاجتماعية فيثنى عليها ويشجعنى ، بل بلغ من اهتمامه بى ، انه كان فى بعض الأحيان يسألنى أن أكتب للسياسة الأسبوعية ، كأننى أصبحت كاتبا أو انسانا له اعتبار ، يطلب اليه أن يكتب بدل أن يرجو نشر ما يكتب ٠

نظر الى شوقى وأنا داخل الى مكتبه بابتسامة فيها ارتياح ورضا وصفاء قلب ٠٠ قال : الدكتور هيكل قال لك طبعا ٠٠ أنا مسرور انك حتشوف السياسة الاسبوعية ٠٠ انت تعرف أن الدكتور حافظ عفيفى مهتم بيها خالص ٠

قلت له : أرجو أن أوفق فى هذا العمل الجديد ٠ وفى رقة وعطف ومحبة طبيعية، أخذ شوقى يشرح لى عمليةاخراج السياسة الاسبوعية٠٠ قال هناك مقالات ستأتيك دورية وفى مواعيدها ، الاستاذ عبد الله عنان يترجم قصة كل أسبوع ٠٠ الدكتور هيكل يكتب السياسة فى أسبوع، عزمى يكتب السياسة الدولية ٠٠ سليم عبد الاحد يترجم فى كل عدد

موضوعين أو ثلاثة ٠٠ وعندك بعد ذلك طه حسين وتوفيق دياب وفكرى اباظه ، والشيخ مصطفى عبد الرازق ٠٠ والدكتور سيد كامل وكثيرون غيرهم يساعدوننا ويكتبون لنا من وقت الى آخر ٠

كانت « السياسة الاسبوعية » تصدر حينئذ في قطع كبير ، هو قطع الجريدة اليومية ، ولعلها أول مجلة أسبوعية صدرت بهذا القطع ، ولم تكن فيها صور فيما عدا بضع صور تنشر فى صفحتين متقابلتين وسط العدد ، مأخوذة فى الغالب من الصحف المصورة الانجليزية والفرنسية ثم صور كاريكاتورية عن السياسة الدولية ٠٠ وكانت تنشر فى اعدادها الاولى بابا ثابتا عنوانه « فى المرآة » يتناول كاتبه ، وكان فى الغالب الشيخ عبد العزيز البشرى ، واحدا من رجال السياسة أو الاقتصاد ، بالتشريح الجسمى والنفسى والعقلى فى أسلوب بلغ من الرصانة حدا كبيرا ومن خفة الدم حدا أكبر ٠٠ تناول عبد العزيز البشرى أحمد حسنين وأحمد زيور وحسن نشأت ويحيى ابراهيم وتوفيق نسيم وعلى ماهر ومحمود أبو النصر وموسى فؤاد ومحمد توفيق رفعت وعبد الخالق ثروت والشيخ محمد شاكر ٠٠ ولا أستطيع أن أحصى الاسماء كلها ، ولكننى أذكر أمثلة فقط ٠٠ وكان الباب ناجحا جدا وربما كان أول باب من نوعه فى الصحافة المصرية ، ولست أدرى لماذا اختفى منها ، وكان الظن أن يستمر أبدا ، فقد تعدد اللاعبون على مسرح السياسة والاقتصاد والحياة الاجتماعية فى هذا الوطن ، ولكن أحدا لم يتناولهم بالتصوير الدقيق الانيق كما تناول زملاءهم من قبل قلم الشيخ عبد العزيز البشرى ، وكانت هذه الجريدة أيضا رائدة فى ميادين الاقتصاد والسياسة والاجتماع والادب والفنون ٠٠ وكانت مشعلا باهر الضوء يطالع الناس صباح كل سبت ، فيقبلون على قراءتها اقبالا شديدا ، ولذلك شعرت بفخر وزهو وأنا أنظر الى نفسى وقد أصبحت سكرتيرا لتحرير هذه الجريدة ولم ينقض على اشتغالى بالصحافة سوى سنة ونصف السنة ٠

وما من واحد ممن لمعت اسماؤهم فيما بعد فى الادب والفن والاقتصاد والسياسة والاجتماع الا نشرت له السياسة الاسبوعية ، واحتضنته وكان فخورا انه استطاع أن يقف فى حمى العمالقة حينئذ ٠٠ طه حسين وهيكل وعزمى والشيخ مصطفى عبد الرازق وتوفيق دياب وسيد كامل ٠٠ نشرت قصص محمود كامل وشعر على محمود طه والدكتور ابراهيم ناجى وكامل الشناوى وابحاث سلامه موسى والدكتور سيد كامل ومقالات مدحت عاصم ٠٠ كان توفيق يونس المندوب الفنى للسياسة

الأسبوعية وكان سليمان نجيب المندوب الرياضى ٠٠ عالم خطير عظيم ، مدرسة مفتوحة الابواب ، لهـا وقار المعاهد العليا ، وفيهـا اصالة الفكر النابض ٠٠ هـذه الجريدة هى التى آل الى أمرها ، واشفقت على نفسى ، وأنا اتلقى الخبر من الدكتور هيـكل ، واتلقى قواعد العمـل من الاستاذ شوقى ٠٠ ولم أكن فى يوم من الايام مغرورا ، ولا أنا أعطيت نفسى أكثر مما تستحق ٠٠ كنت على النقيض من ذلك أبخسها حقها ، وارتاب فيها ، لا رغبة فى التواضع ، فلست متواضعا ، ولا راغبـا أن أكون ، ولكن هو شعور أصيل بأن كفايتى أقل مما ندبت له، واستعدادى أضعف من تحمل المسئولية الجديدة التى خيل لى أنهـا عظيمة وخطيرة بالنسبة لانسان فى مثل سنى وظروفى وتجربتى ٠

وكما يحدث عادة فى كل عمل جديد ، غرقت فيه جهـد استطاعتى وبذلت فيه غاية ما أملك من قدرة ، وأحسست بنشـوة ، وربما بزهو وكبر ، ولكنهما سرعان ما كانا يذوبان ويحل محلهما شعور من الخوف والقلق ٠٠ ما أعجب الانسـان ؟ ان العواطف لتضطرب فيه وتضطرم ، تتضارب وتتناقض ٠٠ وكما يحرص الانسان على الشىء العظيم الذى حصل عليه ويشعر بالزهو انه وفق اليه ، يكون خوفه أن يذهب ، وقلقه الشديد ألا يستطيع الاحتفاظ به ، وحتى اذا استطاع هو أن يحتفظ به ، بقيت الظروف وهى ليست تحت سلطان أحد ، كنت مشفقا وخائفـا ، ومزهوا ومتواضعا وراضيا وساخطا ، مطمئنا وقلقا ٠٠ كنت فى هـذا التيه من الحياة الذى لا تكاد تعرف له أولا من آخر ، ومع ذلك شعرت فيه بالغبطة والراحة والرضاء والأمل الواسع ٠

وأصبحت لى غرفة وحدى ، وأصبحت ألقى الدكتور هيكل أكثر مما كنت القاه ، واتصل به اكثر مما كنت اتصل به ٠٠ وأصـبحت غرفتى يدخلها كبار الكتاب والمفكرين ٠٠ رأيت فيها أول ما رأيت سـلامة موسى وقد جاء ومعه مقال عن التفسير المادى للتاريخ لنشره فى السياسة الاسبوعية ٠٠ وكنت أقرأ له قبل أن أراه وسـعدت ان رأيته ، رجل فيه دروشة وشيطنة ، فيه سذاجة لمن يريد أن يغلب فيه السذاجة على كل شىء ، وفيه مكر ودهاء لمن يريد أن يغلب فيه المكر والدهاء على كل شىء ٠٠ انسان تحس وانت تتحدث اليه ببساطة وراحة وتشعر انك تستطيع أن تسـتخلصه صديقا ، فاذا اقتربت منه أكثر وأكثر ، تبين لك انه أعمق وأعمق ٠٠ لم انفر منه ، بل لعلنى انعطفت اليه ٠٠ قال : انت من الشرقية فيما علمت ، وأنا من هناك أيضا ٠٠

وزاد صوته انخفاضا وهو يقـول : من أى بلد ؟ · قلت : من فرسيس ، قال : وأنا من كفر سليمان موسى · وعرف أبى وعرف عائلتى وقال : اننى رأيتك فى محطة فرسيس وانت صبى صغير ببذلة قصيرة ·· لا تذكر هذا طبعا ؟ ولكننى أذكره ·· لقد كنت مسافرا الى الزقازيق ، وكنت أنت أيضا ذاهبا الى مدرستك فى الزقازيق ·· اننى أصلح أن أكون أبا لك ·· قلت : وأنا أقرأ لك ·· يسعدنى اننى تتلمذت عليك يعجبنى أسلوبك البسيط الواضح المضىء ·· لقد تعلمت منه الكثير ·· اننى لفخور انك من كفر سليمـان موسى المجـاور لقريتى ، اننى أعرفه وأبى يعرفه ويزوره وله أصدقاء فيه ·· قال سلامه موسى : انت لا تعرف اننى بعت قطنى فى سنوات كثيرة لابيك ·

وربط هذا الحديث بينى وبين الرجل برباط جديد ·· كنت أقرأ له قبل أن أعرف انه « بلدياتى » وها هو أصـبح أقرب وأقرب بعـد أن عرفت انه هو الآخر أقرب لى وأقرب ··

وانصرف سلامة موسى ، وقرأت مقاله وأشهد أننى اسـتمتعت به استمتاعا كبيرا وكان أول مقال أقرأه عن نظرية ماركس فى التفسير المادى للتاريخ ، ولعله من أول المقالات ان لم يكن أول المقالات التى نشرت عن هذا الموضوع فى مصر ·

وعرفت الشيخ عبـد العزيز البشرى ·· كان رجلا أنيسا رقيقا ، لا وسامة فى وجهه ، ولكن فيه طيبة تضفى عليه ما هو أكثر من الوسامة، شيخ مجبب مقفطن ، له عمامة رفيعة العماد ، مبرومة بدقة وفوضى ، ومن عجب أن تجتمع فى لفة عمـامته دقة وفوضى ، ولـكن هكذا كانت عمامة الشيخ عبد العزيز تبدو أمام عينى ، وهو نفسه كان أنيقا وغير أنيق ، وربما استبدل من عدم أناقته أناقة لفظ وخفة لفتة ، وصوتا أجش ولكن فيه رجولة ، ينظر اليك وكأنه لا يراك ، ويراك وكأنه لا ينظر اليك ، فى يده مسبحة وفى عقله مسبحة أكثر انتظاما من حبـات مسبحته ·· عقل مستنير وفكر مرتب ، وبديهة حاضرة ونكتة لا تستطيع وانت تسمعها الا أن تضحك من قلبك ، ولو رواها غيره لبدت تافهة وربما بدت كئيبة ، ولكنها من الشيخ عبـد العزيز البشرى شىء جميـل خفيف ، كأن روحه يضفى عليها رقة وخفة ، أو كأن روحه نغم فيه رقة ملاك وقسـوة رجل لا يرحم اذا نقـد ، ولا يرحم اذا حلل ، كأنه جراح وفى يده مبضع ، أو كأنه ساحر وفى عينيه شعاع نافذ ·

وبينما حسن حالى فى « السياسة » على هذه الصورة التى ملأتنى اعتزازا وزهوا ، كان أمرى فى الديوان يتدهور تدهورا سريعا ٠٠ كان الجو يزداد قتاما ، وزملاء الديوان يزدادون عصبة ضدى ، وسألنى مدير القسم : لماذا لا أحضر بعد الظهر ؟ قلت له : اننى مضطر أن أذهب الى الجامعة فى هذا الموعد لدراسة الدكتوراه ، ثم اننى جئت يوما ، بل يومين، ثم لم أجد عملا أؤديه ٠

وقال الرجل فى عصبية : عليك أن تطيع الاوامر ، أما وجود عمل أو عدم وجوده فمسأله مش من شغلك ٠٠

كان يخاطبنى بصورة أحسست فيها صيغة الامر وثقل التصنع ، قلت له : هو احنا بنيجى بعد الظهر لان الاوامر كده والا لانه فيه شغل متأخر ؟٠٠

أجاب فى اقتضاب : علشان الاوامر كده ، وده مش أمرى أنا دا أمر معالى الوزير ٠

قلت وقد ضاق صدرى : نيجى مخصوص علشان نتعذب ، ننحبس٠ قال بلاش فلسفة ياعبد القادر أفندى ٠٠ انت عارف كويس ان الباشا الوكيل مش مبسوط منك ٠

قلت له : وحضرتك طبعا مش مبسوط ٠

قال : انت مثل سىء أمام الموظفين ، وصعد الدم الى وجهى ٠٠ كل كلمة قبلتها ولم تثر فى الا الاستخفاف ٠ اما أن أكون مثلا سيئا أمام الموظفين فكلمة جرحت كرامتى ، ماذا فعلت ؟ هل سرقت ، هل ارتشيت ؟ هل أهملت ، هل أنا غبى جهول ؟ هل أنا لا أؤدى عملى فى الديوان كما يجب ؟ كل ما فى الامر اننى لا أنافق ، لا أذهب اليه أو الى غيره من الرؤساء وقد زررت جاكتتى ، اسأل عن الصحة والسلامة ، وعما اذا كان الجو باردا أو دافئا ، وما اذا كان نام ليلته الماضية مستريح الخاطر مبتهج الوجدان ٠٠ كل ذنبى اننى لا أقول له سعادة البك ، ولا أسأل عن صحة الست والاولاد وأعرض خدماتى له ولهم ٠

وزادت المرارة فى نفسى أضعافا مضاعفة ، وأثارت الكلمة ، هذه الكلمة الصغيرة كل كوامن التحدى ، التحدى الجاهل الغشيم الذى

لا يؤمن بمصلحة ولا منفعة ، وينسى كل الظروف التى أنا موجود فيها ٠٠ نسيت أهلى المنتظرين فى الريف ، نسيت الافدنة الثلاثة ــ وهى كل ما أملك ــ والاقساط المطلوبة عليها ، نسيت الحديقة التى طفر الدمع الى عينى وهى توشك أن تذهب منا ٠٠ نسيت كل شىء ، نسيت حتى مستقبلى ، نسيت حتى كيانى ، ولم يبق الا الانسان المجروح فى كرامته٠

قلت له : انت لا تعرف كيف تتحدث ٠٠ اننى لست مثلا سيئا لأحد ٠٠ ان الامثلة السيئة تجدها فى كثيرين غيرى فى هذا الديوان ، وانت تعرفهم ٠

وتركته وانصرفت ، وعدت الى مكتبى وأنا أغلى من الغيظ ، ثم هدأت قليلا ، وما أسوأ الهدوء ، لان معه يجىء العقل والحكمة والمصلحة والمنطق. وقد جاءت كلها فعلا ، وبدت أمامى منصوبة ، تزداد ظهورا ووضوحا ، كلما ازددت هدوءا ، حتى اذا تبددت ثورتى ، رأيت أمام عينى مدى حماقتى ، وشعرت ان مصلحتى تقف كالسد وتقول لى : انت مغفل ، متعجل ٠٠ انت تبالغ فى تقدير نفسك ٠٠ ما أنت الا انسان صغير فى هذه الحياة ، ليس لك أن تقف فى وجه الرؤساء الكبار ٠٠ انت شخص تافه لا قيمة لك ، لماذا تسبب لنفسك المتاعب ٠٠ وماذا يكون مصيرك ، اذا طردوك من الاوقاف ٠٠ صحيح ، عندك الصحافة ، ولكنك محتاج الى النقود التى تأتيك من الاوقاف أيضا هل نسيت انه مطلوب منك سداد عشرة جنيهات كل شهر ٠٠ سيشكوك مدير القسم الى وكيل الوزارة وانت لك سابقة مع وكيل الوزارة ، وسيتحقق لديه فعلا انك مثل سىء ٠٠ لا يهم تفكيرك فى نفسك ، لا يهم دفاعك عنها ٠٠ ان أحدا لن يسمع لك ، كل انسان سيدينك ، ليس لك أصدقاء ٠٠ اغضبت رؤساءك جميعا ٠٠ وهم الذين بيدهم الامر والتوجيه ٠٠ لم تعقد صداقات الا مع البائسين من الموظفين ، أسعد أفندى واضرابه ، انك تعس فى تفكيرك ، انت غير صالح للحياة ٠٠ يجب أن تذهب لتعتذر عما بدر منك ٠٠ وكدت أتهاوى وكل هذه الخواطر تلح على الحاحا ، ولم أشعر الا وأنا أضع رأسى بين يدى والدموع تطفر من عينى ٠٠ كنت انسانا ضائعا ، شعرت أكثر من كل وقت بالضياع ٠٠ وتركت مكتبى حتى لا يشهد أحد مظاهر الضعف التى انتابتنى وعدت الى بيتى ٠

وفى بيتى أخذت أجرد الحساب بدقة وساءلت نفسى : ما هى الحياة ومن أنا فى الحياة ٠٠ هل أستطيع أن أعيش وحدى ؟ هل أستطيع أن اجبر الناس على أن يسيروا كما أريد ، أو لابد أن أسير أنا كما يريدون٠ ولكننى لم أخطىء ، لم أرتكب ذنبا لا فى حق عملى ولا فى حق أحد ،

وساءلت نفسي ما هو الذنب ؟ هل أنا الذي أحدده أو الوسط والظروف والبيئة والمجتمع ؟ وعند هذا الحد انبهم على الامر وازداد غموضا، وشعرت بالألم يعصر قلبي ، وقام صراع عنيف مر بين ما أريد فعلا ، وما ينبغي أن أريده اذا شئت أن يصلح حالي ٠٠ وانتصب أمامي شبح آخر ٠٠ شبح والدي وقد ابتهج ورضي لانني سلكت في الحيـاة سلوكا حسنا موفقا ، ماذا يصبح اذا عرف انني فصلت من عملي في الديوان ؟ وشـعرت انني لست حرا في أن أتصرف كيف أشاء ، انها لم تعـد حياتي أنا وحدي ، أصبحت حياة الآخرين قبل حياتي ٠٠ وقضيت ليلة قلقة مهمومة، وذهبت في الصباح الى الديوان ٠٠ وما كاد النهـار ينتصف حتى رأيت ساعيا ضـخما فخمـا يدخل الغرفة الكئيبة المظلمة التي كنت أحتل منها ركنا صغيرا ٠٠ وقال : عبد القادر أفندي ٠٠ تفضل معالي الباشا الوزير ٠

في المرة الماضية حينما دعيت لمقـابلة وكيل الوزارة ابراهيم باشا فهمي لم أنزعج ٠٠ كنت أتبسم مستهينا أو هكذا بدوت ، ولـكنني في هذه المرة شعرت بانزعاج شديد ٠٠ قد يمكن العفو عن خطأ واحد ، ولكن الخطأ الثاني يكون أثقل وأضخم ٠٠ ومع ذلك نهضت وفي وجهي ابتسامة مغتصبة ، كانت تخفي ألمـا شديدا ، قاسيا ، مرا ٠ كنت أبدو متـجلدا تماما ، ولكن ما كان بداخلي كان انهيارا تاما وخوفا لا مزيد عليه ٠

ودخلت غرفة معالي الوزير (وكان نجيب الغرابلي باشا) فرأيت وكيل الوزارة ابراهيم فهمي باشا جالسا الى يمينه ، ومدير القسم ورئيس القلم وآخرين من الموظفين وقوفا صفا واحدا ٠٠ وانضممت الى الطابور ٠

لست أدري ماذا حصل حينما انضممت الى طابور الواقفين أمام معالي الوزير ٠ كنت داخلا وأنا خائف مضطرب قلق ، أقرب الى أن أكون منهارا ، ثم تحرك في نفسي تحـــد عجيب خشن ، حينما رأيت هؤلاء الواقفين ، ورأيت الوزير جالسا والى جواره وكيل الوزارة ٠٠ أحسست انني أمر بتجربة ارهابية لم يسبق لها مثيل في حياتي ٠٠ كل المتآمرين هنا ، كل الـكارهين يقفون كي يروا كيف أتصرف مع الوزير ٠٠ انهم لم يروني وأنا أتحدث مع سعادة الباشا الوكيل ، ولا ريب انهم سعداء جدا وهم يرونني متهالكا خائفا ٠٠ ربما كان هذا الشعور هو الذي حملني على أن أتجلد وأتحدى وليكن ما يكون ٠ وان الانسان في أحيان كثيرة ، لينسى المصلحة والعقل والحـــكمة في انفعال واحـد من الانفعالات الطارئة ٠٠ يتضاءل كل شيء وتتضاءل كل مصلحة حينما يرى معنى يسوؤه أو جوا

يثير فيه المهانة والذل ٠٠ وقد أحسست بهذا ٠٠ أحسست اننى انسان يراد اذلاله ، أو يراد الانتقام منه ، أو يراد كما يقال وضع أنفه فى التراب ٠

ولم أشهد مثل هذا المنظر ولم أقفه وأنا تلميذ فى المدارس الابتدائية والثانوية ولا وأنا فى الجامعة ، لم أقفه فى بيتى بين أهلى وأبى وأمى ٠٠ لم أقفه وأنا طفل يمكن أن أذنب ٠٠ وهأنذا أقفه وأنا شاب أكسب قوتى بيدى ، وأكون أو أحاول أن أكون لى حياة مستقلة ٠

اشتعلت نظراتى بشعاع غريب من الاستهانة ، وقفت منصوبا ، وعلت وجهى ابتسامة فيها ثقة ، لا أدرى مصدرها ٠٠ هل كانت ثقة نتيجة تعقل وتفهم وشمول ادراك ٠٠ كلا ، لم تكن ثقة ، كانت انفعال تحد ، لا أكثر ولا أقل ، تحد جاهل قليل التجربة والفهم ٠٠ وكان الغرابلى باشا وزير الاوقاف حينئذ رجلا طويلا عريضا ، منتفخ الوجه ، ومنتفخ الجسم ، هائلا كأنه جمل ، وديعا أيضا كأنه حمل ، له وجه مستدير ، وشارب بدأ الشيب يتخلله ، ورأس انتشر بها السواد والبياض وعينان فيهما بريق طيبة غالبة تكاد تكون سذاجة مع ذكاء ليس باهرا ، وان كان لا شك فيه ٠

نظر الى الرجل فى انعام ، أكثر مما نظر الى أى أحد آخر ٠٠ لاشك انهم نقلوا له عنى صورة لونوها كما يشاءون ، ولاشك أن نظرة الرجل لى تلونت بما سمعه ، ولعله لو رآنى من غير أن يكون مملوءا باسطوانة الرئيس والمدير والوكيل لما وجد فى وقفتى مايدعوه الى أن يقول ماقال٠٠ قال : طلع ايدك من جيبك ٠٠ أقف كويس ٠

ولم أكن قد تنبهت الى انى أضع يدى فى جيبى ، ويظهر اننى فعلت ذلك حينما تولتنى نزعة التحدى التى أشرت اليها ٠٠ فعلته دون وعى وتدبر ، لو كان العقل هو المتحكم لما فعلت هـذا ٠٠ واخرجت يدى من جيبى ، ولكن الوزير الكبير الخطير ، أراد أن يظهر سلطانا وجبروتا أكثر ، قال موجها كلامه الى وكيل الوزارة ابراهيم فهمى باشا : أنا بمجرد ماوقع نظرى عليه عرفت انه متعب ٠

هل كان الوزير صادقا فى دعواه أو كان متأثرا بالآراء التى قيلت له عنى ، بالمؤامرة المحبوكة التى اشترك فيها أكثر من شخص ٠٠ هل كان عالما نفسانيا ، قادرا أن يعرف الناس من وجوههم ومن أول نظرة ؟

اشفقت على الرجل وخفت منه فى وقت واحد ·· أشفقت على الوزير الذى يتأثر بكلام الناس ، ولا يحاول أن يكون له رأى خاص به ، يكونه بنفسه وبعد تجربة كافية ·· واشفقت أكثر وأكثر أو قل انتابنى مايشبه خيبة الامل ، لا فى الغرابلى باشا الوزير ، ولكن فى الاستاذ نجيب الغرابلى المحامى غير الكبير ، غير المشهور ، الذى كان قابعا فى مكتبه فى طنطا ثم اختاره سعد زغلول وزيرا للحقانية (العدل الآن) ، وقال الناس حينئذ هذه هى الديموقراطية ؟ · وظننت وظن كل الناس أن تعيينه وزيرا ، يعنى أن عهد الكبر والتسلط والارستقراطية فى منصب الوزير قد انتهى ، ولكننى رأيت الرجل الفلاح الديموقراطى فى منصب الوزير فاذا هو أسوأ من الوزير الشركسى أو التركى أو الذى يرتد الى أصل تركى أو شركسى ·· لعله ظن انه لن يكون وزيرا الا اذا كان متعاليا ، يستطيع أن يطلب من الناس أن يزرروا الجاكتة وينحنوا اذا قابلوه ؟ ·· لعله ظن ان الناس استهانوا به يوم عين وزيرا فأراد أن يثبت لهم انه وزير أصيل ، فاكتسى أكثر من ثوبه ، وكلف نفسه أكثر من طبعه ، أو لعل الديمقراطية التى أرادت ثورة سنة ١٩١٩ أن تطبع البلاد بها لم تدخل قلبه ·

مهما يكن من أمر فقد مرت كل هذه الخواطر بنفسى وأنا أقف فى غرفة الوزير شابا صغيرا قليل التجربة مضطرم الفؤاد والقلب والروح ، وها هو يجد باشوات وبكوات لا يعترفون به ويريدونه آلة أو ماهو أشد صمما من آلة ·· ولا ريب اننى بالغت فى تقدير نفسى ، وبالغت فى فهم الظروف المحيطة بى ، ولم أستطع أن أتأقلم تماما على الرغم من كل ما جاهدت نفسى أن تقبل الجو الذى وجدت فيه ·

قال الوزير والجميع سكوت ·· مدير القسم ورئيس القلم وغيرهما من الموظفين وقوف كأن على رؤوسهم الطير ، ووكيل الوزارة جالس هو الآخر ساكت وكله آذان للوزير الخطير وان كان قد لف ساقه بالاخرى وارتد الى الوراء فى كرسيه الوثير وكسا وجهه بابتسامة هى اعجاب بالوزير أكثر مما هى ابتسامة رضاء أصيل ·

قال الوزير موجها كلامه لى : أنت مابتجيش بعد الضهر ليه ؟ ·· قلت : أنا باروح الجامعة ·· قال : احنا هنا مش فى الجامعة ، انت هنا موظف عندنا فى الوزارة ·· الجامعة دى ما نعرفهاش ·· قلت : أنا جيت يومين مالقيتش شغل ·

غضب الوزير وقال بصوت فيه شىء من الصخب المفتعل : دا مش شغلك ·· قلت : حاضر ·· آجى بعد الضهر ·

سكت الوزير لحظة ، والتفت الى الجمع الواقف والى الرجل الجالس وكأنه يقول لهم : انظروا مدى سلطانى ٠٠ هـذا الذى استعصى عليكم جميعا سرعان ما خضع واستأنس ٠٠ وهنـا قال ابراهيم فهمى باشا : ماهو دا اللى كتب المقالات ٠

كان لا بد أن أنثنى أمام العاصفة ٠٠ لقد كنت أشبه بالقط البرى الذى عاش عمره من غير قيود ولاحدود ، عاش منطلقا فى الريف ، والريف سحر وانطـلاق ٠٠ رافقته الطبيعة فى صباحها ومسـائها ، فى صفائها وكدرها ٠٠ ومرت صـور عديدة على خاطرى وأنا أتأمل الوزير الجالس كالاسد ، والموظفين الواقفين كالقطط ٠

وتوقفت خواطرى فى شبه صدمة أو صحوة من أحلام والوزير يقول: تانى مرة مش عاوز حد يشكى منك ٠٠ فاهم ، قلت : فاهم ٠

ولم أكن فى الواقع فاهما شيئا، كان كل شىء مضطربا أمام ذهنى٠٠ المجتمع ، الناس ، الحكومة ، الموظفون ٠٠ السلطة ، الامر ، الطاعة ، الخضوع ، الحرية ، الكرامة ، المستقبل ٠٠ الاقساط المطلوبة ، الاصدقاء والخصوم ٠٠ لشد ماضايقنى أن تنقسم الحيـاة أمامى هكذا مسرعة الى أصدقاء وخصوم ٠٠ تمنيت أن أكون بغير خصومات وعداوات ، ولم أسع الى احداهما ، ولكنهما معا سعيا الى ٠٠٠ سوء حظ من غير شك ، ولكنه كشف لى شيئا فى الحياة صدمنى دائما ٠٠ مهما تكن عزلتك عن الناس ، فانهم لن يتركوك فى عزلتك ٠٠ مهما تكن أمينا معهم ، راضـيا عنهم متسامحا ،فانك لن تعدم أشخاصا يكرهون ويحقدون لمصـلحة ولغير مصلحة ، هواة الحقد والحسد كما أسميهم ٠

وكثيرا ما ساءلت نفسى : هل وجودهم خير أو شر ؟ وحرت فى الجواب ، ولكننى أميل الى القول بأن وجودهم ضرورى ، لانهم هم الذين يمسحون الصدأ عن النفس ، ويثيرونها بكل ما فيهـا من قـوة وتصميم للسعى والعمـل والجهـد ، ولو خلت الدنيـا من الحاسدين والحاقدين والكارهين لسبب أو من غير سبب لخلت من عنصر أساسى ، يغيظ ولكنه يثير ، يؤلم ، ولـكنه يدع للانسـان فرصة الاستمتاع بالتسامح والعون يبذلان على الرغم من الحسد والحقد والكراهية ٠

خرجت من غرفة معـالى الوزير الغرابلى باشـا كسير الخـاطر ٠ وأحسست شماتة الشامتين ، ونظرات السخرية من هذا الذى كان يبدو كأنه قوى كالجبل ٠٠ ولم أكن قويا كالجبل ولا شيئا من هذا ، ولكنهم

هكذا تصوروا لفرط ماعانوه فى وظائفهم ولفرط ما استقر فى نفوسهم من أن الوظيفة كل شيء ·· ولم تكن كذلك بالنسبة لى ·· كانت شيئا ولكنها لم تكن كل شيء · ·ولا أريد أن أظلمهم ·· لعلنى لو كنت فى مثل ظروفهم كان سلوكى يكون مثل سلوكهم ·· لعلنى لو كنت فى مثل أعمارهم مثقلا بالولد والبيت ومطالب الصحة والمرض ومآسى الحياة التى لم أكن حتى اليوم عرفت منها الا أقل القليل ·· لو كنت فى مثل تعليمهم البسيط ونظرتهم المادية لكل شيء لأصبحت مثلهم فى الشعور ، وشمت كما شمتوا بشاب يظن فى نفسه الظنون ·

ومرت على فى الديوان بعد ذلك فترة قاسية مؤلمة ·· لم أكف عن الضحك والسخرية بكل شيء ، ولكن فى داخلى كان يضطرم شعور من الخوف والقلق ، وشعور بأننى ضعفت أو انهزمت ·· وكنت أتوقع أن أعامل معاملة أسوأ ، ولكننى دهشت حينما وجدت معاملة مدير القسم لى تزداد تحسنا ·· وقد أرضانى هذا بعض الشيء وحرت فى تفسيره الى أن عرفت فيما بعد سببه ·

وغمرنى عملى فى السياسة والسياسة الاسبوعية ، بحيث تضاءلت متاعب الديوان ، أو أوشكت أن ترتد الى ظهر الصورة ·· ولولا ما حدث بينى وبين الغرابلى باشا ، لما أحسست بضيق كثير أو قليل ·· وأخذت مقالاتى تنشر فى السياسة الاسبوعية أكثر مما كانت تنشر قبلا، وأعطتنى قيمة جديدة فى أعين الناس وفى أعين موظفى الديوان ، وبدا واضحا ، اننى انسان ممتاز بينهم ، لا بالوظيفة ، فانها وحدها لم تكن لتعطى امتيازا ، ولكن لشيء خفى كانوا يحسونه ولا يعرفون ما هو ·

ذات يوم استدعانى الدكتور هيكل الى مكتبه وقال : الاستاذ توفيق فرغلى مراسلنا فى الاسكندرية ·· كتب مقالا عن قومسيون بلدية الاسكندرية وأرض سموحه ·· خطه لا يقرأ ، كما ترى ، أرجو قبل أن ينشر أن أراجعه ·

ونهض توفيق فرغلى يحيينى ، وقف الرجل ، فرأيت كأنه عصا تنثنى قبل أن تصلب عودها ·· كان ضامر الوجه والجسم ، تقاطيع وجه منفر ، ولكن روح انسان مرح الى غير حد ، هده الشراب ، وكما هده أعطاه لماحية وذكاء ·· يتكلم وهو يرتعش ، الالفاظ نفسها تخرج من فمه مرتعشة ، ولكنك تحس فيها معنى وطعما ·· وبدا لى ان الدكتور هيكل يأنس له ويحبه ويرى فيه شخصية جميلة رقيقة ذات طابع خاص·

وقد كان توفيق فرغلي هذه الشخصية فعلا وكان نديما لهيكل باشا أكثر مما هو مراسل للسياسة فى الاسكندرية ، وكان مع ذلك كفئا مقتدرا ، فاهما ما يجرى فى مدينته • اذا كتب نقد فى عنف ، واذا سخر سخر فى عنف •• القومسيون البلدى عنده مادة لا تنفد للكتابة ، وقد كان هذا القومسيون حينئذ هو الاسكندرية ، هو اختلاط المصلحة الاجنبية بالمصلحة الوطنية ، تشكيلة يجعل السلطة كلها أو أكثرها فى يد الاعضاء الأجانب •• وهم عواهل الاسكندرية وأصحاب المصلحة الحقيقية فيها ، احياؤهم تضارع احياء أوربا ، بينما احياء الوطنيين مثل اوجار الكلاب أو أسوأ •• كان توفيق فرغلي يقف ضد هذا ، ويسأل القومسيون دائما عن مصلحة المدينة ، مصلحة أهلها الوطنيين كسكانها الاجانب •

كان يشرب حتى لا تبين له الاشياء ، وكثيرا ما ساءلت نفسى ، كيف يكتب هذا الرجل وهو يكاد يغيب عن الوعى • وكان اذا زار هيكل باشا ، سمعت ضحكاته من قلبه تجلجل فى غرفته وتصل الى غرفتى المجاورة له •• وكنت اذا سمعت هذه الضحكات ، قدرت ان توفيق فرغلي هناك •• كان وجوده معناه المرح والبهجة ومقال صاخب عنيف ضد القومسيون البلدى •• ولعل جريدة « السياسة » هى أول الجرائد التى حملت لواء النقد العنيف ضد هذا القومسيون ، وكان ذا سلطة يقف أمامها الشعب وتقف الحكومة مكتوفة لا تستطيع أن تعمل شيئا •

وذات يوم وجدت الحزن الكئيب المر على وجه الدكتور هيكل •• كان ينضح بالالم العميق الذى يرج الكيان كله •• قال لى : ان توفيق فرغلي مات •• كانت الكلمات قليلة ولكن سحابة الحزن التى غطت وجهه ، أشعرتنى كم يتألم الرجل •

وبعد قليل ، أقام هيكل باشا حفلة تأبين لتوفيق فرغلي وخطب فيها •• كانت لمحة الوفاء أصيلة فى نفس هيكل •• وذهب مع توفيق فرغلي جو من الضحك والامتاع والنقد المر لقومسيون بلدية الاسكندرية ، ولعل أعضاءه ارتاحوا من قلم لاذع وعقل فاهم ، وضمير مستيقظ •• ولم يستطع أحد ممن راسلوا « السياسة » فى الاسكندرية بعد ذلك أن يملأ الفراغ الذى خلفه توفيق فرغلي •

وجاء تعيينى سكرتيرا لتحرير « السياسة الاسبوعية » سببا فى اثارة موجة من الضيق والحقد فى نفوس الكثيرين ممن كانوا أقدم منى وأكبر سنا ، وأدركت الجو من اليوم الاول ، ولكننى اعتصمت بالعمل

وحده .. كان شعورى ان اجادتى عملى هو أحسن سلاح أقاوم به الكارهين والحاقدين ولذلك كنت فى المراحل الاولى من العمل أكاد أقتل نفسى قتلا .. كنت أقرأ كل كلمة وأراجع كل عبارة وأدقق فى العنوانات والترتيب ومراعاة التوازن فى الموضوعات جهد الاستطاعة وجهد الامكانيات الصحفية فى هذا الوقت .. وذات يوم دخل غرفتى الاستاذ محمد عبد الله عنان وأعطانى مقالا للسياسة الاسبوعية جعل عنوانه « من نوادر الملوك » واحتفيت به احتفاء زائدا ، ولكننى لمحت فى نظرته وتصرفاته ما جعلنى أحس انه غير راض عن تعيينى فى هذا المركز ، له وجه فيه عصبية ظاهرة، وعينان فيهما بريق عجيب تحار فى تصويره وفهمه .. ان قلت انه السخط على الدنيا كلها كنت صادقا ، وان قلت انه القلق فى الحياة كنت صادقا ، وان قلت انه الجد الصارم كنت صادقا ، وان قلت انه الافق الواسع فى الفهم أو الافق الضيق فيه كنت صادقا .. كان عنان كل هذه المتناقضات .. كان يمشى اذا مشى ، ينقل قدمه كأنه جندى ، ويسير منتصبا ، كانه ذاهب الى ميدان ، ويسير دون حركة كأنه تمثال .. قلما التفت الى يمين أو يسار أو خلف .. وأكاد أقول أو أمام ، فقد كنت أحسبه يسير كالمنوم ، يفتح عينيه ولا يرى ، أو يفتحهما ويرى بقلبه وليس بهما .. وعنان باحث أصيل ورجل دقيق .. كان يترجم قصة فى كل اسبوع عن موباسان أو غيره من الكتاب الفرنسيين ، أسلوبه فيه اشراق ورصانة وحسن تخير للألفاظ وأمانة فى الترجمة والنقل ، وكان يكتب فى بعض الاحيان مقالات تاريخية تمتاز بالدقة والتحليل وتدل على اطلاع واسع وجهد أصيل .

لم يعجبنى العنوان الذى وضعه عنان وهو « من نوادر الملوك » وراجعت المقال ووضعت له عنوانا آخر أكثر تشويقا .. وكنت ألاحظ ان المقالات تنشر فى السياسة الاسبوعية وفى رأسها اسم الكاتب ، ثم تعاد كتابته فى آخر المقال ، ورأيت أن يكتفى باسم الكاتب فى صدر المقال ولا معنى للتكرار باعادة الامضاء فى آخر المقال .. ونفذت هذا فى كل المقالات .. وظهر العدد .. واذا بالاستاذ عنان يدخل مكتبى متجهما ويسألنى كيف رفعت اسمه من آخر المقال وكيف غيرت العنوان .. فقلت له : لقد رفعنا الاسماء من آخر المقالات كلها .

قال : ولكننى آريد أن يظهر امضائى فى آخر المقال أيضا .. قلت: هذا نظام أرى أن نسير عليه .. ازداد غضبا وقال : مش فى سلطتك انك تشيل اسمى .

قلت له : مش عاوز تكلمنى باللهجة دى ٠٠ اشكينى للدكتور هيكل اذا كنت عاوز ٠

وفى الليلة التالية نادانى الدكتور هيكل الى مكتبه ، وكانت الساعة حوالى العاشرة ليلا ، وقد فرغ من عمله ، ولم يكن عنده أحد من الزوار ، وقال فى ابتسامة لطيفة حانية : انت مزعل عنان ليه ؟٠

قلت : أنا مازعلتوش ٠٠ كل الحكاية انى شلت الامضاءات اللى تحت المقالات كلها ٠٠ ضحك هيكل وقال : ابقى سيب اسمه هو ٠٠ انتم من دراسة واحدة ليه تزعلوا مع بعض ٠٠ وماتنساشى ان عنان محام قديم ومتخرج قبل منك بكتير ٠

قلت : أنا عارف دا كله وأنا باحب كتابته وباستفيد منها ٠٠ ومش ممكن أكون قصدت انى أضايقه ٠

وحدث غير هذا كثير ، من نوعه أو من نوع آخر ٠٠ ولم أكن متجنيا على أحد أو قاصدا أن أسيء الى أحد ٠ وقد تعلمت درسا لا أدرى هل وعيته أم لا ، وهو انه لايكفى أن تكون حسن القصد صادق النية ، متفانيا فى عملك ولا شيء غير عملك ، بل يجب أيضا أن تكون لبقا ، ترضى الناس قبل أن ترضى عملك أو على الاقل وانت ترضى عملك ٠٠ كان فى ظنى ان العمل وحده هو المطلوب ، ثم عرفت انه مطلوب فى الحياة أشياء أخرى٠٠ أن ترضى الناس أيضا ٠٠ المشكلة نفسها التى واجهتنى فى الديوان واجهتنى فى الصحافة وان كانت بصورة أقل وأكثر تهذيبا ، ولم أضق بها الضيق الذى أحسسته فى الديوان ، بل تعلمت منها ، وخير مايعلمك هو الشيء الذى يصل الى نفسك من غير أن يجرحها أو يثيرها٠٠ ولم أشعر بجرح قط فى عملى الصحفى ٠٠ كان الدكتور هيكل رئيسا وأستاذا ومعلما ٠

قلت له ذات مرة : يظهر ان الايمان ضرورى للانسان ٠٠ قال : انه ضرورة أولية ٠٠ انظر آلى الدكتور طه حسين انه يتولاه الجزع الشديد اذا أصاب أهل بيته أذى أو مرض ٠٠ انه يتهاوى ويضعف ضعفا شديدا ٠

ولست أدرى لماذا سألت الدكتور هيكل هذا السؤال أو لماذا أثرت بينى وبينه هذا الموضوع ٠٠ لعل هذا راجع الى ماكنت أسمعه من الناس عن ضعف الايمان فى قلوب رجال جريدة السياسة ورجال حزب الاحرار الدستوريين ، أو لاننى شعرت أنا الآخر ان ايمانى يهتز ، فأردت أن أثبته

أو لانني كنت أحب الدكتور هيكل فأردت أن أستوثق من ايمان الرجل ٠

وعرفت الشيخ محمد الاسمر ، رحمه الله ، لأول مرة ، شيخ وسيم جميل التقاطيع ، عمامة أنيقة وجبة وقفطان أكثر أناقة ٠٠ كان مصححا ، يجلس مع المصححين فى الدور الارضى ولكنه يخرج من وقت الى آخر الى مكاتب التحرير ، ويجلس الى المحررين ، ريعطينى بين حين وحين قصيدة جميلة لنشرها فى السياسة الاسبوعية ٠٠ كان يشعر انه مظلوم ، وانه لا يقل عن المحررين شأنا ، وكان معه حق ، ولكن الازهريين فى هذا الوقت كانوا يشتغلون بالتصحيح ٠٠ كان هو عملهم الذى يرى القائمون على الصحف انهم يصلحون له أكثر من غيره ٠٠ عليهم أن يصححوا الاغلاط النحوية والمطبعية ، وكانوا بسبب هذا الوضع يشعرون انهم أقل من زملائهم المحررين ، ظن صحيح أو زائف ، ولكن هذا هو ما كان يقوم فى نفوسهم ، وكان الشيخ الاسمر أكثرهم ضيقا بهذا الوضع ٠ ولعله، وقد وهب حاسة الادب وروحه ، حسب انه أولى بمركز من مراكز التحرير ، فقد كانت الصحافة حينئذ أوثق ما تكون صلة بالادب ٠٠ لم تكن قد انفصلت عنه هذا الانفصال الظاهر الذى نشهده فى هذه الايام ٠

وكنت ألمح فى الشيخ الاسمر اعتزازا جميلا بالنفس ، كان يضيق اذا راجعه أحد فى خطأ وقع فى الجريدة ، وكان يبدو على وجهه الاسى والألم ، ولا يستطيع أن يكتمهما ، فيبدو أثرهما فى حديثه واشارته وردوده ٠٠ وأحببت الرجل وأنست اليه ٠٠ كان فيما يبدو لى لا يزال متأثرا بنشأته الازهرية ، ليست فيه الليونة التى تضفيها على الانسان حياته فى المجتمعات والصالونات ٠٠ وهذا ما عطفنى اليه أكثر وأكثر ٠

قال لى ذات مرة ان الاستاذ كامل الشناوى يدعوك الى الغداء فى بيته ٠٠ واصطحبنى الى بيت الشناوى فى السيدة زينب ٠ وسرعان ما ذكرنى « بدواوير » الارياف ونظامها وكرمها وحسن وفادتها ٠ سرعان ما أحسست اننى فى بيتى وكان أول لقاء طويل بينى وبين كامل الشناوى ٠ وأذكر اننى لم أكن منطلقا فى الحديث ٠٠ كان فى حياء شديد وخجل أشد ٠٠ ولست أدرى ما اذا كان هذا وذاك لا يزالان باقيين معى حتى اليوم على الرغم من كل ما كابدت وعانيت أو انهما زالا أو خفيا بعض الشىء ٠

ليس فى وجه كامل الشناوى ما يثيرك تقطيعا تقطيعا ، ولكن فيه كمجموع جاذبية رقيقة ٠٠ نشعر انه انسان يعيش بعاطفته أكثر مما

يعيش بالحساب الدقيق ٠٠ صوت أجش ولكن له جرسا عذبا ، يستولى عليك من غير مشقة ، ويجعلك تأنس اليه وان كنت تراه لأول مرة ٠٠ له ضحكة لم أسمع مثلها ، ولعلها طراز اختص به ، ليس لها وقع جميل فى الاذن بقدر مالها نسم رقيق فى القلب ٠٠ وأدركت لأول وهلة ان كامل الشناوى ينسى الدنيا أو لا ينساها ولكنه يعيشها بفلسفته وكأنه ينساها، وهو فى الوقت نفسه يعيشها بكل ذرة فى جسمه وكيانه ٠ واستهوتنى شخصيته ، واحسست انه طراز جديد جمع من الريف شيئا ومن المدينة شيئا ، من علوم الازهر القديمة شيئا ومن العلوم الحديثة شيئا ٠٠ عقل متفتح غير مغلق ، يقبل كل شيء ولا يضيق بشيء ٠ ذكى ، لماح ، فيه بديهة حاضرة ، ونكتة لاذعة ، وسخرية فيها رقة وعنف ٠

امتدح كامل بعض ماكنت أكتبه فى « السياسة الاسبوعية » لست أدرى عن كرم فى الضيافة أو رغبة فى ارضائى ، أو لانه فعلا كان يقرأه ويقدره ٠٠ مهما يكن من أمر فقد اغتبطت ورضيت وشكرت له حسن ظنه ٠

صاحب البيت اضفى سحره على الطعام وتناولت طعاما شهيا مع شاعرين فزاده طعما ، والاسمر أضفى روحه الشاعرية على الجلسة كلها، فاذا ساعة أو بعض ساعة لا تنسى ٠٠ وحينما حان وقت الانصراف نهض كامل الشناوى معنا الى باب البيت فذكرنى بما نفعله فى الريف لكثرة ما غمرنا بحفاوته واكرامه ٠

وقد ذهب كامل الشناوى ـ رحمه الله ـ الى جوار ربه ، ولو كان حيا لارتبت فيما اذا كان يذكر هذا أم لا ، فقد قرأت له ان ذاكرته ضعيفة ، ولكننى لن أنسى اللمحات الرقيقة والعنيفة التى مرت فى حياتى ٠٠ انها لتحفر لها مجرى عميقا ، وكأنه بعض كيانى ٠٠ وانى لأعيشها الآن كما عشتها فيما مضى ، واستجمع فى خاطرى ذكرياتى وكأنها كتاب مفتوح وقد لا يصدق أحد اننى وأنا أكتب هذه الحادثة ، تنتصب أمام ناظرى الغرفة التى جلسنا فيها والتى تناولنا فيها الطعام ، ووسط ضباب السنين الطويلة ، المح شكل البيت كله ٠٠ وكيف كان كامل يجلس على الكنبة الاسيوطى وقد وضع رجله تحت الاخرى ، واستدار بوجهه الينا ، الاستاذ الاسمر وأنا ٠

اذكر هذا كله ، كأن لم تفصل بيننا وبينه أعوام وأعوام ، وكأن الزمن لم يتحرك أو كأنه عاد يجرى وكأن ما قطعه من مراحل العمر وهم لا حقيقة له ٠٠ وقد خرج كامل الشناوى من بيت ذويه فى السيدة زينب،

وخرجت أنا من قريتى فى مديرية الشرقية ، ورأينا الكثير وعلمنا الكثير، تألمنا وفرحنا ، صفت السماء أحيانا وغامت أحيانا ، ولكن أجمل شىء يظل فى نفسى وأنا واثق انه ظل فى نفسه أيضا الى أن لقى ربه الكريم ، تلك الايام الرقيقة العذبة التى قضاها فى بيته فى السيدة زينب ، وتلك الايام الرقيقة العذبة التى قضيتها فى قريتى البعيدة • ان للماضى لسحرا ورواء •• ومرور الزمن هو الذى يعطيه هذا السحر والرواء •• ولعلنا نتمنى لو لم يمر الزمن ، ولكننا ننسى ان مروره هو الذى يعطينا جمال الذكرى •• ولو رسب ، ما كان لنا ماض ولا حاضر ولا مستقبل •• ولست أدرى كيف تكون الحياة من غير مرور الزمن من غير أن يكون لنا ماض وحاضر ومستقبل •

ولأعد الى الديوان ، فانه كالمارد البشع ، كلما لفتنى الحوادث الرقيقة الجميلة وانستنى اياه بعض الشىء ، ظهر كأنه عفريت من الجن•• تصورت ان مقابلتى للغرابلى باشا انتهت عندما انتهت اليه ، ولكن يظهر اننى كنت مخطئا ، فقد دعيت بعد ذلك لمقابلة أحمد بك على مدير الاوقاف الاهلية ، ولم أدر سببا لهذه الدعوة ، ولكن الرجل استقبلنى ببشاشة وقضى معى فترة من الوقت يتحدث معى فى مختلف الشئون، ثم انصرفت، ودعيت بعد ذلك لمقابلة مدير قسم محاسبة النظار (نظار الاوقاف طبعا) وكما حدث مع أحمد بك على ، قضيت معه فترة من الوقت ثم انصرفت •• ودعيت أيضا لمقابلة آخرين من مديرى الاقسام ، وتحدثت معهم وتحدثوا معى ثم انصرفت •

ولم أكن أعرف سببا لهذه الظاهرة العجيبة التى تفردت بها دون موظفى الاوقاف جميعا •• وغمض على تفسيرها ، وكم كان فى الديوان من أشياء كثيرة غامضة ، بعضها فهمته فيما بعد ، وبعضها الآخر لا يزال غامضا أمام عينى حتى اليوم •• ان حياة الدواوين لغز كبير لا يؤتى علمه الا الأقلون ، ويظهر أننى لم أكن من هؤلاء الأقلين •• لعلنى كنت أشبه بالقط الأبيض الذى يحسن عرضه على المديرين والرؤساء قبل البت فى شأنه •

وتم البت فى شأنى فعلا ، صدر الامر بنقلى الى قسم المدارس • ولم أدهش ولم أسخط ، ولكننى أحسست ان النقل نوع من العقوبة ، وحمدت الله ان الجزاء لم يكن أسوأ من هذا •• ونظر الى الموظفون فى قسم الاستبدال شامتين أو مغتاظين لست أدرى ؟ ولكنهم على كل حال كانوا راضين لانهم سيرتاحون من موظف لا انسجام بينه وبينهم ، ولا تفاهم بينه

وبينهم .. لعلهم كانوا يريدون لى شيئا أسوأ من هذا ، ولكن مالا يدرك كله ، لا يترك كله .

قال جبريل أفندى : اخوانك يريدون أن يقيموا لك لمناسبة نقلك حفلة تكريم .. وكنت أعرف ان جبريل أفندى مخلص فى هذا كل الاخلاص .. كان صديقا ودودا رقيقا ، ولكننى اعتذرت له ورجوته ألا يفعل .. فليس هناك ما يدعو الى التكريم ، ان بضعة الاشهر التى قضيتها فى هذا الديوان كانت مشحونة بالخلافات والشكاوى والاتهامات .. ان تكريما كهذا يكون مجاملة أو نفاقا ولست فى حاجة الى أيهما .

كان أشد الناس حزنا على نقلى أسعد أفندى ، ولا أزال أذكر عينيه المنداتين بالأسف العميق وهو يهز يدى .. كان يشعر شعورا آخر ، كان يرى فى رمزا للتمرد على الأوضاع ، وكان يرتاح أن يرى انسانا يهز جهد استطاعته الضعيفة هذه الأوضاع التى كانت تظلمه ظلما شديدا ، ولا يستطيع حتى أن يئن أو يشكو ..

وفى صباح اليوم المحدد للنقل ذهبت الى قسم المدارس ، فرأيت لونا جديدا من حياة الوظائف .

حادث صغير.. وعاصفة كبيرة

« كان هذا هو كل حصـــاده من الدنيا وهو حصاد عظيم جميل »

كان قسم المدارس فى مبنى ملاصق لقصر عابدين ٠٠ مبنى قديم ، لعله من ايام المماليك او بعدهم بقليل ، وكان فيه ايضا قسم سادس ،ولجنة الآثار العربية ٠٠ كان قسم المدارس فى الدور الثالث ، وارتقيت السلالم صباح اليوم ، وقدمت نفسى للمدير ٠٠ وقبل ان ادخل على المدير دخلت فى غرفة واسعة جميلة انيقة ، لها نوافذ تطل على ميدان عابدين او بتعبير ادق على الشارع الواصل من ميدان عابدين الى ميدان الاوبرا ، هواء طلق منعش ، ووجوه رأيتها اصغر سنا واكثر وسامة ، وأهدأ حالا ٠٠ مكاتب انيقة ، وارض مفروشة بالسجاد وسرعان ما قارنت بين الغـرفة المظلمة الكئيبة القابعـة فى ركن من ديوان الاوقاف وبين هذه الغـرفة الوسيعة المطلة على الدنيـا ، يدخلها الهـواء ، وتدخلهـا الشمس ٠٠ ورحب بى عبد الحميد افندى فهمى رئيس القلم ، وكان عنده اخطار بحضورى ٠٠ وقال : تفضل سلم على زكى بك ٠

ودخلت غرفة المدير ، فألفيت رجلا وقورا ، اسمر الوجه بصـورة غير عادية فيه صلابة وابتسامة تومض قليلا ، شارب اشيب ورأس وخطه الشيب ، وعينان فيهما شـعاع عميق عنيف ٠٠ وسلمت عليـه ، ورد السلام بصوت اجش ، حسبت انه آت من بيد ٠٠ كان هو محمد بك زكى الاستاذ السابق فى مدرسة القضاء الشرعى ومدير قسم المدارس فى وزارة الاوقاف حينئذ ، ووالد الاستاذ احمد زكى وكيل وزارة التربية فيما بعد ٠

لا أستطيع ان اقول ماذا كان شعورى نحو زكى بك ٠٠ هل احببته، هل ارتحت اليه ؟ هل قدرت انه سيكون خيرا من المدير السابق ؟ هل

اطمأننت ان امرى فى الديوان سيحسن مع هذا المدير خيرا مما كان مع سابقه ٠٠ لا استطيع ان احدد بالضبط ٠٠ لقد تركت مقابلتى السريعة له فى نفسى شعورا غامضا ، لا هو الرضى الكامل ، ولا هو السخط الكامل ، ولا هو الخوف الكامل ٠٠ ويظهر ان تجاربى الماضية فى الديوان جعلتنى اقدم الاسوأ على الاحسن ٠٠ ومهما يكن من امر ، فقد ابتهجت بالصحبة الجديدة والمكان الجديد ، وحمدت الله ان انقذنى من جوار الوزير والوكيل ، وجعلنى فى طرف الدنيا بعيدا عن الرياسات العليا ٠٠٠ احسست فى قسم المدارس البعيد عن الوزارة كاننى استرددت جزءا كبيرا من حريتى ٠٠ وهذا درس آخر تعلمته من حياة الوظائف ٠٠ انك اذ تكون فى مكان بعيد عن الرياسات العليا ، يكون صدامك فى الوظيفة اقل ، ومتاعبك فيها اقل ، وأوامرها اقل ٠٠ نحن كلنا ندور فى فلك الوزير والوكيل ، ولكن هناك فرقا كبيرا بين الكوكب الذى يدور وهو قريب من مركز الشمس ، يتحمل حرارتها ورذالتها والكوكب الذى يدور فى الفلك البعيد لابد ان يكون حظه من الحرارة والرذالة اقل ٠٠

ولكن بعض الموظفين يحبون ان يكونوا فى الكواكب الدائرة حول الشمس ، القريبة منها ، حتى يفيدوا من نعمتها وخيرها ، ولم يكن لى امل فى نعمة او خير ، فشكرت لله ان ابعدنى بعض الشىء عن الشر والرذالة ، كنت أذهب الى الديوان فى الصباح حوالى الساعة التاسعة ، وكان هذا يعد مخالفة لان الموظفين فى الديوان العام يذهبون كلهم فى الساعة الثامنة ، ولكننى فى قسم المدارس كنت أذهب فى التاسعة صباحا ، فأجد اكثر الموظفين لم يأت بعد ، وقد ارضانى هذا وابهجنى ٠٠ انه يتفق مع رغبتى وفى الوقت نفسه يتفق مع نظام الديوان فلا مخالفة هناك ولا يحزنون ٠٠٠والواقع ان هذا التأخير كان مخالفة ، فان موعد الساعة الثامنة موعد مقرر للموظفين فى الديوان العام وفى الفروع التابعة له ، ولكن بعد هذه الفروع عن الوزارة كان يتيح لها ان تخالف الاوامر ، دون ان يحصيها احد او يحاسب عليها احد ٠

وكانت نظافة المكتب والغرفة التى اجلس فيها ، واناقة المكان كله ، تتيح لى أن ابقى مدة أطول ، وأن أقرأ الصحف بانعام ، وأن أكتب ماأريد كتابته أو مراجعته ، وأن أتم عملى فى الديوان على خير وجه ٠

عبد الحميد افندى فهمى رئيس القلم رجل ربعة ، سمين ، مترهل ، وجه مبتسم منتفخ ، يسير اذا سار وهو يهز مائة كيلو من اللحم الطرى ، لا يكف عن الابتسام ، ولا يكف عن الترحيب بى ٠٠ كان قد جاوز نصف

العمر ، اقترب من الخمسين ، ولكنه كان عريسا جديدا ، وهكذا عرفت من احاديثه واحاديث زملائه ٠٠ ان نجفة غرفة النوم موضوع طويل للنكتة والحديث بينه وبين زملائه ٠٠ يوسف افندى شهدى من الطرف المقابل لعبد الحميد افنـدى فهمى ، يضع رأسه فى الورق ويضحك وهو يؤكد لحضرة «الريس» ان النجفة أهم شىء فى غرفة النوم، ويعقب ابراهيم افندى لبيب ، وهو يخرج من الغـرفة الداخليـة على حديث النجفـة ، ويأخذ عبدالحميد افندى بالحضن ويؤكد له انه سيكون سعيدا فى زواجه ويقول ضاحكا « اودة النوم يا ابو عبده وما ادراك ما اودة النوم ؟ » ٠

كان زواج « حضرة الريس » هو موضوع الحديث فى الايام الاولى ، وفى الايام التى تلتهـا ، وكان « حضرة الريس » يشرك معـه زملاءه فى التفاصيل ويشكو احيانا من اهل العروس ، حتى ادوات المطبخ عرفناها ، حتى اثواب العروس ، كل شىء كان يجرى فيه الحديث وسط ضحكات وابتسامات حتى اذا خلا لبيب افندى ببعض زملائه تهامسوا على « حضرة الريس » ومنهم من ابدى رأيه فى انه يتزوج بنتا صغيرة وهو رجل تقدمت به السن ، حتى اذا جاء عبدالحميد افندى ، نهض الجميع يحيونه ويسألونه عن آخر اخبار الفرح ، وعن تفاصيل الموبيليات ، ولا ينسون ان يكثروا له من التبريك والتهليل ، كما لا ينسى لبيب افندى ان يضمه الى صدره وهو يضحك ضحكة مجلجلة ، كأنه هو الذى سيتزوج ! ٠

كان لبيب افندى كثير العناية بهندامه ، ينتقى أحسن البدل وأحسن القمصان وأحسن الاحذية ، طويلا بعض الشىء ، ذا قوام معتدل ، ووجه جميل فيه بياض كثير ، حتى ليبدو لى أنه من أصل غير مصرى ٠٠ كثير الحركة ، لا يكاد يجلس على مكتبه الا أقل الوقت ، دائم التردد على مكتب عبد الحميد افندى ومكتب على افندى النكلاوى ٠

وعلى النكلاوى طويل اسمر ليستفيه وسامة ولكن فيه طيبة ورقة، ابوه ضـابط طبيـب فى الجيش برتبة الاميرالاى ، لا تخطىء أن ترى اثر النعمة عليه، وأثر المنبت الحسن ، صوت خفيض، وضحكة أكثر انخفاضا، ولكن تصدر من قلبه ، ممزوجة بطيبة أصيلة تدنيه منك ، وتدنيكمنه٠٠ فنان مرهف الحس ٠٠ أنيق ، رشيق ، هادىء ، صبيح الوجه ، ولعل الله الذى حرمه وسامة الوجه ، عوضه عنها اضـعافا مضاعفة ٠٠ صـديق منعطفأكثر نحو لبيب افندى ، صديق للجميع أيضـا ٠٠ وحلمى افند رقيق لطيف فيه طيبة شديدة ، كل من فى القسم يحبه ، وهو يحب كل من فى القسم٠٠ «غاوى» عود هو والنكلاوى ٠٠ قال لهما لبيب أفندى :

ساعرفكما بشاب له صوت حسن واداء جميــل ·· كان هذا الشاب هو عبد الغني السيد ، وقد عرفهما به فعلا ، وكان الاربعة يلتقون فى مسكن لبيب افندى بالقلعة ·

وفى ركن من الغرفة الفســيحة جلس بهجت افندى برتو ، طراز آخر مختلف عن كل زملائه ، يخلع طربوشه فيبدو كالتركى الذى افلس، ويضع طربوشه فيصبح كالسنجق وكأنه يقول للناس : اشرب من دى وسيب دى ·· رجل يحب أن يضحك دائما ، يشرب الخمر حتى لم تبق منه شعرة لم تتسرب فيها ·· يشرب وهو فى المكتب ··· زجاجة الخمر معه ، كأنهــا صديق يؤنس وحشــته ·· لا زوج ولا ولد ·· بلغ نصف العمر وجاوزه ، فاذا سألته لماذا لاتتزوج قال لك : الزواج زى الاكل البايت·· مفيش أحسن من اللهفة والخوف والقلق ·· ويتبع ذلك بنكت وقصص صريحة صراحة خادشة ، ولكنه يرويها ويضحك من أعماق قلبه ·· لست ادرى ماذا كان يصنع للديوان ، ولكنه كان يصنع شيئا حتما ، فأحيانا يضع نظارته على عينيه ، ويبدو جادا تمام الجد ، وجهه فيه تفكير عميق كأنه يحل الالغاز ·· ثم يضحك بعد فترة ويقول وقد انفتحت أساريره وذهب عنه الجد الصارم : علشان نحلل القرشين اللى بناخدهم ·

ويأتيه لبيب افندى ويميل على أذنه ، ولا تســـمع ماذا قال له ، ولكنك تسمع الاثنين ينطلقان كالصاروخ الواحد فى ضحكة مشتركة ، ويضيق عبد الحميد افندى أحيانا بهذا الجو الضاحك اللاجب اللاهى ، ولكنه رجل رقيق ، فلا يزيد على أن يقوم بحركة خفيفـــة تعنى أنهـــم « زودها شويه » ·· ويفهــم الآخرون ماذا يقصــد فاذا بهم يكفون عن هزلهم لمحة او فترة ، واذا المكتب كله قد انصرف الى نوع من الجد الذى تلمح انه ليس طابعه ، ولكنه شيء مفروض ، لا يلبث ان يزول ثم تعود الحالة الى ما كانت عليه ·

وفى ركن مقابل لبهجت افندى برتو ، يجلس يوسف افندى شهدى، رجل يبدو أكثر اتزانا وهدوءا من اصحابه ، واكثر معرفة بالعمل منهم ، وارقى درجة كما عرفت فيما بعد ، يأخذ من الهذر بنصيب ، لكنه يحرص على أن يظهر بمظهر الجاد «الدوغرى» ·· نظرة فيها بعض شخصيته أو كل شخصيته ، ليست فيها طيبة خالصة ، بل ليس فيها غير طيبة قليلة أو شبه مفتعلة ، رجل يبحث عن مصلحته ، ومصلحة الديوان عنده هى وسيلة لمصلحته ، غامض بعض الشيء ، كثير التردد على سيد بك ابراهيم وكيل القسم ، كثير الخلوة به ·· ويظهر ان الثقة بينهما كانت متوافرة

بشطارة من شهدى افندى ، بعضهـا عمل متقن ، والكثير منهـا لسان حلو ٠٠ اما سيد بك ابراهيم فرجل فيه وقار وهدوء وســمت جميل ، اذا دخلت عليه فى مكتبه شعرت بأنس وراحة وطمأنينة ٠٠ قلمـا رفع صوته وقلمـا احتد أو ثار ٠٠ اذا خرج هو والمدير لجولة فى المدارس ، وكثيرا ما كانا يخرجان ، حسبتهما كالخليفة وكبير وزرائه ٠٠ زكى بك يمشى ولا يتحرك ، وسيد ابراهيم يتحرك ولا يمشى ٠٠ المدير يصرخ ، والوكيل يهمس فى أذنه ، ودنيـا الديوان من حولهما وورائهما ، كأنها الرعية ٠٠ ديوان صغير ، ولكنه أيضا صورة من الديوان الكبير ، فيه كل سمات الديوان الكبير ، فيه الأوامر والنواهى ، فيه الترقيات والعلاوات، فيه الرياسات الصغيرة والكبيرة ، فيه الخـوف والمكر والسعى والدس والحظوة ٠٠ صورة صغيرة كالطفل فيه كل مافى الرجل الكبير ٠

وكما كان شهدى افندى دقيقا فى عمله ، كان دقيقا ايضـا فى حياته ، ولم يكن عبد الحميد افندى فهمى راضيا عنه ، ولم يكن هو راضيا عن عبد الحميد افندى فهمى ٠٠ لعـله كان يرقب الفرصـة لكى يصبح رئيسا ، ولعل عبد الحميد افندى كان يحس هذا ، فهو اقرب اليه فى الدرجة ، ومدته فى الخدمة اقرب المدد اليه ٠ ولم يكن عبد الحميد افندى كفئا تماما ، بينما كان شهدى افندى فيما يبدو لى انصح واكثر كفاءة ، وهو على صلة طيبة بالوكيل ٠٠ ولذلك كان عبد الحميد افندى يحاول أن يوثق صلته بالمدير ٠٠ وكنت اشهد كل هذه الحركات حولى ، ارقبها ولا اتدخل ، فلست اريد أن أكون اثيرا عند احد منهما ، وليس لى مطمع فى شيء الا أن اترك فى حالى ٠٠ لم أكن ادخل عند المدير الا فى القليل النادر ، ولم اكن ادخل عند الوكيل الا فى القليل النادر ، وان كنت لم الق منهما الا المعاملة الطيبة ، لم يكن زهدى فى لقائهما راجعا الى شيء سوى اننى بطبعى لا احب ان احشر نفسى فيما لا شأن لى به ٠٠ ولست طامعا فى درجة ، بل لست طامعا فى ان ابقى فى الوظيفة ، كل ما ارجوه أن اترك فيها بعض الوقت ريثما اشعر اننى استغنيت عنها ماديا ، كانت بالنسبة لى عملا آليا محضا ، أؤديه ، لابروحى ، ولكن بجسدى ٠

كان النهار يمر هادئا رتيبا منظما كأنه دقات السـاعة ٠٠ ادخل الديوان فى التاسعة صباحا ، وبعد ربع ساعة أو نصف ساعة ، يمر على عبد الغفار بصينية عليهـا فناجين القهوة واليانسون والشـاى ٠٠ كان يعرف ما أريده وما يريده غيرى ، فيضع أمامى فنجان قهوة سادة ، دون

ان يحدث اية حركة . كان رجلا يؤدى عمله كأنه نسيم هادىء يتحرك ، ووجهه الاسمر فيه سكون ايمان عجيب ، وبدلته التى كان يحرص أن تكون نظيفة ، فيها مثل هذا السكون ، وكأن فيها مثل هذا الايمان .. فاذا فرغت من فنجان القهوة انصرفت بعض الوقت الى عمل الديوان ، وقلما كان يستمر الا فترة قصيرة ثم اسمع ضحكة مدوية من الغرفة الداخلية ثم ارى لبيب افندى يخرج ، ويده على كتف النكلاوى وهما يضحكان ويجريان الى حيث يجلس « حضرة الريس » ويميل لبيب افندى على أذنه ويهمس فيها فاذا الثلاثة يضحكون .. ويتضايق شهدى افندى لانهم لم يشركوه معهم ، ولعله كان يظن ان الهمس سر ، وانه متعلق بالديوان وعمل الديوان ، الدرجة القادمة أو الترقية الآتية فى الطريق .

كان هناك موظف آخر أشد غموضا من زملائه ، اسمه الجمل افندى . رجل جاوز الخمسين ، قلما رأيته مشتركا فى نكتة أو مطلقا ضحكة .. كان دائم الجلوس فى مكتبه او دائم الترك له .. اذا جاء بقى ملتصقا به ، فاذا ذهب ظل غائبا عنه ، فاذا طلب نمرة فى التليفون ، حرص على أن يطلب الارقام بالايطالية « أونا ، دونا ، تريو ، كاترو ، تشنكو .. » لست أدرى لماذا ؟ قلما تحدث الى بل قلما تحدث الى احد .. كان يبدو لى كأن الوظيفة بالنسبة له عارض لا قيمة له ، وانها مجرد مركز يلقى فيه زواره ، ويطلب أرقام التليفون التى يريدها ، ويؤدى اعماله الخاصة .. ولاح لى انه لابد ان يكون صاحب املاك وعقارات واطيان أو صاحب اسهم وسندات ، كان يذكرنى كلما رأيته بكوهين .. وكوهين ليس كوهين ، ولكنه الحاج راشد .. كان صاحب بيت سكنت فيه وانا طالب مع أثنين من زملائى واطلقنا على الرجل اسم الخواجة « كوهين » لانه كان يحاسبنا على نقطة الماء الزائدة ، والقرش الناقص فى الاجرة ، والسلالم المستهلكة ، وفتحة الباب التى زادت على المقرر ، وكاد يحاسبنا على الانفاس والاصوات فاذا احتججنا عليه قال : انا راجل حاجج بيت الله انا فلاح ، وعندى بنات .. وكانت بناته مع ذلك يعثن فى البيت فسادا ، وقد لاح لواحد منا ان يكون داعى فضيلة مؤمنا برسالة الحاج كوهين ، فلاحظ ان احدى بناته تختلى بشاب اعزب ساكن فى غرفة بالسطح ، وظن انه اذ يمنع هذا المنكر سيحظى باحترام الحاج كوهين وشكره .. وكان ان اعترض زميلنا طريق الشاب المغرم والفتاة الضالة ، وظن انهما سيشعران بالخجل أو سيحاولان الهروب منه ، ولكن الشاب اعطى زميلنا الداعية للفضيلة لكمة فى وجهه وانفه أسالت دمه ، ولم يكن موقف البنت أقل قحة من

مسلك حبيبها ، فساعدته على ان يفتك بزميلنا ، وكانت قضية حققها البوليس ، وعلم بأمرها الحاج كوهين ٠٠ وعجب زميلناً وعجبنا كلنا ، لأن الحاج كوهين شهد فى البوليس لصالح الشاب المتيم ٠٠ وعدنا ليلتها من القسم زميلاى وانا ونحن نجر اذيال الخيبة والفضيلة ٠٠ ولمت صديقى على مسلكه وقلت له : مالك انت والفضيلة ٠٠ ولم تجر علينا الا البلاء وضياع الوقت وقد رأيت كيف تصرف الحاج كوهين :

ضحك وقال : الراجل التنســـتوس ده كل ساعة يقول انا راجل دوغرى انا عندى بنـــات ٠٠ انا فلاح ٠٠ قلت له : انه درس أخذناه مبكرين ٠٠ لاتصدق الناس لا تصدق من يقول لك انه حاج ٠٠ لا تصدق الحاج كوهين ، وكل حاج كوهين ٠٠

وهذا استطراد من غير شك ، ولكننى ما أحســـب الا ان الخواجة كوهين يستحق اكثر منه ٠ فى علم النفس ما يسمى بتداعى المعانى ، وقد ذكرنى الجمـــل افندى بالخواجة كوهين ، فكان لابد ان اعرض للخواجة كوهين ، حتى اصل الى تصوير الجمل افندى ٠٠ وما اكثر ما تتشـــابه الاشخاص والشخصيات ، وما اكثر ما ترى فى الحياة نماذج من الناس تذكرك بنماذج من الناس او نماذج من الحيوان ، واذا قدر لى وخضـــعت للالحاح الكثير وعرضت فى هذه المذكرات أو فى مذكرات خاصة أخرى للمرأة فى حياتى ، فلا شك ان الحاج كوهين وبناته الثلاث سنية وحكمت وفردوس سيكون لهن ولبيتهن فى درب البنـــدق بشارع خيرت نصيب كبير ، فقد اضطربت فى نفوسنا حينئذ معان كثيرة ، وعرفنا الخير والشر اين يكونان ٠٠ لقد علمنا « الحاج راشد كوهين » الـــكثير ٠٠ علمنا ان دعاة الفضيلة ليسوا هم دائما الكاسبين ، هل كنا دعاة فضيلة حقا ، أم كنا حاقدين لأن انسانا آخر هو صاحب الحظوة عند الأم والبنـــات ٠٠ مالهن وما لتلاميذ مساكين لا يكادون يدفعون أجرة السكن الا بشـــق الانفس ٠٠ مالهن وللمفلسين ، وهن ينشـــدن زوجا جاهزا ، يكسب وينفق ويقدم الهدايا ، ويكون مغنمـــا للحاج كوهين والحاجة والبنـــات المحروسات ٠٠

ولكن هذا موضوع آخر ، فلأعد الى الجمل افندى ، ووجهه الطرى المكير ، وعينه البراقة الخادعة ، وصوته الخفيض المرتفع ، وارقامه الايطالية يزهو بها علينا ، وكأنه يقـــول : انظروا ٠٠ انى أعرف مالا تعرفون ٠٠ وكان يرطن أحيـــانا بالايطالية ، ثم يتركها الى الانجليزية ومنهـــا الى الفرنسية ، ثم يضع السماعة ، وينظر الينا باحتقار شديد ٠

وكان هناك أيضا محمد أفندى كامل ·· رجل حج·· بيت الله ، بل كل بيوت الله ·· لايدع فرضا ، ولا يترك فرصة دون أن يسبح ويحوقل ويدعو ويبتهل ·· جاء الديوان مرة وعلى رأسه طاقية صـــوف وبدله كاملة ·· ورآه زملاؤه فضـحكوا وضـحكوا وكتموا ضحكهم ، والرجل منصرف الى شأنه لا يدرى شيئا مما يدور حوله ·· عبد الحميد افندى فهمى لا يجرؤ أن ينبهه ولا أحد من زملائه يجرؤ ان يفعل ، خشوا ان يكون الرجل قد اصابه مس من طول الصلاة والسجود ، فسكتوا ، ولكنهم لم يستطيعوا الا أن يضحكوا ويتغامزوا وطال الضـحك والتغامز ، وتنبه الرجل آخر الامر الى ان فيه شيئا غير عادى ·· ووضع يده على رأسه، فلم يصطدم بطربوش صلب ، ولكن بشىء لين انخسف عند أول لمسة ، بالطاقية الصوف ، فتولاه ارتباك شديد ·· وفى هذا الوقت بالذات دق الجرس ، واذا زكى بك المدير يطلبه ، وفى لحظة رمى الطاقية الصوف على الارض وخطف طربوش « عم حسين » الساعى من على رأسه ودخل عند المدير ·· كان طربوش « عم حسين » واسعا ، دخل فى رأس الرجل وغطاه ، وامتد الى عينيه وأذنيه ، كانت نظارته سميكة ، وشاربه وشعر رأسه أبيضين تماما ، والرجل درويش ملأته التقوى بهدلة ودروشة ·· ونظر زكى بك ودهش لمنظر الرجـل ، ثم خطر له ان يطلب « عم حســين » لشأن من الشئون ، فتحير الرجل كيف يدخل على المدير عارى الرأس ، ولكنه لم يستطع الا أن يفعل ، لم يكن أمامه الا أن يدخل كما هو ، ومثل بين يدى المدير عارى الرأس · وكانت داهية سوداء ، ان يدخل موظف على رئيس عارى الرأس ، فما البال بالساعى المسكين ·· وادرك زكى بك الموقف ، عرف ان الطربوش الذى على رأس كامل افندى هو طربوش عم حســين وأغرق المدير فى الضحك ·· وحينما أقول أغرق فى الضحك ، اعنى انه ضحك فقط ، فقد كان زكى بك متحفظا فى كل شىء ، حتى فى الضحك ·

ودرج كامل افندى فى مكتبه أعجوبة من الاعاجيب لا تجد فيه أوراق الديوان بمقدار ما تجد فيه « جزمة الست » وقد أخـــذها كامل افندى لاصلاحها ، او كراريس ولد من الاولاد ، أو فيونكة شعر اشتراها لبنت من بناته ، أو قليلا من الطعام يتبلغ به ·· كان « درجه » امتدادا لبيته ومطالب بيته ومطالب « الست » بصفة خاصة ·· كان رجـــل بيت من الطراز الاول ، لا يعنيه شىء غير بيته ··· ويعطى بيته كل جهده ونشاطه ويعطى ربه كل قلبه ووجدانه ·

كان موكب زكى بك وهو داخل وهو خارج يلذنى ويمتعنى ·· كان

في ديوانه الصغير يمثل دور الوزير فى الديوان الكبير ٠٠ كانت تسبقه كوكبة وتتبعه كوكبة ٠٠ عم حسين ساعيه الخاص اشبه بالارنب ، يقفز فى خفة ، واشبه بالراديو لايكف عن الكلام ، فيه خبث الثعلب ، وسذاجة البغل ٠٠ يحب المال حبا جما ويحب المدير حبا جما ، ويحب الديوان حبا جما ، وهو فى عالم السعاة مقدم معزز مكرم يكفى انه الساعى الخاص للمدير فى هذا الديوان الصغير ، فهو اشبه بالساعى الكبير فى الديوان الكبير ، ساعى معالى الباشا الوزير ٠

« عم حسين » ٠٠ شخصية ممتازة لا بين السعاة ، ولكن بين الموظفين أيضا ٠٠ لاح لى أنهم يخصونه ويؤثرونه بالرضاء ٠٠ من يدرى ؟ انه رفيق المدير فى الغدو والرواح ٠٠ يحمل له الحقيبة والشمسية والعصا ، والكتب والأدوات ٠٠ من يدرى ؟ لعله يهمس فى أذنه بعض الهمس ، ولعله ينقل له من أخبار الديوان مالا يعرف ٠٠ ولعله ـ أعنى المدير ـ يسأله ويستمع اليه ويثق فيه ٠٠ وسع ياجدع ، سعادة المدير طالع ٠٠ هس أنت وهو ٠٠ يا عبد الغفار ٠ بلاش ظيطه ٠٠ ولا أحد يستطيع أن يقوم بهذا الدور خيرا من « عم حسين » انه يحدث ضجة لا يحدث مثلها عشرة سعاة ٠٠ انه يدق الارض بقدمه ، ويلهث وهو يقفز السلالم قبل سعادة المدير ، فتكاد تسمع رجع انفاسه قبل دقات قدمه ٠٠ ولم يكن رجع هذه الانفاس تعبا من ارتقاء السلم ، بقدر ما كان نوعا من الخشية والرهبة لان سعادة المدير شرف ٠

لم أكن أرتاح لعم حسين ، كنت أرى انه ممثل بارع ، وأكثر من أكرههم فى الحياة هم هؤلاء الممثلون البارعون ، بينما كنت أرتاح لعم عبد الغفار الرجل الامين الرقيق المبتسم المتوكل على الله ، الساكت لايتكلم الا بمقدار ٠٠ يميل على وهو يضع فنجان القهوة على مكتبى ويقول هامسا دنياترفع وتخفض ، تعز وتذل ٠٠ شوف عم حسين ده ٠٠ كان ايه ، دلوقت ساعى قد الدنيا ، أنا عارف زكى بك عاجبه فيه ايه ٠٠ وأبتسم فى وجه الرجل الطيب وأقول : خليك فى حالك يا عم عبد الغفار ، الدنيا ماتسواش ٠٠ انت عندنا احسن من عم حسين ميت مرة ٠٠

ويمتلىء وجه الرجل الطيب رضى وغبطة ويقول : ربنا يطول لنا عمرك ويخليك ٠٠

وكان المبنى الذى يشغل ديواننا الصغير دوره الثالث يضم ايضا قسم سادس أوقاف ولجنة الآثار العربية ٠ فى قسم سادس كامل كيلانى

بقامته القصيرة وسبحته الطويلة ووجهه الرقيق المبتسم وادبه الرائع يملأ ذهنه وقلبه وعقله وكل جارحة منجوارحه ، يراجع قسائم المستحقين ويرقب الطوابير ويحصل الايجارات ، وينحت فى صخر الاوقاف الذى لا يقبل النحت ، وقد عرفته فيما بعد أكثر وأكثر ، وأحببت فيه خلالا حميدة ، وصبرا لاينفد ، وروحا متقدا يقظا ، وقلبا شاكيا راضيا ، يبتئس احيانا لانه لا يلقى التقدير ، ويرضى احيانا لانه يجد لمحات هنا وهناك تجعله من التقدير أقرب وأدنى · أبو العلاء فى لسانه وقلبه وعقله ، والبحترى وابو تمام والشعراء القدامى والمحدثون الأحياء والأموات يروى لهم ويروى عنهم ، وقلما لقينى دون ان ينعى الزمان ويشكوه ، ودون أن يتحفنى ببيت من الشعر أو ابيات ، واستأذنه فى أن أتناول قلما وورقة لاكتبها··وقلما خطر معنى من المعانى ، الا قفز كامل الكيلانى وقال وهو يبتسم : أبو العلاء قاله وينشد :

على الذم بتنا مجمعين وحالنا   من الخوف حال المجمعين على الشكر

وعشرات الابيات عن ابى العلاء وغيره فى الوصف والحكمة والناس والحياة والجنة وجهنم ·· طاقة يقدمها لى كلما لقيته أو لقينى ، سواء طال اللقاء أو قصر ·

وفى لجنة الآثار العربية كان الأستاذ حسن عبد الوهاب : صوت مرتفع ، وحركة دائبة ، وبحث لا يقف ولا يتوقف عن الآثار العربية يكتب للصحف ويعنيه ان يتصل بها ، له اصدقاء هنا وهناك ، فيه ما فى الباحثين فى الآثار ، والآثار العربية خاصة · من تحمس لها وحرص عليها واشادة بها ، كان المبنى الذى فيه لجنة الآثار هو نفسه أثرا · فى هذا الجو عشت فترة من الوقت اغدو مع الصباح الى الديوان الصغير ، بدلا من الديوان الكبير ، وتطالعنى وجوه اصغر سنا واكثر اشراقا وأدنى ان اتفاهم معها ·· ولكننى مع ذلك ظللت أشعر بغربة عن الجو كله ·· خف ثقلها ، ولكنها ظلت قائمة بنفسى ·· لم يكن أساس الغربة ان الديوان كبير أو صغير ، أو اننى أعامل معاملة حسنة أو سيئة ، ولكن كان أساسها ان طبعى ليس طبعا ديوانيا ، وخلقى ليس خلقا ديوانيا ، كنت ارقب ما يجرى حولى واسخر بينى وبين نفسى من الناس ومن نفسى ، من الديوان ومن موكب زكى بك وهو داخل وهو خارج ، من صوته الأجش وهو يصدر الأوامر ، من عمحسين وهو يجرى يكاد يتعثر ، من عبد الحميد افندى فهمى وهو يعد لزفافه ، من شهدى افندى وهو يحاول أن يصطاد الدرجة

والرياسة ، من لبيب افندى وهو يحاول ان يبدو أنيقا زير نساء ، ومركز فتنة للعذارى وغير العذارى ·· من الجمل افندى ، من كوهين ، من كامل ··· رجل البيت الذى اشتغل فى الديوان ·· وكان بهجت أفندى برتو يعطينى صـــورة أخرى من صور الحياة ، انســانا يعيش بالمصادفة ، يوما بعد يوم ، ساعة بعد ساعة ·· لم يتزوج ، فاذا ســـأله احد لماذا لا تتزوج ، برقت عيناه وكاد يفتك بالسائل فى نظرة كلها دهشة وعجب ثم ينطلق ضاحكا : اجوز ·· ليه هو انا مجنون ·· فتح يا أخينـا ·· انت شايفنى مغفل ·· ؟

ويخرج الزجاجة ، زجاجة دواء او خمر لا أحد يعرف ، ويعب منها قليلا ، ثم يقول لك : تفضــل خد فنجان قهوة ·· ياعم عبد الغفـار ·· قهوة لكل الافندية ·· شاى ، ينسون ·· طلباتهم

كان كريمـــا كرما غير عادى ، وينظر اليـــك وهو مبتهج متفتح الاسارير ويقول : ماحدش واخد منها حاجة ·· هكذا كانت فلسفته ، لا المال جدير أن يحرص عليه ولا الزواج والولد شىء يبتغى ·· لا شىء فى الدنيا سوى اللحظة التى هو فيها ·· لا شىء سوى ضحكة رقيقة تأتى من قلبه ·· من أعماق قلبه ·· هــذا كان كل حصاده من الدنيــا ·· وهو حصاد عظيم جميل ·

يا لله ، كأنما حياتى لابد فيها من مطبات ، لاتكاد تصفو قليلا، حتى يلاحقها الكدر هنا وهناك ·· لم يمض على نقلى لهذا الديوان غــير ثلاثة أشهر ، قضيتها فى هدوء لطيف وسكون ارضانى كل الرضـــاء ، حتى حدث ذات يوم وانا داخل الى الديوان فى الصباح ان قابلنى عبد الحميد افندى فهمى متعجلا وفى وجه غير رقيق ، فيه الغضب والتأنيب ·· قال : اتأخرت ليه · ؟

ولم أكن قد تأخرت عن الموعد المعتاد ، ولذلك دهشت ، واستأت وأنا أرى وجهه الغاضب ولهجته المليئة بالتأنيب ، ومرة أخرى ركبنى عفريت التحدى ، قلت له : ماهو كلكم بتتأخروا ·· انتفض الرجل فى حركة عصبية ، وأخذ ورقة بيده ، ودخل مسرعا الى غرفة زكى بك ··

كان هذا الحادث الصغير بداية عاصفة شديدة ·· شديدة جدا ·

أصدر الوزير أمرا بفصلي من الديوان !

« ما أكثر ما كنت غرا جاهلا
وما أعمق بحور الدواوين ! »

لم تمض لحظة حتى استدعاني محمد بك زكي . انتصب أمامي « عم حسين » متعجلا مضطربا يبدو في وجهه الجد والخطورة وقال : سعادة البيه المدير ..

ودخلت غرفة زكي بك وثورة نفسي لم تهدأ ، والتوتر الذي أصاب الموقف في برهة بل في أقل من برهة يرسم كل طيوفه وظلاله على وجهي .. قال زكي بك وهو متجهم وقد ازداد وجهه سمرة اقتربت أن تكون سوادا : انت اتأخرت ليه يا أفندي .. قلت دون تدبر أو تفكير .. قلت في انطلاق سريع متجهم لا يقل تجهما ولا سوادا عن الجو الذي ألفيت فيه نفسي : كلهم بيتأخروا .

قال الرجل دون تدبر أيضا وفي تجهم أشد وغيظ أحد : طيب روح دور لك على وظيفة تانيه .

رددت دون تمهل : أدور قوي .

وتركته وانصرفت . وعدت الى مكتبي وعفاريت الأرض و السماء تلعب أمام عيني .. ماذا صنعت ؟ ايه جريمة ارتكبتها ؟ لا شيء .. سوى أنني جئت في الموعد الذي أجيء فيه كل يوم ، ويجيء فيه أيضا زملائي ، كل ما حدث أن سعادة المدير تكرم وجاء مبكرا بعض الشيء ، ولاح له أن يراجع كشف الحضور فوقع ما وقع .. منذ ثلاثة أشهر وأنا أجيء في هذا الموعد دون أن يعترضني أحد ، منذ ثلاثة أشهر ولم أر زكي بك جاء قبل هذا الموعد..هل اذا لاح له لأي طارىء أو لأي سبب أن يجيء يوما ـ بعد ثلاثة

أشهر ـ مبكرا تنطبق السماء على الأرض ٠٠ ويكون انطباقها على رأسى أنا وحدى ٠٠ لا بأس ٠٠ ان الحياة تعلم الانسان كثيرا ٠٠ لم أكن وحدى الذى جاء بعد زكى بك ٠٠ جاء آخرون بعده ، ولكنهم اعتذروا برقة وأبدوا أسفهم والمهم ، وابتسموا فى وجه « حضرة الريس » ورجوه أن يصفح عنهم ٠٠ يصفح عماذا ؟ لاشيء ، ولكنها اللباقة ، وخلق الديوان وتقاليد الديوان ، تتطلب منك أن تعتذر عن لاشيء وتبتسم حتى ولو لم تكن مذنبا ، وترجو حتى ولو لم تكن قد ارتكبت ما يستحق الرجاء والعفو ٠

ولو كنت أخف حدة ، والين عريكة وادنى أن انثنى اذا هبت العاصفة لسارت حياتى فى الديوان اكثر امنا واكثر رخاء ، ولكننى لم استطع أن أكون ٠ كانت المسائل أمام عينى حقا أو لاحق ، واجبا أو لا واجب ٠٠ لامجال اذن للرجاء والتوسل والابتسام والاستعطاف ، ولو ابتسمت فى وجه عبد الحميد أفندى وابديت له أى عذر ولو كان كاذبا ، لانتهى كل شيء ، ولم احتج الى الدخول عند سعادة المدير ٠٠ وهكذا ادركت أن الكذب فى بعض الاحيان يكون أقرب الى قلوب الناس من الصدق ٠٠ لقد قلت لحضرة الرئيس « كلكم بتتأخروا » ومعنى هذا اننى لم أتأخر فلا داعى لأن أسأل عن خطأ لم أرتكبه ٠٠ ولكن هذا الكلام الصادق لم يعجبه ، واحس اننى أهنته أو لم اعطه ما ينبغى أن أعطيه أياه من احترام وتوقير ، فسرعان ما دخل عند سعادة المدير ، ولست أدرى ماذا قال له ٠٠ ولكن لاشك فى انه قال شيئا كثيرا ، كاذبا من غير شك ، لأن الكذب والصدق يختلطان فى نفس الانسان حينما يشعر انه جرح أو أهين ٠٠ وقد أحس عبد الحميد أفندى انه جرح وأهين ٠

وحينما دخلت عند زكى بك كان هو الآخر مستعدا أن يشتبك معى وكان يظن اننى سأرجوه أن يعفو ، ولكننى لم أفعل ٠ لم أكن فى هذه الحالة التى تسمح لى بأن أحكم العقل أو المنطق أو المصلحة ، كنت فى هذه الحالة التى يضطرب فيها العقل والمصلحة والمنطق ، وتبدو جميعا تافهة لاقيمة لها ٠٠ ولو زاد زكى بك فى كلامه معى لزدت معه أضعافا مضاعفة ٠٠ وشعرت مع ذلك اننى مظلوم ٠٠ قلت الصدق لحضرة الريس وقلت الصدق لسعادة المدير ، ولكن الصدق لم يعجب أحدهما ٠

جلست فى مكتبى مضطربا قلقا ، شعرت أن الجو كله حولى قد تغير ، وجه حضرة الريس أصفر كالليمونة ٠٠ ووجوه الآخرين تشعر أن حادثا خطيرا وقع ٠ ما أتفه الدواوين ٠٠ تقوم وتقعد من أجل كشف الحضور ولا تقوم أو تقعد من أجل عمل تأخر أو خطأ وقع أو جريمة

ارتكبت ٠٠ هل قامت وقعدت من أجل كشف الحضور أو من أجل تأخير بضع دقائق ؟ ٠٠ كلا ، انها قامت وقعدت لاننى لم اتبع تقاليد الدواوين ٠٠ لم أرج وأستعطف وأبتسم وأعترف بالتأخير ثم ألتمس العفو والمغفرة ٠٠ان الآخرين يغيبون ســاعات ولا أحد يســألهم ، لأنهم يعرفون كيف يرجون ويستعطفون ويبتسمون ٠٠ أما أنا الذى لم أتأخــر حتى دقيقة واحدة ، وأؤدى عملى خيرا مما يؤديه الآخرون وألتزم مواعيد الديوان أكثر مما يفعل الآخرون فألاقى هذه المعاملة ٠

دارت كل هذه الخواطر فى نفسى وأنا ارقب وجوه الموظفين حولى ، وأراجع عمرى فى عالم الوظائف ، وكان حينئذ لم يزد على بضعة شهور ٠٠وساءلت نفسى : ماذا يكون شأنى اذا طال بى الأمد فى هذا العالم ٠٠ وتمنيت لو تركته ٠٠ تمنيت لو قذفت حضرة الريس وسعادة المدير بالدواة والنشافة وقلت لهم : السلام عليكم ٠٠ لعنة الله عليكم وعلى ديوانكم وعلى كل ديوان ٠

وتوقعت الشر السريع ، ولكن شرا لم يقع ٠ مرت ساعة وساعتان ولم يحصل شيء ٠٠ وانقضى النهار ولم يحصل شيء ، وتتابعت الأيام دون أن أرى شيئا غير عادى ٠ ظللت أؤدى عملى كما كنت أفعل ٠٠ كل ماحدث أن حضرة الريس عاتبنى لأننى رددت عليه ردا فيه شيء من الحدة ، فقلت له انه أيضا خاطبنى بشيء من الحــدة ، واعتذر بأن زكى بك جاء مبكرا وطلب كشف الحضور وانه كان محرجا ٠٠ وقال الرجل : انه أخر الكشف خصيصا الى أن أحضر واوقع عليه ، وان سؤاله لى لم يكن من قبيل التأنيب، ولكنه كان بسبب الحرج الذى كان يعانيه ، المدير يطلب الكشف ملحا ، وهو يستمهله ٠

شكرت له عواطفه ، واعتذرت له عمــا حدث ٠٠ ورجعت المياه الى مجاريها ، أو هكذا تصورت ٠٠ لم أعلق أهمية على الحادث كله ٠

ما أكثر ماكنت غرا جاهلا ٠٠ ما أعمق بحور الدواوين ، وما أكثر ماتخدع المظاهر ٠٠ مهما يكن من أمر ، فقد انسانى مرور الأيام كل ماحدث فى هذا الديوان الصغير ، واستأنفت حياتى وضحكت وابتهجت وأنا أرقب لبيب أفندى والنكلاوى وبرتو أفندى وكامل افندى وحلمى وسائر الطاقم وعم حسين وهو يلهث طالعا السلالم معلنا قدوم سعادة المدير ٠

كان كل شيء يبدو أمام عينى تمثيلية مسلية جدا ٠٠ نظار المدارس يفدون الينا ، فيهم الوان من الناس ومن الخلق ، ما أكثر ما أمتعنى أن

أرقبهم واصورهم وافهمهم واسخر منهم أحيانا دون أن يلحظوا السخرية ، أو يدركوا عمق النظرة التى كنت أنظر بها اليهم ·· الشيخ سيد الألفى وعمامته « المقلوظة » ولسانه الذى لا يكف عن التحيات الطيبات المباركات ، يوهمنى أنه يعرف كبار القوم ، الوزراء والكبراء ومديرى الادارات فى وزارة الداخلية ، فأظهر له الاهتمام وأعطيه من التحيات ما يشاء وأقول ضاحكا : ربنا يجعلنا من بركاتك ياعم الشيخ سيد ·

واحمد أفندى ناصف يدنو بمنشنته الأنيقة وطربوشه وبدلته ، ولم يكن أمره يخفى ، أو يستطيع أن يخفى انه شيخ معمم انقلب افنديا ·· والشيخ حمزة ناظر مدرسة بشير أغا بطوله الفارع ، وصوته الأبله وضحكته التى يتبعها سعال طويل حاد · وجبته وقفطانه وشاله فى البرد الشديد وعباءته التى كان يرتديها أحيانا ، وابراهيم افندى نظيم ناظر مدرسة السلحدار بهندامه الجميل ووجهه الوسيم ، وكلامه القليل واتزانه وطول باله ·· رجل فيه رجاحة عقل وسلامة منطق ·· وآخرون وآخرون ·· كان المكتب لا يكف طول النهار عن استقبال نظار ومدرسين ، فيهم لماحية ذكاء ، وفيهم أحيانا ظل غباء ·· فيهم روح مرح ، وفيهم أحيانا ، روح كئيب ·

لأدع الديوان قليلا يضطرم بما يضطرم به وينبثق عما انبثق عنه فيما بعد ولأعد الى عملى فى الصحافة · كان جو السياسة المصرية حينئذ يضطرم هو الآخر اضطراما شديدا ، وزارة النحاس الأولى فى الحكم ، الانجليز يأتمرون بهـا يريدون اسـقاطها ، أزمة التشريعات التى يريد البرلمـان اقرارها ، وازمة قانون الاجتمـاعات ·· لم تغتفر دار المندوب السامى للنحاس باشا وحكومته انه رفض مشروع ثروت ـ تشيمبرلين فكان لابد أن تبلغ الامور غايتها باحراج الوزارة وارغامها على الاستقالة كنت أحس كما كان كل انسان يحس ان الجو منذر بأحداث خطيرة·ولكننى كنت أتابع عملى الجديد فى السياسة الاسبوعية مقبلا راضيا سعيدا ، كنت أعرف كل يوم تقريبا أشخاصا جددا ·

الشيخ التفتازانى ، لاول مرة أراه · جاء ذات ليلة والساعة قاربت الحادية عشرة يسأل عن الدكتور هيكل ولم يكن موجودا ، فجلس فى مكتبى فترة من الوقت ·· شيخ أنيق لطيف رقيق محدث بارع ··كنت قد سمعت عنه الكثير ·· ومن فى القاهرة حينئذ لم يكن يعرف الشيخ التفتازانى ··؟ رجل طويل عريض ، شيخ فى السمت وعقل يبعد عن المشيخة فى الواقع ·· شيخ طريقة ، وسيد أتباع فى بيته الواسع العريض كالدوار الكبير ، يجلس

بينهم ، هؤلاء المريدون ، وهم خضوع للشيخ الكبير صاحب النسب والحسب فاذا جاء الليل ، فالشيخ علم من أعلام الأندية والسهرات ، يعطى ويأخذ يأخذ ويعطى فى عقل متحرر من كل قيود النهار قيود المريدين والمشيخة العريضة الهائلة ٠

وانست الى الرجل وانس لى وأدرت الحديث أو شئت ان أديره الى الاسلام والدين ٠٠ قال الرجل : ان الناس يخطئون فى فهم الاسلام انه ليس دينا فحسب ، انه قومية أيضا ٠٠ وقال انظر ان المسلم التونسى والمسلم المغربى والمسلم العراقى والمسلم اللبنانى ، يعرف كل منهم صاحبه ويرتاح اليه ، وينسى كل منهم جنسيته وتبقى رابطة الاسلام ٠٠ ان الاسلام رابطة قوية جدا ٠٠ إنه ليس دينا فحسب ، انه نظام كامل من أنظمة الحياة والدولة ٠

وتطور الحديث الى الشيخ محمد عبده والكواكبى وجمال الدين الافغانى والجامعة الاسلامية والجامعة العربية والاستعمار والعلماء ودعوة المندوب السامى لهم لكى يفطروا فى داره ٠٠ وتحدثنا عن مشيخة الطرق فى الاذكار والعهد والاتباع وفائدة الطرق الصوفية ٠٠ ولمحت فى الرجل أفقا واسعا وفهما عميقا ، مع رحابة صدر وطلاقة لسان ٠

وعرفت الاستاذ حافظ محمود لاول مرة ٠٠ شاب رقيق فيه حياء شديد ٠٠ وجه غائرة فيه العينان ، ضيقتان لا تكادان تظهران ، شفتان غليظتان بعض الشىء ، وجه فيه حمرة يزيدها الحياء تعبيرا جميلا ٠٠ أنف مفرطح ولكنه ليس ضخما ٠ اذا خذت وجهه تقطيعا تقطيعا لم تجد فيه شيئا جميلا ، ولكنه اذا نظرت اليه أحسست فيه وسامة ، يتحدث اذا تحدث بصوت خفيض ، ويشير اذا أشار فى رقة ولباقة ، يشعرك انه يعرف الكثير ، وهو فعلا يعرف الكثير عن الاشخاص والاشياء ، ولكنك لاتخطىء فيه بعض المكر ٠٠ حويط ، اذا صح هذا التعبير ، فى طيبة ظاهرة ورغبة فى خدمة اصدقائه والناس ٠٠ لايكاد يتحدث عن الناس بغير الخير وان كان يرغب فى ان يشعرك دائما انه اكثر امتيازا منهم ، وانه يعرف عنهم أكثر مما تعرف ، أو يعرف عن خبايا صدورهم أكثر مما يظهر منهم ٠

أسلوبه شائق وعبارته سهلة ، تستهويك ان تتابعها ، له ديباجة فيها اشراق ، وتصويب الى الغرض دون لف كثير أو دوران ، حريص على انتقاء الفاظه ، فيه نزعة واضحة للسيطرة ، والرغبة فى تزعم الآخرين ، اشترك مع سلامه موسى فى انشاء جمعية « المصرى للمصرى » فلما رأى

أن سلامه موسى استولى على السلطة فى الجمعية ، نافسه بانشاء جمعية أخرى .. اشترك مع أحمد حسين وفتحى رضوان فى جمعية مصر الفتاة وفى جريدة « الصرخة » لسان مصر الفتاة ، واشتغل معهم ، ورافقهم فى جهادهم فترة طويلة ، ثم ادى اختلاف المزاج بين الثلاثة الى افتراقهم شيئا فشيئا ،فأصبح لكل منهم طريقه ومنهجه فى الحياة ، وان ظلت ذكريات الزمالة القديمة اجمل مابقى فى نفوسهم ، وحافظ محمود فيه وفاء جميل . وهو انسان يعتمد عليه ، وقد اتصلت بينى وبينه صداقة طويلة ، لاتزال حتى اليوم بعض ذكريات حياتى الجميلة التى أعتز بها ، ولئن كانت مشاغل الحياة التى رمت كلا منا فى طريق تحول دون التقائنا كثيرا ، فان اعزازى له باق كما هو لم يتغير ، لانه هو نفسه قطعة من حياة شبابى وما تلا الشباب ، وقد مرت فترة من فترات الحياة علينا ، كنا نلتقى فيها كل يوم تقريبا ، وكنت ارقب زيارته كشىء جميل عزيز ، أحرص عليه وارتاح اليه .. زاملته وصادقته وشعرت دائما انه انسان أحس فى الحياة بألم كبير ، وغبنته الحياة كثيرا . وهو قادر أن يكسب ثقة الناس فى يسر وسهولة لما طبع عليه من طيبة ووفاء .. تقلب به القدر والعمل والزمن ، فكان فى كل مرحلة سواء أكانت طيبة أم سيئة انسانا صامدا قويا معتزا بنفسه ، لايقبل الضيم ولا يرضى المهانة .

ولا شك أن الصحفيين جميعا يذكرون له الخدمات الكبيرة التى أداها لنقابتهم ولهم فى الفترة الطويلة التى كان فيها عضوا فى مجلس النقابة ووكيلا لها ونقيبا .

وعرفت الأستاذ محمد أمين حسونة من أدباء الشباب حينئذ ، موظف فى السكة الحديد ، فيه هدوء وانتفاض ورغبة فى التقدم ، يترجم ويكتب ويروى ويحدث ، يعرف شيئا عن كل شىء ، لا يكف عن الحركة والنشاط .. طويل أنيق دائم الابتسام ، مارأيته مرة ساخطا ، تقبل حظه تقبل الراضين المؤمنين .. وكأنما شاء له القدر مصيرا أشبه ما يكون بحياته .. هوت به طائرة كانت عائدة من دمشق منذ سنوات ، فذهب وغيره من غير مصير معروف وان كان قد أضحى معروفا .. وعبر السنين أذكر أمين حسونة، الانسان المهذب العذب، ظل يزورنى حتى بعد أن تركت « السياسة الاسبوعية » وطوحت بى الاقدار والاعمال حيث طوحت .. ظل على وفاء جميل فيه مثل رقته وعمقه وهدوئه .. ظل موظفا فى السكة الحديد الشطر الاكبر من حياته فى أذونات الصرف والايراد ، وظل مع ذلك يكتب ويترجم ويؤلف ويطبع الكتب ويؤرخ لمصر فى الادب والفن والسياسة ،

حتى أختير قبيل وفاته فى منصب فيه بعض التقدير وفيه بعض الاعتراف بفضله وأدبه ٠٠ ولقيته حينئذ ، فاذا هو راض مبتهج ، شاكر لله فضله ٠٠ بعد طول جهد دام أكثر من عشرين سنة ، بدأ الناس يعترفون له ببعض الفضل وبعض الجهد ٠

كان فى مشرق حياته يأتى الى بمقالاته لينشرهـا فى السياسـة الاسبوعية ، وكان يعرض أن يساعدنى فى كل ما أريد أن يساعدنى فيه ، كانت فيه تلك اللمحة العذبة من الصديق الذى يعطى كل شىء لصديقه ٠٠ قال لى ذات مرة : هل تعرف الاستاذ محمود تيمور ؟ قلت : قرأت له وأتمنى لو عرفته ، وما هو الا يوم أو بعض يوم حتى اتصـل بى الاستاذ تيمور ودعانى الى فنجان شاى فى بيته أو قصره فى الجزيرة ، وكان أمين حسونة مدعوا أيضا ٠

وكان مساء فيـه رقة الجـو العذب والصيف الذى بدأت مشارفه ، والمضيف الذى يهمس وكأنه يوحى ، يتكلم وكأنه ينغم ، يتحدث عن الادب وكأنه يتحدث عن أعز شىء لديه فى الدنيا ، كان هذا أول لقاء بينى وبين محمود تيمور ٠٠ لشـد ما أحسسـت وأنا مع الرجل بنبل الأصل كيف يضفى على الانسـان مهابة وجلالا ٠٠ لشـد ما أحسست وأنا أنظر اليه كيف ينطبع النبل مع المولد ، وكيف يرث الانسان خصائص جيل من اسرة كان لها فى تاريخ بلادنا أعظم الذكر وأجمل الأثر ٠٠أنيق فى غير تظاهر ٠٠ كأن الاناقة هبة لا اكتساب فيها ، مهذب لا بسـبب التعليم ولا الثروة ، ولكن خيل لى انه ولد هكذا ٠٠ متواضع فى ترفع ، منتج فى سكون ، نفس راضية وقلب وسع حب الناس جميعا ٠

كان تيمور قد برع حينئذ فى تصوير الشخصيات الشعبية ، ورسم صورا رائعة للاحياء البلدية والشخصيات التى تضطرب بها ، كان يكتب بالعامية ، فتشعر وانت تقرأ له نبضا حيا ، واشخاصا يسعون ويتكلمون ويفرضون انفسهم فرضا ٠٠ لم تكن صورا بالقلم ، كانت صورا بعث فيها الفن الأصيل حياة دائبة الحركة ٠

وعرفت أيضا الأستاذ محمود عزت موسى ٠٠ شاب ضئيل الحجم ، سرعان ما تأنس اليه ، فيه رضى وله فلسفة فى الحياة ٠٠ يسخر من كل شىء ويضحك من كل شىء ، له تعليقـات لاذعة يطلقها فى صوت كأنه الهمس ، يدنو منك ويقترب شيئا فشيئا ، فاذا أنت تشعر أنك لا تستطيع أن تستغنى عنه ، وقد كنت أفتقده اذا لم يجىء ، وأشعر له بوحشـة

اذا غاب ، أوشك أن يكون ملازما لى فى كثير من الأوقات يروى أخبار الناس ٠٠ كل الناس ٠٠ حتى لتشعر أنه لا يوجد فى القاهرة أحد لايعرفه عزت موسى ٠٠ الأدباء والكتاب والفنانون والساسة ورجال الصالونات والمجتمعات ٠٠ وتعجب كيف عرف عزت موسى كل هؤلاء ٠٠ وهو فيما يبدو لك انسان منطو على نفسه ، لا يغشى المجتمعات ولا الصالونات ، كان هذا بعض أسراره ، وما أكثر ما كان له من أسرار ٠٠ يـــكتب اذا كتب في أسلوب رقيق وتحليل بديع ، يميل الى القصص الوصفى ، فيه نزعة أدبية واضحة ، واستعداد أصيل لفن أصيل ٠٠ ولست أدرى لماذا توقف ؟ ٠٠ كان فى مطلع الحياة مبشرا بمستقبل أدبى عظيم ٠٠ لعل الحياة لفتته عن فنه وأدبه ، ولفته فى دوامتها ، فشغلته مطالب الوظيفة والعيش والزوج والولد عن كل ما كان هواه وفنه ورجاؤه وهو فى مشرق الحياة ٠

التأمت من صحبتنا : حافظ محمود وأمين حسونةوعزت موسى وأنا ، صداقة جميلة فيها نبض الشباب الطامح ، وطموح الأيدى الرفيقـــة ، وسلام النفوس التى أحست ذات يوم ، ومصر حينئذ تضطرم بنهضـة عميقة راسية الجذور فى السياسة والأدب والفن والاقتصاد وكل مظهر من مظاهر الحياة ، بأنها لابد أن تفعل شيئا ٠٠ وماذا تستطيع هذه الصحبة القليلة المتواضعة أن تفعل ؟ ٠٠ قلنا نؤلف جماعة الأدب القومي ، وألفت الجماعة فعلا ، كان الأدب أكثره حينئذ مترجما منقولا نقلا أو مقتبســا اقتباسا ،وكله تقريبا لا يعنى بالبيئة المصرية ولا يصدر عنها أو ينبع منها ، وكان كبار الكتاب حينئذ ، العقاد وطه حسين وهيكل والمــازنى والزيات يعرضون لهذا النوع من الأدب بين وقت وآخر ، ولكن كثرة ماكان ينصرف اليه المشتغلون بالأدب هو الترجمة عن الكتاب الأجانب ، حتى طه حسين وهيكل كان كل منهما يترجم فى أكثر الأحيان ، وفيما عدا رواية زينب التى ألفها الدكتور هيكل فى مطلع حياته لم يقدم على محاولة من هذا النوع الا فى وقت متأخر جدا ٠٠ كانت فى الجو الأدبى حينئذ محاولات صغيرة ولكنها صادقة وعميقة للتعبير عن البيئة المصرية ، وانتزاع القصة والصورة والمسرحية منها ٠٠ كان طاهر لاشين ويحيى حقى ومحمود كامل ، وقبلهم تيمور يحاولون أن ينشئوا قصصا مصريا خالصا ، راجعا الى انفعالات مصرية خالصة وحالفهم من التوفيق حظ كبير ٠

وعرفت فيما بعد أديبا سودانيا هو الأستاذ معاوية محمد نور ، كان من المترددين هو الآخر على ندوتنا فى السياسة الأسبوعية ، كانت فى معاوية لمحات من قلق وامتياز مبـــكر ٠٠ كان ـ شأن السودانيـين

المثقفين ــ يجيد الانجليزية اجادة تامة ، ويلم بها الماما شاملا مع احاطة وافية بحركات التجديد الأدبى فى مصر وما عداها من البلاد العربية ..

وكنت ألمح فى وجه معاوية الجميل التقاطيع حدة فى الطبع وانطلاقا من غير حد .. كان أشبه بالماء المنساب بعد سد كان يحتجزه ، فهو يتدفق فى عنف ، حريصا على أن ينطلق ، حريصا فى الوقت نفسه أن يعبر عن نفسه تعبيرا أدبيا فنيا خالصا ، يحاول أن يجعله هادئا جهد الاستطاعة ، ولكن كوامن الثورة تنضح منه فلا يخطىء القــــارىء أن يحس وراء العبارة المهذبة الرقيقة نفسا فيهــــا قلق عنيف وخوف عنيف وانطلاق عنيف .

لم أجد شخصية كشخصية معاوية نور ، امتزجت فيهــــا الثورة بالهدوء ، وتجاورا تجــاورا عجيبا عظيمــا .. كنت المح فى عينيه القلق وفى مخارج ألفاظه الهدوء المضطرم .. وكان يضيق أحيانا بما يلزم نفسه به من هدوء ، أو ما تلزمه به الظروف ، فاذا به ومن غير مناسبة ، وبعد سكوت طويل ، ومن غير سابقة تدعو الى أى انفعال من الانفعالات ، اذا به يقول ، وقد برقت عيناه : أنا قرفان .

ولا أسأله لماذا هو « قرفان » فانه لن يجيبنى .. كنت أحس أن معاوية يخفى فى نفسه سرا أو قلقا أو ثورة أو الما ، يختصها به ، لأن له قدسية تأبى الاعلان .

وكان معاوية يرتدى قبعة ، وجه أسود جميل التقاطيع ، واسنان فى مثل بياض الثلج ، وقوام رشيق ، وصوت فيه قلق واطمئنان ، وعقل فيه معرفة وفهم ، وانسان متأرجح فى الحياة لا يعرف متى يستقر ولا كيف يستقر ، وأحيانا كان معاوية ينظر الى فى وجوم ، وانظر اليه فأشعر أن هذا الانسان فنان عظيم ، ثم اذا بى أراه يقول ومن غير مناسبة : أنا قرفان .. أموت أحسن .

وكان فى شرخ الشباب وميعة الصبا ، صحة تبدو فى مثل قــوة الحديد .. فأضحك وأقول له : انت متشائم ليه يا معاويه ؟

يسكت ولا يجيب ويحاول أن ينقل الحديث الى الأدب والى جمــاعة الأدب القومى .. انضم معاوية الينا كما انضم الينا طاهر لاشين ، وأيد جهودنا وباركها محمود تيمور .

كان أعضاء هذه الجماعة الصغيرة روادا فى مرحلة من مراحل الخلق الأدبى فى مصر جعلت من السياسة الاسبوعية منبرا لها . وكان جديرا

بالسياسة الاسبوعية أن تفعل ، فقد تبلورت فيها حينئذ كل حركة أدبية وكل نزعة أدبية ، وكل اتجاه الى الفكر المتحرر ٠

ما كان أسعدها أياما ، والعود طرى ، ومشكلات الحياة اليومية لا تشغلنا ، كما شغلتنا فيما بعد ، نلتقى والليل موغل ، نلتقى والليل فتى ، ونسهر حتى يشيخ ليست وراءنا مسئوليات ، وليس أمامنا الا سنوات من العمر الباسم والأمل الزاهر ٠٠ الأدب ، القصة ، السياسة ، الدين ، الوطن ، الحرب والسلام ، الصالونات وأخبارها الدنيا كلها كنا نديرها ونبدى فيها آراءنا كأننا ملكناها أو كأننا سنحكمها ٠٠ الأدب القومى ٠٠ نحسب أنه يمكن أن يوجد برابطة أو جماعة من خمسة أو ستة من الشبان ، الأحزاب كنا نقضى فى أمرها حيث نحن ، نوزع الأخطاء والأمجاد ، الحكومات كانت هى الأخرى موضع نقد وتندر٠٠ كل شيء فى مصر وخارج مصر نتحدث فيه ونتحدث عنه ، ما من شخصية مهما تكن كبيرة فى داخل البلاد أو فى خارجها الا كانت فى ندوتنا ومجالسنا موضوعا للتشريح والوزن والتقدير ٠٠ وآراؤنا كأنها وحى الحكمة فى الفهم والدرس الذى لا يأتيه الباطل من أمام ولا من خلف ٠٠ لا بأس بهذه المرحلة الباكرة من مراحل الحياة ، يبدو كل شيء أمامنا وكأن من اليسير تغييره ، ومن اليسير اصلاحه ٠٠ وما أكثر ما كانت تنبت فى أذهاننا فكرة اصدار مجلات أدبية غير السياسية الأسبوعية ، كأننا نحن الذين نحرر السياسة الأسبوعية وحدنا ، كأننا نحن الذين نكفل لها الرواج والنجاح ، ذهب من الصورة ، امام أعين الشباب ، العمالقة : هيكل وطه حسين وعزمى وعبد العزيز البشرى وعبد الحميد حمدى وتوفيق دياب ومصطفى عبد الرازق والدكتور محمد صبرى ومحمد عبد الله عنان واسماعيل صدقى باشا ، وكان أيضا يكتب فى السياسة الأسبوعية ، كتب افتتاحية العدد الأول عن المعرض الزراعى الصناعى العام ٠٠ ذهب كل هؤلاء من الصورة التى أمامنا ، وحسبنا ان جماعة الأدب القومى ستأتى بالجديد الذى لا جديد بعده ، وانها سترث هذا المجد الضخم العظيم ٠

ولم تصدر لنا مجلة صغيرة ولا كبيرة ٠٠ كانت اسمار أمسيات جميلة ، أحلام شباب صغير ، يحسب أن الدنيا بين يديه كالجوارى بين يدى المولى العظيم ٠

وذهبت الى الديوان فى الصباح ذات يوم على عادتى ، فاذا عبد الحميد أفندى يبالغ فى الترحيب بى ، وما هى الا ساعة أو بعض ساعة حتى

أنتقل الى مكتبى وجلس الى جانبى ، وسألنى مشـــفقا : هو انت قدمت استقالة ؟ .

رددت فى دهشة وبراءة : أنا .. أبدا . قال الرجل : الأرزاق على الله .

وقدم لى ورقة لكى أوقع بتسلمها وقرأتها مشدوها مضطربا ، كانت قرارا أصدره الوزير بالاستغناء عن خدماتى ابتداء من أول الشهر التالى ، ولم يكن قد مضى على التحاقى بالوزارة غير أحد عشر شهرا أعنى أقل من سنة ؟ .

استقال عزمى احتجاجا على نقض الدستور

« كثيرا ما تنشأ العقبات فى الحيـاة لأنك تكره أن تخضع أو تنافق أو تتجـاوز حدود الخلق والأمانة » .

كانت تجربة قاسية جدا ، واجهتنى فى مطلع حياتى المبكرة ، بعد اقل من سنة واحدة من معاناة حياة الوظائف ... الناس يفصـلون للرشوة أو العجز أو سوء السيرة أو الاهمال ... وقلما يفصلون حتى لهذا ، انهم يتلقون جزاء اقل من الفصل .. وهأنذا لم اكن عاجزا ولا مرتشيا ولا سىء السيرة ولا مهملا ، ومع ذلك أفاجأ بقرار الفصل .. ماذا صنعت ؟ كيف سارت الأمور حتى أدت الى ما أدت اليه ؟

وماذا يكون موقفى فى الحياة فى المستقبل لم أكن حريصـا على الوظيفة فى الديوان .. ولكن أليست الوظيفة فى الديوان صورة من أى وظيفة فى الحياة ، وأليست الحياة فى الديوان صورة هى الأخرى من الحياة فى أى مكان آخر ...

أصبت بصدمة شديدة ، لا لأن الوظيفة ذهبت منى ، ولكن الأسلوب الذى ذهبت به ، عمق فى نفسى أسى وألما وحيرة .. ماذا أصنع ؟ هل أتقبل أمر الفصل وأنصرف الى شأنى والأرزاق على الله ـ كما قال لى « حضرة الريس » ـ أو أبذل محاولات أخرى ؟

كان لابد ان اعرف سبب الفصل وكيف حدث ؟ ولكن كيف اعرف ، وانا بعد انسان لاصلة لى باحد من كبار الموظفين فى الـــوزارة ولا من المتصلين بالوزير الكبير الخطير الذى اصدر قرار الفصل ... وشعرت بألم قاس ، وانا عائد الى بيتى بعد ان تلقيت أمر الفصل .

لم أقل لاحد ، لا لابى أو لاى انسان آخر ، كتمت كل شىء فى صدرى

انها مشكلتى انا وحدى ويجب ان أحلها وحدى ٠٠وسرعان ماتوالت على خاطرى متاعبى كلها ٠٠ الاهل القابعون فى الريف ، والارض التى لم اسدد بعد كل الاقساط المطلوبة عليها ٠٠ وعملى فى جريدة السياسة والسياسة الأسبوعية هل يطير هو الآخر وأصبح بلا عمل ولا مورد وأنا انسان مثقل بالتزامات كثيرة ٠٠ نعم خشيت اكثر من كل وقت مضى على عملى فى الصحافة وتصورت انه هو الآخر ضائع لا محالة ٠٠ وهكذا الانسان اذا مسه الضر فى ناحية ، تصور أنه سيمسه فى كل خطوة يخطوها ٠

وصباح اليوم التالى ، ذهبت الى روض الفرج ، الى « فيلا » انيقة تحيط بها الازهار من كل جانب ٠٠ وقلت للنوبى المهذب الذى لقينى : ابراهيم بك نور الدين موجود ٠

قال : نعم ٠٠ تفضل ، نقول له مين ٠٠ وأعطيته اسمى ، وجلست فى الفراندة المشرفة على الحديقة أنتظر ٠٠

كان ابراهيم نور الدين عضو مجلس الشيوخ عن دائرتنا ، وكان وفديا فى المذهب والنزعة والحزب ، وصديقا قديما لأسرتنا ، لأبى ولجدى من قبل ، عرفته وعرفنى فى زيارات كان يؤديها لنا ٠٠ ، وزيارات كان يؤديها ابى له ٠٠ عرفنى منذ كنت طالبا ، وكان يشملنى بعطف واهتمام كنت احمدهما له ٠٠ فكرت ان اذهب اليه واعرض عليه امرى ، انه عضو بارز من اعضاء الهيئة الوفدية ، والغرابلى باشا وزير الاوقاف وزير وفدى فى ذلك الوقت ، قلت بينى وبين نفسى : لابد انه يعرف الوزير ، ولابد ان خاطره عند الوزير كبير ، وعن طريقه استطيع ان احل المشكلة التى واجهتنى ٠٠ كنت قليل الامل وانا ذاهب الى ابراهيم بك نور الدين ، لا لأن الرجل قد يهمل أمرى ، فهذا ما لم أكن أتصوره ولكن لاحتمال الا تكون علاقته بالغرابلى باشا حسنة ، او لاحتمال ان يركب الغرابلى باشا رأسه وهو وزير قد يظن ان الوزارة جاءت له على غير انتظار وعلى غير جدارة ، وان من سمات الوزير الخطير ان يصم اذنيه عن سماع الشكوى من خطئه أو من تسرعه ٠٠ كانت أول تجربة لى فى الوساطة ، وشد ما كرهتها منذ نعومة اظفارى ، شد ما احسست بالظلم الذى ينطوى فيها ، وظل كرهى لها مصاحبا لى فى حياتى كلها ٠ كانت تجربة مبكرة ، ومن التجارب المبكرة ما يظل فى النفس وكأنه قد حفر فيها مجرى عميقا لايذهب ولا يذوب ولا تأخذ منه السنين ، بل لعلها تعطيه عمقا جديدا ٠٠ وكرها

جديدا والوساطة ليست شيئا آخر الا الشعور بالضعف وشد ما كرهت أن أشعر بالضعف ، شد ما كرهت أن أقف هذا الموقف .

وبينما انا فى هذه الخواطر ، دخل ابراهيـــم بك نور الدين ، وفى وجه باش رقيق . رحب بى الرجل ترحيبا انســـانى كل ما كنت فيه ، واشعرنى اننى الجأ الى أب ، بل الى من هو احنى من اب ، واغرورقت عيناى بالدموع والرجل يقول : لقد تتبعت نجاحك وتقدمك .. اننى مسرور فانت ابن صديق وحفيد صديق .. انك لا تعرف كم كان جدك رجلا عظيما لقد حمانى من اللصوص والمتسلقين واكلة الحقوق .. كان عمدة لامثيل له .

شجعنى هذا الاستقبال الحافل ، وأفضيت للرجل بكل ما حدث ، فاكتسى وجهه أسفا عميقا ، ثم قال فى عزم : كيف حدث هذا ؟ تعــال ، سأذهب معك الآن الى الغرابلى باشا ..

وفى سيارته الانيقة اخذ الرجل يطرفنى بحديثه الجميل ، وكان أديبا يتذوق الأدب ويروى الشعر .. له صوت جميل فيه تأثير ونغمة تمس القلب ، محام قدير ، أنشأ نفسه بنفسه ، وأصبح فى سنوات قليلة أشهر محام فى الزقازيق ، وجمع ثروة طائلة بجده وجهده ، وجه أبيض ناصع البياض ، فيه حمرة تنافس البياض ، فلا تعرف هل البياض هو لون الوجه أو الاحمرار ، عينان فيهما ذكاء وفم لا يكف عن الابتسام والكلام ، محــام بالشكل والحرفة ، وكأن المحاماة ولدت معه .

وعادت الى ثقتى بنفسى وأنا جالس الى جوار الرجل فى سيارته .. اعطانى بترحيبه الحسن وحديثه الجميل كل ما كنت قد فقدته من أمل ، وما أصاب نفسى من فتور .

وما ان وصلنا وزارة الأوقاف ، وبلغنا سكرتيرية معالى الوزير ، حتى انتفض السكرتير مرحبا بسعادة البيه ... ابراهيم نور الدين بك طبعا، ولست انا .. وما هى الا لحظة حتى انفتح الباب الضخم ، ودخل ابراهيم بك نور الدين وانا معه ... نهض الغرابلى باشا يرحب بالشيخ المحترم ترحيبا حارا ، دلنى على ما بين الرجلين من صلة وثيقة وود اصـــيل ... والتفت الغرابلى باشا بعد أن فرغ من ترحيبه بنور الدين بك وابتسم لى قائلا : أهلا بالأستاذ العاصى .

وابتسمت انا ايضا وسلمت عليه وجلست ، وبدأ ابراهيـــم بك نور الدين كلامه او قل بدأ مرافعته .. كان الرجل يتحدث من كل قلبه

وشعوره وكيانه ·· قال للغرابلى باشا شيئا كثيرا عنى وعن أسرتى وتطرق الحديث الى جدى ··· وقال نور الدين بك : ان اسرته لها فضل كبير على ·· وهو شاب رقيق مهذب مجتهد متفوق فكيف حدث هذا ؟ ··

قال الغرابلى باشا : ليس عندنا ما نأخذه عليه · انه كما تقول مجتهد متفوق ، ولكن يظهر ان وزارة الأوقاف مش عاجباه · كان أولا فى قسم الاستبدال ، فشكا منه رؤساؤه ، لم يكن ينفذ الأوامر ولا يخضع لتوجيهات الديوان ، وهذا مخالف للنظام ، فرأيت أن أنقله الى قسم آخر ، وأوعزت الى المديرين أن يستدعوه ويتحدثوا اليه ·· وأخيرا قررت نقله الى قسم المدارس ، وهو قسم هادىء بعيد عن الوزارة ، وهو من أهم الأقسام فيها وأكثرها نظاما ·· لاحظت أن الموظفين الذين اختلط بهم يكبرونه فى السن جدا ، ورجحت أنه قد يجد جوا من التفاهم أفضل فى قسم المدارس ·· وتابع الغرابلى باشا حديثه : وأنا حأقول لك على سر هو نفسه ما يعرفوش ·· لكن مافيش مانع انه يعرفه دلوقت ، لأنه مبقاش موظف عندنا ، قلت لرؤسائه أن يعاملوه معاملة خاصة ·· نهايته ، بعد مدة قدم لى رئيسه الجديد محمد بك زكى مذكرة طالب فيها بنقله ، لأنه أهانه ورد عليه ردودا شديدة ·· لم أجد بدا فى هذه الحالة من أن أفصله ·· لاحظت أنه غير راض عن عمله ، وهو لا يزال تحت التجربة ·· ثم أنا ما حبيتش أضره فى مستقبله فقررت فصله بالاستغناء ·

وسكت الغرابلى باشا لحظة ثم قال : أنا ما عنديش أى اعتراض ، اذا حب يرجع لشغله ، بس عليه أن يستسمح رئيسه ، لأن رئيسه هو اللى وقعت عليه الاهانة ·

وانتهت المقابلة عند هذا ، وقال الغرابلى باشا وأنا أسلم عليه مودعا : عليك تراضى زكى بك ، وخليك لين شويه يا أستاذ ·

عرفت كل شىء اذن ــ عرفت ان زكى بك قدم مذكرة الى الوزير ·· لم يكن الهدوء الذى تلا المشادة التى وقعت بينى وبينه هدوءا صحيحا ·· كان هدوء التدبير والمذكرات والعقوبات ، ولم ألحظ شيئا ، ولم أفهم شيئا ، قد يكون زكى بك كتب المذكرة بنفسه ، ولم يعلم بها أحد من الموظفين ، وقد يكون أحدهم عرفها ولم يشأ أن يفضى بأمرها الى ··

قابلت زكى بك واعتذرت له عما حدث · قال الرجل : المسألة مش بسيطة يا ابنى ·· لازم نشوف لها حل ·· وأنا لم أطلب فصلك ، طلبت مجازاتك بخصم ثلاثة أيام ·· أنا آسف لما حدث كله ــ أنت لا تستحق هذا ، ولكن لا بأس ، انه درس يمكن أن يعلمك الكثير فى حياتك ·

وقد كان درسا ، هذا صحيح ، ولكن لم يعلمنى شيئا أنتفع به فى حياتى ، بل عمق احساسى بأن الحياة ليست عملا خالصا ، ليست استقامة خالصة ٠٠ أنها محتاجة الى شيء من الذكاء الاجتماعى اذا صح هذا التعبير ، وقد تكون أحسن الناس خلقا واستقامة وعملا وضميرا ، ولكنك قد تجد من هم أقل خلقا واستقامة وعملا وضميرا يجدون من الجزاء خيرا مما تجد ٠٠ وذلك لأنهم يلونون الضمير بشيء من التسامح ، ويلونون الخلق بالقليل من النفاق ، ويلونون الاستقامة بلمحات من الانحراف ٠٠ هذا هو ما أسميه الذكاء الاجتماعى ٠٠ انه ليس الذكاء الأخلاقى ولا الذكاء العملى ، انه مزيج غريب ، لابد أن تصنعه أنت نفسك ، تأخذ فيه من هنا وهناك ، وتجعل له هذا الطعم أو ذاك واذا نجحت فيه فأنت المستقيم ذو الخلق والضمير ، وأنت الناجح المتقدم ، المندوب فى المهمات والملمات ٠٠ وقد تشعر بينك وبين نفسك انك تتجاوز الخلق المطلق والفضيلة المطلقة ، والضمير المطلق ٠٠ ولكن هذا التجاوز هو الذى يوطد الصلة بينك وبين المجتمع ، ويزيل من طريقك العقبات ، وكثيرا ما تنشأ العقبات لأنك تكره كراهية مطلقة أن تخضع أو تنافق أو تتجاوز مقتضيات الخلق والامانة ٠

وقد سوى الأمر فى الديوان ، وصدر قرار الوزير باعادتى للعمل والغاء قرار الفصل مع خصم ١٥ يوما من مرتبى ٠٠ ولكن الحادث ظل مع ذلك راسبا فى نفسى ، وأعظم ما سرنى فيه ، اننى تصرفت وحدى دون أن يعرف أو يحس أحد من أهلى أو أصدقائى ، وشعرت أننى كفء لمواجهة متاعب الحياة واكثر من ذلك لم يستطع احد من اصدقائى ولا من أهلى على الرغم من أن الأزمة رجتنى رجا ، أن يلاحظ شيئا فى سلوكى يختلف عما اعتدت ٠ لم يستطع احد ان يرى فى وجهى علامة ضيق او تفكير او ألم ، وهدأت امورى بعض الشيء ، وعدت اتابع حياتى الرتيبة المنظمة بين الديوان فى الصباح والصحافة فى المساء ٠٠ ومرت الايام ، مرت ثلاثة أشهر أو أربعة حتى اذا كان شهر يونيو سنة ١٩٢٨ ، اذ بنا في جريدة السياسة واذا الافق السياسى المصرى كله يفاجأ باستقالة محمد محمود باشا وزير المالية فى وزارة النحاس باشا الائتلافية ٠ وكانت هذه الاستقالة ايذانا بتصدع الائتلاف ، فقد كان محمد محمود باشا وكيل حزب الأحرار الدستوريين أحد ممثليهم الرئيسيين فى الوزارة ٠٠ ولم تمض سوى أيام حتى استقال أيضا جعفر ولى باشا وزير الحربية ، وهو دستورى أيضا ، واتضح للجميع أن الأمور موشكة أن تبلغ مداها ، وأن الائتلاف يترنح ، وأن القصر سيفتك حتما بالنحاس باشا ووزارته وبالائتلاف

والوفد ٠٠ كان واضحا من قبل أن الانجليز ضاقوا بحكم النحاس باشا ، فأطلقوا يد القصر فى الأمر ، والقصر كان أكثر ضيقا به من الانجليز ٠٠ ولم تكن المشكلة اقالة حكومة النحاس باشا ، ولكن التماس السبب لهذه الاقالة ، ومن هنا كانت استقالة الوزيرين الدستوريين صـــدمة كبرى للائتلاف وموضع فرح كبير عنـــد الانجليز وعند القصر وعند الراغبين فى اغراق سفينة الائتلاف من رجال الأحزاب ٠٠

وكنت بحكم عملى فى جريدة السياسة وثيق الاتصال بهذه الحوادث ، مرهف السمع لها متتبعا لتياراتها ٠٠ كانت كل الآراء والتكهنات ترشـح محمد محمود باشا ، أو اسماعيل صدقى باشـــا للوزارة الجديدة ٠٠ وتولية محمد محمود باشا الوزارة معناها أن حزب الأحرار الدستوريين سيكون الحاكم الأول أو الشريك الأول فى الحكم ، وان جريدة السياسة ستصبح لسانا للحكومة ، وأن الخصومة بينها وبين الوفد ســتعود الى أشد مما كانت وأقسى ٠

وتتابعت الاستقالات ، استقال خشبة باشا وزير الحقانية (العدل) واستقال ابراهيم فهمى كريم باشا وزير الاشغال ٠٠ وما هى الا أيام أخرى حتى أقال الملك فؤاد النحاس باشا ، واستند جواب الاقالة الى أن الائتلاف الذى قامت الوزارة على أساسه قد تصدع ٠ وشعرت البلاد كلها بخطورة الأحداث ، وظهر أن هناك ترتيبا مدبرا من قبل٠لقد أقيلت وزارة النحاس باشا فى ٢٥ يونيو سنة ١٩٢٨ ولم تمض سوى ٤٨ ســاعة حتى صدرت المراسيم الملكية بتأليف وزارة محمد محمود باشا وقد أعطيت له الرياسة ووزارة الداخلية ٠٠ ومما يلفت النظر أن الوزراء الذين استقالوا من وزارة النحاس الائتلافية عينوا كلهم فى وزارة محمد محمود باشا التى خلفت الائتلاف ، عين ابراهيم فهمى كريم باشا وزيرا للاشغال كما كان ، وجعفر ولى باشا وزيرا للحربية كما كان ، وأحمد خشبة باشا وزيرا للحقانية كما كان ٠٠ وأضيف اليهم أحمد لطفى السيد وزيرا للمعارف وعبد الحميد سليمان باشا للمواصلات وحافظ عفيفى باشا للخارجية وعلى ماهر باشا للمالية ونخلة المطيعى باشا للزراعة ٠٠ كانت الوزارة خليطا من الاحرار الدستوريين والاتحاديين ، وكان واضـــحا أنها وزارة جاءت لتنقض حكم الدستور ، وتخضع بصورة أو أخرى للقصر أو الانجليز أو لهما معا ، فلم يكن للحزبين اللذين تتألف منهما غير أعضاء قليلين فى مجلس النواب ، وكان أكثرهم قد فاز تحت ظل الائتلاف ٠٠ وكان واضحا أنها لا تستند الى قاعدة شعبية صغيرة أو كبيرة ، بل كان واضـــحا أنها

جاءت تنكبت ارادة هذه القاعدة وتقضى عليها أو تحولها ـ اذا استطاعت ـ للتيار الجديد ٠

ألم أقل من قبل ان محمد محمود باشا كان يعالج أمور السياسة كما يعالج أمور الدائرة الزراعية ، وأنه كان عينا من أعيان الصعيد ، انتقل الى القاهرة وأرادت الظروف ـ التى لا دخل له فيها ، ظروف الثروة والجاه والتعلم فى أوكسفورد ـ أن تجعل منه شخصية لها وزنها وطابعها وقيمتها فى أفق السياسة المصرية ٠٠ فألف حزبا أو انضم الى حزب ، لم يكن بالنسبة له الا أداة لتولى الحكم ، وبسط نفوذ الاسرات القديمة الكبيرة عليه ٠٠ ولم يكن الأحرار الدستوريون يوما من الأيام من أنصار القصر ولا من أتباعه ٠٠ كانوا على النقيض من ذلك أشد الناس سخطا على سلطان القصر ، وأكثرهم ضيقا به ، ولكنهم من جهة أخرى ، وهم على الأغلب أبناء بيوتات كبيرة عريقة اعتادت أن تعيش فى الريف والقاهرة كما يعيش الأعيان هنا وهناك ، يحسبون أنهم ، بما وهبوا من ثروة ونفوذ ، أعلى درجة من طبقة الفلاحين والمزارعين الصغار ٠٠ لم يكونوا يكرهونهم ولم يكونوا يسيئون معاملتهم ولكنهم لم يكونوا يشعرون أنهم أهل لأن يتساووا معهم فى الحقوق ٠٠ كانوا يكفلونهم كما يكفل الأب الأولاد ٠٠ يحسنون معاملتهم ، ويغدقون عليهم ولكنهم لم يكونوا يسمحون أن يكون لهم غير رأى غير رأيهم أو اتجاه غير اتجاههم ٠ كانوا يسمونهم « رجالتهم » أعنى عصبتهم اعنى الشعب الصغير فى المقاطعة الصغيرة للسيد الكبير ، ومن هنا ضاقوا بحركة الوفد ، وضاقوا بالدستور الذى يقرر حق الاقتراع العام ، لانه يشعر جمهور الشعب بالمساواة ، وهم ـ اعنى الاحرار الدستوريين ـ لا يؤمنون بمساواة الشعب لهم ، وهم السادة ، هم الاعيان الوجهاء ، ابناء البيوتات القديمة ٠

ومن هنا وقع الأحرار الدستوريون فى تناقض انعكس على تصرفاتهم وسياستهم ٠ كانوا من أشد الناس تمسكا بالدستور ٠٠ لكى يحميهم من طغيان القصر ، وكانوا يكرهونه أيضا لأنه يساويهم بالفلاحين أو يجعل للفلاحين مثل حقوقهم ٠٠ كانوا يكرهون سلطة القصر لأنه كان ينظر اليهم كما ينظر الى الفلاحين ، طبقة أدنى من الاتراك والشراكسة ، وكان يضيق بهم ، لأنهم ذوو ثراء ، ومنهم من ينافس العرش فى بعض مظاهره ، وكانوا قبل الاحتلال يعانون الأمرين من اضطهاد الشراكسة والأتراك والولاة وأسرة محمد على لهم ، فلما جاء الاحتلال رأى فيهم طبقة ساخطة على القصر ، فحظوا برعايته فاختصهم واحتضنهم وبسط عليهم حمايته ضد

طغيان القصر ، فاستطاعوا ان يتنفسوا ، ويزدادوا ثراء وجاها ونفوذا ٠٠ وهذا كله كان يضايق القصر ، فلما قامت ثورة سنة ١٩١٩ انضموا اليها لأنها كانت تنادي بالاستقلال ، وهو مطلب طبيعي ، ولأنهم ظنوا أنهم سيكونون حكام هذا البلد متى نال استقلاله ، وسيضيقون من سلطة القصر أو يلزمونه حدوده ٠٠ وعاشوا مع ثورة ١٩١٩ وكانوا من أسنادها الأول ٠ ولما أوغلت الثورة قليلا في طريقها ، واتضح اتجاهها الدستورى الديمقراطى ، وشملت زعامة سعد زغلول جماهير الفلاحين والموظفين الصغار والكبار وأصحاب المهن الحرة من المحامين والاطباء والمهندسين والتجار ، وبدا أن كبار أصحاب الأطيان لن يحصلوا على ما كانوا يأملونه ، وهو أن يخلص حكم هذه البلاد لهم ، بدأوا يراجعون موقفهم ويتحسسون مصالحهم ، وبدأوا يترددون فى تأييد الثورة الى بقية غاياتها ٠٠ ووقعوا فعلا بين نارين ٠٠ اذا أيدوا التيار الشعبى ، فان سلطانهم فى قراهم وأقاليمهم سيضعف ، وسيتساوى بهم من هم أقل منهم فى نظرهم واذا تركوا التيار الشعبى وأرادوا أن يقاوموه لم يجدوا أمامهم الا سلطة الانجليز فى جانب وسلطة القصر فى جانب ، وتعاونهم مع الانجليز يجنى عليهم ولن يفيدهم شيئا الا الابتعاد عن الشعب ، فضلا عن أنه تعاون غير طبيعى ولا مقبول ، واذا تعاونوا مع القصر رموا أنفسهم فى أحضان أعدى أعدائهم ٠٠ ولذلك كانوا فى حيرة شديدة ، ولعل هذا ـ كما قدمت ـ هو الذى جعل موقف الأحرار الدستوريين متناقضا فى كثير من الأحوال ، ولكن الناظر بعمق للامور لا يجد تناقضا ولكن يجد مصلحة وهدفا ، تتحقق تارة مع التيار الشعبى وتارة ضد التيار الشعبى ٠

لقد وقفوا فى سنة ١٩٢٥ ضد التيار الشعبى وارتموا فى أحضان القصر واشتركوا مع الاتحاديين فى وزارة واحدة ، ولكن لم تمض سوى شهور قليلة ، حتى بدا أن القصر يبطش بهم ويتخلص منهم ، ويمعن فى اذلالهم ، فلم يجدوا الا أن ينضموا الى الكتلة الشعبية ويأتلفوا مع الوفد ٠٠ ثم لاح لهم أن قيادة الوفد لا تثق فيهم ولا ترتاح اليهم ، وأنها لا تعطيهم من الائتلاف الا الفتات ٠ أن انتصار الوفد معناه انتصار الفلاحين وضياع نفوذهم فى قراهم وأقاليمهم ، فوقفوا فى نصف الطريق وعادوا مرة أخرى الى القصر ٠

هل عادوا حقا الى القصر وقد لاقوا منه يوما من الأيام المذلة والمهانة، حين أقال كبيرهم عبد العزيز فهمى باشا وتخلص من اشتراكهم فى الحكم ، وأراد أن يحكم البلاد برجاله المخلصين الأوفياء من حزب الاتحاد ، أغلب الظن ان محمد محمود باشا حينما قبل تأليف الوزارة فى يونيو سنة١٩٢٨

كان يظن انه لن يمكن القصر من الانفراد بالسلطة وانه سيستطيع مع أعضاء حزبه ونفوذهم التقليدى فى القرى والأقاليم ومساندة الانجليز له أن يقلل من نفوذ القصر وسلطانه ، وأن يبلغ مع حزبه مبلغ الاتفاق مع الانجليز لحل المسائل المعلقة بين البلدين ، وهم ـ أعنى الأحرار الدستوريين ـ أقل تشددا وأكثر اعتدالا من الوفد ..

على هذه الصورة جاءت وزارة محمد محمود وليست مستنده تماما الى القصر وليست مستندة تماما الى الانجليز ، وليست مستندة تماما الى الشعب ، كانت تأخذ شيئا من كل من القوى الثلاث وتحاول ان توجد نوعا من التوازن بين تطرف الوفد وتشدد الانجليز ، وطغيان القصر .

أما أثر الانقلاب فى الشعب فكان سيئا جدا .. شعر الناس أن هناك مؤامرات دبرت بين القصر والانجليز والأحرار الدستوريين . وأن هدفها هو اقصاء الوفد عن الحكم وافساح المجال لعقد اتفاق تهدد به مصالح الوطن ..

أما أثره فى جريدة السياسة ، فكان حركة وهمة ونشاطا ولمعة من الفرحة المشوبة بالادراك الخفى ان الامر ليس ان سلطان الحكم اعطى للأحرار الدستوريين بطريق سليمة مشروعة خالية من المأخذ ، ولكنه كان نوعا من التدبير الذى لايعد نظيفا كل النظافة ... لمحت فى الجريدة حركة غير عادية ولمحت على الدكتور هيكل اهتماما غير عادى .. لم يكن الرجل مبتهجا ابتهاجا تاما .. كان يحس ان مسئولية الوزارة ثقيلة ، وأن التجربة التى توشك أن تبدأ تجربة قاسية مرة غير مأمونة العواقب .. وكانت التجربة فى عبارة وجيزة هى تحويل الشعب عن الالتفاف حول الوفد ، وعقد اتفاق بين مصر وبريطانيا لحل المسائل المعلقة بينهما .

وكان له أثر آخر فى دائرة أضيق ، فى جريدة السياسة ذاتها ، استقال الأستاذ محمود عزمى من عمله فى الجريدة . رأى أن وزارة محمد محمود باشا اعتدت على الدستور ، اذ قبلت الحكم وليس لها فى مجلس النواب غير ثلاثين عضوا ... كان هذا فى نظره ثورة على الدستور وتمهيدا لطغيان القصر .. وانتهز الفرصة عبد الحميد حمدى واستقال هو الآخر .. ولست أعرف على التحديد ما اذا كان عزمى استقال فعلا من أجل الدستور المعتدى عليه ، أو أنه فعل ذلك لأسباب أخرى فقد كان عزمى ـ كما قدمت ـ غامضا فى كل تصرفاته .. اما عبد الحميد حمدى ، فقد سمعت المرصفى مدير الادارة يقول : وكمان سى حمدى عامل لى ابو على ... عايز يستقيل ... يستقيل ..

وهذا الكلام يشعر انه يرتاب فى ان حمدى يستقيل بسبب الدستور ويشعر بأنه أيضا لا يعتقد أن عزمى استقال لهذا السبب ..

مهما يكن من أمر ، فقد استدعانى الدكتور هيكل مساء اليوم الذى استقال فيه حمدى ـ وكان سكرتيرا لتحرير السياسة ـ وقال لى : يازكى .. حمدى سابنا ، أنا عاوزك تشوف شغله وتاخد بالك من الجريدة .

وابتهجت ، وصدق المثل القائل « مصائب قوم عند قوم فوائد » .. وأصبحت سكرتيرا لتحرير السياسة والسياسة الأسبوعية ، وسرعان ما جلست فى مكان الأستاذ حمدى ، فى غرفته .. ومر هيكل بعد ذلك بقليل فشاهدنى ، وابتسم وهو يقول : الله انت اخترت الأوده دى ، قلت : أنا حارجع أودتى .. بس حاقعد شويه هنا علشان أكون قريب من المحررين .. أودتى أحسن وأهدأ .

قال : انت حر ، الأودتين لك .. اختار اللى تعجبك ..

لم أكن واعيا تماما لمعنى الاعتداء على الدستور .. ولم يشغل بالى هذا الحادث قليلا أو كثيرا ، ربما لأننى استفدت منه ، وربما لأن مجال العمل والتقدم فى الصحافة انفتح أمامى ، وكثيرا ما تتلون المصلحة العامة بالمصلحة الخاصة .. وكثيرا ما يضطرب الحكم على الامور فى ضمير الانسان حينما يكون على مسرح الحوادث ذاتها .. وربما لأننى ـ مع طول عشرتى للاحرار الدستوريين ـ أصبحت أدين برأيهم فى الدستور والحكم البرلمانى ..

مهما يكن من أمر ، فان دوامة العمل الجديد لفتنى مرة أخرى ، فنسيت الدستور والبرلمان والاعتداء عليهما ولم يكن ماثلا أمام ذهنى حينئذ الا أن عملى اتسع فى جريدة السياسة وزاد مرتبى وحسن حالى فى الديوان ، وذهب الوزير الذى فصلنى ، واصطدمت به أكثر من مرة .. ثم مالى أنا وللدستور والبرلمان ، ولم أكن من رجال السياسة ولا من رجال الأحزاب ؟ .. لأدع أمرهما لمن هم أقدر منى على فهمهما وأقدر على التأثير فى الحوادث .

كان هذا موقفا سيئا منى دون شك .. لأعترف ، ولكننى حينما بدأت كتابة هذه المذكرة ، لم يكن فى خاطرى غير أن أسجل ما حدث ، دون أن أحاول ادعاء بطولات لم تقع ، أو انتحال مواقف عظيمة لا وجود لها ..

قال لى صالح علوم باشا

" الراجل ساندنا "

« ونظرت فى أسف ، وأنا أرى « السياسة الاسبوعية » تنهار ، لانها بدات تنساق الى السياسة الحزبية » .

تحولت جريدة «السياسة» الى معسكر وتحول محرروها الى قوم مكروهين منبوذين من الأمة ، وكنت أحس وأنا داخل اليها أننى أرتكب كل يوم ذنبا .. بدأت وزارة محمد محمود باشا أعمالها بتأجيل انعقاد البرلمان شهرا ، فأعلنت بذلك عن سياستها واتجاهها ، واضطرمت الأحزاب كلها بالقلق والسخط ، واضطرمت الأمة كلها بما هو أشد من القلق والسخط ، احتج الحزب الوطنى واحتج الوفد وأعلن حربا شديدة على الوزارة وعلى الانجليز الذين ظهر أنهم يؤيدون الانقلاب ويقفون من ورائه .. والقصر أيضا كان سعيدا لان الامر انتزع من الامة انتزاعا .. وهو لم يعد اليه خالصا ، ولكن عاد بعضه ، من غير شك ، واذا كان الانجليز قد ارتاحوا للانقلاب ، فان اسناده الظاهرين وهو حزب الاحرار الدسور بين وأسرهم واقطاعياتهم وفلاحوهم وأتباعهم .. وما كان أكثرهم حينئذ مصافا اليهم أصحاب المصالح وطلاب الوظائف والمنافع ، وما أكثرهم فى كل وقت ، ثم القصر ، والقصر حينئذ قوة لا تستند الى الشعب ولكن تستند الى مظاهر الملك ، والى شرعية السلطة ، والى الاسر التركية والشركسية والارمنية والارناؤوطية ، وما اليها من الجنسيات غير المصرية أصلا.. يرضيها حتما أن ينتصر القصر، ويرضيها قبل كل شىء أن تنزاح عن الكاهل سلطة الشعب .

كان القصر طامعا أن يتخلص يوما من الأحرار الدستوريين متى استنفدوا أغراضهم واذا كانت السلطة البريطانية تقف فى صفهم ، فهى تقف أيضا فى صفه ، وقد يستطيع يوما أن يستميلها كلها الى صفه ،

ويقنعها بأنه وحده قادر مع حزب الاتحاد، وهو صورة له ، على أن يسيطر على البلاد.. كان توزيع القوى غريبا بعض الشيء.. الأمة كلها فى جانب واقفة من أجل استقلالها وحريتها ، وفى الجانب الآخر كانت قوى الانجليز والقصر والاحرار الدستوريين والاتحاديين متفقة فى الظاهر أمام المد الشعبى الشامل ، ولكنها من حيث التحليل الدقيق ، كان كل منها يأتمر بصاحبه : الانجليز يتخذون من القصر والأحرار الدستوريين وسيلة لتحقيق أغراضهم فى أضعاف الحركة الوطنية وتفريقها والأحرار الدستوريون يتخذون من الانجليز والقصر وسيلة لحكم البلاد والتخلص من سيطرة الوفد على أمل أن يبلغوا هم من ضمير الشعب مبلغ الثقة والنفوذ ، والقصر يتخذ من الانجليز والاحرار الدستوريين وسيلة لتمزيق الحركة الوطنية لحسابه ، وهو السلطة الشرعية التى يمكن أن تقبل بأيسر مما تقبل سلطة الانجليز .

كان هذا هو الوضع، وكانت جريدة السياسة مجالا لهذا التناقض، تُمجد القصر وهى تتمنى له الضياع ، ويبالغ رئيس الحزب الذى تنتمى اليه ورئيس الوزارة فى الانضواء تحت لوائه ، وهو يتمنى لو كان هذا اللواء فى مثل ضيق الرقعة التى تتألف منها الراية .. ومن عبث الأقدار أن الناس الذين وقف رئيسهم منذ أكثر من ثلاث سنوات ينعى على القصر سلطانه وجبروته وطغيانه ، يقف اليوم وكأنه يمجد السلطان والجبروت والطغيان .. ولكن هكذا السياسة لا قلب لها .

وكان الشيخ حامد رئيس المطبعة يتسلم منى أصول المقالات والأخبار بعد مراجعتها ، وكان الرجل يهز رأسه وهو يتسلمها ويقول فى ابتسامة فيها طيبة واشفاق : كل الكلام ده كدب ... ماتتعبوش نفسكم يحيا الوفد ..

وأبتسم فى وجهه أيضا ، وأعرف أنه صادق وأضحك وانا اقول له: يا شيخ حامد .. أكل عيش ..

ويهز الرجل رأسه .. رأسه المثقل بأربعة كيلوجرامات من اللحم على الأقل هى محيط وجهه العريض المنتفخ ، وطربوشه لا يكاد يستر قعر رأسه بينما تبرز من الجانبين بقيته ، وتنتصب نظارته على عينيه، وتنتشر فى وجهه شعرات بيضاء لم يمر عليها موسى الحلاق منذ أيام ... رجل طويل هبيل عبيط ، هكذا يبدو ، ولكنه كان فى حقيقة أمره رجلا حريصا ذكيا من هذا النوع الذى انتشر فى المطابع حينئذ ، أصله شيخ ، صفيف حروف، أخذ يرتقى بالخير والشر، بالصنعة والحداقة واللعبطة الى أن أصبح

رئيس مطبعة السياسة ٠٠ وكان وهو يرتقى السلالم الصغيرة الموصلة بين غرفتي وبين حديقة الدار ، أحس بها ترتج ، وهو يلهث لما يحمل من شحم على جسمه ، وما يحمل من هم في قلبه ٠٠ كان وفديا صميما ٠٠ او قل كان شعوره مثـل شعور بقية الشعب ، ضيقا بالحـكومة ، وضيقا بسياستها التى اتجهت الى الغاء الدستور وحكم البلاد بالحديد والنار ٠

وقد سميت حكومة محمد محمود فعلا حكومة اليد الحديدية ، لأنه أعلن أنه سيحكم البلاد بيد من حديد ، وسينقذها من الفوضى ٠٠ ولم يكن أحد يعرف اين هى الفوضى ؟ هل هى فى مطالبة الشعب بأن يحكم نفسه أو هى فى البرلمان والدستور ٠٠ ولكن هكذا أكد محمد محمود باشا ، وأكد أيضا أن حكومته ستعنى بالاصـلاحات الداخليـة ، ستردم البرك والمستنقعات ٠ وكان من المتناقضات أيضا أن يشترك فى الوزارة لطفى السيد ، وهو الذى أفنى شبابه يدعو فى « الجريدة » الى الديموقراطية ويحارب الطغيان ، هو الذى استهدف فى أوقات كثيرة لغضب القصر فى أوائل هذا القرن .. ولكن تفسير هذا التناقض يسير ، فان الأحرار الدستوريين كانوا قسمين كلاهما ممتاز، احدهما يمتاز بالثقافة العالية، الأوربية فى الغالب ، مثل مصطفى عبد الرازق وأحمد لطفى السـيد والدكتور هيكل والدكتور طه حسـين ، والآخر يمتاز بالجـاه والنفوذ الاقليمى والأسرى أمثال : أسرة عبد الرازق وأسرة محفوظ وأسرة خشبة وأسرة محمود باشـا سليمان التى ينتمى اليهـا رئيس الوزارة ورئيس الحزب ٠٠ وكلا الفريقين فى الحزب كان ينظر الى الدستور والبرلمان على أنه وسيلة لأن يتيح للحزب الممتاز حكم البلاد ، فاذا لم يفعل ، فالعيب فيه ويجب أن يفصل بحيث يطابق أوصاف السادة أصحاب الامتياز ٠

وجنى هذا التغيير أو هذا الانقلاب على «السياسة الاسبوعية» جناية كبرى وكانت « السياسة الاسبوعية » الى هذا التاريخ ، أبعد ما تكون عن السياسة الحزبية ، وكانت عملا ناجحا وبارعا ، شق فى الحياة المصرية طريقا لم يسبق لها مثيل ، وتبلورت حوله الاتجاهات الادبية والفنية ، وأقبل عليـه الناس من كل الاحـزاب والهيئـات والنزعات ، وكان قراء السياسة الاسبوعية لا ينظرون الى لون الدار التى تصدرها من الناحية السياسية ، ولا الى لون محرريها السياسى ، لأنهم كانوا يقرأون أدبا وفنا وبحثا جامعا نافعا فى كل الأحوال٠٠ولكن حزب الأحرار الدستوريين ، أو القائمين عليـه ظنوا أن رواج السياسة الاسبوعية يمـكن أن يستغل لخدمة السياسة الحزبية والمبـادىء التى تنادى بهـا حكومة محمد محمود باشا ٠

كانت جريدة « السياسة » قبيل الائتلاف وفى اثنائه رائجة رواجا يعد عظيما فى هذه الايام ، كانت تبيع حوالى ٣٠ ألف نسخة ، فلما وقع الانقلاب الدستورى انحط توزيعها انحطاطا كبيرا وذهبت كل الجهود التى بذلت لانقاذها عبثا ، وكان أن حولوا « السياسة الاسبوعية » شيئا فشيئا عن خطتها الناجحة القائمة على البعد عن السياسة الحزبية ، فأخذت تنشر الصور الكاريكاتورية السياسية الملونة ، وكانت من حيث الاخراج واتقان الرسم فتحا جديدا فى الصحافة المصرية ولكنها من حيث الاثر فى الرواج أشبه بدش ماء بارد على نار حامية ٠٠ وأقرب تصوير لهذا أن « السياسة الاسبوعية » ، مسخت مسخا ، وأصبحت تطالع الناس كل أسبوع بوجه انكروه منها غاية الانكار ، وربما كنت أنا أشد الناس اسفا وألما لهذا ، كنت أنظر الى السياسة الاسبوعية نظرة حب واعزاز وكأنها شىء قريب الى نفسى ممتزج بها امتزاجا، كنت أراها ندوة ومجالا جميلا للرأى والفكر والادب والنقد ، على صفحاتها تربى جيل كانت له القيادة فى الفكر والفن والأدب والصحافة فيما بعد ، وقد جاء اندماجها فى السياسة الحزبية بمثابة هدمها من أساسها ٠

وكنت أنظر اليها وفى قلبى حسرة ، وكنت اصنعها مع ذلك ، وقد افضيت الى الدكتور هيكل بكل هذه الخواطر قلت له : تمنيت لو ظلت « السياسة الاسبوعية » على نهجها القديم ، تمنيت لو ظلت خالصة لرسالتها التى التزمتها ٠٠ ووافقنى الرجل وفى قلبه مثل الحسرة التى فى قلبى ، وبدا لى أنه أيضا مغلوب على أمره ، وان قرار استخدام «السياسة الاسبوعية» فى الخلافات الحزبية كان قرارا من الحزب ، وأن ملكية الجريدة وقد كانت خالصة للدكتور حافظ عفيفى قد آلت آخر الأمر للحزب ، وشأنها فى ذلك شأن جريدة ، «السياسة» اليومية .

وسارت الأمور من سىء الى أسوأ ، فبعد أن انتهى شهر التأجيل للبرلمان ، استصدر محمد محمود باشا مرسوما ملكيا بحل البرلمان وتعليق الدستور ثلاث سنوات قابلة للتجديد ، وكان قرارا خطيرا جدا ، بل كان قرارا فيه ثورة عنيفة لم تشهد البلاد لها مثيلا من قبل ، واجتمع البرلمان الذى صدر المرسوم بحله فى دار مراد بك الشريعى بعد أن عجز عن الاجتماع فى دار البرلمان لأن الحكومة احاطتها بقوات البوليس والجيش وحالت دون الوصول اليها ، وأصدر البرلمان فى هذا الاجتماع قرارا بنزع الثقة من الحكومة القائمة لانها ثائرة على الدستور ، واعتبار كل تشريع تصدره باطلا بطلانا أساسيا ٠

وكما اشتدت المعارضة للحكومة على هذه الصورة اشتدت هى الاخرى فى أجراءاتها الاستثنائية ، فاعادت العمل بقانون المطبوعات القديم ، وأصبح لها سلطة الغاء الجرائد ووقفها ٠٠ عطلت جريدة البلاغ ومجلة روز اليوسف وجريدة وادى النيل وأنذرت الاهرام وكوكب الشرق ٠٠٠ وأخذت تشن حربا عنيفة على أعضاء البرلمان لتشويه سمعتهم ومضايقتهم فى أرزاقهم ومحاولة اتهامهم بالحق والباطل ٠٠٠ وقد شهدت شيئا من هذا ٠٠٠ كنت فى مكتبى بجريدة « السياسة » واذا بسيدة رومية أو ايطالية تدخل على ٠٠ كان واضحا انها من بنات الهوى ٠ زينة باهرة فاجرة ونظرات خائنة ظامئة ٠ امرأة تاجرت بكل شيء وتجردت من كل شيء ٠٠٠ ملابس أنيقة ومع اناقتها صورة شوهت كل اناقة ، امرأة كأنها تنادى الرجل ، أى رجل ٠٠ واستأت وأنا أرحب بها ، وما كدت أفعل حتى انطلقت فى لهجة نصف عربية ، نصف رومية قالت انها جاءت تشكو شخصا معينا ، وكان هذا الشخص عضوا فى البرلمان المنحل ، قالت انه خليلها أو صديقها أو عشيقها ... كانت ألفاظها جارحة صريحة .. قالت انه عاشرها ووعدها بالزواج ثم تخلى عنها ، واندفعت تروى ليالى الغرام بينها وبينه فى أسلوب ضايقنى ، وصراحة أحرجتنى وانصرفت عنها ، أو تظاهرت بعدم الاهتمام بأمرها ولكنها لم تكف عن الحديث .. أخذت تطعن فى النائب المحترم وتصفه بشتى النعوت والأوصاف ...

قلت لها : وماذا تريدين أن نصنع لك ياسيدتى ٠٠٠

وكان سؤالا أعرف أنا جوابه ٠٠ لا بد أن هذه السيدة سمعت أن جريدة «السياسة» وحزبها يتسقطان أخطاء النواب والشيوخ السابقين، ويريدان أن يطعناهم فى شرفهم وكرامتهم ، وسمعتهم ، فجاءت الينا نحن الكلاب المسعورة لكى نقضى على النائب المحترم ، نحن باسم السياسة الحزبية ، وهى باسم العلاقات الغرامية ، لكى نجبره على أن يعوضها أو يتزوجها سترا للفضيحة ٠

أجابت : الجرنال ... تكتبوا فى الجرنال دا راجل ... وانطلقت فى شتائم كثيرة ٠

قلت لها : لحظة ياسيدتى ٠٠ ودخلت عند الدكتور هيكل وكان قد سمع ضجتها ، فقد كان صوتها عاليا قال : ايه الحكاية يازكى ؟ —

لخصت له الموضوع وأنا مشمئز وأشهد أن الرجل كان أكثر اشمئزازا منى .

قال : اصرفها .. وصرفتها ولكنها خرجت تشتم وتلعن وتصخب .

كان هذا أيضا سلاحا من الأسلحة التى استخدمت فى سبيل تشويه سمعة رجال البرلمان المنحل ، أما سائر الأسلحة فكانت أيضا أقسى واشد ايلاما..لم تكن الناحية الاخلاقية فحسب ، كانت هناك أسلحة الضرائب والرهون العقارية والعموديات واضطهاد البوليس والمراقبة .. كان كل شىء مباحا بصورة مزعجة ... لا الصحافة لها وزن ولا القانون له حرمة، ولا البرلمان له وجود.. كانت أدوات الدولة موجهة لمقاومة خصوم الحكومة حينئذ وهم الشعب كله .

واستغلت جريدة السياسة أيضا ماسمته وثائق قضية سيف الدين، ونشرت هذه الوثائق بالزنكوغراف فى صدر صفحاتها، وقالت أن مصطفى النحاس باشا والاستاذ ويصا واصف وجعفر فخرى بك اتفقوا مع والدة الامير أحمد سيف الدين على اتعاب باهظة لرفع الحجر عنه واشترطوا أن يستحق مؤخر الاتعاب بعد كسب الدعوى .. وقالت ان الاتعاب باهظة ، بل ان القضية نفسها لم تعط لهؤلاء المحامين الا نظرا لمراكزهم السياسية .. واحيط نشر الوثائق باتهامات عديدة أقلها استغلال النفوذ ، وقدم المحامون الثلاثة الى مجلس تأديب المحامين ، وكان مؤلفا برياسة حسين درويش باشا وعضوية محمود سامى بك وبهى الدين بركات بك وعبد المنعم عسكرى بك .

وكان القصد من هذا كله ، الاستمرار فى حملة التشويه للمطالبين بالدستور واجلاء حكومة محمد محمود باشا عن مقاعد الحكم ..

وصدر الحكم بتبرئة المحامين الثلاثة ، فكانت البراءة صدمة قاسية للحكومة ولجريدة السياسة ولمحمد محمود باشا ، ولكن الحملة لم تقف بل ازدادت ضراوة وازدادت تجردا من كل حق وعدل ... اضطرم النضال السياسى الحزبى كما لم يضطرم ابدا من قبل ، وانقسم الوطن انقساما خطيرا ، وأحس كل انسان أن المعركة لا بد بالغة نهايتها .. ولم يكن ينقضى يوم دون أن تنطلق شائعة من هذا الحزب أو ذاك ، وجرت فى هذه الايام عبارة كان ينطقها الذين يعرفون الانجليزية والذين لا يعرفونها ، المتعلمون والجهال هى No Change ومعناها انه لا تغيير هناك ، والكلمة كانت تنسب عادة الى دار المندوب السامى البريطانى، وأحيانا الى لندن نفسها.

كان أنصار الحكومة والمنتفعون من ورائها اذا قابلوا الوفديين قالوا لهم فى تحد No Change وكان الوفديون من جانبهم يطلقون شائعات مضادة ٠٠ كان الجو مضطربا لا من الناحية السياسيه فحسب ، ولكن من الناحية النفسية أيضا ، وكان القصر يتربص والحكومة تتربص ودار المندوب السامى تتربص والشعب يتربص ، الثلاثة الاولون يريدون ان تنجح التجربة مع افتراق فى نوع النجاح ، القصر يريد أن يخلص له وجه الحكم ، والحكومةتريد أن يخلص لها وجه الحكم ، والانجليز يريدون أن يخلص لهم الامر كله ، يلعبون بالقوى كما يشاؤون ٠٠ اذا رأوا أن الحكومة تقوى ، اغروا بها القصر ، واذا رأوا أن القصر يطغى ، اغروا به الحكومة ٠٠ كانوا مع رغبتهم فى نجاح التجربة ، لا يريدون أن تخرج الخيوط من أيديهم ، أو تذهب الفريسة من بين أنيابهم ، وكانت الفريسة هى الشعب ٠

ذات مساء دق جرس التليفون فى مكتبى ، واذا المتحدث هو صالح لملوم باشا من مغاغة ٠٠ سألنى الرجل وهو مضطرب : صحيح المندوب السامى حينشال ٠٠ ؟

قلت له : أبدا ٠٠ مش صحيح ٠٠ قال : الله يسترك ٠٠ أهو الراجل ساندنا ٠

كان هذا التعبير الريفى البسيط يلخص الوضع أجمل تلخيص واعمقه .. «الراجل» اهو ساندنا ، والراجل هو جورج لويد المندوب السامى البريطانى ،من أشد الناس تحمسا للتجربة التى يقوم بها محمد محمود باشا ٠ وكان خروجه من منصبه معناه التغيير وبقاؤه معناه الا تغيير هناك ٠٠ واطمأن صالح لملوم باشا وابتهج ٠

وشهدت فى هذه الاثناء ولاول مرة فى حياتى افواجا من النصراء الحزبيين ،المعلم أحمد داود ٠٠ لست أعرف ما هو مصيره الآن ٠٠ كان رجلا طويلا رشيقا صعيديا له وجه نحاسى ، وعين فيها ذكاء وصوت فيه حشرجة ٠٠ كان يدخل ، وعلى رأسه عمامة أو شبه عمامة ، وعليه جلابية تتناسب مع طوله الفارع ، وفى يده عصا طويلة ٠٠ ويقول : أهلا ، مساء الخير يا أستاذ .. فأرحب به ويجلس ، واذا وراءه كوكبة من العمال.. عمال امبابة ، كان المعلم أحمد داود هو رئيس عمال امبابه ، أو هكذاكان يقول ، ويؤكد أنهم فى يديه لا يمكن أن يخرجوا منها ، ويؤكد أيضا أنهم

كلهم أحرار دستوريون .. ويهتفون وهم داخلون غرفتي ، يحيا محمد محمود باشا .. وكثيرا ما ساءلت نفسي ، هل يستطيع هؤلاء الناس أن ينطقوا بشيء من هذا في الشارع ، انهم لو فعلوا لفتك بهم الناس فتكا .

ــ قهوة للمعلم .. كازوزة ... شاى .. لأخينا ..

ولم يكن لى شأن بأعمال الحزب ، ولكن وجود الجريدة فى المبنى نفسه الذى يوجد به الحزب ، كان يلزمنى أحيانا أن أستقبل مثل هذه الوفود .

ويجرى الحديث بيني وبين الوفد المؤيد لسياسة الحكومة والجريدة، ويرتفع صوت المعلم أحمد داود : تعرف يا أستاذ . كل الناس مع الباشا .. (والباشا هنا هو محمد محمود باشا) كل الناس بتحبه .. هو بقى فيه وفدجية فى البلد .. الباشا الله يستره لبسهم طرح .. دول نسوان .. ايوه أجدع واحد فيهم مايقدرش يرفع عنيه فى .. امبابة كلها فى ايدى .

وينصت زملاؤه القادمون معه ، ويضعون رؤوسهم فى الارض ويمصمصون بشفاههم : صحيح يا معلم ..

انهم كاذبون مائة فى المائة ، المعلم وصبيانه ، ولم يكن معه أكثر من خمسة أو ستة ، يصحبهم كلما زار الجريدة أو الحزب .. وقبل أن يدخل يهتف ويهتفون ، فنعرف ويعرف كل واحد فى الجريدة أو الحزب انه المعلم أحمد داود ..

كان أهم من المحررين ، وأهم من الكتاب والادباء .. كان يدخل مكاتب التحرير وكأنه صاحب البيت ونحن عالة عليه .. ولا بد من تقديم الشاى والسجاير والقهوة ..

وبين وقت وآخر تنشر « السياسة » برقية تأييد من المعلم أحمد داود رئيس نقابة عمال امبابة للباشا ، وفيها امضاءات لا نعرفها ولا يعرفها ..

ويجيء الدكتور حامد المنزلاوى .. رجل فى لسانه عشرون راديو ، وفى عينيه مليون أشعة تذهب هناوهناك ، وأسنانه غير نظيفة ، وضحكته أوسع من فمه ، وكلامه أضخم من جسمه .. رجل قصير لا يكاد يظهر من الأرض ، على رأسه طربوش عاش من أيام فرعون ، وله يد لا تكف عن الحركة .. أفندى ، دكتور هكذا كانت تكتب « السياسة » مؤيد خطير

من مؤيدى محمد محمود باشا ٠٠ تلقفت أمره صحف الوفد فقالت ان هذا الدكتور زائف ٠٠ وتحدت جريدة السياسة أن تذكر لها متى حصل هذا الدكتور على شهادته ، وأين هى عيادته ؟

ولم يكن الدكتور حامد المنزلاوى دكتورا ولا حاجة ٠٠ كان طبيب أسنان من تحت السلاح ، أخذ الحرفة بالمران والمزاولة ، وليس بالتعليم والشهادة ٠٠

وأراد الدكتور هيكل أن يرد على هجوم جرائد الوفد ، وكان واضحا أن الدكتور حامد المنزلاوى ليس دكتورا ، وحار الدكتور هيكل ماذا يقول ٠٠ قال وهو متضايق : يسموهم ايه اللى زى حامد المنزلاوى ٠٠ دا مش دكتور صحيح ٠٠ قلت له : ان جرايد الوفد سمته صانع أسنان٠

وكانت جريدة السياسة ودار الحزب ، يوم يجتمع الحزب ، تمتلىء بالعمد والاعيان من أقصى الصعيد والوجه البحرى٠٠ الباشوات والبكوات يدخلون قاعة الاجتماع وهم ينبثون فى مكاتب التحرير وغرف الحزب ، أصناف وأشكال، شيلان من الغالية والرخيصة تلف رقابا غليظة ورقيقة، عمائم من كل الانواع ، ضخمة وصغيرة ، انيقة ومبهدلة ٠٠ وهات ياقهوة ٠٠ وهات يا كلام ٠٠ لا تسمع الا كلمة « الباشا » من وقت الى آخر ٠٠ والباشا هل يوجد غيره ٠٠ هو محمد محمود باشا ٠

وينفض الاجتماع ويخرج أعضاء الحزب ، منهم الوزراء وغير الوزراء، فيهرع الأعيان والعمد والمنتظرون من كل الأنواع والثقافات ، أفندية وعمال وعلى رأسهم المعلم أحمد داود وصانع الاسنان حامد المنزلاوى ، يهتفون من الاعماق ، ويصرخون ويجرون ، وينحنون يلثمون أيدى الباشاوات والبكوات ، وفى كل لثمة هتاف بالحياة أو دعوة بطول العمر ٠ وفضلك علينا ٠٠ وربنا يخليك لنا ، ولا تعدم أن تسمع فى هذا الوقت شتما متصلا للوفد ، وتأكيدا انه خلاص انتهى ، والبركة فى الباشا ربنا يطول عمره ٠

ويخرج الباشا محمد محمود ، فاذا ضجة ، وهتاف عال ، وان كان الهاتفون قلائل ، وحركة غير عادية ٠٠ جند وضباط من طرف الحكومة

التى يملكها الباشا وزملاؤه ·· ويسير الباشا ·· رأس مرفوع ويد مكنونة ، ونظرة استهانة ورضاء وضيق ونبل ومروءة وشهامة ·· فيها كل المتناقصات التى فى الدنيا ، رئيس قد الدنيا ، رئيس حزب قد الدنيا الانصار من يمين وشمال ، والتأييد من يمين وشمال ، ولكنه بينه وبين نفسه ، يعرف أن كل هذا باطل من الباطل ·· ولكن من يدرى ، لعله لطيبة قلبه ، كان يظن أن الشعب كله أصبح يؤيده ··

الليل موغل ، وأنا منصرف الى عملى ، أراجع الأخبار والمقالات والشيخ حامد واقف بظله الضخم وابتسامته الساخرة وهو يقول لى : انت بتصدق الكدابين اللى بييجوا هنا ويقولوا البلد كلها بقت مع الحكومة ··

وأرفع عينى من الورق ، وابتسم وأنا أجيبه : أنا ما بصدقش حد ، ويقول الرجل : والله انتم صعبانين على ·· مافيش فايدة ، البلد كلها وفدية ··

وفجأة أجد أمامى الاستاذ محمد محمود بدير المحامى الشرعى ، نصير قديم مهم من نصراء الاحرار الدستوريين ·· رجل فيه لباقة وقدرة على الحديث ، طويل نحيف، يلبس طربوشا وبدلة ونظارة·· حييته وجلس واستأذنته فى أن أنصرف قليلا الى انجاز عملى ، حتى اذا فرغت منه وانصرف الشيخ حامد ·· جاء زوار آخرون ·· وكان يسرنى أن يكون فى غرفتى أكثر من واحد ، لأنهم يستطيعون أن يتحدثوا بعضهم الى البعض الآخر ، بينما انصرف أنا الى عملى ، مشتركا معهم من وقت الى وقت بكلمة أو ملاحظة خاطفة من هنا وهناك ··

وبعد فترة قصيرة، لمحت الاستاذ بدير يمسك بورقة صغيرة ويكتب فيها عبارة صغيرة ، ثم يسلمها لى وأنا منهمك فى عملى ، وقرأت الورقة ، فاذا فيها : ان لجنة شباب الأحرار الدستوريين يريدون أن أرأسها ·· وابتسمت له شاكرا ، وأومأت برأسى بما معناه أن نؤجل الحديث فى هذا الموضوع الآن ··

ولما خرج الزوار ولم يبق الا الأستاذ بدير ، أبديت له أسفى واعتذارى ، وقلت : انه أولى بهذه الرياسة ، لأنه يوفق فيها أكثر منى ، ولأن واجبى فى جريدة السياسة لا يتيح لى الوقت المناسب لهذا العمل ٠

وخرج الاستاذ بدير ، وساءلت نفسى : أين هم هؤلاء الشبان من الأحرار الدستوريين ، لا بد أنها لجنة شبيهة بلجنة المعلم أحمد داود ٠٠ فئة من المرتزقة الذين يريدون أن يصطادوا فى ماء الصراع الحزبى منفعة أو وظيفة أو منحة ٠٠ وما أكثر ما كان الصراع الحزبى حينئذ يتيح للمتطفلين من الناس أن يحصلوا على الوظائف والمنح ٠٠

ويجىء صالح على عيسى السودانى ، وقد فتح فمه عن آخره وبرزت أسنانه ، ورد طربوشه الى الوراء ، ومعه حزمة الصحف التقليدية، وبيده عصاه ٠ التى لم تكن تفارقه ٠ ويقول وهو يضحك فى وجهى No Change

« قل الزوار أو لم يصبح هنـــاك زوار على الاطلاق • أصابها ما كان يصيب الجرائد الحزبية حينما يأفل نجم الحزب الذى تنتمى اليه » •

العموديات فى الريف لا احد يعرفها الا من عاناها ، وعلى الرغم من اننى كنت كثير العمل فى القاهرة ، فاننى كنت افرغ من وقت الى آخر ، كل اسبوعين او كل شهر ، فاذهب الى الريف اقضى فيه ليلة استروح فيها نسماته العذبة ، واستعيد ذكريات طفولتى ، وارعى شئون الذين تركتهم وكان يمكن ان ابقى معهم ، لبست طربوشا وبدلة وحصلت على التعليم فى الجامعة ، وكان يمكن ألا أتعلم وألا ألبس بدلة ولا طربوشا ، ولكن أمسك فأسا أدق بها فى الارض كما يدقون •

وأنا فى جريدة الحكومة ، فالحكومة لا بد أن تكون تحت أمرى ، هذا هو منطق الريف •• كنت اعود ــ اذا ذهبت الى الريف ــ وفى جيبى طلبات توظف ، وطلبات تعويض عن أرض ضاعت فى مصرف أو طريق عمومى وتأخر صرف مايستحقه صاحبها ، وطلبات انشاء طريق زراعى، واحيانا انشاء مدرسة وفى أحيان كثيرة تعيين عمد ومشايخ •• وكنت أبتسم وأنا أقبل هذه الطلبات وأقول لأصحابها اننى لا حول لى ولا طول، لست محمد محمود باشا رئيس الحكومة ولا انا وزير فيها ولا سلطة لى، فيقولون وهم واثقون : يا ابو عبد القادر •• احنا عارفين كل حاجة تحت امرك •• انت كل يوم بتسهر مع دولة الباشا •

وعبثا أحاول أن أصحح أغلاطهم وعبثـــا أحاول أن أذكر لهم أننى انسان صغير لا شأن لى مع الحكام ولا اصدقاء الحكام •• ويقول الشيخ سليم وهو يحدجنى بنظرة ذات مغزى : قول كلام غير ده •

واصر على الا اقول كلاما (غير ده) ويصر هو على اننى صاحب شأن وصاحب سلطان ، وكان الريفيون معذورين فى هذا الظن ، كانوا يجدوننى اوقع باسمى فى جريدة الحكومة ، ولا يعدمون ان يقرأوا ان رئيس الحكومة زار الجريدة أو أنه أفضى اليها بحديث أو تصريح ٠٠ لا بد أننى ألقاه كل يوم ، ولا بد أنه على استعداد أن يستجيب لطلباتى ، ولم أكن ألقى رئيس الحكومة ولا احدا من الوزراء واذا حدث ان لقيت أحدهم ، فلم يكن مابينى وبينهم يتيح لى أن أرجو أو أطلب ٠٠ وشد ما كرهت الرجاء والطلب ٠

ولو اقتصر الامر على قريتى لهان الامر لكن القرى المجاورة كان لها الاخرى نصيب ٠ كنت ارى فور وصولى الى القرية (الركايب) يتابع بعضها بعضا ٠٠ و (الركايب) اذا لم تكن من ابناء الريف هى الحمير والبغال تحمل اصحابها ، يسعون بها من قرية الى قرية ٠٠ ولم اكن اعرفهم ، ولكنهم كانوا اصدقاء اسرتنا ، وفى الريف مجاملات وعلاقات يصعب ان تفهمها او تهضمها ، ولكنك لاتستطيع الا ان تشعر انها تراث من تقاليدنا ٠

وكان ابى كثير الاشفاق على ، يريد ان يحبنى الناس فلا اردهم ، ويعرف عنى أكثر مما يعرف طلاب الحاجات ، فيقول لى ، ابذل ، ماتستطيع ولا عليك اذا لم ينجح مسعاك ٠٠ عدهم بالخير ، ان الناس هنا يتبعون المثل المعروف : « لاقينى ولا تغدينى » ، ولم اكن احب ان اتبع هذا المثل، كنت أتبعه مرة وأنساه مرات ، فأعتذر بأننى لا أستطيع أن أفعل شيئا ٠

وخلا منصب العمودية فى قرية مجاورة ، وقال ابى : ان الشيخ (وسمى شخصا اعتدت ان اراه بين زوار بيتنا منذ كنت طفلا وصبيا) مرشح لهذا المنصب ، ألا تستطيع أن تساعده ٠٠ ان أمره سيعرض على لجنة الشياخات بعد أسبوعين ٠٠ ولو أراد المدير أن يعينه لتم التعيين ٠

كان مدير الشرقية حينئذ هو احمد فهمى حسين باشا ، وكان احد المديرين المعروفين بعداوتهم للوفد فى هذا العصر ، وقد اشتهر بهذه الصفة أيضا ، هارون أبو سحلى باشا ، وعبد السلام الشاذلى باشا ، ونيازى باشا ، كان هؤلاء المديرون ، هم طاقم الاحرار الدستوريين ثم طاقم اسماعيل صدقى باشا بعدهم ٠٠ وكانوا حقا اداريين من الطراز الاول ، وكانوا من الطراز الاول قبل كل شىء فى متابعة الوفديين والتضييق عليهم ٠

وحينما عدت الى القاهرة ، انتهزت فرصة وجود احمد فهمي حسين باشا عند الدكتور هيكل ، وافضيت اليه بالأمر ، ويظهر ان الدكتور هيكل لم يكن مصغيا تماما لقصتي ، فقال :

ـ انت عاوز تعمل عمدة يازكي ٠٠ ؟

ضحكت وقلت : وهل هذا ممكن وانا اشتغل بالصحافة ؟ قال : وهل الصحافة وظيفة ؟ ٠ يمكنك الجمع بين الاثنين ٠٠ قلت تبقى اول سابقة في تاريخ الصحافة ٠

ضحك هيكل من قلبه وقال : والله دى تبقى لطيفة ٠٠٠ عمدة وصحفي ٠٠ ووعدني فهمي حسين باشا ببحث الأمر ، وارتحت لأنني اديت ما طلبه الى ابى ٠ ولم يكن تعنيني النتيجة ، بمقدار مايعنيني انني وجدت الفرصة وقمت بالوساطة المطلوبة ٠

وقال فهمي حسين باشا : لما تيجى الزقازيق أبقى فوت على ٠

وحادث خطير في الريف في هذا الوقت ان يستقبلك المدير ، وان يحتفل بك ، وقد استقبلني فهمي حسين باشا احسن استقبال في مكتبه بالمديرية ، بمجرد ان وصلت وابلغه السكرتير انني موجود ٠

وتنادت القرية والقرى المجاورة بالنبأ العظيم ، وشعرت بزهو كبير ٠٠٠ شد ماكنت صغير التفكير محدود التصور للامور حينئذ ٠٠ تولتني مرة أخرى الروح القبلية وأنا أرى أهلي وأصدقاءهم يفرحون لأن ابنهم استقبله المدير بالترحاب والتكريم ، والمدير حينئذ شخصية مهيبة خطيرة عظيمة ٠٠ وعدت الى القرية ، والناس ينظرون الى باكبار شديد ٠

ـ والله الولد فلح ٠٠٠ ربنا يخليه ٠٠ دا الباشا المدير ما بيعرفش يتنى معاه كلمة ٠

وسمعت اكثر من هذا ٠٠ واني لاعرف بأنه كله زور وباطل ٠٠ ولكنني لم اكن مستطيعا ان انفيه ، ولعلني لم اجهد نفسي في نفيه ، لابأس به يذيع بين الناس ٠٠ وما اكثر ما يذيع بين الناس من اباطيل ٠٠ وفي مقابلتي للمدير ، لم اتخلص من لعنة العصر ، ولم اتردد في ان اؤكد ان المرشح الآخر للعمودية وفدى ٠٠ هل كنت انا حرا دستوريا ؟ لقد اجبت على هذا السؤال من قبل وان لم اجب ٠٠ قلت ان الجواب نعم ولا ، وهذا أصدق تعبير ، فلم أكن في واقع الأمر حرا دستوريا وكنت في واقعه حرا دستوريا ٠٠ كنت أشتغل في جريدتهم وأحبهم وأعرفهم أو أعرف

أكثرهم ٠٠ وهأنذا وأنا أتوسط فى تعيين عمدة ، أستخدم نفس السلاح الذى يستخدمونه ٠٠ ماذا بقى لكى اكون حرا دستوريا ؟

اغلب ظنى ان آرائى السياسية لم تكن قد تبلورت فى هذه السن الباكرة ٠٠ او قل اننى كنت مشغولا فى زهوة الاتصال بالباشوات والحكام بما يشغل به شاب صغير : مركز لا بأس به ٠ ومرتب لا بأس به ، واسم لا بأس به ٠ ومستقبل ٠٠ من يدرى ٠٠٠ لعله ايضا لا بأس به ٠

غمرتنى كل هذه الأشياء ، فأنستنى أشياء أخرى ٠

وجنت على مقابلتى للمدير من ناحية اخرى ، فقد كثرت التوصيات والوساطات المطلوبة منى ، وكنت اقبلها مبتسما واعدا بالخير ، دون ان اصنع شيئا الا اذا رأيت مظلوما فى حاجة الى من يرفع عنه الظلم ٠ كان هذا هو طابع العصر ، وكان هذا هو منهجه ، ولم أكن مستطيعا أن أنجو من العصر ولا من منهجه ٠

وانضم الى تحرير « السياسة » الاستاذ محمد خالد ، وكنت اعرف الاستاذ خالد من قبل ، وارى فيه رجلا بنى نفسه بنفسه وكافح حتى بلغ مبلغا حسنا فى عمله الصحفى ، استطاع ان يكسب فى سهولة ثقة الساسة الذين اشتغل معهم ، ولم اكن اتصور ان يقع بينى وبينه احتكاك صغير او كبير ، ولكن هذا هو ماحدث ٠٠٠ جاءنى منه خبر استهله كما يلى : ارسل الينا مراسلنا بالاسكندرية رسالة ٠ فعدلت المقدمة كما يلى : بعث الينا مراسلنا بالاسكندرية برسالة قال فيها ، وكانت وجهة نظرى واضحة، فان استخدام « أرسل ومراسل ورسالة » فى عبارة صغيرة متقاربة تعقيد لفظى ، او هو تركيب غير جميل الوقع على الاذن ولكن هذا التعديل البسيط المعقول الذى اجريته فى عبارة الاستاذ خالد أثاره وآلمه ، وراح يشكونى الى الاستاذ المرصفى مدير الادارة ، والى الدكتور هيكل رئيس التحرير ، ولم يحدثنى احدهما فى هذا الشأن ، ولكننى سمعت الحكاية كما وقعت من آخرين ٠٠ قال الأستاذ خالد : صحيح هو « يقصدنى » معاه دبلوم حقوق لكن مش معنى كده انه يغير لى فى اسلوبى وفى كتابتى ٠

ولم يكن مثل هذا الحادث مما يضايقنى فى قليل او كثير ، فقد كنت اعرف ان قيامى بسكرتيرية تحرير السياسة والسياسة الاسبوعية فى مثل هذه السن ، وفيها محررون اكبر سنا واقدم مما لابد ان يثير زوابع كثيرة من هذا النوع ٠

وبينما الامور تسير على هذا النحو ، اذا بنبأ مفاجيء يجيء من لندن بفوز حزب العمال البريطانى فى الانتخابات ، وتولى مستر رامزى ماكدونالد رياسة الوزارة الجديدة ، واحس الجميع فى مصر ان الامور ستتغير حتما ، وجاءت الانباء بعد ذلك مسرعة باستقالة لورد جورج لويد المندوب السامى البريطانى فى القاهرة ، والحامى الاول لوزارة محمد محمود وتجربة محمد محمود ... وتهاوى انصار الوزارة ، ونشط خصومها .. كان واضحا ان فى تغيير المندوب السامى ايذانا بتغيير الوزارة كلها ، بل والسياسة كلها ، وكان محمد محمود باشا فى انجلترا حينما وقع هذا التغيير المفاجيء ، واظهر مستر هندرسون وزير الخارجية البريطانية رغبته فى ان يبحث مع رئيس الوزارة المصرية المسائل المعلقة بين البلدين ، وجرت بين الطرفين محادثات شاملة ، كان محمد محمود باشا يريد ان يقصرها على الغاء الامتيازات الاجنبية ، بينما رغب الجانب البريطانى أن تكون شاملة لأوجه الخلاف كلها بين البلدين .

ولم تكن مفاوضات بالمعنى السياسى المفهوم .. كانت عرضا من الجانب البريطانى لما يراه كفيلا بحل المسألة المصرية ، ولم تستغرق هذه المحادثات سوى ايام قليلة ، انتهت بمشروع اتفاق او معاهدة عاد بها محمد محمود باشا من لندن ، واشترط الجانب البريطانى موافقة البرلمان المصرى عليها ، ورد محمد محمود باشا بأنه سيعرضها على الشعب المصرى والبرلمان المصرى .

وتناقلت المحافل الوفدية النبأ ، وتولاها فرح عظيم .. واستقبل الشعب كله هذا التغيير الواضح بالابتهاج ، بينما اصيبت جريدة السياسة وحزب الاحرار الدستوريين بالغيظ والكمد .. وقالت الجرائد الوفدية ان محمد محمود باشا لم يكن الا ساعى بريد وأنه لم يتفاوض مع مستر ارثر هندرسون ، كل مافى الامر انه سلمه مشروع المعاهدة لعرضه على الشعب المصرى ، وعلى البرلمان المصرى .. فلا بد من استقالة الوزارة ، لكى تخلى الامر بين الشعب وبين حقوقه .

وفى هذه الاثناء تولى الاستاذ على عبد الرازق رياسة تحرير جريدة السياسة اذ كان الدكتور هيكل مسافرا ، وادار المعركة الناشبة بين جرائد الوفد ، وجريدة السياسة ، وكانت المعركة غير متكافئة .. طلعت جرائد الوفد ، وما اكثرها ، تصلى حزب الاحرار الدستوريين نارا حامية، تسخر منه ومن اليد الحديدية ومن السنوات الثلاث القابلة للتجديد .. وتقول للحكومة اذهبى الى جهنم ، الى الشيطان .. ان رئيسك لم يكن

الا ساعى بريد .. ان مستر ارثر هندرسون لم يرض ان يفاوضه لانه لايمثل احدا .

ولم يكن امام جريدة السياسة الا ان تبين مافى الاتفاق الجديد من مزايا ، وان تقارن بينه وبين مشروع ثروت ـ تشامبرلن وتنسب ماتضمنه من مكاسب الى جهد محمد محمود باشا مع ارثر هندرسون والى وطنيته.. وطنية محمد محمود باشا ، وكتب الاستاذ عبد الرازق مقالا فى الرد على حكاية ساعى البريد ، وحار فى العنوان الذى يختاره ، وكنت فى مكتبه وهو فى هذه الحيرة ، وسألنى ماذا يكون العنوان فاقترحت ان يجعل العنوان : « نعم .. ساعى بريد ولكن تتقطع دونه اعناقكم » ، واعجبه العنوان وقال فى ابتسامته الرقيقة التى تخفى الكثير من الدهاء والطيبة: انت كويس أوى فى العناوين يا استاذ .

وكانت تحية لا بأس بها من رئيس التحرير الجديد .. واصر الوفد على اجراء انتخابات وتأليف البرلمان الجديد ، ثم عرض مقترحات هندرسون عليه ، ورفض ان يبدى رأيه فيها الا تحت قبة البرلمان . وشاع فى هذا الوقت تعبير « تحت القبة » .. كان الوفديون اذا قابلوا الدستوريين قالوا لهم « تحت القبة » فيرد الدستوريون « لا .. خارج القبة » .. كان رأى الدستوريين ان يبدى الشعب رأيه قبل انعقاد البرلمان ، ثم تتولى حكومة محمد محمود باشا اجراء الانتخابات وعرض المقترحات على البرلمان الجديد .

وكان واضحا ان الدستوريين يقاتلون فى معركة خاسرة ، وايد سير برسى لورين المندوب السامى الجديد وجهة النظر الوفدية ، وهو تأييد كاف لكى تسير الأمور على صورة معينة . استقال محمد محمود باشا ، وأصدر الملك فؤاد مرسوما بتكليف عدلى يكن باشا تأليف الوزارة الجديدة لاجراء الانتخابات واعادة الحياة الدستورية .

كانت وزارة انتقال لا اكثر ولا اقل ، وعرف الكل ان الوفد قادم لا محالة ، وحصل على ٢١٢ مقعدا من ٢٣٥ ، والف النحاس باشا وزارته الثانية فى يناير سنة ١٩٣٠ وفيها حسن حسيب باشا للحربية وواصف بطرس غالى باشا للخارجية ونجيب الغرابلى باشا للحقانية وعثمان محرم باشا للاشغال ومحمد صفوت باشا للزراعة ومكرم عبيد للمالية والنقراشى باشا للمواصلات وبهى الدين بركات للمعارف ومحمود بسيونى للاوقاف، وعين عدلى يكن باشا رئيسا لمجلس الشيوخ .

واصيبت جريدة « السياسة » بما تصاب به الجريدة الحزبية اذا تولى

عنها نجم الحكم ، قل زوارها الى حد قاتل ٠٠ او قل لم يعد يزورها أحد الا اصحابها وانصار حزبها ، بل ان فئة من اعضاء الحزب قد قللوا من زيارتها ايثارا للعافية ٠٠ وما لهم ولهذا النجم الآفل ٠٠ أولى بهم ، ان لم يستطيعوا ان يكونوا بعض النجم المشرق ، ان يكونوا فى ظلال ضوئه بعيدا عن هذا النحس الشامل ولكن الدكتور هيكل ظل صامدا قويا ، يكتب معارضا حكومة النحاس وحكم الوفد ، مثيرا الموضوعات الدقيقة ، يمس فى عنف او رفق مايستطيع ان يمسه ٠

وأصيب القصر أيضا بنكسة شديدة ٠٠ بدا ان نجم الوفد الطالع يكسف ضوءه ، ولكنه لم يسكت ، وما ان قام النحاس باشا بمفاوضاته مع هندرسون بتفويض من البرلمان ، وما ان انتهت هذه المفاوضات بالفشل وعاد النحاس باشا من لندن يقول كلمته المشهورة « لقد خسرنا المعاهدة وكسبنا صداقة الانجليز » ٠٠ ما ان حدث هذا حتى ادرك القصر ان الانجليز بدأوا يتحولون عن الوفد اليه او الى غيره من خصومه ٠

وتلقفت جريدة « السياسة » هذا الفشل هى الاخرى ، وظلت تشعل فيه النار وتتندر على هذه الكلمة العجيبة ٠٠ اذ كيف يخسر الانسان المعاهدة ويكسب صداقة الانجليز ٠٠ وقالت ان الوفد كالخادم المذعور يتمنى ارضاء سادته ٠

وانشب القصر اظافره فى عنق الوزارة ٠٠ رفض ان يوقع مشروع مرسوم بقانون بمحاكمة الوزراء الذين يعتدون على الدستور أو ينقضون حكما من احكامه ، او يعبثون باموال الدولة ورفض القصر ايضا ان يسمح للوزارة بتعيين اعضاء مجلس الشيوخ واصر على ان يتولى هو اختيارهم وتعيينهم ، واستقال النحاس باشا ، وقال فى كتاب استقالته انه لم يتمكن من تنفيذ البرنامج الذى قطع على نفسه عهدا بتنفيذه ولم يكن قد انقضى على توليه الحكم غير ستة اشهر ٠

وفى جلسة مجلس النواب ، اعلن النحاس باشا انه عند ما تولت الوزارة الحكم قطعت على نفسها عهدا ان تصون احكام الدستور واعدت مشروعا لهذا الغرض ، ولكنها لم تتمكن من تقديمه الى البرلمان ، وقال احمد ماهر باشا : سمعتم بيان رئيس الوزراء ويجب أن تسمع البلاد تأييدكم له فى هذا الموقف المشرف ٠

وتولى اسماعيل صدقى باشا رياسة الوزارة الجديدة فى يونيو سنة ١٩٣٠ بالاشتراك مع توفيق رفعت باشا للحربية وعبد الفتاح يحيى باشا

للحقانية وحافظ حسن باشا للاشغال والزراعة وعلى ماهر باشا للمعارف وحافظ عفيفى باشا للخارجية ٠

ولم يراع صدقى باشا فى تأليف وزارته حزبا معينا ، ولكنه راعى الاشخاص الذين يمكن الاستعانة بهم فى المهمة الثقيلة التى هو مقدم عليها ٠٠ وكانت مهمة ثقيلة فعلا ٠٠ تخلى عن عضويته فى حزب الاحرار الدستوريين ، وكان هذا بذاته ايذانا بانه ينوى ان يعمل لحسابه ، دون ارتباط بحزب من الاحزاب ، ومع ذلك فان الدكتور هيكل قال لى غداة تأليف الوزارة ، وكنت اسأله عن طابعها : اعتبرها وزارتنا ٠٠ تماما كوزارة محمد محمود باشا ٠

وربما أوهم صدقى باشا أصحابه الأحرار الدستوريين بأنه سيعمل لهم ومن اجلهم ، وانه انما تخلى عن عضوية الحزب لظروف خاصة وربما ينجح فى مهمته ٠٠ كان صدقى باشا لا يريد أن يخسر أحدا ، ويرى أن يستعين بكل الناقمين على الوفد الى أن يستطيع كسر شوكته ، فاذا خلا له الجو فلن يعنيه الأحرار الدستوريين ولا غيرهم ٠٠ وهو من طبقتهم ولكنه يحسب نفسه أذكى من رئيسهم ، ولماذا لا يكون هو المحرك لسياستهم ، وقد حاول أن يفعل ذلك بوسائله واساليبه ، ولكنه لم ينجح ٠

وفى هذه الأثناء التحق الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى بتحرير جريدة السياسة ، ٠٠ كانت تجربة جريدة «الكشاف» التى أصدرها أحمد عبود باشا قد فشلت وكان المازنى رئيسا لتحرير هذه الجريدة ، فلما أقفلت ابوابها التحق بجريدة السياسة وقد أذيع عن المازنى حينئذ أن قدمه مبروكة ، وانه لا يكاد يتصل بجريدة حتى تقفل أبوابها ، وكان الرجل مظلوما من غير شك ، فان فتح الجرائد واقفالها بيد الله وحده ٠٠ ولكن ماذا يصنع الناس فى الشواهد والسوابق وهى كثيرة ٠٠ رأيت المازنى حينئذ لأول مرة ٠٠ رجلا قصيرا كثير الحديث ، دائم النكتة ، واضح البهجة مستهينا بكل شىء أو هكذا تصورته ٠٠ كان يكتب المقال الافتتاحى فاذا فرغ منه انتقل الى غرفة الدكتور هيكل وتلاه عليه ٠

كانت فى المازنى سخرية لاذعة ونكتة واضحة ٠٠ وكثيرا ماكنت أسمع هيكل يقهقه وهو يستمع الى مقاله ٠٠ فيهز المازنى يديه القصيرتين ويقول : يستاهلوا ٠

كان الرجلان يظنان انهما يقتلان الوفد بهذا الكلام ٠٠ ولم يكونا فى

الواقع يبلغان منه شيئا ·· وكان المازنى يظن أن البلد سيخرب اذا تولاه الوفد ·· كان يقول : ان صدقى باشا هو الرجل المناسب للظرف المناسب، كان يعتقد اننا مقبلون على أزمة اقتصادية شاملة ، وان صدقى هو وحده القادر على انقاذ السفينة ·

وما كان أيسر كتابة المقالات السياسية فى هذا الوقت ·· بضع عبارات مرصوصة مزوقة فى كثير من الأحيـــان ، دون أن يكون هنـــاك فكرة ولا رابطة ولا منهج ·· الاقوى هو الأقدر على أن يشتم ، والأبرع هو الأقدر على أن يدمى خصمه ·· أما أن يقنعه أو يقتنع هو فمسألة لم تكن فى حسبان أحد ، وندر أن يتناول المقال الافتتاحى فى جريدة يومية حينئذ موضوعا دون أن يعدد افضال الحزب ويشـــتم خصومه ، لم يكن مقبولا ولا مفهوما ، ولا هو مما يقع عـــادة أن يتناول الكاتب موضوعا عن السياسة الاقتصادية أو الاجتماعية ، واذا فعل فمن الجانب الحزبى أيضا، ومع ذلك فان القراء كانوا يطيقون هذا ويقبلون عليـه اقبالا شديدا ، وكانوا يشيدون بالكتاب الســـياسيين حينئذ لا بمقدرتهم على الجـدل والمناقشة العقلية الهادئة ، ولكن بمقدرتهم على تحقير خصومهم ·· كانت أقرب التهم وأكثرها تداولا التواطؤ مع الانجليز وخيانة الوطن ·· كان كل حزب يتهم صاحبه بان الانجليز يسندونه ، وان الوطنية عنده ليست الا رداء ظاهريا فقط ·

وكانت «السياسة الأسبوعية» فى هذا الوقت تحتضر ، تضعف تحت ضغط السياسة الحزبية ، وتضعف من الناحية الأدبية أيضا ، وحدث حينئذ أن كتب الاستاذ محمد أمين حسونة مقالا هاجم فيه المازنى ·· ونشرت المقال فى السياسة الاسبوعية · لم جد فى مقال أدبى ينحو نحوا أدبيا خالصـــا ويعبر عن رأى معين فى كاتب معين من النـاحية الأدبية ما يحملنى على أن أمنع نشره ·· صحيح كان المازنى محررا فى السياسة ، ولكنه أيضا أديب كبير ، من حق أى انســان أن ينقده ·· ولكن ما ان ظهر العدد ، حتى غضب المازنى ، وراح يشكو لهيكل هذا الهجوم عليه وقال له : ما بقاش الا ننشتم فى الجرائد اللى بنشتغل فيها ، ونادانى الدكتور هيكل ، وكان غاضبا جدا ، وقال : كيف تنشر مثل هذا المقال ؟

قلت له : نقد ، ولا مانع من نشره ·· هل مفروض على السياســة الأسبوعية أن تحمى من النقد المحررين المشتغلين فيها · قال فى حدة : دا كلام فارغ ·· لما واحد ينتقدنى نقد زى ده اناأحطه تحت جزمتى ·

لم أكن أعهد فى هيكل انه ضيق الصدر على هذه الصورة ، ولكننى أدركت أنه تحدث وهو منفعل ٠٠ قلت له : أنا آســف جدا ٠٠ أنا غلطان ٠٠ عرفت دلوقت ان فيه ناس ممنوع نقدهم ٠

وكان كلامى فيه اعتذار ، ولكن فيه تنديدا خفيا ، واشعارا ان حرية النقد الأدبى لا تحميها السياسة الأسبوعية كما تصورت وكما تصــور هيكل نفسه ٠

قال وهو يغلى من الغيظ : انت مش حتبطل الفلسفة دى ٠

تبسمت وقلت له : أنا آسف مرة أخرى ٠

ومضت أيام ، وانتهزت فرصة صــفاء بينى وبين الدكتور هيكل واعدت فتح موضوع المازنى والنقد الذى وجه اليه ٠٠ وقد تعمدت أن أفعل ، لأننى بينى وبين نفسى كنت مؤمنا أن هيكل الذى غضب منذ أيام لنقد وجه الى المازنى ليس هو هيكل الذى تتلمذت عليه وأعرف انه من أشد أنصار حرية الرأى ٠٠ قلت له : لقد غضبت من نشر مقال الاستاذ حسونه ، ولكننى لم أعرف وجهــة نظرك تماما ٠٠ كنت غاضــبا ، وفى غضبك لا أنتظر أن أتلقى منك رأيا ولكن أمرا ٠٠ وأمرك أطيعه ولكن رأيك هو الذى أريده ٠٠ هل ترى انه لا يجــوز أن ينقد انســـان فى جريدة يشتغل بها ٠

ضحك الرجل من قلبه وقال : لقد انتقدنى كثيرون فى السياسة الأسبوعية ونشرت نقدهم ٠

قلت : ولكنك غضبت لأن نقدا نشر فى السياسة الأسبوعية عن المازنى ٠٠ قال : جاءنى وهو غاضب ، وهدد بالاستقالة ٠٠ وسكت لحظة ثم تابع حديثه : عقله كده ٠

قلت : وانت تقر هذا النوع من التفكير ، قال : تأمل قليلا ٠٠ ان الانسان فى كثير من الأحيان لايحل المشكلات بالرأى ولكن يحلها بشىء آخر ربما كان ضد الرأى ٠٠ كان هناك انسان غاضب حساس شــعر انه جرح ٠٠ فلا بأس أن أشـــتد عليك حتى يرضى ، ثم أنت تعرف كل شىء ٠

ووقع بينى وبينه خلاف حول مقال رفضت نشره ، وذهب صاحبه به الى الدكتور هيكل فنادانى أمامه واعطانى المقال وعليه توقيعه بنشره ،

ونظر الى الرجل الجالس بشيء من الشماتة ، ولم يكن هيكل يعرف شيئا عن تطورات الموضوع ، وفهمت خطـأ انه يعرف كل شيء ، فاستشطت غضبا ، واندفعت سريعا ، لاأعرف كيف حدث ولا كيف تفاعل فى داخلى ، فقلت فى حدة : المقال ده مش حيتنشر ٠

ضحك هيكل وهو ينظر الى وقال : انت عندك كام سنة ٠٠ قلت له : ٢٢ ٠

ضحك أكثر وقال : طيب علشان خاطرى انشره ٠٠ بكره تتعلم كتير ٠

... وأصبحت بلا عمل

« ما هى امانينا ؟ ما هى أحلامنا انها ليست الا مصيدة يضعها القدر فى طريقنا لكى يحلو طريقنا ٠٠ »

ما أعجب طبائع الأشياء ٠٠ انها لتفرض نفسها فرضا وتملى ارادتها املاء ٠ بدت فى جريدة السياسة وفى حزب الأحرار الدستوريين دلائل النهاية التى لا نهاية غيرها ٠٠ كنت أسخر من القائلين : ان قدم المازنى مباركة ، وانه لا يدخل جريدة الا يقفلها بالضبة والمفتاح ، ويشاء الله أن يقفل أيضا جريدة السياسة ٠٠ وهو لم يقفلها بطبيعة الحال ، ولكن قدمه المباركة مستها بجناح من رحمته ٠٠ كان الدكتور هيكل رئيس تحرير « السياسة » والسياسة الاسبوعية ، لم أتلق أمرا أو توجيها من غيره ، ولم أشهد أن قبضته ضعفت فى وقت من الأوقات ٠٠ صحيح ، انه كان لا يعنى بشىء غير أن يكتب مقاله السياسى ، وفيما عدا ذلك كان يكاد يترك الامر كله لى ، ولكننى كنت أعرف أننى أتلقاه منه وليس من أحد سواه ٠

لم أشعر بحزب الاحرار الدستوريين كعنصر فعال فى الجريدة أبدا ، ربما كانت توجيهاته يتلقاها هيكل ، ولكن العاملين فى الجريدة نفسها لم يكونوا يشعرون بشىء من هذا ، وفيما عدا الزيارات التى كان يقوم بها الدكتور حافظ عفيفى ، وفيما عدا المرات القليلة التى كان يدعونى فيها لمقابلته فى مكتب الدكتور هيكل ويشير على بأن أضع هذا أو ذاك أمام هيكل ، لا أذكر أن أحدا فى الحزب وجهنى أو وجه غيرى أو تدخل فى شئون التحرير من قريب أو بعيد ٠٠

ولكننى لمحت فى الأيام الأولى لوزارة اسماعيل صدقى باشا جوا

لم آلفه ٠٠ لمحت مديرا جديدا للادارة يليها ، هو الاستاذ محمد على دلاور ٠٠ تركى مائة فى المائة ٠٠ رجل طويل ، كثير الحركة ، بادى النشاط ، لا يكف عن التنقل فى ابهاء الجريدة وغرفها ، محدثا أينما سار وأينما أقام ضجة ٠٠ شارب كث ووجه فيه سمرة وملاحة ،وصوت فيه جهارة ، وحنجرة فيها رغبة فى الامر والزعيق ٠٠ ذكرنى بوكلاء الدوائر الزراعية واتباع الامراء ورجال عهود مرت بمصر ، وكانوا فيها أصحاب الامر وما هم بأصحاب الامر ، صوت سيده ، ومع ذلك تنظر اليه فتشعر كأنه صاحب الامر كله ٠٠

من الذى جاء به ٠٠ ؟ من الذى عينه ٠٠ ؟ من المؤكد أنه ليس الدكتور هيكل ٠٠ ومن المؤكد أنه بعض رجال الحزب ممن بدأوا يدسون أنوفهم فى شئون الجريدة ٠٠

وذات يوم قيل لى ان الاستاذ مسعد الكردانى التحق أيضا بتحرير السياسة ٠٠شاب أنيق رقيق، ابن ذوات ، أو هكذا بدا لى، واستغربت أن يشتغل مثله بالصحافة ، وكانت حينئذ عمل المساكين من الكادحين ٠٠٠ من الذى جاء به هو الآخر ٠٠ ؟ من المؤكد أيضا أنه ليس الدكتور هيكل ، ومن المؤكد أنه أحد رجال الحزب ممن أصبح لهم شأن لم يكن من قبل ٠٠ كان مسعد الكردانى متخرجا فى الحقوق ، وهذا أيضا سبب أكد لدى أنه لا يأخذ الصحافة مأخذ الجد ، وانه ليس فى جريدة « السياسة » لكى يعمل فى الصحافة ، ولكنه فى جريدة « السياسة » الى أن تنتهى اجراءات وظيفته فى النيابة أو فى السلك السياسى ٠٠ ولم يطل مقامه ، ولم أره يعمل شيئا ٠٠ ما هى الا أسابيع حتى التحق بالنيابة ٠٠

وأخذ الحزب يطغى حتى على مكان الجريدة ، كما أخذ يتدخل بنفوذه فى تحريرها على نحـــو مابدا لى ٠٠ كانت الجريدة والحزب يشغلان مبنى واحدا فى شارع المناخ (عبد الخالق ثروت الآن) ، وكان مبنى واسعا من الأبنية القديمة ذات الطراز العربى ، له حديقة واسعة ، أنشأت الجريدة فى جانب من الحديقة مبنى واسعا جعلته لماكينة الطبع ، بينما كانت ورشة الصف (صف الحروف) فى البدروم ٠٠ وكنا نسـير على هذا ، راضين أو غير راضين ، ومن التعود ما يجعل الانسان راضيا ، وان كان فى الواقع غير راض ٠٠ كنا نسير على هذا ، فاذا حركة غير عادية وأمر غير عادى ، واذا عملية نقل واسعة النطاق ٠٠ وعرفنا أن الحزب قرر استئجار شقة مواجهة لمبناه فى الشارع نفسه ، تخصص لمكاتب التحرير

ويخلص البناء الفخم الضخم للحزب وحده ·· ولا بأس بهذا ·· انه فى الظاهر حركة توسع ، ولكننى لمحت من بعض سمات هنا وهناك انها بداية انهيار ·· كانت وزارة اسماعيل صدقى باشا قد استهلت عملها بتأجيل انعقاد البرلمان شهرا ، ولمحت فى الحزب وزواره حركة غير عادية · أمسى الأحرار الدستوريون منقسمين على أنفسهم ·· فريق يؤيد الوزارة الى أقصى حدود التأييد ، وفريق يؤيدها وهو متوجس منها ؛ وفريق أساء الظن بها من أول لحظة ·· أما رياسة الحزب ·· محمد محمود باشا وحواريوه فكانوا ينظرون الى الوزارة نظرة خوف وقلق · كان محمد محمود باشا يتمنى لو كان هو الرئيس ، وقد طارت منه الرياسة ·· فبقى أن يفشل صدقى باشا فى مهمته ، فلا يكون أمام القصر الا أن يلجأ صراحة الى الأحرار الدستوريين ·· وكان صدقى باشا يعرف هذا ·· يعرف أن فشله مما يسر محمد محمود باشا وبعض أنصاره ·

وقد انعكس هذا الموقف على الجريدة أسوأ مايكون الانعكاس ·· ناداني محمد على علوبة باشا ذات يوم ، وكنت أرى عدم التوسع فى نشر قرارات لجان الأحرار الدستوريين وغيرهم بتأييد الوزارة ·· وهى قرارات أعرف جيدا قيمتها ، وأعرف أنهـا ليست مما يقرأه الناس ، وليست مما يفيد الوزارة نفسها ·· لأن الناس يعرفون كيف تجمع وكيف تصدر ، وكانت هذه أول مرة أرى فيها علوبة باشا ، وقال الباشا : أرجوك أن تنشر قرارات اللجان كما هى ·· والى هنا كان الأمر يقبل ، وان كان أول توجيه من نوعه أتلقاه من غير الدكتور هيكل ·· ولكن الباشا سكت لحظة ثم قال : لازم تعرف ان الحزب هو المسيطر على الجريدة ··

سكت ولم أجب ، وذهبت الى الدكتور هيكل فى مكتبه أنقل اليه التوجيه الجديد والأمر الجديد ·· وكان لابد أن أفعل ، فالمفروض أننى أتلقى التوجيهات من الدكتور هيكل ، وماكاد الرجل يسمع ماحدث حتى صرخ مســـتاء ثائرا : ايه ·· الحزب مسيطر على الجريدة ·· ؟ دا كلام فارغ ·· دول مالهمش حاجه عندنا ·· كل الحكاية اذا كنا عاوزين فلوس ·· يدونا فلوس ··

وسكت هيكل باشا لحظة ، ثم قال : خليك ماشى زى ما انت ·· لا تنشر قرارات ولا حاجه ··

ونفذت ما أشـــار به بطبيعة الحال · ولكن الأمر لم يكن بهذه البساطة ولا بهذا الوضوح ·· لمحت أن الجريدة تخرج من يدى ومن

يد الدكتور هيكل شيئا فشيئا ٠٠ ما هى الا أيام حتى رأيت فى غرفتى مكتبا آخر ٠٠ لم يستشيرونى فى وضعه ٠٠ كان واضحا أن هناك قوى خفيه تعمل لجذب الجريدة نحو هذا الاتجاه أو ذاك ٠٠ ولم يكن الأمر أمر مكتب فقط ، ولكنه كان أمر موظف جديد ، محرر جديد هو الاستاذ حنفى عامر ، مدرس كما عرفت فيما بعد ٠٠ لم يعينه هيكل باشا ، ولكن عينه علوبة باشا ٠٠ كان ردا على المشادة التى حصلت أو على الأمر الذى أصدره ولم ينفذ ٠٠ وأفضيت الى هيكل باشا بالتطور الجديد ، ولم أثر أزمة ٠٠ أبلغته الأمر مجرد ابلاغ ٠٠ فقد أحسست أن الرجل انهك لكثرة ماتدخلوا فى شأنه ٠٠ وأحسست أن التيارات فى الحزب متعارضة متقابلة ، وانه نظر اليها كعادته نظرة الفيلسوف غير المعنى بهذا السخف ٠٠

كان جو السياسة فى الشهور الأخيرة من سنة ١٩٣٠ جوا منذرا بالعواصف ٠٠ جو تفكك وانهيار فى الحزب والجريدة ٠٠ ولم أكن محتاجا الى كثير من الذكاء لكى أدرك هذا ، وأخذت أعد نفسى للكارثة التى لابد أن تقع ٠٠ ظللت أؤدى عملى فى ظروف قاسية جدا ، كنت أمنع نشر أشياء ، فاذا بى أراها تنشر فى اليوم التالى ، وكان هيكل يسألنى : كيف نشرت ، فأقول له اننى لا أعرف كيف نشرت ٠٠٠ ساح الأمر بين الجريدة والحزب ، فأصبحت لا أعرف على التحديد ما هو عملى ٠٠ وكالسفينة حينما تغرق ، تكثر الرياسات ، وتكثر السياسات والاتجاهات ، وتكثر الزيارات والهمسات وانى لأكره مثل هذا الجو ، فليس فى طبعى الهمس ولا الجرى ولا اللقاء ، كنت لا أبرح مكتبى الا الى مكتب الدكتور هيكل ، بينما كنت أرى المحررين كخلية النحل ، يسعون بين الجريدة والحزب ٠٠ يقابلون هذا الباشا أو ذاك ، يحاولون أن يتحسسوا من أين تجىء الريح الجديدة ، وأين تكمن السلطة الجديدة ٠

بهتت جريدة « السياسة » أمامى ، واكتست لونا آخر غير الذى عرفتها به ، واستهوانى أن أعمل فيها ، وأن أتصل بقادة الفكر حينئذ ٠ لم تصبح الجريدة التى عرفتها منذ ثلاث سنوات ٠٠ أخذت ألوانها تضعف وتتحول وتتداخل ٠٠ لم تصبح جريدة فائقة التحرير بارعة الرأى ، يحشد فيها الاعلام كما كانت ، لم تصبح جريدة الرأى ، حتى ولو كان ضد الأغلبية ، تدافع عنه وتقف دونه ٠٠ لاحظت أنها أصبحت شيئا آخر ٠٠ وكرا للدسائس والمقالب والمؤامرات ٠٠ كانت هادئة

عظيمة رائعة مهيبة ، فأصبحت تجرى فيها الوساوس والدسائس ٠٠ وشد ما أكره هذا النوع من العمل ٠٠ ولم أكرهه فحسب ، ولكننى راجعت نفسى ، وأنا أضطرب كل مســـاء حيث كنت أضطرب راضيا فخورا منذ ثلاث سنوات ، راجعت نفسى وأعدت النظر فى أمرى كله ٠٠

كان الديوان لايزال ، وكنت لا أزال فيـــه ٠٠ ترى هـــل تقضى الظروف بأن أقتصر على الديوان وأدع الصحافة ٠٠ ؟ هل يبقى لى السيء ويذهب الشيء الذى أحببته وتمنيت لو استمر مستقبلى فيه ٠٠ وافقت على شيء آخر ٠٠ ترى هل أحسنت الاختيار حينما اندفعت الى الصحافة أحبها وأجعل مستقبلى فيها أم أخطأت الاختيار منذ اليوم الأول ٠٠ ؟ وهاهى الصحافة تخون ٠٠ هاهى جريدة « الســـياسة » توشك أن يضطرب أمرها اضطرابا عجيبا ، وحتى لو استمرت فى الظهور ، فلم يصبح العمل فيها مما يرضينى ويمتعنى ٠٠ ؟

بدأت أذهب اليها ــ اذا ذهبت ــ فى ضيق وكره شديدين ٠٠ كنت أعمل متحمســا مستمتعا ، باذلا غاية ما أستطيع من جهد ، وها أنذا الآن أذهب لكى أودى عملى كأننى موظف ينتظر آخر الشـــهر ٠٠ ولو احتملت هذا فى الديوان فلن أحتمله فى « السياسة » ٠٠ مضت فترة قاسية أليمة ٠٠ لم يكن أحد يعرف عيشة فى سوق الغزل ، وسوق الغزل هنا هو جريدة السياسة وحزب الأحرار الدستوريين ، لا تعرف حدود الجريدة ولا حدود الحزب ، ولا تعرف حدود العمل المطلوب منك ، ولا حدود العمل غير المطلوب منك ٠٠ الدكتور هيكل نفسه رأيته يتغير ٠٠ هل تغير حقيقة أم هى الأوهام التى حملتنى على هذا الشعور ٠٠ ؟ هل هو الجو الجديد الذى أصبحت تعمل فيه الجريدة جعل الرجل هو الآخر كثير الضيق ، كثير الخوف والهم والقلق ٠٠ ؟

ان أحاديثى الكثيرة معه ، وطول ارتباطى به جعلانى أستطيع أن أفهم الكثير عن نفسيته ٠٠ لاح لى أن الرجل فى هذا الوقت كان يعانى مثل ما أعانيه من الضـــيق ٠٠ كان متحيرا بين الحزب والجريدة ، بين التيارات المتعددة فى الحزب والتيارات المتعددة فى الجريدة ٠٠ كانت وزارة صدقى باشا بدأت تفترق عن حزب الأحرار الدستوريين وبدأ الحزب أو بدأ جزء كبير منه يقترب شيئا فشيئا من المعارضة الوفدية٠٠ ولكنه كان يضعف باستمرار ٠٠ أجل صـــدقى باشا البرلمان شهرا وسكتت جريدة « الســـياسة » بل أيدته ٠٠ رفض أن يتلى مرسوم التأجيل على أعضاء البرلمان ٠٠ وأصر الأعضاء على أن يجتمعوا لكى يتلى

عليهم مرسوم التأجيل ، وأغلق صدقى باشا أبواب البرلمان ، ولكن النواب والشيوخ ذهبوا فى الموعد المحدد (٢٣ يونيو سنة ١٩٣٠) فوجدوا دار البرلمان قلعة مسلحة ، فأمر الاستاذ ويصا واصف رئيس مجلس النواب بوليس البرلمان بتحطيم السلاسل ، وصدعوا بالأمر ، ودخل النواب قاعتهم على رغم الحكومة ، ودخل الشيوخ قاعتهم على رغم الحكومة ·· وأيدت جريدة « السـياسة » هذا كله ·· وانقضى شهر التأجيل فى ٢١ يوليو وكان يجب أن يجتمع البرلمان ، ولكنه لم يدع للاجتماع ، وعلى العكس من ذلك صحوت فى هذا اليوم ، وأنا فى طريقى الى الديوان ، فاذا بالشوارع مقفرة والجند من الجيش والبوليس يحتلون المفارق والميادين ، الخوذات على رؤوسهم والبنادق فى أيديهم·· كانت القاهرة فى هذا اليوم أشبه بمعسكر أو ميدان حرب ·· واعترف أن الخوف داخلنى ، فان منظر المدينة كان مرعبا حقا ، والجو كله كان منذرا بحوادث خطيرة ، وصدقى باشا يدير المعركة من وزارة الداخلية هادىء الأعصاب ··

وأيدت جريدة « السياسة » هذا ، لا تأييد المتحمس ، ولكن تأييد الذى يرجو أن يتغير الأمر ، ويعدل من بيده الأمر عن التجربة ··· كان تأييدا والسلام ، وكان صدقى باشا حتى هذا التاريخ ينظر الى جريدة « السياسة » كأنها المعبرة عن سياسته ، وكان دائم الاتصال بالدكتور هيكل ، وكان محمد محمود باشا يكره هذا الاتصال ، ويحاول من جانبه أن يجذب الحزب الى موقف أكثر حيطة وحذرا ·· بين هـذا الشد والجذب عاش الدكتور هيكل وعشنا معه وعاش حزب الأحرار الدستوريين فترة مرة قاسية ·

الى أن كان ذات يوم دخلت فيه الجريدة ، فاذا الجند منبثون فى مكاتبها ، واذا أحد وكلاء النيابة يبحث عن أصل مقال رأت النيابة فيه مايعاقب عليه القانون ، ورأيت الدكتور هيكل واقفا يبتسم ·· قال : يا أولاد خليكم جامدين ··

كانت جريدة « السياسة » قد خرجت من موقف التأييد المستخفى الى موقف المعارضة الصريحة ·· كانت الأمور قد بلغت مبلغا لا يمكن أن يستمر معه الوفاق بين الحزب والحكومة ·· كانت الشائعات تؤكد أن صدقى باشا ، بالاتفاق مع القصر ، يعد العدة لا لتعديل دستور سنة ١٩٢٣ ، ولكن لالغائه ووضع دستور جديد بدلا منه ·· وانتشرت فى البلاد حوادث المظاهرات والمصادمات بين الشعب والقوات المسلحة ،

واكفهر الجو بصـــورة لم يسبق لهـا مثيل ، وزاد التقارب بين الوفد والاحرار الدستوريين ، وشعر صدقى باشا انه لا يستطيع اليوم أن يعتمد على حرب الاحرار الدستوريين ، وأعلن الحرب سافرة عليه ٠٠ وأخذ يتعقب جريدته بالتحقيق والتفتيش والتقديم للنيابة ٠

شعرت ، وأنا أدخل جريدة الســياسة ورجال البوليس والنيابة يفتشون ويعبثون فى الدار ذات اليمين وذات اليســـار بزهو شديد ، كأنما أنا الذى أعارض الحكومة وكأنما أنا الذى أقمت الدنيا وأقعدتها٠٠ كان هيكل باشا أمامى فى هذا الوقت رجلا عظيما جدا ٠٠ تمنيت لو كنت مثله ، تحقق النيابة معى من أجل رأى كتبته ، ومن أجل عقيدة أدافع عنها ٠٠٠ كان هذا النوع من الحياة يستهوينى ٠٠ ولكن أين أنا حينئذ من مثل هذه المواقف ؟ ٠٠ اذا لم يكن فى الاستطاعة أن أفرح لأننى أنا الذى فعلت ، فلا أقل من أن أفرح وأزهـــو لأن الرجل الذى اشتغل معه هو الذى فعل ، ولأن الجريدة التى أنتمى اليها قد أقلقت الحكومة وأصابت منها مقتلا ٠٠

وكان لابد أن أدبر أمرى وأعيد النظر فى موقفى ٠٠ وكنت قد قدرت أن الديوان استنفد أغراضه ، وانه من الخير أن أترك وظيفتى ، فقد سددت ما كان على من أقساط للأرض التى اشتريتها ، وأصبح لدى مدخر كفانى لكى أشترى « ماكينة طحين » أقمتها فى قريتى وبدأت تعمل ٠٠ كان شراء ماكينة الطحين هذه أمنية من أمانى الصبا ، ومن أمانى الطفولة ٠٠ كنت وأنا طفل تم وأنا صبى ، أرى « وابور طحين » ضخما فى قريتى ، وكان يعجبنى دق آلاته ، ودخانه ، والقمح يدخل القواديس ، ثم يخرج دقيقا ساخنا جميلا ٠٠ والأسطى يدق على صاج القادوس ، والغوانى الفاتنات من صبايا القرية ، يغدون ويرحن الى الوابور ، يخطرن فى أثواب زاهية ، يغمزن بعين ، ويبتسمن بعين ، هانئات راضيات بالصـــبا المتفجر والأنوثة الناضـجة ٠٠ كانت أحسن ساعات لهوى ، اذا أردت أن ألهو مع أترابى ، أن نجلس على « الصندرة » وننظر بعين الى الآلة الضخمة وهى تدور ، وبعـــين الى القمح والذرة ، والاسطى يدلقهما فى القادوس فيكون لهما خرير جميل ٠٠ ثم صفارة الوابور تدعو البعيدين والبعيدات أن تعـــالوا ٠٠ أنا أطحن لكم الذرة والقمح وأعطيكم دقيقا فيه صحة للآكلين ٠٠٠ وكانت تلحق بالوابور حديقة جميلة فيها عنب وسرو وموز وجازوارين وشجر مختلف وفاكهة وعين ناضرة ٠٠ كان هذا حلما جميلا راودنى وظل يراودنى ٠٠٠ لماذا

لا يكون لى وابور طحين مثل هذا الذى سحب عليه البلى أذياله ، فأصبح أثرا بعد عين ·· توقف وتبدد وصدئت عدده وآلاته ··

واشتريت «الماكينة» وراقبتها وهي تركب وهي تدور و «ترنكهوس» المهندس السويسرى أو الالمانى الذى ركبها ، قابع فى الحفرة التى أنزل الماكينة فيها يضحك وهو يقول : أنا عاوز بيرة ·· كانت البيرة غذاءه وشرابه ومتعته ورجاءه ·· وكنا نعطيه منها مايريد وأكثر مما يريد ·· سألته ذات مرة : بيرة يامستر ـ « ترنكهوس » ··بيرة ·· تحبهـا أكثر من الخبز واللحم والماء والشراب ·· قال : كل اللى أنا عاوزه لما أموت ماسورة بيرة ماتفرغش أبدا ··

لا بأس اذن أن أدع الوظيفة التى أثقـلتنى وأزعجتنى وكادت تطبعنى بطابع الديوان ·· وقـررت أن أقدم استقالتى منتهزا فرصة قانون صدر في ذلك الوقت يبيح للموظف الذى يسـتقيل للاشتغال بالأعمال الحرة الحق فى مكافأة ثلاثة أشـهر ··· وكتبت الاستقالة وقدمتها الى عبد الحميد أفندى فهـمى ·· نظر الى الرجل آسفا جدا وقال : « ليه ·· كده ·· احنا عرفناك دلوقت ، انت أحسن واحد عندنا ·· وقد أمضيت مدة التجربة على مايرام ، وصـدر القـرار بتثبيتك وأصبح لك حق فى المعاش » ·

وأخذت الاسـتقالة دورهـا ·· وكان لابد أن أذهب الى قسم المستخدمين فى وزارة الأوقاف، وأقابل مديره أو رئيسه محمود البحراوى أفندى لتسوية بعض الأمور ، ولقيت الرجل ··

لست أدرى ما اذا كان احد من القراء عنده فكرة واضحة عن مدير المستخدمين في أى وزارة من الوزارات أو لا ·· ان قلت انه آله الوزارة لم أكن مبالغا ، ان قلت انه بعبع الوزارة لم أكن مبالغا ·· اذا قلت ان الوزارة فى جيبه لم أكن مبالغـا ·· اذا قلت انه اللغـز الأكبر والأول فى الوزارة كنت أقول الحق ·· محمود البحراوى رجل معروق نحيف يكاد الهواء يشيله ويحطه ·· وجه ضامر ، وعينان فيهما بريق خافت عريق غريب ، نظارة تخفيهما أو تظهرهما ، أو لا تستطيع أن تظهرهما أو تخفيهما ·· لا يتكلم الا بمقدار ·· لا يكاد يبتسم الا بمقدار ·· غارق فى الملفات والدوسيهات والقرارات ·· ما ان دخلت حتى وضع أصابعه ويديه على ماكان أمامه من ورق ، ولم ماكان منشورا منه ، وطبقه بسرعة خاطفة ، ووضع يده على أذنه كأنه لا يسمع وقال : أفندم ···

غرفته كأنها محراب راهب أو شيطان ·· لا آذان لها ·· صماء وهو نفسه حسبت أنه لا يسمع ولا يرى ولا يتكلم ·· الأسرار كلها هنا ، القرارات كلها هنا ، العلاوات والترقيات والجزاءات ، الحياة والموت ·· يمر الموظفون على غرفته ويتمنون لو عرفوا ماتخفى من أسرار ·· وهو ، هو الكاهن الأكبر ، يجرى من غرفته الى غرفة الوكيل أو غرفة الوزير ، فاذا سار فالعيون ترمقه والتحيات تلاحقه ، والدعوات الظاهرة في قدميه ، والدعوات الخفية أن يأخذه الله مكتومة فى القلوب· كان سريعا فى الأذى ، بطيئا فى الخير ، يبتسم اذا كان مايعرضه فصلا أو رفتا أو خصم جزء من المرتب ، فاذا كان ترقية فالكلام من بين فكيه ثقيل والحوقلة سابقة كلمة الخير ، كأنما هو الذى يدفع وكأن مال وزارة الأوقاف ماله ، يشفق أن يضيع فى العلاوات والترقيات ·· كأنه أبو الأيتام والمستحقين ·

قال لى : أفندم ، وكأنه يقول : جاى تعمل ايه ·· ولكن ماذا يهمنى من أمره ··· اننى تارك له وزارته ومحرابه وكهنوته وأذاه وخيره·· ماذا يعنينى من أمره ·· أنا الآن أقوى منه ، لا يهمنى الوزير ولا الوكيل ولا مدير المستخدمين ·· أنا الآن حر أو أوشك أن أكون ·· فان استقالتى مسببة برغبتى فى الاشتغال بالمحاماة ، والقانون صريح فى استحقاقى مكافأة ثلاثة أشهر ·· ومع ذلك فقد أخذ يقلب الأوراق لعله يجد سببا لحرمانى من المكافأة ، فلما لم يجد ، أتم الاجراءات ·

وحينما خرجت من وزارة الأوقاف ونفضت ترابها وأنا منصرف عنها ، شعرت أن الهواء الذى استنشقه أنقى وأجمل · وفتحت رئتى أكثر وأكثر ، وابتسمت وأنا أبتعد عنها ، ولكننى لم أتمالك الا أن أنظر الى بنائها العربى الجميل ، وأذكر ثلاث سنوات وبضعة أشهر قضيتها فيها وعلمتنى الكثير ·· حينما نجحت فى امتحان الليسانس وسرت فى طرقاتها تمنيت أن أكون موظفا فيها ··· وهأنذا بعد أن أخذت حظى من وظائفها أشعر بغبطة وأنا أتركها ·· ان الحياة عجيبة ·· وأعجب مافيها أننى وأنا واقف أتأمل مبنى الوزارة وأسترجع ذكرى ثلاث سنوات فيها ، اذا بشاب صغير ، ربما كان ريفيا أيضا ، يسألنى عن مبنى وزارة الاوقاف ·

وحلا لى أن أسأله : عاوزه ليه ؟ · ·قال : طلب استخدام عاوز أقدمه ·· كان منظر البحراوى أفندى لايزال أمام عينى وأشفقت على الولد المسكين أن يقع فى المصيدة التى وقعت فيها ·· ولكن ماهى

أمانينا ؟ ما هى أحلامنا ، انها ليست الا مصيدة والقدر يضعها فى طريقنا لكى يحلو طريقنا ٠٠٠ انه سعيد ، كما كنت يوما من الايام ٠٠ لادعه فى أحلامه ٠٠ تمنيت له الخير ، ووصفت له قسم المستخدمين حيث يجب أن يقدم طلبه ٠

كنا حينئذ فى نوفمبر سنة ١٩٣٠ ٠٠ الحياة جميلة ، والعمر غض، والدنيا مفتوحة الذراعين لشـــاب تحرر من الوظيفة وانتوى أن يشتغل بالمحاماة ، حلم العمر ، وراحت أحلامى تصـــور لى « روب المحاماة » وأنا واقف فى المحكمة يجلجل صوتى ، والدنيا كلها تسمع ٠٠ ومع المحاماة الصحافة صديقتها وزميلتها ، وصاحبتها فى الروعة والأداء ٠٠

ما أعظم ما تسخر الأقدار منا ٠٠ قيدت اسمى فى جدول المحامين وتهيأت لأملأ فراغ نهارى بالاستعداد للمحاماة ٠٠ لم يكن يعنينى أن أكسب منها فى أول الأمر مالا ٠٠ كان مرتبى من « السياسة » يكفينى وزيادة ولكن لم يمض سوى شهرين ٠٠ واذا نحن فى يناير سنة ١٩٣١ ، وأذهب الى جريدة السياسة على عادتى ، ، فاذا جنـــد وشرطة وأفندية يذهبون ويجيئون واذا الدكتور هيكل متجهم حزين ٠٠ وعرفت أن قرار الحكومة صدر بتعطيل جريدة « السياسة » الى أجل غير مسمى٠

وهمس فى أذنى أحد الشياطين وقال وهو يضحك : ألم أقل لك ان قدم المازنى مبروكة ٠٠

قلت : انك تظلمه ٠٠

قال : أظلمه ايه يا أخى ٠٠ ماهو قدامك المثل أهو ٠٠٠ وفقدت عملى أيضا فى جريدة « السياسة » أصبحت بلا عمل ٠

لبست "الروب" وذهبت إلى المحكمة

« طويت الصفحة أو أردت أن أطويها » ومن الصفحات الجميلة ما يضطر الانسان ان يطويه آسفا وفي عينه دمعة »

كأنما كان القدر يسخر ويعبث بنا وما أشد ما تسخر بنا الأقدار وتعبث .. منذ شهرين اثنين فقط كنت صاحب مرتب حسن فى الديوان ، وصاحب مرتب حســن ومركز حسن فى جريدة الســياسة والسياسة الأسبوعية ، وها أنذا فى أواخر شهر يناير سنة ١٩٣١ لا أجد مرتبا من الديوان بعد أن استقلت منه ، ولا أجد مرتبا من « الســياسة » بعد أن أقفلها صدقى باشا .. أليس زملائى الذين اختاروا الوظائف أو المحاماة خيرا منى .. ؟ لقد خدعنى بريق الصحافة ولفتنى عن كثير من حقائق الحياة حينئذ .. ها أنذا مشرد أو أكاد .. مضطرب بين أن أبدأ من جديد أو أن أستمر فيما أنا فيه من قلق وحيرة .. خير أكف عن نفسى هذا الشر الذى لبسنى من يمين ويسار .. خير أن أكف عن الصحافة .. هذه المهنة الجميلة الساحرة ، والتى تخون ككل جميلة ساحرة .. مالى ولهذا الجمال الكاذب الأخاذ الخداع .. ؟

وقررت ى نفسى أن دع الصحالة الى غير عودة .. قيدت اسمى فى جدول المحامين ، وبدأت أعد العدة لفتح مكتب خاص بى ، ولكن لابد أولا أن اقضى فترة التمرين .. كان على ان ابدأ من جديد .. زمـلائى الذين تخرجوا معى واشتغلوا بالمحاماة أنهوا فترة التمرين واستقام امرهم فى الحياة على اية صورة من الصور ، زملائى الذين اختاروا الوظائف جعلوا همطم ان يحتفظوا بها ويستمروا فيها .. والوظـائف تثمر مع الوقت الطويل ، ويحسن مركز شاغلها اذا عرف كيف يتصرف فى عالم الوظائف .. وقد جربت نفسى وعرفت أن الوظيفة لاتلائمنى .. وجربت الصحافة،

هواى وهوايتى ، فخانتنى أسوأ ما تكون الخيانة ، وتخلت عنى وأنا أكثر ما أكون اقبالا عليها .

ولكننى خرجت من « السياسة » و « السياسة الأسبوعية » بتجربة ومعرفة ، وخرجت من الديوان بتجربة ومعرفة .. كلاهما فتح عينى على آفاق من الحياة لم تكن لتتاح لى من غير المعاناة الطويلة المرة ، واحتفظت لكل منهما بذكريات ، ظلت تهدينى وتعلمنى وكأنها درس طويل وكتاب محكم ..دخلت «السياسة» تستهوينى فيها العراقة وأرستقراطية الفكر والقلم والرأى ، وخرجت منها وقد شاه وجهها فى أخريات أيامها ، فاذا هى أرض للدس والمكر والخوف والقلق .. ودخلت الديوان وفى ظنى أنه رزق ميسر منتظم ، فيه كرامة تصان ، وحق يعطى وذنب يقتص له ، فاذا هو أرض النفاق بلا كرامة ، وأرض السلطة من غير حق ، وأرض الرياسات لا لمصلحة العمل ولا لمصلحة الناس .

وهاأنذا آخر الأمر فى الشارع ، ليس لى من معتمد الا نفسى .. ترى ماذا يكون موقف أبى وأهلى وهم يسمعون أو يعرفون أن أمرى اضطرب هذا الاضطراب كله ، وأننى أضحيت بلا عمل أو أمل فى عمل..؟

والمحاماة عند أهل الريف لاقيمة لها ، وهى عند أهل المدن عمل من لاعمل له ، وهى فى ميزان المال مثل صيد السمك ، يوم فيه ويوم مافيش، وأفضيت بنيتى الى بعض أصحابى ، فهز رأسه أسفا وقال : محاماه أيه يا شيخ .. شوف لك وظيفة .

منذ شهرين استقلت من وظيفة ، وها هوذا بعض الناس يشير على « ان أشوف لى وظيفة » .. والصحافة نفسها أعطت الدليل ضـــدى ، كنت أوثرها واحبها وأمجدها وأدافع عنها ، وهاهى ذى تخوننى وتدعنى شريدا أو كالشريد .

لم أفض الى أبى بأننى استقلت من عملى فى الديوان ، ولم أشك اليه ان « السياسة » أقفلت .. صمت تماما .. وذهبت الى قريتى على عادتى، ولم يبد على ضيق أو قلق .. كنت مرحا جدا على غير عادتى ، ولم يشأ أبى أن يطرق الموضوع ، حسبه أن ابنه وهو يجتاز عاصفة غاضبة يبدو كأن لا عاصفة هناك .. حسبه أن ابنه يضحك ويبتسم .. لماذا يســـألنى ويستقصى فيعرف ما يسوؤه .. ولو سألنى ما أجبته ولضقت بالسؤال. كرهت طول حياتى أن أكون موضع اشفاق من أحد حتى ولو كان أبى .. فرحت بالعاصفة التى اقتلعت عملى فى الصحافة ، واقتلعت عملى فى الديوان،وكأنها اختبار لقوة خلقى ومضاء عزيمتى..كنت ـ وهذا عجيب ـ

بادى المرح قليل الاهتمام بشيء ٠٠ ولم أكن قد دبرت أمرا ، ولم أكن أعرف لى مستقرا ولا ملاذا ٠٠ كنت فى هذه المرحلة من الحياة التى تبدو فيها الحياة وكأنها شيء جميل ، سواء أساءت أو أحسنت ٠٠ ولعل ما كنت أبدو فيه من مرح واستهانة ، نوع من الانعكاس النفسى ، أو نوع من الحركة المضادة، حتى لا أدع للناس فرصة أن يشمتوا بى أو يشفقوا على ٠

وكان موقفى من الناحية المالية كما يلى : اتممت دفع أقساط الأفدنة الثلاثة والنصف وأصبحت ملكيتها خالصة لى ٠٠ ودفعت جزءا من ثمن وابور الطحين ، ووقعت على كمبيالات شهرية ببقية الثمن قيمة كل منها عشرة جنيهات ٠٠ ولا بأس بهذا الدين ٠٠ فان « الوابور » نفسه كفيل بالسداد ، وربما فاض بعده شيء ٠٠ بقى أن أدبر رزقى ومعاشى ٠٠ وأنا محتاج على الأقل الى عشرين جنيها كل شهر ، لا أكسب منها الآن مليما ٠٠ قد أبدأ بالاشتغال فى المحاماة ولكنها ليست موردا سريعا ، ولا مضمونا ، ولابد من نفقات تمهيدية لاعداد مكتب ٠

كان عندى مبلغ مدخر فى البريد يبلغ نحو ٩٠ جنيها ٠٠ كنت شديد الحرص على أن يكون عندى دائما شيء مدخر ، اتقاء غدرات الزمان ، وحتى لا يتأثر مظهرى بأى طارىء يمكن أن يؤثر فيه ، وحتى لا أضطر الى الاستدانة ، وقد جربتها فى مطلع حياتى وأعطتنى درسا لن أنساه ٠٠ ثم اننى خجول بطبعى ، لا أطيق أن أقف موقف صاحب الحاجة من أى انسان ٠٠ ويعنينى قبل كل شيء الا يبدو فى مظهرى ولا فى حياتى ما يدل على أن ظروفى ساءت ٠٠ وكان عندى أيضا مكافأة الاشهر الثلاثة التى صرفتها من وزارة الأوقاف ، ولم يكن لدى أى أمل فى أن أحصل من « السياسة » على مكافأة عن نحو اربع سنوات قضيتها فيها ٠٠ بل لم أفكر فى المطالبة بها ، فقد كانت ظروفها سيئة ٠٠ الحزب قبض يده عن دفع المال، أو قل انقسم على نفسه فى المحنة التى أصابته ، والديون متكاثرة عليها ، والماكينة محجوز عليها ، وبعض مرتبات الدكتور هيكل متأخر ، لم يقبضه ٠

لم أفكر فى أن أطالب بشيء ، ولو طالبت لكنت قد حصلت فعلا على حقى ، كما فعل غيرى ٠٠ ولكننى كففت نفسى عن مجرد التفكير فى هذا ، كانت « السياسة » عزيزة عندى جدا ٠٠ ولئن كنت قد كرهتها فى الشهور الأخيرة ، فلم أكن لأستطيع أن أنسى أياما سعيدة جميلة عزيزة رائعة قضيتها فى مدرستها الكبرى ٠٠ ومن طبعى العرفان ٠٠ وقد وفيت لها ، لذكراها ، فلم أشأ أن يقترن خروجى منها بشيء ثقيل على نفسى وعلى نفس من اشتغلت معهم ٠٠ فقبلت مصيرى راضيا متأملا ٠٠ لابد أن أدبر حياتى

فى طريق آخر ·· الصحافة ·· لا ·· هكذا قالها لى بعض الناس منذ أربع سنوات ، وهاأنذا اقولها الآن ، قهرا عنى ، لا لأننى كرهت الصحافة ، ولكن لأننى أريد أن أعيش ، وهى فيما بدا لى حتى الآن قد منحتنى الأمل فى أن أعيش ، ثم خانتنى ، أو خانتها الظروف ·

طويت الصفحة أو أردت أن أطويها ، ومن الصفحات الجميلة مايضطر الانسان الى أن يطويه آسفا وفى عينه دمعة .. ولكن الحياة ما أثقلها .. انها ليست عواطف وانفعالات وأحاسيس ·· انها أيضا مادة ، طعام وشراب ونوم ومأوى ،ومظهر أمام الناس .. شد ما كرهت هذا الجانب منها ، وشد ما كنت شديد الاحتفال به أيضا وهو تناقض ·· ولكن لا تناقض هناك ، كانت النظرة الواقعية مندمجة فى نفسى اندماجا تاما مع النظرة المعنوية ·· كنت أزاوج بين حقائق الحياة ومعنوياتها جهد ما يستطيع انسان أن يفعل ·

ليست «الروب» وذهبت الى المحكمة .. كانت قضية صغيرة ولكنها كانت تجربة كبيرة ·· جف ريقى وأنا أتحدث أمام القاضى ، واضطربت وزادت ضربات قلبى ، وأنا أدخل المحكمة وهى غاصة بالناس ·· القاضى بشريطه الأخضر الجميل ، وكاتب الجلسة والقلم معلق فى أذنه أو بين يديه ·· والمحامون فى أروابهم التقليدية ، يتدفقون حيوية ، يضحكون ويتحدثون أحدهم الى الآخر ·· ودخلت لأجلس بينهم كاليتيم الغريب ·· لا يعرفه أحد ·· انسان طارىء عليهم ، محام مثلهم ولكننى كنت وراء المكاتب والأقلام وفى حبر المطابع وضجة السياسة والأحزاب ودنيا الحكم والحكام .. الحاجب يقول للناس : هس .. هس انت وهو .. ياأفندى يالى واقف أقعد ·· يا أبولاسة انت بلاش دوشة ·· يا سيدنا الشيخ ما يصحش ، وتمتلىء المقاعد ويبدأ النـاس يزحمون الطرقات وأواخر الصفوف ، فيردهم الجند الى خارج القاعة ، والحاجب يصيح : اللى مش لاقى مطرح يخرج بره ··

وما هى الا لحظة حتى يضج الحاجب : محكمة ·· وينتفض كل من فى القاعة واقفا ·· بينما يدخل القاضى فى وقار ويأخذ مقعده فى وقار ، ويقول ووجهه فى الأوراق ، ونظارته تحجب بعض وجهه ، ويحجب البعض الآخر الوقار : فتحت الجلسة ، نادى نمرة (٢٠) ويلعلع صوت الحاجب : محمد أحمد الشيخ ونفوسة على ، وينهض أحد المحامين ويقول انه حاضر عن المدعى ، وينهض آخر ويقول انه حاضر عن المدعى عليها ·· بينما أكون أنا قد ذبت خوفا واضطرابا انتظارا لمثل الموقف الذى أقفه لأول مرة ·· أين ذهبت الأحلام والمنى ·· ؟ أين ضاعت مرافعاتى التى كنت أعدها فى

الهواء وأنا وحدى ·· وتنتهى نمرة ٢٠ فاذا الحاجب يطلب ٣٠ ويطلب ٧٨ ، ويطلب ويطلب ·· دون أن يقترب من رقم قضيتى وهو ١٠ ، ثم أعرف أن المحامين طلبوا قضاياهم فى غير الدور ، وأنا لجهالتى لم أفعل هذا ، وأظل جالسا بينما يخرج المحامون واحدا وراء الآخر ، وأشكر لله أنهم يخرجون ، فاذا اضطربت فسيكون اضطرابى وحدى ، واذا تلعثمت فسيكون تلعثمى وحدى ، وليس على مرأى ومسمع من عشرات المحامين ·

كنت اذا ذهبت الى المحكمة حوقلت وبسملت وعرقت وترددت وخفت وتشجعت ·· كان مجتمعا جديدا على تماما ·· وقد رأيت أن المحاماة تحتاج الى جرأة والى« رذالة » فى بعض الأحيان ·· تحتاج الى لسان وجنان وقلب فيه صلابة ، وعين ليس فيها ندى دمع ولا احساس ولا شعور ·· كلا ، ما قصدت انها مهنة بغير احساس ولا شعور ولا دمع ، كلا ، انها مهنة الحياة ، فيها ما فى الحياة من دمع واحساس وشعور ، ولكننى قصدت أنك يجب أن تكون فيها ثابتا كالجبل ، اذا غاظك خصمك فيجب الا تغتاظ ، اذا أراد النيل منك ، فيجب ألا تغضب ·· اذا ضايقك القاضى فيجب ألا تثور ·· اذا حملت عليك النيابة فيجب أن تتلقى حملتها بصدر فيه ثبات القوة وشجاعة الاحتمال ·· لا ينبغى أن تترك عواطفك الهشة تتحكم فيك، بل يجب أن يتحكم فيك واجبك ·· انت فى معركة ، وفى المعركة لا مجال للخوف والقلق وحساسية الشعور بالكرامة التى جرحت والمزاج الذى تعكر ·· ولم أكن مجردا تماما من كفاية النجاح فى المحاماة ·· كلا ، كنت اعرف كيف أتحدث وأعرف كيف أدلل وأستطيع انتقاء ألفاظى ، واصوب الى الموضوع مباشرة ، ولكن كان فى الى جانب ذلك خجل وحساسية شديدة وانفعال سريع وحرص على ألا أقرر غير الواقع ·· لم أكن أستطيع اذا حاول أحد من أصحاب القضايا ان أغير شيئا من رأيى او أحاول أن أقول له غير ما اعتقد ·· وكان وكيل المكتب يعطينى دروسا عديدة فى كيفية معاملة « الزبائن » هكذا كان يسميهم ، بينما كان الاسم نفسه يثير فى اشمئزازا شديدا .. كانت التجربة الأولى غير مشجعة تماما .. بدأت أشعر بضيق شديد وأسائل نفسى : هل أحسنت بترك وظيفتى أو كان الخير أن أبقى فيها · كانت الصحافة هى التى أحبها ، وها قد ذهبت الصحافة ، ولم تصبح فى نظرى عملا يمكن أن أركن اليه ..

ولم أكن مستطيعا أن أذهب الى هذه الجريدة أو تلك أعرض نفسى عليها ·· لم يحدث لى هذا قط فى حياتى ، وأصررت على أن أنجح فى المحاماة ·· وحاولت وتعددت محاولاتى ، وبدأت أثبت شيئا فشيئا اذا

وقفت أمام المحكمة ، وأخذت أتمرس بأساليب المحـــامين ، أراهم وهم يتكلمون وهم يطلبون من المحكمة ، ما يشاؤون والمحكمة تنصت لهم وتتأثر بهم ·· كنت أنظر الى زملائى الذين اشتغلوا بالمحاماة وثبتت أقدامهم ، فأغبطهم وأشعر اننى أضعت من عمرى نحو أربع سنوات هباء .. لو اننى لم أشتغل بالصحافة ولا الوظيفة وتفرغت للمحاماة لكنت اليوم مثلهم ، ثابت القدم واعى الجنان ، أقف أمام المحكمة فلا أضطرب ، وأقابل الموكلين ·· أو الزبائن ، لعنة الله على هذا الاسم ، فأعرف كيف أطويهم طيا ·· رأيت بعض زملائى وقد أصبح وكأنه شيخ طريقة ، وليس محاميا ، يدخل المحكمة اذا دخل فى كوكبة ويخرج اذا خرج فى كوكبة ·· أفندية ومشايخ ، وأصحاب لاسات وأصحاب شيلان .. يكلم هذا ويهمس فى اذن ذاك ويضـــع يده على كتف ثالث ، ويقود من يقـوده منهم الى مكتبه الرابض على بضع خطوات من المحكمة ·· ووكلاء المحامين وكتبتهم رأيتهم كالزئبق نشــاطا وحركة ، طربوش مخفوس أو مردود الى الوراء شعر كث منكوش ، ذقن لم تر موسى الحلاق منذ شهر ، فهى كالشوك أو أحد .. ثلاثون راديو فى السنتهم ، وثلاثون بطارية فى عيونهـم ·· يسلمون على هذا ، ويجرون وراء هذا ويتركون هذا وذاك الى قلم الكتاب وقلم المحضرين .. يقولون للزبون ·· أعنى للموكل .. للصيـــد المنتظر : الأستاذ النهاردة خد براءة .. كل واحد كان بيقول المؤبد .. الشنق .. قاتل والعياذ بالله ، ثم يهمس فى أذن الضحيـة المسكين بكلام لا أسمعه ، فاذا بالرجل يتهلل ويقول له : قول كلام غير ده يا محيى أفندى .. ويقسم محيى أفندى بالطلاق والعتاق وأنبياء الله ورسله واليوم الآخر أن ما قاله صحيح ، وأن الاستاذ قادر على العجائب ·· والأستاذ طبعا هو المحامى الكبير الذى يشتغل عنده الوكيل المحترم ..

عالم جديد خطير عظيم رأيته فى شهرين أو أقل قليلا وعانيته ، وطفر الدمع من عينى أحيانا ، وارتفع الأمل فى صدرى أحيانا ·· هل يمكن أن أعوم فى هذا الموج هل يمكن أن أنجح فى هذه الدنيا التى لا يعرف أحد أولها من آخرها ·· جاءنى موكل وأخذت منه القضية ، ولعبطى وعباطتى ، ولم يكن عندى حينئذ وكيل ولا كاتب ، فلجأت الى كاتب أحد المحامين من زملائى ، أكلفه ببعض الاجراءات ·· وجاء يوم القضية ، فاذا المحامى الزميل هو الوكيل عن الموكل الأمين .. لطشه الكاتب الشاطر .. أغراه بأن يدعنى الى أستاذه ، ولابد أنه قال له : مالك ولهذا المحامى الخام ·· انه لا يعرف من الاجراءات شيئا .. ان ورقك عندى .. لماذا اللف .. قالوا لك

يا جحا ودنك منين .. حط ايدك يا أخى على ودنك مباشرة .. الأستاذ بتاعنا محامى قد اندنيا .

شعرت اننى كالغريق ، ولكننى لم أيأس ·· انها المهنة التى أحببتها ، بل قدستها ·· أهكذا يبدو لى منها هذا الوجه الشاحب الكريه ؟ ·· كنت أرى بعض المحامين يرجون القضاة أو يكادون يستعطفونهم ، كنت أراهم مع وكلاء النيابة ، وكأنهم ليسوا زملاء ·· كان وكيل النيابة من طبقة أخرى غير طبقة المحامى ·· انكسر قلبى ، كما لم ينكسر أبدا ، وتأملت موقفى ، وأعدت تأمله ، ولكننى أصررت على أن أستمر ·· انها البداية وكل بداية صعبة شاقة ·· كان لابد لى من مكتب أتمرن فيه ، اما أن أدخل هكذا مرة واحدة فخطأ لا ينبغى أن أقع فيه ·· أحسست ان كل ما وعيته فى كلية الحقوق من الدراسات لا قيمة له وان الحياة العملية شىء آخر ·· وأفضيت الى الاستاذ أمين حسونة بالموقف وسألته : الا يعرف محاميا كبيرا أستطيع أن أقضى فى مكتبه فترة التمرين .. ؟ قال وكأن جوابه حاضر : تعال الليلة سأذهب واياك الى الاستاذ جاد الحق ·· مكتبه فى شارع عدلى باشا ·

وفى شقة فاخرة من حيث المظهر ، مبهدلة من حيث الواقع ، رأيت الاستاذ جاد الحق ، رجلا سمينا مترهلا ، له أشداق واسعة ، وشارب كث ·· سعل عشرين مرة قبل أن يتم تحيتنا ·· كان مكتبه هادئا ، لا زوار ولا أصحاب قضايا ·· وقدمنى له الاستاذ حسونة ·· رحب الرجل بى ، ولكنه أعطانى صورة سيئة عن المحاماة ومستقبلها ·· وقادنى الى غرفة أخرى بها مكتب خال وقال : هذا مكتبك ·· وترددت عليه يوما وبعض يوم ، فلم أجد عملا ولم أجد قضايا ·

كان لا بد أن أبحث عن محام آخر ، وقدمنى زميل الى الاستاذ عباس شريف المحامى ، رجل نابغ ذكى ، لماح ، ولكنه يشرب حتى يفقد وعيه ·· ما يكاد الليل يوغل قليلا حتى يترك مكتبه الى بار سان جيمس ويظل يشرب ويشرب حتى ينقلب شخصا آخر ، وكان محاميا باهرا مرموقا ·· أعطانى قضية وطلب الى أن أعد مذكرة فيها ، وأعددتها ، وقرأها الرجل أو لم يقرأها ، لا أدرى ، ولكنه قال شيئا لم أكن أتوقعه ·· قال : لو ان هذه المذكرة نسبت الى عبد العزيز فهمى لقلت ان عبد العزيز فهمى تقدم، لم أصدق شيئا مما قاله ، ولكننى فرحت ، وان الانسان أحيانا ليحاول أن يكذب نفسه ، ويكذب الحقائق ، ويفضل ان يعوم مع أمانيه ·· شكرا له على كل حال ، لقد رد لى شيئا من الثقة بنفسى ، وشيئا من الأمل فى

المستقبل ٠٠ عبد العزيز فهمى ، شد ما طار بى الرجل فى عالم لم أحلم يوما ـ حتى ولا بعد خمسين سنة ـ أن أبلغه ؟ ٠٠ أكان يقول صدقا ، ام كان يمزح أم كان يسخر ٠٠ كان الرجل جادا ، صادقا فيما يبدو ، وهذا ما أدهشنى ٠

وبينما أنا أرتطم على هذه الصورة من محكمة الى محكمة ومن مكتب الى مكتب بعد شهرين من تركى وظيفتى وبعد بضعة أيام من اقفال جريدة « السياسة » اذا بالاستاذ محمد يوسف السركى ، مدير بنك التضامن المالى فيما بعد ، وكان حينئذ مديرا لادارة جريدة الشعب التى أنشأها صدقى باشا بعد خلافه مع حزب الاحرار واغلاق جريدة « السياسة » ٠٠ اذا بالاستاذ السركى يتصل بى ويقول لى : هل لديك مانع أن تشتغل فى جريدة الشعب ؟

لم يكن فى خاطرى شىء من هذا ، ولم أكن أتوقعه ولا أريده ، ولا ابنى أملا أو مستقبلا عليه ٠٠ كنت أعرف ان صدقى باشا أسس حزبا ، وان هذا الحزب اسمه حزب الشعب ، وان من أعضائه أحمد طلعت باشا وتوفيق دوس باشا ومحمد مصطفى باشا وصالح حقى باشا ومحمد علام باشا وعيسوى زايد باشا وقلينى فهمى باشا وعبد المجيد فريد باشا وعلى باشا فهمى الى آخر هؤلاء الباشاوات الذين لا طعم لهم ولا اتجاه ولا ميول ٠٠ بعضهم من رجال القضاء المتقاعدين ، وبعضهم الآخر من كبار الأعيان وكبار الملاك ، وفريق ثالث من الأذكياء النبهاء ، ولكنهم ممن ليس لهم اتجاه معروف ، ولا مبدأ ثبتوا عليه ٠٠ كان الحزب تشكيلة عجيبة ، لا مثيل لها فى الأحزاب المصرية فى هذا الوقت ٠٠ كان الوفد يضم كتلة الشعب ومنهجه معروف وهو اتجاه تحررى يسارى ، وكان حزب الأحرار الدستوريين يمثل اتجاها آخر هو الاتجاه التقليدى اليمينى ، وكان حزب الاتحاد يمثل القصر وسياسته ورجاله ، وهو يمينى أيضا ، الا انه تابع للقصر ٠٠ أما حزب الشعب بصورته وتشكيله فمن العسير أن تعرف له منهجا أو اتجاها ٠٠ وقد جرت العادة أن تؤلف الاحزاب أولا ثم تسعى لتولى الحكم ، ولكن الآية انعكست فيما يتعلق بحزب الشعب ٠٠ تولى الحكم أولا ، ثم تألف فيما بعد ٠٠ كان واضحا ان الحزب هو صدقى باشا رئيس الحكومة ، ثم لا أحد غيره ٠

وصدرت جريدته باسمه أيضا « الشعب » جريدة مكروهة لا يقرأها أحد ، ولا يهضمها أحد ولا يهتم بها أحد ، الا اذا كان العداء والكراهية يعدان اهتماما ٠٠ هل تدهورت بى الحال حتى أشتغل فى جريدة الشعب؟

انها ليست صحافة اذا أردت الصحافة ، وليست سياسة اذا أردت السياسة ، وليست قيادة فى الفن أو الفكر أو العقل اذا أردت القيادة فى الفن أو الفكر أو العقل ٠٠ وليست مجتمعا لطيفا ظريفا خفيف الدم ، اذا أردت المجتمع الخفيف الظل الخفيف الدم ٠٠ ما هى اذن ؟ وساءلت نفسى وقد غامت أمام عينى سحابة كريهة كادت تكتم أنفاسى والاستاذ السركى يسألنى ما اذا كنت أقبل الاشتغال فى جريدة الشعب ؟ وحرت بماذا أجيب ولمح التردد على ؟ فقال : لماذا تتردد ٠٠ لقد أقفلت جريدة «السياسة» وحلت محلها جريدة الشعب ٠٠ كثيرون ممن كانوا يشتغلون فى «السياسة» انضموا الى « الشعب » ٠

قلت له : ولكننى لا أريد الاشتغال بالصحافة ، كفتنى التجربة القصيرة التى مرت بى ٠٠ اننى أريد الاشتغال بالمحاماة ٠

قال : وهل يمنعك اشتغالك فى جريدة الشعب من ان تشتغل بالمحاماة ، لم يكن هذا هو السبب ٠٠ كان السبب فى ترددى احساس غامض كريه ، جعلنى أشعر بمهانة أمام نفسى ٠٠ اننى اذا قبلت الاشتغال فى جريدة الشعب فليس لسبب آخر سوى ان أوطد أقدامى ريثما تثبت فى المحاماة ٠٠ كانت أمامى وسيلة الى غاية ٠٠ لقد اشتغلت فى جريدة « السياسة » وهى غاية لى ٠٠ أما الآن فاننى أرى فى جريدة « الشعب » مجرد مرحلة لا بد منها حتى أستطيع أن القى فى المحاماة السند الكامل.

قلت وأنا أقتلع الألفاظ اقتلاعا : اتفقنا ٠

وخلوت الى نفسى وطفرت الدموع من عينى وأحسست اننى أسير بحياتى فى طريق محفوف بالمخاطر ٠٠ ومرة أخرى شعرت بالمهانة والضعف ٠٠ وشعرت اننى أقبل العمل فى جريدة « الشعب » كارها وضائقا وكثير المخاوف والوساوس ٠

وبدأت مرحلة من حياتى ما كان أخصبها وما كان أقساها ٠٠ رأيت عالما جديدا وعشت فى مجتمع جديد ، وكابدت الوانا من الحياة السياسية والصحفية التى مرت ببلادنا ٠٠ هل أفادتنى ؟ هل كونتنى ؟ هل أسعدتنى ؟ هل أضاعتنى ؟ انها فعلت هذا كله ، وفعلته بصورة أعطتنى الكثير من الشر والكثير من الخير ٠٠ وماذا فى الحياة لا يعطى شرا وخيرا ، خيرا وشرا ؟

« علام باشا »
عاهل الحزب وقارئ جريدته

« لا بد أن تكون لكل حزب جريدة تعبر عن رأيه تماما ، كما أن لكل بيت نافذة أو بابا ، مجرد شيء يستكمل الوجود الواقعي للحزب »

كان حزب الشعب يشغل المبنى رقم ٦٨ فى شارع قصر العينى ، قصر فاخر من القصور القديمة ، له حديقة جميلة ، ومدخل فيه أبهة وجلال ·· فراش وثير ، وابهاء فيها سعة وفخامة وسراء ·· سرعان ما وضعت اللافتة ، وأصبح هناك حزب وجريدة وزوار وأصحاب حاجات، وهتافة ومصفقون ، وباشوات يروحون ويغدون ، وسيارات فاخرة تقف بالباب ، واجتماعات يحشد لها الأنصار من هنا وهناك صادقون وكاذبون مؤمنون وكافرون ·

كان محمد علام باشا عمدة الحزب ومديره ، والحركة الدائبة فيه ·· كان مستشارا ، وكان فى وقت من الأوقات مديرا للشرقية حينما كنت تلميذا فى المدرسة الثانوية بالزقازيق ، واشترك التلاميذ فى مظاهرة لا أذكر فى أى مناسبة من المناسبات ، فاذا عساكر البوليس يدوسون التلاميذ بحوافر الخيل ، واذا بى أسمع اسم علام باشا المدير بين سخط التلاميذ وثورتهم ·· ما أعجب الأقدار ، لفتنى ولفته ، حتى جمعتنى وجمعته ·· أنا فى الحزب أو فى جريدته ، وهو فى الحزب ، الشخصية الأولى ، لا عن كفاية ولا مقدرة ولا ذكاء ،ولكن عن حظوة من صدقى باشا رئيس الحزب وثقة منحها اياه ·· طويل مكتنز ، أكتاف عريضة ورقبة أعرض ، نظارة سميكة ووجه شديد السمرة ، وأنف كبير وعينان غائرتان ·· رجل جاوز الستين ، ومع ذلك تلقاه فى نشاط جم لا يكف ولا يتوقف ·· يتحرك أكثر مما يعمل ، ويتكلم أكثر مما يسمع ·· كلامه

يخرج غامضا غير واضح ، فيه تمتمة وثأثأة .. وفأفأة .. طيب القلب جدا ، قلما يثور وقلما يكون حازما فى شيء .. صدقى باشا آلهه ووحيه ، الله فى السماوات وهو فى الارض .. اذا أراد صدقى باشا أن يفعل شيئا احاله الى علام باشا ، واذا أراد علام باشا الا يفعل شيئا قال ان الامر بيد دولة الباشا .. وأنا يا ابنى حاكلمه .. ربنا يسهل .. أنا مش بايدى حاجة .

ولم يكن أحد يعرف حزب الشعب او يدخله أو يتصل به ولا يعرف علام باشا .. اذا قلنا مثلا ان القاهرة تعرف بأبى الهول أو الأهرام ، قلنا ان حزب الشعب يعرف بعلام باشا .. ولو رأيته وحده وهو فى الشارع قفز الى ذهنك حزب الشعب ولو رأيته على أية صورة من الصور قفز الى ذهنك حزب الشعب ، ولعل أحلامه نفسها كانت فى حزب الشعب ولحزب الشعب ، للباشا ، دولة الباشا .. أمين مخلص ، بل عابد متبتل فى محراب الحزب ومحراب الباشا .

وصدقى باشا مكير حويط ، ذكى ، بارع الذكاء ، عرف كيف يختار وعرف كيف يضع ثقته ،وعرف كيف يجعل من علام باشا حركة دائبة.. العمد والاعيان والمديرون والباشوات والبكوات ، اذا دخلوا سألوا عن علام باشا ، واذا احتاجوا الى شيء رجعوا الى علام باشا .. قلما كانوا يقابلون صدقى باشا المشغول بشئون الحكم ومقاومة الوفديين والتضييق عليهم ، ومقاومة القصر الذى يريد أن يطغى عليه .. نعم فقـــد كان صدقى باشا يقاوم القصر ، وهذا غريب ، كان القصر ســـنده الوحيد ، ولكنه ـ أعنى صـــدقى باشـــا ـ كان يعى تماما تجربة القصر مع محمد محمود باشا ، ويعرف انه ليس رجل القصر المحبوب المقصود ، ولكنه رجل القصر باضطرار من القصر ، فاذا ذابت حاجته اليه ، فرجال حزب الاتحاد هم الأولى ، وهم المندوبون والمؤيدون من القصر .. كان القصر يحتفظ بصدقى باشا ريثما يقضى له على الوفديين بما وهب من حيلة وذكاء وجرأة ، فاذا فرغت الحاجة اليه ذهب غير مأسوف عليه .. وكان صدقى باشا أذكى من ان تفوت عليه هذه الحقيقة ، وأذكى من ان يترك لخصومه فرصة الدس بينه وبين القصر ، ولذلك كان محتاجا لقدر كبير من المهارة ـ وكان عنده هذا القدر وزيادة ـ لكى يظهر أمام القصر كأنه رجله الخاضع له أكثر من خضوع حزب الاتحاد ، وهو فى الواقع ليس بهذا الخضوع ، كانت له شخصيته وآراؤه الخاصة وسياسته الخاصة ، وكانت له أيضا مطامعه فى ان يبنى له مستقبلا سياسيا مستقلا ، يحتاج

فيه القصر اليه ، ولا يحتاج هو الى القصر ، اوعلىالاقل لا يكون سنده الوحيد هو القصر ٠

كنت أذهب كل يوم الى حزب الشعب ، ولكننى قلما كنت أدخل داره الفاخرة الا نادرا جدا ٠٠ كنت آخذ طريقى فى الحديقة الواسعة الى مبنى جانبى صغير ، طوبه أحمر أنيق ، فيه طابقان وبدروم ٠٠٠ هما دار جريدة الشعب ٠٠ ان المبنى ملحق بالقصر الكبير ، لا بد انه كان منزلا للخدم والسفرجية والبوابين والقواصين فى القصر الكبير ٠٠ كان هذا المبنى هو حظ جريدة الشعب من القصر الكبير ٠٠ استكثروا عليها أن يكون لها غرفة أو بضع غرف فى القصر الكبير فنفوها الى هذا الركن المنزوى المنعزل ٠٠ كيف كان صدقى باشا وعلام باشا وغيرهما من كبار رجال الحزب ينظرون الى الجريدة ؟ لا شىء ٠٠ مجرد اداة لا بد ان تكون. لأن لكل حزب جريدة تعبر عن رأيه ٠٠ تماما كما ان لكل بيت نافذة أو بابا ٠٠ مجرد شىء يستكمل به الوجود الواقعى للحزب ٠

وفى هذا المبنى الضخم الفخم القائم على بضعة أمتار كان الحزب الضخم الفخم حزب الشعب بباشواته وأعيانه ومديريه ، ورئيسه رئيس الحكومة ، صدقى باشا واسمه كان كافيا لكى يضفى على الحزب الخوف والرهبة ، وربما القوة ايضا ٠

كان رئيس تحرير جريدة (الشعب) هو الاستاذ عبد المجيد نافع ، وكان محاميا نابها ، جاء من الأرياف ، من ميت غمر والمنصورة مباشرة لكى يكون رئيسا لتحرير جريدة (الحكومة) ٠٠٠ تماما كما جاء الدكتور هيكل من المنصورة ـ وكان محاميا فيها ـ ليكون رئيس تحرير جريدة (السياسة) ٠٠٠ أهى مصادفات ، أم هى أقدار ؟ مهما يكن من أمر فقد لقيت الاستاذ عبد المجيد نافع لأول مرة ، وأنست اليه ٠٠ انه رجل مكتنز قصير ، ذو رأس كبير ، وأشداق منفوخة ، وعينين واسعتين ونظارة كبيرة ، لمحت فيه طيبة أهل الريف وطابعهم ٠٠ شعرت انه رجل نشأ فى البيئة نفسها التى نشأت فيها ٠٠ قال انه محام منذ ١٣ سنة ، كان من الألسنة الخصبة القوية لثورة سنة ١٩١٩ ٠٠ قال لى ان سعد زغلول وصفه بأنه أخطب خطباء الثورة ٠٠٠ قال انه كتب مقالات فى (الاهرام) أعجب بها سعد زغلول ، وشجعه على الاستمرار فيها ٠٠ وفهمت منه أشياء كثيرة عن حياته ، ولا بأس بما لمحته عليه من رغبة فى التفاخر والزهو ٠٠ لا بأس بهذا كله ، فالانسان مطبوع على ان يزهو ويفاخر ٠٠ لم يضايقنى منه هذا ، ولكنه عطفنى اليه ، شعرت ان الرجل

يحس انه طارىء على الصحافة ، وليس له بها سابق عهد ، ولذلك الح ، وهو يتحدث على مقالاته فى الاهرام وكتبه التى الفها أو ترجمها ، واتجاهه الى مرافعات المحامين الفرنسيين الاكابر ٠٠ كانت ثقافته فرنسية خالصة ٠٠ كان فعلا محاميا اشتغل بالصحافة أو خطيبا اشتغل بالصحافة ، يبدو فى مقالاته أسلوب المحامى وأسلوب الخطيب ، كان يملى مقالاته أحيانا يدعو الشيخ على الشايب ، محرر طويل عريض ، شميخ رقيق على الرغم من انه هائل الجسم والرسم ، ريفى طيب ، أزهرى طيب ، يحاول أن يكون مودرن فلا يستطيع ، يحاول أن يكون أزهريا خالصا فلا يستطيع ، أحببته اذ رأيته واطمأننت اليه اذ حادثته ٠٠ كان ينظر الى الأفندية من المحررين ، ويرى نفسه شيخا فيظن أنه أقل منهم ثقافة ومركزا ، ولكنه فى الواقع كان على قدر من المعرفة والخلق والطيبة جعله محبوبا من المحررين جميعا ٠٠ يدعوه عبد المجيد نافع الى مكتبه ، ويأخذ يملى عليه مقاله ٠٠ ولك أن تتصور الشيخ على الشايب وعمامته الثقيلة على رأسه ، وحر الصيف شديد ، وغرفة رئيس التحرير ضيقة ، ورئيس التحرير نفسه سمين مكتنز يضايقه الحر فيخلع طربوشه ويخلع المحرر عمامته ، ويجفف عرقه بمنديل محلاوى ، بينما يضع رئيس التحرير حول رقبته وبين الجاكتة وبينها منديلا طويلا عريضا ، أقرب أن يكون هو الآخر منديلا محلاويا ٠٠٠ وهات يا تمليه ٠٠ رئيس التحرير يجهد نفسه وقريحته ، والمحرر يتابعه وهو يكتب ويشطب ويحذف ويثبت ٠٠ رئيس التحرير يملى فى صوت خطابى وفى نبرة محامين ناجحين اعتادوا مواقف الدفاع والهجوم ، والمحرر يكتب ويثنى ويشجع وينتشى ٠٠ فاذا فرغت المقالة فقد أصبح لدينا عمودان أو ثلاثة أعمدة هى افتتاحية جريدة الشعب ٠

ويطول اعتكاف رئيس التحرير والمحرر ، بينما يغدو أحمد الساعى ويروح يفتح الباب ويقفله اذا ناداه رئيس التحرير أو طلب شيئا ٠٠ وأحمد هو ساعى مكتب المحامى فى المنصورة وميت غمر ، هاجر مع المحامى حين أصبح رئيسا لتحرير الشعب ٠٠ وليس هو وحده الذى هاجر ، ولكن هاجر معه أيضا عبد الحميد أفندى مسعود ، كان وكيل المكتب ، فأصبح مخبرا فى جريدة الشعب ٠٠ فاذا فرغ رئيس التحرير من املاء مقاله ، وكان الجو صافيا ، خرج الى حديقة الدار ، وجلس فى الشمس أو فى الظل ، حسب الظروف ، وحوله عبد الحميد أفندى وأحمد الساعى أقرب الناس اليه ، وأدناهم منه ٠٠ كانا معه فى المنصورة وميت غمر ٠ وانتقلا الى القاهرة ٠٠ يحدثهما ويتحدثان اليه ، ينقلان اليه أثر

مقالاته فى الناس ، ويبديان اعجابهما الذى لا اعجاب بعده بالسحر الذى يتدفق من المحامى الكبير ، وهو رئيس تحرير ، كما كانا يبديان اعجابهما به ، وهو يرج المحاكم فى ميت غمر والمنصورة ·· ولا يخلو الامر من أن يطلب رئيس التحرير (بروفة) المقال ويتلوه على عبد الحميد أفندى ، يتلوه فى نبرة المحامى وأسلوب الخطيب ·· وعلى عبد الحميد أفندى ، وعلى أحمد أيضا ، ان ينتشيا ، وقد تتسع الحلقة فينضم اليهما الشيخ على الشايب والشيخ عبد العظيم محمود عبد الله ، وهو محرر آخر دخل جريدة الشعب ·· كان شيخا ، ولكنه ليس البدلة الافرنجية ، طويل عريض ، له رقبة طويلة ، وفيه حساسية جميلة للثناء من غير حساب ·· وينتشى رئيس التحرير ويبتهج وهو يجد القراء ·· نعم القراء ، فقد كان يظن ان الناس يتلهفون فى الصباح على قراءة مقالاته ·· ويحسب ان من حوله من الحواريين المداحين ، صورة من القراء ، أو لابد أن يكونوا صورة منهم ·

وعبد المجيد نافع شخصية خصبة ·· تحس وانت معه ، انه يشعر انه مغبون فى حياته العامة وينظر الى أقرانه الذين سبقوه فى عـــالم السياسة والاحزاب ، فيرى انه تخلف عنهم ، مع انه أكثر منهم ثقافة ، وألمع ذكاء ، وأقدر لسانا وأقوى قلما ·· وكل هذا صحيح ·· فقد بدأ الرجل مع ثورة سنة ١٩١٩ نجما لامعا ، كاتبا وخطيبا ومحاميا ·· وكان يمكن أن يعوم على الموج حتى يبلغ أقصى مما بلغ أقرانه ، ولكنه لم يستطع ·· لست أدرى لماذا ؟ ربما لأنه تنقصه المرونة ، وربما لأنه تخلى عن الوفد فى المراحل الاولى وانحرف الى خصومه ، وربما لأن شخصيته لم تكن هى الشخصية المنسابة المتسللة ، التى تستطيع أن تنتفع بالحوادث والمفارقات والمتناقضات ·

مهما يكن من أمر فقد أحببت الرجل وارتحت اليه ·· وكنت أشعر اننى غريب ، حينما بدأت عملى فى جريدة الشعب ·· والى جانب الغربة، كان هناك هذا الاحساس السىء الذى استولى على ، لأننى تركت جريدة السياسة ببهرها وعظمتها وروعتها ، الى جريدة الشعب بظلامها وضعفها وضآلة حزبها وسياسته ·· وكان هناك أيضا هذا الشعور السىء ، اننى أشتغل فى جريدة الشعب التماسا للرزق ، لا لشىء آخر ·· فلم تدخل الجريدة فى وجدانى ولم يدخل الحزب ، وليس أقسى على الانسان من ان تجبره الحياة على أن يشتغل من غير روح ، ومن غير هدف أو غاية ·· وانعزلت عن موكب الحزب والجريدة جميعا ، وقبعت فى القسم الخارجى،

أشرف على ترجمة التلغرافات الخارجية وأقوم بالتعليقات الخارجية ...
كنت أشتغل فى جريدة الشعب ولا أشتغل فيها .. أؤدى عملى وانصرف دون أن أفكر مرة فى الاتصال بأحد من الحزب ، رجاله أو ساسته ، كان عزائى ان فى « الشعب » بعض من عرفتهم فى جريدة السياسة .. كان هناك الاستاذ محمد شوقى سكرتير التحرير ، وهو صديق قديم وزميل عزيز أحببته وارتحت اليه حينما كنا معا فى جريدة (السياسة) .. وكان هناك الاستاذ محمد يوسف السركى مدير الادارة ، عرفته من قبل فى (السياسة) أيضا .. وكان هناك آخرون : الاستاذ توفيق عبد الله مترجم قديم ، رجل أنيق باسم الوجه دائما .. يؤدى عمله وينصرف دون أن يتصل بأحد أو يتصل به أحد ، عرفته هو الآخر من قبل .. كان جو جريدة (الشعب) جديدا على تماما ، ولم أستطع الاندماج فيه تماما ، وان استطعت أن أعرفه وأصوره وأحسه كمتفرج .. كان علام باشا عاهل الحزب ، سلطانه على الجريدة أيضا لا يرد .. كان هناك محمود رشيد سكرتير صدقى باشا أو شيء من هذا ، شاب أنيق يبدو الذكاء والدهاء فى عينيه ، تركى أو من أصل تركى هكذا بدا لى .. أو بدا لى كل هذا مجتمعا فيه .. كان يزور الحزب من وقت الى آخر ، وسمعت انه صاحب نفوذ فى الجريدة والحزب .. علام باشا العاهل المقيم ، ومحمود رشيد العاهل المتنقل بين الجريدة والحكومة وبين الجريدة والحزب والحكومة .. ما تنازل مرة وزار مكاتب الجريدة .. كان مقامه أعلى وأكبر ، اذا تفضل وجاء ، ففى قاعات القصر الفخم الفاخر ، مقر الحزب .

وكانت الجريدة لا تقرأ ، كما هو معروف بالبداهة والواقع لأن الناس لم يكونوا مؤمنين بسياسة صدقى باشا ولا بدستوره الذى أصدره ، ولا بانتخاباته التى يوشك أن يجريها والتى حشد لها العمد والمشايخ والمديرين والمأمورين والجند والسلاح ، ولكن رجال الحزب ورجال الجريدة لم يكونوا يؤمنون بهذا الواقع الذى يؤمن به كل الناس ، كانوا يظنون ان الوفديين هم الذين يقاومون انتشار الجريدة .. وكانوا ينظرون الى الجريدة كل صباح ، وهى تظهر جميلة مرصوصة ، مرصوفة بالمقالات النارية التى كلها شتم فى الوفد والوفديين وتمجيد فى صدقى باشا وعبقريته وسياسته ، ويعجبون لماذا لا يقرأ الناس هذا الدر المنثور .. ووضعوا همهم فى « المعلم على الفهلوى » متعهد الصحف حينئذ .. قالت المباحث وقال القلم السياسى انه يتسلم كميات جريدة الشعب من المطبعة ، ويلقى بها فى مخازنه ، ثم يعيدها الى أصحابها مرتجعا .. وكان

أحمد كامل بك (ابن أخت صدقى باشا) مدير الامن العام ٠٠ واستدعى على الفهلوى وسأله وساءله ، وراوغه ومناه وهدده ٠٠ وهز على الفهلوى رأسه وابتسامة عريضة على وجهه وقال : يا سعادة البيه ٠٠ الجريدة فى ايدى البياعين ٠٠

وانطلق المفتشـــون من الجريدة والحكومة ، يجـوبون الشـــوارع والميادين والحوارى والازقة يسألون عن جريدة الشعب فى ايدى الباعة ، فيجدونها ٠٠ ولكن الأمر لم يتغير ٠٠ بضع نسخ هى التى تباع ، والباقى كله ، الآلاف المطبوعة ، تعود آخر الشهر أو آخر الأسـبوع كالجثة ٠٠ ووقع على الفهلوى فى شر ما يقع فيه انسان ٠٠ لم يصدق أحد من الحزب أو الجريدة انها لا تقرأ وأصبح على الفهلوى المسئول الاول والمجرم الأول ٠٠ قالوا له : ستخرب بيتك اذا لم تبع جريدة الحكومة ، جريدة صـدقى باشا ٠٠ قال الرجل الزئبقى الذكى ، ابن البلد الذى لم تكن تستطيع أن تعرف باطنه من ظاهره : اشتريها أنا ٠٠ حاضرب الناس وأخليهم يشتروها ٠

كان يلوح لى أحيانا انه لا أحد يقرأ جريدة الشعب ، حتى ولا صدقى باشا ٠٠ كان يلوح لى أن علام باشـــا هو وحده الذى يقرؤها متى صحا من النوم ، كأنها أدسم افطار ، وأجمل تحية ، وأحلى وردة ٠

ويبتسم رجال الحكومة ، ورجال الأمن ، ورجال القلم الســـياسى ابتسامة فيها الاغراء والتهديد ، فيها الوعد والوعيد : يا معلم على همتك ٠٠ يا معلم على ، الباشا مبسوط منك قوى ، ومعتمد عليك ٠

والمعلم على الفهلوى رجل قصير نحيف ، يلبس طربوشا وجلابيـة وبالطو ، يضع فى الشتاء ، وربما فى الصيف أيضـــا ، كوفيـــة حول رقبته ٠٠ لا تراه الا مبتسما ، ولا تراه الا راضيا ٠٠ اذا شتمته فهـو يبتسم ، واذا وعدته وأغريته فهو المبتسم أيضا ٠٠ وضاقت به الحكومة، وضاقت به قوات الامن كلهاولم تستطع أن تصنع شيئا ، وظلت جريدة الشعب تطبع ، وتعود الى أصحابها كما طبعت ٠

نشطت الحكومة ففرضت الاشتراك فيها على العمد والمشايخ ،فجاءها ايراد كبير من هذه الاشتراكات ، ولكن حتى المشتركين بالاكراه لم يكونوا يقرؤونها ٠٠ كان ما تكتبه فيها كأنه سر لا يباح به لأحد ، ولا يبوح به أحد ٠

كان صدقى باشا ، اذا أراد أن يدلى بتصريح أدلى به الى الأهرام أو

المقطم ، ويغضب عبد المجيد نافع ويصرخ : أمال جريدته فين ٠٠ كان الرجل يبذل غاية جهده فى تحبير المقالات وملئها بأعظم الشتائم رنينا فى الوفد والوفديين ، فلا يرد عليه ولا على جريدته أحد ٠٠ بينما الحملة على صدقى باشا وعلى سياسته وحكومته لا تقف ولا تتوقف ٠

أول مرة قابلت فيها محمود رشـــيد ، كانت اذ أعلن فى الأروقة والردهـات والدوائر ، أروقة وردهـــات ودوائر الجريدة والحزب ، ان الأستاذ محمود رشيد سيتولى تنظيم الجريدة ودفعها الى الأمام ٠٠ قال لى: أنا ملاحظ ان المحررين فى الجريدة لا يؤدون عملهـم كما يجب فمـــا رأيك ؟ كان يتحدث كأنه آله ، ابن ذوات مرموق فى الحـزب والحـــكومة وعند الباشا ، دولة الباشا قلت له : هذا صحيح ، ولكن لا تنس ان جو العمل له أثره ٠٠ ان سياسة الحـكومة مكروهة من الشـعب ، واذا كان الناس لا يقرؤون جريدة الشعب فليس لأنهـا جريدة سيئة من الناحية الصحفية ، بقدر ما هى سيئة لأنها تمثل رأيا سياسيا لا يقبله الناس ٠

قال : أظن ان العناية بالتحرير تغرى الناس بقراءتها ٠

قلت : الى حد ما ٠

ولا أطيل ، فشل محمود رشيد فى دفع جريدة الشعب الى الأمام ، كما فشل صدقى باشا والاستاذ عبد المجيـد نافع ٠٠ وكيف يمكن أن تدفع جريدة الى الامام ، وعجلاتها مغروزة فى الوحل والرمل والأحجار ٠٠ كان علام باشا ينظر الى المرتجع وهو يتدفق بالاطنان ، ويكاد يبكى ٠٠ انه يخاف صدقى باشا أكثر مما يخاف من أى انسان ، بل أكاد أقول أكثر مما يخاف ربه ، ولا بد انه سيسأله : لماذا لا تقرأ الجريدة ، ولا بد انه سيعده مسئولا عن هذا الفشل الذريع ٠

كان محررو جريدة الشعب خليطا عجيبا ، أزهريين بجبب وقفاطين ومخبرين ، منهم من كان وكيل محام أو موظفا فى دائرة ، أو موظفـــا فى البريد لأنه قريب أحد أعضاء الحزب البارزين ، ومنهم من كان نائبا وعينا من الأعيان وغنيا من الاغنياء وسياسيا من السياسيين ٠٠ كان منهم الاستاذ محمد الصباحى ، النائب الوفدى القديم ، والذى نفى الى مالطة فى مطلع الحرب العالمية الأولى بين من نفى اليها من الوطنيين المصريين ، شخصية بارعة ذكية ، خفيف الدم ٠٠ محدث من الطراز الاول ، داهية من الطراز الأول ٠٠ مدح صدقى باشا كما لم يمدح انسان انسانا ٠٠ صاحبه فى مواكبه لزيارة الاقاليم ، وكتب عن الحشـــود المصفقة الهاتفة

المؤيدة ، وأراق مداد قلمه كأنه مؤمن مخلص مصدق ، فلما افل نجم صدقي باشا ، وتولى بعده الحكم عبد الفتاح يحيى باشا ، وأراد ان يستولى على التركة كلها ، رياسة الحزب وأعضاء الحزب والسيطرة على الجريدة ·· وبدا ان القصر غاضب على صدقى باشا فى أواخر سنة ١٩٣٣ ، قال الصباحى وهو يضحك ضحكته الجميلة من قلبه : واحنا مالنا ومال الراجل ده ·· داجبار ·· شوف حادثة الحصاينة ·· شوف حادثة العنابر ·· انتخاباته المزورة ·· ٦٧٪ وكمان تلات اربع ·· يا شيخ ، عبد الفتاح باشا راجل طيب أمير هادى ·

ولما بدأ فى أواخر سنة ١٩٣٤ ان الوفد موشك ان يتولى الحكم وان وزارة عبد الفتاح يحيى تلفظ أنفاسها الاخيرة قال لى وهو يضحك ضحكته العميقة من قلبه : واحنا بيننا وبين الوفديين ايه ؟ ·· طول عمرى راجل وفدى ··

كانت هذه فلسفته ، وكانت فلسفة العصر عند كثيرين ··

وكنت أرى بين محررى الشعب الاستاذ حسن حافظ وهو موظف فى ادارة المطبوعات ، فاذا أمسى المساء ، جاء يحبو فى خطوه الوئيد ، يحمل مائة كيلو من اللحم ، ومعها ابتسامة وادعة وروح طيبة ، فيجلس فى ركن من غرفة الاستاذ شوقى ويقرأ الصحف ، ويضع نظارته ويرفعها عشرين مرة ، ويمسك القلم ويكتب كلمتين أو ثلاثا ، ثم يمزق الورقة كلها ، ويبدأ فى ورقة أخرى خمس كلمات ثم يمزقها ويظل يفعل هذا لا أقل من عشر مرات فى عشر ورقات تذهب ممزقة الى سلة المهملات ، الى أن يفتح الله عليه ويستقيم قلمه ، ويكتب ما كان يسمى حينئذ « بالطقطوقة » و « الطقطوقة » مقال شتم صغير فى الوفد ينشر على رأس عمود فى الصفحة الخامسة أو فى الصفحة الرابعة ·· وكان الاستاذ الصباحى يكتب هذه « الطقاطيق » أيضا ، فتظهر الجريدة وفيها مقال الاستاذ عبد المجيد نافع رئيس التحرير ، عمودين أو ثلاثة ، وفى بعض الاحيان صفحة كاملة ، فاذا دخلت فى وسط الجريدة رأيت طقطوقتين أو ثلاثا منشورة كالدر فى رؤوس الاعمدة الداخلية ·· ليس فيها الا الشتم ·· كان هناك أيضا الاستاذ ابراهيم حسنى ميزار موظف هو الآخر فى ادارة المطبوعات كان يزور الجريدة من وقت الى آخر ، ويعطى الاستاذ عبد المجيد نافع طقطوقة هو الآخر ·

واستبدلت بالشيخ حامد رئيس مطبعة « السياسة » بوجهه السميك وبدنه السميك ونظارته السميكة وابتسامته الساخرة ، حسن علام ،

رئيس مطبعة « الشعب » ·· وجه سميك أيضا وبدن سميك أيضا ، يمتاز عن صاحبه ببلادة سميكة ، وغباء لا شك فيه ، يشتمه سكرتير التحرير ورئيس التحرير وكل المحررين ومدير الادارة ويحتمل الشتم بابتسامة بلهاء ·· كان واضحا انه مثلنا طالب رزق ثم لا شيء آخر ·

ولم أكن مستطيعا أن أطمئن الى هذا الجو ، أو أشعر انه يمكن أن يستقر ·· لم أدع المحاماة ، ولكنى فكرت فى اصدار مجلة شهرية باسمى ·· لم يكن ما أصنعه فى جريدة « الشعب » صحافة ولم يكن يرضينى ، ولم يكن أيضا موردا ثابتا للرزق ·· تعلمت من جريدة السياسة ان الصحافة تخون ·· واذا كانت قد خانت فى جريدة كانت تبدو ثابتة الدعائم كجريدة « السياسة » فهى أولى أن تخون فى جريدة مهلهلة كجريدة « الشعب » يتدخل فيها علام باشا وصدقى باشا ومحمود رشيد وعشرات آخرون من أعضاء الحزب وحوازييه ·· كل يوم فى حال ، كأنها جو الشتاء المتقلب ·· كان المحررون يفصلون من وقت الى آخر ، ويأتى غيرهم ، دون سابق انذار ·· وكنت أتوقع من وقت الى آخر ان افصل انا الآخر ، اما بسبب التوفير ، أو بسبب ثقل الدم ، أو بسبب أية نزوة من النزوات تستبد بأى واحد من أعضاء الحزب أصحاب السلطان ·

وأصدرت العدد الأول من « الفصول » فى يوليه سنة ١٩٣١ ، أعنى بعد اشتغالى فى جريدة الشعب بنحو خمسة أشهر ، واشترك معى فى تحريرها واصدارها شباب « السياسة الاسبوعية » ممن اتصلت بهم وعرفتهم وارتبطت بينى وبينهم صداقة روحية وفكرية ، الاستاذ حافظ محمود والاستاذ محمود عزت موسى والاستاذ أمين حسونة ، وتفضل الاستاذ محمود تيمور فاهدانى قصة للعدد الأول ، وتفضل الشاعر العراقى « الزهاوى » فبعث الى بقصيدة نشرتها أيضا فى العدد الأول ·· أحسست وأنا أصدر « الفصول » باعتزاز واستقلال ·· كانت عندى أعز من كل شيء ·· وما ان صدر العدد الأول ، حتى ذهبت وبعض أصدقائى نرتاد الشوارع نسأل الباعة والمتعهدين ·· كم نسخة أخذوا وكم نسخة باعوا ·· وحفيت أقدامنا من السؤال والاستجواب وشمس يوليو تكوينا بنارها المحرقة ، ونحن لا نكف عن السير والسؤال، والرضى والغضب ، متراوحين بين الأمل المشرق واليأس القاتل ·

عشت مأساتي مع الخوف والموت

« كانت دقات قطار حلوان ، وهو ينهب الطريق نهبا ، تظل تطن في أذني وأنا في عملي ، وأنا في فراشي ، طول الليل »

هل كانت لى فلسفة فى الحياة حينئذ ، وانا فى جريدة الشعب ؟ •• هل كانت شخصيتى قد كملت ، واستقلال رأيى قد تم ؟ هل كنت أنا نفسى كما أريد ان أكون ؟ أو كنت شيئا آخر فرضته الظروف ؟ .

كنت أروح وأغدو الى جريدة الشعب كالآلة •• فرضت الظروف على أن أشتغل فيها ، ومن الظروف ما يخفى شخص الانسان الحقيقى •• يبقى كالرماد المتوهج ، ومن عجب أن يتوهج الرماد •• كنت أشعر اننى أعد نفسى، أتتلمذ ، أؤدى ماينبغى أن يؤديه الانسان من ضريبة لأن الظروف قضت عليه ان يؤديها •• كنت قد تزوجت ، لم أكن وحدى ، ومن المسئوليات ما يثقل الكاهل ، ويجعل الانسان يقبل ما لا يقبله لو كان بغير مسئوليات •• انها قيد ، قيد ثقيل •

ويشاء الله أن تصاب زوجى بذات الصدر •• لم تكن تعرف مقدمات المرض الى أن كشفه أحد الاطباء ، وأشار على أن تقيم فى حلوان حيث الجو جاف • وفعلت ما أشار به ، أصبح لى بيت فى حلوان تقيم فيه زوجى ومعها ولداى وامهما ، واحتفظت ببيتى فى القاهرة أقيم فيه وحدى حتى أفرغ لعملى •• كنت أزور حلوان من وقت الى آخر ، وأرى المرض اللعين يستل ماء الشباب من الوجه المتورد وولدى يذوبان . انهما طفلان فى عمر الزهور ، كنت أعود دامع العين كسير القلب والفؤاد •• ما أحسست بقسوة الحياة ، كما أحسست بها حينئذ ، وانا بعد طرى العود •

لم أقل لاحد ، لا لاصحابى ولا لاهلى ، ولا لابى •• كتمت أساى

فى قلبى ، وشربت حزنى وحدى ، وتحملت المسئولية كاملة على عاتقى ٠٠ فى مثل هذه الظروف ، هل أستطيع الا أن أعمل ، والا ان أضاعف عملى ، والا أن أفنى فيه ، أيا كان ؟

كانت مرحلة قاسية مؤلمة ٠٠ كان طفلى الاكبر وعمره سنتان حينئذ، اذا ذهبت الى حلوان وأردت ان أعود ، تعلق بى باكيا ، فأحاوره وأداوره ، وأهرب منه ، وأدعه يظن اننى لست منصرفا ، وامه مسجاة تضمر وتذوب لا العلاج ناجع ، ولا الرحمة والا العطف ولا الأم الساهرة ، ولا السماء الحانية ٠٠ كنت أترك حلوان ونجوم السماء تلمع ، وحر الصيف شديد ، ونسائم جافة تهب من هنا وهناك ، وصفارة القطار تلعلع فى الجو ، والناس غادون ورائحون يضحكون ويمرحون ٠٠ وأندمج فيهم بعقل شارد وقلب كسير ونفسى تلتزم قوتها ولا ترضى ان تضعف علنا ٠٠ كان كل الضعف فى داخلى ، كل الأسى ، كل الألم ، كل الحزن ٠٠ أكتسى وجهى صرامة ، واكتست أخلاقى جمودا ، وتندت عيناى بالدمع السخين المكتوم ، ولفتنى دوامة العمل ، والاصدقاء وحبر المطبعة وضجيج الماكينات٠٠ لم يكن أحد يستطيع ان يعرف ان هذا الضاحك النشط ، الذى لا يكف عن العمل ، يخفى فى صدره أسى أسرة تموت موتا بطيئا٠ بذلت كل ما أستطيع ، استنفدت كل الوسائل الممكنة ٠٠٠ أحسن الاطباء ، وأحسن مكان للاقامة ، وأعظم عناية ٠٠ ماذا أستطيع بعد هذا ياربى ٠٠ لا شىء الا ان أرجو رحمتك ٠

كان نهارى عجيبا وليلى أعجب ٠٠ من حلوان أحيانا مباشرة الى جريدة الشعب ٠٠ الى علام باشا بوجهه الطيب العبوس ، وعبد المجيد نافع بصوته الاجش وأوامره ونواهيه ومقالاته وحواربيه ، والشيخ على الشايب بجبته وقفطانه وطوله الفارع ووجهه الذى كنت أرتاح للنظر اليه ، وفؤاد مغبغب باصبعه المقطوعة ، والسيجار فى فمه ، ووجهه المكتنز وخطوه الشاب ، أسأله عن داء ذات الصدر ، فقد لاح لى انه يعرف الكثير عنه ، وأسأله عن فتاة لم تجاوز العشرين من عمرها ، أصيبت به ، وهل هو معد ٠٠ كنت أخشى أشياء كثيرة ، كنت أعيش مع الموت ، كأننى وهو صديقان ٠

ماذا تركت هذه المرحلة من الحياة فى نفسى ، ماذا علمتنى ؟ كيف كونتنى ؟ كيف دخلت فى وجدانى وقلبى وكيانى؟ لست أعرف على التحديد ولكن لابد انها تركت طابعها فى ، لابد انها تسللت الى كل قطرة من

دمي ، وجعلتني ما أنا ٠٠ ما أحسب شيئا في الوجود يمر بالانسان دون ان يترك طابعه فى عقله ، فى ذكرياته ، فى وجدانه .. فى كل شيء فيه .

كانت دقات قطار حلوان وهو ينهب الطريق نهبا ، تظل تطن في أذني طول الليل ، وانا في عملي ، وانا في فراشي ، وابتسامة ابني البريئة ودموعه النازلة وهو يجرى هنا وهناك ، يحاول ان يمنعني من الخروج والموت الذى اعرف انه يرفرف على هذا البيت في حلوان ٠٠ كل أولئك كان يزعج أحلامي ويدمر نفسي تدميرا ٠٠ ومع ذلك رفضت ان أشكو الى أحد ، لم يجر على لساني شيء من هذا أبدا لأي انسان من الناس ٠٠ كنت أسافر أيضا الى قريتي كعادتي ، فلا أذكر لأبى شيئا .. كان يسألنى كيف حالك ، فأقول له : الحمد لله ، كل شيء على ما يرام .. ولابد ان الرجل تناهى اليه شيء مما حدث لى .. ولكنه كان يعرف طبعى ، فلم يكن يحاول أن يسأل عن شيء لا أقوله .. حسبه ان يرى ابنه فى صحة طيبة ووجه باسم وقلب راض .

وكان قلبى راضيا حقا ، لم أتململ ولم أسخط ، ولم أنكر فضل الله ، ولم أجحد عونه ٠٠ كل ما في الامر انني كنت حزينا في نفسي ، دامع القلب بيني وبين ربي ٠٠ كيف تنكشف هذه المأساة ؟ الى أى طريق ستقودني ؟؟ لم أكن أعرف ، ولم أكن أفكر او انجم ، كان حسبى ان ينقضى اليوم دون شر ، ويجيء الليل ، فأرتمى فى فراشي شاكرا لله أنني لا أزال أعيش .

كان عملي في اصدار مجلة « الفصول » وفي جريدة « الشعب » وفي المحاماة من وقت الى آخر يطويني في دوامة ، فلا أكاد أذكر مأساتي الكامنة في أعماقي ، الا اذا خلوت الى نفسي وربي .

وفي هذه الاثناء كان صدقى باشا قدأصدر دستوره وأجرىانتخاباته وألف برلمانه وجمع حشـــــوده وأعيانه ، واستقام له الأمر أو بدا أنه استقام ، وازدهر حزب الشعب وبلغ غاية سلطانه ، وان بقيت جريدته حيث هى ، لا يقرأها أحد ولا يحفل بهـا أحـد ٠٠ وتقارب الاحـرار الدستوريون من الوفديين ، واندمجوا فى معارضة قوية للوزارة القوية.. واضطهد صدقى باشا الصحافة كما لم يضطهدها أحد ، وشدد العقوبات فى جرائم النشر وضيق من حرية الرأى جهد ما استطاع وعدل قانون المطبوعات واشترط في رئيس التحـرير الا يكون عضوا فى البرلمان ، والا يكون قد حكم عليه فى جريمتين من جرائم النشر ، وان تكون للجريدة مطبعة خاصـة وان تقدم تأمينا نقديا ، وكان القصد من هذا التعديل

اقصاء العقاد وهيكل وعبد القادر حمزة وحافظ عوض وغيرهم من كتاب المعارضة عن رياسة تحرير الصحف .

وقد ترتب على هذا التعديل ان رفع اسم الاستاذ عبد المجيد نافع من جريدة الشعب كرئيس للتحرير لانه كان قد انتخب عضوا فى مجلس النواب ، ووضع بدله اسم الاستاذ محمد شوقى ، وظل الاستاذ عبد المجيد نافع يتابع عمله فى كتابة المقال الافتتاحى والاشراف على تحرير الجريدة ، وحدث الشىء نفسه فى صحف المعارضة ، رفعت الاسماء التى لا تنطبق عليها الشروط ووضعت أخرى ، وابتدع فى الصحافة المصرية لقب « مدير السياسة » الى جانب رئيس التحرير ، وأمكن بذلك تطبيق القانون الجديد ، والاحتفاظ بالاسماء التى كان مقصودا ابعادها ·· وهكذا كنت ترى فى صدر كل جريدة اسمين : واحد منها لرئيس التحرير والآخر لمدير السياسة ·

كانت رحلاتى الى حلوان لا تنقطع ، موزع القلب والوجدان ، الهم جاثم لا يريد ان يتزحزح ، والمرض جاثم لا يريد ان يخف أو يذهب ·· وساءت حال زوجى ، واشار الاطباء بنقلها الى المصحة ، وبينما نحن نستعد لاغلاق البيت فى حلوان ، وتوزيع الاسرة الصغيرة توزيعا جديدا أليما ، أراد الله ان يسترد وديعته فى طفلى الأصغر ، فاختاره الى جواره وعمره سنة واحدة ، ورأيت لأول مرة الموت وجها لوجه ، رأيت الطفل باسما وهو ميت ، مستغرقا فى النوم ، وهو نوم الابد .. تصورته ملاكا أو كالملاك ، نعمة هبطت من السماء ، وهاهى عائدة اليها ·· ونظرت ·· لم أستطع أن أبكى ولم أستطع أن أتكلم ·· كان ما فى قلبى من الأسى أقوى من الدمع وأقوى من الكلام ·· كانت صلاتى صامتة خالصة لربى ·· ماذا قلت له وماذا قال لى ؟

ان الذكريات لا تذهب أبدا ·· انها تحفر لها فى القلب والوجدان بئرا عميقة عمق السنين والايام ·· هذا الوجه الرقيق ، هذا الهناء العذب ، هذه الدنيا التى ابتسمت ذات يوم مالها تمطرنى بالدموع ·· واريت التراب الجثمان الصغير ، ركبت معه السيارة ومعنا الحانوتى ، يحوقل ويصلى على النبى ، ويبدو أكثر حزنا من كل من كان معنا .· وكنت أنا صامتا ، ساكنا ، لا أستطيع حتى أن أتكلم ، كنت أنا وطفلى فى مناجاة صغيرة عظيمة ، هادئة عميقة . أحسست انه يسمعنى هو الذى لا يسمع . أحسست انه يحدثنى هو الذى لا يعرف الكلام ·· أحسست انه يفهمنى

هو الذى لم يفهم من الدنيا شيئا ٠٠ تركها قبل ان تومض فى عينيه وقلبه ٠٠ ترى ماذا كان يكون اليوم لو عاش ؟

وعدنا من غيره ٠٠ أمه مسجاة فى سريرها ، حزنها فى قلبها،وداؤها فى صدرها ، تنتظر ان تنتقل الى المصحة وحدها ، وينتقل طفلها الثانى مع أمها حيث يقيم ويعيش بعيدا عنها ٠٠ وأنا الآخر أعيش وحدى ، بعيدا عنهما .

ومرت بى مرحلة أخرى أقسى وأشد ألما ، كانت أسرتى كلها تقيم فى حلوان واقيم أنا فى القاهرة ، أزورها من وقت الى آخر ، والآن نقص منها عضو أصبح يقيم فى الصحراء ٠٠ هناك ٠٠ هناك وحده ٠٠ يقيم على ألا يعود أبدا ٠٠ الأم وحـدها فى المصحة القائمة منعزلة فى طرف حلوان، الطفل الآخر يقيم من غير أب ولا أم مع جدته فى القاهرة ٠٠ وأنا أقيم وحدى مغرقا فى عملى ، لا أكاد أفيق منه الا لأذهب تارة الى حلوان لأزور الفتاة المسكينة الوحيدة ، أو الى البيت الذى يقيم فيه طفلى ، يسألنى أين امه ؟ فأراوغه وأداوره وأحاول أن أصرفه عما يلح فيه من سؤال .. اغمره بالهدايا عله ينسى ، وكيف يستطيع طفل أن ينسى أمه ؟ . فاذا ذهبت اليها ، سألتنى عنه ، والدموع فى عينيها ، ورحمة الله العلى القدير تمسح أساها .

لم يكن أحد يعرف هذا أيضا ، تحملته وحدى ٠٠ لا أصدقائى ولا أهلى ٠٠٠ ماشكوت وما أذنت لحزنى أن يخرج من صدرى علنا ٠٠ كانت نجواى مع ربى وحده ، ولم يخذلنى أبدا ٠٠ ملأ حياتى دمعا ، ولكنه ملأها رحمة وأمنا ٠٠ كان يمنحنى القـوة حتى لأشعر مع ضعفى أننى قادر أن أزحزح الجبال طولا وعرضا .

عشت مروعا خائفا ٠٠ أن تموت الفتـاة الغضة تحت ثقل دائها اللعين ، أن يكون طفلى الصغير قد مسته الجراثيم ، أن أكون أنا نفسى ٠٠ كنت موزعا داعيا قانتا فى صلاة دائمة ٠

والتحقت فى هذه الأثناء بمعهد العلوم الجنائية فى أكتوبر سـنة ١٩٣٢ ٠٠ أعلنت الجامعة أنها أنشأته والحقته بكلية الحقوق لكى يعد طلابه للالتحاق بوظائف النيابة ، وتضاعف عملى ، ولكن هل لى من عزاء الا أن أعمل ؟ كنت أذهب الى المعهد فى المساء ، فى الساعة الرابعة ، بعد الظهر ، وأظل فيه الى السادسة أو السابعة أو الثامنة حسب الأحوال ، وأعود منه الى جريدة الشعب ، فاذا كان الصباح فأنا فى مكتبى الخاص أعـد المواد

اللازمة « للفصول » أو فى المطبعة أستعجل الطبع أو مع المتعهد أحاسبه على ما بيع وما تبقى .. فاذا فرغت وقتا قصيرا هنا أو هناك ،ذهبت الى حلوان ، أو الى حيث يقيم طفلى .. هكذا كان شبابى الباكر .. الباكر جدا ، الذى يقضيه الشباب فى مسئوليات قليلة أو لا مسئوليات على الاطلاق ، فى لهو وعبث بالليل والنهار .. وكنت مع ذلك لا أكف عن زيارة قريتى ، أذهب لأرى أهلى كيف يسيرون وكيف يعملون وكيف يعيشون ؟. كان الهم مضاعفا ، والمسئولية ثقيلة .. ثقيلة ، ولكننى لم أشك .. كنت سعيدا بالمحنة ، وكأنها امتحان وتربية ودرس وعظة ، كنت كأننى أدفع دينا مؤجلة فوائده .. وعلم أبى بوفاة الطفل الصغير .. لا لأننى قلت له ، ولكن لأننى فى غمرة من غمرات الدمع المنهمر والأسى العميق كتبت كلمة عنه فى « الفصول » .

قال لى : فى هذه السن يابنى تذوق الكأس المرة ؟ !

سكت ولم أجب ... قال : تجمل .. انه عوض عند الله كبير ..

كانت تجربة الدراسة الجامعية العالية فى المعهد الجنائى شيئا حبيبا الى نفسى ، حققت بها أمنية عزيزة ، فمنذ أنهيت دراستى فى الليسانس تاقت نفسى الى الدراسة العالية ، لولا ظروف العمل الكثير التى حالت بينى وبين تحقيقها فى السنوات الأولى التى أعقبت تخرجى .. ولم يزد طلاب المعهد فى أول افتتاحه على ثلاثين طالبا ، كانوا خليطا من المحامين والموظفين ووكلاء النيابة ، وكان منهم فؤاد سراج الدين .

وكان أساتذته كذلك خليطا من الأساتذة المحترفين الدائمين فى كلية الحقوق ، ومن الأساتذة المنتدبين من الخارج .. كان مسيو شيرون بذقنه اللطيفة و « لكننته » الفرنسية وخفة حركاته ، يجرى كالغزال ، ويقفز كأنه جدى ، يعطينا القانون الجنائى بتعمق ، وسيد مصطفى باشا بطربوشه الطويل ، ونظارته التى لا تفارقه ونكتته اللاذعة ، وتجربته العملية الطويلة فى النيابة يعطينا تحقيق الجنايات العملى ، وعلى بدوى بوجهه الذكى ورأسه الصغير وروحه الطيبة وجده الصارم ، يعطينا علم العقاب ، ومحمود حسن باشا المستشار الملكى لوزارة المالية حينئذ يعطينا « البوليس الفنى » رجل قصير فيه ذكاء ودهاء وعبط .. ومن عجيب أن يجتمع الذكاء والعبط ومعهما الدهاء ، ولكننى هكذا تصورت، محمود حسن باشا ، ريفى مائة فى المائة ، وعرفت انه من قرية مجاورة لنا هى « مشتول السوق » .. يتحدث بلغة عربية منتقاة ، وفى القاء سليم مؤثر ، كان كثير الزهو والتحدث عن نفسه ، وعندما كان يجىء

ذكر السياسة والاحزاب ورجال السياسة والاحزاب يقول : ياويلهم منى .. لو خرجت لهم .. يعنى لو ترك الوظيفة واشتغل بالسياسة .. ومعه حق فقد اختاره سعد زغلول فى أول الحركة الوطنية فى سنة ١٩٢٤ وعينه وكيلا لوزارة الداخلية ، وكان واضحا انه أثير عند زعيم الثورة ولو طال احتظاؤه وسارت الظروف كما كانت لأصبح محمود حسن باشا رجلا بارزا من رجال الوفد .

وكان يحاول أن يشعرنا أحيانا ان قبوله التدريس فى المعهد تنازل منه ، وكان احد الطلاب وهو أحمد أبو العلا ، باشكاتب محكمة امبابة فى ذلك الوقت يحرص على أن يتصدى له ويعارضه .. عن عباطة ظاهرة أو خفة دم لست أدرى ، كان أبو العلا طويل القامة جهير الصوت لا يكف عن اطلاق النكت والزعيق .. سماه محمود حسن باشا « أبا جهل » .. وكانت أحلى الاوقات عندنا ، حينما يقع الاشتباك بين الباشا المستشار وبين أحمد أبو العلا .

قال محمود حسن باشا فى موجة من موجات التفاخر التى كثيرا ماكانت تصيبه : لولا أنهم تحايلوا على علشان أدرس فى المعهد ، ماكنتش قبلت ..

واذا بصوت أحمد أبو العلا ينطلق كالصاروخ قائلا : ليه هو الكرسى اللى انت قاعد عليه مش أشرف من كرسى المستشار ؟ .

وضج الفصل بالضحك ، واضطر محمود حسن باشا أن يضحك فى غيظ مكتوم وقال وقد احمر وجهه ، اذا كان هذا التعبير يمكن أن يكون صحيحا بالنسبة لوجه محمود حسن باشا فقد كان شديد السمرة : أسكت يا أبو جهل ..

وكان هناك محمد فتحى بك المستشار فى محكمة الاستئناف حينئذ، يعطينا علم النفس الجنائى من الناحية النظرية ، والدكتور محجوب ثابت يعطينا علم النفس من الناحية العملية .. وكلاهما كان يتنافس فى مادته بصورة ظاهرة .. وكلاهما كان شخصية شديدة الاختلاف عن صاحبه ، فتحى بك رجل رقيق هادىء مسالم ، له صوت فيه رنة عذبة .. أحب علم النفس عن هواية ودرسه فى أوقات فراغه وألف فيه .. طبع لنا مذكرات واضحة فى أسلوب سهل يدل على تمكن صاحبه .. وكان علم النفس جديدا علينا ، وكان فى الوقت نفسه لذيذا ممتعا .. كنت قبل التحاقى بالمعهد الجنائى قد قرأت فيه كثيرا وأحببته كثيرا ، لذلك كنت

مشغوفا بدروسه ، شديد الاقبال عليها ، وأدرك فتحى بك هذا الميل عندى فمنحنى عطفه وارتياحه وتشجيعه ٠

وكان الدكتور محجوب ثابت شخصية لها طابعها الفريد ٠٠ لحيته التى يمسكها بيده من وقت الى آخر ، مشيته التى كان يقلد بها فى بعض الأحيان مشية الأوزة ، أو مشية جنود العاصفة التى كان هتلر فى هذا الوقت قد أنشأها ٠٠ اذا بدأ يلقى درسه ، سرعان مايخرج عن موضوعه ، ويدخل فى موضوع آخر ، ومنه الى موضوع ثالث دون تسلسل أو ترابط ٠٠ فاذا اعترضه أحد صرخ كأنه أسد ، وأسرع فى مشيته ، واشتدت قبضة يده على لحيته ٠٠ كنت أجلس فى الصف الأول ، وحدث أن كان الدكتور محجوب يتحدث عن مصارعة الثيران ويقول انها تصعيد لغريزة القتال عند الانسان ٠٠ قلت له : أحسب أنها تحويل Conversion وليست تصعيدا ٠٠ وقلت هذا لا فى صيغة العالم أو المتعالم ، ولكن فى صيغة الطالب الذى اضطرب عليه الأمر ويريد التصحيح اذا كان مخطئا من أستاذه ٠

ولكننى دهشت اذ رأيت الدكتور محجوب ثابت يقف فى وسط الفصل ، وكان يتمشى من قبل ، وقد برقت عيناه واحمر وجهه ، وجاء صوته كالرعد : أنا لها ٠٠ من يحدثك يجرى فى عروقه دم عربى هاشمى ٠٠ أنت تتصدى للصحافة .. تعال وناقشنى بعد انتهاء المحاضرة .. أنا لها ٠

واضطرب الأمر أمامى اضطرابا شديدا ، قلت له مخلصا : أنا يا دكتور لا أقصد شيئا ٠٠ انما استنتجت ماقلته من شرحك السابق للتصعيد والتحويل ٠٠ فاذا كنت مخطئا فأرجو تصحيح خطئى ٠

ولكن الدكتور محجوب لم يهدأ وعاد يقول : كيف تتصدى للصحافة؟ ولم أعرف حتى الآن الصلة بين ماحدث وبين كونى أتصدى للصحافة أو لا أتصدى لها ٠

وعرفت السر فى التحدى الظاهر الذى كان الدكتور محجوب ثابت يعاملنى به فى هذا الوقت ٠٠ كان يقوم بزيارات للسجون والاصلاحيات تطبيقا لدروسه فى علم النفس الجنائى ، ولم يكن وقتى يتسع للاشتراك فى هذه الزيارات ، فكنت أتخلف عن أكثرها ، وكان يضايقه هذا التخلف ويحسبه استهانة بشأنه ، ثم ان محاضراته كانت فى الغالب تأتى فى آخر البرنامج اليومى ، فى السابعة مساء٠٠وكانت ظروفى فى كثير من الاحيان

تحول بينى وبين الانتظام فى حضورها .. وكان هذا يضـايقه أيضا ، فأسرها فى نفسه .

كان الرجل شخصية متفردة في كل شيء ، يمتعنى ان أدرسها وان استمع اليها وان أراها فى كل حالاتها .. كان اذا تحدث ، تحدث من قلبه ، واذا أثاره أحد ، بلغت ثورته أقصى حد ، كان مرهف الاحساس الى حد كبير يشعر ان الزمن قسا عليه ، وان الدنيا لم تعطه كفاء قدرته وعلمه ، وكان الرجل عالما حقا ، ولكنه علم مشوش ، ليس فيه تركيز ولا ترتيب .. كان يرضيه ان يسـمع كلمة ثناء صـغيرة ، فاذا وجهه يشرق ، واذا نفسه تبتهج ، واذا كل أساريره تتفتح .. قلت له ، وهو يتحدث عن السياسة وينعى حظه فيها : كان حقهم يأخذوك وزير عمال يادكتور .

أجاب وقد شاعت في وجهه ابتسامة أسف مرة : حنعمل ايه فى سى نقرش يا سيدى .

ثم انشد هذا البيت في صوت فيه رنين عذب ، وألم مكتوم :

غزلت لهم غزلا رقيقا ولما لم أجد لغزلى نساجا كسرت مغزلى

وضح الفصل قائلا : الله .. الله .. كانت حصة الدكتور محجوب مسلية جدا..تارة تجده هادئا راضيا كالبحر الصافى، وماهى الا لحظة او أقل من لحظة فاذا به يهدر كأنه القدر ، ويدمر كأنه العاصفة .. ولكنه سرعان مايهدأ ويصبح فى وداعة الطفل وسكون الخاطر .

وقد حسنت علاقتى به فيما بعد ـ لسبب سيظهر فى بعض الفصول القادمة من هذه المذكرات ـ وكنت ازوره ، بعد تخرجي فى المعهد الجنائى ، فى عيادته او مكتبه او بيته فى شارع الكومى بالسيدة زينب .. وعرف اصدقائى هذه العلاقة الوطيدة بينى وبينه ، فجاءنى احـدهم ، لطفى الاصيلى ، وهو الآن الاستاذ لطفى الاصيلى المحامى وقال انه سيتقدم للالتحاق بكلية الحقوق ، ولابد من اجراء الكشف الطبى ، والذى يتولاه هو الدكتور محجوب ثابت طبيب الجامعة ، وقد جرى بعض زملائى على ان يذهبوا اليه فى العيادة فيكشف عليهم .. وقال لطفى شيئا آخر .. قال ان الدكتور محجوب يأخذ ٥٠ قرشا ويسهل الامور ، واصطحبته معى ذات مساء الى عيادة الدكتور محجوب .. وكان الرجل فى غرفة مكتبه ، استقبلنى بترحاب كبير ، وأفضيت اليه بالامر ، وتركنى فى مكتبه واخذ لطفى الاصيلى معه الى

غرفة الكشف ، واخذت انا اتسلى بالتقليب فى بعض الكتب ، واذا بصوت كالرعد يأتى من بعيد يقول : الحقنى ياسيدى عبد القادر .

وقمت مذعورا الى حيث وجدت الدكتور محجوب واقفا كالاسد ، وعيناه تقدحان شررا ولطفى المسكين قد خلع جاكتته ووقف خائفا يرتعد. قال الدكتور محجوب : تصور ياسيدى ماهواش عارف جبل الأوليـاء فين ؟

قلت ضاحكا : يادكتور .. داعثمان محرم وزير الاشغال مايعرفوش فين .. وسكت لحظة بدا فيها ان الدكتور محجوب غير مقتنع ، واستأنفت حديثى : يادكتور الراجل جاى تكشف عليه موش تمتحنه .

هز الدكتور محجوب رأسه آسفا وقال : جبل اولياء مايعرفهوش. واخدين البكالوريا ولا يعرفوش .

واستأنف الدكتور محجوب كشفه الطبى ثم قال : مقاس صـدره ٨٤ سنتى .. ياسيدى عبد القادرماينفعش .

قلت له مبتسما : يادكتور دا رايح كلية الحقوق هو حيحـارب . وصرخ الدكتور محجوب : عنده التدريب العسكرى .. لازم يلتحق به « كان الدكتور محجوب ثابت هو المشرف على التدريب العسكرى فى الجامعة حينئذ » .

ولاحظت ان الموقف يتحرج ، وربما ظن الدكتور ان اصـطحابى للاستاذ لطفى معناه انه لن يدفع الخمسين قرشا المقررة ، فاخرجت المبلغ وغمزت الدكتور به وانا اقول له : دا نظير مصـاريف العيادة وتعبك يادكتور .

قال الرجل وقد انفتحت اساريره : يا اخى مايصحش .. دا جاى معاك .. قلت له : يادكتور فضلك علينا كلنا .. احنا عندنا كام محجوب ثابت .

ولا اطيل ، نجح لطفى الاصيلى فى الكشف الطبى ، ولم ينضم الى التدريب العسكرى ، وبقى مقاس صدره كما هو ٨٤ سنتى ، وأصبح الآن محاميا ناجحا .

ولنترك المعهد الجنائى فترة قليلة ، نتركه يجرى بعالمه اللذيذ الممتع، ولاترك نفسى أذهب اليه وأعود منه ممتلئا راضيا ، سعيدا مبتهجا ، لأننى

أزيد من معرفتي وتجربتي ، وأهنأ مرة أخرى بالجامعة التي أحببتها وما زلت .. ولأعد الى حزب الشعب وجريدة الشعب ومحرري جريدة الشعب .. كان جو الحزب يكفهر شيئا فشيئا ، ووزارة صدقي باشا التي ظنت أنها ملكت البحرين والبرين تترنح تحت حكم أصدره عبد العزيز فهمي باشا فيما اشتهر حينئذ بقضية البداري ، قالت محكمة النقض ان رجال البوليس أتوا من المنكرات مايعد اجراما في اجرام وأن من وقائعها ما هو جناية هتك عرض يعاقب عليها القانون بالاشغال الشاقة .

وكان مأمور مركز البداري قد قتل لانه ارتكب حوادث تعذيب ضد بعض الافراد مما حمل اثنين منهم على قتله انتقاما منه .

ولم تكن أهمية هذا الحكم مقصورة على قضية البداري ، ولكنها لفتت النظر الى تصرفات رجال البوليس في عهد صدقي باشا ضد الخصوم السياسيين ، وتحررهم من كل رقابة قانونية واخلاقية معتمدين على حماية السلطة القائمة لهم ، فأمرت وزارة الحقانية (العدل) باجراء تحقيقات واسعة في هذه الحوادث .. وشعر صدقي باشا ان الاستمرار في هذه التحقيقات سيضعف قبضة يده ، ويكشف اعوانه واساليبه في الحكم ، فقدم استقالته ، الى الملك فؤاد في يناير سنة ١٩٣٣ ، فلم يقبلها الملك وامره بتشكيل الوزارة الجديدة من غير الوزيرين اللذين قاوما هذه الاساليب ، وهما عبد الفتاح يحيى باشا وعلى ماهر باشا ، ودخل في الوزارة الجديدة علام باشا للزراعة والقيسي باشا للداخلية وعلى المنزلاوي بك للاوقاف .

وكان صدقي باشا قد اصيب في هذه الاثناء بشلل في ذراعه اليسرى ، مما اقتضى تخفيف الاعباء عنه ، ومما اشاع الفرح والسرور في قلوب خصومه ، وتمنوا ان يضعفه المرض ، وهو الذي لم تضعفه الحوادث ولا المعارضة الشاملة الكاملة .. روى لي دسوقي اباظة باشا انه دخل عليه وهو رئيس للوزارة ووزير للداخلية ، وجنوده وضباطه يشتبكون في بولاق مع عمال العنابر والورش الاميرية في معركة سالت فيها الدماء ، وقتل العشرات من العمال والجنود ، فاذا به هادىء الاعصاب يقرأ في شعر لامارتين ويتحدث اليه عنه .. لم يسأله عن معركة العنابر ، ولم يرو له شيئا من اخبارها ، وكان يتلقاها في هذا الوقت اولا فاولا .

ترك علام باشا حزب الشعب الى الوزارة .. هل تركه ؟ كلا ..

كان اذا خرج من الوزارة جلس حيث كان يجلس فى حزب الشعب ، يرقب جريدته ويرقب زواره ‥ اخذ مكافأته على خدمته الطويلة لصدقى باشا وحزبه ولكن فرحته لم تطل ، فقد قررت الحكومة البريطانية فى اغسطس سنة ١٩٣٣ نقل سير برسى لورين المندوب السامى البريطانى من مصر وعينت بدله سير مايلز لامبسون (لورد كيلرن فيما بعد) ٠

وكانت النتيجة معروفة قياسا على السوابق ، فرح خصوم الوزارة ومعارضوها ، كان تغيير المندوب السامى ايذانا بتغيير الوزارة والسياسة ، واستقال صدقى باشا فى سبتمبر سنة ١٩٣٣ ٠

وترك الوزارة ، وتركها علام باشا وعادا الى حزب الشعب وجريدة الشعب ، ظنا منهما ان لهما حزبا له اغلبية فى مجلس النواب ، فاذا الرئيس الجديد عبد الفتاح يحيى باشا يحاول الاستيلاء ايضا على الحزب والجريدة ‥ وقد تم له الاستيلاء عليهما ‥ وعلينا ٠

ولهذا قصة ‥ بل مأساة ‥ وما اكثر المآسى التى عشت فيها فى هذه الفترة من حياتى ٠

الاستيلاء على حزب الشعب وجريدته

« كانت هذه المرحلة أشبه بالمطبات في الهواء ، أو أشبه بالفراغ الذى يصيب العقل والفكر فترة من فترات الحياة »

هزت استقالة صدقى باشا حزب الشعب وجريدته هزا عنيفا جدا ، فقد كان الرجل هو الخالق لهما .. ومن طبائع الاشياء أن يترنح المخلوق اذا اهتز الخالق .. ونحن الذين كنا نشتغل فى جريدة الشعب كنا أكثر من الحزب والجريدة اهتزازا .. أخذ كل منا يسأل عن مصيره ومستقبله ويتحسس من أين تهب الريح الجديدة .. وكنت منعزلا بتفكيرى عن كل شيء ـ كنت مغرقا فى دراستى بالمعهد الجنائى وعملى فى اصدار «الفصول» وخطواتى الوطيدة البطيئة فى المحاماة ، أجعل فيها مستقبلى الجاد الذى أريده .. كان عملى فى جريدة الشعب مجرد عمل مساعد ، اذا بقى كان بها ، واذا ذهب فهذا فضل من الله .. وكان الاستاذ محمد شوقى رئيس التحرير قد استقال للاشتغال فى الحكومة ، فاختارنى صدقى باشا لكى أحل محله ، ووضع اسمى فى صدر الجريدة رئيسا لتحريرها والاستاذ عبد المجيد نافع مديرا لسياستها ، وكان وضع اسمى اجراء صوريا محضا ، ففيما عدا ما كنت أقوم به من الاشراف الصحفى على الجريدة ، لم أكن أتدخل فى سياستها ولا اتجاهها ، ولا مقالاتها السياسية التى ظل الاستاذ عبد المجيد نافع مسئولا عنها بحكم انه مدير السياسة .

وقد قابلت اختيارى لرياسة التحرير بشيء كثير من الاستهانة بل والسخرية .. كنت أعرف الوضع تماما ، أعرف انه اجراء صورى لاقيمة له ، ليس عن تقدير خاص ، ولا عن براعة يعرفها صدقى باشا .. كل ما فى الامر انه لا بد من وضع اسم بدل الاستاذ شوقى ، ووقع

الاختيار على لأننى كنت حينئذ أوضح المشتغلين فى جريدة الشعب أثراء فضلا عن اننى كنت المشرف على الجريدة من الناحية الصحفية ٠

وقد زاد هـذا الوضـع فى الحرج الذى كنت أعانيـه ، ولكننى لم أستطع أن أفعل شيئا .. كنت أعيش فى دوامة من ظروفى الخاصة التى أشرت اليها فيما مضى ٠٠ كنت مشلول الارادة تقريبا ، تركت للقدر أن يتصرف فى أمرى ٠٠ ولاح لى أن القدر يحملنى على عاتقه ويعبث بى كما يشاء وتحملت عبثه وسخريته ٠٠ وتحملت أسى الأيام ٠٠ كان عزائى اننى أوشك أن أفرغ من دراستى فى المعهد الجنـائى ، وأن أمرى فى « الفصول » والمحاماة يستقيم شيئا فشيئا ٠٠ وكان الاستاذ عبد الحميد حمـدى قد التحق بجريدة الشعب ، وبدأ الصراع شـديدا بينه وبين الاستاذ عبد المجيد نافع ٠٠ صدقى باشا هو الذى جاء بالاستاذ حمدى، وأحس الاستاذ عبد المجيد نافع أن مركزه فى الجريدة يضطرب اضطرابا عنيفا ، وفى الوقت نفسه أخذ صدقى باشا ووزارته يترنحان ، وترك عبد المجيد نافع الجريدة ، وبقى عبد الحميد حمدى يكتب المقالات السياسية، ثم استقال صدقى باشا ، فاضطرب أيضا أمر الاستاذ حمدى وأمر الحزب والجريدة جميعا ٠٠ وفى هذه الاثناء أخذ عبد المجيد نافع يهاجم صدقى باشا ، وسياسته فى مجلس النواب هجوما عنيفا ، كان واضحا انه ينتقم لاقصائه عن جريدة الشـعب ٠٠ وأخذ نواب صـدقى باشـا وحواريوه ينصرفون عنه واحدا واحدا ، ويلوذون بالرئيس الجديد عبد الفتاح يحيى باشا ٠٠ كان صدقى باشا يظن انه أقام نظاما وحزبا ووضع دستورا ، وأنشأ مجلسا للنواب له فيه الاغلبية ، واستخدم لباقته المشهورة فجمع الحزب وأعلن تأييده للحكومة الجديدة ٠٠ ظن ، أو لعله اعتقد انه زعيم الاغلبية وانه لا بد من تأييده للحكومة حتى تبقى فى مناصبها ، ولـكن الحكومة لم تكن فى حاجة الى تأييده ولا الى برلمانه ، كانت قادرة أن تأخذ نوابه وبرلمانه وحزبه ، كما أخذت منه رياسة الحكومة ٠

ومر صدقى باشا بمحنة مرة قاسية أليمة ، بدأ يشرب بالكأس التى أذاقها للناس ٠٠ رأى البناء الذى شـاده يتهاوى شـيئا فشيئا ، رأى النواب ينفضون من حوله نحو المشرق الجديد ، ورأى عبد الفتاح يحيى باشا النواب يهرعون اليه وينضوون تحت لوائه ، دون أن يفعل شـيئا ، ودون أن يبذل جهدا .. كان يكفى أنه رئيس الحكومة ، حتى يتحول الموكب كله اليه ٠٠ ولكن هذه المأساة لم تخل من لمحات وفاء هنا أو هناك لصدقى باشا ، وبدا أن بعض النواب ـ فريقا قليلا ـ يشعر بما

فى هذا التحول من مهانة وذل ، فحاولوا أن يحولوا دون المأساة ، وأن تظل رياسة الحزب لصدقى باشا ، ولكن جهودهم لم تنجح ووفاءهم الذى كانوا يدعونه لم يجد صدى عند الكثرة الكبرى من النواب الذين كانوا يعرفون من حقيقة الاوضاع ، ما يجعلهم يؤمنون أن صدقى باشـــا ذاته ليست له قيمة شعبية ولا سياسية ، وان كل ما كان له انه كان رئيس حكومة ، وقد زالت عنه رياسة الحكومة فزال عنـــه كل شىء ٠٠ وقال القيسى باشا وزير الداخلية ، وقال زكى الابراشى باشا ناظر الخاصـة الملكية تعليقا على حركة النواب الموالين لصدقى باشا : دبور زن على خراب عشه ٠٠

والمعنى مفهوم ٠٠ أعنى أن هؤلاء النواب لو نجحوا فى مسعاهم ، وظل صدقى باشا رئيسا لحزب الشعب ، وعارضت أغلبيته فى مجلس النواب حكومة عبد الفتاح يحيى باشا ، فلا حل الا حل مجلس النواب وخسارة النواب مراكزهم ، أعنى خـراب « العش » الذى هـو مجلس النواب ٠

ولا نطيل ٠٠ كان النواب أذكى من أن يقعوا فى هـــذه الغلطة ، فاجتمعوا أو اجتمعت أكثريتهم من المنتمين الى حزب الشعب ، واختاروا عبد الفتاح يحيى باشا رئيسا للحزب ٠٠ وجاء الباشـا الجديد بموكبه الجديد الى دار الحزب ، يتسلم التركة من الباشا القديم وأنصاره ، أما صدقى باشا فقد استقال وفى نفسه مرارة ليست بعدها مرارة ، وأنشأ له ما يسمى بالنادى البرلمانى ، كان يجتمع فيه هو وأنصاره المخلصون ، وهم قلة ، معتبرا انه لا يزال هو وهؤلاء الانصار حزب الشعب ، وان ما تم لم يكن الا اختلاسا أو سطوا لا مبرر له من قانون أو أخلاق أو دستور ٠

وكان الاستاذ أحمد رشدى المحامى سكرتيرا عاما لحزب الشعب منذ تأليفه ، وانحاز متحمسا الى عبد الفتاح يحيى باشا ، لست أدرى لماذا ؟ ولكننى رأيت سلطانه يزداد بعد ذهاب صدقى باشـا من الحزب وكان السلطان قبل ذلك لعلام باشـــا ، رأيته يكثر من زيارته ، ويكثر من السؤال عن الجريدة والحزب وشئونهما ٠٠ وقلما كان يفعل ذلك من قبل ٠٠ ورأيت أيضا على المنزلاوى بك وقد اختير هو الآخر وزيرا للزراعة فى وزارة يحيى باشا يكثر من تردده على الحزب واحتفاله به ٠٠ وكان رشدى والمنزلاوى من أشد الانصار المتحمسين لعبد الفتاح يحيى باشا ٠

وتم الاستيلاء على الحزب ٠٠ جاء يحيى باشا الى داره ، وجلس على

نفس المكتب الذى كان يجلس عليه صدقى باشا ، واجتمع حوله نفس النواب الذين كانوا يجتمعون حول صدقى باشا ، وقد رأيت عبد الفتاح يحيى باشا فى زيارته الاولى للحزب ٠٠ رجل طويل أنيق يضع نظارة على عينيه ، مترفع فى نظرته وسمته ٠٠ قليل الكلام وربما كان قليل التفكير أيضا ٠٠ ابن ذوات من الدرجة الاولى ٠٠ لست أدرى كيف أصبح رئيسا للوزارة ، ولست أدرى كيف حاول أن يلبس ثياب صدقى باشا ويرثه فى حزبه وجريدته وسياسته ودستوره ٠٠ نعم ، قال عبد الفتاح يحيى باشا فى خطابه الى الملك انه يلى الحكم على أساس دستور سنة ١٩٣٠ أعنى دستور صدقى باشا ، الذى اشترك ٠٠ أعنى عبد الفتاح يحيى باشا ، فى وضع أسسه وأسس النظام الذى انبثق عنه حتى أصبح ثابتا وطيدا مستقرا ٠٠ كان واضحا تماما أن يحيى باشا لم يشترك فى ارساء دستور سنة ١٩٣٠ ، لا فى قليل ولا فى كثير ٠٠ صحيح انه كان وكيل الحزب منذ تأسيسه ، ولكنه لم يكن عاملا لا فى الوكالة ولا فى عضوية الحزب ، ولا فى النظام الذى أنشأه صدقى باشا ٠٠ وكان واضحا أيضا أن نظام سنة ١٩٣٠ لم يثبت ولم يستقر ٠٠ وكان واضحا أن صدقى باشا استقال لأن القصر لم يصبح راضيا عنه ، وأن عبد الفتاح يحيى باشا جاء الى الحكم لا لأن أغلبية البرلمان معه ، ولكن لأن القصر يريده أن يكون رئيسا للوزارة ٠

وفى فترة الانتقال بين الرياستين ، فى فترة الصراع بين صدقى باشا ويحيى باشا ، جرت مأساة أخرى فى الجريدة شبيهة بالمأساة التى جرت فى الحزب ، بل أسوأ منها ٠٠ واذا كان النواب ، والمفروض أن الشعب هو الذى اختارهم ، أخذوا يجرون الى مشرق الشمس ابقاء على نفوذهم ومكافآتهم البرلمانية ، الا يعذر المحررون المساكين اذا جروا هم الآخرون يحاولون أن يستبقوا رزقهم ٠٠ لقمة لعيش ٠

وسكت حيث أنا ، لم أجر هنا أو هناك ٠٠ ان هذا ليس فى طبعى ، ولا أريد أن أمتدح نفسى فأقول انه اباء أو كرامة أو اعتزاز ٠٠ لا أريد أن أقول شيئا من هذا ، فاننى هنا ـ فى هذه المذكرات ـ أريد أن أنصف نفسى وأن أدينها ، ولا أريد أن أنتحل لها فضلا ليس فيها ٠٠ كنت قلقا خائفا أن ينتهى الامر بفقدى العمل ٠٠ وكنت أرى من حولى نشيطين يقابلون الباشوات ويجرون فى ركابهم ٠٠ كل منهم يريد أن يؤمن مستقبله ، أو يحصل على أية فائدة أو مغنم يستطيع الحصول عليه ٠٠ وكنت جديرا أن أفعل مثلهم ، ولكنى لم أفعل ٠٠ لم أتحرك ٠٠ عن خيابة

.. ربما ؟ عن انعزال طبيعي فى نفسى .. ربما ؟ عن خجل .. ربما .. شعرت حينئذ انني غير صالح للحياة ولا للتقدم .. انني ساكت بينما الجو حولي مشحون بالحركة والتغيرات والتطورات .. لم أفعل شيئا سوى أن أديت واجبي .. كان الصباحي وعبد الحميد حمدى وعبد المجيد نافع الذى عاد الى الجريدة بعودة عبد الفتاح يحيى باشا وفؤاد مغبغب وآخرون وآخرون .. يهمسون ويجرون هنا وهناك .. وأنا ، كما أنا ، أغدو الى عملي وأروح عنه ، أذهب الى المعهد الجنائي وأعود منه ، أقضى وقتالصباح فى مكتبي أعد « للفصول » أو لما عندى من القضايا .. منتظرا ما يسفر عنه الصراع ، وما يمكن أن يؤدى اليه من تقرير مصيرى فى هذه الجريدة التى كنت أرأس تحريرها .. ربما كنت غير مهتم بهذا المصير تماما .. وقد رأيت انها شيء لا يحسن التمسك به ولا يستحق التمسك به ، وربما لأن « الفصول » كانت قد أخذت تدر علي ربحا حسنا .

وأخذت موجة الاستيلاء تقترب من الجريدة شيئا فشيئا .. قال لى الاستاذ أحمد رشدى المحامى .. وكنت أحب الرجـل وآنس اليـه .. كانت فيه رقة ولباقة وله شخصية آسرة جميـلة محببة الى النفس .. قال وقد رفع نظارته عن عينيه : يا أستاذ زكى .. أنا أجلك وأحترمك .. وقد ذهب صدقى باشا وحل محله عبد الفتاح يحيى باشا . السياسة واحدة ، والحزب قد انتخب عبد الفتاح يحيى باشا رئيسا له .. مارأيك فى الجريدة ؟

ولمح على وجهى شيئا من الالم المكتوم والضيق الذى أحسست به دون أن أعرف تفسيرا له .. ان سـياسة حزب الشعب أو جريدته لم تدخل أيتهما وجدانى .. كنت مجرد عامل يؤدى عملا ويتلقى عنه أجرا ثم لا شيء آخر .. ومع ذلك شعرت بما يشبه المهانة ، وأنا أرى نفسى كالرقيق فى سوق النخاسـة ، اذا بيع الى سيد جديد وجب عليه أن يطيعه .

بعد لحظة من الصمت المرير قلت : ولكن يا رشدى بك .. الواحد برده ... وقد أنقذنى الرجل من الاستمرار فى الكلام ، فلم أكن أعرف ما سأقول ولا ما ينبغى أن أقول ، لم أكن أعرف هل أقول نعم أو لا .. كانت المسائل مضطربة فى ذهني .. لست من رجال السياسة ولم أكن، ولست من أنصار صدقى باشا ولا عبد الفتاح يحيى باشـا .. لست شيئا من هذا كله ، ولكن كنت مخنوقا من الشعور بالمهانة .. المهـانة

المعنوية الخالصة التى طافت بذهنى حينئذ ، واستكثرت أن تكون الجريدة بالامس مادحة لصدقى باشا ثم تصبح غدا قادحة فيه .

أحس الاستاذ أحمد رشدى بالحرج الذى أعانيه ، ولم يدعنى أتم كلاما لم أكن أعرف كيف أتمه .. قال : يا سلام انت وفى أوى لصدقى باشا ..

ولم يكن فى الامر وفاء أو عدم وفاء .. لم تكن المسألة فى ذهنى موضوعة على هذا الوضع .. قلت : بس الحكايه مش مبلوعه أوى .

قال رشدى : كل شيء انتهى .. صدقى باشا استقال من رياسة الحزب ..

قلت كمن أنقذ من الغرق والحرج : طيب .. يبقى مافيش داعى انى أقول حاجه ..

تحولت جريدة الشعب من صدقى باشا الى عبد الفتاح يحيى باشا، وتحولنا نحن كالعبيد ازاء الاسياد ، ولم يكن الامر خشنا فى ذهنى بهذه الصورة فلم أكتب فى حياتى كلمة واحدة تأييدا لصدقى باشا ، ولا لعبد الفتاح يحيى باشا .. صحيح ان الاشراف على الجريدة كلها أصبح لى بعد استقالة الاستاذ شوقى وبعد اختيارى لرياسة التحرير ، ولكنه كما قلت ، كان اشرافا فنيا من الناحية الصحفية .. أما الناحية السياسية فكان يتولاها عبد المجيد نافع أولا ثم عبد الحميد حمدى ثانيا .. ومع ذلك فلا أحاول تبرئة نفسى ولا الدفاع عنها .. كنت ضمن الآلة ، ضعيف الشأن أو خطير الشأن .. كنت مشتركا فى الآلة التى استخدمها صدقى باشا لتنفيذ سياسته فى القضاء على دستور وانشاء دستور جديد .

ان الذكريات لا تبهت فى خاطرى أبدا ، والاخطاء كالصواب ، تفيد وتزكى فى النفس الفضائل .. كانت هذه المرحلة أشبه بالمطبات فى الهواء ، أو أشبه بالفراغ الذى يصيب العقل والفكر فى طريق الحياة .. وكان عقلى وقلبى خاليين من ناحية السياسة والصراع السياسى ، ممتلئين بالاسى والحزن والخوف من ناحية حياتى الخاصة .. كنت طالبا فى الجامعة ولم يكن العمل فى الصحافة لى حينئذ الا مساعدا لى لكى أتم المراحل الباقية لكى أنضج وتعمق المسائل فى نفسى وخاطرى .. كنت أعيش على هامش الحياة العامة ، أرقبها وأسجلها وأفهمها وأصورها ، وأتمرس بها لكى تعطينى تجربة وفهما وتهدينى سواء السبيل .

وذات يوم قيل لى ان دولة الباشا يطلبك .. ودولة الباشا هنا هو عبد الفتاح يحيى باشا رئيس الوزارة .. تغير صاحب الدولة فبعد أن كان صدقى باشا أصبح عبد الفتاح يحيى باشا .. وصدعت بالامر ، وهل لمثلى الا أن يصدع بالامر ، وذهبت الى مجلس الوزراء ، وقابلت دولة الباشا .. كانت الغرفة واسعة ، والباشا غير مبتسم وغير عابس .. غير مشغول وغير فاض .. لم أعرف ماذا كان على التحديد .. كان فى هذه الحالة التى يعيش فيها الانسان وهو غـــير مكترث ، أو مكترث ولكنه لا يستطيع أن يصنع شيئا .. أو كالآلة طلب اليه أن يفعل شيئا ، فهو يفعله دون انفعال أو تحمس .. أحسست اننى لست مع رئيس وزارة ولكن مع شبه رئيس للوزارة .. أشفقت على الرجل ، أنا الذى كنت فى حاجة الى من يشفق على وأنا أساق من رئيس الى رئيس دون ارادة أو اختيار .. أشفقت عليه لأننى أحسست أن العبء أكثر من طاقته ، وأن ما يطلب منه أقسى مما تطيق أخلاقه .. كان الرجل طيبا وهادئا ، وأعتقد انه مستقيم الخلق أيضا ، ورياســـة حزب على أنقاض رئيس ضخم فخم كصدقى باشا مهمة قاسية ، وزعامة أغلبية برلمانية صنعها صدقى باشا وانصرفت عنه ، مهمة أقسى وأشد ايلاما .. وأين عبد الفتاح يحيى باشا الامين الصادق الهادىء المرفه ، من صدقى باشا المداور الماهر ، الشاطر ، الباهر ، ذى الاعصاب الحديدية .

قال الباشا ــ ولم يكن يعرفنى طبعا : ازيك يا أستاذ ان شاء الله يكون كل شىء ماشى كويس ..

قلت له : الحمد لله .

قال : مين بيكتب المقال السياسى ؟

قلت له : الاستاذ عبد الحميد حمدى ..

قال : وماجاش ليه ؟

لم أعرف كيف أجيب .. أدركت ان الباشا كان يريد مقابلة عبد الحميد حمدى ، وطلبونى لمقابلته من قبيل الخطأ أو الخلط ، فقـــد ظن معاونوه ، اننى أنا الذى أكتب المقال السياسى ..

أجبت : أبلغه ان دولتك عاوزه ؟

وانصرفت ، وشعرت مرة أخرى بأسف مر عميق .. اننى أتحمل أوزارا أنا برىء منها ، أتهم بأننى أكتب مقالات سياسية ، بينما لا أكتبها

·· ولا بأس فما أكثر الاتهامات التى توجه الينا ونحن أبرياء منها ، وما أكثر الافضال التى تنسب الينا ونحن لم نصنعها ·

كانت مقالات الاستاذ عبد الحميد حمدى لا ترضى عبد الفتاح يحيى باشا · فلم يكن متحمسا ضد صدقى باشا تماما ·· كانت عملية الاستيلاء على الجريدة لم تتم بالصورة الكاملة ·· ولم تمض سوى أيام حتى عاد الاستاذ عبد المجيد نافع لادارة السياسة وكتابة المقالات السياسية وترك الاستاذ حمدى العمل بالجريدة ·· كوفىء الاستاذ عبد المجيد نافع على حملاته البرلمانية على صدقى باشا فأعاده عبد الفتاح يحيى باشا ليكون لسانه السياسى ·

وسرعان ما فترت حماسة عبد الفتاح يحيى باشا للحزب والجريدة وربما للمنصب الضخم الذى يشغله ، فقلت زياراته للحزب ، وقيل حينئذ ان شيئا من الضيق والزهق أصابه ·· لم يكن يحيى باشا مناضلا، ولا كان رجلا يستطيع أن يصمد فى هذه التيارات المتعارضة ·· عرف أن مالية الحزب والجريدة فى تدهور ، وأحس انه لا بد أن يمد يد العون لهما من ماله الخاص ·· وأوشكت الجريدة ألا تجد مرتبات محرريها ، لولا أن تقدم على المنزلاوى بك بشهامة أهل الريف ، فتحمل العبء كله أو الجانب الاكبر منه ، وكنت أرى الرجل يدخل دار الحزب ، وجيوبه مملوءة بورق البنكنوت ليفرغها، وليأخذ منها المحررون وموظفو الادارة مرتباتهم·

والمنزلاوى بك رجل طويل ضخم ، طيب فيه من سماحة أعيان الريف الشىء الكثير ، كبر عليه أن يختلف مع صدقى باشا وأن يؤول الحزب اليه والى فريق النواب المناصرين له ، ثم لا تجد الجريدة والحزب ما هما فى حاجة اليه من نفقات ، وفى كرم عرف عنه ، وشهامة سياسية لا دخل لها بالمبدأ والعقيدة ، بمقدار ما تدخل فى الوجاهة والرجولة ، تولى الرجل معاونة الحزب والجريدة جهد ما استطاع .

كنت أنظر الى نفسى ، فأرى اننى أشتغل فى جريدة توشك أن تفلس ، تقف فى مهب الرياح والأعاصير ، وزارة عبد الفتاح يحيى باشا تتعثر فى المهمة الثقيلة التى أخذتها على عاتقها ، الأحزاب المعارضة تتجمع لكى تعصف بالوزارة ·· القصر حائر ، لا يعرف ماذا يصنع ، ظن أن دستور صدقى باشا يمكن أن ينجح ، وها هو صانع الدستور يصبح فى صف المعارضة والحزب الذى ناصر النظام يتحول الى حزمة من القش لا حول لها ولا طول ·· والانجليز يتآمرون بالقصر والاحزاب ·· لم يكن

سير مايلز لامبسون المندوب السامى الجديد قد وصل مصر ، ولكن القائم بأعماله مستر بيترسون أخذ يتدخل فى أخص الشئون ، وكان الملك فؤاد قد مرض مرضا شديدا ، وأذيع انه يعد وصيته ، فطلب بيترسون الاطلاع على الوصية ، وتعيين قائمقام يتولى سلطة الملك أثناء مرضه .

ونشرت الصحف فى ذلك الوقت (أواخر سنة ١٩٣٤) برقيات موعز بها من الخارج تضمنت طعنا فى سياسة الملك والثروة التى جمعها والاساليب التى اتبعها .. وكان واضحا أن سلطة القصر وهيبته أصابهما صدع شديد .

وكما تدل النهايات على نفسها ، أخذت الحوادث تشير الى نهاية حزب الشعب وجريدته ، وسعى الساعون لدى عبد الفتاح يحيى باشا ضد عبد المجيد نافع فقالوا له ان مقالاته لا تقرأ ، وانه سبق له أن نشر مقالا فى مناسبة ملكية ، عيد الجلوس أو الميلاد لا أذكر ، ثم أعاد المقال نفسه فى السنة التالية فى المناسبة نفسها .. وثارت ثائرة الملك فؤاد فى هذا الوقت .. وقال : هذا الرجل ألا يجد ما يقوله فى عيد الملك فيعيد ماسبق أن نشره ؟ .. وكانت أزمة .

وفى هذه الاثناء زار مصطفى النحاس ومكرم عبيد بور سعيد وخطبا فيها خطابين نارين ضد الوزارة والنظام القائم ، وحققت معهما النيابة ، وعدت ما ورد فى الخطابين مما يعاقب عليه القانون ، وأصدر لبيب عطيه باشا النائب العام حينئذ قرارا بحفظ التحقيق ، وكان القرار حفظا من حيث الظاهر ، ولكن الاسباب التى بنى عليها كانت اتهاما لمصطفى النحاس ومكرم عبيد أسوأ من المحاكمة والحكم عليهما .

وكتب الاستاذ محمود سليمان غنام مقالا فى كوكب الشرق احدى صحف الوفد هاجم فيه النائب العام وقال انه أقحم السياسة فى عمله ، وهو الامين على الدعوى العامة ، وأشار الى زياراته للاقاليم وما يحيطها به من مظاهر لا ينبغى أن تكون ، كان المقال قاسيا جدا ولم يكن فيه أى احترام للمنصب الكبير الذى يشغله لبيب عطيه باشا .

وكنت حينئذ قد تقدمت فى دراستى فى المعهد الجنائى ، وكان فيما ندرسه الشىء الكثير عن قرارات الحفظ وسلطة النائب العام فى حفظها وحقه فى ن يمنع رفع الدعوى العامة ، مع ثبوت التهمة لاعتبارات يراها ، وكتبت مقالا مطولا رددت فيه على الاستاذ غنام ودافعت عن منصب النائب العام ولم أكن أعرف لبيب عطية باشا ، ولم يكن يعنينى حينئذ الجانب

السياسى ، ولكننى ضقت بالهجوم على النيـــابة العامة وعلى الامين على الدعوى العامة ، ورأيت فى هذا مساسا بسلطة التحقيق الكبرى ٠٠ وقد طبعت منذ نشأت على احترام القضاء والنظام ، وكنت أعتقد دائما ـ ولا أزال ـ ان احترام القضاء والنيابة وعدم الزج بهما فى المعترك السياسى دعامة من دعامات الحرية والحق فى أى نظام من النظم ٠

كان مقالى فنيا محضا ، يتعلق بحدود وظيفة النائب العام وسلطاته، وما اذا كان قد تجاوز حقه وسلطته فى حفظ التحقيق مع النحاس ومكرم على الرغم من ثبوت التهمة عليهما أم لا ٠٠ وانتهيت الى انه لم يتجاوز سلطته ، وأوردت شواهد من النظام الفرنسى والنظام الايطالى الذى يأخذ بما يسمى العفو القضائى ، وعلى الجملة كتبت المقال بروح الباحث دون أن أعرض للجانب السياسى منه ٠

ومضت أربعة أيام أو خمسة ٠٠ وكنا فى أغسطس سنة ١٩٣٤ ، فاذا بى أتلقى مكالمة تليفونية من الاسكندرية فى مكتبى الخاص ، وقيل لى ان مكتب سعادة النائب العام يطلبك ٠٠ ودهشت وكنت قد نسيت المقال تماما ٠٠ وحدثنى لبيب عطيه باشا ٠٠ فقال انه قرأ المقال وانه أعجب به اعجابا شديدا ٠٠ وقال : لقد أرسلت اليك اليــوم خطابا بالبريد ، لا بد سيصلك غدا ، وشكرت له عبارته الرقيقة ٠٠ قال : اذا جئت الى الاسكندرية فلا بد أن تزورنى ٠٠ وأضاف : ومتى انتهى الصيف وعادت الوزارة الى القاهرة ، فلا بد أن أراك ٠

وسكت لحظة ثم قال : انت ازاى مش معانا فى النيابة ٠

قلت له : اننى اشتغلت بالصحافة منذ تخرجى ٠٠

قال : خســـارة ٠٠ انت مالك ومال الشغله القذرة دى ٠٠ دا مش وسطك ولا يتفق مع تعليمك ٠٠ لازم تيجى النيابة ٠٠ لازم ٠

كانت هذه المحادثة شيئا سعيدا فى حياتى حينئذ ٠ شعرت بغبطة وارتياح شديدين ٠٠ ردت لى شيئا من الاحساس بالكرامة والاعتـــزاز بنفسى . وتلقيت فى اليوم التالى هذا الخطاب من لبيب عطيه باشا ولا أزال أحتفظ به حتى الآن :

« تلقيت تحيتك الكريمة بنفس الشعور الذى ملأنى ـ لما طالعت مقالك البليغ ـ اعجابا بخلقك العظيم وأدبك الجم وكفايتك البارزة ، وان

أروع ما تمثل لى فى فعلك الجميل انك تحركت له على غير تعارف سابق أو غرض مرجو ، بل نصرة للحق ونفورا من الضلال ، تلك سجايا سيعرفها لك كل من كان له ضمير وسيجزيك عنها المطلع على القلوب جزاء الخيرين » .

ومر أغسطس وسبتمبر ، سنة ١٩٣٤ وجاء أكتوبر وأديت الامتحان التحريرى فى المعهد الجنائي ونجحت فيه ، وذهبت الى كلية الحقوق لأؤدى الامتحان الشفوى ، وفوجئت وأنا أقرأ أسماء الممتحنين من الخارج باسم لبيب عطيه باشا مع الاستاذ على بدوى فى لجنة امتحان علم العقاب .. ولم أكن قد قابلت لبيب باشا حتى اليوم ، ووقعت فى حيرة شديدة ، سيفاجأ بى فى اللجنة أمامه .. وجف ريقى وارتبكت وزادت ضربات قلبى ، قد تجعلنى المفاجأة ألا أجيب كما ينبغى ، مع انى مستعد للامتحان تمام الاستعداد .

وسألت « عم فرجانى » ساعى كلية الحقوق ـ وكنا فى الصباح حوالى الساعة التاسعة ـ عما اذا كان سعادة النائب العام قد جاء أو لا ، أخبرنى أنه موجود فى غرفة العميد .. وكان العميد حينذاك هو الدكتور القللى .. وحرت مرة أخرى ماذا أصنع ؟ هل أقدم له نفسى الآن اتقاء للمفاجأة فى لجنة الامتحان ، أم أنتظر ساعة أو بعض ساعة ؟

أعادت وزارة نسيم باشا

دستور سنة ١٩٢٣

« ما أسوأ النهايات وما أقسى الزمن اذ يجور ... »

حسمت الامر بعد تردد لم يطل ، وأعطيت بطاقتى الى « عم فرجانى » وقلت له : اعطها الى سعادة النائب العام فى غرفة البيه العميد .

وما هى الا مسافة الطريق ، حتى اقبل « عم فرجانى » يدعونى الى الدخول ، ونهض لبيب عطية باشا هاشا باشا محييا ، وسلم على فى حرارة والتفت الى الموجودين فى الفرفة ، وكانوا عدا العميد عددا كبيرا من أساتذة كلية الحقوق والاساتذة المنتدبين من المستشارين وغيرهم ، وأخذ لبيب باشا يروى لهم قصتى معه فى أسلوب أخجلنى ، وجعلنى انكمش فى ربع هدومى ... أغرقنى بثناء لا أستحقه ، وقال ان مقالى بلغ من الدقة وحسن العرض حدا لا غاية وراءه .

وسألنى لبيب باشا لماذا انت هنا ؟ قلت له : اننى فى المعهد الجنائى والامتحانى اليوم ... قال : اذن سأمتحنك ... قلت : ومن اجل ذلك أردت أن أقدم نفسى اليك ، حتى لا تجعلنى المفاجأة مضطربا أثناء الامتحان .

وأديت الامتحان وظهرت النتيجة ، فكنت أول الدفعة ، وارضتنى هذه النتيجة ارضاء تاما .. بثت فى قلبى شعورا من السكون الجم والغبطة التى لا حد لها .. عوضتنى عن كل ما كنت القى فى جريدة الشعب من ضيق واضطراب وقلق .

واتصلت بينى وبين لبيب عطية باشا منذ ذلك الحين مودة طويلة عزيزة .. كنت أزوره فى مكتبه فى دار النيابة فى باب الخلق ، وفى بيته

بالزيتون ، وكان الرجل يحتفى بى احتفاء كبيرا ، ويحدثنى عن اخص شئونه وعن تاريخ حياته ، وكنت اجد فى هذه الزيارات متعة كبيرة .

كان لبيب باشا كثير الزهو بمنصبه ، شديد الاعتزاز به ، ولم يكن يخلو حديثه معى من الاشارة الى انه كان اصغر رئيس لمحكمة مصر ، وأنه كان أصغر مستشار ، اذ بلغ هذا المنصب وعمره ٣٨ سنة ، وقد اشتهر وهو نائب عام بعنايته الشديدة باللغة العربية ، وكانت منشوراته التى يذيعها على اعضاء النيابة مفرغة فى لغة جميلة رصينة ، لا تخلو من بعض الكلمات الغريبة ، واشتهر من هذه الكلمات حينئذ « حزم البدار » يعنى ان يسارع أعضاء النيابة الى العمل فى حزم ..

والتقط الكلمة محمود حسن باشا ، فكان يجعلها موضع تندر وهو يلقى علينا محاضراته فى المعهد الجنائى .

وقال لى لبيب باشا : لابد ان تعين فى النيابة وان تتساوى بزملائك .. اننى لا أرضى لك ان تستمر فى الصحافة .. انه عمل لا يليق بك ، وقد أرسلت فى طلب درجاتك توطئة لتعيينك ، وأضاف : وأنا بذلك ارضى ضميرى .. ان مثلك لا ينبغى أن يكون بعيدا عن النيابة ..

وابتهجت بهذا الكلام .. أو بهذا الوعد .. أو بهذا الترشيح ..

***

عندما تخرجت فى كلية الحقوق لم يكن فى خاطرى ان اقبل اية وظائف لا فى النيابة ولا فى غيرها .. استهوتنى الصحافة ، ووجدت فيها مستقبلى ، واذا كنت قد قبلت العمل فى وزارة الاوقاف ، فقد فعلت ذلك بصورة مؤقتة ، ولان مركزى فيها سيكون فى القاهرة فأستطيع ان اتابع اتصالى بالصحافة .. اما الآن فقد شعرت ان الصحافة عمل لا يليق بى تماما ، فضلا عن انه عمل غير مأمون ولا مضمون .

سكت حينما قال لبيب باشا هذا الكلام ، الا اننى فى مناسبة تالية ، افضيت اليه بان رغبتى الاصلية فى توجيه مستقبلى كانت ان اشتغل بالعمل الحر ، الصحافة والمحاماة ، ومتى بلغت السن ، تقدمت للترشيح فى مجلس النواب .. وقلت : ان هذا هو نوع العمل الذى اريده .

قال لبيب باشا : انك اذا دخلت القضاء والنيابة ، تستطيع بعد فترة فى وظائفهما أن تخرج للاشتغال بالمسائل العامة .. وانت ذو ماض فى خدمة القضاء والنيابة يفيد فى تقديمك للحياة العامة .

وكان النظام المعمول به حينئذ ان يعد النائب العام حركة النيابات، ويعرضها على وزير الحقانية (العدل) وكان الوزير يعرضها بدوره على القصر فيمحو ويثبت فيها كيف يشاء ، ثم تظهر الحركة على صورة مغايرة لاعدادها الاول .

وذات يوم قال لى لبيب باشا : الا تعرف احدا فى القصر .. لابد من سعى هناك ..

وغامت على وجه الرجل سحابة من الاسف العميق ثم قال : لابد ان الكفاية ستقدر يوما من الايام .

وادركت ماحدث ، لابد انه رشحنى ، ثم شطب اسمى فى المراحل التالية ، ووضع اسم آخر ممن يراد توظيفهم ، لانهم محسوبون على القصر أو غير القصر .

وفى هذه الاثناء كانت زوجى قد برئت أو بتعبير ادق ، تحسن حالها ، والممكن ان تعود الى البيت ، وان يلتئم شمل اسرتى الصغيرة مرة اخرى .. ولكن الداء لم يكن قد تركها تماما .. وحاولت جهد ما استطيع ان اريحها واسرى عنها واوفر لها كل اسباب العلاج .. كانت تقول لى : انا عايشة بالابر ، بالحقن ، يعنى لو بطلت الحقن اموت .

وكانت هذه هى الحقيقة ، وكنت اعرفها ، ولكنى كنت احاول تجاهلها دائما .. كان حسبى أنها تعيش لكى ترعى طفلها جهد ما يسمح لها الداء اللعين .

واستقال عبد الفتاح يحيى باشا تحت ضغط الانجليز فى نوفمبر سنة ١٩٣٤ وخلفه توفيق نسيم باشا ، وكان واضحا انه جاء لتصفية نظام صدقى باشا ودستوره ، وكان لهذا كله اثره فى حزب الشعب وجريدته .. وسرعان ما اختفى عبد الفتاح يحيى باشا وانصاره من الجريدة والحزب ، وبدأ زحف صدقى باشا وانصاره من جديد ، عاد هو وعلام باشا ومحمود رشيد وابراهيم رشيد ، وذهب رشدى والمنزلاوى كما ذهب عبد المجيد نافع ايضا ، لم يكن ممكنا ان يستمر فى عمله وقد عاد صدقى باشا الى الاشراف على الحزب والجريدة .

ودخلنا بذلك فى العصر الثالث أو العهد الثالث لجريدة الشعب.. حزب انكمش حتى رجع الى حقيقته الأساسية ، رجل واحد هو صدقى باشا واقرباؤه وحواريوه .. ومال انقطع .. لم تصبح هناك دولة ولا هيل ولا هيلمان ولا اشتراكات من العمد والمشايخ أو اعلانات من الحكومة بغير حساب .. لم يصبح هناك زوار ، لا قليلون ولا كثيرون..

اقفرت القاعات الفخمة للحزب الفخم الضخم ، وانطفأت لمعته ، وقلت الضحكات فى ابهائه ، أو اختفت تماما .. كان مجرد دخوله يقبض النفس ويصيبها بالكآبة .. وترنحت جريدته ، واصبح الشهر اذ ينتهى يمسك كل واحد قلبه بيده ، ترى هل هناك نقود لدفع المرتبات أو لا نقود هناك ..

ما أسوأ النهايات ... وما أسوأ الزمن اذ يجور ، وقد جار الزمن على صدقى باشا وحزبه وجريدته ... الغى نسيم باشا رئيس الوزارة الجديدة دستور صدقى باشا بين لعنات الشعب وسخطه وغضبه عليه ، وحل مجلس نوابه ومجلس شيوخه ، وانطلق انصاره القدامى يضربون الارض طولا وعرضا ، دون ان يعرفوا طريقهم الى شارع قصر العينى والى الحزب الذى انتموا اليه ، والرجل الذى انشأ لهم نظاما وحكومة وبرلمانا ، ولولاه ما كانوا نوابا يقبضون المكافآت ويتمتعون بالامتيازات ... انطلقوا يبرأون منه ، وينفون عن أنفسهم انهم كانوا أنصاره يوما من الايام .. وذهبوا يلتمسون مشرق النور الجديد .. ولم يكن نسيم باشا ولا وزارته ، ولكنه كان الوفد وحزبه وأنصاره والمجد الذى ينتظره .. بدا فى الافق أن دستور سنة ١٩٢٣ عائد حتما ، ومعنى عودته انتخابات جديدة واغلبية وفدية جديدة وحكومة وفدية لحما ودما ..

كانت المواكب فى خارج الحزب والجريدة صاخبة لاجبة ، هاتفة مصفقة وصدقى باشا وعلام باشا وأحمد كامل باشا الذى اختاره صدقى باشا لرياسة تحرير الجريدة ومحمود رشيد وابراهيم رشيد وقلة وفية من النواب والشيوخ والانصار أو قلة لم تجد لها سوقا فى المواكب الهاتفة الصاعدة فى الخارج هم الذين يغشون دار الحزب .. كانت الدار تظلم من المغرب .. وفيما عدا الثريا الكبيرة الضخمة التى كانت تتوسط الصالة ، لم تكن هناك أنوار مضاءة فى الغرف والابهاء والصالونات ... وحتى النجفة الضخمة لم تكن تضاء بكل قوتها .. كان بضاء منها بضع لمبات ترسل ضوءا باهتا كليلا نصفه ظلام ! .

وذات يوم فى أوائل الشهر قيل لى : عليك ان تصرف مرتبات المحررين واعطونى هذه المرتبات ... مبلغ ضخم من المال ، كان على ان اعده ، وأوزعه ، على ان يوقع كل محرر وموظف بأنه تسلم مرتبه .. كانت مهمة شاقة جدا ، فأنا ضعيف فى الحساب بطبعى ، .. كنت أعد النقود فأجدها زائدة ، واعدها مرة أخرى فأجدها ناقصة واعدها مرة ثالثة فأجدها مضبوطة ، واعيد العد ويعود الخطأ ، وأشد شعرى

متضايقا من هذا الغباء فى المال والحساب ... وما كدت انهى المهمة حتى تشهدت ...

كان مراقب حسابات الحزب والجريدة هو الاستاذ فهمى سليمان، ثم ترك هذا العمل فندب الاستاذ عبد المقصود أحمد لهذه المهمة ، وكان حينئذ مديرا لادارة الشركات بوزارة المالية . وكان لا بد من صرف مرتبات الموظفين والمحررين وقمت بهذا العمل ، وسلمت الكشوف ممضاة للاستاذ عبد المقصود أحمد ، وكانت هذه أول مرة أراه فيها ، ومازلت أذكر صورته وأسلوبه وطريقة حديثه وهو يتسلم منى الكشوف ويلمح حيرتى ، فيطمئننى وهو العارف الخبير .. كان الرجل رقيقا جدا ، هادئا جدا ... يتمتم اذ يتحدث ، وتخرج الكلمات من فمه مع ذلك واضحة رائقة مبينة ... قصير القامة مع تقاطيع أقرب الى الوسامة والبساطة .. تشعر بأنك مضطر ان تثق فيه وتعتمد عليه من النظرة الاولى ومن الجلسة الاولى .

وقامت فى البلاد مظاهرات صاخبة دامية على أثر تصريح ألقاه سير صمويل هور وزير الخارجية البريطانية أعلن فيه ان بريطانيا تعارض فى عودة دستور سنة ١٩٢٣ ، ولم يكن الملك فؤاد راغبا فى عودة هذا الدستور ولا غيره .. كان يحكم البلاد منذ ألغى دستور صدقى باشا حكما مطلقا أو يكاد ، ولكنه كان يعرف انها فترة مؤقتة وان البلاد لن تسكت عن عودة دستورها .

وسعى الشباب فى هذا الوقت سعيهم الموفق لدى الزعماء ورؤساء الاحزاب حتى تم التفاهم بينهم على اعادة دستور سنة ١٩٢٣ واجراء انتخابات حرة على أساسه .. وتم الاتفاق على تأليف جبهة وطنية طلبت الى الملك اعادة الدستور ، فصدر أمر ملكى فى ديسمبر سنة ١٩٣٥ باعادته واجراء الانتخابات على أساس الاقتراع المباشر ، واستقالت وزارة نسيم باشا ، لاعتراض الاحرار الدستوريين والاتحاديين والشعبيين على قيامها باجراء الانتخابات خوف ميلها الى هذا الحزب أو ذاك ، وعهد برياسة الوزارة الى على ماهر باشا فى يناير سنة ١٩٣٦ وكان من أعضائها إحمد على باشا وحافظ حسن باشا ومحمد على علوبة باشا وحسن صبرى باشا واحمد عبد الوهاب باشا وصادق وهبة باشا .

ولم يمت حزب الشعب تماما .. ظل صدقى باشا عنصرا فى السياسة المصرية حينئذ بحسبانه رئيس الحزب ، فاشترك بهذه المثابة

فى الجبهة الوطنية .. وكان لابد ان يستمر فى حزبه وجريدته .. ولكن الجريدة أخذت تضعف وتضمحل .. كان احمد كامل يكتب مقالاته مستوحيا فكرتها واتجاهها من صدقى باشا .. وكان الامر شاقا جدا ، فقد كان على صدقى باشا ان يلائم بين عهده ودستوره ، وبين العهد الجديد والدستور الجديد أو القديم الذى اشترك مع الجبهة الوطنية فى المطالبة باعادته .. ما أطيب قلب هذا الشعب .. رأيت جموع الشباب تجىء الى دار حزب الشعب وتهتف لصدقى باشا .. نسيت كل شىء عن عهده وسياسته ودستوره ، ولاح لها ان ائتلاف الاحزاب سينقذها ، وكان صدقى باشا رئيسا لاحد هذه الاحزاب .. وقد مرت هذه الجماعات الشابة على كل الاحزاب وعلى كل الرؤساء تهتف للائتلاف والدستور .

وكانت التركة التى تسلمها صدقى باشا ثقيلة .. حزب مفلس وجريدة مفلسة أو تكاد .. ولم يشأ ان يغلقها ابقاء على ماء الوجه ، ولكنه أراد بلباقته وكفايته ان يضغط مصروفاتها جهد استطاعته .. فأجر مطبعة الجريدة الى مهندس ايطالى من مهندسى المطابع المشهورين هو مسيو بروكاتشيو ، على ان يقوم بطبع الجريدة بسعر زهيد ..

وترتب على الانكماش الجديد ومسئولياته ان نقلت مكاتب الجريدة من المبنى الجانبى ، واعطيت غرفة وصالة من غرف مبنى الحزب وصالاته .. تكدس فيها المحررون ، بينما اتخذ أحمد كامل باشا لنفسه مكتبا فى زاوية من زوايا القاعة الرئيسية ، التى كان يعقد فيها الحزب جلساته .

واكثر صدقى باشا من مروره على الجريدة واهتمامه بأمرها .. لم يكن هناك ما يشغله ، لا وزارة ولا سياسة ، ولا نواب ولا شيوخ ، وكثر اتصالى به فى هذا الوقت .. عرفته عن قرب ، واستمعت الى حديثه وتوجيهاته ، وراقبته وهو يعامل أحمد كامل ، واحمد كامل يعامله .. رأيت مدى الصلة التى تربط بين الرجل وابن اخته ، وبين ابن الاخت والخال . كان صدقى باشا رجلا ذكيا ، تحس وانت معه بشعاع قوى من الخوف والرهبة والحب والكراهية والحيرة..لا تعرف هل هذا الرجل انسان كريم عطوف شفيق يتفجر قلبه رحمة ، أم انه انسان قاس عنيف ، كان فى عينيه مايشبه السر والطلسم ، ولكنك لم تكن تستطيع الا ان تسمع له وتنبهر به .. يحدثك فكأنه يعرفك ، وكأنه مثلك ولكنك لا تستطيع الا ان تحس الفارق الكبير الذى بينك وبينه .

كانت ذراعه اليسرى قد أصيبت ، وكان لذلك يضعها فى جيبه وهو جالس وهو واقف ، وهو يتحدث ، وهو ساكت .. أحمد كامل باشا يرقبه بعين يقظة مشفقة معجبة ، كلها احترام وحب وتفان .. لا يكاد يلمس رغبة تبدو فى عينيه حتى يسارع الى تنفيذها ، لا تكاد أصبعه تتحرك حتى يكون أحمد كامل باشا قد عرف ما يريد ، وكان يحلو لى أن أرقب هذه العواطف الغالية الجميلة ، العواطف الانسانية الخالصة بين الرجلين ، أحدهما أرهب شعبا بأكمله .. كان مجرد ذكر اسمه يثير الرعب فى القلوب .. هاهو الان أمامى ، انسان رقيق .. عذب .. انسان تحب ان تجلس اليه ولا تمل سماع حديثه ..

وغمرنى الرجل باهتمام كبير ، وكان يثنى على عملى من وقت الى آخر ، قال لى : سينشغل أحمد كامل فى الانتخابات وفى مجلس النواب ، وستكون انت رئيس التحرير .

شعرت فى هذا الوقت ان الرجل يقول ما يقول عن تقدير صحيح . لقد سبق ان اختارنى لرياسة التحرير فيما مضى ، ولكنه فعل ذلك لمجرد الضرورة القانونية ، ولكنه الان يقوله ويعنيه ، فليست هناك ضرورات ، وسأكون رئيس تحرير مسئولا عن جميع النواحى السياسية والصحفية .. ولم أفرح لهذا الكلام ، الا من الجانب الذى أحسست فيه بتقدير الرجل ، أما العمل نفسه ، فقد كنت زاهدا فيه ، فضلا عن ان الجريدة فيما يبدو لى ، كانت تزداد تدهورا واضمحلالا ، لا مال، ولا اعانات ولا قراء ، لا يمكن ان تستمر على هذه الصورة الا بمعجزة ، ولم تكن تبدو فى الافق معجزات .

واحببت احمد كامل باشا أيضا وارتحت للعمل معه ، انسان مهذب رقيق ، فيه شىء من لباقة صدقى باشا وابتسامته التقليدية ورقة حديثه وثقافته الفرنسية الكاملة ، ولكن ليست له قدرته الباهرة، ولا حيلته البارعة ، ولا سكونه القاتل والعواصف ثائرة تهدر ..

ومن قبيل الاقتصاد أو التجديد ، لست أدرى أو من قبيل الاثنين معا ، اقترح احمد كامل باشا ان تصدر « الشعب » فى نصف حجمها ، وضعف عدد صفحاتها ، وظهرت فعلا فى هذا الحجم ، ولعلها أول تجربة فى الصحافة المصرية لجريدة يومية فى مثل هذا الحجم .. كانت الفكرة فيما يبدو محاولة لاخفاء صورة جريدة الشعب القديمة المكروهة ، واظهارها فى صورة جديدة ، لعلها تكون ادنى الى قلوب القراء .. وربما كانت الفكرة لصدقى باشا .. لا أستطيع ان أقطع على وجه التحقيق ..

ولست فى حاجة الى القول بأن الشكل الجديد لم يفد قليلا أو كثيرا فى دفع الجريدة الى الامام .. ظلت لا تقرأ ولا يحس بها أحد ..

وتابعت دراستى الجامعية بعد ان انتهيت من المعهد الجنائى ، فبدأت فى الاعداد للحصول على الدكتوراه ، والتحقت بقسم الاقتصاد .. وانفتح أمامى نوع جديد جميل من الدراسة العالية ، كان المعهد الجنائى معهدا ذا طابع عملى ، وهو شديد الاتصال بالقانون الذى درسته من قبل ولكن قسم الاقتصاد فى الدكتوراه اعطانى لونا آخر من الدراسة ، افادنى وامتعنى ، واتم تكوين عقلى واسرع بانضاج فهمى وتوضيح عناصر المجتمع أمامى .. كان بروفيسور برشيانى وهو ايطالى، يعطينا الاقتصاد السياسى ، وكان البروفيسور فريزر ، وهو انجليزى ، يعطينا الاقتصاد الاجتماعى والنظريات الاقتصادية ، وكان البروفيسور رتشى يعطينا المالية العامة وكانت المواد الثلاث الاولى تدرس باللغة الانجليزية والمادة الرابعة باللغة الفرنسية .. كنت سعيدا بهذه الدراسة تماما ، وأقبلت عليها فى شغف شديد ، وأحببت أساتذتى وأحبونى .. كان برشيانى وقد لمح فى الميل الشديد لدراسة الاقتصاد ، يغمرنى باهتمامه ، كنت اسأله ، فيلمح فى اسئلتى فهما ، فيرتاح اذ يجيبنى .. واذا شرح شيئا سألنى بالذات ، ما اذا كنت متتبعا له ، وما اذا كان واضحا أم لا .

كان برشيانى طويلا رقيقا فيه النزعة العاطفية التى اشتهر بها الايطاليون وكان استاذا فى جامعة روما قبل ان ينتدب للعمل فى جامعة القاهرة .. كانت انجليزيته سليمة ولكن نطقه لها لم يكن يخلو من اللهجة الايطالية .. كان مجتهدا جدا لا يكاد يضيع دقيقة من المحاضرة ، وحينما فرغت من دراسة الدكتوراه ، وبدأت اعد رسالتى ، زرته فى مسكنه فى القاهرة .. وكان سعيدا اذ اخترته للاشراف على رسالتى ، ولكن امرى معه لم يطل ، لانه ابعد عن القاهرة عندما نشبت الحرب فى سنة ١٩٣٩ ، وتقرر ابعاد الايطاليين .

اما فريزر فكان انجليزيا نموذجيا ، كان عددنا فى القسم قليلا مما اتاح لنا ان نعرف الاستاذ عن قرب ، وان يعرفنا عن قرب .. كان عددنا لا يزيد على عشرة طلاب ، يحضر منهم بانتظام فى المتوسط ثمانية أو سبعة ، وكنت منهم .. وكنت ارتاح للبروفيسور فريزر اكثر من غيره ، وكانت حرب الحبشة فى سنة ١٩٣٥ على اشدها ، والايطاليون يقضون شيئا فشيئا على استقلال هذه البلاد ، والانجليز يعارضون فى

عودة دستور سنة ١٩٢٣ ، والابراشى باشا باسط سلطانه على الحكم عن طريق اتصاله بالقصر ، والبلاد مضطرمة بالسخط .. وكثيرا ما كنت أجادله فى السياسة وأسأله : لماذا تصر بريطانيا على البقاء فى بلادنا رغما عنا .. ؟ وكان الرجل يتقبل قولى بروح مرحة وصدر واسع .. وسمانى « زكى باشا » ، اشارة الى زكى باشا الابراشى الذى كان اسمه يتردد على كل لسان حينئذ ، وأسمانى بالسياسى الشاب ، كنت اذا غبت قال : اين السياسى الشاب .. ؟

ولما عين سير مايلز لامبسون مندوبا ساميا ، ضحكت وقلت له : انه قادم من الصين الينا .. لا نستحق منكم الا موظفا سابقا فى الصين .. ؟ قال : سترى ما سيصبح .. ؟ قلت : هل تعرف ان له ابنة .. ؟ قال : لا أعرف .. ضحكت مرة أخرى وقلت له : وهى ناضجة للزواج .

ضحك فريزر من كل قلبه ، فقد كان الرجل غير متزوج .. قال : تصلح عروسا لك .. ؟ قلت : انا لا أتزوج انجليزية .. انها أصلح لك .

ومن حق هذا الرجل على مادمت أسجل مذكراتى ان أخصه بمزيد من الكلام ، فقد أحببته من كل قلبى .. كان رقيقا عذبا .. قلما ثار أو صخب ، طويل ، نحيف .. فقير ايضا .. ليس له الا مرتبه .. كان استاذا فى مدرسة التجارة منذ أكثر من عشرين سنة ، وأصبح له اصدقاء عديدون من المصريين .. كان يحبهم حبا جما ، ويرتاح اليهم ويدافع عنهم .. كنت اذا انتهت المحاضرات وخرجت ، قال : تعال معى ، أوصلك الى البلد .. وأركب الى جواره فى سيارته الصغيرة .. وبدا لى انه مهتم بشئونى ومستقبلى ، واكثر من هذا كانت جريدة الاجبشيان جازيت تترجم بضع مقالات مما أنشره فيقرأها الرجل ، ويبدى اعجابه بها ..

حدث ان طلب الينا مراجعة جزء معين فى مادة النظريات الاقتصادية، وقال : اننى سأسألكم فيه ، لكى أضع درجة أعمال السنة ، ومن سوء حظى اننى كنت مشغولا فى هذا اليوم ، فلم اتمكن من مراجعة الجزء المطلوب كله .. وكنت اجلس فى مواجهته تماما .. كان عددنا قليلا كما قلت ، وكنا نجلس فى غرفة صغيرة بها طاولة عريضة حولها المقاعد .. وبدأ بسؤال الطلبة السابقين على فى الجلوس ، فلما بلغنى ، كان قد انتهى الجزء الذى استذكرته ، ودخلنا فى الجزء الذى لم استذكره .. وسألنى ، فقلت له : آسف لاننى لم أذاكر هذا الجزء ..

سألنى : الا تتذكر شيئا من الشرح ؟ ..

قلت : لا ..

وتركنى لمن بعـدى .. ولما انتهت المحاضرة وانصرف الطـلاب ، وكانت الساعة بلغت السابعة مساء ، رجعت اليه وقلت له : ارجو الا تكون متأثرا لاننى لم اذاكر ما كان مقررا علينا .

فابتسم ومد يده مصافحا وقال : لا تهتم بهذه المســائل ، طاب مسـاؤك .. وأعطانى على أعمال السنة ١٧ من ٢٠ .

ولما انهيت دراستى فى الدكتوراه ، لم تنقطع صـلتى بالبروفيسور فريزر ، كان يدعونى لزيارته فى بيته فى المعادى .. وفى سنة ١٩٣٩ ، دعانى الى حفلة اقامها للمتخرجين فى القسم فى هذه السنة وكان قد تزوج فقدمنى الى زوجته ، وقضيت امسية سعيدة جميلة رقيقة ، وفى سنة ١٩٤٠ ذهبت الى زيارته فعرفت انه انضم الى الجيش البريطانى ، وانه يقوم بخدمة مدنية منتظمة بضع ساعات من النهار فى مكان ما فى الصحراء ..

وقل اتصالى به شيئا فشيئا بعد ذلك الى ان كان ذات يوم فى سنة ١٩٥١ اذ وجدت فى مكتبى فى أخبار اليوم رسالة صغيرة قرأتها فاذا بها من البروفيسور فريزر يقول فيها « جئت لزيارتك لكى أودعك .. لقد صدر الامر بابعادى عن هذه البلاد التى اتخذتها وطنا لى منذ ٣٣ سنة ، وكنت سعيدا بين زملائى وتلاميذى .. وهانذا اعود الى انجلترا دون ان يكون لى بيت هناك ، سأسافر غدا من الاسكندرية .. أرجو أن تكتب فى الجريدة كلمة قصيرة أودع بها تلاميذى وأصدقائى ممن لم تسمح لى الظروف بزيارتهم للوداع ، شكرا لك .. سيكون عنوانى مؤقتا عند اختى فى لندن الى أن أدبر لى أمرا » . وكتب عنوان أخته ..

تأثرت لهذه الرسالة تأثرا شديدا .. لقد ابعد فريزر مع غيره من الموظفين الانجليز الذين تقرر الاستغناء عنهم بعد الغاء معاهدة ١٩٣٦ .

ولست اعرف مصيره الآن .. هل هو حى يرزق ام ذهب الى جوار ربه .. ان هناك لمحات فى العلاقات الانســانية تتجاوز الحدود واللغة والجنس وكل الفروق التى عرفها الناس ، لكى ترتفع الى مستوى يرتد الى الكيان الاول والوجود الاول .. وقد تمنيت اخيرا (ســنة ١٩٥٨) وأنا عائد من امريكا لو اتيح لى ان امر بلندن فترة قصـيرة ،

أســأل فيها عن البروفيســـور فريزر وأزوره ، ولكننى لم أتمكن من الحصول على فيزا لدخول انجلترا .

أما البروفيسور رتشي فكان رجلا غامضا ، لم تتصل بينى وبينه مودة ، كما قامت مع زميليه برشيانى وفريزر ، قصير القامة ، مكتنزا ، له لحية كثة انتشرت فيها الشعرات البيضاء مع الشعرات السوداء فى قسمة عادلة .. كان يلقى محاضراته باللغة الفرنسية فى لكنة ايطالية .. قيل انه عالم من الطراز الاول ، له شهرة دولية ، ولكننى لم ار انه من هذا الطراز ، نجهلى ، ربما ؟

وحصلت على دبلوم الاقتصاد السياسى ، والتحقت فى الســـنة التالية بدبلوم القانون الخاص .. وتلقيت المحاضرات فيه على الدكتور عبد الرزاق السنهورى ، والدكتور وديع فرح والشيخ ابو زهرة والدكتور محمد صالح بك ومسيو مازو ، واشترك فى امتحانى فى آخر الســـنة الدكتور عبد الحميد بدوى والدكتور بهجت بدوى والدكتور عبدالمعطى خيال والدكتور محمد عبد الله العربى .

وذات يوم وأنا فى مكتبى بجريدة الشعب زارنى الاستاذ ابراهيم رشيد وكنت حينئذ أدرس لدبلوم القانون الخاص فى الجامعة ... كانت الزيارة الاولى ورحبت به ... كان ابراهيم رشيد شابا رقيقا مهذبا ، فيه لمعة ابناء الذوات وله لفتتهم مع ادب جم ، قال انه يريد ان يدرس دراسة عالية فى الجامعة ... قلت له : تعال معى ... اننى ذاهب الى الجامعة فى الساعة الرابعة ... واضفت : ستجد لذة ومتاعا كبيرا فى دراستك العالية ... انا نفسى أشعر اليوم اننى سعيد ... سعيد جدا .

وذهبنا معا ، وحضر الاستاذ ابراهيم رشيد المحاضرة معى ... وكانت الاولى والاخيرة ، فلم اره بعد ذلك فى الجامعة ... لابد انه عدل عن الدراسة ... رآها جافة متعبة ، شاقة ... وماله هو ووجع الدماغ ، هو الشاب الانيق الذى كان حينئذ حديث المجالس والمنتديات والصحف وملك الجمال على الشواطىء ، سليل البيوتات الكبيرة ... قريبه مراد محسن باشا وصدقى باشا وغيرهما من أصحاب النفوذ ... ليترك هذا الشقاء لنا ، نحن الكادحين ، لابد ان نتعلم ونتعلم ونشرب الكأس والكأس ، ونذوق المر والمر ، ومع ذلك نشعر بالضيـــاع أولا وأخيرا ... لا بأس ... ان الحياة مع ذلك قسمة عادلة ، وقد أحسست لذة الشقاء والمأساة فى حياتى كما أحسست لذة الانتصار والنجاح .

أستطيع أن أبدأ من جديد ..

« انها لعبة خطرة وجميلة ٠٠ والجمال اروع مايكـــون اذا حف به الخطـــر »

كانت سنة ١٩٣٦ بالنسبة لى سنة سيئة ، وبالنسبة للوطن سنة بدت فيها بوادر الاستقرار أو هكذا دل الظاهر منذ بدايتها ٠٠ ولم أجر فى هذه المذكرات ، كما لم أجر فى حياتى على النظر الى الايام والشهور والسنوات على أن منها ماهو حسن وماهو سىء ، منها مايجىء بالخير حتماً وما يجىء بالشر حتما ٠

كلا ، مانظرت الى الايام والسنوات والشهور هذه النظرة ، ولكننى فى بعض الأحيان أجبر عليها ٠٠ ان فى الحياة أسرارا عجيبة تلفت نظرنا اليها قسرا عنا ، وعلى الرغم من كل ما اختزنت عقولنا من علم ومعرفة وفلسفة ، لا نستطيع الا أن نعيش أحيـــانا ومعـــنا بعض الخرافات والأساطير ٠٠

ومساء يوم من أيام ابريل من هذه السنة ظهرت جريدة البلاغ ، وفى صدرها « مانشت » على عرض الصفحة الأولى تقول فيه : المرض يشتد على الملك فؤاد ، خلع أسنان جلالته ٠٠

وفى الثامن والعشرين من هذا الشـــهر مات الملك فؤاد ، ومساء اليوم التالى ، شاهدت فى ميـــدان الأوبرا كوكبة ضخمة من الفرسان وراءها ، جثمان الملك الراحل ٠٠

ما أكثر المشاعر التى طافت بخاطرى حينئذ ،وأنا أرى الملك الثاوى، لا حركة ولا سـكون ٠٠ لا رغبـة ولا شـــهوة ، لا صراع ولا قتال ٠٠ لا دستور يخاف منه ولا أمة يريد أن يحكمها قسرا عنها ٠٠ كل شىء

انتهى الى هذه العربة الملكية الفخمة الفاخرة ‥ مهما تكن ‥ فهى حيز صغير ، صغير ‥ والى هؤلاء الفرسان ، الذين مهما يكن منظرهم باهرا ، فهم يعرفون أنهم فى موكب جثة لا حياة فيها ٠

كانت مصر حينئذ كأنها تولد من جديد ، كان كل شيء يضطرم فيها ‥‥ ثورة سنة ١٩١٩ لايزال صداها يدوى فى الآذان ، أبطالها على المسرح ، وأمجادها ظاهرة للعيان ، الملك الذى وقف يناصبها العداء حينا ويهادنها حينا ، هاهو يذهب ‥ المسرح خلا منه ، وكان قوة طاغية ، فيه حكمة وتجربة وقدرة على المناورة ، يحنى الرأس اذا اشتد التيار ، ويرفعه اذا لاح له أنه قادر على أن يضرب ، اذا أطلق الانجليز يده فهو الباطش بالشعب ، واذا غلوها ، فهو صديق الدستور والثورة ‥

كانت وفاة الملك فؤاد حادثا رج المسرح السياسى والشعبى رجا عنيفا ، وحينما مات سعد زغلول قبل ذلك بتسع سنوات ، فرح الملك فؤاد لموته ، لأنه ظن أن المسرح خلا من أعظم خصومه عنادا وقوة ‥ وحينما مات الملك ، ظن زعماء الوفد أن المسرح خلا من أعظم خصومهم عنادا وقوة ‥

ولما عدت فى هذا المساء الى بيتى ، كانت زوجي مسجاة فى فراشها حرارتها مرتفعة ، والداء ثقيل عليها ، وأردت أن أسرى عنها ، فأشغلها بالحديث عن موكب الملك الراحل ، وما ينتظر أن يكون لموته من أثر فى حياة مصر السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ولكنها كانت تسمع ولا تعى ‥ تسمع ولا تهتم بشيء ‥ كانت فى مشكلة أخرى كبرى ‥ مشكلة الحياة والموت ، والطفل الذى توشك أن تتركه مرة أخرى ، فقد أشار الأطباء بنقلها الى المصحة ثانيا ‥

وذات يوم شديد الحر فى شهر مايو كانت سيارة تنهب الارض فى الطريق الى حلوان ، أنا وهى وحدنا ‥ قالت : أترانى سأعود لطفلى ‥ قلت : ستعودين ‥ كنت أنظر فى الأفق شاردا ، والرمال من حولنا تسفوها الرياح ، والدنيا كأنها تطبق على أنفاسى وتخنقنى ‥

وعلى سلالم المصحة الكئيبة ، فى طرف الصحراء ، كنت أنقل خطوى وأنقل خطوها ، حتى اذا تمت الاجراءات ، أسلمتها الى يد الله ، تأسوها وترحمها ٠

وعاد الطفل الى جدته ، أما أنا فعدت الى وحدتى ، موزعا كما كنت ، وأديت امتحان دبلوم القانون الخاص فى مايو وكتب الله لى النجاح ،

وفرغت من الدراسة للدكتوراه ولم يبق أمامى الا تقديم الرسالة على النحو المعتاد ، وفى الوقت نفسه كان حزب الشعب يلفظ أنفاسه ، وكانت جريدته تحتضر ، وبدا أنه لابد من تصفيتها ، وقد تمت هذه التصفية فعلا فى منتصف شهر يونيو ، وفقدت عملى فى الجريدة ومواردى منها.. وبعد ذلك بأيام ، فى الرابع والعشرين من الشهر نفسه ، وبينما أنا فى مكتبى ، تلقيت رسالة تليفونية من مصحة حلوان عرفت منها أن زوجى لفظت أنفاسها الأخيرة ، وان على أن أتسلم جثتها .. مامن شىء فى الدنيا مهما يبلغ أساه ، لا يستطيع الانسان تحمله .. ان فيه لقوى كامنة لا تظهر الا فى وقت المحنة ، وكانت محنتى قاســية ولكن الله أمدنى بالقوة على تحملها .. تبددت أسرتى نهائيا ، كنت أرجو أن يجتمع شملها مرة أخرى ، فاذا بها لا تجتمع ، واذا على أن أذهب الى مصحة حلوان لكى آخذ الفتاة التى لم تبلغ الثالثة والعشرين من عمرها ، وقد سجاها الموت .. وطفلها ، ماذا أقول له ؟ .. وأنا ماذا أصنع ؟ من يعنى به وهو بعد فى السن التى يحتاج فيها كل طفل الى العناية .

ومرت بى مرحلة من الحياة ، عشت معه وحدنا .. بالليل والنهار لا أكاد أدعه الا ريثما أفرغ من عملى .. كان يسألنى عن أمه فأقول له انها سافرت .. سافرت الى أوربا .. ويسأل : متى تعود ؟ فأقول له فى العيد .. وصدق ماقلت أو تصورت أنه صدق .. ويسأل : ماهى أوربا ؟ فأقول له انها مصحة ، مستشفى .. دار للعلاج .. ويسأل : يعنى حتطيب .. فأؤكد له والدمع يترقرق فى عينى ، أحاول أن أحجبه عنه : أيوه حتطيب ..

وذات يوم أصر على أن يكتب لها خطابا .. وجلست أنا وهو . أخذت ورقة وقلما ، وأخذ يملى على مايريد أن يقوله لها .. وكتبت كل ماقاله ، ووضعت الخطاب فى الظرف .. وقال : حترميه فى البوسته.. قلت له : طبعا .. كان القمر اذ يلمع فى السماء ، يســـألنى : القمر بيبات فين ؟ .. ويسكت قليلا ثم يقول : وماما بتبات فين ؟ ..

ان فى الاطفال نورا خفياً من المعرفة ، ان فى قلوبهم هاتفا من الازل والابد ، انهم يعرفون بوجدانهم مالا نعرف بعقولنا .. قال : أنا عارف ان هى مش جايه .. سألته : ومن قال لك ذلك ؟ سكت ولم يجب ، وأخذته من يده .. قلت : هيا بنا نخرج ، ألا تريد ؟

وهوشت عليه .. اننا محتاجون فى أوقات كثيرة الى قوة أكثر مما تستطيع لكى نخفى مالا نستطيع .

ولم يعد لى من عمل بعد تصفية جريدة الشعب ، الا « الفصول » التى كنت أصدرها دوريه كل شهر ، والقضايا التى كنت أترافع فيها كمحام ، لم تضق موارد الرزق أمامى ولكنها نقصت ·· وكان لابد أن أضاعف من عنايتى بالفصول والمحاماة بعد أن فرغت من دراستى فى الجامعة ، وتوافر لدى الوقت الذى كنت أقضيه فى جريدة الشعب ·· ولكن العناية التى كان لابد أن أوجهها لطفلى امتصت هذا الوقت الزائد ، وكادت تمتص أكثر منه ·· ثم ان الجو الذى عشته فى هذه المرحلة كان خانقا جدا ، تمثلت أمامى قصة الموت والحياة كأسوأ ماتتمثل لانسان ·· كانت المرئيات أمام نظرى كأنها تتحول وتتغير ·· كنت أنظر الى الناس وأتأملهم وأرثى لهم ، أنا الذى كان فى حاجة الى من يرثى له ·· كنت أفكر فى مصيرهم ·· والموت ·· خياله لا يبرح خيالى ·· ومرض الطفل ، وارتفعت درجة حرارته ·· وأسرعت به الى الطبيب فقال لى وهو يهز رأسه : تيفوئيد ·· أو هكذا تتنادى المصائب وتتجمع ·· وخرجت كالمجنون ·· خيل لى أن نصيبى من الكوارث لم ينته ·· ونظرت الى الطفل كأنه وديعة توشك هى الأخرى أن تسترد ·· ولم يكن يفهم شيئا ، ولم يكن أحد يستطيع أن يفهم شيئا ·· لم يكن انسان فى الدنيا يستطيع أن يحس شعورى الا انسانا واحدا هو أنا ·· ولم أجرؤ أن أصفه وما استطعت ·· ان من الشعور مايطغى على كل شىء ، فاذا هو كل شىء ، أو أقسى وأعظم ·

كان الطبيب مخطئا ، ولم يكن فى الأمر تيفوئيد ولا غيره ·· كان مرضا طارئا بسيطا ، سرعان مابرىء منه الطفل ، وشكرت لله فضله ·· نحن نشكر دائما لأن الأسوأ لم يقع ·· وما هو ضماننا ألا يقع ؟ ··

وأجريت الانتخابات طبقا لدستور سنة ١٩٢٣ وفاز الوفد بأغلبية كبيرة ، ونودى بالأمير فاروق ولى العهد ملكا على مصر فى ٦ مايو سنة ١٩٣٦ ، وتألف مجلس الوصاية عليه من الأمير محمد على وعبد العزيز عزت باشا وشريف صبرى باشا ، وقدم على ماهر باشا استقالته وألف مصطفى النحاس باشا الوزارة الجديدة ·

وتم فى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ التوقيع على معاهدة التحالف والصداقة بين مصر وبريطانيا ، وهى المعاهدة التى قامت بالمفاوضة لعقدها هيئة تمثل كل الاحزاب ماعدا الحزب الوطنى ، وكان فيها أعضاء ليسوا وزراء ، وهو تقليد جديد دعت اليه رغبة الحكومة البريطانية فى أن تكون المفاوضة للمعاهدة وتوقيعها باتفاق من الاحزاب جميعها ·

كان واضحا أن معاهدة سنة ١٩٣٦ ليست بالاستقلال الكامل ، ومع ذلك فقد صورت حينئذ على أنها الاستقلال الكامل ، وكان واضحا أيضا أنها ليست شرا محضا ، وقد صورها البعض على أنها شر محض٠٠ كان واضحا أنها خطوة واسعة المدى فى سبيل استخلاص الحقوق الكاملة للشعب ٠٠ وكان واضحا من جهة أخرى أنها ختام لثورة سنة ١٩١٩ ، وبداية لمرحلة جديدة ٠

وقد كتبت فى « الاهرام » ، حينئذ مقالا عبرت فيه عن هذا الرأى وقلت ان الذين يصفون معاهدة سنة ١٩٣٦ بأنها معاهدة الشرف والاستقلال مبالغون ، والذين يصفونها بأنها معاهدة لتأييد الاحتلال مبالغون أيضا ٠

وزرت حزب الشعب مساء اليوم الذى ظهر فيه مقالى للتسليم على صدقى باشا لمناسبة عودته من أوربا ، وكان حوله بعض أنصاره وأصدقائه ٠٠ فرحب بى وقال على ملأ من الحاضرين : ان أصدق رأى قرأه فى المعاهدة هو ماورد فى مقالى ٠٠ واستطرد قائلا : انها فعلا خطوة كبيرة الى الامام ٠

وكانت عقيدتى أن ابرام معاهدة سنة ١٩٣٦ لابد أن يتبعه تغيير أساسى فى النظام الحزبى فى مصر ، ولابد أن يقع الضغط على الشئون الداخلية وتختفى ، ولو الى حين ، مشكلتنا مع بريطانيا ، بعد أن حسمتها المعاهدة على صورة أو أخرى ٠٠ كان رأيى أن الوفد لا يمكن أن يستمر بتشكيله ، كتلة شعبية قوية ، تجمع الانصار من كل الاتجاهات والطبقات على مطلب واحد طبيعى هو بداية ضرورية لكل دولة ناشئة ، كالاستقلال، فانه من غير المعقول بعد أن تم ابرام معاهدة تحل أو تؤجل ــ ولو الى فترة من الوقت ــ معركتنا مع الانجليز ، أن يستمر تشكيل الاحزاب كما هو ، ولا أن تستمر غاياتها وبرامجها كما هى ٠٠ كان لابد أن تفترق طبقا لحاجات الشعب ومطالب طبقاته المختلفة ، النابعة من وضعها الاقتصادى والاجتماعى ٠٠

لم يكن مستطاعا ، أن يستمر الوفد ــ كما كان ــ ممثلا للمحامين والمهندسين والتجار والزراع والطلاب وكبار الملاك والمستأجرين والعمال الزراعيين والصناعيين على اختلاف أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية ، واختلاف مصالحهم ٠٠ كان لابد أن يقع التضارب بين هذه الطبقات والطوائف ، متى أخذت الحكومات فى علاج المشكلات الداخلية ، وهى لابد أن تفعل ٠٠

وتمشيا مع هذا الاتجاه فكرت أنا وجماعة من أصدقائى والمقتنعين بهذا الرأى فى تأليف جمعية الفلاحين ، وتم تأليف مجلس الادارة منى ومن الاساتذة مصطفى رياض المحامى (مستشار بمحـــاكم الاستئناف فيما بعد) ومحمود متولى المحامى (مفتش بوزارة الداخلية فيما بعد) وسعيد عبد الله المهندس الزراعى وأحمد صادق عطية المقاول ورشاد رمزى (أصبح فيما بعد قاضيا) وعبد العليم المهدى وهو الآن محرر فى الاهرام .

ودعوت الى عقد اجتماع عام فى دار جمعية الشبان المسلمين أوضحت فيه فكرة الجمعية وألقيت خطبة طويلة أشرت فيها الى انحطاط مستوى المعيشة بين الفلاحين ، والى أن ابرام المعاهدة بين مصر وبريطانيا ، يوجب علينا أن نفرغ لشؤون الاصلاح الجوهرية التى هى الهدف الاساسى من الاستقلال وقلت ان زيادة السكان فى الوجه البحرى بلغت ٧ر٢٠ فى المائة وان زيادة الطبقة الزراعية بلغت ٧ر٣١٪ بينما لم تزد المســـاحة المزرعة الا بنسبة ٥ر١٢٪ .. وعلى هذا النحو جرت الخطبة ..

واتخذت من مجلة « الفصول » لسانا لهذه الجمعية ، وأخذت أصدر اعدادا أسبوعية صغيرة الحجم منها ، كى يتيسر لها متابعة نشاط الجمعية والاعلان عنه .

ونشرت «الاهرام» نبأ تأسيس الجمعية ومقتطفات من بيان تأسيسها وعلق الاستاذ خليل ثابت رئيس تحـــرير المقطم على البيان في مقاله الافتتاحى فامتدح الفكرة ، ولكنه ختم تعليقه بقوله ان شؤون الفلاحين هى موضع اهتمام الحكومة والنواب والشيوخ .

وسرعان ما تحرك القلم السياسى ، وأخذ يتحرى الأمر ، وجاءنى السيد عطية شلبى ، وأخذ يوجه الى أسئلة كثيرة عن حياتي والشهادات التى حصلت عليها وعن الجمعية وأهدافها وبرنامجها ، وعن أعضاء مجلس ادارتها واتجاهاتهم .. ولاح لى أنه يرتاب فى أمرها ، ويظن أنها من انشاء هيئات معينة أو ايحائها .

ولم أكن أقصد أن أؤلف حزبا ، ولكننى قصدت فى الواقع أن أنشىء هيئة تلفت النظر الى جوهر الاصـــلاح الحقيقى فى وطننا ، كان يزعجنى أن كل شىء للمدينة ، وليس هناك شىء للقرية ، وكانت عقيدتى أن قوة هذا الوطن تنبع أصلا من جماهير الفلاحين ، وماداموا فى تأخرهم وتخلفهم ، فان وطننا سيظل كالعمارة الجميلة ذات الواجهة الفخمة ، وداخلها سيىء متخرب .

واستولت على الفكرة استيلاء تاما .. زرت أنا وبعض أصدقائى عددا من القرى واجتمعنا بجماهير الفلاحين ،وتحدثنا معهم وتحدثوا الينا، ولمحت استجابة ضخمة من حيث الظاهر ، وامكانيات ضئيلة من حيث الواقع .. كان الريف حينئذ غارقا فى الجهل والخوف والظلام ، تسيطر عليه الاستكانة ، واذا كانت ثورة سنة ١٩١٩ قد أيقظته ، فانما فعلت ذلك فى الجانب الوطنى بقدر كبير جدا ، وفى الجانب الاجتماعى والاقتصادى بقدر ضئيل جدا ٠٠ كان فى حاجة الى قيادة قوية ، وكانت القيادات القوية غارقة فى السياسة ، لا تريد أن تتحول عنها ٠٠

لم أكف عن محاولاتى ، ولم أكف عن الدعوة الى فكرتى فى نطاقى الذى أستطيعه ، ولكن عيبى أننى خجول ، ولا أريد أن أكون أداة لأحد ، ولا أستطيع أن أكون ٠٠ لقد لمحت بعض ذوى النفوذ من غير الوفديين ، يحاولون أن يحاربوا الوفد من طريق خفى ٠٠ كان سلطانه حينئذ قويا ، وقد أبرم معاهدة ليست هى الاستقلال التام ، ولكن أحدا لم يستطع أن ينفذ الى قلوب الجماهير لكى يقول لها هذا ٠٠ ومن قاله لم يبلغ قوله القلوب ، لأنه ذو ماض لا يحمل على الثقة به ٠

وحينما أصدرت « الفصول » فى سنة ١٩٣١ شعرت أننى أدخل فى تجربة جديدة ، ولكنها كانت تجربة تستحق العناء ، لأننى جعلت من أهم أهدافى أن أبلغ رزقى مستقلا عن كل الناس ، وكان اصدار الفصول محاولة للاستقلال ، كنت أكره أن أتناول آخر الشهر مرتبا من أحد ، لا من الحكومة ولا من غيرها .. كان فى طبعى الاستقلال الكامل ٠٠ ولعلى فيما سبق من هذه المذكرات أشرت الى أننى كرهت منذ نشأتى أن أكون موظفا ٠٠ ولكن ما كل مايتمناه المرء يحصل عليه ٠

لقد نجحت « الفصول » نجاحا لم أكن أتوقعه ، طبعت من العدد الأول ألفى نسخة ، نفدت فى ساعات ، وطبعت من العدد الثانى أربعة آلاف نسخة ومن الثالث خمسة آلاف وظللت أتدرج فى الزيادة ، ويتدرج القراء معى فى الاقبال عليها حتى بلغ ما وزعته منها فى بعض الاعداد ثمانية آلاف نسخة ٠٠ كنت أرجو أن تبلغ المبلغ الذى يسمح لى بأن أترك الاشتغال فى جريدة الشعب وأتفرغ لها وللمحاماة ، ولكن التحاقى بالجامعة فى دراسة عالية فى المعهد الجنائى وقسم التدكتوراه ، أثر عليها تأثيرا شديدا ٠٠ لم أستطع أن أوليها العناية الكافية فأخذت تتدهور شيئا فشيئا ، وان ظلت موردا يمكن الاعتماد عليه ٠٠

ولما انتهيت من دراستي في الجامعة في سنة ١٩٣٦ كنت أطمع أن أوجه اليها كل عنايتي ، ولكن فكرة جمعية الفلاحين سيطرت علي ، فلفتتني عنها ، ولست أريد أن أقول انني لو وجهت اليها كل عنايتي كانت ستبلغ المبلغ الذي أحبه لها .. كلا ، انني وان كنت شديد الاقبال على العمل ، أحبه وأفني فيه الا انني لست موهوبا في الناحية الادارية الصحفية ، قد أصلح رئيسا للتحرير ، ولكنني لا أصلح مطلقا مديرا للادارة ، أجلب الاعلانات وأراجع الحسابات وأنمي الموارد ، وأعرف من أين أحصل على المال .. ولم تكن « الفصول » تحـــريرا فقط كانت اعلانات وادارة وحسابات وقدرة على دفع التوزيع الى الامام .. وهذا كله لم أكن مستطيعا أن أفعله ، وأنا ممن يؤمنـــون بالتخصص ، ولكنني لم أكن مستطيعا بالنسبة لمجلة شهرية أن أستخدم مديرا للادارة ، فضلا عن أن مواردي وظروفي ورأس مالي لم تكن تسمح بذلك .. هل كان لي رأس مال حين أصدرت الفصول ؟ كلا ، لم يكن .. وليس في طبعي المجازفة وهذا نقص آخر ، فلم أشأ أن أنفق ما أربحه من عملي في الصحف أو في المحاماة لكي أتوسع وأجازف ..

وكما قلت قبلا ، انني وان كنت لاأعنى بالمظاهر عناية كبيرة من أجل نفسي الا أنني كنت شديد العناية بها من أجل الناس ، لا لأني أخافهم ، ولكن لأنني لا أحب أن أســمع كلمة اشفاق أو رثاء من أحد ، ولذلك كان لابد أن يكون عندي أولا مورد ثابت يكفيني لكي أعيش مستور الحال ، والمجازفة تجردني حتما من هذا الثبات ، وتضطرني الى مواقف لا يحتملها طبعي .

ولابد من أن أقول شيئا آخر حتى يتم تصوير حياتي في هذه المرحلة. لقد أفادتني الدراســة الجامعية العـــالية أعظم فائدة ، ازددت ادراكا وانصقل فهمي للامور وزادت حساسيتي في تقدير الحوادث وتحليلها .. دراسة الليسانس شيء حسن ، ولكن دراســة الدكتوراه شيء آخر ..أنها تعمق الفهم وتجعله أقوى وأثبت وأصدق ، وأفادتني دراسة الاقتصـــاد فائدة كبيرة .. قللت من اندفاعي في الحكم على الامور وجعلتني أميل الى التريث وفتحت أمامي المجتمع وكأنه صفحة مرسومة لا يطغى فيها شيء على شيء . وليس أقدر على صياغة العقل الواعي من دراســة القانون والاقتصاد .. القانون يرسم الحدود والمعالم بين الحق والباطل ، بين حق الجماعة وحق الفرد ، - والاقتصاد يصور كيف يضطرب الناس ســعيا وراء الرزق أو الحيازة أو الملكية وكيف يتأثر تصور الفرد للامور بحاجات

المعيشة وارضاءغريزة التملك ، وكيف يطغى نشاط الفرد فتضطر الدولة الى التدخل ، وكيف تؤدى المنافسة الحرة الى الازدهار والرخاء وتفتح الملكات ٠٠ وكيف تؤدى أيضا الى الاثراء الواسع والاحتكار وسائر المساوىء الناتجة منهما ٠

وتداخلت دراسة القانون والاقتصاد فى عقلى مع دراسة علم النفس ، فأدركت كل النوازع التى تجعل الناس يضطربون ، يتقدمون أو يتخلفون .. وزاد هذا وذاك فى خاطرى ادراك قانون آخر من القوانين أو بتعبير أدق ناموس آخر من النواميس التى تحكم الجماعات ، وهو التطور ، الحركة ٠٠ فلا سكون فى جماعة من الجماعات ٠٠ الجمود ليس قانونا من قوانين الحياة ٠٠ انه حالة فقط ، ولابد من حركة لتغييره وتطويره ٠

أحسست أن شخصيتى بدأت تكمل ورأيى بدأ يستقر ويثبت ، واستقلال تفكيرى بدأ يتضح شيئا فشيئا ، عثرت على نفسى ، وبذورها كانت موجودة حتما ، وأدركت أن السنوات التى مضت وقضيتها فى العمل والدراسة ، الدراسة أكثر من العمل أحيانا ، والعمل أكثر من الدراسة أحيانا ، لم تذهب عبثا ، كان لابد منها ٠٠ ولو لم تتح لى الدراسة الجامعة العالية ، لظللت طول حياتى أشعر بالندم والالم ٠

ومن حسن حظى أننى فرغت من دراسة الليسانس فى سن مبكرة جدا بالقياس الى كثير من زملائى حينئذ ، حتى اننى وبعد أن فرغت من دراسة المعهد الجنائى والدكتوراه ، كنت لا أزال فى السن التى حصل فيها بعض زملائى على الليسانس ٠

وقد تخبطت فى العمل فى الصحافة ، وضايقنى أننى حتى الآن لم أستقر ٠٠٠ صحيح لقد كسبت من المال ضعف أو ثلاثة أمثال ما كسبه زملائى الذين اختاروا الوظائف منذ تخرجوا ، ولكنهم ثبتوا واستقروا بينما لا أزال أناحائرا قلقا وكان عزائى عن هذا كله اننى أستطيع أن أبدأ من جديد ٠٠ السن صغيرة ، والشهادات كافية ، بل أكثر من كافية والخلق مستقيم ، ولم يكن فى الاستطاعة أن يكون غير مستقيم ، فمنذ كنت فى العشرين من عمرى تحملت مسئوليات ثقيلة ، وعندما بلغت الرابعة والعشرين تزوجت فزادت مسئولياتى ، وزادها الهم والمرض والموت ثقلا أليما محزنا ٠٠ ذقت تجارب عديدة وطدت من سلوكى وقوت من شعورى بالمسئولية ، وجعلتنى مستعدا لأسوأ الاحتمالات ... لم يضع شىء من الدمع الذى سكبته ولا الأسى الذى شعرت به ٠٠ كل أولئك

وعظنى وصهرنى وكسانى حكمة أكثر من سنى واتزانا مبكرا وترك أثره فى كيانى فأصبحت أبدو أكبر من عمرى ٠٠

لا بأس بهذا كله ، اننى أخوض تجربة الحياة ، وما أقسى تجربة الحياة على الاحياء ، ولكن ما أمتعها أيضا ٠٠ انها لعبة خطـرة وجميلة ، والجمال أروع ما يكون اذا حف به الخطر ٠

وانتهت سنة ١٩٣٦ ، وكأنمـا انزاح عن كاهلى كابـوس ثقيل ، وتمنيت وأنا أرقب الليل وهو ينتصف أن يكون العام الجديد قادرا أن يأسو ويرحم ٠٠ ما أكثر ما نضيق ونتألم ، بل ما أكثر ما نبتئس ونشكو، ولكننا لا نعرف ان النور ينبثق من الظلام وان المحنة التى تمر بنا تحمل فى ثناياها بذور النعمة القادمة ٠

ونمت ليلتها راضيا بقلب شكور ٠

لم تكن بداية سنة ١٩٣٧ حسنة ٠٠ ظلت ظروفى كما هى ، الى ان انتصفت تقريبا ، فاذا الصـــحف تنشر ذات صباح نتيجة مسابقة صحفية كانت وزارة على ماهر باشا فى أوائل سنة ١٩٣٦ قد أعلنت عنها وحددت لها عشرة موضوعات مختلفة ، لكل موضوع أربع جوائز ، للفائز الاول ١٠٠ جنيه والثانى ٥٠ جنيها وكل من الثالث والرابع ٢٥ جنيها ٠٠ وعرفت انى حصلت على الجائزة الاولى فى موضوع البطالة ووســـائل علاجها ، والتعليم الاقليمى وأثره فى علاج البطالة ٠

كل فرحة فى الدنيا تقصر عما أحسست به حينئذ ٠٠ لقد اشتركت فى هذه المســـابقة حينما أعلن عنها وكدت أنساها لطول ما أعلنوا ان نتيجتها ستظهر ثم لا تظهر ، وكان لكل موضوع لجنــة لمراجعة أبحاث المتسابقين ، وكانت لجنة موضوع البطالة مؤلفة من الدكتور أحمد ماهر وأحمد عبد الوهاب باشا ٠

وحصل على الجائزة الثانية الدكتور على عبد الواحد وافى المدرس بكلية الآداب ، وحصل على الثالثة والرابعة الدكتور أحمد سويلم العمرى والاستاذ حسنى الشنتناوى ٠

وكانت جريدة « الاهرام » تنشر الموضوعات الفائزة ، وذهبت الى ادارة الجريدة ومعى الموضوع واصطحبنى الاستاذ عوض جبريل الى مكتب أنطون الجميل باشا رئيس التحرير ، وكانت هذه أول مرة أراه فيها ٠٠ قال : أنا منتظر الموضوع بتاعك مارضيتش أنشر الموضوعات الثانية من غير موضوع الفائز الاول ٠

شـــــكرت له حسن استقباله ، وســـلمته الموضوع وانصرفت ، وأسعدني في اليوم التـالى أن أرى الموضوع منشورا ٠٠ ان هناك أشياء صغيرة تسعدنا وان في الدنيا لمحات من النوم تلمع وسط الظلمات ٠٠ وقد كان هذا الحادث لمحة من نور وسط الظلمات التي كنت أعيش فيهـا حينئذ ٠

وذات يوم ، اتصـل بي الأسـتاذ محمد يوسف السركى وقال ان صدقي باشا يريد أن يراك ، ولا أعرف لماذا ٠٠ وقد حاول الاتصال بك ولكنه لم يجدك ، وهو يرجوك أن تزوره في بيته في الساعة العاشرة غدا ٠

واحترت ٠٠ ترى ماذا يريد منى صدقي باشا ٠٠ منذ تركت جريدة الشعب ، لم أره الا مرات قليلة وفي مناسبات للمجاملة ٠٠ كانت حكومة الوفد في الحكم ، وحزبها صاحب الاغلبية الكبرى ، وصدقي باشا حينئذ رجل غير ذى نشاط ظاهر في الحياة السياسية ٠٠ ترى ماذا يريد ٠٠ ولماذا المقابلة ؟

ولم أشغل نفسى أكثر من هذا ٠٠ سرعان ما تمر ساعات التساؤل ويواجه الانسان الحقيقة ٠٠ في الموعد المحـدد كنت جالسا في الشرفة المطلة على النيل في بيت اسماعيل صدقي باشا ، غارقا في تأمل ما حولى من منظر ســاحر ، واذا بالرجل يدخل وعلى وجهه ابتسامته الغامضـة المثيرة ، المخيفة الساحرة ٠

قال لى الأستاذ خالد :
عاوزينك فى الأهرام

« كنت قد دبرت أمرى على الا اعود الى الاشتغال بالصحافة أبدا ... لقد خانتنى مرتين ، ولكننى لم اكن قادرا ان ارفض العرض الجديد » .

رحب بى صدقى باشا ترحيبا حارا ، ثم قال : انت تعرف انه لا حزب لى ولا جريدة ، والناس دول فى برلمانهم حاملين على حملة شديدة ويتهمونى اتهامات لا حصر لها .. أريد منك أن تعد لى مذكرة صغيرة ، كتيبا صغيرا عن السنوات التى توليت فيها رياسة الحكومة ، وعن الاتهامات التى توجه لى وأسانيدى فى الدفاع عنها .. انت تعرف الكثير منها .. تستطيع أن ترجع الى مجاميع الصحف .

وبدا اننى لم أفهم ما يقصده تماما .. سألته : كتيب صغير ؟

ولم أكد أتم هذه الكلمة القصيرة حتى قال : نعم كتيب صغير ، أوزعه على النواب والشيوخ ورجال السياسة ..

قلت : باسمك ؟

ابتسم وأجاب :

ـ كلا .. لنقل مثلا بقلم سياسى محايد ..

وتلعثمت وأنا أتلقى رغبة الرجل وسرعان ما حسمت الامر بينى وبين نفسى ، فى برهة ، فى لحظة ، فى اشراقة من تفكير متتابع يجمع أطراف الصورة من جميع نواحيها ويقطع برأى .

قلت : حاضر يا دولة الباشا ..

وخرجت من عنده وأنا أتأمل وأتساءل : لماذا أجبت بالايجاب ؟ ..

لماذا قبلت هذه المهمة ؟ ٠٠ ان التفكير السريع المتتابع الذى جمع أطراف الصورة كأنه الكاميرا جرى كما يلى : أنا لست من أنصار صدقى باشا ، ولم أكن ، كل ما فى الامر اننى اشتغلت فى جريدته ٠٠ وهل من المحتم ان اكون لهذا السبب موافقا على سـياسته ولكن الرجل وحيد ، منعزل هجره نوابه وشيوخه وحزبه وأقفلت جريدته ، أليس من حقه أن يدافع عن نفسه ٠٠ ماذا لو عاونته ؟ ٠٠ ماذا لو كنت محاميه ؟ ٠٠ سأنقل الى الناس وجهة نظره ٠٠ هل من المحتم أن أكون مؤمنا بها حتى أنقلها ؟ ٠٠ وانى لأعرف أن صدقى باشا كان يحاول أن يضرب بيد فى حديد بارد ٠٠ فلم تكن آلاف المذكرات يكتبها أقدر الكتاب ، ويملى آراءها رجل ذكى بارع مقتدر كصدقى باشا ، قادرة على تبرئته مما يوجه اليه من اتهام ، سواء من الشعب أو من الحكومة أو من أنصارها وصحفها ٠

شعرت باشفاق كبير على الرجل الكبير ، ومن عجب أن يشفق مثلى على رجل جبار عنيد لبق واسع الحيلة كصدقى باشا ، ولكن هـذا هو ما حدث تماما ، أحسست أن الرجل فى ضيق ، فى ورطة ٠٠ يشمله احساس بالضعف أمام موج السخط المتعاظم ضده ٠٠

قلت : ماذا لو أنجدته ؟

وبدأت أراجع مجموعات الصحف ، وأعد دفاع صـدقى باشا ، ثم أعرضه عليه ، فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء .. وبعد أن تم صف الحروف فى المطبعة ، كنت أعيد مراجعة البروفات ، وأعيد عرضها عليه فيمحو ويثبت من جديد ٠

وتعددت مقابلاتى معه وطالت ، وكنت أستمتع وأنا أسمع ملاحظاته الذكية ، وقد أتعبنى لكثرة ما غير وبدل ، ولكننى لم أسخط أو أتململ ، كنت أشعر أننى أقوم بعمل من أعمال الشهامة والمروءة ، حسبة لوجه الله ٠٠ وتم طبع الكتيب الصغير ، بقلم « سياسى محايد » ووزعه صدقى باشا على أعضاء البرلمان الوفدى ٠

وما أحسبنى فى حاجة الى القول بأنه لم يقلل الحملة على صـدقى باشا وعهده ، بل زادها عنفا وشدة ٠

وذات ليلة فى أواخر أغسطس سنة ١٩٣٧ ، وقد أوى طفلى الى فراشه وأنا ساهر مع كتبى وعملى ، اذا بجرس التليفون يدق ، ورفعت السماعة ، كان المتكلم هو الاستاذ محمد خالد المحرر « بالاهرام » حينئذ، وبعد أن حيانى تحية رقيقة كنت أعهدها منه دائما ، قال :

ـ ماذا تعمل فى هذه الايام ؟

قلت : أشتغل بالمحاماة ..

قال : احنا عاوزينك تساعدنا فى « الاهرام » عاوزين وقتك كله .

لا أنكر اننى سررت وابتهجت على الرغم من اننى لم أكن أفكر منذ تركت جريدة الشعب فى أواسط سنة ١٩٣٦ فى العودة الى الاشتغال بالصحافة على أية صورة من الصور ، كنت قد نبذت هذا الخاطر نبذا تاما ، و لايلدغ المؤمن من جحر مرتين .. وقد لدغتنى الصحافة من جحرها مرتين .. ابتهجت ، ولكننى فى الوقت نفسه تولانى شعور غامض مبهم من الضيق .. الضيق الذى يستولى على انسان دأب على أن يهرب من امرأة جميلة تطارده ، وأحس إنه أصبح فى مأمن منها ، فاذا بها تطل عليه بوجه باهر الضياء أخاذ .. يسره ويسعده .. ترى ماذا يصنع ؟

ان لبيب عطيه باشا النائب العام كان يقول لى دائما : كلا ، ان هذا العمل لا يليق بك .. لا بد أن تشتغل فى النيابة والقضاء . هذا هو جوك ، وهذا هو مستقبلك ، ولكننى لم أكن متفقا معه تماما فى هذا الرأى .. لعلى تمنيت فى بعض الاوقات لو عينت فى النيابة أو القضاء .. كان مركز المشتغلين بالصحافة فى هذا الوقت سيئا من ناحية احترام المجتمع ، ولو التقى وكيل نيابة وصحفى فى مجتمع من المجتمعات ، لكان حظ وكيل النيابة من الاحترام والاهتمام أضعاف حظ الصحفى .. ولو اجتمع محام ووكيل نيابة ، لكان حظ وكيل النيابة من الاحترام أضعاف حظ المحامى .. هكذا كان المجتمع فى سنة ١٩٣٦ وسنة ١٩٣٧ وماتلاهما، وأنا محام الآن ، أو على الاقل أعطى المحاماة وقتا أطول مما أعطيتها فى أية مرحلة سابقة ، وأنا مرشح للنيابة ، اذا خاننى الحظ فى دورة من دورات التعيين لفقدان الوساطة ، فهو قادم حتما فى دورة أخرى .. وهأنذا مطلوب للاشتغال « بالاهرام » .. الصحافة .. هذه الجملة الساحرة التى أغوتنى فى مطلع الحياة وغدرت بى مرتين ، تحاول أن تغوينى مرة ثالثة .. ان مقاومة الاغراء ليس أمرا سهلا .. والقلب الذى يحب قد يغفر الغدر مرة ومرة اذا جاءه الحبيب يخطب وده من جديد ..

ورددت على الاستاذ خالد وأنا شبه قلق ومبتهج .. شبه مستقر على الرأى ، وخائف منه :

ـ طول الوقت ؟

أجاب : أيوه طول الوقت ٠٠ ماتنساش ان « الاهرام » أقصى أمل للمشتغل بالصحافة ٠٠

ترددت برهة فى الجواب ٠٠ هل أنا مشتغل بالصحافة ؟ ٠ كرهت أن أكون كذلك ، ولكن الواقع اننى اشتغلت بها ، ولا أزال ٠٠ لماذا أنكر الحقيقة ؟ ٠٠ان أكثر رزقى جاء منها ٠٠ ولا أزال أحصل منها على جزء من هذا الرزق ٠

قلت : معك حق ٠٠

قال . الاهرام مضمونة مثل الحكومة وأكثر ٠

قلت : هذا لا شك فيه ٠٠

أجاب : اذن اتفقنا ٠٠ تقلا باشا يريد أن يقابلك غدا حوالى الظهر ٠٠

قلت : سأمر عليه فى هذا الموعد ٠٠

وقضيت الليلة فى ابتهاج وقلق وخوف ٠٠ الابتهاج لأننى سأعود الى الصحافة مرة أخري ، الصحافة اليومية بعد أن تركتها نحو سنة ، ولأننى سأحصل على رزق مستقر مستمر ، ليس فيه عناء المحاماة ولا عبثها ولا ألوان الناس الذين أضطر الى لقائهم ، لا مرمطة المحاكم والجلسات التى يقال انها تفتح فى « الساعة الثامنة أفرنكى صباحا » ، ثم لا تفتح الا فى الساعة العاشرة ٠٠ وأحيانا فى الحادية عشرة ٠٠ أصحاب القضايا الذين يدفعون مقدم الاتعاب بخلع الضرس ، ولا يدفعون مؤخر الاتعاب أبدا ٠٠ وكيل المكتب ذو الوجه الكريه المعقد الذى يظن أن حياتى فى يديه ، السارق الذى لا يرضى بغير حكم البراءة وفى ظنه اننى ماء زمزم لابد أن أطهره من ذنوبه تطهيرا ، المرتشى الذى يظن أنه أدى للدولة خدمات كثيرة ، وها هى تقوده الى السجن لأنه أخذ عشرين جنيها ٠٠ يا للظلم ٠٠ الموكل الذى « عور » عشرة أشخاص فى خناقة وكسر ضلوع ثلاثة آخرين، وأحدث عاهة مستديمة لاثنين على الاقل لا يقنع بأكثر من غرامة ٥٠ قرشا ٠٠ سأرتاح من كل هؤلاء ، ولكننى سأرجع الى الماكينات التى تلتهم ولا تشبع ، الى الاميرة الساحرة الخائنة ترمى أسباب الفتنة ثم تطويها ، الى الوسط الذى كله سهر وقلق وانتظار وخوف : سهر انتظارا للاخبار ، وقلق أن يسبقك غيرك ، وخوف أن تكون بعد هذ وذاك لم ترض قراءك ٠٠ شد ما كرهت أن أكون عبدا لأحد ٠ وقد ظننت مخدوعا أن

ابتعادى عن وظائف الحكومة ينقذنى من العبودية ، فاذا بى ألقاها أو ألقى شيئا منها فى عملى كمحام .. كنت عبدا لصاحب القضية ولخصمه ، للكاتب والوكيل ، لقلم المحضرين وقلم الكتاب ، للمحامين والقضاة ووكلاء النيابة ، للمواعيد التى لا بد أن تراعى ، للواجب الذى لا بد أن يؤدى .. للموكل الشرس والموكل الرقيق وكثيرا ما تكون عبوديتك للرجل الرقيق أقسى ألف مرة من عبوديتك للرجل الخشن .. الاولى تقبلها لأن واجبك يتطلبها أو رزقك أو حق عملك ، والثانية تقبلها أعمق وأقسى ، تخشى أن تؤلمه عن غير قصد ، أو تضايقه دون أن تفكر فى مضايقته .. انه يغضب من أشياء لا وجود لها ، ويشعر كأنه يجرح من تصرفات لا تحمل معنى الجرح من قريب أو بعيد .. ما أكثر ما تستعبدنا الحياة.. انها تستعبدنا فى الوقت الذى نحس فيه اننا تحررنا منها .. وقد أصدرت « الفصول » التماسا للتحرر من سلطان الناس ، فاذا بى أقع تحت سلطان أقسى وأقوى ، وأكثر استبدادا هو سلطان القراء .. سأعود مرة أخرى الى سلطانهم اذا قبلت العمل فى « الاهرام » .. ومن يدرى ؟ لعل سلطانهم هناك أقسى ألف مرة ، بل انه على التحقيق كذلك .

لا منجاة لى من السلطان على أية صورة كان هذا السلطان .. وأسوأ صوره رئيس يأمر ويطاع ، يرضى ويغضب ويقدر أو يسحب تقديره .. وأخذت أتقلب طول الليل فى فراشى .. كنت أشعر أن القرار الذى سأصدره غدا سيرسم طريق حياتى الى الأبد .. لقد بدأت أنضج ، ولا مجال للتجربة . ترى هل أعمل فى « الاهرام » فترة ثم أتركه الى النيابة والقضاء .. ما أسوأ هذا التردد .. ما أسوأه سواء كان فى الصحافة أو فى غيرها .. وعيبى اننى لست حاسما ثم اننى متشائم ، لا أطمئن لحظة الى الزمن والايام ، يخيل لى دائما انها تخفى الاسوأ ، وربما كانت ظروف حياتى هى التى جعلتنى شديد الحساسية من هذه الناحية . لست حاسما فى أن أقبل أو أرفض .. أميل أكثر الى ترك الايام تحسم من أمرى ما تريد أن تحسم وتدع منه ما تريد أن تدع .. وربما كان هذا عيبا بل انه عيب كبير ، لا أدرى كم هو ترتيبه بين عيوبى ، ولكننى أشعر انه أضاع على الكثير .. أضاع على الكثير ؟ .. يا لسخرية العبارات التى أرسلها دون تدبر .. أترانى أعرف ما يخبئه لى القدر حتى أستطيع أن أجزم بأن ما حصلته خير مما لم أحصله ، أو أن ما حدث أسوأ مما كان ممكنا أن يحدث لو اخترت طريقا آخر ؟

لأدع هذه الاوهام ولأنم .. ان دورى فى حياتى قليل جدا ، لقد وهبها لى الله ، والواهب وحده هو الذى يستطيع أن يتصرف .

وحوالى الظهر كنت فى جريدة « الاهرام » وكان الاستاذ محمد خالد يرحب بى متلطفا ، شديد العناية ، قال : ان تقلا باشا سيستقبلك الآن ٠٠

كانت أول مرة أرى فيها تقلا باشا ، كان يضع نظارة على عينيه ، ويلبس جاكتة زرقاء مما يلبسه العمال ، وكان الجو صيفا شديد الحرارة ، استقبلنى بعبارة قصيرة ، ولكنها دفعت الى صدرى ثقة كبيرة ، لم يكن صوته رقيق الوقع فى الاذن ، ولكن كلامه كان ـ فيما يبدو لى ـ صادقا كسا صوته رقة ليست له فى الواقع ٠ أنا الآن أمام عاهل الصحافة المصرية ، الرجل الذى لم يكتب حرفا ، ولكنه أتاح الفرصة للكتاب والمفكرين ، الرجل الذى يصنع الصحافة دون أن يلمع اسمه كاتبا أو محررا أو مخبرا ٠٠ الرجل الذى يعمل من وراء هذه الماكينة الضخمة ، ويبدو فى تواضع كأنه لا يعمل شيئا ٠٠ جاكتة زرقاء مثل ما يلبسه العمال ٠٠ استهلال بديع أعطانى فكرة واضحة عن الرجل ٠

سألنى تقلا باشا أسئلة كثيرة طواها فى حديث طويل ، واستطاع أن يعرف عنى كل شىء ، واتفقنا على أن أبدأ العمل فى اليوم التالى ٠

وما كان أقساه من يوم ٠٠! دخلت «الاهرام» كالتلميذ الخائف القلق ٠٠ بدا لى جوه أول الامر مقبضا كئيبا ، أشبه بجو الكنيسة أو المحراب ٠٠ صمت قاتل كأنه الموت ، أشخاص تتحرك هنا وهناك ، دون كلمة أو نكتة أو ضحكة تزيد على ابتسامة صغيرة مقتضبة ٠٠ شعرت بغربة قاتلة ، وأحسست كأننى أساق الى العمل سوقا ، جلست فى غرفة مع الاستاذ عوض جبريل ، وكنت أعرفه من قبل ، وفى مواجهتنا كان يجلس الاستاذ صالح البهنساوى والاستاذ كامل الشناوى ٠٠ والغرفة من غير باب ، كانت لها فتحة واسعة تؤدى الى فناء داخلى مكشوف ، فاذا جاء المساء جلس تقلا باشا على طاولة صغيرة تحت ضوء السماء والنجوم والقمر ، اذا كان هناك قمر ٠٠ وعلى الطاولة مصباح كهربى ، والرجل غارق فى مراجعة الاوراق التى أمامه ، أسمعه من وقت الى آخر ينادى بصوت فيه أمر واضح ووداعة واضحة ، فيه تخويف وتطمين : جبريل ٠٠ وأعرف أن المقصود هو الاستاذ عوض جبريل ، فينهض مسرعا منتفضا : أفندم سعادة الباشا ، وعلى البعد القليل والباب المفتوح أو الفتحة القائمة من غير باب ، أسمع جبريل يكركر فى ضحكة عالية ، حسبتها مصنوعة أكثر منها طبيعية ٠٠ ومن وقت لآخر يصل الى أذنى قول جبريل : دا الاهرام يا سعادة الباشا ٠٠ الاهرام ٠٠ ويعود جبريل الى مكتبه فيدس رأسه

فى الاوراق ، يراجع ويمحو ويثبت وينفخ من وقت الى آخر ثم ينادى : يا عم عبد الله ٠٠ فنجان ساده ٠٠ أيوه ياخويا ٠

وأمتعتنى شخصية « عم عبد الله » ٠٠ نوبى جاوز الستين حتما وربما بلغ السبعين ، لا يكف وجهه عن الابتسام ، ولا تكف يده عن الضراعة والدعاء ، يبدو فى بلاهة لا حد لها ، وهو فى خبث لا حد له ٠٠ يتحمل شخط الاستاذ جبريل وغيره بوجه باسم لا يتغير ، وضحكة فيها من الوفاء والرضاء أكثر مما فيها من السخط والشكوى ٠

وينادى تقلا باشا : شناوى ٠٠ وينهض كامل الشناوى ويذهب الى الباشا ٠٠ ويجىء دورى ، وكثيرا ما كان يجىء ، فأذهب الى الرجل وأسمع ما يريد ٠٠ قلما كان يصدر أمرا ، وان أظهر فى أوقات كثيرة الرضى والابتهاج ، وفى أوقات أخرى الاستياء ، ولكن استياءه لم يكن من هذا النوع الكريه الذى يضيق به الانسان ٠٠ كان استياء رقيقا يتبعه بكلمة مجاملة رقيقة ٠

يظل الجو طول الليل على هذا النسق ٠٠ سكون لا يقطعه الا صوت تقلا باشا وهو ينادى من يحتاج اليه ، حركات رتيبة ، أنوار بطيئة ، زوار قلائل .. بل لا زوار على الاطلاق .. مكاتب على نسق واحد .. غرف ليس فيها أثاث ضخم ولا فخم ٠٠ عمل ثم لا شىء آخر ٠٠ الزوار لهم غرفة مخصصة ، يلاقون فيها من يشاءون ثم ينصرفون ٠

كان انطون الجميل باشا فى أجازة ، وكان تقلا باشا هو القائم بعمل رئيس التحرير ، فاذا فرغ من مراجعة ما أمامه من ورق ، نهض فى نشاط وحيوية ، ودق الارض برجليه وارتدى الجاكتة الزرقاء ، ودخل الغرفة التى نجلس فيها ، وتبادل كلمة أو كلمتين مع من يشاء ، وتريث قليلا عند مكتب جبريل ، فينهض واقفا وهو يفرك يديه ، باسطا على وجهه ابتسامة لست أدرى من أين يجىء بها ، وبهذه السرعة ، كان جبريل اذا استغرق فى العمل ، ولم تكن تراه الا كذلك ، رد طربوشه الى الوراء أو خلعه ، وثبت نظارته على عينيه ، ورفع يديه من وقت الى آخر ساخطا متأففا وهو يقول : دا مش عربى ٠٠ دا تركى ٠٠ لاوندى ٠٠ والقلم الاحمر فى يده لا يكف عن الشطب والاضافة ، بحيث تخرج الورقة من يديه وقد سال دمها ، وضاع ما كتبه المحرر المسكين وسط السيل

الاحمر الذى يملأها من يمين ويسار ٠٠ وكان تقلا باشا اذا رأى الورقة على هذه الصورة ابتهج واطمأن ٠٠ كان مفروضا انه لا بد من المراجعة ، والمراجعة كما ينبغى هى أن ترسل اليه الورقة وقد امتلأت بهذه الاشارات الحمراء ٠

قال جبريل وهو يحاول أن يسر تقلا باشا ويسرى عنه، وكان يتندر على بعض الناس : دا عمره ٥٠ سنة يا سعادة الباشا ٠٠

قال تقلا باشا :

قصدك ايه يا جبريل ؟ يعنى أنا خرفت ؟

واحتار جبريل كيف يعتـــذر ٠٠ وراح يضحك من كل قلبه : لا ياسعادة الباشا ، واشجاب لجـاب ٠٠ يبقى العلم والشـــباب والابهة والاصل ، الاصل يا سعادة الباشا ٠٠ لا ، انت قصدك توقعنى ٠

كان واضحا ان تقلا باشا يريد ان يحرج جبريل لكى يرى كيف يتصرف ٠ وكان واثقا أنه سيصل الى موقف يسره ويسرى عنه فعلا ، كان تقلا باشا ذكيا عارفا بالنفوس مدركا لخلجاتها أو يكاد ، وكان يحلو له أن يداعب جبريل وان يكشف من نفسه كل مافيها ، وما كان أكثر مافيها ٠٠

وأخذت انس الى عملى فى الاهرام شيئا فشيئا ، زالت الوحشـــة ، الاولى وبدأت ادرك حقيقة جوه ، كان شيئا جديدا بالنسبة لى ، رأيت فى « السياســـة » الارســـتقراطية الذكية والارســـتقراطية التقليدية ، رأيت فيها لمعة من الذكاء والفكر اسرتنى وبهرتنى ، ورأيت فى «انشعب» غباء وارستقراطية ريفيـــــة وبلادة فى الادراك ، ازعجتنى والمتنى لولا لمحات ذكاء بارع كانت تصدر من صدقى باشا من حين الى حين ٠٠ وفى الجريدتين ، كانت الصحافة وراء الصورة ، وفى المقدمة الحزب والسياسة والصراع الحزبى ، والوزارة التى سقطت والوزارة التى تجىء والمندوب السامى الذى سافر وقد لا يعود ، والمندوب السامى الجديد وقلاع المركب وأين يسير ٠٠ أما فى « الاهرام » فقد رأيت شـيئا جديدا : الصحافة أولا ، والاحـزاب والسـياسة والصراع وكل الألوان التى يضطرم بها المجتمع ، لا تعنى بالنسبة له الا أنها مادة صحفية ٠٠ اختفى من الصورة كل شىء ، ولم تبق الا الصحافة ، الا الخبر ، يجب أن تسـبق به الجريدة الجميع والا الدقة يجب ألا تتنازل عنها ، والا الوقوف موقف الحياد بين مختلف التيارات دون ميل الى هذا أو ذاك ٠٠ رأيت فى

« السياسة » الاحرار الدستوريين أصدقاء وملاكا للجريدة ورأيت فى « الشعب » رجال حزب الشعب أصدقاء وملاكا لجريدة ، ولكننى رأيت فى الاهرام الوفد والاحرار الدستوريين وحزب الشعب والحزب الوطنى والمستقلين ، رأيت كل الاجناس والألوان تأتى اليه وتصادقه ولا حرج عليها .. لم ار فيه ارستقراطية فى الفكر والمذهب والعقيدة ، ولكننى رأيته يجمع الارستقراطيات كلها ، دون أن يدين بشيء منها ، يحتفى بالوفديين والدستوريين والشعبيين والاتحاديين والوطنيين وأنصار مصر الفتاة وأنصار السنة المحمدية ورجال الكنيسة المارونية والارثوذكسية والكاثوليكية وشيوخ الازهر .. رأيت فى رواده شيوخا وقساوسة وكرادلة ومؤمنين وكافرين .. ساخطين وراضين ..

لم تكن فيه لمعة من الفكر والذكاء البارع نابعة منه ، ولكن كان فيه لمعة من الفكر والذكاء مستعارة من لمعة الوطن وذكائه اللماح .. كان يفتح صدره لكل رأى وفكر .. وكان أصحاب الآراء والافكار يؤثرونه على غيره من الجرائد الحزبية ، لأنهم فى مأمن من سخط صاحب السلطان اذا عاملوه ، ثم هو جريدة محايدة مستقلة ، لا ضير عليهم لو نشروا فيها آراءهم ودافعوا عنها ، سيتقبلها الناس مبراة من الحزبية ومفاسدها وكم كانت للحزبية من مفاسد .

لم يكن « للأهرام » طعم ولا لون خاص ، ولكنه كان يجمع بين صفحاته كل الالوان والاطعمة ، يقدمها فى براعة ودقة وأمانة .. ومن حسن حظى اننى لم أكن مؤمنا ايمانا عميقا بحزب من الاحزاب أو اتجاه من الاتجاهات السياسية الغالبة على الوطن حينئذ .. كنت صاحب رأى مستقل وتفكير خاص .. واخذت هذه الملاءمة بين طبيعتى وطبيعة « الاهرام » تزداد وضوحا شيئا فشيئا ، ووجدت فى صفحاته مجالا ابدى فيه الرأى الذى لم يتح لى ان ابديه بصراحة كافية فيما مضى .. وربما لم أكن حينئذ قد نضجت النضج الكافى ولم يصبح لى رأى استطيع أن أتبناه عن ايمان ودراسة كما اتيح لى الآن ، وقد فرغت من دراسة الدكتوراه ، ونضجت تجربتى واستقام فهمى للامور الى حد ما ..

واستهوتنى شخصية تقلا باشا ، واتصلت بينى وبينه علاقات مودة والفة ، لم أكن اتصور أنها ستكون حينما رأيته لاول مرة ، ولم أكن أتصور أنها ستكون يوم بدأت العمل فى الاهرام وبدا لى جوه كئيبا خانقا ، ربما كان هذا لأن العمل كان جديدا على ، وربما لاننى كنت

اخشى أن تستنزف الصحافة حياتى ، وانا قليل الثقة فيها أن تكون مورد رزق ثابت أو مجالا أتقدم فيه جهد ماتسمح دراساتى ورغبتى فى العمل .. وربما لاننى كنت قبل اشتغالى فى « الاهرام » قد باعدت ما بينى وبين الصحافة ، وتمنيت لو سارت حياتى سيرة أخرى .

ولكننى شيئا فشيئا أخذت أحب عملى فى « الاهرام » وأرتاح الى جوه أو آلفه .. آلف كل جديد فيه .. حتى الاســماء نفسها التى كانت جديدة على اذنى الفتها : شيخانى وكنعان وبدران ويونس والحويك والفريب وداغر .. اللهجات نفسها كانت غريبة ، واللغة التى كنت اراجعها كانت هى الاخرى غريبة .. عربية ، هذا صحيح ، وربما عربية من الطراز الاول ، ولكن ما أكثر « الباءات » فيها .. قال لى تقلا باشا : خد بالك .. كل كلمة فى الجرنال ده فيها « باء » اشطبها : غيرها .. « الحويك » راجل كويس خالص ، عـالم فى اللغة ، لكن الباء تفسد من أمره كل شيء .. « الغريب » خد بالك منه ..

كان تقلا باشا يتكلم العربية ، ولكنه أيضا كان يتكلم الانجليزية والفرنسية بطلاقة .. اذا ناقش موظفى الاعلانات أو بعض المحررين تحدث معهم باللغة الفرنسية أو الانجليزية حسب الاحوال .. كان ينزل الى المطبعة فى آخر الليل ، هو طويل فارع الطول ، عريض الاكتاف ، فيه شباب متفجر فى نظرته وكلمته وحركته ، يراقب الصف وترتيب الصفحات ويبدى ملاحظاته ، وصالح البهنساوى الى جواره كالفرفورة يجرى فى اقدامه من هنا وهناك ، لا يكاد يظهر وراء طاولات التوضيب ، وصناديق الحروف .. ايوه يا اكسلانس .. الخبر ده موجود .. مرسى اكسلانس .. يامحمد ياباشا بلاش مناكفة .. خاص شغلك .. فاذا خرج تقلا باشا الى الدور العلوى وانفسح المجال أمام صــــالح البهنساوى فى صالة الجمع والتوضيب فى البدرون فهو الحاكم المتسلط، الدكتاتور الذى لا يراجعــــه احد ، ومن وقت الى آخــــر يمــر عليــــه اصدقاؤه .. لا فى صالة الجمع ولكن فى الشارع وينظرون اليه من النوافذ التحتية وتسمع من وقت الى آخر مساء الخير يا ابو صلاح ... يا صــــالح بيه خد بالك الخبر ده .. يا صــــالح بيه .. يا أستاذ صالح .. يا ابو صلاح .. ويخف صالح البهنساوى فى مشية غزال يقترب من الشباك ويتبادل كلمة أو اثنتين مع أصدقائه ومعارفه ،ويتناول منهم أحيانا سيجارة ثم يعود الى عمله ، يلهب صالة الجمع ، فاذا العمل كله منجز ، واذا صوته الجهير الذى لا يتفق مع جسده الضئيل يملأ الصالة رهبة وأحيانا نكتة .. وكان محمد الباشا يضايقه أحيانا فلا

يناديه الا : يا صالح أفندى .. ويصرخ الأستاذ صالح ويقول : وبعدين معاك يا باشا .. يا محمد الباشا .. بلاش تعطيل .

وكان محمد الباشا شخصية فريدة ، وهو ليس باشا بطبيعة الحال ، هكذا كان لقبه .. كان صفيف حروف ثم أصبح موضبا للصفحات .. ارتقى بسرعة مذهلة ، وكان نبيها ذكيا مقتدرا فى عمله ، وكان أيضا مراسل الاهرام فى أمبابه ، وكان ــ فيما يبدو لى ــ لا يضع نفسه فى مرتبة أقل من المحررين فى الدور العلوى ، وكان كثيرا مايخرج اليهم فى مكاتبهم ، يعطيهم رسائله ويأبى ان ينصرف الا اذا روجعت واخذت دورها وانتهت الى المطبعة .. رجل مبروم الوجه ، قصير ، فى محياه لمحة من ذكاء لم يكتسبه بدراسة أو قراءة ، ولكن وهبه هبة خالصة طبيعية .

وكنت اذا قاربت الساعة العاشرة ليلا ، رأيت صالح البهنساوى يترك مكتبه فى الدور العلوى ، وقد لبس الجاكتة الزرقاء ، ووضع تحت ابطه ملفا فيه مقالات واخبار واشياء أخرى ونزل الى المطبعة حيث يبدأ دكتاتوريته وحيث يزاول سلطانه الواسع : قلت شيل رئيس الوزرا وأرميه ، احنا مش عاوزينه .. حط البرنس محمد على فوق .. ارمى الوزرا فى السبت .. ياحنفى .. النقراشى باشا خلاص .. النحاس باشا يا بنى آدم اتنشر امبارح .. ماهر باشا أركنه شويه .. حط نسيم باشا فى رأس العمود .. وهكذا لا يكف صالح البهنساوى فى ذكاء ودكتاتورية وصراخ ونكتة عن الكلام ، وبين وقت آخر تراه يلتفت الى الشبابيك المطلة على الشارع : أهلا سعيد بك .. ايوه يافؤاد بك .. اتفضل قهوة .. الشغل عاوز كده ..

شىء مسل جدا ان تراقب كيف تنتقل الجريدة من الدور العلوى من الاقلام والمحابر والرياسات والمراجعات والشطب والاثبات وصوت تقلا باشا وهو ينادى هذا وذاك ، الى الدور السفلى ، الى البدروم ، وقد تولاها صالح البهنساوى بنكتته البارعة وخفة روحه التى لا تبارى ، ومعه العمال ، رؤساء الجمع والصف وعمال التوضيب والكبس ، فاذا الرياسات تذوب واذا الالقاب تنزل الى التراب .

ولى الصيف ، واقبل الخريف ، وانتهت اجازة انطوان الجميل باشا وانتهت رياسة تقلا باشا للتحرير وقال لى : أنا سعيد لاننى عرفتك ، العلم موجود والذكاء .. واريد ان أقول لك شيئا آخر .. نحن هنا

ليس لنا أغراض ولا سياسات تحتية .. وانت تراجع الاخبار والمقالات ، احذف منها كل ما يعطى لونا ضد أحد ، أو يجعلها دعاية لاحد .. ليست لنا مصلحة مع أحد وكى أكون صادقا مع استثناء واحد ، هو ضابط نقطة النعناعية .. علشان أنا لى فدانين هناك ..

لقد أثر فى تقلا باشا بشخصيته الرائعة العظيمة المتعددة الجوانب .. رجل متواضع ذكى أمين دؤوب على العمل ، ولولا وجوده فى الأيام الأولى التى اشتغلت فيها فى « الأهرام » لكان أمرى قد تغير تغيرا تاما ، وربما كنت قد تركت العمل فيه .. لقد قال لى وأنا أبدأ العمل : اننا ننتهز فرصة غياب رئيس التحرير ونطعم الجريدة بالعناصر الجديدة ..

ولم افهم ماذا يقصد بهذا الكلام الى أن كان اللقاء الاول بينى وبين أنطون الجميل باشا .

« كنت أشبه بالبحر العميق ، في القاع تيارات لا حصر لها بينما ينعم السطح بالهدوء »

لم تكن هذه أول مقابلة لى مع أنطون الجميل باشا ، سبق أن قابلته ـ كما ورد فى هذه المذكرات ـ يوم أعلن فوزى بالجائزة الأولى فى المباراة الصحفية ولكنها كانت أول مقابلة معه بحسبانه رئيس تحرير الجريدة التى أعمل فيها ٠ كان الوقت فى المساء ، وقد جلس فى غرفته الفسيحة وراء مكتبه الفخم الواسع ، ودفن رأسه فى الورق ، وظهرت نظارته كأوضح ما فيه .. وحييته وأنا داخل ، فنهض لرد التحية ، وسرعان ما عاد الى جلسته ، ودفن رأسه فى الورق مرة أخرى ٠٠ وتمتم : الصحافة مهنة متعبة .. ورفع رأسه قليلا وشوح بيديه : سهر ومضايقات كثيرة ..

وأصبت بخيبة أمل شديدة ، وتوليت عنه ، وأنا آسف حزين ٠٠ عاد لى القلق الذى كان قد تبدد ٠٠ لماذا استقبلنى الرجل هذا الاستقبال الفاتر البارد ؟ أليس هناك شىء آخر يقوله لشاب بدأ العمل معه متحمسا أمينا الا أن الصحافة مهنة متعبة والا أنها سهر ومضايقا ت.. واليس هناك ما ينبغى ان يطالعه منه الا رأس مدفون فى ورق ونظارة بارزة كأنها سحاب مظلم فى يوم مشرق ٠٠

ومصيبتى اننى انسان حساس ، تأسرنى الكلمة الطيبة والتقدير الجميل اكثر مما يأسرنى المال الكثير ٠٠ بل اننى لم احفل بالمال قط ما دام عندى مايكفينى ، وأخذت أضيق مرة ثانية بالجو الذى أعمل فيه ٠٠ وانى لاضطرب اضطرابا شديدا ، ويكاد قلبى يقف وعقلى يتبلد

اذا لمحت ما يؤلمنى ولو من بعيد ٠٠ وانى لأشتغل بأعصـــابى وعواطفى أكثر مما اشتغل ببرود العقل وتحليله البطىء ٠٠ كان مساء محزنا ٠٠ رأيت الأوراق : الاخبار والمقالات وهى تنهـــال على لمراجعتها والتأشير عليها ، كأنها لعنات من السماء تقع على رأسى ٠٠ ونظرت مرة أخرى الى جو « الاهرام » فاذا هو كئيب مقبض ، واذا الاشخاص الذين يتحركون أمامى غرباء أمام عينى ٠

وتولتنى ريبة فى كل شىء ٠٠ اذا كان هؤلاء الناس لا يريدوننى فلماذا دعونى للعمل معهم ، ولماذا كان هذا الاستقبال الحافل والتقدير الكبير من نقلا باشا طول الوقت ٠٠ سيكون عملى مع انطون الجميل باشا طول الوقت ، لماذا اذن كان هذا الاستقبال البارد غير المشجع ؟

وكما قلت قبلا ، كنتاتحرك كأنما بقدر مرسوم ، لقد ضاق صدرى ولكننى تريثت ٠ أن التسرع ليس صفة من صفاتى ، ولكن الانفعال السريع صفة ثابتة من صفاتى والذين يعرفوننى لا يصـــدقون هذا ٠٠ واننى لثابت غير متقلب .. ابدو عاقلا جدا ، رزينا جدا ، وهادئا جدا ، ولكن ما أكثر ماتخدع المظاهر ، ٠٠ اننى احمل نفسى حملا عنيفا على أن تبدو كذلك ، بينما تكون فىاعماقها اكثر ما تكون اضطراما واضطرابا ٠٠ اشبه بالبحر العميق ، قاعة فيه تيارات لا حصر لها ، بينما سطحه ينعم بالهدوء ٠

ثم اننى من طريق آخر ، لا أسارع الى الاتهام ، ولا اقنع بالانفعال الطارىء ، فكثيرا ماتكون دلالته شيئا آخر غـــير الحقيقة ٠٠ كنت قد اقترحت تلخيص اقوال الصـحف العربية والافرنجية ، حتى تحمـــل « الاهرام » الى القراء مختلف التيارات السياسية والحزبية التى تتناوب الوطن فى هذا الوقت ٠٠ وبدأت هذا العمـل مع تقلا باشا ٠٠ فلما تولى انطون باشا عمله ، اعدت عليه الاقتراح ٠

قال : ان هذا العمل يحتاج الى كاتب ٠

وقالها بالفرنسية ٠

وآلمتنى الكلمة ، آلمنى التعبير وشعرت بما يشبه التحدى ٠٠ ماذا يظننى اذن ؟ مجرد مرتزق ٠٠ انسان تافه ، صحفى من تحت السلاح ، ماذا يظننى ٠٠ ماكينـــة سألخص الاقوال وانقلهـــا من غير فهم ولا ربط ولا تلوين ٠٠

وتحاملت على نفسى ، وأديت العمل كمـــا اقترحته ٠٠ راجعت

الصحف العربية والافرنجية ولخصت الموقف ، وابرزت منه مختلف التيارات ، واعطيته ماكتبته ، وانا اضع يدى على قلبى ٠٠ انها تجربتى الكبرى ٠٠ انها رد اعتبار ، احسست بينى وبين نفسى اننى فى حاجة اليه بالنسبة لرئيس التحرير الجديد ٠ ٠لقد اغرقنى تقلا باشا بالثناء والتشجيع ، فما بال انطون باشا ينظر الى هذه النظرة ، لعله لايعرفنى ولكننى منذ شهور قليلة قابلته ، وعرف اننى فزت بالجائزة الأولى ، وكانت عن موضوع دقيق ، يحتاج الى فهم ودراسة وحسن عرض ، وقد نشر الموضوع فى الاهرام ٠٠٠ اتراه لم يقرأه ؟ اتراه قرأه ونسيه ، أم تراه يظن اننى شخص آخر غير هذا الفائز الذى زاره منذ شهور ؟

ولم أعتد أن أعطى نفسى أكثر من قيمتها ، بل لعلنى على النقيض من ذلك أعطيها أقل من قيمتها ٠

وقلما رضيت عن عمل أديته أو موضوع كتبته ٠٠ أشعر دائما ان هناك ما هو افضل منه واشعر ان الناس سيرونه تافها ٠٠ ومن هنا كان قلقى الدائم واحساسى انه فى استطاعتى أن أنتج أفضل ٠٠ وبينما أنا فى مكتبى مستغرق فى العمل ، دخل انطون باشا وفى يده الموضوع الذى كتبته ولخصت فيه اقوال الصحف واتجاهاتها وقال وهو يبتسم ، وكأنه يعتذر : الموضوع ده مكتوب جيد جدا يا أستاذ زكى

واشرق وجهى برضاء عذب ، وبرقت عيناى فى سرور غامر ، واحسست ان الرجل قدم لى ترضية كافية عن الاستقبال السىء الذى لقيته منه ، شعرت كأنه نادم بينه وبين نفسه على ما فرط منه٠٠وانطون باشا رجل قليل الثناء على احد مقتصد الى حد كبير فى ابداء رأيه الصريح فى أحد ، سواء أكان الرأى حسنا أم سيئا ، وكونه اثنى هذا الثناء على الموضوع الذى كتبته ، بالقياس الى تحفظه ، يعد شيئا عظيما جدا ٠

وقد عرفت فيما بعد ان استقباله لى على هذه الصورة لم يكن متعلقا بشخصى بقدر ما كان متعلقا بسياسته فقد كان يعتقد ان فى « الاهرام » من المحررين والمخبرين والموظفين ما يزيد على حاجته ، وكان يضايقه ان تقلا باشا يعين من وقت الى آخر محررين جددا ومخبرين جددا ٠٠ ومن هنا فهمت مغزى قول تقلا باشا ، اننى انتهز فرصة غياب رئيس التحرير فاضيف الى الجريدة عناصر جديدة ٠٠ وامكننى فيما بعد ان أعرف الكثير عن شخصية انطون الجميل ٠٠ انه رجل لا شك فى أمانته واستقامة خلقه ، واعتزازه بكرامة العمل الذى يزاوله والجريدة التى يرأس

تحريرها ، ولكنه من جانب آخر كان غامضا غموضا شـديدا ، كثير التحفظ في ابداء رأيه ، لا تستطيع ان تعرف ماذا يقصد الا اذا كنت قد درسته وفهمته ووعيت خوالج نفسه ٠٠ وانه لشيء دقيق جدا ، صعب جدا ان تعرف هذه الخوالج او توفق في هذه الدراسة ٠

أقرب الناس اليه ، ادناهم الى مدحه والثناء عليه ، وان بدا كأنه يكره المديح والثناء ، اذ يضع رأسه في الورق ويدور به يمينا ويسارا ، وكأنه يكره سماع المديح والثناء ، بينما تبرق عينـاه غبطة ، وتنفتح أسارير وجهه هناء وشكرا ٠٠ ولم أكن امدح او اثنى ، بل لم أكن أغشى مجالسه الا قليلا جدا ، وفيما عدا حاجة العمل لم اكن أمر عليه الا من فترة الى فترة قد تبلغ شهرا و أكثر ٠

وكان يسره ان يمتلىء مجلسه او سـهرته بالباشوات والبكوات وأصحاب الفكر والرأى والسلطان ، يجلس بينهم كأنه الملجأ والملاذ ، أو كأنه النجم المنير الذى لايرام ٠٠ كل ذلك فى تحفظ عجيب وكلام يصدر عنه فلا تعرف مغزاه ، هل هو رأى او لا رأى ٠٠ هل هو تحية خالصة ، أم فيها غمز رقيق ٠٠ والغمز نفسه تحار فيه هـل هو مدح أو ذم ٠٠ وبين وقت وآخر يخرج ببيت من الشعر أو رواية عن تركيا وسلاطينها واستبدادهم او عن شوقى الشـاعر أو ابى العلاء أو البحترى ٠٠ كان يسمع أكثر مما يتكلم ٠٠ وكان رواد سـهرته يتناقشون ويباحثون ، وكانوا خليطا من مختلف الآراء ، بينهم الوفدى والدستورى والمستقل ومن لا رأى له ، ومن له رأى ، من هو من الموالين للقصر ومن لا ولاء له للقصر ، منهم الموظفون الكبـار ، والوزراء الكبار ، والصـحفيون الكبار والصغار والمتوسطون ٠٠ منهم من يريد ان يرتفع قدره بالاشتراك فى أمثال هذه الندوات ، ومنهم من يظن انه يرفع من قدر الندوة بالاشتراك فيها ٠٠ يتحدثون ويختلفون ويذهبون الى أقصى اليمين واقصى اليسار ، فيسمع لهم انطون الجميل باشا ، ويبدو كأنه يشـترك معهم ، وهو فى الواقع لا يشترك الا بالسـماع والترحيب ، ووضـع رأسه فى الورق وابتسامة غامضة تملأ وجهـه أو تومض من وقت الى آخر ، يسره ان يدق التليفون ، فاذا المتحدث رئيس الديوان الملكى أو رئيس الوزارة أو وزير خطير من الوزراء الخطيرين ، فيبدو أمام الجالسـين ، وكأن اسرار السياسة كلها معه ، وهو الامين عليها ٠٠ وكان الجميع يثقون فيه ، وكأنه المسير للاقدار المسيطر عليهـا ٠٠ الجميع على اختلاف مذاهبهم والوانهم السياسية ٠٠ كان يسره هـذا جدا ، ويشـعره بشيء كثير من الغبطة

والفرح ، لا يريد ان يغضب احدا ، وفى الوقت نفسه يريد ان يحتفظ بصداقة الاضداد جميعا ، وكان عذره واضحا دائما ٠٠ الأهرام جريدة مستقلة .. اذا نشرت مايغضب الوفديين قال لهم هذا الكلام ، واذا نشرت مايغضب الدستوريين فالجواب حاضر ايضا ..

قال لى أحد المشتغلين بالسياسة : ان هذا الوطن يدار من ثلاث جهات : القصر ودار المندوب السامى وغرفة انطون الجميل ٠

اتراه كان صادقا أم غير صادق ؟ لايعنينى هنا ان أقرر صدقه من عدم صدقه ، ولكن الذى يعنينى وانا أحلل شخصية انطون الجميل ، ان هذا هو ما كان يسعده ، كان يرضيه ويسره ويجعله يشعر بالزهو ان « الاهرام » او انه هو بالذات مصدر من مصادر التوجيه والتأثير فى هذا الوطن ٠٠ وما دمت قد ذكرت الاهرام وذكرت اسمه مقرونا به ، فلا بد ان أشير الى ان الرجل كان شديد العناية بسمعة « الاهرام » دائب الحرص على ألا تقع الجريدة فيما يؤخذ عليها من الناحية الاخلاقية أو الاجتماعية ٠٠ كان حريصا تماما على ان تظل سمعة الجريدة نظيفة تماما ٠٠ كان دقيقا فى الا ينشر مايؤذى سمعة الافراد أو يدخل فى نطاق الفضائح الشخصية ، وكان يكره أن تتجاوز الصور نطاق التقاليد المسلم بها ، أو تتجاوز القضايا والحوادث الجنائية هذا النطاق نفسه ٠

وكان شديد الزهو « بالاهرام » واضح الاعتقاد بانه فيما عداها لا توجد صحافة فى مصر ٠٠ كان ينظر الى الصحف الأخرى باستهانة واضحة وكان لذلك لا يشعر ان أمامه منافسين يخشاهم .. وربما كان على حق فى هذا الظن ، فقد كانت الصحف التى تصدر حينئذ صحفا مغرقة فى الحزبية ، شديدة العناية بهذا الجانب دون غيره ، مما افسح المجال أمام الاهرام ، وكفل لها المكانة الاولى فى الاحترام والرواج ..
وكان على النقيض من تقلا باشا فى هذا الظن ، كان تقلا باشا يقظا جدا لكل جريدة تصدر ، ولم يكن يظن ان جريدته فوق المنافسة ، او ان مركزها لا يمكن ان يتأثر أو يتزعزع ، ولذلك كان حريصا على أن يجتذب اليها كل عامل فى الصحافة ممن تبدو عليهم مخايل الاشراق والنجاح ، حتى ولو لم تكن جريدته فى حاجة اليه ٠٠ كان يكفى ان الجرائد الأخرى ستحرم منه ٠٠ بينما كان انطون الجميل يعتقد ان جريدة « الاهرام » لو ظهرت بيضاء من غير حرف مكتوب لاشتراها الناس ، وآثروها على غيرها ٠٠ ومن هنا كانت معارضته لسياسة تقلا

باشا فى تطعيم جريدته بالعناصر الجديدة او العناصر الناجحة .. كان انطون باشا يعتقد ان « الاهرام » ليست فى حاجة الى أحد .. ليست فى حاجة الى كتاب أو محررين أو مخبرين .. عندها ما يكفيها وزيادة .

وكان المقال الافتتاحى او عنصر المقال بصفة عامة واضح التقديم فى « الاهرام » عندما كان يتولى داوود بركات رياسة التحرير فلما تولاها انطون الجميل أخذ هذا المقال ينكمش ويضعف ويصبح لا لون له ولا رأى فيه ، لأن انطون باشا لم يكن كاتب مقال من الطراز الاول .. كان أديبا تغلب عليه النزعة الادبية .. ولم يكن تأخير المقال الافتتاحى ولا ضعفه وانكماشه ناتجا عن تطور فى الصحافة كما حدث فيما بعد بقدر ماكان ناتجا عن اتجاه رئيس التحرير ، فقد كان المقـال الافتتاحى حتى ذلك الحين فى الصحافة المصرية من أهم موادها .. كان يحتل صدر الصفحة الرابعة ، أعنى وسط الجريدة ، وكان يكتبه رؤساء التحرير ، واغلبهم فى ذلك الوقت كتاب من الطراز الاول : عبد القادر حمزة واحمد حافظ عوض والدكتور محمد حسين هيكل وطه حسين ومحمود عزمى وتوفيق دياب وعباس العقاد ، وكان فى الصحف يمثل اتجاهاتهـا السياسية والحزبية ، وكان فى الاهرام حينما كان يكتبه داود بركات يمثل الاتجاه المستقل للجريدة دون ان يخلو من رأى ، وفرق بين الجريدة المحـايدة والجريدة المستقلة..الاولى لاتبدى رأيا لان الأمور لاتهمها ، والثانية تبدى رأيا خاصا بها دون الانتماء لحزب من الاحزاب او جماعة من الجماعات السياسية .. كان « الاهرام » وداود بركات يتولى تحريره جـريدة مستقلة الرأى ، فلما تولاها انطون الجميل اصبحت اقرب الى الجريدة المحايدة منها الى الجريدة المستقلة ، ولم يكن هذا أيضا نتيجة لرغبـة صاحبها فى تغيير طابعهـا ، بقد ما كان تأثرا بظروف رئيس التحـرير ومنهجه فى الحياة .

ولما بدأت العمل فى «الاهرام» وكان يتولى رياسة التحرير تقلا باشا بدأت أكتب مقالات واقدمها اليه فينشرها فى مكان المقـال الافتتاحى ، وتابعت الخطة نفسها حينما عاد انطون باشا من اجازته فكان ينشرها أيضا فى مكان المقال الافتتاحى ، ولاح لى أنه يرحب بهذه المشاركة التى لم تكن مقصودة حينما اتفقت مع تقلا باشا على العمل فى « الاهرام » .. وكان هذا يبهجنى لانه يتيح لى التعبير عن رأيى فيمـا يعرض لبلادى من شئون ، وان لم أكن أوقع المقالات ، غير ان المقال الافتتاحى لم يكن يسمح بطبيعته بالتعبير عن كل آرائى ، فقـد كنت الاحظ فى كتـابته منهج

« الاهرام » ونزعتها الاستقلالية أو الحيادية ، ولذلك بدأت أكتب « نحو النور »وظهر أول مقال بهذا العنوا نوبتوقيعى فى شهر فبراير سنة١٩٣٨، وتابعت كتابته من وقت الى اخر كلما جد فى شئون الوطن ما احس ان لى رأيا خاصا فيه ٠ ومنذ بدأت افعل هذا ، زاد اقبالى على الصحافة وتبددت من خاطرى كل فكرة لتركها ، واحسست ان مستقبلى فيها ، فى هذا المجال الذى استطيع ان اتنفس فيه ، ابدى رأيى واشارك فى شئون وطنى السياسية والاقتصادية والاجتماعية وأعبر عن الآراء التى تبلورت وظلت حبيسة فى خاطرى منذ امد بعيد ، وكما قلت قبلا كانت طبيعة « الأهرام » أقرب أن تكون مجالا مناسبا لشخصى مثلى ، ليست له نزعات حزبية ، وان كانت له اتجاهات سياسية واقتصادية واجتماعية تركزت بالدراسة والفهم والانفعال مع المجتمع ، وكان طابعها منذ ظهرت تحرريا جدا بالنسبة لهذا العهد ، تناولت فيها شئون الاحزاب ومكافات النواب وجناية السياسة الحزبية على مستوى الوظائف العامة والخصومة الحزبية وموقف مصر من الأجانب والمرأة والاشتغال بأعمال الرجل والفلاحين والأفندية والمدنية وطغيانها على القرية وتشجيع الصناعة المحلية بفرض رسوم جمركية عالية والمرأة ومساواتها بالرجل ولغة الحوار الحزبى ، وصغار الموظفين والفوارق بين الطبقات والمرتبات وحقوق المرأة السياسية وناديت بالغاء الرتب والألقاب وتحديد الملكية وايجاد التوازن بين الطبقات ، واحتفظت دائما بكلمتى فى الا أحيد عن الدفاع عن حرية الرأى السياسى والاقتصادى والاجتماعى ٠٠ ولا أستطيع أن أعدد الشئون التى عرضت لها فى « نحو النور » ويكفى القول بأنها تناولت كل ما كان يعرض من الشئون الجارية ، وكانت تصدر الآراء فيها عن اطار من الحكم والنظام والتوجيه رسمته فى خاطرى لبلادى وتمنيت أن يكون ٠

وذات يوم دخلت على انطون الجميل فى مكتبه فوجدت عنده حسين بك فهمى ، وكان حينئذ مدير جمرك الاسكندرية ٠٠ واعرب حسين بك حينما عرفنى عن اعجابه الشديد بالآراء التى ابديها وحيانى تحية جميلة اسعدتنى فقال انطون باشا : دا صار اشتراكى متطرف ٠

وهذا يدل على مدى الاحساس بما كان فى هذه الآراء ـ التى تبدو الآن عادية جدا ـ من تحرر كبير ٠

وكان انطون باشا يكره الامضاءات ، ويكره كل من يوقع على مقال له ـ وقد احسست بهذا الاتجاه منه منذ الايام الأولى التى بدأت انشر فيها « نحو النور » بتوقيعى ، كنت اذا قدمت له مقالا افتتاحيا سرعان

ما ينشر ، فاذا قدمت له « نحو النور » لم يكن فى نظره قابلا لمثل العجلة فى النشر التى يقبلها المقال الافتتاحى دون توقيع٠٠كان لا يحب ان يلمع اسم ايا كان فى « الاهرام » ولذلك ذاد عنهـــا اى كاتب صاحب رأى وقلم ٠٠ كان يفضل عليهم الصحفيين الذين تفنى شخصياتهم فى الجريدة فلا يكونون سوى ادوات فى « الماكينة » الضخمة ٠

كانت فضائل انطون باشا دينية فى الجزء الغالب منها ٠٠ ولست أعرف اذا كان هذا التعبير يؤدى ما أقصده تماما أم لا ، ولكننى أعنى به ان الصدق والامانة والاستقامة عند الرجل كانت ترتد الى جذور دينيه خالصة ، والفضائل التى ترجع الى الدين وحده تحير أحيـــانا ، وكانت فضائل الرجل تحيرنى ،كما كانت تثير اعجابى .. واضاف الوضع الذى وجد فيه فى العهـــد الذى عاش فيه اعتبارات عديدة الى هذه الفضـــائل فتداخلت جذورها الدينية الاصيلة فى الاعتبارات التى لابد من الحرص عليها ، فزادت هذه الفضائل اثارة للحيرة كما زادت تعقيدا٠٠وجاء مركزه كرئيس لتحرير جريدة الاهرام المستقلة فى وطن تتنازعه تيارات حزبية وسياسية واجتماعية متعددة ، فأضـــاف هو الآخر اعتبـــارات أخرى ، زادت من تداخل الفضائل فى نفســه غموضا ، وما أحســــب انه كان واضحا امام احد ولا حتى امام نفسه .. ولا شك انه كان ذكيا مدركا لكل ما يدور حوله مما كفل له مركزا سواء وهو موظف فى الحكومة رئيسا للجنة المالية ، او وهو رئيس لتحرير « الاهرام » ٠٠ ولم يكن لاحد ما يأخذه عليه وان كان كل احد يقف أمامه ، كما يقف أمام لغز غامض ، لا يعرف كيف يحله ٠٠ قد يظن انه يستطيع ان يحله فى بساطة اذا أراد ويستطيع ان يحار فى حله اذا أراد ٠

كان الوضوح فى تقلا باشا اعظم مايميزه ، وكان الغموض فى انطون باشا أعظم ما يميزه ٠٠ وقد كان الرجلان صديقين حميمين ، كان تقلا باشا يحترم انطون باشا واكاد أقول ويخافه وكان يؤمن ايمانا عميقا ان الرجل امين مستقيم لاغبار على خلقه وسلوكه ٠٠ كان انطون باشا متأنيا متمهلا يراعى كل الاعتبارات ويفهم كل التيارات ويحسب لها حسابها ٠٠ وكان تقلا باشا جسورا متعجلا شديد الحركة سريع الحركة ، مندفعا ، اذا صح هذا التعبير ، مغامرا ، والصحافة الصحيحة اندفاع وجســـارة ومغامرة ، كان انطون باشا اذا جاءه خبر قاس ابعاده ومســـافاته وســـأل نفسه عن أثره وصداه فى القصر اولا وفى الاحزاب والمجتمع ونظر القراء وسمعة الجريدة ثم قرر ما اذا كان ينشره أم لا ٠٠ اما تقلا باشا فكان يرى فى الخبر مادة صحفية ثم لا شىء آخر ٠

صادق انطون باشا الوزراء وزعماء الاحزاب ورجال الحكم والمعارضة واتصل بهم جميعا ، يرضيهم ولا يغضبهم ولم يكن لتقلا باشا اصدقاء من هذا الطراز ، كانت غرفة انطون باشا غاصة بهـذا النوع من الزوار ، وكان مكتب تقلا باشا هادئا خاليا منهم الا قلة بسيطة معدودة ، كان تقلا باشا أوربيا فى تفكيره واتجاهه وتصرفاته ، وكان انطون باشا أوربيا فى تفكيره واتجاهه ولكنه كان أوربيا دينيا كما كان شرقيا فى تصرفاته وعلاقاته ومجاملاته ٠

وكان الملك فاروق قد تولى سلطته الدستورية فى يوليو سنة ١٩٣٧ وأعاد النحاس باشا تاليف وزارته فأخرج منها النقراشى باشا مما كان له دوى كبير فى الرأى العام لما عرف به النقراشى باشا من نزاهة يد وعفة لسان وسابق عهد فى الجهاد من أجل الاستقلال ٠٠ ولم يمض سوى شهرين حتى اصدر الوفد قرارا باعتبار النقراشى باشا منفصلا عن الوفد ٠ وبعد قليل أصدر الوفد قرارا بضم أعضاء جدد اليه منهم محمد صبرى أبو علم باشا وعبد الفتاح الطويل باشا والاستاذ يوسف الجندى ومحمد سليمان الوكيل باشا ومحمد المغازى باشا وبشرى حنا باشا وحفنى الطرزى باشا وكمال علما باشا ومصطفى عمرو باشا وفهمى ويصا بك وسيد بهنسى بك وأحمد نجيب الهلالى باشا ومحمد محمود خليل بك ٠

وكان هذا التعديل فى كيان الوفد عميقا وأساسيا ، كما كان دليلا على أن محاولة الوفد الاستمرار فى تكوينه القديم وسياسته القديمة أمر غير ممكن ولا مقبول ٠٠ كان لا بد من انشـقاق وانبثاق خطير فيه ، تنشأ عنه تيارات جديدة ذات اتجاهات جديدة فى الاصلاح الداخلى بعد أن تم ابرام معاهدة سنة ١٩٣٦ ، ويلاحظ أن أكثر الذين ضمهم الوفد اليه من كبار الاعيان وكبار الملاك فى الأقاليم ، دون أن يكون هناك منطق لهذا الضم مفهوم فهل أراد الوفد أن يكون ممثلا لكبار الملاك وأن يتنحى عن طبيعة تكوينه الأولى وهى انه ممثل للطوائف المتوسطة فى الشعب ؟ أم أراد أن يضم طبقة من الأغنياء يمدونه بما يحتاج اليه من مال ٠٠ أم أن الضم جاء لأسباب شخصية لا دخل لهـا بالمبدأ والعقيـدة واتجاه السياسة ؟

مهما يكن من أمر فان هذا التغيير فى كيان الوفد كان بداية لما أصابه بعد ذلك من تحول ، وما أصاب تكوينه ذاته من تغيرات خرجت به عن وضعه الأول وجعلته آخر الامر حزبا ليست له سياسة واضحة مستقيمة الاتجاه ليست هى اشتراكية ولا رأسمالية ، ليست ديمقراطية

ولا غير ديمقراطية ، ليست تمثيلا لمصالح الملاك الزراعيين أو الفلاحين العاملين فى الزراعة ٠٠ وليست تمثيلا لطبقة العمال فى الصناعة أو غيرهم ٠

وأخذ الاصطدام يقع بين الوفد والقصر ، كان ظن الوفد أن المعاهدة وقد ابرمت ، والملك فاروق صبى لاخوف منه ولا سلطان ولا حيلة له ، أن المسرح انفسح أمامه من غير معقب ولا معارض ، الشعب معه والظروف كلها مواتية ٠٠ تم الغاء الامتيازات الاجنبية ودخلت مصر عصبة الامم وانحسرت يد الانجليز بعض الشىء عن التدخل فى شئون الحكم ٠٠ بل لعل الوفد ظن انه لم يبق لهم وجه للتدخل ، المعاهدة تنفذ بدقة والعلاقات حسنة بينهم وبين السفير البريطانى سير مايلز لامبسون ٠٠ ولكن هذا الظن كان خاطئا ، فلم ينسحب القصر من المسرح ٠٠ عين الملك فاروق على ماهر باشا رئيسا للديوان ، من غير علم الوزارة الوفدية ومن غير اقرارها ، وكان خضوعها هذا بداية التفريط فى الدستور وحق الشعب٠٠ كان يجب ان تقف الموقف الحازم الوحيد الذى يصون للوطن حقوقه ، ويذود عنه سلطان القصر ولكنها لم تقف هذا الموقف الحازم ٠٠ آثرت الملاينة ، أو آثرت ان تدخل المعركة بينها وبين القصر ولكل منهما أسلحته ٠٠ انشأت فرق القمصان الزرق ، ردا على فرق القمصان الخضر التى انشأتها مصر الفتاة ورئيسها الاستاذ احمد حسين ٠

وبدا ان الجو مكفهر ، وان المعركة قادمة فى عنف عنيف بين الوفد والقصر وتجمعت القوى ضد الوفد وتركزت فى القصر والهيئات الموالية له ، واخذت هذه الهيئات تجمع الانصار من هنا وهناك مستغلة اخطاء الوزارة والساخطين عليها ، وكان لابد من سبب للمعركة او ميدان لها٠٠ واختاره على ماهر باشا وركز على حقوق القصر وحقوق الوزارة ، وقع الخلاف حول تعيين عضو لمجلس الشيوخ ، رشحت الوزارة فخرى عبد النور بك ورشح القصر عبد العزيز فهمى باشا ٠٠ ووقع الخلاف على حل فرق القمصان الملونة « الزرق والخضر » ووقع الخلاف حول حق القصر فى تعيين كبار الموظفين واحالتهم الى المعاش ومنح الرتب والنياشين وانفراد الملك بتعيين كبار الموظفين فى القصر ولم تنجح محاولات الساعين لحل أسباب الخلاف ، فأصدر الملك فاروق أمرا باقالة وزارة النحاس باشا لمخالفتها روح الدستور ولأن وسيلتها فى حكم البلاد لم تعد ترضى الشعب ٠٠ السبب القديم والقصة القديمة نفسها تعاد ٠٠ ومن عجب ان الملك أقال النحاس باشا بحجة المحافظة على الدستور ، وان وزارة

محمد محمود باشا التى خلفته مناقضة لكل مبدأ دستورى قالت انها تحكم البلاد للمحافظة على الدستور ؟ ما كان اتعس هذا الدستور .

وذات يوم فى أوائل سنة ١٩٣٨ زرت الدكتور حافظ عفيفى باشا فى مكتبه وكان حينئذ مديرا لشركة مصر للتأمين .. والتقيت هناك لأول مرة بالاستاذ احمد عنان ، وكان سكرتيرا لحافظ باشا واتصلت بينى وبينه منذ ذلك الوقت صداقة طويلة عزيزة جميلة ، ولم اخف عن حافظ باشا دهشتى لقبول محمد محمود باشا الحكم بعد اقالة وزرارة ، مهما يكن تصرفها ومهما تكن اخطاؤها ، فقد كانت ذات أغلبية واضحة فى مجلس النواب..ووافقنى الرجل على رأيى ، وقال : انهم دعونى للاشتراك معهم ، وذهبت فوجدت ١٥ باشا جالسين ، ولم افهم منهم برنامجا ولا هدفا ولا غاية .

ثم قال : الا توافقنى على ان الأمن العام فى بلادنا مختل .. اريد منك ان تساعدنى فى اصدار كتاب عن هذا الموضوع ، ان الأمن العام أساس الرخاء والتقدم .. لقد كنت سفيرا فى لندن ، والسفير لا عمل له ، وانتهزت الفرصة والفت كتاب « الانجليز فى بلادهم » وانا الآن أشعر ان موضوع الأمن العام يستحق دراسة وكتابا .. واعتقد ان الظروف مواتية لا صداره .. هل لى ان أعتمد على مساعدتك ؟

ورحبت بهذه المعاونة ، بل اغتبطت بها أشد الاغتباط .. لقد احترمت حافظ عفيفى باشا دائما وكنت ارى فيه رجلا جادا فى حياته ، مرتب التفكير رائع المنطق ، لا يندمج فى الغمار ، ولا يأخذ رأيه من السطح .

أزعجتني صورة «كاريكاتيرية»

« وكثيرا ما ذكرت هذا فيما تلا من سنوات واستسخفت نفسي ورأيت أن تصرفي كان تصرف عقل صغير غير منفسح الآفاق »

وقع خلاف بيني وبين الاستاذ عوض جبريل ، واشتد الخلاف من ناحيته ، فلم اكن اشعر ازاءه بغيظ او موجدة او حقد ، وسمعت ماسمعت من جبريل وسكت ... لماذا وقع الخلاف .. اننا نؤدى عملا واحدا هو الاسبق والاقدم وانا الطارىء الجديد .. ولا بد ان يكون بين القديم والجديد ما هو كائن أبدا بينهما .. لعله حسب انني يمكن أن ازحزحه من مكانه ، وما كان هذا ليخطر لي على بال أبدا ، فاني لأعرف ان الدنيا تسع الكثير ، تسع الجميع .. ولكن هل يقع الخلاف بين قديم وجديد فحسب ، أم أنه يقع دائما بين المشتركين في أى عمل ولو كانوا اندادا في السن والثقافة والاتجاه .

كان صالح البهنساوى يحاول ان ينافس انطون الجميل فى ندوته ، فيلتقط من الزوار قدر ما يستطيع ، يغريهم اغراء .. وكان الداخل الى غرفة انطون الجميل لابد له ان يمر على غرفة صالح البهنساوى المفتوحة الباب ، فيلمحه صالح ، ويخف كالارنب يعترض طريقه اذا استطاع ويجذبه الى ندوته المتواضعة .. بعضهم يلين ، وبعضهم الاخر لايرى ان ينضم الى ندوة صالح البهنساوى ويرى انه اعلى مقاما ، مناسبا تماما لندوة انطون الجميل .. وكنا نقضى بعض الوقت فى غرفة صالح البهنساوى ، وكثيرا ما كان يحلو لنا البقاء فيها ، حيث يشع فيها جو جميل من البهجة والاخاء .. قال احد الحاضرين ، وقد جاء ذكر عبد الحميد الديب ، انه اراد ان ينتحر ، فصب على نفسه قدرا من

« الجاز » وخرج الى الشارع يقول للمارة : من فضلك عود كبريت ٠٠ ولع فى ٠٠ وجاء ذكر القرآن وآية فيه ٠٠ وقال المتحدث ان الاية من القرآن ، ولم تكن منه ٠٠ فقال ببديهة رائعة : لازم موجودة فى النسخة اللى عندك ؟

وكانت مجلة آخر ساعة من قبيل التجديد أو من قبيل اثارة انتباه القراء قد استفتتهم فيمن يحبون ان يقرأوا لهم ، وقال لى المسؤول عن تحرير المجلة ان الاستفتاء جاء فى مصلحتك فهل عندك مانع من الكتابة لآخر ساعة ٠٠ وابديت له اننى غير مصدق لهذه النتيجة ، ولم يكن هذا عن تواضع ، ولا عن رغبة فى الاستزادة من المدح والثناء ولكنه كان عن اقتناع اكيد انه لايمكن ان يؤدى الاستفتاء الى هذه النتيجة ، ولكنه اكد لى الامر ، واغتبطت اغتباطا شديدا ٠٠ كانت من اللحظات السعيدة التى مرت بى ٠٠ وذهبت الى مجلة آخر ساعة ، وكانت فى عمارة بحرى ، والتقيت بالاستاذ التابعى هناك ، كما التقيت بآخرين من العاملين فيها ٠٠ وازعجنى انهم رسموا لى صورة كاريكاتورية ، تأملتها فانكرتها ، واقسمت انها ليست لى بينما اكدوا جميعا انها انا ٠٠ وقال مأمون الشناوى ، انظر ٠٠ ان هذه لفتتك ٠٠ وتضايقت ٠٠ قلت : لالزوم لها ٠٠ ولست ادرى لماذا فعلت هذا ٠٠ بل لست ادرى لماذا شعرت بهذا الضيق ؟ ٠٠ وعذرت الساسة والوزراء والكبراء الذين يهزأ بهم الكاريكاتير كل يوم وكل ساعة ٠٠ اننى بطبعى على شىء من الانطواء ، ولئن كنت احب ان يحسن رأى الناس فى ، فلست احب اذا سرت فى شارع او اتيت عملا صغيرا تافها مما يأتيه اى انسان ، ان يعرفنى الناس ، ـ ويقولوا هذا هو الذى نقرأ له ٠٠ او لقد كنا نظنه اعقل واذكى واكثر اتزانا ؟ ماله سائر هكذا كالابله ٠٠ لابد ان احدا آخر يكتب له ، وما عليه الا التوقيع ٠٠ يالخيبة املنا ، كنا نظنه اجمل واضخم واكثر جاذبية ٠٠ وما البال اذا كان الكاريكاتير يقلب ما هو حسن اذا وجد ، فيجعله مجالا للسخرية سيضحك الناس منى من غير أن يرونى ، وكما قلت قبلا ، اننى حريص على أن أظل فى أذهان الناس انسانا فيه من الصفات ما يشاءون ان يضفوه على ٠٠ ما اقسى الصحافة، وما اقسى الكاريكاتير ٠٠ انه يعرى الناس ويكشفهم ، ويحللهم بخطوط من القلم وكأنها مشرط الجراح ٠

هل انا سيىء الصورة الى هذا الحد ، خير لى الا امشى بين الناس والا اسعى فى الاسواق ٠٠ وقال لى أحد الرسامين بالكاريكاتير : ولكن شكلك غير عادى ٠٠ وأزعجنى هذا الكلام ٠٠ اذن ما هو شكلى ؟ هل أنا

الذى صنعته ؟ . هل انا مسؤول عنه .. وما لى انا ولهذه الصناعة التى ستجعل صورتى نفسها التى لايمكن ان اسأل عنها موضـوعا للتندر والفكاهة .. لو كنت سلكت طريق النيابة والقضاء اكان احد يعنيه ان يعرف صورتى او شكلى ، او كنت اتعرض لريشة رسام يجردنى من كل شيء كما تفعل الصحافة .. لعنة الله عليهـا .. كانت هـذه أفكـار الشباب ، وترهاته وانفعالاته واضاليله ، وكم له من أضاليل .. اترانى كنت اظن ان صورتى الحقيقية اجمل مما رآها الكاريكاتير .. وهل نحن نعرف صورنا خيرا مما يعرفها الآخرون الذين ينظرون الينا ؟ .. كنت موقنا بينى وبين نفسى ان صورتى اجمل الف مرة من الصـورة التى رسمتها خطوط الكاريكاتير .. ولكن كيف اذن نطقت هذه الخطوط بما نطقت ؟ لابد انها صادقة ، ولو بعض الشيء ، ومن يدرى لعلها صادقة فى كل شيء .

قال لى الرسـام الذى أشرت اليـه : كل واحد ينزعج اذا رأى صورته فى الكاريكاتير لاول مرة . .ولكن هذا لم يكن كافيا لارضائى .. اصررت على الا تنشر الصورة ، ولم تنشر .. كان تفكير صبيان صغار من غير شك ، وهل نستطيع ان نذود عن انفسنا ـ مهما نكبر ـ تفكير الأطفال .. هل كنت انظر الى المسألة من الجانب الآخر .. لعل هناك من القراء من يرسم لى صورة معينة .. لماذا افجعهم وافجع نفسى فى هذا الخيال العذب الجميل .. ولكن الحقيقة افضل من الخيال .. الا لعنة الله على الحقيقة .. انها ليست جميلة فى كل الاحوال .

وكثيرا ما ذكرت هذا فيما تلا من سنوات واستسـخفت نفسى ، ورأيت انه تصرف عقل صغير غير منفسح الآفاق ..

وذات ليلة اسر فى اذنى الاستاذ عوض جبريل ان انطون باشـا سيدعونا الليلة الى عشاء فى مطعم الحاتى بشارع فؤاد .. وفرغنا من عملنا ، ولاحظت ان هناك حركات خفية وهمسا هنا وهناك .. ولم ادر سببا لهذا كله ، ثم عرفت ان انطون باشا لايوجه الدعوة الى الجميع ، وانه يخص بها فريقا ، وعرفت اننى من هذا الفريق المحظوظ ، ولكننى تساءلت بينى وبين نفسى : ولماذا لاتكون للجميع .. ولم اثبت على هذا التساؤل كثيرا .. نحن نحب دائما ان نحابى انفسنا ، وقد ارضانى اننى من بين القلائل الذين اختصهم رئيس التحرير بالدعوة ، لابد ان هذا دليل على الرضاء .. ولو كانت الدعوة عامة ، لما كان لها فى نفسى مثل هذا الاثر .. ورأيت كيف أن الانسان وان يكن أمينا حريصـا على ان

يساوى بين الكل ، الا انه يسره ان يشعر بالامتيـــاز ، حتى ولو حملته الظروف على التجاوز عن مبدأ المساواة .

ان الفضائل والمبادىء والمثل والاخلاق اشياء ننادى بها جميعـا ، ولكن حينما يتعلق الامر بأنفسنا ، يرضينا ان تكون نحن فى دائرة هذه المثل ، حتى ولو ادى التجاوز عنها الى تفريق فى المعاملة .

ومرة أخرى دعانا انطون باشا الجميل الى حفلة غداء فى مطعم الحاتى بالسكة الجديدة .. كانت توديعا للاستاذ الصاوى المسافر الى اوربا ، كان عددنا قليلا ايضا ، انطون باشا والاســـتاذ عوض جبريل والاستاذ كامل الشناوى والاستاذ محمد خالد والاستاذ كنعان والمحتفل به الاستاذ الصاوى وأنا . وبعد الغداء كان لابد من كلمة تقال .. انها تقاليد مسلم بها ، ونهضت لالقى هذه الكلمة ، قلت : اننى احيى الاستاذ الصاوى لان عموده القصير « ما قل ودل » كان فى الصحافة المصرية شيئا جديدا فيه اسلوبه الجميل وتعبيره النافذ الى القلـــوب .. وقلت ان الأستاذ الصاوى ليس صحفيا ولا كاتبا فحسب ، ولكنه يتناول الكثـير من عيوب المجتمع فيعالجها فى لباقة وذكاء وتحمس .

وقد فوجئت بالكلام ، ولم اكن مستعدا له ، وبعد ان فرغت من كلمتى ابدى الحاضرون دهشتهم لانهم لم يكونوا يعرفون اننى خطيب اجيد الكلام ، وربما كان هذا مجاملة ، فما عرفت اننى خطيـب ، وقال الاستاذ خالد : مش محامى ..

كان اجتماعا لطيفا رقيقا وكان انطون باشا يضفى عليه من رقته ومجاملته الكثير ، ولم ابالغ فى كل ماقلته عن الاستاذ الصاوى .. كنت قبل ان اتصل بالاهرام اقرأ عموده اليومى ، واجد فيه لمعة تجذبنى ، ولم اكن قد عرفته من قبل .. كل ما حدث انه اهدانى كتابه عن باريس، وكتبت عنه فى « الفصول » واكثر من ذلك كنا نكتب من وقت الى آخر مقالا نتناول فيه شخصية من الشخصيات فى المرآة ، واذكر ان الاستاذ حافظ محمود كتب عن الأستاذ الصاوى مقالا ونشرته الفصول .. فلما التقيت به فى الاهرام ، رأيت فيه انسانا رقيقا ، فى وجهه شعور من المرح المغلف بشعور آخر من الاسى والحزن .. كنت مشــوقا ان اراه واعرفه بعد ان رأيته وعرفته من كتاباته .. قال له عبد المجيد ابراهيم صالح باشا وكنا فى غرفة انطون الجميل ذات مساء .. وكان الحديث عن الزواج والتبكير فيه والتاخير : انت عندك كام سنة .. ما عندكش

٣٥ ·· رد الصاوى فى تمتمة وقد اكتسى وجهه غلافا من السكون المشوب بالحيرة والقلق : واكثر ··

قال عبد المجيد باشا : لو كنت اتجوزت من بدرى ·· مش كان ابنك دلوقت على وش الجامعة ؟ ·

تمتم الصاوى ولم يرد ، ولكننى لمحت ان هذا الكلام اثار فى نفسه اشياء كثيرة ··

كان الصاوى فيما يلوح لى فى هذا الوقت يشعر انه لايجدالتقدير الذى يستحقه ·· قال لى ، وكان الحديث عن الشيخ احمد العسكرى : اهم دول اللى نافعين وما شيين ·· قلت له : ليس الى الحد الذى تظن ··

ولم يوافقنى على رأيى ، ولكن الايام مرت ، ومرت بالصاوى مراحل عديدة ، ولكنه لقى اخيرا التقدير الذى يستحقه ·· كان انسانا يعيش باعصابه وآماله وآلامه ، تأثر أكثر ما تأثر بحياته فى باريس ، ونقل تفكيره من هناك الى هنا ·· كانت تبدو فى كتاباته حماسة شديدة ، كما لو كان يرجو ان تقفز بلاده مرة واحدة فتصبح مثل فرنسا ··· وكان انطون باشا يضيق به كما كان يضيق ، كما قلت ، بكل انسان صاحب قلم وفكر ، وكان فيما يبدو لى يكره « ما قل ودل » ويغيظه ان يظهر مقال كل يوم وعليه توقيع احد من رعيته ؟ · وانتهز فرصة الحرب العالمية الثانية التى بدأت فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ وما استلزمته من خفض عدد الصفحات ، فأخذ ينشر (ماقل ودل) يوما ويحجبها أياما ·· وهكذا تركها للظروف بعد ان كانت بابا ثابتا من ابواب الجريدة ، له قراؤه الكثيرون ··

ولست أعرف ما اذا كنت مخطئا فى هذا الظن أم لا ·· فلم أحدث الاستاذ الصاوى فى هذا ، كما لم احدث احدا فى الانطباعات التى قرت فى ذهنى ، واحسستها بشعورى الاعمق ، اكثر مما انتهت الى برواية او سماع او معرفة اكيدة · ·وانا فى هذه المذكرات ، اكتب انطباعاتى ، وارى نفسى خلال الحوادث التى مرت بى ، وارى الحوادث خلال نفسى ، كلتاهما طرف فيها ، مؤثر ومتأثر ، سالب وموجب ·

اما الشيخ العسكرى ، الشيخ احمد العسكرى فقد كان لونا من ألوان الصحفيين لا مثيل له ، فلادعه الى فصل تال ·

بلاش تفشيج الأذهان

« وأدرت الامر على وجوهه وبدا لى كل وجه كئيبا أشد كآبة من الوجـــه الآخر » ٠

قال لى الاستاذ احمد نجيب ٠٠ وكان من كبار موظفى وزارة المالية ومن اصدقاء الصحف المقربين اليها ومن خلصاء الاحرار الدستوريين ايضا ٠٠ قال لى فى شبه عتب : مالك تقسو فى تعليقاتك على الاحرار الدستوريين وهم اصدقاؤك ٠٠ وكان جالسا فى غرفة انطون الجميل ٠٠ قلت له : اننى انقدهم ٠٠ وهل الصداقة تحول دون النقد ؟٠٠

وبعد ان انصرفت ظل هذا الكلام مقيما فى خاطرى بعض الوقت ٠ وخيل لى فى بعض اللحظات ان الصداقة يمكن ان تكون حائلا بينى وبين حرية الرأى ٠٠ ولكننى سرعان ما تصالحت بينى وبين نفسى ، الصداقة اعتبـار شخصى محض ، والنقـد العـام اعتبار اوسع ، ثم انا لا انقـد اشخاصهم ، ولكننى انقد سياستهم فى موضوعية تامة ٠٠ كانوا حينئذ هم اصحاب الحكم رئيس الوزارة هو محمد محمود باشا ، واعضاء وزارته خليط من الاحرار الدستوريين والوفديين السابقين وغيرهم ممن ليس لهم لون حزبى ٠٠ كان فى الوزارة عبدالعزيز فهمى ولطفى السيد والدكتور هيكل وكامل البندارى ، وهم من الاحـــرار الدســتوريين ، وكان فيها ايضـا عبد الفتاح يحيى باشا وكان وكيلا لحزب الشعب ، واحمد خشبة باشا وكان وفديا وحافظ رمضان ، وكان رئيسا للحزب الوطنى ٠٠ وكان فيها ايضا بهى الدين بركات ومراد وهبه وحسين سرى ٠٠ كانت وزارة عجيبة التكوين ٠٠ وكانت مهمتها أيضا عجيبة ٠ اجلت مجلس النواب ثم حلته واجرت انتخابات جديدة فى اوائل سنة ١٩٣٨ ـ تدخلت فيها الادارة بصورة لم تتدخل بها من قبل فى اية انتخابات ٠٠ مع استثناء انتخابات صدقى باشا فى سنة ١٩٣٠ وانتهت الى النتيجة التى لا بد منها وهى

نجاح اكثرية ساحقة من الاحرار الدسوريين والسعديين وعدد كبير من المستقلين وعدد قليل جدا من الوفديين لا يتجاوز ١٢ نائبا ٠

لم يكن مستطاعا ، وقد نشأت بخاطرى وتفكيرى واتجاهى من اشد المؤمنين بالدستور وحرية الرأى ، ان اسيغ هذا كله ٠٠ صحيح اننى اشتغلت فترة من الوقت فى جريدة الاحرار الدستوريين وبهرنى - كما قلت - ما كان فيهم من ذكاء وتحرر ورأى مستقل وايمان بالحرية ، ولكنهم الآن يخرجون على تقاليدهم لا للمرة الاولى ، بل للمرة الثانية أو الثالثة ٠٠ وحينما كنت فى بكور عمرى اعمل فى جريدتهم لم تكن تجربتى قد نضجت ، ولا استقلال رأيى قد وضح كما اصبح واضحا الآن ٠٠ ولم إكن اتناول الموضوعات السياسية او اعرض لها ٠ اما الآن فاشعر ان تجربتى كملت بعض الشىء ، ورأيى استقل بعض الشىء ، فضلا عما اتيح لى من الاشتغال فى جريدة «الاهرام» حيث المجال منفسح لابداء الرأى الموضوعى دون تقيد بحزب معين او اتجاه معين ٠٠

هل كنت متجنيا ؟ هل كنت مهدرا حقوق الصداقة والعمل الذى ربط بينى وبين الاحرار الدستوريين بعض الوقت ؟ كلا ، ما أحسست بهذا مطلقا ٠٠ كنت ضنينا برأيى ان يكون عبدا لاحد ، ولا عبدا لاى اعتبار من الاعتبارات ٠٠ نقدت الاحرار الدستوريين كحزب سياسى ولكننى ظللت ابدا شديد الاعجاب بهم كأفراد ، اشعر وانا معهم او مع بعضهم بفخر واعتزاز ، ولمحة من الاشراق لم احس بمثلها فى اى حزب من الاحزاب ٠

ولست احاول ان ادافع عن نفسى ، فالذى يبدى الرأى مخلصا ، ليس فى حاجة الى الدفاع ، ولكننى اردت ان اتصالح مع نفسى وان اتصالح مع تفكير الناس ، حتى ولو كان محدودا ، حتى ولو كان ينظر الى الصداقة كأنها عبودية ايضا بالرأى والفكر والاتجاه ٠

التقيت بالاستاذ كامل البندارى فى « الاهرام » وقد اصبح وزيرا ، فهنأته ونظرت اليه ، وكأننى انظر الى قطعة من حياتى ٠٠ ان خطابا منه هو الذى حولنى من المحاماة الى الصحافة ، وجعلنى ما أنا اليوم ٠٠ قال وهو يبتسم : ليتك تستطيع ان ترد من عمرى عشر سنوات ..

كانت الوزارة بالنسبة له شيئا اقل من عشر سنوات ترتد من عمره ٠٠ ومع ذلك فقد كان فى فتوة الرجولة وشبابها ٠٠ وتأملت كلامه ٠٠ او هكذا يحرص الانسان على الا يكبر ٠٠ ولم اكن مستطيعا حينئذ ان

افهم ماذا يعنى تقدم الرجل فى العمر ·· اتراه كان يرجو ان يصبح وزيرا فى سن اقل من سنه ·· اتراه كان يشعر ان الاقدار تأخرت به بعض الشىء ؟· ربما ، فقد كان كامل البندارى بارع الذكاء ، قوى الشخصية ، موفقا فى عمله كمحام ، لامعا فى حزبه كعضو خطير من اعضائه ··

ودخل معه الدكتور هيكل الوزارة لاول مرة ·· انتقل من مقاعد الصحفيين الى مقاعد الوزارة ، وكان حادثا فريدا فى تاريخ الصحافة ، فلم يسبق من قبل ان اختير احد من رجال القلم والفكر والصحافة لمركز الوزارة ·· صحيح ان لطفى السيد باشا سبق الى هذا ، ولكن لطفى السيد باشا تقلد قبل ان يعين فى الوزارة وظائف حكومية متعددة ، فبعدت صلته بالصحافة ·· اما الدكتور هيكل فقد ترك جريدة السياسة مباشرة الى مقعد الوزارة ·

وكان حزب الاحرار الدستوريين وقد آل اليه الحكم وانتعش حاله ، قد اعاد تنظيم جريدة السياسة ، واتخذ لها مقرا جديدا فى بيت آل فيظى المواجه لوزارة الداخلية ، وأخذت داره تضج مرة اخرى بالزوار والمرتزقة والهتافه واصحاب المصالح وأصحاب المبادىء .. وقال لى دسوقى اباظة باشا : هل تريد أن تعود الى السياسة · نستطيع أن نعطيك مرتبا كبيرا .. سنعطيك الكثير .. واعتذرت فى لطف وقلت له : دعنى فى « الاهرام » .. اننى مرتاح جدا ..

ولست اعرف كيف تناثر هذا الخبر ، مع انه لم يتجاوز هذا الحديث القصير الخاطف بينى وبين دسوقى اباظة باشا ، ذات ليلة نادانى تقلا باشا ، ووضع يده فى حنو على كتفى وقال : انت لسه شاب صغير وقدامك كثير وانت جيت عندنا بمرتب كبير ·· واحد يقول لك تعال هنا ·· تعال هنا ·· الوعود كتير ·· وانت عاقل :

قلت له : يا باشا ··· لا تتصور ان اترك « الاهرام » لاى اغراء من الاغراءات ·· انت لا تعرفنى جيدا ··

قال فى ابتسامة حلوة : هذا يكفينى ·· بونسوار ·

كانت مصر حينئذ تضطرم بتيارات متعددة متداخلة ·· الوفد ، هذا البناء الضخم القديم بدا لى انه ينشق انشقاقا خطيرا ، خرج منه الدكتور احمد ماهر والنقراشى باشا والفا مع اصدقائهما وانصارهما ما سمياه الهيئة السعدية ، واخذت الهيئة الجديدة تتنازع مع الوفد تراث سعد العظيم ، ادعى كل منهما انه الامين على تراثه ، ولم تستطع الهيئة

السعدية ان تجتذب من الوفد الا عددا محدودا ، بينما بقيت الكتلة الكبرى مع الوفد ٠٠ ولكن الامر فيما بدا لى لم يكن مجرد عدد . ولكنه كان ان الهيئة السعدية أخذت تتحدى الوفد فى علانية وهو ما لم يكن مستطاعا من قبل ، كان كل من ينشق عن الوفد او يخرج عليه سرعان ما ينزوى ٠

ماذا كان طابع الهيئة السعدية ؟ يصعب ان تحدد لها طابعا ظاهرا ٠٠ كان خروج ماهر والنقراشى من الوفد ـ من حيث الظاهر ـ بسبب الاستثناءات وفساد الحكم ، ولكن هذا او ذاك لا يمكن ان يكون طابعا لحزب سياسى ٠٠ ان هذه مبادىء اخلاقية وليست مبادىء سياسية ٠٠ المعاهدة ، معاهدة سنة ١٩٣٦ متفق عليها ، بل ان السعديين والوفديين وقعوها ، كما وقعها الاحرار الدستوريون والاتحاديون والشعبيون ... كانت هذه هى نقطة الضعف الكامنة فى تأليف الهيئة السعدية ٠٠ وقد جرت لى مناقشة كادت تنقلب الى مشادة فى غرفة الشيخ احمد العسكرى فى « الاهرام » ، وقد لقيت عنده ابراهيم عبد الهادى باشا احد اركان السعديين ٠٠ قلت له : اننى لا افهم ان يتخذ النقراشى باشا له مكتبا فى شارع شريف باشا يقابل فيه انصاره ويكتفى بهذا ، لا بد من برنامج محدد ، برنامج سياسى عن مشكلات البلاد الداخلية ، عن رأيه فى الاصلاح الاجتماعى والاقتصادى وسياسة الضرائب ومركز المرأة فى المجتمع والتعليم الجامعى وسائر المشكلات التى تشغل الاذهان وتواجه الوطن فى هذه المرحلة الدقيقة ٠٠ هناك الفلاحون ٠٠ هناك الملكية الزراعية ، هناك عمال الصناعة ٠٠ هناك التصنيع ٠٠ اما القول بأن السعديين ينشئون هيئتهم لمجرد المناداة بالحكم الصالح ، فكلام عائم لا قيمة له ولا مدلول ٠٠

وغضب ابراهيم عبدالهادى باشا ، وكادت المناقشة الهادئة تبلغ مبلغ المشادة لولا اننى انصرفت ٠ وكان هذا هو رأيى ، كنت انظر الى الهيئة السعدية بحسبانها مولودا ليس له سمات ظاهرة ، ولم يكن فى الواقع مولودا ، كان ضلعا انفصل من جسم الوفد ، لا تراث له الا تراث الوفد ، ولا سياسة الا سياسة الوفد ٠٠ لماذا اذن تألفت الهيئة ؟ الم يكن اجدى لو بقى اعضاؤها فى الوفد ، وحاولوا ان يصلحوا الفساد فيه اذا كانوا يرون ان هناك فسادا ٠٠

ثم ان تأليف الهيئة عقب اقالة وزارة الوفد فى أواخر سنة ١٩٣٧، أضفى عليها ظلا لم يكن محببا للشعب ، وسواء أكان الظن صحيحا أو غير صحيح ، فقد بدا ان الامر لا يعدو ان يكون اتفاقا لاضعاف الوفد ٠٠ ومن

هو الكاسب من اضعاف الوفد ؟ . انه القصر ولا أحد غيره .. وزاد هذا الظن ، وكاد يبلغ مبلغ اليقين ، حينما دخل السعدون الانتخابات التى اجراها محمد محمود باشا وتدخلت فيها الادارة تدخلا واضحا لانجاح السعديين والدستوريين ٠

ومع ذلك فانني لا اريد ان آخذ السبب الظاهر الذى خرج من اجله السعديون على الوفد كأنه السبب الوحيد ، فالواقع ان الاسباب الظاهرة وان بدت شخصية ، الا انه تكمن وراءها دائما أسباب تحتية تمتد الى الاختلاف فى الشؤون السياسية والاقتصادية والاجتماعية ٠٠ وقد كان للهيئة السعدية طابع الاعتدال ، فهى اقرب ان تكون حزب الوسط ، اذا وضع الوفد كأنه حزب اليسار ، ووضع الاحرار الدستوريون كأنهم حزب اليمين ، كان السعديون يمثلون الوسط فى الفهم الدستورى والفهم الاقتصادى والفهم الاجتماعى .. و لاريب انه مما اخذ عليهم اشتراكهم فى الانتخابات التى أجراها محمود محمود باشا على خلاف روح الدستور ، ثم اشتراكهم بعد ذلك فى وزارة محمد محمود باشا ، التى مهما يكن وضعها وقيمتها من الناحية الشعبية ، فلا شك انها كانت تعتمد بصورة ظاهرة على لقصر .. صحيح كان هناك برلمان ودستور وأغلبية برلمانية ، الا ان الملك طلب فى أغسطس سنة ١٩٣٩ من محمد محمود باشا ان يستقيل ، فلبى الطلب مع انه كان يتمتع بأغلبية برلمانية وعهد الى على ماهر باشا رئيس الديوان حينئذ بأن يتولى رياسة الوزارة ، فقبل المنصب دون ان يكون له حزب فى البرلمان ، بل دون ان يكون هو ذاته عضوا فى البرلمان ، وقد الف وزارته من الدستوريين والسعديين ايضا ومن اصدقاء ماهر باشا الشخصيين ، وفى هذا اوضح دليل على ان الوزارات فى عهد هذا البرلمان كانت تستمد كيانها ووجودها وسلطانها ، ليس من البرلمان او من الشعب ، ولكن من القصر ٠

ولا ريب عندى أن هذه المعانى كلها كانت غضا من الدستور واضعافا له بل واضعافا لاحكامه ، وتقوية لسلطة القصر ، واهدارا لسلطة الأمة

وكنت قد ارسلت نسخة من البحث الذى وضعته عن « البطالة ووسائل علاجها » الى الاستاذ سابا حبشى باشا وزير التجارة والصناعة ، فتلقيت منه رسالة رقيقة كلها تقدير وثناء ورغب فى لقائى ٠ والتقيت به فى مكتبه بالوزارة ٠٠ قال : ارجو ان استعين بك ٠٠ فهل لديك مانع من العمل معنا ؟٠٠ مرة اخرى تحركت شهوة الوظائف فى نفسى بعد ان سكنت منذ التحقت بالعمل فى « الاهرام » ٠٠ ولم اعرف كيف اجبت

بالايجاب ومع الاغتباط أيضا ٠٠ اننى فى كثير من الأحيان احتار فى معرفة نفسى ، ولا اكاد اتبين اتجاهاتها بوضوح ٠٠ وكالمثل القائل كانت عين فى الجنة وعين فى النار ، أحب الصحافة ، ولكننى أرى ان النظرة اليها ليست بالاحترام الذى ارجو ان يكون ، ولا احب الوظائف ، ولكننى ارى انها ستوفر لى الاحترام الذى اريده ٠٠ ترى هل ينشأ الاحترام من العمل ام من الشخص نفسه ؟ كل انسان يقول انه ينشأ من الشخص نفسه ٠٠ وهذا صحيح ولكنك لا تستطيع مهما اوتيت ان تذود عن نفسك بعض النظرات المريبة التى كانت تصب على الصحفيين عامة حينئذ ، ولم تكن مريبة فقط ، بل كانت مشوبة ايضا بشيء من الظن انهم مرتزقة ، حياتهم – كعملهم – على كف عفريت ٠٠ وكان هذا الشعور يضايقنى اكثر من غيره ٠٠ اننى حصلت على شهادات دراسية وجامعية كثيرة ، فليس هناك ما يجبرنى على ان اقبل الصحافة دون غيرها ٠٠

استدعى سابا باشا عبد الرحمن فكرى بك وكيل الوزارة ، وعهد اليه ان يبحث الامر معى ، لكى يرتب امر الدرجة والاقدمية وما الى ذلك من شؤون الوظائف ٠٠ وفى مساء اليوم نفسه ، اتصل بى عبدالرحمن فكرى بك بالتليفون لكى يتفق على موعد اللقاء ٠٠ قال : نلتقى فى نادى مصر الجديدة الساعة الرابعة مساء غد .. قلت : ولكننى مشغول فى هذا الموعد .. اخشى الا اتمكن من الحضور .. قال فكرى بك : واحد صحفى يبقى عنده مشغوليات ايه ؟

كان هذا الحديث قاسيا على نفسى جدا ٠٠ كان صفعة مؤلمة ٠٠٠ لا بد انه ظن فى نفسه انه وكيل وزارة ، وكيف يخطر ببال انسان مثلى ان يعارضه فى الموعد الذى ضربه واختاره ٠٠ انه لشرف كبير ان يقابله ويلقاه ويجلس اليه الند للند ٠٠ قلت للوكيل الكبير مصرا ، وفى صوتى شبه تهدج :.لن استطيع الحضور فى هذا الموعد ، لنتفق على موعد آخر ٠٠ ووافق على ان يكون اللقاء فى الموعد نفسه فى اليوم التالى ٠

ووضعت سماعة التليفون وسرح خاطرى ٠٠ هذا هو مقام الكاتب والمفكر الذى يذوب اعصابا ومهجة ، ويفنى آخر ما فى نفسه لكى يعبر عن رأيه ويدافع عنه ويدعو اليه ٠٠ المحرر عنده مشغوليات ايه ؟ لا بد ان عبد الرحمن بك فكرى يظن المحرر هذا انسانا تافها ، لا شأن له الا ان يؤمر فيطيع ٠٠ ثم انا مرشح لاكون موظفا تحت رياسته طبعا ٠٠٠ ولا بد أن أتعود على الأمر والطاعة منــــذ الآن ٠٠ أتراني لو كنت وكيلا للنيابة أو قاضيا ، كان يقول ما قاله ؟ لقد كان عبد الرحمن فكرى بك

أستاذا لى فى كلية الحقوق ، تلقيت عليه الدروس الأولى فى الاقتصاد السياسى .. ما باله الان ينسى هذا كله ؟ هل لمجرد اننى اشتغلت بالصحافة ذهبت عنى كل صفة ، ولم يصبح شأنى الا اننى « محرر » أو « جرنالجى » كما كان يقول وهيب درس بك ؟ .

ولا اطيل : .. التقيت بعبد الرحمن فكرى بك ، وحظيت منه باهتمام كبير جعلنى اراجع نفسى فى كل الخواطر التى مرت بها على اثر حديثه معى بالتليفون وخيل لى اننى ظلمت الرجل ، وان كلامه لم يكن عن تصغير من شأنى بقدر ما كان دالة استاذ على تلميذ قديم ..

لقد اسرتنى من الرجل بساطته وسماحة نفسه وانفعالات وجهه الصادقة .. قال : حسب القوانين واللوائح حتتعين فى الدرجة الرابعة .. وانت ترضى ؟

ولم اكن ارضى بطبيعة الحال .. لقد لقينى بعض اصدقائى وانا اتهيأ لمقابلة سابا حبشى باشا فقال ، ولست ادرى لماذا قال هذا الكلام ، فان الامر كله لم افض به الى احد : لازم يعينك وكيل وزارة .. ضحكت وقلت له : هو انا بتاع وظائف !

وحتى الآن ، لست ادرى لماذا قبلت الحديث فى هذا الموضوع كله .. لعلى فعلت ذلك لكى اقنع نفسى بأن الوظائف قريبة منى ، وممكنة اذا أردت ، ثم لا شىء آخر .. لم اكن ارضى ان اترك الصحافة ابدا فى هذه المرحلة مهما يكن الاغراء ومهما يكن العرض .. لقد كنت لا ازال أزور لبيب عطية باشا فى بيته فى الزيتون .. قال لى ذات مرة : يظهر انك عدلت نهائيا عن فكرة التوظف فى النيابة .. انت تكتب فى السياسة الآن .. قلت له : دعنى اجرب حظى .. ان الفرصة التى اتيحت لى فى « الاهرام ؟ اتيحت من غير سعى ولا طلب ، لعلها ارادة القدر .

قال لبيب باشا ، لكننى زعلان منك .. سألت وانا مندهش : ولكن لماذا ؟ قال : لقد كتبت عن مرتبات رجال القضاء والنيابة .. هل تنسى انهم زملاؤك وطائفتك التى تنتمى اليها .. قلت : وماذا صنعت .. اننى احبهم واحترمهم وانت تعرف مدى تقديسى لمهمة القاضى ووكيل النيابة ..

وعرفت سبب غضبه : لقد كان البحث يجرى فى هذه الايام حول زيادة مرتبات القضاة واعضاء النيابة ، واشارت بعض الصحف الى مرتبات القضاة فى انجلترا ، فكتبت أبين الفرق بين النظام القضائى فى انجلترا والنظام القضائى فى بلادنا وان المقارنة بينهما خاطئة تبعا لذلك ..

وسبقت حجة اخرى ترجع الى انه من الخطأ أخذ جزء من النظام الانجليزى فى بلاد تختلف فى المستوى الاقتصادى والاجتماعى والتعليمى وفى الثروة ومستوى التعليم ومستوى القاضى واختصاصه هنا وهناك ٠

قال لبيب باشا : الا تعرف ان هذا الكلام يضرنى ؟٠

وابديت دهشتى متسائلا عن وجه الضرر وشرحه لى ، وخلاصته انه اذا عدلت مرتبات القضاة طبقا لرأيى ، لخفض مرتب رئيس محكمة النقض ، وكان لبيب باشا حينئذ وكيلا للمحكمة ، قال : ان المرتب الذى اتقاضاه الآن حق مكتسب لا يمكن خفضه ، ولكننى لو رقيت الى رئيس للمحكمة وخفض مرتب شاغلها ، فلن أحصل على زيادة فى المرتب ٠٠

وتلقيت رسالة من طلعت حرب باشا مدير بنك مصر حينئذ لمقابلته ٠٠ كنت قد ارسلت اليه نسخة من بحثى عن « البطالة ووسائل علاجها » ولا بد من ذكر شىء هنا ، لقد ارسلت هذا البحث الى مجموعة كبيرة من المشتغلين بالشئون الاقتصادية والمالية والشئون العامة فى هذا الوطن ، فلم اتلق ردا الا من سابا حبشى باشا ، وقد سبقت الاشارة اليه ، والا هذا الرد من طلعت حرب باشا ٠٠ وقابلته فى مكتبه فى بنك مصر واخذ يناقشنى فى الآراء التى ابديتها ٠

وادركت ان الرجل وجد من وقته المشحون فرصة قرأ فيها بحث شاب ، مهما يكن شأنه ، لابد أنه تلقى عشرات مثله وأفضل منـــــه ٠٠ قال طلعت باشا : انت تدعو الى ادخال نظام التأمين الاجتماعى للعمال ٠٠ ان هذه الآراء متقدمة جدا ، ومعرقلة لنمو الصناعات عندنا ، اننا نجد متاعب لا حد لها فى الحصول على عمال لمصانع المحلة الكبرى ٠٠ وهم جهلة وفلاحون ٠٠ ونحن نعلمهم وننفق كثيرا من الجهد والمال فى هذه السبيل ٠٠ ان ما تقوله تفتيح للأذهان ، لا داعى له ٠

قلت : ان التطور قادم حتما ، واذا كنت تظن ان الاذهان مغلقة ، فاستطيع ان اقول لك ان العيــون ليست مغلقة ٠٠ والعمــال يقــرأون ويسمعون ويرون ، والفلاحون يزورون القاهرة فى هذه الأيام أكثر مما كانوا يفعلون فى اى وقت مضى ، المواصلات اصبحت ميسرة ورخيصة ، ومن الخير أن نقابل التطورات القادمة باجراءات لا بد منها لتأمين حياة العمال ٠٠

وطالت المناقشة ، ولم تنته الى رأى يتفق عليه كلانا ، فقد دخل محمد زكى على باشا وكان حينئذ مستشارا فى محكمة النقض ، وكان لابد

ان استأذن منصرفا ٠٠ قال طلعت باشا ارجو ان اراك مرة اخرى ٠٠٠
قلت له : ان شاء الله ٠

ودعيت لالقاء محاضرة فى البرنامج الثقافى الذى تقـدمه الجامعـة الامريكيـة ، وسرنى ان اجـد بين المستمعين الدكتور حافظ عفيفى باشا وسابا حبشى باشا ، وكانت تحية جميلة من الرجلين وتشجيعا ظل مقيما فى خاطرى أبدا ٠٠ وقال انطون باشا معاتبا : لماذا لم تذكر لى شيئا عن هذه المحاضرة ، قلت له ، اننى اعرف مشاغلك الكثيرة ، ولا اريد ان اثقل عليك ٠٠ قال متلطفا : كلا ، كنت احب ان استمع اليها ٠٠

ومن طبعى الذى درجت عليه ، الا اوجه الدعوة الشخصية الى اى احد ، اذا دعيت لالقاء محاضرة او للاشتراك فى مناظرة او ندوة او شىء من هذا ، وقد تكرر كثيرا فى حياتى ، ونظريتى فى هذا بسيطة ٠٠ ان توجيه الدعوات الشخصية فيه احراج للمدعوين ، وقد لا يكونون احرارا فى اوقاتهم ، وقد لا يكون الموضوع مما يعنيهم ، وقد لا يكون رأيهم فى حسنا ، فيقعون فى حرج ، ويكون حضـورهم ، اذا حضروا ، لمجـرد المجاملة ، وانى لاكرهها ، وخاصـة فى مثل هذه المناسـبات ، واذا لم يحضروا فسرت ذلك بأنه استصغار لشأنى او عدم عناية ، وكلاهما اسوأ من الآخر ٠

ولأترك القاهرة بصخبها وضجيجها واحزابها ومهاتراتها وسهراتها اللامعة ، البريئة والحمراء ، ولأعد قليلا الى الريف الهادىء المكتئب الباسم ٠٠ لم انقطع عن زيارته ٠٠ كان ضوؤه الخافت فى الصـباح والمسـاء ، وظلامه القاتم الباسم والليل بهيم ، وحفيف اشجاره المتمايلة مع انبثاق الفجر ، وضوء الشفق ٠٠ كان كله ، بما فيه يهزنى ويشجينى ويملأنى ايمانا بربى وحياتى ومستقبلى ٠٠ كنت ادفن احزانى فيه ، ولم يكن معى غير احـزانى ، فى ارضـه المنفسحة والله الواضح الظاهر فيه ٠٠٠ يده الرحيمة فى صباحه ومسائه وفجره المنبثق وهنائه المكتئب ، ونبته الصغير تدفعه قوة خفية فاذا هو ثمر جميل متعدد الألوان ٠٠ وقال أبى : يا بنى هناك ستة أفدنة معروضة للبيع ، انهـــا بعض أرضـــنا التى نزعت ملكيتها ٠٠ لست أعرف ظروفك جيدا ، ولكن الثمن المطلوب فيها حوالى ٤٠٠ جنيه ٠٠ اتمنى لو استطعت أن تأخذها ٠

قلت وانا أريد ان اسر أبى وادفع عنه بعض ما عاناه فى الحيـاة : استطيع ٠٠

واشرق وجهه واستطاره فرح مشوب ... ان الارض فى الريف لها سحر عجيب ، وقد عاش ابى فى القرية كما عاش جده معززا مكرما ·· ولكن قلة الارض التى نملكها هزت ــ دون شك ــ هذا المقام الذى كانت تؤيده فيما مضى اطيان كثيرة ، ولذلك كان حريصا أن أستزيد مما أملك ، لا لحاجة العيش ، فقد كان امره ميسرا ، ولكن لحاجة فى قلبه ونفسه ، ان نسترد ولو بعض ما كان لنا ، ونسترد تبعا لذلك كياننا فى القرية الصغيرة التى نعيش فيها ··

ولم يكن معى المبلغ المطلوب ، ولكننى لم اشأ ان اسىء الى شعور ابى او ان اقلل ثقته فى ·· انه يظن ان ابنه معتمد لا يخون ، وانه قادر على مالا يستطيعه .. كان ما معى حينئذ ،أو بتعبير ادق ، ما استطيع الحصول عليه هو نحو ٣٠٠ جنيه ، فكان لا بد من مائة جنيه حتى اتم المبلغ المطلوب ·

وعدت الى القاهرة والامر يثقلنى ·· من اين احصل على هذه المائة الجنيه ؟ الاقتراض من أحد ·· كلا ، ما فعلت هذا فى حياتى الا مرة واحدة وانا طالب وندمت عليها ·· ثم اننى لا احب ان يشعر احد اننى فى حاجة ·· ارهن ارضا مما املك ·· هذا ممكن ، ولكنه يستلزم اجراءات طويلة ، والصفقة جاهزة وصاحب الارض مستعجل ، والراغبون فى الحصول عليها قد يسبقوننى وتضيع الصفقة ·· وادرت الامر على مختلف وجوهه ، وبدا لى كل وجه كئيبا ، اشد كآبة من الآخر .. ثم خطر لى ان افضى بالامر الى تقلا باشا ، وكانت صلتى به قد توثقت وشعرت انه رجل يفهمنى اكثر من غيره ·· ماذا لو اعطانى المبلغ قرضا اسدده على بضعة شهور ·· ثم ترددت ان افعل ، قد يعتذر ، فاشعر بالخجل والضيق ، وقد اصور اعتذاره بغير صورته ، قد أرى فيه انه غير راض عن عملى ، وقد لا يكون الشعور صحيحا ، ولكنه احتمال ممكن ، وهنا احس احساسا لا أحبه ، لأنه يعنى ، لو استفحل معى ، ان أترك عملى حتى ولو لم يطلب الى أحد ان افعل ·· ولكننى عدت اسائل نفسى : ان ابى واهلى فى القرية ينتظرون ·· كلا ، انهم لا ينتظرون ، انهم واثقون ·· واذا ترددت ان اطرق هذا الباب اكون مقصرا .. ان من واجبى ان ابهج ابى ، ثم انى لا اتسول ·· انا اقترض ، وأنا قادر على السداد ·· وتقلا باشا أنسب شخص اتمنى ان تحل المشكلة على يديه ، فلا صلة له بوسطى ولا بأسرتى ولا بأصدقائى .. سيظل الامر سرا بينى وبينه ..

وذات مساء ، وقد جلست معه فى غرفته الجانبية الصغيرة القائمة

على يسار الداخل الى جـريدة « الاهرام » نتناول مختلف الموضـوعات السياسية والصحفية والاجتماعية ، وانا ســاهم مضطرب قلق ، يبدو القلق والاضطراب فى حديثى على غير عادتى معه ·· قال : مالك يا زكى ·· بتحب ·

قلت : يا ريت ··

وحمدت الله ان واتتنى الفرصة لكى ابدأ الحـديث ، وافضيت اليه بالامر كله ، كان صوتى صادقا ، وتعبير وجهى فيه كل ما أحس به ، قال تقلا باشا : يمكن انت وواحد كمان فى الاهرام زى جبريل ، هم اللى احب اديهم سلفة زى دى ·· صحيح انت مرتبك كبير ، وتقدر تسدد ، ولكن ··· وتردد تقلا باشا قليلا ثم استطرد : يمكن تسيبنا ··

رددت عليه صادقا : انت لا تعرفنى ·· انك تستطيع ان تستعبدنى بهذا المعروف ·· ثم اننى لا اريد ان تكون هذه السلفة من « الاهرام » لتكن من اى بنك من البنوك وانا مستعد ان ادفع فائدتها ·· لا اريد ان يعرف احد فى « الاهرام » اننى محتاج الى الاقتراض ··

قال تقلا باشا فى وجه كله حنان وسلام نفس : اسمع يا زكى ·· أنا لما كنت فى سنك كنت باعمل حاجات زى دى ·· فلوس تســهر بيها ، تلعب ··

قلت له : انا لا اسهر ولا العب ولا اسكر ، لا لقلة المال ، ولكن لاننى لا احس بميل فى نفسى للاتجاه بحياتى هذا الاتجاه ·· اننى شاكر لك نصيحتك ولكن اطمئن ··

قال تقلا باشا : غدا فى الظهر ، ستكون هنا فى « الاهرام » ؟

قلت : سأكون ··

قال : سأتصل بك ··

ووفى تقلا باشا بوعده · حوالى الظهر اتصل بى ، وقال : سأرسل لك ورقة صغيرة ، اذهب الى البنك الايطالى المصرى وقدمها الى شخص معين ، ذكر لى اسمه وسينجز الك كل شىء .

وذهبت الى البنك فى صــباح اليوم التــالى ، وخصم البنك فوائد المبلغ ، واعطانى الصافى ، ووقعت كمبيالات على ستة اشهر بالمبلغ المطلوب بضمانة تقلا باشا ··

كنت اذا التقيت بتقلا باشا سواء على سلالم « الاهرام » او فى مكتبه أو فى اى مكان ، انظر اليه فى عرفان صادر من قلبى واشكره ، وتكرر هذا منى ، فقال وهو يضحك : وبعدين يازكى·· كل ما اقابلك تشكرنى ·· انا ما عملتش حاجة ··

ولم يكن انطون باشا بعيدا عن هذا الموضوع ·· فقد افضيت به اليه ، فقال فى عطف ظاهر أثر فى نفسى : عندنا مثل فى لبنان يقول ان الارض هى الثبات والامان ··

... وشمل الوطن ظل الحزب الكئيب

« ونزلت أهوى من غير حساب كما رفعت نفسي من غير حساب »

فى أوائل سنة ١٩٣٩ كتبت مقالا افتتاحيا فى « الاهرام » حول التعليم الجامعى ، وكان تعقيبا على تقرير للجنة المعارف بمجلس الشيوخ التى كان يرأسها على زكى العرابى باشا وكان اتجاه المقال ان التعليم الجامعى ، تعليم خاص لا ينبغى أن يلتحق به الا المؤهلون له علميا ، وانه من الخطأ التوسع فيه دون أن يكون لطلابه القدرة عليه ، ذلك ان الامر لا يعدو ، فى هذه الحالة ، أن يكون اهدارا لأموال دافعى الضرائب دون نتيجة توازى التضحية المبذولة ، وقلت اننا فى مصر نضع العربة قبل الحصان ، وفى الوقت الذى تبلغ فيه الامية بين أبناء الوطن نحو ٨٠٪ ننفق على التعليم الجامعى من أموال دافعى الضرائب الاميين ماكان ينبغى أن يذهب لتعليم هؤلاء الاميين .. وقلت أيضا انه ما من بلد فى العالم تبلغ نسبة عدد طلابه الجامعيين اذا قورنت بعدد المتعلمين مثل ما تبلغ عندنا ، وان القيمة فى التعليم الجامعى ينبغى أن تقاس بالكيف وليس بالكم .

وكان المقال من غير توقيع ، ولكننا فى مساء اليوم نفسه تلقينا مقالا من الدكتور طه حسين ردا على هذا المقال ، ظانا ان كاتبه هو على زكى العرابى باشا ، فقد كان الرد يجرى هذا المجرى . ونشرت « الاهرام » مقال الدكتور طه حسين وكان لا بد لى أن أتولى الرد عليه ، وأن أكشف عن الحقيقة ، قلت اننى كاتب المقال الافتتاحى واننى صاحب الآراء التى وردت فيه .

وتلقينا ردا ثانيا من الدكتور طه حسين ، رددت عليه ، وقال أنطون باشا ان الموضوع استوفى ، وانه لا بد أن ينزل عن مكان الصدارة الذى اتخذه فى اليومين الماضيين ، وكان أنطون باشا على حق فى هـذا ، فان الجدل اذا طال فقد الناس اهتمامهم به ، وقد قال الدكتور طه حسين عنى اننى أدعو الى ارستقراطية فى التعليم الجامعى فقلت له اننى لا أدعو الى ارستقراطية الثروة ، ولكننى أدعو الى استقراطية العلم فى الجامعة ، وانه يجب أن نمنح الطالب الفقير المتفوق مجانية كاملة فى التعليم الجامعى ، ويجب أن نذود عنه كل من ليس مؤهلا له من الناحية العلمية ، فالاساس الذى جعلته للتعليم الجامعى لا دخل له بالغنى أو الفقر ، ولكنه ادخل ما يكون فى الفهم والذكاء والاستعداد وليس فى هذا الأرستقراطية التى يقصدها الدكتور طه حسين ٠

ولا يعنينى هنا أن أذكر جوهر الجـــدل بينى وبينه ، ولكن الذى سرنى وملأنى زهوا ، اننى اشتبكت فى جدل مع طه حسين ، وهو حينئذ ما هو ، كاتب وأديب خطير الشأن ، ورجل أحدث فى هذا الوطن تيارات من الفـــكر متعددة ٠٠ ما أعظم ماتولانى من غبطة فى هــذا الوقت ٠٠ غبطة .. كلا ، ما هو أكثر منها غرورا .. كلا .. ما أحسست يوما بهذا الاحساس السيىء ٠٠ لا أســـتطيع أن أحـدد بالضبط ٠٠ يا للشباب وغروره ٠٠ كدت أقولها بعد أن نفيتها ٠٠ كان غرورا دون شــك وان انكرته ٠٠ نحن فى أحيان كثيرة نمارس النقائص دون أن نشعر ، فاذا صحونا الى أنفسنا أنكرناها ٠٠ نعم كان غرورا ٠٠ كنت أتصور ان كل انسان حين يرانى يشير الى ويقول هذا الانسان ٠٠ هذا الشاب وقف فى وجه طه حسين وجادله وسرد من الحجج أقواها ٠٠ ياله ، لا شك انه انسان عظيم ٠٠ وتصورت ان كل انسان قرأ الجدل بينى وبينه ٠٠ ان لم يكن من أجلى فمن أجل طه حسين ٠٠ وبينما أنا فى هذا الوهم الباطل، التقيت بالشيخ عبد الرحيم كبير المصححين فى دار الكتب ، وهو شخصية جميلة متواضعة أمينة ، ما ان تلقاه فى أى مكان فى الشارع أو غيره ، الا وسرعان ما يخرج علبة السجاير ويقدم لك سيجارة ومعها ابتسامة جميلة وتحية أجمل ٠٠ قال وكأنه يريد أن يسرنى : ان طه حسين قبل أن يرد عليك سألنى عنك ، فأحسنت الشهادة فيك ٠

وشكرت للشيخ عبد الرحيم حسن شهادته فى ، ولكننى ما ان توليت عنه حتى تولانى غـم عظيم ، اذن أنا لســـت معروفا ، ولم يكن طه حسين ليرد على الا بعد أن عرف من الشيخ عبد الرحيم شيئا عنى ٠٠

ليتنى ما قابلت هذا الرجل ٠٠ ليت سبيلى انحرفت عنه بعض الشيء ، اذن لظللت فى وهم العظمة الذى استولى على ، وفى وهم الغرور الذى ملأ قلبى وخاطرى وكيانى ٠٠ ونزلت أهوى من غير حساب ، كما رفعت نفسى من غير حساب ٠٠ وراجعت الامر فى شيء من التعقل : هـل لمجرد اننى رددت على طه حسين أصبحت ندا له ؟ هل لمجرد اننى أبديت رأيا صائبا أو غير صائب أصبحت انسانا ينظر اليه الكل بالاكبـار والاحترام ؟ ٠٠ ما أسخف نزوات الشباب وما أعظم ما تلعب بعقولنا مظاهر الاشياء ٠٠ وطامنت من مشيتى ، ورددت نفسى اذ ارتددت اليها ٠٠ ان الغرور قلما أقام معى الا ريثما افيق ، وما أسرع ما أفيق ، انه رذيلة من غير شك ، ولكنه بالنسبة لى ليس رذيلة دائمة ، انه طائف قليلا ما يزورنى ، واذا أقام فقليلا ما يقيم ٠

وأقبلت على بعض أصـــحابى فى مقهى كنت قـد اعتدت فى هذا الوقت أن أتردد عليه ٠٠ قال واحد منهـم : أهـلا ياللى نازل طحن فى طه حسين ٠٠ مثل هذا القول لو ألقى فى غير هـذا الوقت لاستنكرته ، ولكننى كنت فى هذا الوقت بالذات أشد ما أكون حاجة الى كلمة أو تعبير مهما يكن غير مناسب أو لائق يرد لى شيئا من الثقة الى نفسى ٠

وفى مساء اليوم نفسه جاءنى فضيلة الشيخ محمد عرفة من هيئة كبـار العلماء فى الازهر ، وأسر لى وهو يدفع لى بمقال عن طه حسين : بينى وبينك طه حسين هو اللى كسب المعركة ٠

استعذت بالله من الشيطان الرجيم ، وكدت أقطب فى وجه الشيخ الجليل الطيب ٠٠ وقلت اما كان يؤجل هذه الشهادة الى غد مثلا ، حتى أظل متمتعا بالكلمة الطيبة التى سمعتها منذ قليـل ٠٠ ما أكثر المعارك التى خاضها طه حسين فانتصر أو انهزم فيها ٠٠ ولكن ما اقل المعارك التى خضتها حينئذ ، بل انها المعركة الاولى ، ليس لى رصيد حتى يكون هناك ما يعد هزيمة وما يعد نصرا ٠٠ معركة واحدة ٠٠ ماذا لو كسبتها ؟ انها تفيدنى كثيرا ، تعطينى ثقة فى نفسى ٠٠ كلا ، خير ماقاله الشيخ ، فانها لم تكن تعطينى ثقة ، ربما كانت تعطينى غرورا ٠٠ وسرعان ما ادرت الامر فى نفسى ، وتبســمت فى وجه الشــيخ الطيب ، وعرفت آنه من خصوم طه حسين ، وانه انما قال هذا لكى يحملنى على أن أنشر مقاله ، وكان طعنا فى طه حسين ، كأنه يريد أن يساعدنى فى المعركة ؟٠٠ ولكن لماذا أراد أن يساعدنى ؟ لا بد انه شعر اننى كنت ضعيفا فيها ؟

وأنا أسجل خواطرى وانفعالاتى كما هى ٠٠ اننى ــ كأى انسان ــ

حريص على أن أكسب المعارك ، ولكن ما هو المقيـاس فى كسب المعارك القلمية والهزيمة فيهـا ٠٠ انه ليس شـيئا آخر سـوى آراء القراء واتجاهاتهم ٠٠ ان أنصار الرأى الذى تدافع عنه معك بالحق والباطل ، وخصوم الرأى الذى تؤيده ضـدك بالحق وبالباطل ٠٠ وتعلمت شـيئا آخر ٠٠ ان الجدل لا ينتهى بتسليم أحد برأى الآخر ، لانه ينتقل من الرأى ذاته الى التعصب لأشياء أخرى لا دخل لها بالرأى ٠٠ نحن نبدأ الجدل ونحن مؤمنون بالرأى مؤكدون اننا على استعداد للتحول عنه اذا اقتنعنا بنقيضه ، ولكن الذى يحدث ان الرأى الذى نتبناه يستعبدنا ، ولا يصبح رأيا يمكن أن نتنزل عنه ، لانه يتصل بكرامتنا وقدرتنا وقوتنا على المحاجة والجدل ٠

وكان هناك شيء آخر أسعدنى انه تحقق من غير سعى منى ولا قصد٠ كنت وأنا طالب أقرأ السياسة الاسبوعية ، ويستهوينى الجدل الذى كان يقوم أحيانا بين طه حسين وهيكل ٠٠ كنت أقرأ بشغف شديد وقلب فيه لمحة من التمنى الغامض ، أن أكون يوما من الايام طرفا فى مثل هذا الجدل العظيم ٠

أتراه تحقق ؟ ٠٠ ولكن الشيخ عبد الرحيم أفسد بعض الصورة ، والشيخ عرفة أفسد جانبا آخر منها ٠٠ لا بأس ٠٠ كان على الجملة شيئا أرضانى وأفرحنى ، وأنا فى بداية الطريق ٠

وذات يـوم وأنا أتمشى مع الدكتـور حافظ عفيفى باشا فى شارع قصر النيل قال : لقـد تابعت الجـدل بينك وبين طه حسين ، وأرى ان الخلاف بينكما ليس كبيرا ٠

وفرحت أكثر ان رجلا كحـافظ عفيفى يقرأ آرائى ويعتنى بها ٠٠ كنت لا أزال طرى العود مهزوز الثقة فى نفسى ٠

وتقدمت بنا سنة ١٩٣٩ وازداد الجو الدولى غيوما ، وأخذت نذر الحرب العـالمية تقترب منا ٠٠ استقال محمد محمـود باشا فى أوائل أغسطس من هذه السنة ، وبعد أيام قليلة فى الثامن عشر من الشهر نفسه عهد الملك الى على ما هر باشا بتأليف الوزارة الجديدة ، وألفها من أصدقائه الشخصيين ومن السعديين ، كان واضحا انهـا وزارة قصر فى الجانب الحقيقى منها ، ووزارة برلمان فى الجانب الظاهر منها ، وانعزل الاحرار الدستوريون لا عن قصد فى الانعزال أو خلاف على السياسة ، ولكن لخلاف على المقـاعد الوزارية التى تعطى لهم ٠٠ ولم يكن فى استطاعة أحـد أن

يعارض الوزارة حينئذ ٠٠ لا الاحرار الدستوريون ولا غيرهم ممن يتألف منهم البرلمان ، كانوا كلهم يقفون انتظارا ، أو ينافقون انتظارا ٠٠ انتظارا لوزارة تذهب ووزارة تجيء ، أو تعديل وزارى يطرأ على الوزارة القائمة ٠٠ كان الوفد وحده هو الذى يقف فى صف المعارضة ، حتى الحزب الوطنى ، اشترك رئيسه حافظ رمضان فى وزارة محمد محمود باشا ٠٠ ولئن كان اشتراكه جاء موضع نقد شديد من حزبه ، الا انه — أعنى الحزب — ظل مع هذا مهادنا أو شبه مهادن للنظام القائم ٠٠ نعم كانت تصدر عنه من وقت الى آخر ، من ممثليه فى البرلمان أو من صحافته خارجه ، بعض نقدات من وقت الى آخر ولكنها لم تكن نقدات تمس النظام من حيث تمثيله للشعب فى كيان وجوده ووسيلة ظهوره ، ولكنها أكثر ما كانت موجهة الى أشياء صغيرة أو كبيرة من ناحية علاقتنا بالانجليز ، وهذه لم تكن تعنى النظام فى شيء أو تهز كيانه فى شيء ، فقد أمضيت المعاهدة (معاهدة سنة ١٩٣٦) من الاحزاب كافة ، وبدا انه لا توجد لها معارضة قوية يخشى أثرها ٠

وكانت صحافة الوفد تحمل على النظام ، دائمة التذكير بأنه لا يمثل الشعب وان البرلمان القائم برلمان مصنوع ، ولكنها هى الاخرى لم تكن معارضة ذات قوة أصيلة تهز النظام ، وقوة الجند وسلطة الحكم كانت كفيلة بالقبض على زمام الامور بيد من حديد ٠

على انه كانت هناك ظاهرة لا بد من التنبيه اليها ، ففى كل مرة انحرف فيها النظام الى القصر أو اعتمد على نفوذه وتأييده ، اختفت مكاسب ثورة سنة ١٩١٩ أو بتعبير أدق اختفت سماتها الاساسية ٠ وقد كانت ثورة سنة ١٩١٩ فى جوهرها تأكيدا لسلطان الشعب ، والغاء صريحا أو مطويا لنظام فلاح وأمير ، أو فلاح وتركى أو فلاح وصاحب دم ممتاز ٠٠ خرجت فيها جماهير الشعب وعلى رأسهم الفلاحون يهتفون للدستور والاستقلال ، وكان الدستور يعنى لهم المساواة التى فقدتها الحياة المصرية ردحا طويلا من الزمن ، المساواة بين صاحب الجلباب الازرق فى الحقل وبين الافندى والامير فى المدينة ٠٠ كان محمد محمود باشا رئيسا للحكومة ، وهو فلاح أو من أعيان الفلاحين ولكنه وهو فى الحكم لم يكن يمثل طبقته بقدر ما كان يمثل ارادة القصر ٠٠ حدث فى عهده ، فى شهر مايو سنة ١٩٣٩ ان منع الامير عمرو ابراهيم رئيس نادى الفروسية أفراد أسرة فودة بالدقهلية من الالتحاق بعضوية النادى ، وقال انهم فلاحون ٠ ونشر الخبر فى آخر ساعة وقيل فى التعليق عليه اننا لا نقبل أن يعود

نظام الطبقات الى بلادنا ، ولو أعيد اليها هذا النظام لوجب وضع الفلاح فى الطبقة الاولى وأولاد الذوات الذين ينكرون مصريتهم فى أحط الطبقات. وقال محمد محمود باشا رئيس الوزارة حينئذ اننى أفخر باننى فلاح ابن فلاح ٠٠ واشتعلت البلاد كلها بالسخط على هذا الحادث ، ولم تكن موجة الكراهية لكل تفريق من هذا النوع فى حاجة الى مزيد ٠٠ أحس الناس جميعا ان كرامتهم أهينت ، وكانوا قد ظنوا ان حكاية الفلاحين وأولاد الفلاحين قد انتهت من مجتمعنا بقيام ثورة سنة ١٩١٩ ، ولكنهم تبينوا انها لم تنته الا لكى تظهر ، كلما ساعدت الظروف على ظهورها ٠

ونشر الامير عمرو ابراهيم بيانا دافع فيه عن وجهة نظره ، ورد على رئيس الوزارة ، ولكنه على الجملة لم ينكر التفريق بين الفلاحين وغير الفلاحين ، فردت عليه الاهرام بمقال قالت فيه « ان الفلاحين استيقظوا من النوم ليأخذوا مكانهم ويضعوا غيرهم فى الاماكن الجديرة بهم ، واننا نحن الفلاحين سنحارب نظام الطبقات لاننا بذلك نحارب نظام الشيوعية ، فما الشيوعية الا العاقبة الحتمية لكل نظام طبقى » ٠

وكان الرد نفسه بما احتواه من عبارات صريحة قاسية موجهة الى أمير من أمراء البيت المالك ظاهرة لم تكن مألوفة من قبل ، وأحس الرأى العام بارتياح كبير لهذا الرد ، فقد عبر عن حقيقة الشعور الذى كان يجتاح البلاد كلها حينئذ ٠٠ لم تكن الوزارة القائمة تحظى بتأييد شعبى يذكر ، فنقل الشعب سخطه على الوزارة الى سخط على الافراد الذين لا يزالون يتحدثون بلغة « ضربك شرف يا افندينا » ٠

ولم تكن حكومة على ماهر من هذه الناحية خيرا من وزارة محمد محمود ، بل لعلها كانت أقرب التصاقا بالقصر وأشد اعتمادا عليه ٠٠ ظهرت في عهدها صور من الفهم سقيمة عليلة ، وانسحب الشعب بسلطانه الى خلف الصورة ، أكثر مما كان فى عهد محمد محمود ٠٠ ولم يكد يمضى على حكومة ماهر باشا فى الحكم الا أيام قليلة حتى أعلنت الحرب العالمية الثانية فى ٣ سبتمبر ١٩٣٩ ، وأخذت تضغط بظلها الثقيل على البلاد ، أعلنت الاحكام العرفية ، وعين على ماهر باشا حاكما عسكريا وفرضت الرقابة على الصحف ٠٠ وأخذت أنوار السلام تنطفى ضوءا بعد ضوء حتى عم الظلام العالم كله ٠

وأنا بطبعى أكره الحرب ٠٠ اننى انسان يحب السلام والصفاء من رأسه الى قدمه ، روعنى هذا الخبر أكثر مما روعنى أى خبر آخر ، وتمثلت

أمامى أخطار الحرب أكثر ممايمكن أن تتمثل أمام أى انسان ، وأنا متشائم بطبعى ، أفرض فروضا لا وجود لها ، ولكن يمكن أن توجد ، ولست أعرف اذا كانت هذه صفة طيبة أم سيئة ٠٠ اننى أعيش حياتى العادية فى قلق لا ينتهى ولا يتوقف ٠

فترات الطمأنينة فيها ليست الا الفواصل بين فترات القلق ٠٠ وخيل لى اننى وقد بدأت أستقر فى حياتى بعض الشىء ، بدأت أنعم بهدوء الخاطر بعض الشىء ، أمارس عملى فى لذة واستمتاع ، وأبنى حياتى فى سلام واستقرار ، كأن الحرب قد جاءت لتفسد كل ما غزلت ٠٠ كأنها جاءت من أجلى أنا وحدى ٠٠ وأخذت أقرأ أنباءها ٠٠ الفرنسيون فى جانب والالمان فى جانب ، وخطأ ماجينو وسيجفريد بينهما .. مناوشات هادئة ، ولكنها أشبه بالهدوء الذى يسبق العاصفة ٠٠ حتى لقد ظننت يوما بعد يوم ، بل ساعة بعد ساعة اننى سأقرأ نبأ هول لا مثيل له ، كان هتلر يروع أوربا والعالم كله بجحافله التى لا حصر لها ، وأسلحته التى كدسها طوال سنوات ، ووراءه شعب معتز بنفسه ظامىء للانتقام من هزيمة ١٩١٨ ٠٠ ما ذنبنا نحن ، نحن الذين نعيش فى أقصى الارض ٠٠ الرجل دكتاتور مجنون طامع ٠٠ لماذا نروع نحن حيث نعيش ؟ ألمانيا وفرنسا بينهما ثأر قديم ، وبريطانيا دولة ذات امبراطورية تريد أن تحافظ عليها، وذات مطامع تريد تحقيقها وذات مبدأ فى التوازن بين القوى تريد أن يظل محفوظا ٠٠ مالنا وهذا الهم كله ؟ ولكننا حلفاء بريطانيا ٠٠ حلفاء بالنبوت ٠٠ أو هكذا يكون حظ الضعفاء من الافراد وسط الشعوب ، هو حظ الضعفاء من الشعوب وسط الدول ؟

ظللت أتحسس أيامى ولا أعيشها ٠ كنت أغدو فى الصباح الى عملى ، ولا أعرف بماذا يجىء المساء ٠ الى ان كان ذات يوم ٠ فى شهر يونيو سنة ١٩٤٠ وأنا فى ميدان العتبة ، واذا باعة الجرائد ينادون مسرعين منطلقين يقفزون ويوزعون الجرائد ذات اليمين وذات اليسار ، كأنهم يوزعونها مجانا ، والناس يخطفون الصحف ويقرأون ٠٠ وقرأت ان ايطاليا أعلنت الحرب فى صف ألمانيا ضد بريطانيا وفرنسا ، أعنى ضدنا ٠٠ ووجمت ٠٠ شعرت باحساس من الاكتئاب والخوف كاد يشل تفكيرى شلا ٠٠ وتوقفت حيث كنت أسير ، توقفت وقد تسمرت عينى عند الخبر الصغير ، لقد كنا حتى اليوم فى أمان نسبى من أخطار الحرب ٠٠ أما الآن فقد أصبحت الحرب قريبة منا ، على حدودنا ٠٠ ايطاليا جارة فى ليبيا وفى «الحبشة» ٠ تحيط بنا من الغرب والجنوب ٠٠ وأرضها ذاتها قريبة منا ٠٠ وألمانيا حليفة لها ٠٠ كانت فيما مضى لا تؤذينا لانها تعرف

اننا مغلوبون على أمرنا ، ولكن الحرب لا قلب لهـا ، وتطوراتها لا يعرفها أحد ولا يستطيع أن يحسب حسابها انسان ·· انها معركة ، وفى المعارك لا يكون تقدير للخير والشر ·· ماذا ينبغى وماذا لا ينبغى ، ولكن هناك تقديرا واحدا هو الرغبة فى النصر ·· النصر بأى ثمن ·

كانت صفارات الانذار تزعجنى ، وكانت الغارات تملأنى رعبا ·· اننى أرثى لمن يقتلون فى الحرب عبر خط سيجفريد أو فى روتردام فى هولندا ·· أكاد أتصور الروع الذى يصيب المساكين فى أقصى الارض ، هاهو يقترب منا ·· منى ·· هل هو جبن؟ ربما ··؟ هل هو حب للحياة؟ ربما ·· هل هو تقديس للحياة البشرية أن تهدر هذا الاهدار ··؟ ربما·· ولكننى طالما فكرت وأنا أرتعد خلال الغارات ، والقنابل تدوى فوق رأسى· لماذا أنا هنا ؟ لماذا أنا خائف ؟ خائف من أجل ماذا ؟ أنا لست محاربا ، وليست لى مصلحة فى الحرب ·

ليست لى مطامع أو مبادىء أو مثل أدافع عنها فلماذا أموت ؟ لماذا أخاف ؟ ما هى مصلحة وطنى فى هذه الحرب ؟ ماهى مصلحتى ؟ ما هى مصلحة أسرتى ؟ ما هى مصلحة أصدقائى ؟ ما هى مصلحة العالم ؟ ·· كانت كل هذه الافكار تتوارد وتتزاحم وأنا فى بيتى أو فى مخبأ قريب لجأت اليه فى الشارع ·· حتى اذا أطلقت صفارات الامان ، ارتددت الى الحياة ، وشعرت كأننى أبعث من جديد ·

كنت أنا وابنى وأخى نقيم وحدنا ·· فاذا غادرت البيت الى العمل ظللت مشغولا بأمر الصبى ، اذا فاجأته الغارة وأنا بعيد عنه ، فاذا أويت الى البيت وأوغل الليل بدون صفارات انذار ، لم يدخل الاطمئنان قلبى·· قد تفاجئنا فى آخر الليل ، فى الصباح الباكر ، فى الضـحى ، فى أى وقت ··.وقسمت المواعيد على السوابق ، لـكى أستخلص ولو ساعة أو بعض ساعة ، أقنع نفسى انها ساعة أمان ، فرأيت ان الغارات وقعت فى كل وقت من الليل أو النهار ·

وأودعت الصبى القرية عند أبى وأسرتى ·· تركته فى كفالتهم ، يذهب الى مدرسته فى الزقازيق ويعود منها فى أمان نسبى ·· وكنت اذا ذهبت الى القرية استطعت أن أنام هادئا بعض الشىء ·· كنت أنظر اليها كأنها حصن الأمان ·· فماذا يريد المحاربون الاشداء من قرية نائية فى أقصى الأرض ، من مبانيها الداكنة المتداعية الصغيرة ، التى تتهاوى لا من قنبلة ، ولكن من دخان القنبلة ·· ماذا يجديهم منها ؟ ما مطمعهم فيها ؟

.. كنت أنام ملء جفوني ، فاذا أصبح الصباح كان على أن أعود الى القاهرة .. ويقول أبى : حماك الله ... ابتعد عن الخطر .

ابتعد عن الخطر ..؟ أو تراني أعرف أين الخطر ..؟ انني لا أقترب منه ، ولا يقترب غيرى منه ، ولكنه هو الذى يطرق بابنا ونحن نيام ، وهو الذى يتسلل الينا كاللص الثقيل ونحن هانئون نضحك أو نعمل أو نسمر .

كنت أنام وحدى ، فاذا انطلقت صفارة الانذار تولانى انزعاج شديد .. أترانى اذا كنت وسط أسرة ، أكان وجود آخرين يشد من عزمى ، ويطامن خوفى ؟ ربما .. لأننى حينما تضطرنى الظروف الى الالتجاء الى مخبأ ، أجد نفسى أكثر شجاعة وأكثر استهانة بالخطر .. ان المجموع يعطيك قوة ليست لك .

وامتلأت القاهرة بالجنود البريطانيين ، والاستراليين ، والنيوزيلنديين ، وغيرهم .. وأصبح السير فى شوارعها أيضا مزعجا ، الاضواء مغطاة باللون الازرق الكئيب ، ستائر النوافذ تحجب الاضواء .. الناس يسيرون مفتحة عيونهم ، ولكنهم لا يكادون يرون .. المقاهى والبارات والمحال العامة التى كانت تتلألأ بالاضواء انعكست أضواؤها الى الداخل ، وأصبحت من الخارج أشد كآبة من الشارع ، انطوت المدينة الساهرة الجميلة الفاتنة على نفسها ، اجترت أحزانها فى داخل قلبها ، وطوت صدرها على مآذنها وقبابها وكنائسها وآثارها ومفاخرها ، تريد أن تذود عنها الشر النازل من السماء ، والشر المشتعل فى القلوب المسعورة ، تريد أن تدمر الحضارة وتراث الحضارة .. كانت الاهرامات واقفة عند حافة الصحراء وأبو الهول رابض عند قدميها يحكى قصة آلاف من السنين .. هاهى .. هاهو هاهو تراث الاقدمين كله : المساجد المتسامية بمآذنها الرشيقة وقبابها الرائعة.. الكنائس بأجراسها وأبراجها وصورها وتماثيلها .. كل أولئك واقف تحت رحمة المجانين من بنى البشر .

كرهت الليل ، كان اذا جاء ، احتميته وخفته وارتعبت منه .. وذهبت ألتمس أصدقاء يسهرون حتى الصباح .. كنا اذا فرغنا من عملنا فى نصف الليل أو بعده بقليل ، اصطحبت بعض الاصدقاء نتجول فى الشوارع أو نلجأ الى بعض المقاهى ، أو نذهب الى حى سيدنا الحسين ، نظن انه ملاذ أمين .. ماذا تريد الطائرات من مسجد يضم رفاتا طاهرة.. ماذا تريد من حى كله أنقاض بالكاد تقف لكى تكون بيوتا .. فى قهوة

الفيشاوى ، كنا نجلس ، ونسمع أذان الفجر يصل الى آذاننا وكأنه الامان .. كان هذا الصوت الرقيق المنبثق مع ضوء الفجر كأنه تعويذة أو تميمة أظن انها ستقينى الشر كله .. كانت أوهاما ، ولكنها كانت أوهاما جميلة سعيدة رقيقة .

وامتدت الغارات الى كل مكان تقريبا، الى المنصورة والزقازيق وبنها ودمنهور بل وأسيوط ، بعد أن كانت مقصورة على القاهرة والاسكندرية، وبدأت مخاوفى تزداد .. لم يصبح الهم همى وحدى ، ولا هم المقيمين فى القاهرة ، أصبح أيضا هم المقيمين فى الريف .. فى أقصى الارض .. انتشر الخوف فاظل الوطن كله .

أكان هذا الخوف راجعا الى ضعف فى الايمان ؟ لست أدرى .. اننى لأعرف ان الموت ظاهرة من ظواهر الحياة ، وأعرف انه حقيقة لا شك فيها . وهو بذاته لا يزعجنى ، ولكن الاسلوب نفسه كان يملأنى رعبا.. قنبلة تسقط فتمزق الجسد تمزيقا ، بيت ينهار فيخنق الانسان خنقا .. وربما لا يجىء الموت .. ربما تجىء فقط عاهة أو تشويه أو فقد عضو من الأعضاء .. وكنت أخجل أن أظهر خوفى أمام بعض أصدقائى فأراهم أكثر ثباتا وأكثر استهانة ، فأعجب وأشعر اننى أضعف وأقل ايمانا .. ولكننى أنا أيضا ، كنت أبدو كما لو كنت مستهينا ومستهترا وشديد الثبات .. أتراهم كانوا يشعرون بمثل الخوف الذى أشعر به ؟ أتراهم كانوا يحاولون اخفاءه كما كنت أفعل ؟

وذات ليلة دق التليفون ، وكان المتحدث هو الدكتور زكى مبارك.. وبعد أن فرغ مما كان يريد الحديث فيه .. قلت : أين تقيم يادكتور .. قال : فى مصر الجديدة .. قلت : ولا تخاف من الغارات .. قال : يعنى حينشنوا علي ؟ وضحك .

وتأملت موقفى .. ان الدكتور زكى مبارك يطمئن نفسه لان قاذفات القنابل لن تقصده .. ولكننى أخاف وأضطرب كلما سمعت صفارات الانذار ، لاننى بطبعى متشائم ، وأتصور كل الاحتمالات ، ومنها أن تصيبنى القنابل .. ولم أستطع طوال حياتى أن أتخلص من هذا التصور .. اننى لا أقدم الحسن ولكن أفترض الاسوأ .. ولست أعرف لماذا كنت هكذا ؟ ربما كان وراثة من الوراثات ، فمنذ صباى الباكر ، كنت اذا أديت الامتحان فى المدرسة ظللت خائفا أن أكون من الراسبين ، ثم تظهر النتيجة فاذا بى الاول أو من الخمسة الاوائل .. وعلى الرغم من تكرر هذا ، فلم أكن أستطيع أن أتجنب التفكير فى أسوأ الاحتمالات .

فيه اثنين مجانين في البلد ..
أنت وأنا !

« انهـــا ضريبة من غير قانون ٠٠ شبيهة بمــا كان يحدث في القرون الوسطى » ٠

أخذت وزارة على ماهر باشا تترنح على اثر اعلان ايطاليـــا دخول الحرب في يونيو سنة ١٩٤٠ ، وابلغت السفارة البريطانية القصر بأنه من المستحيل التعاون بينها وبينه ٠ كانت الحكومة البريطانية تظن أن نفوذ الايطاليين في القصر لا شك فيه ، وكانت تظن ايضا ـ ان خطأ أو صوابا ـ أن على ماهــر باشــا ذو ميول محورية ٠٠ وتلقى القصر ما يشـــبه الانذار بأنه لابد من تغيير على ماهر ،واستقال على ماهر ،وأحدثت استقالته هزة عنيفة في الرأى العام ، فقد أشار فيها الى أنه « استقال لأســـباب قاهرة خارجة عن ارادتنا وارادة الشعب المصرى » وفهم الشعب الفاعل المستتر المقصود ولم يكن غير الانجليز ٠٠ ولم يكن الشعب خالص النيات في الحرب مع حلفائه الرســميين ٠٠ كان بهـــواه وتفكيره وتدبيره مع خصومهم ، أعنى مع المحور ، مع المانيا وايطاليا ، والمانيا بوجه خاص ٠٠ كان يتتبع أخبار الحرب بشغف شــديد ، ويشعر بما يشـــبه التشفى للهزائم التى كانت تقع بالبريطانيين والفرنسيين ، وما يشبه الاعجاب والبهر والسحر بالانتصارات التى يحققها الألمان ٠٠ كان هتلر خرافة في ذهن الشعب ٠٠ كان ينظر اليه كأنه المنقذ والبطل ٠٠ ان الشــعب لم يستطع أن ينتصر على الانجليز كما أراد في معاهدة سنة ١٩٣٦ على الرغم من انها أمضيت من الزعماء والقادة جميعا مما يدل على أنها قبلت في رضاء واضح ، الا ان الامر المنطوى في ضمائر الشعب والقادة أيضا كان يبدو كأنه رضاء شبيه بالاكراه ، وقبول شبيه بالغصب ٠٠ ومن هنا كان

هروب الشعب من الحقيقة الواضحة وهى أنه مغلوب على أمره فى هـذه الحرب وفى الصف الذى اختار الوقوف فيه ، الى أحلام تراوده أن ينتصر الألمان على الانجليز ، ويؤدبوهم تأديبا ، وينتقموا منهم انتقاما ٠٠ ومن هنا أيضا كان اعجابه بمواقف على ماهر باشا وبالتهمة التى وجهت اليه ، وهى انه ضالع مع المحور .

والف حسن صبرى باشا الوزارة الجديدة فى ٢٨ يونيـــو سنة ١٩٤٠ ، بعد ان فشلت المساعى لتأليف وزارة ائتلافية ٠٠ وكانت وزارة حسن صبرى مؤلفة من الاحرار الدستوريين ومن الســـعديين والحزب الوطنى والمستقلين ، ومعتمدة ايضا على البرلمان نفسه الذى اعتمد عليـه محمد محمود باشا وعلى ماهر باشا ، وفى هذا مايدل بوضوح على أن البرلمان كان مجرد صورة ، وانه مستعد لتأييد أى رئيس وان الحزبين الكبيرين فيه مستعدان للاشتراك فى أى وزارة .. وفى ٢٧ يوليو من السنة نفسها عين احمد محمد حسنين باشا رئيسا للديوان الملكى وكان هذا التعيين بمثابة اعلان عن قوة جديدة لابد ان تكون مؤثرة فى حياة البلاد السياسية .. كان على ماهر باشا هو هذه القوة حتى الآن .. سواء أكان رئيسا للوزارة أم رئيسا للديوان ، أما الآن فقد تخلى عن الحكم ، ولم يعد الى رياسة الديوان كما كان يرجو ، فأتيحت الفرصـــة للنجم الجديد أحمد محمد حسنين ، وسيختلف الناس فى أمر هذا الرجل اختلافا كبيرا ، ولكن لا شك عندى انه كان اشبه برجال البلاط فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، هؤلاء الذين كانوا يحكمون من وراء ملك ضعيف يوجهونه أو يهملونه أو يستترون وراءه .

وليس حكمى عليه هنا ذاصلة بالوطنية أو عدم الوطنية .. ان احمد حسنين كان رجلا طموحا ، تســتطيع ان تقرأ حياته وتعرف اتجاهاته وميوله من المراحل التى مرت به .. انه لم يتصل بالشعب اتصال زعامة ولا قيادة من الدرجة الاولى أو الثانية أو الثالثة .. كان موظفا ثم لا شيء آخر .. كلا ، كان موظفا وشيئا آخر ، كان رجلا ذكيا لبقا ، انيقا ، عارفا بخفايا النفوس ، مدركا لنواحى الضعف فيها ، شديد الثقة فى نفسه ، وشديد الحرص على الا يفشل .. يؤثر ان يختفى ويظهر .. وهذا تناقض ، ولكنه مفهوم ، انه كان يختفى ، ولكنه كان يحرص أيضا على أن يعرف كل انسان انه صاحب الكلمة ، فاذا واجهه الناس بذلك نفاه فى تواضع شديد ونسب الفضل والقوة والتأثير لآخرين .. انه تماما مثل جيد لرجال القصور الذين يعيشون على المؤامرات

والدسائس ويحرصون فى الوقت نفسه على أن يظهروا أمام الناس ، كأن وسائلهم صريحة نظيفة ، وكأنهم ضحية وطنية من ضحايا القصور .. وكان أحمد حسنين أيضا رجلا أثيرا لدى النساء ، وهذه صفة ضرورية أيضا لمن يريد أن يبلغ بوسائل القصور ما يريد من سلطان .. كانت سلاحا ناجعا أو كانت مساعدا عظيم القيمة لا سلافه ممن سلكوا خطته وعاشوا فى قصور أضخم وأعظم ، وان لم تختلف عن القصر الذى عاش فيه من حيث الوسائل والغايات .

ولا يهمنى هنا أن أزيد فى توضيح ملامح أحمد حسنين النفسية والعقلية وهناك الكثير مما يقال فى هذا الموضوع ، ولكننى أمسه بالقدر الضرورى لتبين سير الحوادث فى هذه الحقبة الخطيرة الدقيقة التى عاشها وطننا ،وعشتها بكل أعصابى ومخاوفى وآمالى مع انتفاضات شاركنى فيها أهل الوطن جميعا .. كان الحكم فى القصر حتما ، أعنى أساسه وخيوطه، ولكن الملك لم يكن يستطيع أن يتجاوز ارادة السفير البريطانى فيما يمس المجهود الحربى ، وفيما عدا ذلك لم يكن الامر ليعنيه فى قليل أو كثير .. وكان القصر يعرف هذا ، والبرلمان يعرف هذا ، والشعب يعرف هذا ، ولذلك أخذ الشعب ينفصل أكثر وأكثر عن البرلمان وعن الحكومة وعن القصر ، ويترك مصيره للقدر يحركه كيف يشاء ، وينقلب غيظه الشديد أو احساسه بهذا الغيظ الشديد الى السخط على الانجليز والشماتة ـ كما قلت ـ لهزائمهم والفرح لانتصارات أعدائهم .. كانت البلاد هادئة أو تبدو كذلك ، وكأنما هى راضية عن الحكم ، راضية عن التحالف .. كان القصر لاهيا ولاعبا ، والحكومات المتعاقبة ضعيفة الارادة أو لا ارادة لها الا أنها تنحنى حينما تحسب أن الانحناء يكفل لها البقاء ، أو تقف صامدة وكأنها قوية ، حينما تظن أن الصمود هو السبيل الى البقاء .

وحاول حسن صبرى الرئيس الجديد أن يستميل الوفد اليه ، كان يعتمد فى برلمانه على الدستوريين والسعديين ، ولست أدرى .. هل كان انعطاف حسن صبرى نحو الوفديين نابعا من تفكيره الخاص ، أم بايعاز من الانجليز ..؟ أغلب الظن أنه كان نابعا من هذا وذاك ، من شعوره الخاص وتلبية لرغبة الانجليز الذين احسوا ـ والحرب تدخل أسوأ أدوارها ـ أن حكم البلاد بوزارة ليست مؤيدة من الشعب يضعفهم ويكشف ظهرهم ، ولعلهم هم الذين تدخلوا لاختيار حسن صبرى بالذات لثقتهم فيه وحسن ظنهم .. كان على ماهر الرئيس السابق اختيار القصر الخالص ، من غير اعتراض من الانجليز ، وكان اختيار حسن صبرى اختيار

السفير البريطانى من غير اعتراض من القصر أو مع اعتراض خفى لم يستطع أن يظهر أو يعلن عن نفسه ..

وفى سبتمبر سنة ١٩٤٠ خرج السعديون من وزارة حسن صبرى لانهم كانوا يرون أن نعلن مصر الحرب على ايطاليا بعد ن دخلت قواتها بلادنا ، وأوغلت فى الصحراء الى مدى بعيد ، ولم يكن سائر أعضاء الوزارة يشاركونهم فى هذا الرأى ، ولم يكن القصر أيضا يراه ، ولم يكن الشعب يقره ...

ولم يمض سوى شهرين حتى هوى حسن صبرى باشا وهو يلقى خطاب العرش فى نوفمبر من هذه السنة ، سقط وكأنه متعب ، والموكب من حوله حافل .. الملك والوزراء والنواب والشيوخ والحراس والجند ، والدنيا الطويلة العريضة .. لم يكن منهكا .. كان الرجل الطيب الامين يموت ، ومات ، كان الحادث مؤسفا اليما ، رج الناس بالحزن .. ولم يكونوا فى حاجة الى مزيد منه ، فالظلام يعم الوطن كله ، والحرب دائرة تقترب من حدودنا ، والمؤن تقل والطعام يشح ، والناس فى خوف من المستقبل .. اطل شبح الحرب على البلاد كما لم يطل من قبل . ونشطت الاغارات ليلا ونهارا ، وأرعبنى الموقف ارعابا شديدا ، وخيل الى أن القاهرة الجميلة أشبه ما تكون بالقبر ..

ولأقل شيئا آخر .. اننى لا أريد أن أعطى نفسى أكثر من حقيقتها، اننى اكشف فيها ضعف الانسان .. ذات ليلة .. وكان جو الحرب منذرا والمعارك على أشدها ، واحتمال قيام غارة عنيفة على القاهرة ممكنا ، لم استطع أن أبقى فيها بقية الليل .. ما ان فرغت من عملى حوالى الساعة الحادية عشرة ليلا ، حتى فكرت فى تركها الى بنها رجاء أن أقضى فى فندق هناك بضع ساعات فى نوم هادىء .. وبلغت بنها والساعة قاربت النصف بعد منتصف الليل .. ورحت أسأل عن فندق أبيت فيه ، وكنت أظن أن فى بنها فنادق حسنة ، ولكن من سألتهم دلونى على واحد قالوا انه أحسن ما فى المدينة .

ما كان اسوأه من فراش ، واسوأه من فندق .. ولكننى نمت مطمئنا ، ان الطمأنينة فى نفسى هى التى انشدها .. ما ظننت اننى بعدت عن الخطر ، فان احتمال الغارات فى بنها كان ممكنا أيضا ، ولكنى اعتقدت أنه أقل احتمالا ونمت .. وحوالى الساعة الخامسة فى الصباح صحوت على صوت كريه مزعج ..كان صفارة الانذار .

وخرجت في هذا الصباح الباكر ، انظر الى الحقول الباسمة والدنيا المحيطة بى ٠٠ كانت الاشجار تتمايل والنسيم الرقيق يداعبها، والشمس تبزغ فى جمال رائع اخاذ ٠٠ الهدوء يشمل كل شيء ، والناس يخرجون من بيوتهم للعمل والرزق ، وتأملت الحياة والاحياء ٠٠ انهم فى وسط الخطر لا يفقدون الأمل ٠٠ ان الحياة لا تعترف بالموت ، وان كان حقيقة ثابتة من حقائقها وكان فى هذه الايام ظلا جاثما على كل الصدور ٠٠ واستنشقت مع الصباح نسيم العافية والسلامة والامان ٠٠

كما أخاف خوفا شديدا ، سرعان ما اطمئن اطمئنانا كاملا ، وهذا من فضل ربى على ٠٠ وانه لتعويض عجيب ، فبمقدار ما يكون الخوف تكون الطمأنينة ، وبمقدار ما يكون الجزع ، يكون السكون بعد أن تذهب دواعيه ٠

والف حسين سرى باشا الوزارة الجديدة ٠٠ وفيها من الدستوريين الدكتور هيكل ومصطفى عبد الرازق باشا وأحمد عبد الغفار باشا وعبد المجيد ابراهيم صالح باشا وعبد الجليل أبو سمرة باشا ، وكان بقية أعضائها من المستقلين وكانت كالوزارة السابقة مستندة الى البرلمان الذى أجرى الانتخابات له والفه محمد محمود باشا ٠٠ ولست فى حاجة الى اعادة ما سبق أن قلته ، وهو أن هذا البرلمان كان يزداد يوما بعد يوم اقترابا من صورة محزنة ، وفى عهد هذه الوزارة شح الطعام ، حتى هتف الناس فى الشوارع ٠ نريد أن نأكل وفى عهدها هتف آخرون : الى الامام يا روميل ، وروميل كان القائد الالمانى الذى تولى جبهة الصحراء الغربية ٠٠ و فى عهد هذه الوزارة بلغت الامور اسوأ مداها ، واحمد محمد حسنين باشا رئيس الديوان الأعلى فى القصر ليس بعيدا عن الحكم ولا بعيدا عن المسئولية ٠٠

وسرعان ما نشطت الوزارة الى انشاء ما سمى بمشروع مقاومة الحفاء بناء على توجيه من الملك فاروق ، وانطلق رجال الحكم وغيرهم يتحدثون عن صنادل توزع على افراد الشعب ، حتى لا يصبح فى مصر أحد من الحفاة ، وكنت أنظر الى هذا كله ساخرا ، ولا استطيع أن افعل شيئا ٠٠ ودق التليفون ظهر يوم فى مكتبى ٠٠ كان المتحدث تقلا باشا ، قال : عاجبك الحال ده يا زكى ٠٠؟ وأدركت ما يقصد ٠ قلت : كلا ٠٠ انه مشروع سخيف وأنا مستعد أن انقده ، فهل انت مستعد أن تنشر٠٠؟ قال ضاحكا : فيه اتنين مجانين فى البلد ده ٠٠ انت وانا ٠٠ اكتب وانا أنشر لك ٠٠

كان تقلا باشا هو الذى يتولى رياسة التحرير·· وحيث يكون تقلا باشا هو رئيس التحرير اشعر بانطلاق أكثر فى ابداء آرائى · ·كان شجاعا ومجازفا ، وليس كانطون باشا يراعى الكثير من الاعتبارات ·· وكتبت المقال ·· بدأته بأن التوجيه الى وجود الحفاء فى الوطن ، ليس توجيها مقصودا بالتحديد الى الحفاء ، ولكن الى سوء الحالة الاجتماعية والى حالة الفقر الشائعة فى البلاد ، وقلت : ان هذا التوجيه لا يمكن أن يدخل فى التفاصيل ، ولا أن يشير الى مشروع معين من المشروعات أو الى منهج معين فى الاصلاح ، وان على الوزارة أن تنفذ التوجيه فى روحه ، لا فى نصه ، فان النص كان من قبيل التمثيل لا من قبيل التحديد ·· وفرغت من المقدمة التى تحاشيت فيها الحرج أن يقال اننا نعارض رغبة ابديت ، الى الحديث عن مشروع الحفاء ، ونقدته نقدا شديدا .. ومما قلته ان الصنادل التى ستوزع على الفلاحين سرعان ما سيتخلصون منها بالبيع ، لكى يأكلوا بثمنها ، فالجائع يريد أولا أن يأكل ، ولاعليه اذا مشى حافيا·

وقرأ تقلا باشا المقال وضحك وهو يتابع قراءته وقال : انت عفريت ·· واشر عليه بالنشر فى صدر الصفحة الاولى ، فى مكان المقال الافتتاحى ·· وكان المقال من غير توقيع ، فكان المفروض أنه يمثل رأى « الاهرام » فى الموضوع ·· وجاء انطون باشا فى المساء ، فزحزح المقال من وضعه الذى اقترحه تقلا باشا الى وضع آخر هو مايسمى فى التعبير الصحفى « ثنية الاولى » اعنى الجانب الايسر من الصفحة ، وظهر المقال دون توقيع ، وأحدث ضجة شديدة ، وقال لى أحدهم ونحن نازلون على سلم الاهرام : ان المقال لاقى الكثير من النجاح ، وعندى انه لم يكن فيه شىء غير عادى ، ولكن نجاحه جاء من انه عبر فى الفاظ مكتوبة عما كان الناس كلهم يتحدثون عنه ولايستطيعون الافضاء به، وشعرت بالارتياح الشديد ، وليس أسعد للانسان من أن يرى انه استطاع فى موجة من انكبت والخوف والقلق أن ينفض عن صدره ، وكأنه ينفض عن صدور الناس أيضا ، بعض ما يثقلها ·

لم اعتد فى حياتى أن أسعى الى شىء ، كل ما نالنى من خير أو شر جاءنى وأنا ساكت ساكن ، لا أنتظر شيئا ·· ليست لى فى حياتى خطة معينة ، وليست لى أهداف أو مطامع أسعى اليها ويؤرقنى التفكير فيها ، وربما كان هذا خيرا ، وربما كان شرا ··· وربما ضحك بعض الناس من انسان ليست له مطامع وقالوا انه انسان قانع ساكت راض ··· ولم يكن هذا يضايقنى ·· كانت فلسفتى بسيطة جدا ، واعتقد انها رابحة

جدا ٠٠ اعمل واعمل ، ثم لا أشـغل نفسى بشىء آخر ٠٠ ليس فى طبعى أن أدس أو اتآمر أو اكره أو أحقد ، ثم يحركنى الحقد والكره الى العمل، لست ازعم اننى لم أحقد أو أكره٠٠ كلا ، أنا انسان فى كل ما فى الناس من نقائص ، ولكننى كنت اذا شعرت بهذافى نفسى أسخر منها وأحاول أن أدفعها عن هذا الشر السخيف ٠٠ وكثيرا ما كنت أنجح ، فاذا فشلت ، وأقام الكره معى ، فنه يقيم اقامة قصيرة ، قصيرة جدا بيضاء خالصة ، مجرد شعور داخلى ، ليس له مظهر خارجى على الاطلاق ٠ ما قصدت أن أسىء الى أحد ، ولم أحاول أن أدفعه عن خير يناله، أو أدفع عنه خيرا يوشك أن يناله ٠٠ يجوز أن أضيق بينى وبين نفسى اذا حدث ، ولكنى لم أفكر قط فى ان أحول دونه ٠٠ لا بل يحدث ما هو أهم ، لو استطعت أن أدنى الخير منه ، أفعل وأنا راض مغتبط ٠٠ ولست أزكى نفسى ، ولا ازعم أن هذا فضيلة كبيرة من الفضائل الـكبيرة ٠٠ كلا ، كنت أحب دائمـا أن أظهر بمظهر القوة ، وكأن أحدا لا يعنينى أو كأن أحدا لا يحرك شعرة فى جسدى ، بينما أكون أنا اضـطرم اضطراما ٠٠٠ انه نوع من الـكبرياء العجيبة ، أحس أنه صاحبنى فى حياتى منـذ طفولتى وظل مقيما ، لا يبرحنى ولا أحب له أن يبرحنى ٠٠ ان هذه الكبرياء ، سترت ضعف نفسى، ومخاوفها وآلامها وآمالها ، كما سترت نقائصها ووجههـا الشائه الكريه ٠٠ ومن منا ليست له نفس ذات وجه شائه كريه ؟

ولست أدرى لماذا كتبت هذا ، فان الحادثة التى وقعت وأوحت به لا تتصل اتصالا تاما بكل ما جاء فيه ، ولكنه تداعى المعانى ، يجبرنى دون قصد على أن أكشف نفسى تماما وانى لاجد فيه راحة ، لأنه اعتراف والاعتراف يريح ٠٠ تلقيت ذات يوم فى أواخر سـنة ١٩٣٩ خطـابا من الاذاعة المصرية بتوقيع رئيس لجنة البرامج الداخلية جاء فيـه ان اللجنة قررت اختيارى لاتولى التعليق على الانبـاء الداخليـة فى اذاعات دورية وسألتنى ما اذا كنت أوافق أم لا ٠٠

واغتبطت أشد الاغتبـاط لهذا الخطاب ٠٠ احسست دائمـا بحب شديد للميكروفون .. انه قرين الصحافة ، وابن من الابناء الاذكياء الاقوياء للنشر ، النشر عن الكلمة والرأى والاتجاه والانفعال .. وطالما احببت كل شىء يكشف عن الانسان ويتيح له أن يتحدث الى الناس ، يعرفهم ويعرفونه ، واحببت الصحافة لانها داة للنشر ، وأحببت الميكروفون أيضا لأنه أداة للنشر ، وأجبت بالموافقة ، واتصل بى الأستاذ على خليل، واتفقت أنا وهو على أن ازوره فى استديوهات الاذاعة .. وفى غرفة ذات

مكاتب متعددة ، رأيت على خليل ورأيت محمد فتحى ٠٠ قال على خليل فى أدب جم وحياء فيه رقة : هل تسمح بتجربة بسيطة ٠٠

وخرجت أنا واياه الى الاستديو ، وأمام الميكرفون قال : تحدث بأى شىء ٠٠ كلمة ٠٠ كلمتين ٠٠ ثلاث كلمات ، وفى اضطراب شديد وقلق بالغ ، وصوت فيه رعشة دفعها اليه الخوف والقلق ، قلت كلمة ، كلمتين، ثلاثا ٠٠٠ كنت اشبه بمن يؤدى الامتحان ٠٠ بل كان شعورى أقسى من شعور الذى يؤدى الامتحان٠٠ كنت شديد الحرص أن يكون صوتى ملائما ٠٠ وجاء على خليـل من الطرف الآخر ٠٠٠ وسألته فى لهفـة حاولت أن اخفيها جهـد ما أستطيع قال : الصوت حسن جـدا ٠٠ وأضاف : وفيه نغمة لطيفة ٠٠

ومنذ ذلك الحين اتصلت بالاذاعة دون انقطاع الا فى فترات سيجىء ذكرها فيما بعد ٠٠٠ وكانت المرات الاولى شـديدة الازعاج لى ٠٠ كنت اذا اقترب موعد الاذاعة جف حلقى ، واضطربت ٠٠ كنت وأنا أجلس أمام الميكروفون أشعر كأن العيون كلها متجهة لى وكأن الآذان مصغية ، وكأننى سأغرق فى بحر ٠ ولست أظن أن هذه الرهبة من الميكروفون زالت عنى تماما على الرغم من مئات الاحاديث والندوات والمناقشات التى اشتركت فيها ٠

وقال على خليل وأنا أوقع العقد الاول مع الاذاعة ٠٠ سيكون الاجر جنيهين عن كل حديث ، وابديت ما يشبه الاعتراض ، ولم يكن المال هو الذى يهمنى ، وانمـا الـذى كان يهمنى شىء آخـر ٠٠ خشيت أن تكون معاملتى أقل من غيرى ٠٠ قال على خليـل انه مثل الاجر الذى يتقـاضاه فؤاد صروف ٠٠ وسكت قليلا ثم قال : وهناك السن أيضا ٠٠

وأرضانى هذا الـكلام ٠٠ ان على خليل بارع فى الاقناع ، ويعرف جيدا كيف يصل الى ارضـائك ٠٠ كانت الاذاعات مسرة جديدة اضيفت الى مسرات عملى ، وكانت شيئا سعيدا ، وسـط القلق والخوف والرعب الذى اثارته طوارىء الحرب ٠٠ كنت اذا دخلت الاستوديو أو خرجت منه، تصورت أن ملايينالآذان تنتظر صوتى وحديثى ٠٠ ما أعجب الاوهام التى يعيش فيها الانسان فى بعض الاحيان ، ولكن لا بأس بها ، انها تسعدنا فترة من الوقت ٠٠ ماذا يعنينا اذا كانت فىحقيقتها أوهاما ، ما دمنا نحن نتصور كأنها حقائق ٠٠

وذات يوم فى أوائل سـنة ١٩٤١ ، وكنت فى قريتى جالسـا فى

الحديقة المجاورة لبيتنا ، والقمر ساحر باهر ، والطمأنينة سابغة شاملة، وخاطرى ذاهب الى القاهرة بظلالها الكئيبة وغاراتها التى لا تنقطع ، واذا بالشيخ على أبو عبد الله عامل التليفون فى قريتنا يقول : الضابط فات النهارده ، وبيسأل عن الدرة اللى لمناه من الاهالى ... هى الناس لاقيه تاكل ..

ولفت نظرى الموضوع واستفسرت عن تفاصيله وعرفت أن ضابط النقطة واسمه اسماعيل رشدى مر على القرى الداخلة فى اختصاصه لكى يجمع منها ذرة مساعدة للتموين .. كان الملك قد اشار فى حديث أو توجيه له الى سوء حالة التموين وناشد أصحاب الاملاك الواسعة أن يتبرعوا بشىء من الذرة الناتجة من أراضيهم مساعدة للفلاحين فى أزمة التموين ... وسرعان مانشط الطامعون والآملون والمنافقون الى التبرع ، وسرعان ما نشط رجال وزارة الداخلية ، فاتصلوا بالمديريات والمراكز يطلبون اليهم جمع الذرة من الاهالى ، وظن كل واحد منهم انه بمقدار ما يستطيع أن يجمع تكون ترقيته ويكون الرضاء السامى عنه... ووصل الطوفان الشرير الى قريتى والى القرية المجاورة لها .. قال الشيخ على أبو عبد الله : اننا تلقينا اشارة من النقطة .

سألته دهشا : اشارة رسمية ..؟

أجاب : نعم اشارة رسمية بجمع الذرة من الاهالى ..

قال : انه يهددنا .. وقد فرض علينا ١٢ أردبا ، من أين نجىء بها. ان الناس مساكين ، هل تتصور ، نحن نجمع كيلة ونصف كليه، وأحيانا أقل ، والعمدة مضطر أن يلبى الطلب ..

وفى هذه الاثناء جاء عمدة القرية المجاورة الشيخ زكى الاشقر ، وسألته عن حقيقة الموضوع فأكد لى تفصيلاته ..

وعدت الى القاهرة صباح اليوم التالى ، وفى المساء كتبت مقالا افتتاحيا فى الاهرام أوضحت فيه الامر كاملا، وقلت ان جلالة الملك حينما طلب الى القادرين أن يتبرعوا لم يكن يقصد أن تنقلب المسألة ، فيكون التبرع من الفقراء ، ان الفقير لا يستطيع أن يتبرع ، ان المسألة انتقلت من كيانها الاول فأصبحت ضريبة مفروضة ، من غير قانون ومن غير ضابط يحمى من السرقة والاختلاس .. ان الامر أصبح شبيها بالقرون الوسطى، حينما كان الحكام يأخذون من الناس الضرائب بالاكراه ومن غير قانون ولا حدود ولا رسوم .

كان تقلا باشا أيضا هو الذى يتولى رياسة التحرير ، وظهر المقال فى اليوم التالى دون توقيع ··· وحينما دخلت عليه فى مكتبه ظهر هذا اليوم قال لى ضاحكا : يا زكى ·· أنا لا باكتب ولا حاجة ، تعال·· استلم تليفونات الاعجاب والتأييد لمقالك ··

وكان فعلا يتحدث فى التليفون وقال لمن يتحدث اليه : اهو زكى حيكلمك ·· كان المتحدث هو سيد جلال ·· قال انه يهنئنى على المقال الشجاع الجرىء ·· دى فوضى يا شيخ ·· ياخدوا من الفقراء ويسيبوا الاغنياء ·

وأقبل الليل ، واذا بالاستاذ محمد البابلى مدير الامن العام يحدثنى عاتبا ويقول : المقال شديد أوى ·· ضرائب وقرون وسطى ·· لا دا كثير خالص ··قلت له : ان هذا هو التفسير البسيط لما يجرى اليوم فى الريف ، انه مأساة ··

قال : كان يمكنك أن تلفت نظرى الى ما شاهدته فى قريتك وأنا كفيل باصلاح الامر ·

قلت : ان الامر ليس خاصا بقريتى ، انه أمر عام ··· ان المديرين والمآمير يفعلون ذلك فى شتى أنحاء البلاد ·

وكانت الساعة قد بلغت العاشرة مساء ، حينما قال لى تقلا باشا ان وزارة الداخلية ستصدر بلاغا بتكذيب ما جاء فى مقالك ···

قلت له : لتصدر ما تشاء ، سننشره ، ولكن بشرط أن نرد عليه ·

وكنت أعتقد أن وزارة الداخلية لن تجرؤ على التكذيب، لأن الوقائع صحيحة ، ولكن ما أدهشنى فعلا ، اننى تلقيت البلاغ بعد هذا الحديث بنحو نصف ساعة وعلقت عليه ، مؤكدا المعلومات التى وردت فى مقالى ·

وظهر البلاغ الرسمى والتعليق فى اليوم التالى · وظهر هذا اليوم جاءنى الاستاذ اسماعيل فخرى المفتش بالداخلية وقال ، اعطنى مالديك من معلومات وافضيت اليه بكل ما عندى ، باسم قريتى والقرية المجاورة لها ، واسماء العمدتين وعامل التليفون ، وقلت له : ستجد عند عامل التليفون كشفابأسماء الذين فرض عليهم التبرع بالذرة من الاهالى ·

قال : سأذهب للتحقيق ···

قلت : اذهب مفاجأة ، ولا تكشف عن حقيقة أمرك أولا ··

ألف جماعة النهضة القومية ..
على مثال جمعية "الفابيان"

« وأغرقني هذا النشاط الجديد ، أحببته وارتحت اليه وأضاف الى تجربتي الشيء الكثير »

في الصباح الباكر كان الاستاذ اسماعيل فخرى المفتش بوزارة الداخلية يطرق باب عامل التليفون فى قرية فرسيس بمديرية الشرقية٠٠ وفاجأه سائلا : عملتم ايه فى حكاية الدرة ٠٠ حركة التبرع عندكم مش تمام ٠٠٠

وارتبك الرجل وقال وهو يهرول : ياسعادة البيه ٠٠ كل شيء ماشي مضبوط ٠٠ على قد مانقدر ٠٠

وسرعان مانزل العمدة من بيته ، وكان عامل التليفون قد انصرف لكى يحضر الكشف ويعرضه على « سعادة البيه » وقد ظنه أحد الموظفين المنوط بهم الاشراف على جمع الذرة من الفلاحين ٠٠ كان المدير قد أدرك ماحدث فى وزارة الداخلية ، وباشارة عاجلة منه الى المأمور ، قال ان مفتشا من وزارة الداخلية سيذهب الى فرسيس للتحقيق فى هذا الأمر ، وأوصاه بأن ينكر كل شيء ،ينكر أن أحدا كلفه بجمع الذرة من الأهالى .. وان يعيد الذرة المجموعة الى أصحابها ويوقف كل حركة تنم عن أن هناك جمعا للذرة ..

واتصل المأمور بالعمدة وأوصاه بأن ينكر كل شيء قائلا له ان اسماعيل فخرى مفتش الداخلية سيحضر لديكم ، فاحذروا أن تطلعوه على شيء ٠٠ وكان اتصال المأمور بالعمدة فى الصباح الباكر ، تقريبا فى الوقت الذى وصل فيه المفتش الى القرية .. ولم يتسع الوقت للعمدة

لكى يحذر عامل التليفون من المفتش القادم ۰۰۰ ومن هنا وقع الارتباك ۰۰ وسرعان ما استقبل العمدة المفتش وحياة أحسن تحية ، وأومأ لعامل التليفون ان يكف عما هو منصرف له ، وأكد للمفتش انه لا يوجد ذره جمعت من الأهالى ، وان أحدا لم يكلفهم بجمع الذرة ۰

وقال المفتش : ولكن عامل التليفون اعترف بأن هناك كشفا وان هناك جمعا للذرة ۰

قال العمدة وهو يضحك ، عارف انه يقرر غير الحقيقة ، ولكن ماذا يصنع فى أمر المأمور ، قال : دا مجنون ياسعادة البيه .. حتى احنا عاوزين نغيره ، هو دريان بحاجه !

وكان الاستاذ اسماعيل فخرى ذكيا لبقا متمرسا بهذه الاساليب۰۰ قال : يعنى مافيش دره ومافيش كشف بجمع الذره ۰۰

أكد العمدة أنه لا يوجد شيء من هذا على الاطلاق ۰۰

وانتقل المفتش الى القرية الأخرى المجاورة واسمها كفر السطوحية وكان قد حدث فيها ماحـــدث فى فرسيس تماما ۰۰ كان مأمور المركز وضابط النقطة قد اتصلا بالعمدة وحذراه من المفتش القادم من القاهرة ۰۰

وانطلق المفتش من غير تريث الى نقطة المحمودية ، كان فى المعلومات التى أفضيت أليه بها أن هناك اشارة رسمية أرسلت الى فرسيس والسطوحية بجمع الذرة من هذه النقطة . وسأل الضابط ، وحقق معه فى الأمر فأكد هو الآخر أنه لم يطلب من أحد جمع الذرة ، ولم يتلق أمرا من رؤسائه بهذا المعنى ۰

وطلب المفتش الاطلاع على دفتر الاشـــارات التليفونية ، واضطرب الضابط اضطرابا شديدا ، ولكن لم يكن بد من تقديم الدفتر ، وكشف الخط الصامت الذى لا يعرف أن يكذب أو يداور أو يخاف أو يغير حقيقة ، الأمر كله ۰۰ وجد المفتش أصول الاشـــارات التليفونية المرسلة الى القريتين ، وتابع التحقيق مع الضابط ، واضطر آخر الأمر الى الاعتراف بأنه تلقى الأمر بجمع الذرة من المأمور ۰۰ وتابع المفتش التحقيق ، وانتقل به الى المأمور وقرر أنه تلقى الأمر من المدير محمود بك حسيب ۰

كيف حدث هذا ؟ كيف اهتمت وزارة الداخلية بالبحث عن الحقيقة فى أمر هى أول المدانين فيه ؟ بل كيف تطور الموقف على هذه الصورة

وبلغ هذا المبلغ الخطير ؟ .. ما أكثر ماتنشر الصحف من مقالات ، وما أكثر ماتوجه من اتهامات .. لماذا اذن أثار هذا الاتهام وحده كل هذه الضجة ؟

كان الملك في أسوان ، وكان معه رئيس وزرائه حسين سرى باشا ، واطلع الملك على المقال ، أو لفت أحد حاشيته نظره اليه ، وأوضح له مافيه من اساءة الى مركزه ، وانزعج سرى باشا انزعاجا شديدا وخشى غضب الملك ، وسرعان ما اتصل بوزارة الداخلية .. ولا أدرى ماذا قال لمعاونيه فيها ، ولكن لابد أنه أغلظ لهم القول ، وأساء اليهم اساءة شديدة ، فقد اشتهر سرى باشا بخشونة العبارة وعدم التدقيق فى انتقاء ألفاظه .. ومن هنا انقلبت وزارة الداخلية رأسا على عقب ، ومن هنا كان انزعاج البابلى بك مدير الامن العام ، وكان البلاغ الرسمى الذى صدر بالتكذيب دون تدقيق ودون تثبت ..

من اذن الذى أمر بجمع الذرة اذا كان سرى باشا لا يعرف وكان كثيرون من موظفى وزارة الداخلية يعنيهم أن يثبت أن هناك أمرا بجمع الذرة ؟

كانت فى وزارة الداخلية سلطتان متنافستان .. كما هو الشأن دائما فى كل وزارة .. كان هناك وكيلان للوزارة هما حسن رفعت باشا وحمدى محبوب باشا .. كان أحدهما منوطا بأعمـــال الادارة والآخر منوطا بأعمال الموظفين .. ويظهر أن أمر الجمع صدر من أحدهما ، ولم يكن للآخر شأن به ، فلما أمر سرى باشا بالتحقيق ، نشط الفريق الذى لم يصدر الأمر للعمل جادا لاثبات أنه صدر ، ونشط الفريق الآخر الذى أصدر الأمر جادا لاثبات أنه لم يصدر .

وهذا تفسير الاضطراب المر الذى وقع فيه العمدتان وضابط النقطة ومأمور المركز ومدير المديرية .. هؤلاء كلهم أبرياء ، لقد صدر لهم الأمر بالجمع ، فصدعوا به ، ولا حيلة لهم الا أن يفعلوا ، فلما انقلب الميزان ، وأصبح مايرضى السلطان هو عدم الجمع ، وقع الغضب كله على رءوس هؤلاء المســاكين الذين كانوا يظنون أنهم بعملهم يرضـــون صاحب السلطان ..

وقد كنت أنظر حزينا الى هذه التمثيلية الصغيرة وهى تمثل فى قريتى وقرية مجاورة ، وتمثل فى وزارة الداخلية ، وتمثل بصـورة أضخم فى الوطن كله ، وسافرت الى قريتى بعد ذلك بأيام ، وعرفت تفاصيل ماحدث ، وعرفت شيئا آخر، عرفت كم أرضت هذه الحركة

الفلاحين الطيبين المساكين ، ولست أدرى من أين ترامى لهم أننى أنا الذى فعلت هذا ، كنت وأنا أنتظر القطار فى المحطة ، أتلقى تحيات الفلاحين من قرى بعيدة عن قريتى ، جاء واحد منهم وأقسم أن يقبل يدى ، وقال : أريد أن أقبل اليد التى رفعت الظلم عن المساكين .. لقد صدر الأمر الى كل القرى بوقف جمع الذرة ، واعادة توزيع ماجمع منه على من أخذ منهم .. ربنا يخليك .. ربنا يعمر بيتك ..

شعرت فى هذا الوقت بنفس راضـــية وقلب مفعم بالهناء ، اذ استطعت أن أؤدى فى هذا الوقت المظلم الكئيب شيئا من واجبى نحو هؤلاء التعساء ... وقال أهل قريتى وهم فخورون بى : ان كل البلاد المجاورة تتحدث عنك .. ان الضابط الذى كان يأتى الينا يأمر وينهى ويضغط على الفلاحين الفقراء .. انقطع عن المجىء .. انهم يحققون معه.. لقد صدر الأمر بوقفه ..

وقبل أن أركب القطار ، اقترب أبى منى وهمس فى أذنى : خد بالك يا ابنى .. قلت له :: مماذا ؟ .. قال : أخـــاف عليك من هذا الضابط .. انه موتور منك .. انت لا تعرف .

اشحت بوجهى مستاء وقلت له : أخاف مماذا ؟ اننى لا أخاف أحدا.

شد ما أسفت والقطار يطوى بى الارض طيا ، وقد انصرف المودعون، وأخذت أبنية القرية تبتعد شيئا فشيئا ، وخلوت الى نفسى ، لماذا رددت على أبى بهذه القسوة .. لماذا صرخت فى وجهه ؟ ونزلت دمعة ساخنة من عينى مسحتها .. لقد أدركت ساعتئذ من هو الاب ؟ ما هو قلبه .. ما هو تفكيره ؟ .. كان كل من حولى يتحدث عن الانتصار الذى حققته ، عن العمل المجيد الذى دفعت به بعض الظلم ، ولكنه هو كان يفكر فى شىء آخر ، فى ابنه ، فى حياته ، خوف أن يؤذيه أحد ، خوف أن يمسه انسان ... ماذا يعنيه هو من الانتصار ورفع الظلم ... ماذا يعنيه هو من مقال هز وزارة الداخلية والحكومة .. كل هذا لا يعنيه .. انه يفكر فى شىء آخر .. قد أصبح لابنه خصم .. أصبح لابنه انسان أو مجموعة من الناس تكرهه وتحقد عليه وقد تمسه بسوء ... أفما كان أجدر بى أن أكون رقيقا معه ، أن أطمئنه ، أن أمسح عن صدره مافيه من جزع وخوف وقلق ؟ .. اننى لم أفعل ذلك .. بدلا منه .. عز على أن يتصور أننى أخاف .. أنا أخاف .. كلا .. ما أشد غرور الانسان ... ولم أكن فعلا خائفا ، ولكننى حينما راجعت الموقف كله وراجعت مخاوف أبى ،

بدأت أخاف .. وتمنيت لو ألغيت سفرى وعدت الى أبى أقول له :
اغفر لى جهالتى .. ان يدك الحانية على لا أستحقها ..

طال التحقيق فى هذه المسألة فترة من الوقت وتناول عددا من كبار الموظفين فى الادارة وتقرر وقف ضابط النقطة ومأمور المركز ، وثبت كل ماجاء فى مقالى ، وانتهى التحقيق بنقل الضابط من النقطة ، ونشرنا الخبر فى الأهرام وقلنا انه الضابط الذى اقترن اسمه بجمع الذرة من الفلاحين .. ثبت كل ماقلناه .. ليس أجمل من الصدق . لقد آمنت دائما انه أجمل شىء فى الحياة ، ولذا أشعر فى نفسى بالقوة اذ أقوله حتى ولو كان على نفسى ، فترتفع نفسى أمامى درجات .. وقد التزمته فى حياتى منذ طفولتى حتى الآن ، لم أطق قط أن أكذب واذا حدث أن فعلت لأى سبب من الأسباب شعرت باحتقار شديد لنفسى والصدق عندى ليس فى الحوادث والوقائع ولكنه فى الرأى أيضا ..

وانى لأكتب أشياء كثيرة وفى مواضيع وأغراض متعـــددة ولكن أجملها هو أصدقها .. ان الصدق ينبع من أعماق نفسى ، أما غيره فمن السطح ، وانها لمحنة تعادل أعظم المحن أن تكتب وأنت لا تشعر أنك تكتب نفسك .. لا تشعر أنك أنت .

ذات يوم فى سنة ١٩٤١ دق جرس التليفون فى مكتبى الخاص ، ورفعت السماعة ، واذا بالمتحدث يقول : أنا على الشمسى ، وكانت أول مرة يخاطبنى فيها .. قلت وأنا دهش مغتبط : أهلا معالى الباشا .. قال : ازاى يا أخى نكون بلديات ولا نعرفش بعض .. وأضاف الرجل متلطفا : أنا عاوز أشوفك .. تحب آجى لك فين ؟

قلت : العفو يامعالى الباشا .. يشرفنى أنا أن آتى لزيارتك ..

واتفقت واياه على موعد أزوره فيه فى مكتبه بالبنك الأهلى ، وكان حينئذ رئيســا لمجلس ادارته .. وفى الموعد المحــدد ، كنت فى القــاعة الفسيحة الضخمة الفاخرة ، واستقبلنى الرجل بترحاب وعطف وتقدير ارضانى كل الرضاء .

ومنذ ذلك الوقت اتصلت بينى وبين الشمسى باشا رابطة جميلة قوية متينة .. كنت أزوره من وقت الى آخر ، فأتحدث واياه فى مختلف المشكلات التى تشغل الوطن ، واستمع الى آرائه الناضجة وتعليقاته على الحوادث والأشخاص .. وكان يتلطف من وقت الى آخر فيزورنى فى مكتبى ، ونخرج معا الى سيمراميس أو نادى محمـــد على أو غيرهمـــا من

الأمكنة حيث نقضي وقتا جميلا ، كنت أجد فيه متعة وغذاء ذهنيا ، وتجربة رجل أنضجته الحوادث والخبرة والقراءة والفهم الدقيق ·· والشمسي باشا اذا تكلم ففي سرعة وصوت خفيض ، فاذا لم يكن ذهنك متفتحا مثل أذنيك ، فقلما تستطيع أن تلتقط كل كلامه وأفكاره ·· وان فيه لحماسة عجيبة وصدقا وأمانة لا تخطئها فى عباراته وانفعالات وجهه·· قال لى ذات مرة وكانت أمور الوطن قد ساءت سوءا شديدا فى سنة ١٩٤٨ : اننى أنظر الى المستقبل بعين متشائمة ·· ان البلاد تضطرم بالسخط ، والطبقة التى أنتمى اليها تتدهور ، دون أن تحس بأنها تتدهور ·· انهم مترهلون ، والقصر لاه ··· لقد قابلت الملك بعد عودتى من أوربا وسألنى عن الحالة فى البلاد التى زرتها ··

واستطرد الشمسي باشا قائلا : ان الملك سكت هنيهة ثم قال : أنا عارف انه مش حيفضل ملوك غير ملك انجلترا وملك الكوتشينه ..

وما أكثر الاحاديث التى دارت بينى وبين الشمسي باشا حول مستقبل الوطن والمشكلات التى تواجهه ·

وكان الدكتور ابراهيم بيومي مدكور والاستاذ مريت غالى قد وضعا كتابا عن الأداة الحكومية ، ضمناه الكثير من النقد والتوجيه بقصد الاصلاح ، وتفضلا فأرسلا لى نسخة من الكتاب مكتوبة على (الرونيو) قبل الطبع .. وقال مريت غالى ان النسخ المطبوعة على هذه الصورة لا تزيد على ١٤٠ نسخة ، وكنا حريصين أن نعطيك واحدة منها ··

وقرأت الكتاب وأعجبت بالطريقة التى عالجا بها الموضوع ومنذ ذلك الحين ارتبطت بهما بصداقة دامت أمدا طويلا ، وأكد منها أنهما أيضا كانا من أصدقاء الشمسي باشا ، وكثيرا ما اجتمعنا كلنا ، ولا حديث لنا الا حالة الوطن وما يعانيه من تدهور ، وكان مدكور ومريت غالى قد ألفا كتابهما فى سنة ١٩٤٣ ولما عرضاه على الرقابة حينئذ رفضت أن تجيزه الا بعد شطب فقرات منه ، لم يقبلا شطبها ، وكان أن طبعاه على الرونيو من ١٤٠ نسخة كما قدمت ، وأهدياها الى بعض الوزراء والنواب والشيوخ ورجال السياسة والفكر وأحدث الكتاب فى هذا النطاق الضيق ضجة لما كان فيه من آراء تعد جريئة فى هذا الوقت ، تناولت النظام البرلمانى وسلطة الأمة وسلطة الملك ·

وتقاربت آراؤنا ··· الدكتور مدكور ومريت غالى وأنا ، وزاد الاتصال بيننا شيئا فشيئا ، ونما فى أذهاننا فى هذا الوقت ــ أوائل

سنة ١٩٤٤ ـ أن ننشىء جماعة تعنى ببحث مشكلات الوطن ودراستها دراسة موضوعية واصدار كتب أو نشرات فيها ، كمحاولة لتكوين رأى مستنير متجه الى الاصلاح بروح دارسة فاهمة ٠٠ وألفنا الجماعة فعلا وانضم الينـــا فى فترات متفـاوتة كثيرون ممن يؤيدون اتجاههـا منهم عبد الملك حمزة بك ومحمد رشدى بك والدكتور وديع فرج والدكتور يحيى العلايلى ومحمد سلطان بك والاستاذ محمد على الغتيب والاستاذ فتحى رضوان والدكتور نور الدين طراف ومصطفى مرعى بك والاستاذ عبد المجيـد نافع ، وهذا بطبيعة الحـــال عدا الدكتور ابراهيم بيومى مدكور ، ومريت غالى بك وأنا ٠٠ وأطلقنا عليها اسم (جماعة النهضة القومية) ٠

وكانت الجماعة تعقد اجتماعاتها فى مكتبى فى شارع شريف رقم ١٧ ، وأخذنا ندرس دون ملل برنامجا اصلاحيا تناول مختلف وجوه الحياة فى مصر ، تناول الاصلاح الزراعى والملكية الزراعية والمجهود الفردى والضرائب والنظام البرلمانى والتنمية الاقتصادية ٠٠٠ وكانت دراستنا موضوعية ومشربة بروح البحث والدرس ٠٠ كنا نأمل أن تقوم فى هذا الوطن بما قامت به جمعية (الفابيان) فى انجلترا فى أوائل هذا القرن ٠٠ ونظمنا سلسلة من المحـــاضرات وأصدرنا سلسلة من الكتب والنشرات منها الاصلاح الزراعى لمريت غالى ، والبنك المركزى للدكتور أحمد ابراهيم والوضع القـــانونى للمسألة المصرية السودانية للدكتور زهير جـــرانة ومصر والاتفاقات الاقليمية للدكتور وديع فرج ومحكمة المحاسبة الفرنسية للدكتور أحمـــد ابراهيم ومسألة فلسطين لجفرى بطرس غالى ومصر والنظام الدولى للدكتور وحيد رأفت ٠٠

وفكرنا فى الانتفاع بمجلة الفصـــول وأصـــدارها فى ثوب جديد يتفق الى حد ما وأغراض الجماعة ، وزرنا الدكتور حافظ عفيفى باشا: مريت غالى ومدكور وأنا فى مكتبه فى بنك مصر ، وأفضينا اليه بنيتنا فقال : انكم لن تستطيعوا أن تقولوا ماتريدون ٠٠ ستجدون متاعب كثيرة ، وستجدون أنكم لن تفعلوا الا أن ترددوا مايقال. كان الدكتور حافظ عفيفى متشائما ٠٠ وخرجنا من عنده ونحن فى شبه يأس من المشروع ، ولـكن الشمسى باشـــا شجعنا ، ووافق تشجيعه هوى فى نفوسنا .. واصدرنا الفصول فعلا فى أسلوب جديد فى يونيو سنة ١٩٤٤ ٠٠٠ وفى هذا العدد والاعداد التالية ، نشرنا مقالات وأبحاثا وآراء جديدة وجريئة فى بعض الأحيان كتبها بعض ذوى الفكر والرأى ٠٠ نشرنا

مقالات لمصطفى مرعى وأحمد عنان ومريت غالى ومدكور ومحمد رشدى وجفرى بطرس غالى ومحمد عبد الله المحامى ..

وأغرقنى هذا النشاط الجديد فى عمل أحببته وارتحت اليه وأضاف الى تجاربى الشيء الكثير. سمعت المناقشات واشتركت فيها وابديت رأيى فى مختلف الموضوعات المطروحة للبحث ونشطت فى الاشراف على الفصول وتهيئتها لكى تحمل الدعوة الجديدة ــ كلا ، لم تكن دعوة جديدة ، بقدر ماكانت تعبيرا عن فكرة أو أفكار تراود الراغبين فى اصلاح الوطن .. لقد كانت بوادر الكارثة تبــدو فى الأفق .. كان الشعب يوشك أن ينفصل انفصالا تاما عن حكامه وكان حكامه غارقين فيماهم فيه من مناورات ودسائس واتهامات ومنازعات.. وكانت وزارة سرى باشا فى اواخر سنة ١٩٤١ تضعف وتنوء تحت ثقل الحوادث، واضطربت الأمور اضطرابا عنيفا ونادى الناس يطلبون الغذاء والكساء ،وانطلقت الرغبات المكبوتة فلم يكتم الناس ضيقهم بالحرب والحلفاء ، وأعلنوا أمانيهم لو حاقت الهزيمة بهم ، وانزعجت دار السفير البريطانى ، وأعلنت أنها غير راضية ، بل انها مستاءة .. واستقال سرى باشا فى يوم ٢ فبراير سنة ١٩٤٢ .. كان واضحا أن الأمور بلغت غايتها ، وان فى الأفق عاصفة توشك أن تقتلع الأوتاد .. ولم تكن عاصفة تجمعت اليوم ، كانت ذات جذور تمتد الى يوم ألف محمد محمود باشا وزارته وأجرى انتخاباته وقهر الشعب على انتخاب أشخاص لا يثق بهم وأفسح المجال أمام القصر لكى يحكم دون رقابة من برلمان أو صحافة أو شعب .. وبدا أن الانجليز قد ضاقوا بأسلوب الحكم وعدوهم على الأبواب والشعب ينادى فى قلب القاهرة (الى الامام ياروميل) ... كشفوا عن نيتهم وأعلنوا القصر أنه لابد من اسناد الوزارة الى النحاس باشا ..

واستدعى الملك النحاس باشا وعــرض عليه تأليف وزارة قومية فرفض ، وقابل السفير البريطانى لورد كيلرن احمد محمد حسنين باشا رئيس الديوان وطلب اليه أن يبلغ الملك نصيحة الســـفير بأن يكلف النحاس باشــــا بتأليف الوزارة ، وفى يوم ٤ فبراير اجتمع فى قصر عابدين رؤساء الوزارات السابقون ورؤساء البرلمان وبعض ذوى المراكز لبحث الموقف .. وجلسنا فى هذا المساء فى الصحف والدوائر والمنتديات نرقب الموقف .. أحس الشعب فى كل مكان أن أحداثا خطيرة تقع فى هذا الوقت بالذات .. وكنت فى مكتبى وقد أوغل المساء ... وجاء من يقول لى : ألا تعرف النبأ ؟ ان الدبابات البريطانية تحيط بقصر عابدين

وان السفير البريطانى دخل على الملك وقال له : اما أن تتنازل عن العرش واما أن يكون النحاس باشا رئيسا للوزارة • وحبست الأنفاس •• كانت القاهرة حينئذ أشبه بالمدينة اليتيمة التى لا ولد لها ولا أب ولا أم ••• المدينة العريقة العظيمة أظلتها سحابة من الكآبة والخوف والقلق والسخط والبهجة وأشياء كثيرة أخرى •• اضطرب أمر الناس أكثر مما هو مضطرب ، وأخذت الأندية تتناقل النبأ العظيم ، وذهب البعض الى ميدان عابدين ينظرون من بعيد ، كانت الساعة قد بلغت التاسعة ليلا ، وأضواء القصر مغطاة باللون الازرق ، والشوارع داكنة ،والخوف يشمل الناس من الحرب والغارات ، ومن التطورات فى الداخل ••• كانت ليلة من الليـــالى التى لا تنسى ، اضطربت فيها أحاسيس الناس واختلفت مذاهبهم ، انهم يكرهون القصر ولكنهم يحبون وطنهم ••• انهم يكرهون أو كانوا يكرهون وزارة حســـين سرى وقد ذهبت بمصائبها ومتاعبها ، ذهبت بما سببته لهم من ضيق فى الرزق والطعام ••• ولكن هل ذهابها يعنى انفراج الأزمة ؟ هل ذهابها يعنى الطعام والأمن والضوء الأبيض الباهر ؟ •• كلا ، كانوا يعرفون أنها خيال وسط المأساة ، وأداة لا أكثر ولا أقل ••• كانت الدبابات التى تحيط بالقصر هى القوة الحقيقية وكان القصر نفسه الذى ظن الناس يوما من الايام أنه يحـــكم ، ليس الا لعبة ذليلة يمكن أن تتحطم تحت أقدام الدبابات الرابضة حوله•• وجاء من يقول : لقد قبل الملك الانذار البريطانى •• وجاء ثان يقول : ياله من جبان ، وثالث يقول : لابد من ثورة ، لقد انتهـــك الانجليز استقلالنا وأذلونا ، ويقول رابع : انهم أذلوا الملك الذى أذلنا ، انهم ردوا للشعب حقه فى أن يحكم نفسه بنفسه ••

وهكذا اضطربت بالناس المسالك ، وحينما تظلم الحوادث وتملأ الجو بالرعد والبرق يحار الناس فى الفهم والادراك والتعليل •• كانت عواطف الشعب مجالا لا عجب المتناقضات •• فرحوا لأن القصر ضعف واستكان ، وفرحوا لأن حـزب الأغلبية ســـيحكم ، وحزنوا لأنهم لم يستطيعوا بقوتهم أن يجبروا القصر على أن يصغى لارادتهم ••• وحزنوا أيضا لأن حزب الاغلبية قبل أن يجىء الى الحكم بأيدى الانجليز •• ولكنهم فلسفوا الموقف •• ان الشعوب عادة قادرة على أن تسخر من محنتها•• كيف يحزنون ويفرحون فى وقت واحد.. ان الضعيف يجد نفسه فى احيان كثيرة وكأنه حقل تجارب غنى لشتى الانفعالات... فرحوا لظنهم أن الأزمة قد انفرجت ، وان الرخاء سيجىء ، سيجدون لقمة العيش وهدمة تستر البدن •• شمتوا بالقصر ورجاله ، شمتوا بأحمد حسنين

باشا وقالوا انه هو الذى كشف الملك ، وهو الذى جعل الضربة تهوى على رأسه مباشرة ٠٠ ماهو عمل هذا الرجل اذن ؟ وكان اللوم كله موجها الى الزعماء والرؤساء والوزراء هؤلاء الذين بدوا كالأطفال وخضعوا حتى دون أن يشكوا أو يضجوا أو يئنوا وهم المسئولون ؟

ماذا جرى في الاجتماع فعلا ؟ جرى أن حسنين باشا قال للمجتمعين انه تلقى انذارا من السفير البريطانى مفاده أنه اذا لم يسمع قبل الساعة السادسة مساء أن النحاس باشا قد دعى لتأليف الوزارة ، فان الملك فاروق يجب أن يتحمل مايترتب على ذلك من نتائج ٠٠ وبحث المجتمعون الأمر وطلبوا من النحاس باشا تأليف وزارة قومية ولكنه رفض ، واحتج المجتمعون على الانذار وعدوه ماسا باستقلال مصر وماسا بالمعاهدة ٠

ولما علم السفير البريطانى بالاحتجاج قال بأنه سيحضر بنفسه لمقابلة الملك ٠ ٠وقبل حضوره اصطفت الدبابات البريطانية حول القصر ، وجاء السفير وصحبه جنرال ستون قائد القوات البريطانية فى مصر ، ومعه وثيقة بتنازل الملك عن العرش ٠٠ وقبل الملك الانذار وألف النحاس باشا الوزارة ٠٠

ولست أحب أن أدخل فى تحديد تفصيلى للمسئوليات عن حادث ٤ فبراير فليس هذا موضعه ، ولكننى أجمل رأيى فى أن المسئولين عن هذا الحادث هم :

١ ـ القصر بسياسته التى تجاهلت ارادة الأمة وآثرت أن تستولى على السلطة من غير سند من الدستور ٠

٢ ـ الوزارات المتتابعة التى قبلت منذ سنة ١٩٣٨ حتى سنة ١٩٤٢ أن تتولى الحكم بتفويض من القصر وليس من الأمة ٠

٣ ـ احمد محمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكى الذى لم يستطع أن يدرك خطورة الموقف وتركه يتفاقم حتى جعل سيده يواجه اللطمة مباشرة ٠

٤ ـ النحاس باشا ووزارته فمهما تكن أخطاء الأخرين ، فانها لا تبرر خطأهم وقد كانوا الممثلين للشعب وموضع ثقته ٠

أما احتجاج المجتمعين فى القصر على تدخل الانجليز ، فقد كان احتجاجا لا يعفيهم من المسئولية لأنهم ، فيما يبدو ، لم يكونوا ليحتجوا لو ألفت وزارة ائتلافية أو وزارة (قومية) مادام الأساس فى الحالتين هو الانذار البريطانى ؟

كان أمارة سيئة لكليهما

« العرفان الذى فى الدنيـــا كلها كان فى وجهى ولكننى لم أنطق بكلمة واحدة »

ذات يوم شديد الحر فى اوائل شهر يوليو سنة ١٩٤٣ ونحن فى « الاهرام » نؤدى عملنا كما نؤديه كل يوم ، وقد خفت حدة الحرب ، وانتهت الاغارات تقريبـا على القـاهرة ؛ وانتشر عليهـا ظل من الامان النسبى ٠٠ واضحت الحرب فى مراحلها الاخيرة بالنسبة لنا ، فقـد هزمت قوات المحور فى العلمين ، وانحدرت مرتدة الى طرابلس فى ليبيا ومنها الى تونس ، بينما اطبقت عليها قوات الحلفاء واسرت الالوف ٠٠ وبدأت قوات جديدة بقيادة جنرال ايزنهاور تنزل فى الساحل الايطالى فى جزيرة صقلية ٠٠ فى هذا الجو المطمئن وفى هذا اليوم الشـديد الحرارة من اوائل شهر يوليو ، جاء النبأ ان تقلا باشا مات ٠

وتولانى وجوم شديد ٠٠ لم يكن تقلا باشا بالنسبة لى مجـرد صاحب عمل ، لم يكن مجرد صحفى كبير ناجح ، ولا مجرد رجل واسع الثراء وافر النعمة والجاه ٠٠ كلا ، كان لى شيئا آخر ، كان انســانا رقيقا ، منحنى ذات يوم عونا كنت فى أشـد الحاجة اليه ، انه لم يعطنى مليما من جيبه ولكنه اعطانى ما هو اعظم من كل الثروات فى الدنيا ، اعطانى ثقته ومنحنى امضاءه وجبر خاطرى الكسير فى مرحلة شديدة الدقة من مراحل حياتى ، ضمننى فى مبلغ زهيد هو مائة جنيه ، وقد سددتها فى مواعيدها ٠

ومرت بخاطرى هذه الحادثة وانا اسمع نبأ موت الرجل ، ومرت حوادث اخرى تلتها ٠٠ ولم اشر اليها فى هذه المذكرات ، ولكنها سرعان

ماعادت الى خاطرى وانا اسمع النبأ الاليم ٠٠ لقد ضمننى تقلا باشا في السنة التالية للسلفة الاولى ، واعنى سنة ١٩٣٩ فى سلفة جديدة مقدارها ٣٠٠ جنيه ٠٠ اننى لا احب ان انسى شيئا ، ان هذه المذكرات بقدر ماهي حياتي ، فهي ايضا صور من حياة كل انسان ، قد تختلف عنها ، ولكنها تلتقى بها حتما ٠٠ فليس منا من لم يواجه رجلا جبر كسره ، او انسانا قدم له فى ازمة من أزماته عونا قد يبدو صغيراً ، ولكنه في نظره وفى هذا الوقت بالذات يعد عظيما ٠٠ عظيما جدا بل حاسما ٠

كان هذا شأنى مع تقلا باشا..لقد خرجت مع آخرين وقت ان تلقينا النبأ الى داره فى « جاردن سيتى » وطوال الطريق ، وأنا أقف عند باب داره ، وانا ادخل غرفها ، واعرف ان الرجل الطيب مسجى، لم تبرح خاطرى ذكرى ما حدث ٠٠ انالموت عجيب ، ان فيه قداسة كأنها تنقل الانسان من دنياه وتصله بالعالم الآخر ٠٠ فى يوم مثل هذا اليوم في اواخر سنة ١٩٣٩ ، كنت اشعر بأن الدنيا ضاقت بى ، وان ازمتى لا حل لها ٠٠ كانت هناك عشرة افدنة اخرى من اطياننا التى نزعت ملكيتها ، معروضة للبيع ، والمطلوب لها نحو ٨٠٠ جنيه ، ليس معى منها غير ٥٠٠ جنيه ، ولابد لى من ٣٠٠ جنيه اخرى ٠٠ من اين يمكننى الحصول عليها ٠٠ انها ليست ازمة ٠٠ هناك كثيرون لا يجدون حتى ثمن الطعام او ثمن الدواء .. ولكن ما أعجب الانسان .. كانت بالنسبة لى ازمة ، وازمة شديدة ٠٠ لم يكن فى خاطرى وانا ابدأ سلم حياتى ان اصبح ذات يوم صاحب اطيان ، ولا ان اشعر ذات يوم بازمة لاننى لا اجد تكملة ثمن هذه الاطيان..ولكن هناك اشياء عديدة تقودنا فى الحياة ٠٠ لم تكن هذه الاطيان بالنسبة لى مجرد مال اريد ان احوزه، ولكنها كانت بالنسبة لى كرامة اريد ان استردها لابى ٠٠ هل اقول ولنفسى ايضا ٠٠ كلا ، ان هذا التعبير غير دقيق تماما ٠٠ انه كان أبى أولا .. لقد كانت لنا ذات يوم أطيان كثيرة ، وكان الريف ، حينئذ ينظر الى ملكية الاطيان كأنها القيمة والفضيلة والاصل والخلق .. وقد استرددنا القليل وانه لشيء يسعدنى ان اكون انا الذى اصنع هذا الشيء العزيز الجميل لابى .. كانت صحته اخذت تنتعش وآماله اخذت تتسع ٠٠ تتسع خلال أبنه ومعها الامان والاستقرار اللذان اخذ يعيدهما اليه ٠

وجلسنا فترة فى الصالون الانيق في بيت تقلا باشا ، وطال الوقت

ولكنني كنت غارقا فى تأملاتى وافكارى وذكرياتى مع هذا الرجل الامين الرقيق ، الانسان الذى لم تغيره الثروة ولا الاسم ولا الجاه ولا النفوذ ٠٠ هاهو على مقربة منى لا حركة فيه ولا حياة ، هو الذى كان يدق الارض برجليه كأنه شاب فى الثلاثين ؛ الذى كانت تتفجر من نظرته وحركته حيوية تكفى عشرين رجلا ٠٠ هو الذى لم يكن يكف عن العمل ولا الضحك ولا الابتسام .. وتذكرته منذ شهور..نعم ، منذ شهور وانا واقف معه فى ردهة جريدة الاهرام الامامية وقد تقدم منه شاب للسلام عليه ، عرفت انه مسافر الى امريكا فى بعثة ٠٠ قال لتقلا باشا : نشوف وشك فى خير ٠٠ ضحك تقلا باشا وهو يمنح الشاب كل عطفه وحنانه وقال ٠٠ ولست ادرى لماذا قال : بس ان لقيتنى ٠٠ ولم اعلق اهمية على هذا الحادث حينما شهدته ، ولكنه ارتد الى الآن ، وانا جالس فى صالون البيت الانيق، ارتد وهو يلح على خاطرى الحاحا : هل كان الرجل يتوقع ان يموت ؟ هل كان في قلبه هاتف خفى بما سيحدث ؟ ربما ٠٠ كان تقلا باشا يعانى من القلب ٠٠ وما اشقه من داء لا قلب له ، فيه الغدر الذى قد يجىء فى اى وقت ٠

وتركنا الصالون ، تركنـا البيت ، ونظرت اليه وأنا منصرف بعين فيها أسى شديد..واصبح الصباح ، وشهدت الصلاة على جثمان الرجل فى كنيسة الروم الكاثوليك ، وبينما كنت انصت الى القسيس وهو يدعو ويصلى ، تابع الشريط السير فى خاطرى ، وتركت الجمع الحاشـد ، والجثمان المسجى ، والاضواء التى تملأ الكنيسة والشموع هنا وهناك، والصوت يأتى من بعيد فيه رنة الاسى ، رنة الموت ، رنة النهاية التى لا نهاية غيرها ٠٠ تركت هذا كله ، وتصورت تقلا باشا فى مكتبه سنه ١٩٣٩ وقد دخلت عليـه مترددا خجلا ٠٠ قلت له : يا باشا ٠٠٠ لقـد ضمنتنى فى السنة الماضية فى سلفة قدرها ١٠٠ جنيه واشعر اننى اثقل عليك فى هذه السنة اذ أجد نفسى مضطرا الى سلفة اخرى ٠٠ لاتنزعج ٠٠ انها ٣٠٠ جنيه ٠٠ ولن اغضب اذا رفضت ٠٠ انا اعرف اننى اثقل عليك ، ولكننى وجدت انه لابد ان افضى اليك بما اريد ٠٠ ثق اننى لن اغضب اذا رفضت ٠٠ سيظل عملك الطيب معى اولا كما هو لا ينقص بل يزيد ٠

نظر الى الرجل ، خلال نظارته السميكة فى ابتسامة مشوبة ببعض الغضب والضيق ، وانه لعجيب أن تكون الابتسـامة تعبـيرا أيضـا عن الغضب والضيق ٠٠ قال تقلا باشا : انت بقيت دبلوماسى يازكى ٠٠

قلت له : لادبلوماسى ولا حاجة ٠٠ انا افضى اليك بنفسى ٠٠ وكما قلت لك اولا ٠٠ اذا رفضت فلن اغضب ٠

سكت قليلا ثم قال بعد تدبر : طيب انت بقيت دلوقت راجل صاحب اطيان ٠٠ روح للبنك الايطالى اللى استلفت منه السنة اللى فاتت ٠٠ روح بنفسك واطلب منه السلفة ٠٠ حاول ٠

وانتبهت الى ان الصلاة على الجثمان اخذت تبلغ نهايتها ٠٠ كان لابد ان نخرج لنشيع الرجل الى مرقده الاخير ٠٠ وبلغنا مدافن الروم الكاثوليك فى مصر القديمة ، وطوال الطريق اخذ الشريط يسير معى ٠٠ ذهبت الى البنك الايطالى ، وافضيت الى الرجل ، الرجل نفسه الذى حرر لى الكمبيالات فى السنة الماضية ، بحاجتى ٠٠ قال : ماذا عندك ؟ قلت له ماعندى ٠٠ واشاح بوجهه ٠٠ شعرت بمرارة لم اشعر بها فى حياتى ، وادركت ماذا يعنى المال للانسان .. لقد كنت اظن انه يستطيع ان يسير فى الحياة قويا عزيزا ولو لم يكن معه مال ، ولكن كم كنت مخطئا ٠٠ انا لا اسعى لكى يكون معى مال ، انما اسعى لما هو فى نظرى اسمى من المال ، ان ارد على ابى بعض طمأنينة قلبه وسكون خاطره ٠٠ ارده الى ماكان ٠٠ وبدأت اترفع فى الكلام مع رجل البنك الذى اتحدث اليه ، اشعرته بأننى لست فى حاجة الى ماله ٠٠ واحس اننى بدأت اغضب والمال ورجاله جبناء ، فأخذ يتلطف ويقول : لابد من رهن مالديك من اطيان ، ونحن لسنا بنكا عقاريا ٠

وخرجت ، وانا اقسم بينى وبين نفسى أن ادع هذا الامر كله ٠٠ لالزوم لاطيان او غير اطيان ٠٠ متى توافر معى المال ، فعلت ما اريده ٠٠ واصررت على الا افاتح تقلا باشا فى هذا الموضوع مرة ثانية ٠ ولكن لم يمض سوى يوم او يومين ، حتى دق التليفون فى مكتبى وسألنى تقلا باشا : ماذا صنعت ؟

الرجل اذن لم ينس ٠٠٠ انا لم اذهب اليه ، وكان يستطيع ان يجد فى هذا عذرا حسنا ، وشعرت له باعزاز عجيب يقرب ان يكون اعزاز اب ، بل ما هو أعظم من اعزاز اب ٠٠ قلت له ضاحكا : مسيو ليو كاد يقول لى روح ياشاطر على بيتكم ٠

ضحك تقلا باشا من اعماقه ثم سكت لحظة وقال : طيب يازكى ١٠٠ جنيه معقول لكن ٣٠٠ ٠٠ والحرب بدأت والظروف سيئة ومين عارف حيحصل ايه ٠

قلت له : ياباشا انا اشكرك على كل حال ٠٠ لقد اعتدت ان اكون صريحا معك ، وهذه هى ظروفى افضيت بها اليك .

وانتبهت مرة اخرى ، وصندوق الجثمان يرفع ثم يدفع به فى عين مستطيلة ، ويقفل الباب ٠٠ كان الحر شديدا ، واحسست ، والباب يغلق ، بانفعالات لاحصر لها ٠٠ هذا الرجل الذى ملأ الدنيا حركة وعملا ونجاحا ٠٠٠ هذا الانسان الذى عاش الحياة بالطول والعرض ٠٠ لم يترك فيها شيئا دون ان يمارسه او يجربه ٠٠ هذا الذى كان يبدو كأنه عامل مع العمال ؛ وارستقراطى مع الارستقراطيين وبسيط مع البسطاء ؛ وذكى مع الاذكياء ، وغبى اذا احتاج الامر ان يكون مع الاغبياء ٠٠ هذه الحياة الواسعة العريضة تختفى هكذا فى لمحة ويحتويها ركن ضيق ، وصندوق ضيق ، وانفاس ضيقة ٠

وعدنا ٠٠ وعدت ٠٠ ان دموعى عصية امام الناس ، لم يحدث ان فرت دمعة واحدة من عينى امام انسان ، ولكنى لم اتمالك ان تفر دمعة من اجل الرجل الذى احسست معه كثيرا بقدر الانســـان ٠٠ وتابع الشريط مروره ٠٠ يئست من الحصول على المبلغ المطلوب ، وكدت ابلغ ابى ان يلغى الصفقة ويعدل عنها ٠٠ لقد احسست ان تقلا باشا محرج فى ضمانتى ، ولم اتضايق ولم اوجه اليه بينى وبين نفسى لوما ٠٠٠ كانت الحرب قد بدأت واعمال البنوك قد اضطربت ٠٠٠ صحيح ان الحرب كانت فى هذا الوقت محصورة على الحدود بين فرنسا والمانيا ، ولكنهـا لايمكن ان تظل هكذا ٠

وبعد يومين دعانى تقلا باشا الى مكتبه ، ومن غير ان يقول كلمة اعطانى ورقة صغيرة عليها اسم موظف معين فى البنك التجارى الايطالى وقال اذهب اليه ، وسيقضى لك كل حاجة ٠

العرفان الذى فى الدنيا كلها كان فى وجهى ولكننى لم انطق بكلمة، وما حاجتنا الى الكلام اذا كانت الملامح أكثر افاضة منه ٠٠ اخـذت الورقة وذهبت الى البنك التجارى الايطالى وانجزت كل شيء ، اخـــذت المبلغ بعد خصم الفوائد وحررت كمبيالات بالمبلغ ، ولست فى حاجة الى القول بأننى سددتها فى مواعيدها ٠

وعدت الى جريدة « الاهرام » ٠٠ « الاهرام » من غير « تقلا باشا» ٠٠ من غير صاحبه وروحه ، من غير دقات رجليه ، التى كانت تثير الهمة والنشاط وربما الخوف ، وتثير ايضا الطمأنينة والحب ٠٠ شعرت أن « الاهرام » يتيم ، وشعرت انا نفسى كأننى يتيم ٠

كانت وزارة النحاس فى الحكم ، كانت قد قضت فيه حتى هذا الوقت (يوليو سنة ١٩٤٣) نحو سنة ونصف السنة ، حفلت بالاحداث الخطيرة ٠٠ اجرت الانتخابات فى مارس سنة ١٩٤٢ ورفضت الاحزاب الاخرى دخولها بحجة الضغط ووجود الاحكام العرفية والرقابة على الصحف ، ولكن الوزارة لم تحفل بأمرهم ، واجرت انتخاباتها وإعادت تعيين اعضاء مجلس الشيوخ بدل الذين عينتهم وزارة سرى باشا ، وساد البلاد جو من الطمأنينة بعد هزيمة قوات المحور فى العلمين ، وامكن القول بأن خطر الحرب زال عن البلاد ٠٠ ولكن اثر حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ ظل يلاحق الحكم والوزارة والوفد ٠٠ استغله خصومه واخذوا يذيعون فى كل مكان ان النحاس باشا جاء على دبابات الانجليز ، ولكن الشعب لم يكن مستعدا تماما ان يسمع الكلام ، والحرب مستمرة والظلام كئيب ، فلما هدأت شدة الحرب وبدأ وهج النور من بعيد ، اخذ الناس يسمعون وهم لم يسمعوا لانهم يثقون بخصوم الوفد ، ولكن لأن وزارته تولاها ما يشبه الطغيان ٠٠ وانكمش القصر الى اقصى حد ، لم يصبح مصدر السلطان لاحد ، وانتعش الانجليز ، وانتعش السفير البريطانى ، فقد اصبح مصدر السلطان لكل أحد ٠٠ والشعب كان فى حيرة لا يعرف من هو صاحب السلطان ، لقد أعطى الوزارة اصواته ، وأعطى الوفد ثقته دون شك ؛ والثقة هى السبب فى بقاء هذه الوزارة فى الحكم ؛ انما كان فى خاطره شىء مبهم يدل على أنه كم مهمل ؛ ولكنه مع ذلك ظن – وهذا نوع من التبرير – أنه صاحب الحكم وصاحب السلطان ٠

كان واضحا أن بقاء وزارة النحاس باشا رهين بظروف الحرب ، فاذا انتهت أو خفت ، فمن المؤكد ان الانجليز سيتركونها لكى تقابل بطش القصر ، وماذا يستطيع الشعب أن يفعل حينئذ .. لا شىء ... فى شهر يوليو سنة ١٩٤٢ أصدر الوفد قرارا بفصل مكرم عبيد من عضويته . كان وزيرا للمالية عند تأليف الوزارة فى ٤ فبراير ١٩٤٢ ، ثم حدث بينه وبين النحاس باشا خلاف على الاستثناءات والترقيات ووقف مكرم فى وجهها وحفظها له النحاس باشا وطلب اليه ان يستقيل فرفض فقدم النحاس استقالة الوزارة كلها الى القصر وأعاد تأليفها من غير مكرم باشا ٠

هل كانت الاستثناءات هى السبب فى فصل مكرم ، كلا ٠٠ كانت السبب الظاهر ؛ أما السبب الحقيقى الأصيل فكان أعمق من هذا بكثير ٠ اعتاد مكرم باشا ان يكون الاثير عند النحاس باشا ، بل اعتاد ان يملى

ارادته ويتحدث باسمه ولسانه ٠٠ ولكنه أحس فى الشهور الاخيرة ، ان هناك سلطانا آخر يزحف لكى يحيط بالنحاس باشا ويزيحه شيئا فشيئا ٠٠ كان صراعا على السلطة فى داخل الوفد لا شأن له بسياسته ولا بمبادئه ولا باتجاهاته المعروفة فى حكم البلاد ٠٠ أحس مكرم باشا ان هناك نجما طالعا ، هو فؤاد سراج الدين الذى عين وزيرا للزراعة ٠٠ ولم يكن سراج الدين وفديا ولكنه استطاع فى وقت قصير ان يصبح وفديا وان يقترب شيئا فشيئا من مركز السلطان فى الوفد ، ولم يكن هذا الاقتراب هينا ٠٠ كانت براعة لا شك فيها من فؤاد باشا انه استطاع شيئا فشيئا ان يهز هذا السلطان ـ سلطان مكرم عبيد ـ ثم يتحداه فيما بعد ٠

وادرك مكرم باشا ان امره انتهى ، ان لم يكن اليوم فغدا ، ومن هنا تولاه ما يشبه اليأس ٠ واليأس يحمل على الكثير ، بدأ معركة الاستثناءات ظانا انه سيكسب المعركة وسيسترد نفوذه عند النحاس باشا ٠٠ كان يعتقد ان النحاس باشا لا يستطيع ان يستغنى عنه ، او لا يستطيع ان يعمل من غيره ، او لا يستطيع ان يعمل وهو ضده ٠٠ ولكن المحيطين بالنحاس باشا ثبتوا قدمه واوغروا صدره فبطش بمكرم باشا ، وذهب راغب حنا بك ضحية معه والى جواره ٠

ان افول نجم مكرم باشا من الوفد كانت امارة سيئة لكليهما ، للوفد ولمكرم باشا نفسه ٠٠ كان مكرم باشا خطيب الوفد وداعيته ، كان رجل جماهير من الطراز الاول يعرف كيف ينفذ الى ضمائرها ويغذى عواطفها ، وينتزع منها التصفيق ، والتصفيق المدوى الذى يصم الآذان ٠٠ وقد فقد المسرح المملوء بالجماهير وظن انه يستطيع ان ينقل هذه الجماهير معه الى اى مسرح آخر ٠٠ اخطأ فى تفسير مركزه ، ظن ان قوته فى الوفد قوة ذاتية ٠٠ وانه يستطيع ان يعيش وحده ٠٠ ولعله ظن ماهو اكثر ٠٠ لعله ظن انه هو وحده قوة الوفد ، وان النحاس باشا مجرد رمز لا حياة له الا بالقوة التى يضفيها عليه مكرم باشا ٠٠ ونسى ان المسرح لم يكن له وحده ، وان الجماهير لم تكن له وحده ، وان مكانته لم تكن من قوته وحدها ، ولكنها كانت من قوته منسوبة الى الجو الذى نشأت فيه ، كان اشبه بالسمكة فى الماء ٠٠ تظن انها هى التى تعطى الماء الحياة ، وتنسى ان الماء هو الذى يعطيها الحياة ٠٠ فلما خرج مكرم باشا الى السطح ، رأى انه يجف ويضمر ، لم يستطع ان ينقل معه الماء ،حاول ان يعيش فى ماء آخر ، فى بحر آخر ، فوجد ان قوته تضعف ، والاستجابة بينه وبين الناس تنكمش ٠٠ انضم الى خصوم الوفد ، فلم يجد المجال الذى كان

يجده مع الوفد .. رأى بحرا اخر لم يستطع ان يتحرك فيه بالحرية القديمة ؟ .

أما خسارة الوفد فجاءت من ان مكرم كان قوة محركة فيه .. ولو خرج مكرم من الوفد وظل الوفد على مبادئه ووسائله القديمة لما كانت خسارته كبيرة ، ولكن خروج مكرم ــ كما قلنا ــ كان خروجا يحمل اكثر من معنى ، واكثر من مغزى .. كان بداية التحول فى سياسة الوفد واتجاهاته .. لقد هزه خروج النقراشى هزة ضخمة ، وهزه خروج ماهر هزة ضخمة ، تركت كل منهما فيه آثارها وجاء خروج مكرم فأضاف هزة ثالثة ، واحس الناس ــ وان لم يفصحوا ــ ان هذه امارات سيئة للوفد ، اغرت به القصر واغرت به الانجليز .

ومكرم باشا رجل متحرك شديد الاعتزاز بنفسه ، يقظ منح طاقة من الكفاح كبيرة ، وجهها لهدم الوفد ، اصدر الكتاب الاسود ، اصدره سرا ونشره سرا..ولكن نشره كان على نطاق واسع جعله اشبه بالعلنية من السرية ، روى فيه الصحيح وغير الصحيح ، ولكن حرارة مكرم ولغة مكرم وتعبير مكرم الساحر اضفت عليه قوة اكثر من القوة التى اضفته عليه الوقائع التى تضمنها .

وكان الكتاب موضع تحقيق واستجواب وسؤال فى مجلس النواب الوفدى ، وعرض النحاس باشا على النواب « فراء » زوجه التى ورد ذكرها فى الكتاب الاسود .. وكانت جلسة عاصفة ، أيد فيها النواب بحرارة حكومة النحاس باشا ، وقرروا أبطال انتخاب اثنين من النواب ، عرفا بتأييدهما لمكرم باشا ، هما الاستاذ جلال الدين الحمامصى والاستاذ احمد قاسم جودة لان انتخابهما تم وهما دون السن المقررة ... وهكذا اشتعلت معركة من أشد المعارك هولا فى تاريخ الوفد ، كانت فيها حرارة الخصومة الشخصية فى الظاهر ، ولكنها ايضا كانت دليلا على انقسام آخر فى كيان الوفد ... وهو ما يؤكد نظر الكثيرين الذين تنبأوا بان الوفد لن يستطيع ان يستمر بتكوينه القديم واغلبيته الشاملة الغامرة بعد توقيع معاهدة سنة ١٩٣٦ ، وكان اخطر مافى الامر ان الوفد اصبح قابلا للتحدى ، ولو كان التحدى من خصومه التقليديين ، لهان الامر ، ولكنه جاء من بعض اعضائه الذين اقترن اسمه بأسمائهم ، النقراشى وماهر ومكرم عبيد .. من الرعيل الاول الذى خاض اسوأ مراحل المعركة مع سعد زغلول الزعيم الاول .

كنت ارقب هذا كله ، واشعر بدلالته العميقة البعيدة المدى ، واتابع ابداء آرائي فى « نحو النور » وفى المقال الافتتاحى فى «الاهرام» ثم بعد ذلك فى مجلة الفصول جهد ماتسمح الظروف التى كانت تحيط بالوطن حينئذ ، ولم تكن ظروفا مواتية تسمح بابداء كل الآراء فى حرية كاملة او حرية تقترب من الكاملة .

اتصل بى الاستاذ يوسف الجندى قبيل تأليف وزارة الوفد فى سنة ١٩٤٢ ولم اكن اعرفه من قبل ، قال : احب ان احييك .. ان آراءك لاتتفق معنا فى كثير من الاحيان ، ومع ذلك اشعر انك صادق .

وكان الاستاذ يوسف الجندى حينئذ يمثل المعارضة الوفدية فى مجلس الشيوخ ، وقد وهب حجة دامغة ومنطقا سليما مع هـدوء فى الاعصاب وقدرة على المواجهة ، سرعان ما بلغت به فى الحياة البرلمانية مركزا مرموقا .

وكنت اعلق على الاحداث فى الاذاعة ، فلما وليت حكومة الوفد فى سنة ١٩٤٢ اشرت الى الحادث على عادتى فى تحليل موضوعى ، ليس فيه الاسراف الذى كان طابع الحياة السياسية حينئذ ، ولم اكن على صلة باحد من الوفديين ، ولا كان تقديمى لاحاديث الاذاعة مسـتندا الى حزب من الاحزاب او اتجاه معين من الاتجاهات .. كان اختيارا شخصيا محضا ، ولكننى فوجئت ببعض صحف الوفد تشـير الى تعليقـاتى فى الاذاعة وتغمزها غمزا واضح المغزى .. وكان ان الغيت هذه الاحاديث وتولاها بعض الوفديين .

ولم آسف لهذا ، ولكننى شعرت بشىء من الضيق للمعنى الذى يحمله هذا الالغاء ، فانه يجعلنى بصورة او اخرى كأننى شخص حزبى . ولم اكن كذلك فى يوم من الايام ، كنت شديد الاعتزاز باستقلال تفكيرى عن الاحزاب ، وقد التقيت بعد ذلك بالاستاذ محمودسليمان غنام،وكان وزيرا للتجارة والصناعة ، فى مكتبه بالوزارة ، فقال انه يتابع ما اكتب ويعجب به .. ولمح أننى اختلف فى بعض الحالات مع سـياسة الوفد وآرائه ، وفهمت منه انه يرجو لو لم يكن هذا الاختلاف .

وانتهزت الفرصة واوضحت له اننى اعبر عن رأيى الخاص ، وانه اذا حدث ان اختلفت مع رأى الوفد ، فان هذا شىء طبيعى بالنسبة لانسان يريد ان يكون مستقلا ، وافضيت اليه بما حدث من بعض الصـحف الوفدية ومن الغاء احاديثى فى الاذاعة .. فقال انه لايعـرف هذا .. واضاف : ان هذا يسوؤنى جدا ، فنحن نحترمك .

وشعرت بارتياح شديد لهذا الحديث ، ولكننى ادركت ايضا انك لاتستطيع ان تحتفظ باستقلالك فى الرأى الا بمجهود كبير ، وان الفكرة الغالبة انه اما ان تكون مع هذا الحزب او ذاك ٠

وذات مساء فى اواخر سنة ١٩٤٣ زارنى الاستاذ على الشـايب وبعد مقدمات طويلة قال ان على كمال حبيشة بك وكيل وزارة الداخلية يريد ان تزوره فى مكتبه ٠٠ قلت له : ولكننى لا اعرفه ٠٠ واذا كان يريد ان يتعرف بى فلماذا لايزورنى فى مكتبى ٠

قال على الشايب بوجهه السمح ونفسه الطيبة الساذجة : ياأخى انت حتدنك طول عمرك كده ٠ الناس دول عاوزين يعرفوك ٠٠ وبالعربى هم عاوزين تكون معاهم ٠٠ انت حتدنك بعيد عن الناس لحد امتى ٠

واخذ يدور فى حديث طويل يحرجه ان يصرح به ، يريد ولكن يحاذر ، وفهمت مايقصد ، قلت له : يا استاذ على ٠٠ تكلم بصراحة ٠٠ ان كمال حبيشة بك يريد ان يعطينى مالا لكى اكتب لوجهة نظر معينة ٠٠ سأقول لك رأيى بصراحة ٠٠ لست ادعى اننى انسان فوق الشبهات ، ولست اعرف ماذا كان موقفى يكون لو عرضت على مثل هذا العرض قبل ذلك بسبع سنوات مثلا وانا أكاد اكون بغير عمل ، ربما قبلته ٠٠ ولكننى انا الآن احصل فى الشهر على مايزيد على مائة جنيه من عملى ، وانا كما تعرف لا اشرب ولا العب القمار ولا اجرى وراء النساء ، ليست لى نزوات، فما احصل عليه يكفينى وزيادة ٠٠ الا ترى اننى اكون انسانا سخيفا لو قبلت ماتعرضه ٠٠ الا ترى اننى اكون انســانا جشعا لو قبلت ماتعرضه ٠٠ دعك من اننى احب استقلال رأيى ، فليست لى ثقة بنفوس الناس ، وأولها نفسى أمام الاغراء ، ولكن ما حاجتى الى مزيد من المال ٠٠ لقد حدثتك بصراحة ٠٠ وليس فى برنامجى ولا مما اطمح اليه ان اكون غنيا ٠٠ حسبى ان اكون فى غنى عن مد يدى الى احد ٠٠ ثم اننى استعد لاصدار الفصول بالاشتراك مع بعض اصدقائى وسيكون لى مرتب شهرى قدره ٥٠ جنيها ٠٠ قل لكمال حبيشة بك هذا الكلام ٠٠ ثم اننى عاتب عليك لانك قبلت أن تحمل هذه المهمة بالنسبة لى ٠

وانصرف الاستاذ على الشايب وتأملت الموقف بينى وبين نفسى ، وسررت وتضايقت ٠٠ سررت لان تأييدى يسعى اليه البعض ، وتضايقت لان هذا السعى نفسه يحمل معنى سيئا . فان قيمتى لا تعدو مبلغا من المال صغيرا او كبيرا ٠٠ ترى هل يبدو على اننى يمكن ان اشترى ؟ ٠ ترى هل فى سلوكى مايحمل على الظن انه فى الاستطاعة أن اشترى ٠٠

ترى هل هناك رابطة بين الحديث الذى جرى بيتى وبين الاستاذ غنام وبين هذه الرسالة التى حملها الاستاذ على الشايب ؟ واخذت اقارن التواريخ واستنتج معانى الحديث ولم اجد ان هناك رابطة على الاطلاق٠٠ وشعرت بضيق اكثر لاننى لم ارد ردا عنيفا على الاستاذ على الشايب ٠٠ وتركت هذا الجانب الشخصى ، واخذت انعم النظر فى دلالته العامة ٠٠ ان الوفد أصبح يشعر الان بحاجته الى اقلام تدافع عنه ٠ الوفد الذى كان الكل يؤيده دون اغراء أو سعى ٠٠ وبدا لى ان هذه امارة سـيئة جدا ٠

« ما أعظم ما كنت أسبح فى خيال خصب جميل ! »

مساء يوم ٨ أكتوبر سنة ١٩٤٤ ، وكنت فى مكتبى الخاص ، لم يحن بعد موعد ذهابى الى عملى فى جريدة « الأهرام » دق التليفون وسألنى المتحدث وكان الاستاذ كامل الشرقاوى من كبار الموظفين فى وزارة المالية حينئذ عن الأخبار .. أجبته أية أخبار ؟ .. قال : يا اخى الدنيا مقلوبة .. الملك أقال النحاس باشا وماهر باشا ذهب الآن الى مجلس الوزراء وكسر الباب ودخل ..

وأسرعت بالذهاب الى « الاهرام » وعرفت التفاصيل ·· لم تكن اقالة النحاس باشا غريبة فى نظرى ، بل كانت أمرا متوقعا ·· ان وزارته كانت وزارة حرب وقد هدأت حدة الحرب ، فكان لابد ان تذهب ، كان القصر يكرهها ويضيق بها ، وحاول فى أبريل من السنة نفسها ، أعنى منذ خمسة أشهر أن يتخلص منها ، ويعهد بالرياسة الى أحمد حسنين باشا رئيس الديوان ، ولكن الانجليز اعترضوا ، ونصحوا بعدم تغيير الوضع القائم ·· النية اذن موجودة ، وهى لم تكن موجودة من أبريل ، بل موجودة من اليوم الاول الذى تولت فيه الوزارة الحكم ، أعنى منذ ٤ فبراير ١٩٤٢ ، لم ينس القصر الاذلال الذى تحمله ولم ينس ان النحاس باشا لم يقبل رجاءه فى أن يؤلف وزارة قومية ، بل أصر على أن تكون وفدية ·· ولم ينس له انه كان ، بصورة أو أخرى ، عاملا من العوامل الرئيسية التى حملت لورد كيلرن السفير البريطانى على أن يوجه انذاره للملك بالتخلى عن العرش ·· كان لابد أن تأتى الفرصة للانتقام ، وقد جاءت ·· وافق الانجليز على التغيير ·

وكان اختيار الدكتور أحمد ماهر باشا لكى يتولى الامر بعد النحاس باشا مفهوم المغزى أيضا ·· لقد ثار فى وجه النحاس باشا فى قصر

عابدين أثناء اجتماع الزعماء في يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ واتهمه بأنه متآمر مع الانجليز وقال له انك تقبل أن تأتى الى الحكم على أسنة الرماح الانجليزية ٠٠ ثم انه كان رئيس الهيئة السعدية ، وهى شطر منشق على الوفد ، ينتحل الزعامة الشعبية ، وينتحل أيضا وراثة سعد زغلول ٠٠ كان واضحا أن القصر يريد اذلال الوفد ، واذلال النحاس باشا بالذات .. وكان الأمر مدبرا بصورة انتقامية أيضا ، ففى الوقت الذى حمل فيه حسن يوسف باشا أمر الاقالة الى النحاس باشا ـ وكان يقيم فى فندق سيسل بالاسكندرية ـ كان أحمد ماهر باشا قد تلقى الأمر بتأليف الوزارة الجديدة ، فذهب الى مجلس الوزراء ، ورفض الحراس أن يفتحوا له الباب ، فاقتحمه ودعا مجلس الوزراء الى الانعقاد .. كان الوزراء أيضا قد تم اختيارهم وصدر المرسوم بتعيينهم .. وكانوا خليطا من السعديين والدستوريين ومعهم حافظ رمضان باشا رئيس الحزب الوطنى ، أعنى كانوا من أحزاب المعارضة جميعا ..

بدا واضحا أن القصر يريد أن ينتقم ، وبدا واضحا أيضا ان ماهر باشا جاء وهو موتور من النحاس باشا ومعه السعديون والدستوريون ، وكلاهما لا يقل سخطا على النحاس باشا منه ٠٠

استقبلت هذه الحوادث باهتمام شديد ، لأنها كانت فى نظرى تدل على أن المعركة بين الوفد والقصر لم تنته ، وانها تهــدأ كلمـا ساعدت الظروف على أن تهدأ،ولم تكن هذه الظروف الا تدخل السلطة البريطانية، فاذا كفت يدها ، فالقصر يريد أن يكون الأمر له ٠٠ وأحسست أن تجربة سنة ١٩٣٨ تتكرر من جديد ٠٠ أحزاب المعارضة تتولى الحكم لكى تبطش بالوفديين باسمها واسم القصر ٠٠ وكما حدث فى المرة السابقة ، ورد فى جواب الاقالة ما يشعر بأن وزارة النحاس لم تكن تتبع الدستور أو تطبق أحكامه نصا وروحا أو تسوى بين المصريين فى الحقوق والواجبات ، وانها فشلت فى توفير الغذاء والكساء لطبقات الشعب ٠٠ وهذا يعنى ان الوزارة الجديدة ستتبع أحكام الدستور وتطبقها نصا وروحا ، واستعدت البـــلاد فعلا لتجربة جديدة وانتخابات جديدة ٠ كان لابد من حل مجلس النواب وقد حلته الحكومة ، وكان لابد من اجراء انتخابات وقد أجرتها فعلا فى ٨ يناير سنة ١٩٤٥ ٠٠ وكان لا بد ، طبقا لأحكام الدستور من اطـلاق الحرية للناخبين فى اختيار مرشحيهم ، ولكن هذه الحرية لم تكفل ، بل على النقيض من ذلك ، تدخلت الحكومة بكل أدواتها لكى ينجح مرشحوها من الحزبين اللذين تستند اليهما ، أو قل من الأحزاب الثلاثة ، السعديين والدستوريين والوطنيين .. وجوهر الدستور هو حرية الناخبين،والغاء

هذه الحرية هو الغاء للدستور ، ومع ذلك فان جواب الاقالة نوه بأحكام الدستور ونصوصه وروحه ، وخطابات رئيس الوزارة أشارت الى حرية الناخبين بالكلام فقط ٠

ووقع شيء في داخل جماعة النهضة القومية التي كانت في هذا الوقت (أكتوبر سنة ١٩٤٤) تتابع اجتماعاتها ، ويشهدها أعضاؤها بانتظام وتحمس ٠٠ فما أن أعلنت اقالة النحاس باشا ، وأعلن تأليف الوزارة الجديدة ، حتى أخذ بعض الأعضاء يتأخرون ويعتذرون ثم يتخلفون ، وقال بعضهم : لماذا لا تكون الجماعة حزبا ؟ ان وضعها على هذه الصورة يجعلها قليلة الأثر وغير مسموعة الصوت ٠٠ وكنا قبل ذلك بشهور ، بل ربما بأسابيع ، قد بحثنا هذه النقطة وقررنا باجماع الآراء أن تظل الجماعة في نطاقها الدراسي البحت واصدار نشراتها وكتبها ، دون نظر الى الحكم أو تطلع اليه ٠٠ بل قال بعض من انقلبوا فيما بعد وتحمسوا لتحويل الجماعة الى حزب : يجب أن نقسم بألا نتطلع الى مناصب وزارية ٠٠ يجب أن يكون عضو الجماعة كالراهب في المحراب ٠٠ يدرس ويبحث ويخطط ٠

نظرت اليهم آسفا وهم يتحمسون لفكرة الحزب بعد أن تحمسوا لفكرة المحراب ٠٠ وقلت بيني وبين نفسي دون أن أبين ٠٠ ما أسرع ما تذهب المبادىء والأفكار وما أسرع ما تطفو المصالح ، بل مجرد انتظار المصالح ٠٠ ولو ظلت حكومة النحاس باشا في الحكم لظلوا في انتظار في المحراب وكانوا رهبانا ، ولكن ذهاب وزارة النحاس ، ومجيء وزارة تجمع الأحزاب ، وينفسح فيها المجال لاحتمالات في منصب وزاري أو قضائي أو دبلوماسي ، أطلق العنان لآراء جديدة : لماذا نظل هكذا لا يحس بنا أحد ؟ . لماذا لا نخرج الى النضال وندعو دعوة حزبية صريحة ؟

لم يكن هذا منهجنا ، أو على الأقل لم يكن هذا منهج الأوائل الذين فكروا في انشاء الجماعة وحملوا أعباءها ٠٠ مهما يكن من أمر فقد ظل أصدقاؤنا الذين تخلفوا أصدقاءنا ، وظلت جماعتنا على وضعها لم تتغير ٠٠ ولم يحظ الاصدقاء المتخلفون بما كانوا يرجون من خير وزاري أو غير وزاري ، وان كان قد أصابهم فيما بعد بسنوات عديدة ٠

وفي هذا الوقت أو بعده بقليل قال لي مريت غالي بك ان اميل زيدان بك يريد أن يراك ٠٠ سألته : لماذا ؟ قال : لا أستطيع أن أقول تماما ٠٠ ولكنني استطعت أن أفهم أنه يريد أن يعرض عليك شيئا ، ربما كان رياسة تحرير مجلة الاثنين ٠٠ على كل حال اتصل به بالتليفون فقد رجا مني ذلك -

واتصلت باميل زيدان بك والتقيت به في مكتبه في دار الهلال ٠٠ وهو رجل باسم رقيق الوجه مهذب اللفظ. قال بعد مقدمة قصيرة ان مرتب مائة جنيه أصبح في الصحافة شيئا عاديا ٠٠ ثم تطرق الى الموضوع وعرفت بصورة واضحة أو تقرب من الواضحة ، فالاستاذ اميل زيدان قلما يحب أن يعبر عن نفسه بوضوح كاف ، انه تولى رياسة التحرير فى مجلة الاثنين ٠ وقال اميل بك فى معرض الكلام عن « الفصول » : لا بأس من أن ندمج الفصول والهلال فى مجلة واحدة تسمى « الهلال والفصول » مثلا ٠

ويظهر انه كان يظن أن اشتراكي في تحرير « الاهرام » يتم بصورة لا تحول بيني وبين تولى ما يعرضه على من عمل ، فأوضحت له الواقع ٠ وانتهت المقابلة فى غموض ، فلا أنا قبلت ما عرضه على ، ولا هو عرض فى وضوح ما يريد أن يسنده الى من عمل ، وأدركت معنى قول مريت بك ، وهو دقيق جدا فى كلامه ، انه استطاع أن يفهم بصعوبة من اميل زيدان بك أن المعروض هو شيء مثل رياسة تحرير الاثنين ٠

وافضيت الى مريت بك والدكتور مدكور بما دار من حديث بيني وبين اميل زيدان بك خاصا بالفصول ، واتفق رأينا على ان نحتفظ باستقلال الفصول ، أما فيما يتعلق بمجلة « الاثنين » ، فلم أجد فى نفسى ميلا الى القبول لأنني كنت مشغولا بعمل كثير ، ثم انني لم أمارس الاشراف من قبل على مجلات اسبوعية ٠

وكان الجو بعد اقالة وزارة النحاس باشا فى ٨ أكتوبر سنة ١٩٤٤ جوا مثيرا مشحونا ٠٠ كانت الحرب قد خفت حدتها كثيرا ، والتفت الناس عنها ، وأخذ اهتمامهم يزداد شيئا فشيئا بالصراع الداخلي ٠٠ أخذ الوفديون يغشون المجالس يحملون على وزارة الدكتور ماهر ، ويسلقون القصر بالسنة حداد ، كانت وزارة النحاس باشا قد أتمت التوقيع على بروتوكول الاسكندرية بانشاء الجامعة العربية فى ٧ أكتوبر وصدر الأمر باقالتها فى ٨ أكتوبر ، أى بعد يوم واحد وارادوا أن يربطوا هذا بذاك ، وينتهوا الى أن الانجليز هم الذين أمروا بالاقالة وأن القصر لم يكن الا أداة ٠٠ وأرادوا أيضا أن يقر فى أذهان الناس ان ماهر باشا قد جاء الى الحكم لكى يعلن دخول مصر الحرب فى جانب الحلفاء ٠٠ وكانت الاحكام العرفية معلنة ، والرقابة مفروضة على الصحف ، فلم يكن أمامهم الا أن يبثوا ما يريدون فى أذهان الشعب عن طريق المجالس والمنتديات .

ماذا كان مدى تأييد الشعب للوفد غداة اقيلت حكومته ؟

كان الصراع من أجل الاستقلال قد انتهى أو على الأقل بدا أنه انتهى

بابرام معاهدة سنة ١٩٣٦ ، وهى المعاهدة التى وقعها الوفد مع الأحزاب التى وقعتها ، ثم طبقها فعلا بقبوله الحكم فى سنة ١٩٤٢ ، ووقوفه فى صف الحلفاء وتقديمه المساعدات لهم ، وبقى الدستور ، وقد وجد الشعب أن حكومة الوفد لم تكن تسمح فى كثير من الأحيان لخصومها بأن ينقدوها، بل لقد استخدمت الأحكام العرفية لحماية نفسها وحماية اخطائها ، اعتقلت مكرم عبيد وعلى ماهر وكثيرين غيرهما من خصومها وممن لم ترض عنهم ، وأحس الناس فى عهدها أن حرية الرأى ، التى كانت دائما طابع الحكم الدستورى فى عهد الحكومات الوفدية ، قد اسىء اليها كثيرا ٠٠ وفيما يتعلق بشئون الحكم ، رأوا أن استثناءات عديدة تم اقرارها ، ورأوا ان شئون الحكم الأخرى قد لعبت فيها الأهواء ، ولم تكن خالصة للمصلحة العامة ، فانصرف الكثيرون عنها فى أواخر حكمها ٠٠ وقد انصرفوا فى بطء شديد لأنهم ضنوا بالوفد أن يقع فى هذه الأخطاء ، ٠٠ لا شك اذن فى أن الكثيرين قد ضاقوا بحكم الوفد فى أواخره ، ولـكن هل انتقل تأييدهم الذى انتزعوه من حكومة الوفد الى خصومها ؟ كلا ، انه لم ينتقل ٠٠ ظل حائرا فى الجو لم يستقر لأحد ٠٠ أو ظل حائرا فى أذهان الناس، يتمنون أن يجدوا سببا لكى يعيدوه الى الوفد اذا استطاعوا ٠٠ وسواء أكان هذا أو ذاك ، الا أن المؤكد أنه لم ينتقل الى خصوم الوفد ٠٠ وهذه أخطر مرحلة مرت بها الحياة السياسية المصرية ، فحين يصبح الناس حائرين ، لا يعرفون الى من يتجهون بطاقة التأييد الموجودة فى نفوسهم ، يبدأ الانفصال بينهم وبين حكامهم ، وبينهم وبين المشتغلين بالشئون العامة منهم ٠٠ ولكن هذا لا يعنى أن تأييد الشعب ذهب تماما عن الوفد ، كلا ، بقى ملايين الأنصار له ، بقى هذا الصنف الذى كان ينظر الى سعد زغلول كأنه نبى صاحب معجزات ، والى الوفد كأنه خليفة النبى ٠

وكان تقديرى ان الوفد فقد تأييد ما لايقل عن ٦٠٪ من الشعب فى أواخر حكمه ، ولكن اقالة القصر له ردت اليه عددا لا يستهان به ممن انصرفوا عنه ٠٠ مجرد الاقالة ، لأنها كانت فى نظر الشعب شيئا لا يمكن أن يحدث الا بسبب الانجليز ، وهم خصوم الوطن ، أو بسبب القصر ، وهو ضد سلطة الشعب ، يريد أن يدير الحكم لمصلحته ٠٠ على ان الحالة النفسية التى تولت الشعب ، وتردده واضطرابه وانبهام الأمور عليه وخيبة الأمل التى أصابته فى حكم الوفد مقترنة بتأييده العميق القديم له، وضيقه بالأخطاء التى وقعت وقلة الأقوات وابتهاجه بانتهاء الحرب أو قرب انتهائها ، هذه المشاعر المتناقضة الغامضة ، التى لايظهر منها شىء واضح يمنى به الشعب ، أو مسلك واضح يرجو أن تسير فيه الأمور ٠٠ كل هذا

مهد لحكومة ماهر باشا ان تبدأ أولى أيامها فى جو لا يمكن أن يوصف بأنه الرضى الكامل من الشعب لتأليفها ، ولا بأنه الغضب الكامل ٠

وكان القصر فى هذا الوقت يعد فى نظر بعض الناس مجنيا عليه من الوفد الذى استعان أو قبل الاستعانة بدبابات الانجليز عليه ، ولكن هل عذر الناس القصر بعد ان قرأوا سلسلة المقالات التى نشرت حينئذ وتضمنت قصة الخلاف بين الوفد والقصر ؟ الجواب هنا صعب ، فان القراءة المتعة لقصة مثيرة شيء والاقتناع السياسى شيء آخر ، عندى ان الناس قرأوا ما قرأوا وكانوا على استعداد أن يقتنعوا به ، ولكن كيف كان لهم أن يقتنعوا به وقد حلت وزارة ماهر باشا مجلس النواب وقررت اجراء انتخابات فى ٨ يناير سنة ١٩٤٥ ، وبدأت وبدأ أعوانها ، وبدأ أنصار القصر وحواريوه وأشياعه والطامعون يدورون فى المقاهى والأندية والمجتمعات يعلنون عن سلطتهم وخطتهم فى القضاء على الوفد والوفديين ، ويتدخلون ، سواء باسم الحكومة ، أو باسم القصر ظاهرا أو مستترا ، لانجاح مرشحين معينين ؟ ٠ كيف كان لهم أن يقتنعوا وقد أخذت الوزارة تروج لفكرة اعلان مصر الحرب فى صف الانجليز ٠٠ صحيح ٠٠ ان هذا الدخول كان صوريا محضا وكان مفيدا لمصر من الناحية الدولية ، ولكنه بدا فى نظر الكثيرين كأنه محاباة للانجليز لا مبرر لها ، وكأنه خروج على السياسة التى اتبعتها الوزارات السابقة وهى تجنب البلاد ويلات الحرب ، وكان الدكتور أحمد ماهر باشا وهو رئيس الوزارة ، قد سبق له ولحزبه أن طالبوا فى سنة ١٩٤٠ وحينما توغلت قوات المحور فى الأراضى المصرية باعلان الحرب ضد المحور ، ثم استقال ممثلو حزبه فى وزارة حسن صبرى باشا لهذا السبب ٠٠ وظن بعض الناس أن وزارته جاءت الى الحكم لكى تنفذ ما سبق لها ان دافعت عنه ٠

كانت هناك أسباب عديدة اذن تحول بين الناس وبين أن يؤمنوا بالوزارة الجديدة والنظام الجديد ٠٠ وكانت محنة ليست بعدها محنة عاناها الشعب ٠٠ لقد اهتز ايمانه بالوفد اهتزازا كبيرا ، ولم يجد هذا الايمان المهتز مستقرا يطمئن عنده ٠٠ وليس أقسى على شعب من الشعوب من أن يرى ايمانه بقادته يهتز ولا يجد وسيلة يعالج بها هذا الايمان المهتز ٠٠ كان الوفد قد فقد فى أواخر حكمه نحو ٦٠٪ من تأييد الشعب ــ كما قلت ــ وكانت الوزارة الجديدة تستطيع أن تكسب جزءا من هذا التأييد لو أحسنت سياسة الحكم وراعت أحكام الدستور وأطلقت الحريات للناس ٠٠ ولكنها لم تفعل ٠٠ أطلقت سراح المعتقلين ، ولكنها من طريق آخر اساءت استخدام السلطات الممنوحة لها طبقا للأحكام العرفية ، وكان

ان استرد الوفد بعض التأييد الذى فقده ، ولكنه لم يسترده من نفس القوة والنوع ، استرده لأن أصحابه لم يجدوا من يمنحونه اياه غيره . وفرق بين التأييد الذى تعطيه لأنك لا تريد أن تعطيه لأحد الا لهذا القائد أو الزعيم ، وبين التأييد الذى تعطيه له لأن غيره أسوأ منه .. لا ريب انه يكون أضعف ، ومن نوع أقل جودة ، وأقل ثباتا على هزات الأيام .

وفكرت فى ترشيح نفسى فى الانتخابات القادمة ، كان هواى ان أصبح عضوا في مجلس النواب أذيع افكارى وآرائى واحتضنها واكفل لها ميدانا أوسع ، أو بتعبير أدق ، ميدانا ينقلها من مجال الصحافة ، حيث يكون الرأى مجرد دعوة ، الى منبر مجلس النواب ، حيث يرجى أن يصبح الرأى قابلا لكى يكون قانونا نافذا .. واستولت على هذه الرغبة استيلاء تاما .. لم أكن منتميا لأى حزب من الأحزاب ، فكان لابد أن أدخل المعركة مستقلا ، وكنت شديد الحرص على هذه الصفة وهذا الطابع .. اننى ان دخلت مجلس النواب ممثلا لحزب من الأحزاب فقد التزمت بآرائه وشعرت حتما أنه صاحب فضل في بلوغى هذا المقعد .. أما اذا دخلت بمجهودى الشخصى دون اعتماد على حزب أو هيئة أو انتصار لسلطة من السلطات ونجحت ، فاننى حينئذ أكون ملك نفسى ، وتكون آرائى ملكى ، وتكون قوتى ذاتية نابعة منى أنا نفسى ، ليست مستندة الى أحد . وقرر الوفد مقاطعة الانتخابات ، ومعنى هذا انها ستقتصر على السعديين والدستوريين والحزب الوطنى ، وكان واضحا من الأمارات الأولى انها ستكون انتخابات مقصودا بها اسقاط الوفديين اذا دخلوا ، فلما امتنعوا عن الدخول ، كان المفهوم أن تترك الانتخابات حرة ، وهذا ما شجعنى بعض الشىء على أن أخوضها مستقلا . ولم تكن ظروفى المالية سيئة ، ولكنها لم تكن مما يساعدنى على أن أتحمل نفقات المعركة الانتخابية .. وربما كان هذا تعبيرا غير دقيق .. كانت تسمح فى حدود معقولة ، والمفروض طبعا اننى لست من الأعيان ولا ممن يشترون الأصوات أو يسرفون فى المآدب والهدايا والمظاهر .. كنت معتمدا على الاسم الذى كونته ، وعلى الآراء التى ظللت أنشرها ، وكنت أشعر أنها تجد استجابة قوية فى الرأى العام طوال ست سنوات .. وكنت معتمدا أيضا على أننى من الريف ، ولى أهلى والأسر المصاهرة لنا ، ولى قريتى فى الدائرة ، ولنا الصلات التى تربطنا بالقرى الأخرى المجاورة .. وقدرت أن الأمر لن يكلفنى كثيرا ، ففيما عدا أجور الانتقالات ومصروفات الدعاية وتأمين الترشيح ، وكان ١٥٠ جنيها ، تسترد متى فاز المرشح بعشر الأصوات ، لم أكن أنوى أن أنفق شيئا .. قدرت أن مائتين أو ثلثمائة جنيه كافية ، وقدرت ما هو اسوأ ، قدرت أنها ستضيع هباء ، ولكننى سأكسب تجربة ، وسأشارك فى المعركة

الانتخابية عن قرب ، فيزداد فهمى لوطنى ، وازداد معرفة بكل الظروف التى يعيش فيها •• وعلى الجملة كانت هواية احكمت تبريرها بتفكير عقلى •

وقررت أن أقدم أوراق الترشيح فى مديرية الشرقية ، واخترت دائرة القنايات ، وهى الدائرة التى تقع فيها قريتى ، والدائرة التى مثلها فى مجلس النواب يوما من الأيام على الشمسى باشا ، ثم شقيقه عبد الحليم الشمسى بك •• وأفضيت برغبتى الى الشمسى باشا ، فأخذ يقدم لى بعض نصائحه الانتخابية التى كسبها بتجربته كمرشح وكمشرف على دوائر الانتخابات فى مديرية الشرقية باسم الوفد فى المراحل الأولى لقيام الدستور والبرلمان •• قال لى الشمسى باشا : لا تعتمد على الهتافات والتصفيق •• ان الناس فى القرى يقابلون كل مرشح بالتهليل والزعيق، ولكن هذا لا يعنى شيئا •• اجتهد أن تعتمد على الصلات الشخصية والاتفاقات والزيارات الخاصة •• وسكت الشمسى باشا ثم قال : ن تجربتى دلتنى على أن هذه أحسن وسيلة .. وتفضل فقال ان كفر الشمسى سيساعدك حتما ، ولك فى بهناباى أصوات كثيرة مضمونة ، ثم هناك قريتك فرسيس •

والتقيت بالاستاذ ابراهيم دسوقى أباظة باشا فقال : لقد عرفت أنك تنوى ترشيح نفسك •• لماذا لم تقل لنا هذا ؟ •• لقد فرغنا من تقسيم الدوائر •• قلت له : ولكننى سأرشح نفسى مستقلا •

كم كنت جاهلا حينئذ •• كان دسوقى باشا وزيرا للمواصلات وكان سكرتيرا لحزب الأحرار الدستوريين ، وكانت دوائر مديريه الشرقية فى اختصاصه ، وقد فرغ بالاتفاق مع السعديين والحزب الوطنى من تقسيم كل شىء •• كنت أظن أن الحكومة وقد امتنع الوفد عن دخول الانتخابات ستترك الحرية للناخبين •• ولكن ما أعظم ما كنت أسرح فى خيال عذب جميل ؟ •

نظر الى دسوقى أباظة باشا وفى عينيه اشفاق واستخفاف وخليط من المعانى لم أفهم تصويرها الا فيما بعد •• قال : بس انت صعبان على حتضيع فلوسك على الفاضى •

واستبدت بى الجهالة مرة أخرى ، الجهالة والاعتداد بالنفس وقلت للباشا فى شبه انفعال : تروح فى داهية ، حادخل الانتخابات يعنى حادخل الانتخابات •

بذلت مجهوداً كبيراً ولكنني لم أنجح

« وسافرت الى القاهرة وأنا لا أعرف النتيجة وان كنت قد عرفتها باحساسى »

كنت أحب دسوقى أباظة باشا ، واعتقد انه كان يحبنى ، أما المشادة أو مايشبه المشادة التىوقعت بينى وبينه فكانت ترجع الى سببين، أولهما اننى رشحت نفسى أو انتويت ترشيح نفسى قبل ان ارجع اليه واستشيره ، وهو ، هو سكرتير حزب الاحرار الدستوريين٠٠وربما كانت هذه الصفة لاتعنيه كثيرا ، ولكنه ايضا وقبل كل شىء المسئول عن الانتخابات فى مديرية الشرقية ٠٠ لقد زرت دسوقى اباظة باشا فى بلدته غزالة ، ورأيت كيف يحظى الرجل بحب واحترام كبيرين ، رأيت الصالون او البهو الذى يستقبل فيه ضيوفه واصدقاءه ومحاسبيه من اللائذين به ، ورأيت كم هو واسع .. وشاهدت زواره الكثيرين ومدى حفاوته بهم ٠٠ كان دسوقى أباظة باشا يمثل فى الريف دور « الباتر فاميلياس » الرومانى أب لمن هناك وراع وحام ومعتمد اذا ساءت الظروف أو وقعت الكوارث، لم يكن مركزه بين أهل الريف راجعا الى انتمائه الى أسرة كبيرةأو حصوله على مركزممتاز فى القاهرة أوملكيته لعدد كبير من الافدنة، بقدرما كان راجعا الىطيبة قلبه وحسن استقباله للناسواحتفاله بأمرهم وشعوره انه مسئول عن كل من يلوذ به أو يستجير ٠٠ كنت انظر اليه واشعر انه يمثل نوعا من السلطة القائمة على الحب أكثر ما هى قائمة على أى شىء آخر ٠٠ نعم كان اسم أسرته الضخم ، وما يملك من اطيان وما يستمتع به من نفوذ سياسى وغير سياسى ٠٠٠ كان كل اولئك يمهد له أسباب السلطان بين أهل الريف ، ولكنه كان يخفى هذا كله وراء الصورة حتى لا يكاد يظهر ٠٠٠ أما ما يظهر تماما فهو دسوقى أباظة الرجل الطيب

الرقيق الكريم العطوف الذى لا يدخر وسعا فى خدمة اهل قريته والقرى المجاورة ·· يعطيهم المال ان كانوا فى حاجة اليه ، ويعطيهم النفوذ از كانوا فى حاجة اليه ، ويعطيهم الكلمة الطيبة ان كانوا فى حاجة اليها .

وكان مع كل هذه الخلال الطيبة ، يشعر بشيء يرضيه لو رجع اليه الناس في أمورهم ·· ولعله كان يرجو ان ارجع اليه فى هذا الامر ، أمر الانتخابات ولمن أرجع ان لم أرجع اليه ؟ هو عاهل مديريه الشرقية وصاحب السطوة في كل ما يتعلق بالانتخابات، والحكومة بسلطانها معه أيضا· وقد كان ـ حتى والحكومة ضده فى عهود الوفديين ـ ينجح فى دائرته بردين على الرغم من كل وسائل الضغط التى تقع عليه أو توجه اليه ·· ثم انه كان يظن ـ وخاصة بالنسبة لى ـ وبحكم العلاقة الوثيقة التى قامت بيننا منذ كنت متصلا بحزب الاحرار الدستوريين وجريدة «السياسة» وبحكم اننا أبناء مديرية واحدة ، ان الجأ اليــه كي يدبر لى دائرة خاصة تقفل لى كما كانت تقفل لآخرين ··· وبصفة عامة كان يرجو ان ابحث الامر معه قبل ان أخطو فيه خطوة واحدة ، ولكننى لم أفعل ، هذا ماضايقه ، ولا شك عندى انه كان يكون سعيدا لو فاتحته فى الامر ، اذن لدبر لى دائرة أو ترك لى دائرة ·

أما السبب الثانى فكان ان دائرة القنايات تركت فى تقسيم الدوائر بين الاحزاب للاستاذ على منصور المحامى فى الزقازيق ـ وكان سعديا ـ ولكن دسوقى باشا قال لى فى عبـــارة صريحة ان الاستاذ على منصـــور ساعدنى فى انتخابات بردين ايام الوفديين ولابد ان ارد اليه الجميل ·· وسكت الباشا قليلا ثم استطرد : لابد ان ينجح ·· قلت له : لا اعترض على ترشيح احد فكل انسان حر ، ولكن الذى ارجوه هو الا تتدخل الحكومة ويترك الامر للناخبين ·· قال الباشا : هذا أمر متعذر تماما ·· وضحك ضحكة ذات مغزى .. وكرر كلامه الســـابق قائلا فى شـــبه انذار : ذنبك على جنبك .

حدث هذا كله قبل ان ادفع تأمين الترشيح ولكنه زادنى اصرارا على أن ادفعه ·· كان الامر بالنسبة لى تجربة وتحديا ·· شعرت بأن كل شيء يجرى على غير ما كنت ارجو ان يجرى عليه · وتولانى شعور عجيب من الاصرار ·· اسعدنى اننى سأتحدى الحكومة ، وانى سأخوض معركة أنا فيها وحدى ، لا ينصرنى القصر ولا تنصرنى الحكومة ، بل ولا ينصرنى احد من أصحاب النفوذ .. اعتمد على أن أخاطب الشعب .. ارجع اليه

استنصره ٠٠ قد ينصرنى وقد يخذلنى ، ولكننى سأجرب القوة النابعة من التصميم والاعتماد على الناخبين ، فى وجه القوة التابعه من السلطة الحاكمة ٠٠ كان الامر جميلا براقا أمام عينى ٠٠ كنت أقرأ عن معارك الانتخابات فى بريطانيا وفرنسا وأمريكا وتستهوينى هذه المعارك الرائعة البديعة ، ولاح لى أن أجربها فى وطنى ، فى قريتى فى دائرتى ٠

ودفعت التأمين فى الزقازيق فى مديريه الشرقيه ، واصبحت طرفا فى معركة انتخابية أعطتنى تجربه لا حد لها ولا حصر ، ورأيت فيها وجوها وصورا ، بعضها جميل باهر وبعضها كريه شائن ، ولكنها على الجملة امتعتني ، ولم أكن أعرف القرى التى تتألف منها الدائرة معرفة وثيقة ٠٠ كنت أعرف قريتى وقريتين أو ثلاثا وفيما عدا ذلك لم تكن لى صلة بغيرها من القرى ، ولكننى منذ تخرجت فى كلية الحقوق وأصبح لى صوت وقلم، رصدتهما لخدمة الفلاحين والدفاع عن حقوقهم ، كان الجزء الأكبر مما أكتبه فى الصحف وما أذيعه فى الراديو يتصل من قريب أو بعيد بالريف ٠٠٠ طالبت بتحديد الملكية ، ودعوت الى العناية بالريف ، والاقتصاد فى العناية بالمدن وتحويل جزء من الاهتمام اليه ٠ صورت حياة الفلاحين أصدق تصوير ٠٠ كنت منصفا فى هذا كله بحكم نشأتى فى الريف ، وما قر فى ذهنى من سوء حالته ٠٠ وبحكم اعتقادى الذى كونته بعد دراسة وافية كافية انه لاتقدم لهذا الوطن مالم ينصف الريف ، وان حياة مصر الحقيقية هى فى هذه الملايين المنبثة فى الحقول ، لاتكاد تجد اللقمة التى تتبلغ بها ، يخيم عليهم الفقر والخوف والذل ٠٠ وقفت فى صفهم كما لم يقف احد ممن كانوا يشتغلون بالمسائل العامة حينئذ .

وذهبت اليهم ٠٠ ما أقسى ما كانت التجربة ٠٠ قلت لهم فى خطبى التى القيتها اينما ذهبت : اننى اجيء اليكم من القاهرة ولكنى أنا ابنكم ، نشأت فى أرضكم ، فى الارض الطيبة الطاهرة التى انعمت على بالمعرفة والصحة والحياة ٠٠ أهلى منكم ٠٠ ابى واخوتى واجدادى وكل اسلافى هنا ٠ ٠لم انسها ٠٠ لايكاد يمر شهر دون ان أزورها وأراها وافهمها وأعيش كما تعيش ، اننى أعمل فى القاهرة ولكن اعمل من أجلكم ، ليس لى جاه انتمى اليه ، وليست الحكومة معى ، بل لعلها ضدى ٠٠٠ لست صاحب نفوذ وليس لى قريب صاحب نفوذ ٠

كان الناس يسمعون ويصفقون ، شعروا بالصدق فى قولى والايمان فى قلبى ٠٠ وفى « شيبة النكارية » رفعنى الناس على الاعناق ، الفلاحون

الطيبون ، وتحدوا العمدة ورجال الادارة ، وهتفوا من أجلى ، بينما كان العمدة خائفا يرتجف .. ارسلت الادارة تنذر النــاس وتنذر العمدة ، وتنذر المعلمين الالزاميين والموظفين .. وارسلت القوة ترهب الاهلين .. كانت شيبة النكارية اقوى قريه زرتها في الدائرة ، استطاعت ان تتحدى السلطة ، لماذا ؟ كانت نسبه المتعلمين فيها كبيرة جدا نسبيا .. انهــا قريبة من الزقازيق لايفصلها عنها أكثر من مسيرة ربع ساعة على الاقدام ، وكان الكثيرون من أهلها متعلمين ، يشـــتغلون بالتدريس او الوظائف الصغيرة والمتوسطة فى الزقازيق . .كان هذا سر قوتهــا ، وسر قدرتها أن تتحــدى ــ بصورة ما ــ قوة الادارة والبوليس ... وكنــت مؤمنــا من قبــل أن التعليم هو الســلاح الوحيــد الذى ينقذ أهــل الريف من تدخل الادارة . .كان ايمانى ان رفع المستوى الاقتصادى للفلاحين ونشر التعليم بينهم هما الوسيلة الوحيــدة لتخليص الانتخابات من كل تدخل وتزييف ، وقد رأيت هذا بصورة عملية فى شيبة النكارية ، لقد حصلت فيها على أكثرية اصوات اهلها ، دون ان تكون لنا معرفة سابقة بهم ودون أن يكون لنا فيها اقرباء أو اصهار أو محاسيب .. حصلت على الاصوات لانى زرتهم وخطبت فيهم وعرضت عليهم برنامجى .. وذات ليلة خطبت فى مضيفة تســع أكثر من ألف ، وبلغ بى التحــدى غايته ، وبينما كان الناس منفعلين بى تمــاما .. اكاد المح هذا فى وجوههم المصغية وعيونهم المؤمنة ، اذا بى أحسن حركة غير عادية ، ثم هرجا . ثم تسللا ودخولا .. ولم اتوقف .. ظللت اتحدث وكأنى لا أشعر بشىء . .ثم زاد الهــرج ، وبدا ان خصومى .. هل هذا صحيح .. كلا ، لم يكن لى خصوم ،وانما كانت الادارة تريد ان تفسد الاجتماع ، واغرى العمدة بعض الاهلين بأن يتجمعوا خارج المضيفة .. وزاد تحمس الموجودين فى داخلها ، وانتقلت المعركة من معركة انتخابية الى معركة تحد بين فريقين من أهل البلدة ، هؤلاء الاحرار الخارجون على سلطان الادارة والعمدة ، وهؤلاء الضعاف الذين لا يستطيعون ان يحرروا أنفسهم من سلطان الادارة والعمده .. وعلمت أن الموقف يتحرج ، وان من خارج المضيفة ليسوا متظاهرين عاديين .. كانت معهم العصى الغليظة وكانوا يتأهبون للاقدام على شىء .. وماجت القــاعة بمن فيها ، وخرج منها من تصــدى للواقفين فى خارجها .. وهرع المئات الى حيث كنت أقف وحملونى على اعناقهم ، وخرجوا من المضيفة ، بينما انتشر آخرون حول الموكب كمظلة واقية يدفعون الفريق الآخر عن الاعتداء الذى كانوا يدبرونه .. ورجوتهم أن يدعونى أخرج من القرية ، ولكنهم اصروا ان يجوبوا حواريها وشوارعها

وهم يهتفون متحدين الفريق الآخر .. وكانت ليلة لا تنسى .. كنت محمولا وانا ارى من حولى العصى تلوح ، الهواء وتتحـدى ، وعلى بعد قليل أو قريب جماعات قليلة متحفزة .. وانتهى الموكب فى سـلام وكان انتصارا حاسما .

وبلغت قريتى عند منتصف الليل وكان ابى واجف القلب مهموما الى ان وصلت ، فانفتحت اساريره وقال : يابنى .. تمنيت لو ارحت نفسك من هذا التعب ٠٠ الناس بطالين خالص٠٠ولم يكن ابى فى الواقع راضيا عن ترشيحى لالشىء الا لانه يعتقد ان الانتخابات مضـنية وان الناس كذابون منافقون ، لاتعرف ظاهرهم من باطنهم٠٠وهمس فى أذنى قائلا : وحاقدون ايضا ٠٠ انهم يكرهون اى خير يصيب الآخرين ٠

وأخذنا فى السـهرة نحسـب الاصوات التى يمكن ان انالهـا ، والاصوات التى سينالهـا الآخرون ٠٠ وكان بعض الحاضرين متفائلين ، ولكننى لم أكن كذلك ، عن طبيعة فى ــ كما سـبق ان قلت اكثر من مرة ــ وعن تفكير عقلى خالص وتقدير سليم للموقف ٠٠ صحيح ان شيبة النكارية اذا صحت المظاهر معنا ، وفرسيس ــ وهى قريتى ــ معنا ايضا وبهناباى ، وكفر السطوحية ٠٠ وكفر الحمام نص نص ٠٠ وميت زافر٠٠ اختلف الرأى فى شأنها ٠٠ قال الشيخ عبد النور الشوادفى : دى معانا مائة فى المائة ٠٠ قال آخرن نص نص ٠٠ والنخـاس والطيبة وام رماد الى آخر القائمة .. وهمس آخرون : مافيش فايدة .. الحـكومة حتنجح على منصـور . وكان هذا شـعورى ايضا ، وكانت لعلى منصور ميزة أخرى تضاف الى عوامل فوزه ، ولم يكن فى الواقع فى حاجة الى مزايا أخرى ،هى انه محام قديم فى الزقازيق وله صـلات متعددة مع اهل هذه القرى ، فضلا عن ان بلده « بنى شـبل » كانت تفتيشا من تفاتيش القصر ، ملحقا به النكارية ، وكلاهما يبلغ فى تعداده أربعة أمثال قريتى ٠٠ وكانت له صلات مصاهرة فى القنايات ، وهى أكبر بلدة فى الدائرة يزيد عدد الاصوات فيها على الألف..ثم ان على منصور مثلى من أهل الدائرة وهو أوثق اتصالا بها منى كما قلت ٠٠ كنت أقدر هذا كله، وأضيف اليه جهل الناس وخوفهم من الادارة وسهولة قيادهم أمام العمد ورجال الادارة ٠٠ كنت محتاجا كى أنجح الى شعب واع متعلم مستنير ٠٠ ولم أكن أجـد من هـذا النوع الا أقل القليـل ٠٠ وذاع فى الدائرة أن المتعلمين كلهم معى ٠٠ وكان هذا صحيحا ،وكانت لدى ميزة أخرى هى أن لوفد ، وقد قاطع الانتخابات ، لا بد أن يتجه الوفديون بأصواتهم لى ، فالاستاذ على منصور سعدى ٠

وزرت « قرية رزنة » وهى بلدة أحمد عرابى زعيم الثورة الأولى فى مصر ، واستقبلنى الناس هناك بحماسة وتصفيق وهتاف والمنظومة المعهودة ٠٠ الكرسى لمين ؟حتنتخبوا مين ؟ ٠٠ وهى المنظومة التى لاقيتها وسمعتها فى كل قرية زرتها تقريبا ، فما ان يحس الطبالون والزمارون وسماسرة الانتخاب أن المرشح هبط البلد ، حتى يلبسوا « هدوم الشغل » وهى ليست الاالطبلة والمزمار وجماعة من الصبية والاطفال ، خليط من أهل القرية المتعطلين ، يزفون المرشح ، حتى اننى فى أوقات متعددة كنت أشعر بالأسف والألم أن أديت بنفسى الى هذا الموقف ٠٠ كان الطبال يقف فى وسط الموكب ويقول شوبش وكمان شوبش ٠٠وتذكرت قول الشمسى باشا أن هذا كله لا قيمة له ٠٠ انه « مولد » مجرد « مولد » حتى اذا انتهى الموكب كان لا بد من صرف المكافأت ، للطبال والزمار والحلاق وخادم المسجد والمؤذن والاطفال والصبية الذين كانوا يمدون أيديهم ليأخذوا قروشا ، أية قروش ٠٠ أحسست أن الانتخابات اشبه بالمواسم، لها سماسرة ما أعجبهم ٠٠ واحد منهم يأخذك على جنب ويقول لك هامسا : البلد دى كلها فى ايد الشيخ أبو محمود ٠٠ اتفق معاه وحط فى بطنك بطيخة صيفى ونام ٠٠ ويقترب منك آخر محذرا : اياك من الشيخ عامر ، وهو الذى همس فى أذنك من قبل ، ويقول فى خبث ومكر ودهاء لازم قال لك البلد فى ايد الشيخ أبو محمود ، ماتصدقوش ٠٠ ابو محمود ده راجل بتاع غرزة وماهوش من البلد ، عليك بالحاج عبد الكريم ٠٠ راجل طيب ، حج بيت الله الحرام ٠٠ ويقترب منك ثالث ، وهو يهمس ايضا : ان كنت عايز اصوات البلد دى ، صلح الجامع ٠٠ دورة الميه خسرانه ووزارة الاوقاف بقى لها سنين وما عملتش حاجة.. ويجيئك رابع وخامس وسادس ، واعجبهم هو الذى قال لى ان أبو سنة محبوس على ذمة قضية٠٠ كلم وكيل النيابةيطلعه والبلد كلها تنتخبك٠٠ واسأل: وأبو سنة ده متهم فى ايه ؟ فيقول فى حادث قتل .. ويقترب شيخ جليل ويدس فى يدك ورقة ويقول باسما : الواد ابنى ساقط فى البكالوريا وعايز يدخل كلية البوليس :: البركة فيك ٠٠ وعاشر وحادى عشر وعشرون ومائة ٠٠ طلبات لا نهاية لها ٠

وقد اعتدت ان أكون صادقا ، فكنت أقول لمن يسألوننى شيئا ما اذا كنت أستطيع أولا أستطيع ، ولاحظ بعض أنصارى خطتى ، فكانوا يزمون شفاههم أسفا ، حتى اذا اختلوا بى قالوا فى أسف شديد : الشغل ده ما ينفعش ٠٠ لازم توعدالناس ٠٠ مافيش حاجة مايمكنكش٠٠ هو انت حتغرم حاجة .. جامع ... آه يتصلح..المفروض انك صاحب

وزير الاوقاف ، وصاحب وزير الداخلية .. آه تطلع مجرم قاتل ، المفروض ان المحاكم دى تحت أمرك .. الناس هنا مابتفهمش . خدهم على قد عقولهم .

ادركت للوهلة الأولى ان اخلاقى ليست انتخابية ٠٠ كنت أظن انه يكفي ان اقول للناس عن برنامجى ، ان اخطب فيهم ، ان اناقش واياهم شئون الوطن ، وافضى اليهم برأيى فى حل مشـكلاته ، وقد فعلت ذلك فى كل قرية زرتها وفى كل مجتمع انتخابى خطبت فيه ، وظننت انني أديت واجبى وادرت معركة انتخابية على الصورة المثالية التى أريدها ٠٠ كانت دواوير العمد بصورة عامة مغلقة فى وجهى ، وكان شيوخ القرى وخفراؤها ورجال الادارة فيها يتحاشون الاتصال بى ٠٠ كان المعلمون الالزاميون فى أول المعركة من اشد انصارى نشاطا ، وهم فى القرى وفى الريف عامة ، قوة لا يستهان بها ، وكانت الطبقة المتعلمة كلها معى ٠٠ كانوا يحسنون استقبالى ويحسنون الدعاية لى ٠٠ وجاء وقت أحسست فيه ان مركزى فى الدائرة قد توطد ، ولكننى لم اعتقد قط اننى مستطيع ان انجح ، لان كلام دسوقى اباظة باشا كان يرن فى أذنى دائما ٠٠ أترى الادارة عدلت عن التدخل ؟ اتراها راجعت الامر بينها وبين نفسها ورأت انه مادام الوفد لم يدخـــل ، فلنترك من ينجح ينجـح ما دام ليس من خصومها الوفديين ٠

وتقدمت الايام ، واقترب يوم الاقتراع ، ورأيت فى الدائرة حركة غير عـــادية .. أخذت الادارة تدخل المعركة دخولا ســـافرا احيانا وخفيا أحيانا أخرى ٠٠ أخذ عمال الطرق والكبارى وهم تابعون لوزارة المواصلات التى يشرف عليها دسوقى اباظة باشا يتلقون الاوامر بانتخاب الأستاذ على منصور ٠ واخذ العمد والمشايخ يتلقون الاوامر بهذا ايضا وكانت صريحة لا للعمد والمشايخ وحدهم ولكن لقراهم ايضا : يا عمدة برفدك لو نجح حد غير مرشح الحكومة ٠٠ واخـــذ المعلمون الالزاميون يتلقون الانذارات وينقل منهم من ينقل ، يقصى منهم من يقصى ، ويقرب منهم من يقرب ، اخذ ثقل الادارة يتضح شيئا فشيئا ؟ هذا الثقل الكريه القاتل للحرية الذى يوحى للناس بالذل والظلم والمسكنة ٠٠ وســمعت بهذا كله ، نقله لى انصارى واصدقائى وذهبت الى مديرية الشرقية وقابلت مديرها راغب بك دكرورى ، ما كان أعظم أمانة هذا الرجل وصدقه ؟ ٠ كان قاضيا وانتقل الى مناصب الادارة ، ولم يتخل عنه ضمير القاضى وقد أصبح مديرا ٠٠ أحسن استقبالى واستمع الى شكاواى ، وحاول جهده أن يزيل ما أشكو منه ٠٠ ولكننى أحسست انه فى مسألة الانتخــابات

لا سلطة له ٠٠ كنت قد عرفت أن ضابطا معينا ـ وسموه ـ هو المختص بالانتخابات ، لقد نقل خصيصا الى مديرية الشرقية لهذا الغرض ، وقال الناس أكثر من هذا ، قالوا انه قريب الدكتور أحمد ماهر رئيس الوزراء ٠٠ ولم يكن ذا رتبة عسكرية كبيرة ، كان وكيل الحكمدار أو شيئا من هذا ، والتقيت به ٠٠ وطلبت منه أن يقسم بشرفه العسكرى الا يتدخل فى الانتخابات لصالح أحد من المرشحين فى دائرة القنايات، فأخذ يروغ ويراوغ وأكد أنه لم يتدخل ٠٠ قلت له : أنا لا أحاسبك على الماضى، أنا واثق انك تدخلت ولكن عفا الله عما سلف ٠٠ باق على الانتخابات ثلاثة أيام أنا أرجوك أن تقسم لى بشرفك العسكرى الا تتدخل ولم يقسم ٠٠ قال ان مركزى فى الدائرة حسن جدا ، لا تخف شيئا ٠٠ قلت له : أنا لا أخاف شيئا ، لا أخاف غير تدخلك أنت ٠٠ كان هذا الحديث يجرى فى غرفة مدير الشرقية راغب‌بك دكرورى وعلى مسمع منه٠٠ كان الرجل فيما يبدو لى متألما مشفقا ، شاعرا أن ضميره كقاض يعذبه ، وهو يرى الادارة تتدخل ، ولا يستطيع ـ وهو المدير ـ أن يصنع شيئا ٠

وخرجت من هذه المقابلة وقد تأكد لدى أن تدخل الادارة سيستمر وسيستمر بصورة أثقل وأضخم وأعمق ، ولكننى لم اتضايق ٠٠ خير ما فى أننى أقدر دائما أسوأ النتائج ، وقد قدرت من اللحظة الاولى اننى لن أنجح٠٠ ما هو الجديد اذن ؟ كل ما فى الامر اننى كنت أود أن أخوض معركة نظيفة بأسلحة نظيفة لكى أعرف‌قدرتى ومدى صلاحيتى لهذا النوع من الكفاح ولكن الادارة حرمتنى هذه المتعة ٠٠ كان الاستاذ على منصور خصما قويا ، حتى ولو لم تكن الادارة تساعده ، وكنت أريد أن تكون المعركة بينى وبينه خالصة من أى تدخل غير مشروع ٠

وهناك مرشح ثالث هو الاستاذ مصطفى الحفناوى المحامى ولكنه لم يكن شديد الوطأة ٠٠ كانت صلاته فى الدائرة قليلة ، وفيما عدا قريته « بنايوس » لم يكن له أنصار كثيرون هنا أو هنا ٠٠ وفيما يتعلق بى لم تكن مشاغلى فى القاهرة تسمح لى بأن اتفرغ تفرغا تاما للمعركة ٠٠ كنت أزور الدائرة من وقت الى آخر ، بينما كان على منصور مقيما فى الزقازيق لا يبرحها، الدائرة على مقربة منه ، وأعيانها لا يكفون عن السفر الى الزقازيق ، وهو لا يكف عن الالتقاء بهم وزيارتهم من حين الى آخر ٠

آثرت الاسلحة النظيفة على الرغم من كل ما كان يحيط بى ٠ لم أعد وعودا لا أستطيع الوفاء بها ، ولم أعرض لمنافسى بطعن أو تجريح، ولم أسمح لاحد ممن ناصرونى أو خطبوا من أجلى أن يمسوا أحدا من

منافسينا ٠٠ كانت دعايتى كلهـا قائمة على أرائى وأفـكارى وما نشرته وأذعته وآمنت به ثم لا شىء آخر ، وكانت نفقات الانتقال باهظة ، كانت الجولة الانتخابية الواحدة تكلفنى ما لا يقل عن ٢٠ جنيها أو ثلاثين ، أجرة خمس سيارات أو ست٠٠ كانت أجرة السيارة خمسة جنيهات فى الجولة الواحدة ٠

وكثرت الهمسات فى أذنى وكثرت الخطط المعروضة على ٠٠ الاسرة الفلانية تناوىء العمدة ، انها من أنصارنا حتما ٠٠ القرية الفلانية لها ثأر مع القرية الفلانية وهى لذلك معنـا ٠٠ أسرة أبو زيد متضايقة من أسرة غيث لانهم لم يوظفوا لهم أحد أقربائهم أو لأن هنـاك خلافا على زواج أو طلاق ٠٠ رأيت كيف أن الانتخابات ليست انتخابات رأى بقـدر ما هى انتخـابات علاقات وظروف وملابسات ومصـاهرات ٠٠ ذهبنا الى بعض القرى فأقفلت بعض البيوت فى وجوهنا ، وذهبنا الى قرى أخرى وكنـا نظن أن أمرها مغلق علينا ، فاذا هى تفتح أبوابهـا لنا ٠٠ لم تكن هناك قاعدة مفهومة ٠٠ بدت لى الانتخابات بحرا عميق الاعماق ، كلما ازددت منه قربا ازداد أمام عينى غموضا وابهاما ٠

وأقبلت ليلة الانتخابات ، وهى الليلة العصيبة فى كل انتخابات، ليلة الايمانات بالطلاق وغير الطـلاق ، ليلة الاسـتعداد والتحفز وتغيير الاتجاهات والاصوات ، ليلة الضغط الحاسم من الادارة والسلطات ، ليلة التهديد والوعود والاغراء ، ليلة السهرات أحيانا بريئة وغير بريئة ٠٠ وكنت قد تعبت ، واشفق أبى اشفاقا شديدا وأدرك أن الجو السىء يزداد سوءا فقال لى : دعك من هذا الامر كله قلت : لن أدع المعركة دقيقة واحدة ٠٠ سأظل الى نهايتهـا ٠٠ اننى لن أنجح٠٠ أنا عارف هذا منـذ اللحظة الاولى ٠٠ لقد انذرنى دسوقى أباظه باشا ، وهو وزير المواصلات ومدير الانتخابات باسم الحكومة والاحزاب فى هذا القطاع من مديرية الشرقية، ولكننى لن أتخلى ٠٠ سأظل الى النهاية ٠

وجاء من يقول لنا وقد أوغل الليل ، بلغ نصفه وانحرف الى النصف الثانى ، ان الادارة اعتقلت مندوبينا فى اللجان الانتخابية فى بلاد الطيبة وأم رماد وغيرهما ، وان العمد تلقوا أوامر صريحة بانجاح مرشح الحكومة، وان الامر مطبوخ تماما ٠

وأصبح يوم الانتخاب ، ومررت جهد استطاعتى ببعض اللجان ٠٠ رأيت لجنة بنى شبل قد فرغت من العملية وكانت الساعة الحادية عشرة

صباحا ، وحوالى الظهر كنت فى لجنة هرية رزنة فوجدت العمدة جالسا على باب اللجنة ومعه بعض الجند يمنعون من يريدون منعه ويسمحون لمن يريدون بالدخول ، وشكوت الى رئيس اللجنة فقال ان سلطته لا تتعدى الغرفة التى يجلس فيها ، وفى كفر الحمام قامت معركة بين البوليس والناخبين ، وفى أم رماد ، رأيت رجال الادارة يضربون بعض الناخبين، ويردونهم عن صناديق الانتخاب ·· ومرت كل هذه المناظر والمآسى فى خاطرى ·· ضحكت وسخرت ، فلا بد فى المأساة أن نضحك ونسخر ·· ان الحياة حينما تنقلب هذا الانقلاب لا نستطيع الا أن نضحك ونسخر·· كانت تجربتى حتى اليوم تجربة الجالس على المكتب القارىء للكتب ، اتصل بطبقة من الشعب اتصالا وثيقا ، هى طبقة المثقفين والمفكرين وأصحاب الرأى ، واتصل بطبقة أخرى اتصالا وثيقا أيضا ، هى طبقة الفلاحين ، ولكننى لم أتصل بهم وهم يؤدون عملية التصويت .. كنت اسمع فيما مضى قصصا عن الانتخابات والتصويت ، ولكن الرواية والسماع شيء ، والتجربة شيء آخر ··

وانتهى اليوم وأقبل الليل والصور تتراءى،تروح وتجيء ، تقسو وتلين ، تدفع الى فمى الابتسام حينا، والى قلبى الاسى حينا آخر، وقضيت السهرة فى قريتى أضحك من التجربة كلها ·· كان أبى حزينا وان لم يبين ، متألما فى أعماقه وان حاول أن يستهين بالامر كما أنا مستهين به ·· كان يظن حتما أن ما يبدو على من استهانة ومرح ليس الا وسيلة لاخفاء الم عميق فى نفسى ، لكنه لو عرف الحقيقة لعرف اننى مستهين من قلبى أمرح من قلبى ، لقد أعطيت من الله احساسا يهون كل كارثة تقع، وأعطيت فلسفة عمقت فى نفسى عمقا شديدا وجعلتنى أكثر ما أكون قوة اذا وقع ما يحتاح الى القوة ، ولم يكن فشلى فى الانتخابات أمام نفسى شيئا سيئا الى هذه الدرجة ، بل لم يكن شيئا على الاطلاق ·

ولم تعرف النتيجة فى الليل ، وأصبح الصباح وكان على أن أعود الى القاهرة ، ويظهر أن أبى عرف النتيجة ولكنه اخفاها عنى ، وسافرت وأنا لا أعرفها بطريقة واضحة ، وان كنت قد عرفتها باحساسى ·· ولم أعتن بمعرفتها ، لقد سلمت أننى لم أنجح وانتهى الأمر ·

وفى القاهرة وأنا فى مكتبى فى جريدة الاهرام جاءتنى كشوف النتائج ورأيت اننىحصلت على ١٧٠٠ صوت وحصل الاستاذ على منصور على ٤٢٠٠ وحصل الاستاذ مصطفى الحفناوى على ١٠٧٠ صوتا ·

ودق جرس التليفون وكان المتحدث هو انطون باشا الجميل قال : كويس أوى يا زكى انت حصلت على أصـوات كثـيرة ·· وكانت تعزية رقيقـة ، ويظهر انه لم يكن يتصور أن أحصـل على هذا العدد الكبير من الاصوات ·

وقابلنى الدكتور عبد القـادر مراد وهو طبيب قـديم بالزقازيق وطبيب أسرتنا منـذ أمد طويل ·· قال علمت انك سرت فى الانتخابات سيرة حسنة جدا ، أنا واثق أن تجربتها ستوحى اليـك بكتاب جميل ، ولم أكتب هذا الكتاب حتى الآن ·

زارني بعض أهل الشرقية
وقالوا : نريد "نادياً" لنا !

« وكان ناديا للفكر والثقافة والرأى وبدا لى ان هذه المرحلة من حياتي تحف بها العواصف » .

ظلت صور الانتخابات التى عانيتها فى الريف تدور فى ذهنى بعد أن عدت الى القاهرة فى التاسع من شهر يناير سنة ١٩٤٥ ، وعمقت فى خاطرى عمقا شديدا ، جعلتنى أكثر ما أكون احساسا بحقيقة المتاعب التى يعانيها الفلاحون وبالنهج الصحيح الذى ينبغى أن تسير فيه مشروعات الاصلاح ، وقد كنت قبل هذه التجربة دائب الدعوة الى تعليم أبناء الريف، دائب الدعوة الى رفع مستواهم الاقتصادى حتى يحسوا بكرامتهم وانسانيتهم ، ولا يصبحوا كالسائمة تساق أمام الراعى .

ما أكثر ما أثرت فى بعض صور الاخلاص والوفاء وبعض صور الشجاعة التى تبدو ضعيفة هزيلة ولكنها رائعة عظيمة اذا قيست بالضغط الواقع ، الضغط الناتج من الفقر والجهل ، والضغط الناتج من تجبر الادارة ورجالها .

وما أكثر ما أثرت فى صور أخرى فيها سذاجة ولكن فيها جمال أخاذ .. سمعت عن بعضهم يسأله عضو اللجنة من تنتخب فيجيب : « الشيخ محمد » وهو يعنينى .. ان أعظم الالقاب عنده هو لقب «الشيخ» وهو يضفيه على راضيا فرحا .. وآخر يسأله رئيس اللجنة من ينتخب فيجيب « أبو عبد القادر » وهو يعنينى أيضا .. انه لا ينتخب ممثلا له فى مجلس النواب ، وقد لا يعرف ماهو هذا المجلس ولا ماهى اختصاصاته وخصائصه ولكنه ينتخب ابن الرجل المقيم معه فى قريته يعرفه ويعطف عليه ويحبه ، وهو عنده أقرب اليه من مجلس النواب ومن كل من فى

مجلس النواب ·· وثالث يسأله الرئيس من تنتخب فيجيب فى سذاجة حلوة : ودى عاوزة كلام ابن بلدنا ·· وهو يعنينى أيضا ·· ان الانتخابات فى نظره ليست الا الانتصار لابن بلده ايا كان ، سواء أكان صالحا أم غير صالح .. انها العصبية الريفية القديمة كانت لا تزال بكل صـولتها تسيطر على أذهان الناس .

ورابع يسأله الرئيس من تنتخب فيقول «ابن السنجرى» وهو يعنينى أيضا ·· انه هنا ينتخب الاسرة ·· انهـا العصبية الاسرية القبلية ·· أنصار لأسرتنا وخصوم ·· انه يثـير فى ذهنى صـورة قديمة من صور الريف ، حينما كانت القرية تنقسم انقسـاما آليا الى أنصار وخصوم لاسرتين متنافستين .

وخامس يجيب : الاستاذ الكبير ، وسادس يقول سعادة البيه وسابع يقول البيه بتاعنا ·· كل اجابة من هذه الاجابات لها مغزاها وله دلالتها ولها تفسيرها ·· الاول متعلم عارف لمن يعطى صـوته والثانى ينتخب سـعادة البيه الذى يراه يرتدى البدلة ويذهب الى القـاهرة ويعود منها ويجلس مع البكوات والباشوات فهو واحد منهـم بطبيعة الحال وطبيعة الوضع والثـالث يصـف « البيه » بأنه « بتاعنا » أعنى الرجل الذى نعتمد عليه ونلجأ اليه ونستجير به .

وهكذا كان الريف ، مقاييسه ومثله وانتخاباته ، ولكنه لم يخل قط من قدرة على المقاومة ونسـمة من المعرفة التلقائية تجعله يدرك من هو الصالح ومن هو غير الصالح ·· وكلما ترك من غير ضغط طفت على السطح المقاييس الطبيعية العادية الحكيمة العاقلة ، التى لاتعتمد على علم أو معرفة بقدر ما تعتمد على سليقة ذكية .

مهما يكن من أمر فقد أخذت صـور المعركة تضعف فى خاطرى مع مرور الايام ، وأخذت شواغل العمل تجرفنى فى تيـارها الذى لا يرحم ولكن هل اختفت التجربة والصور ؟ هل ذهبت ولم أعد أذكرها ؟ كلا ، ظلت آثارها فى خاطرى فزادتنى تجربة للناس ، وتجربة لمشكلات الوطن الغالى ، وزادتنى ارتباطا بالريف وتحمسا للدعوة اليه ·· لم أغضب لاننى لم أنتخب ولم ألم الناس الذين لم ينتخبونى ولكن عذرتهم ، وآليت على نفسى أن أكون أبدا من أشد دعاة الحرية للجميع والعلم للجميع والخبز للجميع ·· كنت فى كل مرة أعود فيها من الريف الى القاهرة ويصدمنى الفرق الشاسع بينهما ، أشعر بما يجب أن يكون عليه منهجى فى الحياة والتفكير .

ولست أزعم اننى أديت كل ما يجب على ، ولكننى حاولت جهد استطاعتى ، وهى محدودة جدا ، أن أساعد أهل الريف ٠٠ ان أهلى يكدحون مثلهم ، ورفاقى المواطنين الذين تركتهم فى القرية منذ ذهبت الى المدرسة فى الزقازيق والجامعة فى القاهرة وكان حظى ماهو ، لا يزالون يحملون الفأس ويشقون الارض ويحصلون على رزقهم الضئيل بالكد والعرق ٠٠ وكان ممكنا أن أكون مثلهم لولا أن أتيح لأبى أن يعلمنى وينفق على ٠٠ كانت كل هذه الخواطر تشملنى قبل أن أدخل تجربة الانتخابات وأصبحت بعدها أكثر التصاقا بى ٠٠ ولما شحت مواد التموين فى أثناء الحرب ، اشتركت فى تأليف جمعية تعاونية فى قريتى ، عهد الى أبى رياستها ، وكنت أحمل لهم من القاهرة الكبريت والسكر وأبذل غاية جهدى للتخفيف عنهم وكنت أشعر فى ذلك براحة ان أديت بعض دينى لهم ٠٠ لم أحس قط ان مجرد انتقالى من القرية الى المدينة قد باعد مابينى وبينهم ، بل لعله ربطنى بهم أكثر ، وضخم من مسئولياتى أمامهم ٠

ابتهجت الحكومة بنتيجة الانتخابات ، أو بتعبير أدق ابتهجت بنجاح مجهوداتها وما احكمت وضعه من خطط لكى ينجح انصارها ، وقد نجحوا تماما ، وكان للسعديين النصيب الاكبر ١٢٥ نائبا ، وحصل الدستوريون على عدد أقل : ٧٤ نائبا ، والكتلة الوفدية ٢٩ والحزب الوطنى ٧ وفاز من المستقلين ٢٩ ٠

واذا كانت الحكومة قد ابتهجت فى مجموعها ، فانها فى تفصيلها لم تكن على هذا الابتهاج ٠ لم تكن الاحزاب التى تتألف منها راضية عن النتيجة تماما ، قال الدستوريون ان الحكومة تعمدت حجب مساعداتها عن مرشحيهم ، وقال مكرم عبيد انها تعمدت اسقاط مرشحيه ٠٠ كان الابتهاج اذن مشوبا وان كان من حيث الظاهر كانه ابتهاج عام ، وكانت الحكومة قد عينت فريد أبو شادى بك قبيل الانتخابات سكرتيرا عاما لوزارة الداخلية ، وعهدت اليه ادارة عملية الانتخاب ، والوصول بها الى النتيجة المرغوبة ٠

واذا كانت الحكومة قد تدخلت فى الانتخابات لحسابها وحساب القصر ، فان القصر من جانبه تدخل هو الآخر لحسابه وفى أحيان كثيرة ضد رغبة الحكومة والاحزاب التى تتألف منها ٠٠ كان بين المشرفين على الانتخابات من رجال الادارة والبوليس من هو معروف بانه يتلقى الوحى من وزارة الداخلية ، ومن هو معروف بانه يتلقى التعليمات مباشرة من

القصر .. وكان أغلب المستقلين محسوبين على القصر ، بل ان عددا من النواب الذين نجحوا بحسبانهم ممثلين لأحزابهم كانوا فى الواقع مدينين بنجاحهم للقصر أو راغبين فى أن يجعلوا أنفسهمأقرب انطباعا بلون القصر منهم بلون الحزب الذى ينتمون اليه فى الظاهر .

وكانت النظرية الذائعة حينئذ ان القصر أكثر دواما من الاحزاب ومن الحكومة ، وان الشاطر هو الذى يربط عربته بالقصر ، ففيما عدا الحكم الوفدى كان الثابت فى أذهان الناس ان سند الحكم فى عهد الاحزاب ليس أحدا آخر غير القصر ، وكان القصر يعنيه أن تتعدد الاحزاب، والا يكون لأحد منها أغلبية مطلقة فى المجلس مرتبطة به ارتباط عقيدة وثيقة حتى يسهل عليه ضربها أحدها بالآخر أو البطش بها كلها اذا اقتضى الامر .. كان أحمد حسنين باشا رئيس الديوان وراء هذه الصورة كلها .

كانت هذه سياسة القصر ، وقد تدخل فى الانتخابات لحسابه حتى يحقق النتائج التى يريدها ، وقد حققها الى حد ما وحققها على الصورة نفسها التى حققها بها فى البرلمان الذى أجرى انتخاباته محمد محمود باشا فى سنة ١٩٣٨ مما أتاح له أن يأتى برئيس وزارة سعدى تارة ومستقل تارة أخرى ودستورى مرة ثالثة ، كان هدف القصر دائما تفتيت الكتل . وقد حاول جاهدا أن يفتت الكتلة الكبرى ، وهى الوفد ، فبارك خروج الهيئة السعدية عليه ، وبارك خروج مكرم عبيد عليه ، لا حبا فى الهيئة السعدية أو مكرم عبيد ، ولكن ظنا منه ان كل خروج على الوفد جدير أن يضعف سلطانه فى البلاد ، ومن ثم لا تبقى سلطة يخشاها القصر أو يحسب لها حسابا .. وقد أخطأت هذه الاحزاب لانها ظنت ان ارتياح القصر لها وتركها تتولى الحكم ، كلاهما راجع الى يقينه انها أفضل من غيرها لتوليه .. كلا ، لم يكن هذا هو السبب ، ولكن السبب الحقيقى انه يستطيع أن يتخلص منها اذا أراد ، ويستطيع أن يتدخل فى الحكم من وراء ظهرها اذا أراد ، بل ويستطيع أن يتدخل علانية اذا أراد .. كان يدرك تماما انها لا تستند الى الشعب وان البرلمان الذى ينعقد الى جوارها لا يمثل الا مصالح يمكن أن تتهاوى عند أية صدمة من الصدمات .

وقد بدأت وزارة الدكتور ماهر باشا وهى مؤلفة من عدد متساو من الوزراء لكل من الدستوريين والسعديين والكتلة الوفدية ، أربعة لكل منهم ، ووزير واحد للحزب الوطنى هو حافظ رمضان باشا رئيسه ، وهذا

يعطى فكرة عن الجو والظروف التى تألفت فيها ٠٠ لقد تألفت فى عجلة شديدة أو فى تدبير محكم خفى ، ولم يشأ رئيســها أن يثير اعتراضات أساسية حول نسبة التمثيل انتظارا لنتيجة الانتخابات ويقينا منه انها ستأتى فى صالحه ٠

ولا بد هنا من كلمة تقال ٠٠ لقد أذيع فى أثنــاء اجراء الانتخابات وبينما الادارة تتدخل فيها بشكل بغيض ان ماهر باشا لا يوافق على هذا التدخل ولا يرتضيه وانه يجرى من وراء ظهره ، ولست أعرف ما اذا كان هذا دفاعا فى صالحه أم ضده ، فالحاكم الذى لا يحكم أولى به أن يعتزل، والحاكم الذى ترتكب المخــالفات من وراء ظهره محتجــا بأنه لا يعرفها ، لا يمكن أن يعفى من مسئوليتها ، بل انهــا تلبسه مضــاعفة : مرة لانه لا يستطيع أن يمنعها أو لا يعرفها ومرة لانها تقع فعلا ٠

وكان لا بد بعد أن ظهرت نتيجة الانتخابات أن يقع بعض التعديل فى المناصب الوزارية ، وقد وقع فعلا ، وكان المنطق الدستورى يقتضى أن يزاد عدد الوزراء السعديين ويخفض عدد وزراء الكتلة طبقا لما اسفرت عنه نتيجة الانتخــابات وهو ما كان فى خاطر الدكتور ماهر أو ما كان ينتويه ، ولكن الظروف لم تمكنه منه ، لان الامر لم يكن أمر برلمان وثقة شعب ، بل كان نوعا من المصالحة والمداورة والمحاولة حتى تسير القافلة ، تسير والسلام ، كان كل ما حدث تعيين الدكتــور محمد حسين هيكل ، وهو دســتورى ، رئيســا لمجلس الشيوخ وتعيين الدكتــور عبد الرازق السنهورى باشا وزيرا للمعارف وحفنى محمود باشا وهو دستورى وزيرا للتجارة وعبد المجيد بدر باشا وهو سعدى وزيرا للشئون الاجتماعية ٠

وما ان اطمأنت الوزارة فى مناصبها ، وخيل لها ان الامور تجرى رخاء ، حتى أخذت تنفذ سياستها ولم تكن فى جوهرها الا مطاردة الوفد والتشنيع عليه ، والتضييق على أنصاره ، ففصلت من كبار الموظفين من ظنت انه ذو ميول وفدية ظاهرة وأعلنت فى خطاب العرش ان سياستها تقوم على التفاهم بين مصر والدولة الحليفة ولم تكن الا انجلترا ٠٠ وأخذت الوزارة تتهيأ لاعلان الحرب فى صف الحلفاء ٠٠ وفى مساء يوم ٢٤ فبراير اجتمع البرلمان لكى يبحث هذا الموضوع ٠

وما كان أشد الفزع فى هذا المساء ..كنت فى مكتبى فى «الاهرام» أراجع ما أمامى من أوراق ، غارقا فى عملى عير ملق بالى الى شىء ، وكان الجو نصف صيف ونصف شتاء والشرفة المجاورة يهب منها نسيم رقيق

لا هو بارد ولا هو دافىء ، واذا بالاستاذ محمد نجيب المحرر بالاهرام ، وكان مكتبه الى جوار مكتبى يدخل على مفزوعا ويقول : لقد قتل أحمد ماهر .

ووقف القلم فى يدى ، وزاغت عينى وتولانى وجوم شديد ، وافضى الى الاستاذ محمد نجيب بالتفاصيل التى عرفها .. قال ان الدكتور ماهر باشا كان قد فرغ من جلسة النواب ، وذهب فى طريقه الى مجلس الشيوخ لكى يعرض عليه مسألة اعلان مصر الحرب ، فاذا بشاب صغير يتقدم اليه، ويطلق عليه الرصاص فى البهو الفرعونى الفاصل بين المجلسين .

ونهضت وأنا أكثر ما أكون قلقا وألما ، وخرجت الى الشرفة أنظر الى الشوارع المحيطة بالاهرام ، الانوار متلألئة والناس يذهبون ويجيئون ويسعون .. لم يعرفوا بعد ، أو لم يعرف أكثرهم بالنبأ الاليم ، ثم اذا بهم يقفون ويتجمعون ويتهامسون .. ولاح لى ان مصر كلها فى مأتم ، خصوم أحمد ماهر وأصدقاءه ، فالاغتيال السياسى ليس وسيلة من وسائل هذا البلد الطيب الامين .. ثم ان أحمد ماهر هذا الزعيم الكبير الخطير الذى اقتربت عنقه من المشنقة فى سنة ١٩٢٦ ، هذا المكافح الوطنى المتفرد كيف يجرؤ أحد من الناس على أن يمسه بأذى ؟

ولم أكن أعرف أحمد ماهر معرفة شخصية ، ولكننى كنت أدرك بالسماع والملاحظة ما طبع عليه من خلق ديموقراطى أصيل ومن صراحة وشجاعة فى ابداء الرأى ، وكتمت الحزن فى قلبى واستجمعت نفسى وعدت الى متابعة عملى .. ان من يتصل بالصحف ومن يعمل فيها لا بد أن تكون أعصابه من حديد .. ان المطبعة لا ترحم ، الحديد الذى فيها لا يذوب مهما تكن الكارثة كبيرة ، حروف الصف والجمع يجب أن تنتقل لكى تؤلف الخبر السار كما تؤلف الخبر المحزن ، وكذلك المحررون والكتاب لا بد أن يكونوا مثل هذه الحروف ، لا يتوقفون ولا يسكتون ، ولا يحزنون .. وسمعت الضجة تزداد فى الجريدة .. ان عندهم خبرا مهما ، خبرا سمينا ، طعاما للقراء النهمين .. العلبة التى كانت تسقط وفيها الاوراق ناقلة اياها الى الدور الارضى فالى المطبعة لا تزال تكركر ، بشير وحسن وعم عبد الله السعاة لا يزالون يدخلون الغرف ويخرجون ، يتناقشون ويتجادلون ويتغاضبون .. محمود الضخم الفخم عامل الساعة، لاتزال ساعته تدق كلما دخل محرر أو خرج .. دسوقى عامل التليفون زاد عليه الضغط وزاد السؤال والاستفسار وهو فى ذكائه وسرعة بديهته وحسن استقباله للسائلين يجيب ويأسف .. لقد علمته حرفته فى الصحف أن يقول الخير والشر ، أن يبتسم ويحزن حسب الظروف ..

وحسين عامل التليفون الآخر فى وقاره وبطئه وسلامة طويته يحاول هو الآخر أن يبدو رقيقا وحزينا .. وفيما عدا ذلك كان كل شيء يسير كما كان يسير .

وتولى الوزارة بعده ، وفى فترة متأخرة من الليلة نفسها ، محمود فهمى النقراشى باشا ، وهو الشخص التالى له فى الهيئة السعدية ، وبقى الوزراء كما هم .. ما كان أشق الموقف والمهمة على النقراشى باشا .. لقد فقد صـــديقه وزميله وأخاه ورفيق رقبته حينما كانت الرقبتان تكادان تدنوان من حبل المشنقة .. ما اعجب الحياة حقا ؟ .

وأقر مجلس النواب والشــيوخ اعــلان الحرب على الريخ الالمانى واليابان ولم يكن ممكنا أن يتوقف هذا الاعلان لقتل أحمد ماهر باشا وكان اعلانا صوريا محضا ، فان الحرب كانت قد انتهت أو أوشكت ولكنه كان يتيح لمصر الاشتراك فى مؤتمر سان فرانسسكو الذى وضع ميثاق الامم المتحدة ، ويتيح لها الاشتراك فى المعاهدات والمباحثات التى لا بد أن تعقب انتهاء الحرب .

وذات مساء زارنى فى مكتبى جماعة من أهل مديرية الشرقية وقالوا انهم يفكرون فى انشاء ناد لأهل المديرية فى القاهرة ، وتلطفوا فقالوا انهم يتمنون لو اعتنيت معهم بهذا المشروع وساعدت على تنفيذه .. لم أكن فى يوم من الايام اقليميا ، ولم أؤمن أبدا بأن يختص كل اقليم بعصبية وناد ومجتمع خاص به ، ولكننى لم أشأ أن أخيب رجاءهم .. قلت بينى وبين نفسى ، لا بأس بهذا النادى وأستطيع بتوجيهى أن أجعل منه ناديا للفكر والثقــافة والتعــارف ومساعدة من هم فى حاجة الى المســاعدة من أهل المديرية ، ثم ان أى انسان ، لا يستطيع مهما تكن ســعة ثقافته ورحابة تفكيره ، أن يهمل العاطفة الخــاصة التى تربطه بالاقربين اليه .. وفى الانسان ــ أى انسان ــ فى حياته لا بد أن تكون له اهتمامات متعددة دون أن يكون هناك تعارض بينها فاهتمامه بأسرته لا يتعارض مع اهتمامه بأبناء طائفته أو مهنته ، واهتمامه بأبناء قريته لا يتعارض مع اهتمامه بمصالح الوطن كمجموع ، واهتمامه بمصالح وطنه لا يتعارض مع اهتمامه بمصالح العالم كله . قلت لهم : اننى على استعداد أن أعينكم وأن أشترك معكم .

قالوا : اننا نريد أن يكون النادى للطبقة المتوسطة من أهل المديرية. لا نريد بكوات ولا باشوات يفرضون علينا أوامرهم .. نريد أن نجد مكانا نستطيع أن نلتقى فيه دون حرج .. لا نريد أن ندخل النادى فنجد البيه والباشا ونضطر الى الانحناء والتسليم والى نوع من السلوك نريد الهروب منه .

ووافقتهم على هذا الرأى ، وقلت ان ناديا نقوم به نحن لا يمكن أن يتحول هذا التحول ٠

قالوا : نجمع تبرعات قلت يجب أولا أن ندعو فى الصحف من يشاء من أبناء الشرقية للالتقاء معنا وبحث الموضـــوع حتى اذا وجدنا استجابة كافية كان هذا دليلا على ان الحاجة ماسة اليه ٠

وأعلنت فى الصحف عن اجتماع يعقد فى مكتبى ، ودعوت اليه من يشاء الحضور من أبناء الشرقية ٠٠ وأدهشنى أن غرف مكتبى كلها امتلأت بعشرات من الحاضرين وأدركت ان مثل هـذا النادى لا بد ان يوجد ، وتحمس الكثيرون فأعلنوا عن رغبتهم فى التبرع ، وخطب فيهم الاستاذ حسن علوان وغيره مبينا الغرض من الاجتماع ٠٠ وقلت : قبل ان نأخذ فى جمع التبرعات ، يجب أولا أن نبحث عن المكان الذى سيشغله النادى، ان أزمة المساكن شديدة والعثور على مكان يصلح ناديا يبدو لى شيئا متعذرا فلنبدأ أولا باعلان فى الصحف عن حاجتنا الى مكان فى وسـط المدينة يصلح ناديا ، حتى اذا وجدناه أمكن ان نقدر المال الذى نحتاج اليه ، وحينئذ نكتتب فيه ٠

وبعد اعلان صغير فى الصحف اتصل بى بالتليفون شخص قال ان لديه مكانا يصلح للغرض الذى أعلنا عنه ٠٠ سألته : وأين هذا المكان ؟ قال : فى العمارة رقم ١٧ ش ٠ شريف باشا ٠

وكان مكتبى فى العمارة نفسها ٠٠ قلت للمتحدث وأنا فى دهشة : انت الخواجة يوسف عبسى ؟

قال : نعم ، أنا وكيل صاحب العمارة ٠

ضحكت وقلت له : ألا تعرفنى ياخواجه عبسى ، أنا زكى عبد القادر

قال : أنا أحدثك من الدور نفسه الذى تشغل جزءا منه..سأجىء اليك حالا ٠

كانت الحكاية شبيهة بما يقال ودنك منين يا جحا ؟ نشرت اعلانا فى الصحف بينما كانت شقة فى الدور الأعلى لمكتبى هى المطلوبة ٠٠ قال لى الأستاذ عبسى : ان الشقة مؤلفة من تســع غرف ، كان يستأجرها رجل يونانى اسمه « كونتر اكس » ويستخدمها كبنسيون لجنود الحلفـاء فى أثناء الحرب وها قد انتهت الحرب فهو يريد التنازل عنها ، غير انه يطلب مبلغـا قدره ألف جنيـــه .. لا تنزعج ليس المبلغ كبـيرا .. فان فى الشقة أدوات : سراير وكراسى وموائد ومعالق وشوكا وسكاكين تقدر بنحو ٣٠٠ جنيه ، وفيها غرفة خارجية مؤجرة بثمانية جنيهات فى

الشهر .. وبدات اناقش الموضوع مع الخواجة عبسى .. قال: ثنا ثلاثة أشهر متأخرة على المستأجر القديم وهى داخلة فى مبلغ الألف جنيه ٠

قلت : ولكن هذا مبلغ ضخم ، ما أحسب انه فى استطاعتنا ان ندفعه ٠٠

قال : أقبل تقسيط ثلاثمائة جنيه على أشهر ٠٠ يمكنكم أن تدفعوا الآن ٧٠٠ جنيه فقط ٠

قلت له : ان الأمر ليس خاصا بى وحدى ، سأعرضه على اخوانى وأعطيك جوابا نهائيا ٠

وتفرجت على الشقة ورأيت انها صالحة تماما للغرض المقصود ، وكنت عمليا ٠٠ لو طلبنا تبرعات بألف جنيه لكان من الصعب تغطيـة المبلغ فى سرعة ، وربما أخذ غيرنا الشقة ممن لديه النقود جاهزة ٠٠ عرضت الأمر على بعض أصدقائى من أهل مديرية الشرقية ولم يكونوا قد حضروا الاجتماع ٠٠ تحدثت فى شأنه مع الاستاذ محمد على الغتيت وكان حينئذ وكيل قسم القضايا فى البنك العقارى والاسـتاذ سـعيد عبد الله المهندس الزراعى ووكيل دائرة عزيز عزت باشا ، فرحب كل متهما بالمشروع وتخفيفا عليهما قلت : دعونا نشترك نحن الثلاثة فى تغطية المبلغ ونتعهد بتقديم المكان للنادى ، على أن يكون ما دفعناه دينا على النادى يوفيه لنا على أقساط ، وقلت : اذا نجح النادى فقد ضـمنا حقنا ، واذا لم ينجح ففى استطاعتنا أن نؤجر الغرف من الباطن ، وفائض الايجار سيكفى تماما لتغطية المبلغ الذى دفعناه ٠٠ كان عدد الغرف تسعا وايجار الشقة كلها ١٨ جنيها ٠٠ ووافقا ٠٠ دفع سـعيد عبد الله ٢٠٠ جنيه ودفعت أنا والاستاذ الغتيت كل منا ١٥٠ جنيها ، واشترك معنا فيما بعد الاستاذ جمال بركات ، وكان حينئذ موظفا بقلم القضايا (السفير فيما بعد بوزارة الخارجية) ودفع ٣٠ جنيها ٠٠ وأكملنا المبلغ المطلوب من التبرعات التى كان قد تم جمعها فى الاجتماع الأول الذى أشرت اليه ٠

وما ان انجزنا كل شىء ، حتى دعونا من حضروا الاجتماع ، ودعونا معهم آخرين من أصدقائنا الشخصيين من أهل الشرقية وعرضنا عليهم المشروع ، وقلنا اننا نسلمكم المكان مدينا بالمبلغ الذى دفعناه ، واننا على استعداد للانتظار ريثما نستوفيه منكم على مهل ، وشكرونا وقالوا انه لولا هذا العمل ما أمكن قيام النادى ٠

وبدأ النادى يعمل ٠٠ نزعنـا الحواجز بين ثلاث غرف ، فأصبح لدينا بهو متسع جعلناه قاعة للمحـاضرات ودعونا صـفوة من المفكرين

وأصحاب الرأى ، القوا محاضراتهم واستمع اليها جمهور كبير ، دعونا محمد خطاب بك ومريت غـالى بك والاسـتاذ عبد المجيد نافع وعرض الأستاذ فهمى أبو الخير نظريته فى الأرواح ، وامتلأ النادى كل مساء بعدد كبير من الزوار ٠٠ لم يكن فى الواقع ناديا اقليميا بقدر ما كان ناديا لتبادل الرأى والاجتماع للبحث والتشاور والتسلية ٠

وذاع أمره بين كبراء أهل الشرقية ، ودعوناهم الى حفلة شـاى شهدها عبد الله أباظة بك وحسن رفعت باشا، وكان حينئذ وكيلا لوزارة الداخلية ، وكثيرون غيرهم من كبراء الشرقية ، موظفين وأعيانا ٠

وقال عبد الله أباظة بك ان النادى فى حاجة الى مزيد من العناية والمال ٠٠ وأوجس زملاؤنا من هذا الكلام وقالوا : كلا ، نحن لا نريد زيادة فى المال ولا العناية ٠٠ لقد أنشأنا النادى لنا وبمواردنا وامكانياتنا المحدودة ونحن راضون به كما هو ، ووافقتهم على هذا الرأى ٠

وكان ممكنا الا ترد الاشارة الى هذا النادى وتأسيسه والظروف التى أوجدته ، فى هذه المذكرات ، لولا انه ـ كما سيتبين فيما بعد ـ لعب دورا هاما فى حياتى ، لم أكن أتصور انه سيلعبه ٠

وكما قلت قبلا ، كان من عادتى أن أذهب الى الريف مرة كل شهر، وكنت أسافر فى العادة يوم الجمعة فى الصباح وأعود يوم السبت فى المساء ٠٠ وذات مرة فى أوائل شهر يوليو سنة ١٩٤٥ وكنت قد عدت توا من المحطة ، وما كدت استقر فى مكتبى حتى دق جرس التليفون وكان المتحدث هو الاستاذ حافظ جلال سكرتير النقراشى باشا ، وكنت أعرفه معرفة وثيقة ٠٠ حيانى تحية جميلة واسـتطرد قائلا : ان دولة الباشا يريد أن يراك ، قلت له : يسعدنى ان القاه ولكن متى ؟ ٠٠ قال : هل يوافقك غدا فى الساعة الواحدة بعد الظهر ٠٠ قلت : يوافقنى ٠

ووضعت سماعة التليفون ، وأخذت أعيد الأمر أمام نفسى وأقلبه على وجوهه المختلفة فيم يريدنى النقراشى باشا ٠٠ وأنا لا أعرفه معرفة شخصية وليس بينى وبينه ما يدعو الى لقاء أو مقابلة أو حديث .

ثم كان اليوم التالى وذهبت الى مكتب الاستاذ حافظ جلال فى رياسة مجلس الوزراء ٠٠ وكانت مفاجأة ربما قدرتها ، ولكننى لم أكن واثقا منها تماما ٠٠ بدا لى ان هذه المرحلة من حياتى تحف بها العواصف ٠

مناقشة عنيفة بيني وبين النقراشي

« لم أجد فرقا بين الباشا وأنا أستمع اليه وهو يتحدث أو يداور أو يناور وبين الحاج محمد عبد اللطيف وهو يتحدث أو يداور أو يناور »

حافظ جلال ، كما قلت ، صديق قديم ٠٠ وما ان أخذت مقعدى ، وانتهت التحيات المعتادة ، حتى قال لى انه متتبع مجهودى فى اصدار « الفصول » ومبتهج به ومقدر له ٠٠ ثم استطرد قائلا : ولكن لا بد انك تعانى فى اصدارها فالمنافسة شديدة ، قلت : ان « الفصول » تغطى نفقاتها ، توزيعها حسن والاقبال عليها كبير ٠٠ كل ما يضايقنا ان وزارة التموين لا تسمح لنا بكمية الورق الكافية ، فنضطر الى اكمالها بالشراء من السوق السوداء وتكلفنا الرزمة من ورق الجرائد ، وهو أقل أنواع الورق ، ثلاثة جنيهات وأحيانا ثلاثة ونصف ٠

كانت الاشارة خفية ولكنها واضحة أيضا ، وكأنه يلوح لى بمساعدة من الحكومة وكان ردى أيضا واضحا وخفيا ٠٠ كنت أفهم مايقصد وكان يفهم ما أقصد ٠٠

وجاء موعد المقابلة مع رئيس الوزراء ، ودخلت على النقراشى باشا ، فنهض لتحيتى مبتسما ٠٠ كان الجو حارا خانقا ، كنا فى شهر يوليو ، ولكن غرفة رئيس الوزراء كانت مرطبة بجو رقيق ، كانت مكيفة الهواء ٠ وكان النقراشى يجلس فى ركن منها ، وجلست فى مقابلته ٠٠ كان الضوء قليلا والسكون تاما ٠٠ لم يكن أحد معنا وكانت هذه هى المرة الأولى التى أقابل فيها النقراشى ٠٠ رجل ممتلىء ، وجه مشرق تبدو عليه الصحة ، وفى عينيه بريق تشعر منه لأول وهلة بوميض من التصميم والعزم والاستقامة ٠٠ لم تكن تحياته كثيرة ولا مجاملاته كثيرة ٠٠ ولعله

كان يعتمد على وجهه الذى وان لم يكن معبرا ، الا انه كان يوحى حتما بالصدق والاطمئنان .. ومرت خواطر عديدة وأنا أجد نفسى وجها لوجه مع الرجل الذى رأيته وأنا طالب فى كلية الحقوق فى قفص الاتهام ، حبل المشنقة قريب من عنقه .. هأنذا أراه الآن وهو على مقعد رئيس وزراء مصر .. من كان يتصور وأنا جالس فى قاعة جلسة الاحالة بمحكمة جنايات مصر مبهور الانفاس مأخوذا برهبة الموقف ، والقاضى البريطانى كرشو يحدجه وزميله أحمد ماهر بنظرات فيها الغيظ والحقد، والرجل صامد ساكت مؤمن صابر مبتسم .. من كان يظن أن الايام ستجمعنى به الآن وهو رئيس للوزراء .. ومرت خواطر أخرى .. هذا المكافح العظيم ، هذا الوطنى المتقد حماسة ، الذى خرج من صفوف المدرسين ليكون ثائرا عظيما ، وانسانا يكاد يقدم رقبته فداء وطنه .. ما أعجب المقادير ، وما أعظم الدرس الذى تعطيه للخاملين المسالمين القابعين يخشون الخيال والحقيقة ويجفلون من مجرد التفكير فى عمل من أعمال البطولة .

مرت كل هذه الخواطر فى لحظة ، فى لمحة ، فى مثل البرق .. كان النقراشى عمليا ، ومن غير مقدمات ، وقبل أن أفيق من لمحة هذه الخواطر السريعة المتتابعة قال الرجل وهو يبتسم : ابقى مشترك عندكم وتشتمونى ..

ولم يكد يتم الجملة ، حتى كان قد أخرج من درج مكتبه عدد «الفصول» الصادر فى شهر يوليو ١٩٤٥ وأدركت كل شىء .. أخذ الرجل يقرأ فقرات من المقال الافتتاحى للعدد ، وكنت أنا كاتبه ، وان لم يكن موقعا من أحد .

ولا بد من تلخيص المقال حتى تتيسر متابعة المناقشة التى جرت بينى وبين رئيس الوزارة .. كان عنوان المقال : «المحافظون والمتحررون» وقد جاء فيه ان فى مصر فريقا كبيرا من المحافظين ينفرون من كل جديد ويقفون دون البحث فيه أو تقبله ، وان فيها فريقا آخر من المتحررين يقفون فى صف التقدم والتطور وهم يواجهون المحافظين ومعهم قوة الدفع الطبيعية ورجاحة الفكر المستنير وسماحة الفهم لحق الشعب .

وقلت بعد ذلك ان المعسكرين يتقابلان ويصطدمان فى كل مسألة تتعلق بالاصلاح وتتعلق بالامانى الوطنية . فالمحافظون يدهشون فيما بينهم وبين أنفسهم كيف تحدد الملكية الزراعية وكيف تفرض الضرائب التصاعدية وكيف يباح التعليم مجانا لأفراد الشعب وهم يفتحون أفواههم

دهشة وغباء ويتحدثون عن حق الملكية المقدس بعبارات مؤثرة ويتساءلون:
ترى هل يتساوى ابن الوزير وابن الطباخ على مقاعد الدرس ؟ ٠

واستطردت فقلت : ويلوح للناظر من أول وهلة ان الرجعية قوية فى مصر ولكن الحكومة القائمة ليست من حيث الكفاية أو التحرر الذهنى فى مستوى حاجة الاصلاح المحلى ولا فى مستوى الاحداث العالمية وموجة التطور التى تشمل العالم كله ، وهى وأكثر أعوانها أقرب أن يكونوا من اسناد الرجعية فهما وتفكيرا وعملا ، والمناقشات التى تدور فى البرلمان والركود الذى يشمل الحكومة وأعمالها وتصرفها فى بعض المسائل وازاء بعض المشروعات يدل على ذلك ، ولكن هذه الحكومة لا تمثل الاتجاه الغالب بين أفراد الشعب ولا آراءه فى مسائل الاصلاح أو الاهداف الوطنية ، وأحسب ان كثيرا من رجال الصناعة والتجارة وأصحاب رؤوس الأموال الكبيرة يؤيدونها لأنها أقرب فهما لمصالحهم ولكنها بلغت من الضعف حدا تعجز فيه حتى عن حماية المصالح التى تفهمها ومن ثم احسب ان شعور هذه الطوائف نحوها هو شعور من العطف أكثر مما هو شعور من التأييد ، أما جمهرة الشعب فتنحاز الى صف المتحررين الذين يدعون الى سيادة سلطان الشعب وكرامته وان يقوم الحكم على أسس اجتماعية واقتصادية جديدة ٠

هذه هى خلاصة المقال الذى قرأ النقراشى فقرات منه وهو يقول لى : ابقى مشترك عندكم وتشتمونى ٠

وكان النقراشى مشتركا فعلا فى مجلة الفصول ، قلت : المشترك عندنا النقراشى باشا مش رئيس الحكومة .. ثم ان المقال ليس فيه شتم لأحد ٠

قال : انت تقول اننى رجعى ٠

أجبت : أنا لم أقل هذا ، قلت ان الحكومة رجعية ٠

قال النقراشى : وما هو الفرق ٠٠ كأنك تقول اننى رجعى ٠

قلت : كلا ، يمكن الا تكون دولتك رجعيا وتكون الحكومة التى ترأسها رجعية ٠

ابتسم فى هدوء ورفق وسأل فى صوت عميق : طيب والحكومة رجعية ليه ؟

قلت : كانت الحكومة السابقة قد أقرت ضريبة اضافية على الاطيان

فألغتها هذه الحكومة، وكانت قد جعلت التعليم مجانا فى المدارس الابتدائية فجاءت هذه الحكومة وفرضت عليه مصروفات ٠٠ وتقدم محمد خطاب بمشروع لمجلس الشيوخ طالب فيه بتحديد الملكية الزراعية بمائة فدان فتطوعت الحكومة لمعارضة المشروع والعمل على رفضه ٠

قال النقراشى : هو علشان الحاجات دى بقى الحكومة رجعية ؟

لست أدرى ماذا حدث تماما وأنا أجادل النقراشى وأرد عليه فى جرأة ومنطق ، استولى كل منهما على استيلاء ، بحيث نسيت كل الظروف المحيطة ، ولم يبق واضحا أمامى الا اننى أدافع عن رأى أؤمن به ٠٠ نسيت ان الاحكام العرفية لا تزال قائمة على الرغم من الغاء الرقابة على الصحف ٠٠ ونسيت أن الجو العام فى الوطن لا يشجع على ابداء الرأى بصراحة وبالأسلوب والطريقة اللتين أبديت رأيى بهما ودافعت عنه ٠

قلت : اذا كنت تريد أن تعرف رأيى تماما فالنظام كله رجعى ٠

قال النقراشى : تعنى ان مرسوم اقالة وزارة النحاس لم يكن دستوريا ؟

أجبت : كلا ، لم يكن دستوريا ٠٠ ولست أريد أن أدخل فى تفصيلات فنية ، وانما أقول لك ان الدستور يقضى باجراء الانتخابات بعد الاقالة فى مدة أقصاها ٦٠ يوما ٠ وقد حكم المرسوم على وزارة النحاس بالفشل فى مهمتها وقرر أنها عجزت عن توفير الغذاء والكساء للناس ، فماذا يكون الحال لو أعادت الانتخابات ــ وهذا أمر محتمل جدا ــ النحاس وحزبه ، كيف يكون موقف القصر ؟

قال النقراشى : ولكن يا أخى محامين فرنسويين وانجليز كثير قالوا لى ان المرسوم دستورى ٠

أجبت : ان حق الاقالة مكفول بالدستور للقصر ، ولكن ليس للاقالة التى عناها الدستور الا صورة واحدة ، هى رد الأمر للشعب دون أن يتدخل القصر فى الحكم على الوزارة بأنها نجحت أو فشلت ٠ والمفروض دستوريا ان معلومات الملك عن شؤون الحكم يتلقاها من الوزراء ، فهل قالوا له اننا فشلنا ؟ كل ما له طبقا للدستور اذا بدا له ان المسافة بعدت بين الحكومة والبرلمان وبين الشعب أن يرد الامر الى الشعب ، فاما أعاد الحزب الحاكم، واما أقصاه. ثم هناك شيء آخر... ان اقالة النحاس باشا أفادته وأفادت حزبه ٠٠ كان تأييد الشعب له فى أواخر حكمه قد نقص الى نحو الأربعين فى المائة ، وقد استعاد جزءا كبيرا من هذا التأييد لا لشيء الا لأنه أقيل ، وكأن الاقالة طهرت حزبه من الاغلاط العديدة التى ارتكبها،

ولو ترك النحـــاس فى الحكم فترة أخرى من الوقت ، أو ترك الفترة الدستورية لكان من المؤكد ، ان لم يخسر المعركة الانتخابية القادمة ، أن تنشأ الى جواره معارضة قوية هى الكفيلة بارجاعه عن أغلاطه ٠

سأل النقراشى : هل تعتقد ان الوفد استفاد من الاقالة ؟ ٠

أجبت : من المؤكد انه استفاد ، وحسب تقديرى ، وأنا كثير الاختلاط بالفلاحين وغيرهم من أبناء الشعب ، انه استعاد ثلاثين أو أربعين فى المائة من الانصار الذين فقدهم ٠

بدا الغضب على وجـه النقراشى ولأول مرة منــذ بدأ الحوار بينى وبينه ٠٠ قال : كان عاجبـــك تصرفات الحكومة الوفدية ، الرشـــوة ، والاستغلال والمحسوبيات ٠٠

قلت : لم تكن تعجبنى ، ولكننى كنت أفضل أن يطردها الشعب من الحكم ٠٠ ان السلطة حينئذ تكون للشعب ، أما ان يطردها القصر فليس الا نقلا للسلطة من الشعب الى القصر ٠٠

قال : الانجليز كانوا ساندينها ٠٠

قلت : نقاوم الانجليز والحكومة ٠

قال : الشعب لا يستطيع ٠٠ ثم كانت هناك تشكيلات القمصـــان الزرق ٠٠ هل نسيت ؟

أجبت : ان الشعب الذى ثار على الانجليز وليس معه سلاح ، قادر على ان يتخلص من حكومة لا ترضيه ، ثم ان مرسوم الاقالة فى تعجله ، لم يعط الشعب الفرصة لكى يتبين ما اذا كان يستطيع أن يتخلص من الحكومة أم لا ٠٠ اننا ٠٠ انا والطبقة المثقفة التى انتمى اليها ، فى احترامنا الشديد لأحكام الدستور ، نرى ان القصر يتدخل فى أمور الحكم تدخلا لا سند له من الدستور ٠

ومن الغريب ان النقراشى لم يثر ولم يغضب لهذا الكلام ٠٠ تقبله فى هدوء ، بينما تولانى أنا نوع من الخوف بعد أن قلته ٠٠ أحسست اننى زودتها شويه ولكنى ـ كما قلت ـ كنت محكوما بمنطق المناقشة وبالرأى الذى أدين به ، بينما تلاشت من أمام عينى سائر الاعتبارات ٠

سكت النقراشى قليلا ثم قال : هل كنت تستطيع أن تكتب هذا الكلام فى عهد الحكومة الوفدية ؟

أجبت : كانت الرقابة مفروضة على الصحف ، ولك ان تسأل رقباء « الأهرام » ومجلة « الفصول » طوال السنوات الاربع الماضية لكى تعرف انهم كثيرا ما منعوا نشر مقالات لى أو حذفوا منها ٠٠ ثم ان هذا أول عدد يصدر من الفصول بعد الغاء الرقابة على الصحف .

وتولاه غيظ مكتوم بدا فى نظرات عينيه وقال : هل تعرف ان هذا الكلام يفيد الوفد ٠

اجبت : انا اكتب رأيى ولا يعنينى من يفيد منه أو يضار ٠٠ ثم اننى لا أعرف أحدا من كبار الوفديين ، كل من أعرفهم من الساسة هم من الاحرار الدستوريين الذين نشأت فى حضنهم وبدأت اتصالى بالصحافة بالاشتغال فى جريدتهم « السياسه » ٠ شيء واحد استطيع أن أؤكده لدولتك هو اننى كتبت رأيى الذى أؤمن انه فى مصلحة بلادى دون وحى أو توجيه من أحد ٠ قد يكون الرأى خطأ أو صوابا ، ولكن الشيء المؤكد أنه رأيى وأنا مستعد للدفاع عنه ٠

وقال وهو ينهض ايذانا بانتهاء المقابلة ٠٠ قال فى شبه تهديد : انت مش عارف انه فيه لسه أحكام عرفية ٠٠ أيوه انا عرفت رأيكم ٠٠ انتم عاوزين الانجليز يجيبوا النحاس على الدبابات !

اجبت فى هدوء وخوف مكتوم ، حاولت جهدى الا يبين ٠٠ كان تحديه لى قويا وصريحا وشعرت كأن كرامتى ورجولتى تجرحان ، فنبع فى نفسى تلقائيا شعور مماثل من التحدى ٠٠ قلت : أظن الكلام اللى قلته ما يؤديش للنتيجة دى ٠٠

وسلم على وانصرفت ٠٠ كان اشبه بالطرد منه بالانصراف ، خرجت وأنا كالمأخوذ ، المطمئن القلق ، الشجاع الجبان ٠٠ وزاغت عينى فكدت اضطرب وداخلنى خوف شديد ٠٠ رجع الى مندفعا كأنه تيار أو اعصار ، وكنت وانا مع رئيس الوزارة شخصا قويا جدا ، مؤمنا جدا ، أمينا جدا ٠٠ ماذا دهانى الآن وقد ملانى الخوف من يمين ويسار وعادت الكلمات والعبارات التى قالها وقلتها ترن فى اذنى خفيضة أول الامر ثم كثيفة مزعجة آخر الامر ٠٠٠ ما معنى قوله ان الاحكام العرفية لا تزال موجودة هل نسيت ؟ وربما لم أفطن تماما لما يعنيه حينما قالها وأنا معه أحاوره واجادله ، ولكنها الآن تتضح أمام عينى تماما ، ويظهر بجلاء معناها ٠٠ لا تزال البلاد تحت الاحكام العرفية ٠٠ صحيح ان الرقابة قد رفعت عن الصحف ، ولكن انا وغيرى والوطن كله يمكن ان يكون

مسرحا لاجراءات استثنائية ٠٠ ولو كان فيما كتبت ما يقع تحت طائلة القانون العادي، ماروعنى الامر ولا ازعجنى..انه لايشكل على أية صورة من الصور جريمة من جرائم الرأي ٠٠ ورئيس الوزراء لم يشر الى النيابة والقضاء ولكنه ذكرنى بوجود الاحكام العرفية ٠

ثم ماهو معني قوله : ايوه ٠٠ عرفت دلوقت رأيكم ٠٠ من هم الذين عرف رأيهم وليس امامه غيري انا ، ولست منتميا الى حزب او جماعة ولم اكن ممثلا لاى حزب او جماعة حتي يستخدم فى حديثه معي الصيغة التى استخدمها ٠٠ ولا شك انني كنت راضيا عن نفسى وانا اتحدث الى رئيس الوزارة واعلن اليه رأيي الصريح الامين الواضح ، ولكننى الآن اخذت اضيق بنفسى شيئا فشيئا ، حتى بدأت اكرهها ، واقول انها « وش خراب » وستجلب علي المتاعب ٠٠ رأيي ٠٠ وما هو رأيي وما هي قيمته ؟ ٠ ان الموكب سائر من غير رأيي وبه ٠٠ الم يكن خيرا لو جاملت بعض الشيء ولم اكن بمثل هذه الخشـــونة والصراحة ٠٠٠ والصراحة ٠٠ شد ماتؤلم في كثير من الاحيان حتى ولو كانت تمثـــل الحقيقة ٠٠ ثم انه هو رئيس الوزارة والحاكم العسكرى العام فى يده الجند والقوة والسلطان والقانون اذا شاء ٠٠ اما انا فمن اكون ؟ لا احد معى ، وليس لى حزب ولا جماعة ولا اقرباء اصحاب سلطان يمكن ان يحمونى اذا اراد بطش السلطان ان يطحنني ٠٠ ما اسخفني ٠٠ واخذت ألوم نفسى واعاتبها والتمس لها بعض العـــذر ، واحاول أن اطمئنهـــا الى ان شرا لن يمسني ، وكثيرا ما كنت اجد التعويض الذى يعزينى بعض الشيء ، حينما اثوب الى طمأنينتي او تثوب الى فاقول : هل كثير ان اقول رأيى ٠٠ ان حريتي هى اثمن شيء لدى ٠٠٠ ثم انا لا اخالف القانون ولا النظام ، وليس فى طبعى ولا هو من خلقي ونشأنى ان اخالف نظاما اعيش فى ظله ، ولو وجدت فيه ما يستحق النقد انقده في حدود هـذا النظام ذاته ، اذن ماهو سبيل هؤلاء الناس على ؟ ٠٠ كلا ، من حقى ان اعبر عن رأيي لكل انسان ولرئيس الوزارة ايضا اذا سألنى عنه ، حتى ولو كان هذا الرأى مما لا يرضيه ٠٠ هـــل كان لا بد أن انافقه ؟ لم أستطع على كل حال ، وان كانت الحكمة الذائعة بين الناس حينئذ تقول ان النفاق ايسر واربح وادعى الى الاطمئنـــان .. ولكننى حينئذ كنت احتقر نفسى ، واشعر اننى لا ازيد على ان اكون مرتزقا ، ولم اكن كذلك ولا اريد ان اكون كذلك مهما يكن الثمن ٠

واخذت الايام تمر اول الامر ثقيلة مملوءة خوفا وتوجسا ، ثم اخذ هذا الشعور يخف مع مرور الايام اذ لم يقع ما يسوؤنى ٠٠ وشيئا فشيئا

عادت الى الطمأنينة، ونسيت ــ او كدت ــ الحديث الذى جرى بينى وبين النقراشى باشا الى ان الغيت الاحكام العرفية الغاء تاما فى اكتوبر سنة ١٩٤٥ اى بعد نحو ثلاثة أشــهر مرت على هذا الحديث فهدات نفسى تماما .

وانتهت الحرب باستسلام المانيا واليابان وتم وضع ميثاق ســـان فرنسيسكو لانشاء الامم المتحدة ، واخذت مصر تضطرم اضطراما شديدا، كانت فيها احزاب ، ولكنها على الجملة لم تكن تمثل التيارات الجديدة التى بدأت تسرى بين مختلف الطبقات كنتيجة لانتهاء الحرب وانتشار نظريات وافكار وآمال جديدة .. كان الوفد هو اكبرها واضخمها واكثرها قربا الىالقاعدة الشعبية ولكنه بعد الحرب أخذ يبتعد بتكوينه وتفكيره عن هذه القاعدة ، كما أخذت هــذه القاعدة أو على الاقل ، جزء كبير منها : يبتعد عنه وان لم ينفصل انفصالا تاما ٠٠ ولم تحاول هذه الأحزاب ، كما لم يحاول الوفد أن تلتقى مع التيارات الجديدة أو تغير برامجها ووسائلها ، ظلت كما هى، كما انشئت منذ عشرين او ثلاثين ســنة كان هــذا المدى الطويل كان فترة جمود فى الشعب وآرائه ، وكأن لم تقع فى الدنيا حرب شغلت الدنيا واسرعت بتطوير الافكار تطويرا اصيلا عميقا...ومن هنا زاد الانفصال بين الاحزاب والشعب، واصبح اكثر ظهورا مما كان عليه قبل الحرب او فى اثنائها،ومن هنا نشأت قوى شعبية خارج الاحزاب،فى الجماعات الثقافية وفى اوساط الطلبة ونقابات العمال ، وكان انتهاء الحرب ورفع الاحكام العرفية والغاء الرقابة على الصحف واباحة الاجتماعات فرصة لظهور هذه القوى ٠٠ وبينما كانت حكومة النقراشى مشغولة بما هى مشغولة به من مهام الحكم والتنظيم ، كانت هناك اجتماعات ومشاورات تجرى بين جمهرة من الشباب الناضج من هذا الاتجاه او ذاك : بعضهم ينتمون الى الوفد والاحرار الدستوريين والحــزب الوطنى وغــيرها من الهيئات الجديدة وبعضهم لم يكن له اتجاه حزبى معين ، وان كانوا جميعا يشعرون انه لابد من عمل جدى ــ وقد أنتهت الحرب ــ يصون حقوق الوطن ويعجل جلاء المحتلين عن ارضه ٠٠ عمل جدى لم يبد ان الاحزاب تريده او تنتويه ٠٠ وقد اشتركت فى بعض هذه الاجتماعات والمشاورات او دعيت اليها ، وشهدها كثيرون من المشتغلين بالمسائل العامة ، وعقدت الاجتماعات والمشاورات تارة فى مكتب الاستاذ فتحى رضوان المحامى ، وتارة فى مقر بعض الجماعات وتارة فى مكتبى وشهد بعضها الدكتور نور الدين طراف والشيخ صالح عشماوى واحمد حسين المحــامى واحمد يوسف الجندى المحامى واحسان عبد القدوس وغيرهم كثيرون ٠

وكانت المباحثات تدور حول مايجب أن يعمل بعد أن انتهت الحرب خاصا بمستقبل بلادنا داخليا وخارجيا ٠٠ وكانت الحريات الأربع التى أعلنها فرانكلين روزفلت رئيس جمهورية الولايات المتحدة فى ميثاق الأطلنطى بالاشتراك مع ونستون تشرشل رئيس الوزراء البريطانية ، وتوقيع ميثاق سان فرنسيسكو الذى انشئت بمقتضاه الأمم المتحدة فى ٢٦ يونيو سنة ١٩٤٥ وما سبق ذلك من اجتماع روزفلت وستالين وتشرشل فى مؤتمر يالتا ودعوة مصر للاشتراك فى مؤتمر سان فرنسيسكو وسفر وفد مصر الى هذا المؤتمر مؤلفا من عبد الحميد بدوى باشا وابراهيم عبد الهادى باشا وعلى الشمسى باشا ومحمود حسن باشا وزير مصر المفوض فى واشنطون مع هيئة من الخبراء ضمت ممدوح رياض وطه السيد نصر ومحمد عوض وعدلى اندراوس ٠٠ كانت كل هذه الأحداث المتتابعة ، والمبادىء التى أعلنت وذاعت فى العالم ، وفى رأسها الحريات الأربع : حرية القول والرأى وحرية العبادة والتحرر من الفقر والخوف ، وحق الشعوب فى أن تختار مصيرها وان تسترد حقوقها وحكوماتها الحرة ٠٠ كانت كل هذه التطورات العميقة الأصيلة فى العالم تجد صداها فى وطننا ، وكانت هى السبب الذى حمل الكثيرين على التفكير فى مصير الوطن ووسائل استخلاص حقوقه ٠

كنت فى هذا الوقت كثير المهام والمسئوليات ، مثقلا بالعمل الى أقصى حد.. كان هناك عملى فى «الأهرام» ، وهو رئيسى ، وعملى فى اصدار مجلة « الفصول » ، واشتراكى فى جماعة النهضة القومية اشتراكا فعالا واصدار الكتيبات التى كانت تصدرها ، واشتراكى فى الاجتماعات التى تعقد لبحث مصير مصر بعد الحرب فضلا عن اشرافى على نادى الشرقية ونشاطى الذى أخذ يتزايد والقائى محاضرات ادعى الى القائها فى الأندية والجمعيات المختلفة ، كما بدأت الاذاعة تدعونى من جديد للاشتراك فى برامجها ٠٠ وكان هذا العمل كله يسعدنى ، على الرغم من انه كان يرهقنى ٠٠ ولم أكف وسط هذه المشغوليات الجمة عن رعاية الجمعية التعاونية فى قريتى وزيارتها من وقت الى آخر وكلما سمحت الظروف ٠٠ كان يسعدنى أن أنشر آرائى وادعو اليها وكنت استقبل فى نادى الشرقية أشتاتا من الناس ، طلبة وشبانا وكهولا ، متعلمين ذوى ثقافة عالية ، وجهالا أو انصاف متعلمين ، اعطانى هذا النادى تجربة جديدة ، ورأيت كيف يتقابل الناس داخل الأندية أيضا ، كيف يتنافسون ، وكيف يتناقلون الشائعات ٠٠ حقا ، ان الحياة واحدة فى كل صورها ٠٠ وجدتها فى جماعة النهضة القومية برجالها البارزين كما هى فى نادى الشرقية

بمجموعته المختلفة كما هى فى مباحثاتنا حول مستقبل مصر بعد الحرب ٠٠ فى أى ميدان اشتركت فيه بنشاطى وجدت الحياة هى هى ، والنضال هو هو ، والأغراض هى الأغرض ،والانسان هو الانسان ، ليس كاملا ولا نبيا مطهرا ، انه المخلوق الضعيف العنيف ، الراضى حينا ، الساخط حينا ، الأمين حينا المتنصل من الأمانة حينا كلما لاحت له فرصة أو برقت فى الجو لمحة من خير خاص يصيبه ٠٠ كان الحاج محمد عبد اللطيف أمين صندوق الجمعية التعاونية القاعد على المصطبة فى قرية فرسيس له نظائره هنا فى أعظم منتديات القاهرة وأرقى مناصبها الوزارية .. كانت تحلو لى هذه المقارنة أحيانا ، فلا أجد فرقا وابتسم وأنا أسمع الباشا يتحدث أو يداور أو يناور ، واحسبنى أسمع الحاج محمد عبد اللطيف يتحدث أو يداور أويناور ٠

وذات يوم فى أوائل شهر يناير سنة ١٩٤٦ قال لى انطون باشا الجميل ان السنهورى باشا وزير المعارف سيقوم برحلة الى السودان تستغرق ثلاثة أسابيع لافتتاح مدرسة الملك فاروق فى الخرطوم ويسره أن تساعد ظروفك على مرافقته فى هذه الرحلة ٠

كانت الرحلة فرصة جميلة للاستجمام والهروب من برد القاهرة وجوها المضطرب ومن مشغولياتى الكثيرة ، وقبلت الدعوة مسرورا راضيا ٠

قال لى وكيل النيابة :
« أنت متهم بقلب نظام الحكم »

« وعدت الى مكتبى فى الطابق الثانى من جريدة « الأهـــرام » وتركت الباشا القديم والباشا الجديد يتناجيان »

كانت الرحلة الى السودان ممتعة حقا ، وكنا مجموعة محدودة جدا، فكان هذا من مزاياها ، وكان مع الدكتور السنهورى الأستاذ اسماعيل القبانى وكيل وزارة المعارف حينئذ والاستاذ نجيب أبو الليل من الموظفين الفنيين فى الوزارة ، وكان معنا الأستاذ مصطفى عبد الهادى عضو مجلس النواب ، وهو سعدى والاستاذ محمد صبيح والاستاذ طاهر الطناحى •• وقطع بنا القطار الرحلة من القاهرة الى أسوان ، فلما أصبح الصباح •• كلا ، عندما التمع ضوء الفجر ، نهضت من فراشى وفتحت نافذة القطار ، كنا عند محطة قنا ، ورأيت النور المنبثق من بعيد مختلطا بهزات الشجر الرقيق •• كنا فى أوائل يناير ، البرد هنا ليس شديدا ، الدفء طالع مع انبثاق النهار •

وفى أسوان انتقلنا الى الباخرة السودانية التى أقلتنا الى حلفا •• ما أجمل الليالى الثلاث التى قضيناها فيها •• كانت صحبتنا رقيقة ، وكان النيل العظيم الهائل الجميل انيسا لانمله •• مررنا بجبال النوبة ، وضاق مجرى النهر حتى أوشكت الباخرة أن تختنق ، واتسع حتى أوشكنا أن نراه شبيها بالبحر العظيم .. وعند معبد أبى سنبل ، نزلنا . وتجولت فى ابهاء المعبد العتيق ، أربعة آلاف سنة ، رابضة هنا •• فى هذا الشطر العزيز من وطننا ما أكثر ما يتزاحم التاريخ ، كل خطوة ، كل موضع قدم فيه مجد •• مجد قديم •

وبلغنا حلفا ، ومنها أخذنا القطار الذى عبر صحراء العطمور ، وأحسست بعجلاته تهتز فى هذا التيه المنتشر عن يمين ويسار •• الماء قليل

فى القطار ولا ماء حولنا ، لابد من الاقتصاد حتى لانموت عطشا ٠٠ وفى صباح اليوم الخامس منذ تركنا القاهرة بلغنا الخرطوم ٠٠ ولأول مرة رأيت العاصمة المثلثة الجميلة الرابضة فى جنوب الوادى ، كلا فى وسطه عند ملتقى النيل الأزرق بالنهر العظيم ، ورأيت سراى الحاكم العام مشرفة على النهر يحف بها ماكان يحف بالاحتلال حينئذ من مهابة وخوف ٠٠ وفى « الجراند أوتيل » نزلت البعثة الصغيرة التى جاءت من الشمال لكى تحتفل بافتتاح مدرسة فى عاصمة الجنوب ٠٠ وكان الموقف دقيقا ٠٠ هنا وزير المعارف المصرية ، وهنا أيضا حكومة السودان ، وهنا أيضا أهل السودان ٠٠ الحكومة لاتريد أن تلقى البعثة ترحيبا شعبيا ، والبعثة نفسها لاتريد أن تحدث أزمة ، ولكنها فى الوقت نفسه ترجو لو وجدت هذا الترحيب ، وقد لقيته فعلا ، على الرغم من كل ماكان الانجليز يبثونه من عيون هنا وهناك ٠ وفى المآدب الرسمية كان يدعى موظفو الحاكم العام، وكبار موظفى حكومة السودان ، وهم من الانجليز ، فكان السودانيون ، وخاصة الموظفين منهم ، لا يقبلون علينا نحن المصريين الا فى حذر شديد ، بحيث لا يبلغ احتفالهم بنا مبلغا لا يرضى الحكام الحقيقيين للسودان ٠

وفى مؤتمر الخريجين شهدنا الاحتفال بيوم العلم ، فتجلى فى هذه المؤسسة الشعبية مظهر كريم من مظاهر الأخوة بين الشعبين الشقيقين ..السيد على الميرغنى...أخذت أتأمل الرجل وهو ملفوف فى ثوب أبيض، لا يتكلم الا بمقدار.وفى دار حزب الأمة ، التقيت بالسيد الصديق المهدى .. وفى جزيرة « ابا » زرت ومعى الأستاذ طاهر الطناحى السيد عبدالرحمن المهدى..لم يكن السنهورى يعرف أننا ذهبنا الى «ابا».. وقفنا فى كوستى ، وكان على الباخرة أن تبقى بضع ساعات فانتهزنا الفرصة وزرنا الرجل الكبير فى السودان ، زعيم حزب الأمة ، وخصم مصر العنيد فى ذلك الوقت ٠٠ رأينا كيف يعيش العاهل بين الرعية ، كانت سيارة السيد صديق المهدى ، وهى تجرى وسط المزارع ، يقابلها السودانيون من الانصار بانحناء ورجفة فى العيون والوجه كأنهما الخشوع بين يدى الله ٠٠ السيارة فقط والسيد المهدى يقودها ٠

وتناولنا طعام الغداء على مائدة السيد عبد الرحمن المهدى ، وقادنا الرجل فى جولة فى الجزيرة ، رأينا فيها مخلفات أبيه المهدى الكبير وهى دروع وملابس حربية وأعلام وبيارق ومطارق وسكاكين وسيوف ٠٠ وفى مسجد صغير « زاوية » رأينا عددا من المصلين ، أكثرهم يتجاوزون من العمر التسعين ، وربما المائة ، قال السيد المهدى انشأنا هذا المسجد فى نفس البقعة التى استشهد فيها الامام ، والامام هو المهدى الكبير ، وهؤلاء

المصلون بقية من أتباعه وأنصاره الذين حاربوا معه ‥ كنت أنظر الى وجوههم ، وأرى الايمان ، الايمان بالرجل الذى قادهم الى النصر ، وأوشك أن يبلغ بهم غايته ، وكأننى أرى فيها سطور تاريخ حى ٠

ودعا الحاكم العام أعضاء البعثة الى حفل عشاء فى داره ، وقامت مشكلة ، أعدت المائدة على أساس أننا نحن الثلاثة : الطناحى وصبيح وأنا ، لا مكان لنا فيها فلسنا من أصحاب الوظائف وليس فى تقليد دار الحاكم أن تدعو صحفيين الى العشاء على مائدة الحاكم العام ‥ لست أدرى ما اذا كانت المشكلة لها أساس حقا ، أم أنها كانت نوعا من الضيق بنا وبالبعثة ‥ وبعد مباحثات ، تم الاتفاق على أن تعد لنا مقاعد على المائدة وأن نعد من ضيوف الحاكم العام ، العاهل المسيطر على جزء من وادى النيل هو القادم من أقصى الشمال فاتحا وغازيا ومغتصبا ٠

واتصلت ذات مساء بالاستاذ انطون الجميل أسأله عن أخبـــار القاهرة .. وجاءنى صوته عبر أسلاك التليفون واضحا ، كأننى أحدثه من الاسكندرية وربما أقرب منها ‥ سألت عن الاخبار قال : لقد قتل أمين عثمان اليوم ‥ قتله شاب اسمه حسين توفيق ثم تابع حديثه : وفيما عدا ذلك فالحالة هادئة تماما ‥ وأبلغت رفاقى الخبر ، وأخذت أتأمله ‥ بدأت القاهرة تضطرم بتيارات كنت ألمح أنها موجودة فعلا ، وقد ظهرت ظهورا تاما بعد انتهاء الحرب ، ولكن القتل ، كان أبعد ما يكون عن خاطرى ٠

وتذكرت أشياء تتعلق بأمين عثمان ‥ كان جريئا بعض الشىء ، خطب فى كلية فيكتوريا فقال ان العلاقة بين مصر وبريطانيــــا أشبه بالزواج الكاثوليكى لافكاك منه ‥ كان التعبير عنيفا ، والتشبيه مما رج شعور الأمة وأصابها بالاستياء والاشمئزاز ‥ وترك أمين عثمان الوزارة ولاح له أن يؤلف رابطة أو جماعة أو حزبا لست أدرى ماذا كان يقصـــد وذات مساء كان يزورنى الاستاذ عبد الفتاح قزامل ، وكان وثيق الصلة بأمين عثمان ‥ قال ان الناس يظلمونه ، انه ليس بالسوء الذى يصوره الناس به ‥ انه وطنى ويحب وطنه ‥ كل ما فى الأمر أن التعبير يخونه ‥ قلت له : ليكن ما يكون ، ولكنك لن تستطيع أن تنفى عنه ظن الناس انه انجليزى مائة فى المائة .. قال : وأنت هل تحـكم عليه بذلك ؟ .. أتريد أن يكون حكمك شبيها بحكم رجل الشارع ‥ قلت : ليكن حكمى ما يكون ‥ ان أمين عثمان انتهى كسياسى ٠

قال قزامل : أرجو أن تزوره وتناقشه وتسمع كلامه ، وتستطيع

بعد ذلك أن تكون لنفسك ما تشاء من رأى عنه ، وفى الساعة السادسة مساء يوم من الأيام ، اصطحبت الأستاذ قزامل ، وزرت أمين عثمــان فى بيته بجاردن سيتى ٠٠ وجلسنا اليه بعض الوقت ٠٠ الرجل ذكى ما فى هذا شك ، ولكننى أحسست أنه يتحدث العربية كما لو كان أجنبيــا ، مخارج الحروف والتعبير وطريقــة الحديث ٠٠ وانتهت المقابلة وســألنى قزامل رأيى قلت له : رأيى أنه لن يستطيع أن يكسب ثقة أحد من أفراد هذا الشعب ٠٠ قد يكون صريحا وأمينا ومؤمنا برأيه ، ولكنه لن يلتقى فيه مع أحد ٠

عاد هذا كله الى خاطرى وأنا أسمع من انطون الجميل ما لقى الرجل من مصير تعس ، واسفت له واشفقت عليه ، وأخذت أتأمل الدوافع على الجريمة وأدركت ان البلاد مقدمة حتما على احداث خطيرة ٠٠ الآراء تغلى والشباب يضطرم بآمال عريضة أوحاها اليه انتهــاء الحرب وســـكوت المدافع عن الانطلاق ٠٠ حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ أحدثت فى العالم موجات ضخمة ، وأحدثت فى مصر ثورة كبيرة ، وحرب ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ جديرة ان تكون أضخم أثرا وأعظم قدرة على احداث موجات أوسع وأعمق ٠

وانتهت الرحلة فى التاسع عشر من شهر ينــاير ١٩٤٦ ، أعنى قضيت فى السودان ما يقرب من ثلاثة أسابيع ، وركبت الطائرة من الخرطوم ومعى الاستاذ مصطفى عبد الهادى ، وكان متخوفا ، اذ كانت هذه هى المرة الاولى التى يركب فيها طائرة ، فلما ارتفعت فى الجو بدأ يطمئن وقال : ان السفر بالجو مريح جدا ٠

وهبطنا فى حلفا ثم فى الاقصر ، ثم فى القاهرة ، واســـتغرقت الرحلة ست ساعات وفى الساعة الثانية بعد الظهر ، كنت فى بيتى ، وفى المساء كنت فى مكتبى بجريدة الاهرام وبدأت من جديد ارتبط واقترب من مسرح الحوادث ، الذى أحسست وأنا فى السودان انه أخذ يمتلىء بالنذر من هنا وهناك ٠٠

وقد أفادتنى زيارة السودان وامتعتنى ٠٠ ان دراسة السياســـة على الطبيعة أصدق دراسة ٠٠ لقد سمعت من السيد صديق المهدى ان السودانيين يكرهون الحكم التركى وهو يعنى المصرى ، وان ذكرى هذا الحكم لا تزال مـــاثلة فى الأذهان ، وســـمعت فى مؤتمر الخريجين ان السودانيين غاضبون لأن مصر حلت مشكلتها مع بريطانيا بمعاهــدة سنة ١٩٣٦ وعلقت مشكلة السودان ، وسألنى الدكتور السنهورى عن رأيى فى موقف السودان منا ٠٠ ولم أستطع أن أجيب اجابة قاطعة ٠٠ قلت

لا هو مع الوحدة ، ولا هو ضدها انه فى مرحلة من الحيرة لم يثبت بعد عند رأى نهائى غالب ٠٠ قال : الا ترى انه فى مثل المرحلة التى كنا فيها حينما وقع الاحتلال البريطانى لبلادنا ، وزالت السيادة التركية وأصبحت اسمية٠٠ كان فريق منا٠٠ فريق كبير ينحاز الى تركيا ويعطف عليها ، وربما دعا الى الانضمام اليها ٠٠ قلت : اننى أميل الى هذا الرأى ٠٠ ان السودان يعانى الحكم البريطانى وهو يرى فى مصر سندا يعتمد عليه للتخلص من هذا الحكم٠٠ أما هل يؤلف البلدان وحدة أم لافموضوع آخر ، لا أستطيع البت فيه ٠

ورأيت المهدى فى جزيرة ابا ملكا أو شبيها بملك ورأيت انصاره يضطربون ويخشعون لا بين يديه ، ولكن لمجرد مرور ابنه وهو يقود سيارته على بعد عشرات الامتار منهم ، رأيته فى جزيرة أبا يستضيف معنا ضابطا بريطانيا صغيرا برتبة ملازم عرفت انه ضابط فى البوليس وعرفت ان الحكم كله فى الجزيرة متروك للسيد الكبير ٠٠ ورأيت السيد الميرغنى الزعيم الآخر فى السودان الذى يقال انه من أنصار الوحدة ٠٠ رأيت جمهرة الشعب منقسمة بين الزعيمين الدينيين تسمع لهما ولا تناقش ٠٠ ولكننى رأيت مع ذلك حبا لمصر وتأثرا بثقافة مصر وصحافة مصر وأدب مصر وكتاب مصر ٠٠ كنت أسير فى أم درمان فأسمع الاغانى المصرية وأرى الأفلام المصرية ، وأرى الناس هنا كما كانوا فى مصر ، كثرتهم متشيعة للوفد ، وبعضهم متشيع لهذا الحزب أو ذاك من أحزاب مصر ٠

ولم أكد أستقر فى مصر أياما ، حتى جاءنى ضحى يوم ٩ فبراير سنة ١٩٤٦ من يقول : هل عرفت ماذا حدث عند كوبرى عباس ، لقد فتح البوليس الكوبرى وغرق شباب من طلبة الجامعات ، وقتل آخرون، كان طلبة الجامعة قد قرروا القيام بمظاهرة تطالب بالجلاء ، وتصدى لهم رجال البوليس عند مدخل الكوبرى لكى يمنعوهم من اجتيازه الى قلب المدينة وقامت معركة حامية واضطر البوليس الى فتح الكوبرى ٠٠ كانت مأساة أليمة هزت الوطن هزا عميقا ، وكثرت الروايات والشائعات فى شأنها وقامت مظاهرات أخرى متعددة فى الأقاليم وبدا ان مركز وزارة النقراشى يضعف ضعفا شديدا فاستقال فى ١٥ فبراير وخلفه اسماعيل صدقى ٠

وكانت وزارة النقراشى قد طلبت الى الحكومة البريطانية المفاوضة لتعديل معاهدة سنة ١٩٣٦ فردت الحكومة البريطانية بالموافقة على أساس

القواعد المقررة في المعاهدة ، وكان هذا مما أثار الوطن وأدى الى حادث كوبرى عباس وغيره من الحوادث ، وكان على اسماعيل صدقى أن يتولى هذه المفاوضة ، ونقل لورد كيلرن (سيرمايزلا مبسون) السفير البريطاني الى منصب آخر وعين بدله سير رونالد كامبل ، وهكذا بدا ان الوطن مقبل على مرحلة جديدة من مراحل المفاوضات .

ولم يكن الشعب واثقا فى حكومة اسماعيل صدقى ، بل لعل وجوده على راس الحكومة أبعدها عنه أكثر مما كانت فى عهد النقراشي باشا ، ونشطت القوى الشعبية المختلفة ، ولا أقول الحزبية ، فقد كان النشاط السياسى الأساسى فى هذه المرحلة نابعا من الطلبة والعمال دون نظر الى أحزابهم التى ينتمون اليها ، وقامت مظاهرة كبرى يوم ٢١ فبراير مطالبة بالجلاء .. وما كان أفظعه من منظر في ميدان الاسماعيلية مساء هذا اليوم الكئيب . .كانت كتل من الدخان تشمل الميدان ، وكتل من البشر وكتل من الحزن الكظيم .. كان الشعب يصخب ويتألم ويصرخ ويموت .. كانت سيارة مسلحة بريطانية قد أطلقت مدافعها على المساكين المسالمين المطالبين بحق وطنهم فى الحرية .

ما أطيب قلب هذا الشعب ، ذهبت جموع من الصبية والفتيان والفتيات والشباب تطوف بدور الاحزاب تدعو الى الائتلاف لمواجهة شتى الاحتمالات وذهبت هذه الجموع تهتف ولكن الائتلاف لم يتم وظلت الأحزاب كل فى واد .

على ان يوما فى مارس ، الرابع منه ، جمع فى صعيد واحد مصر كلها ، فأعلنت حدادها على ضحايا يوم ٢١ فبراير .. كانت هذه كلها نذرا لما وقع فيما بعد من حوادث ، وأستصدر صدقى مرسوما بتأليف هيئة للمفاوضات برياسته وعضوية شريف صبرى وعلى ماهر وحسين هيكل وعبد الفتاح يحيى وحسين سرى ومحمود النقراشي ولطفى السيد وعلى الشمسى ومكرم عبيد وحافظ عفيفي وابراهيم عبد الهادى .. ولم تكن الهيئة ، كما لم تكن الوزارة ، كما لم يكن مجلس النواب ، يمثل أية حقيقة من الحقائق الجوهرية النابضة فى ضمير هذا الشعب ، كانت الوزارة وهيئة المفاوضات والبرلمان فى واد والشعب كله فى واد .. ومع ذلك فقد وقف ينتظر ، ينتظر فى صبر وغيظ وحقد مكتوم .. ظل الوفد خارج هذه التشكيلات كلها ، فلم يجد الشعب غيره يستند اليه ، ولكنه استناد الذى لا يجد أفضل منه ، أما فى حقيقة الامر ، فقد كان الشعب مهزوز الايمان فى كل شىء ، وجرت المفاوضات فى مصر وتولاها من الجانب البريطانى لورد ستانسجيت وزير الطيران قادما من لندن بمساعدة

السفير البريطانى فى القاهرة وقائد الأسطول وقائد الجيش فى الشرق الأوسط ٠٠ لم تكن مفاوضات كاملة ، كانت بداية لجس النبض ٠

وفى هذا الوقت وفد الى القاهرة أضخم وفد سودانى تمثلت فيه جميع الأحزاب والاتجاهات المختلفة فى السودان ، كان فيه ممثلون لحزب الأمة وحزب الأشقاء ولمؤتمر الخريجين ولحزب وحدة وادى النيل وغيرها من الأحزاب والجماعات السودانية ٠٠ جاءوا الى القاهرة لكى يكونوا على مقربة من المفاوضات الجارية فيها ٠

وذات يوم فى شهر مارس سنة ١٩٤٦ ، اتصل بى أحد ضباط القسم السياسى فى وزارة الداخلية وقال ان دولة صدقى باشا يريد ان يراك ، وأزعجنى ان يكون استدعائى لمقابلة رئيس الوزراء عن طريق القلم السياسى ، وكان حينئذ مخيفا فى اسمه ورسمه واجراءاته ٠٠ وأجبت الطلب وأنا متوجس خائف قلق ، وفى غرفة رئيس الوزارة قابلنى صدقى بابتسامته الرقيقة العنيفة ، كانت يده اليسرى مسجاة الى جواره ،وفى عينيه بريق الذكاء والدهاء الذى لم يفارقهما ٠٠ قال : أردت أن أعرف رأيك فى وفد السودان هذا ٠

واستردت أنفاسى ، ولكننى ساءلت نفسى لماذا اذن كان استدعائى عن طريق القلم السياسى ، وأنا أرد على رئيس الوزارة قائلا : ان الوفد يمثل كل الاتجاهات الموجودة فى السودان ، ورأيه — فيما أعتقد — يمثل الحد الأدنى الذى يجمع السودانيون على قبوله ٠

قال : لقد زرت السودان وأعرف انك ملم بكل شؤونه فماذا ترى وماذا يرى الناس هناك ؟

قلت : فهمت من الناس هناك انهم عاتبون لأن مصر فى سنة ١٩٣٦ عنيت بحل مشاكلها ولم تعن بحل مشكلة السودان ٠

قال صدقى باشا : لأن مشكلة السودان معقدة ٠

قلت : ان الناس فى مصر والسودان يعتقدون ان مشكلة الجلاء يسيرة وأمرها مسلم به من البريطانيين فهم يرجون أن يروا حلا لمشكلة السودان ٠

قال صدقى : وهل تعتقد أن مسألة الجلاء يسيرة ؟

قلت : دولتك أدرى منى ٠٠ وانت الذى تباشر المفاوضات ، وتعرف من أسرارها مالا أعرف ، وقد سألتنى عن رأى الناس فنقلته اليك ، وهم يرون ألا بد من حل المسألتين معا ، الجلاء والسودان ٠

قال : انت محام ، فاذا كان عندك قضيتان احداهما أيسر من الأخرى الا تبدأ باليسيرة أم تعالج القضيتين معا ؟ ·

قلت : ولكن هل هما قضيتان .. الرأى العام يرى انهما قضية واحدة ·

قال صدقى باشا : أنا لا أستطيع أن أعطل الجلاء عن مصر من أجل السودان ، فلا نكون قد حللنا شيئا ·

قلت : ان ما حدث فى معاهدة سنة ١٩٣٦ سيتكرر الآن وقد قلت لدولتك ان السودانيين عاتبون لهذا ·

قال : ان مشكلة الجلاء ليست يسيرة ، ولو نجحنا فيها لكان كسبا كبيرا ·

وانتهت المقابلة وحيانى صدقى باشا أحسن تحية وخرجت ولكن ظلت حكاية استدعائى عن طريق القلم السياسى تشغل خاطرى فترة من الوقت وتضايقنى ، وأكثر ما ضايقنى فيها انها تحمل نوعا من الاستهانة بشأنى أو الاكبار من شأنى .. لست أدرى ؟ .. ولكن لا بأس ، ما أكثر ما لقيت من هذا النوع من المعاملة ·

ومرت أيام ، ربما شهر أو أكثر ، ثم دخلت غرفة انطون الجميل ، لتهنئته برتبة الباشوية ، فلقيت عنده صدقى باشا ، وكان الحديث يجرى بشأن اضرابات ومظاهرات للعمال وقعت فى الاسكندرية ، وقال صدقى باشا : ان العمال عندنا مضللون .. أين هم من عمال انجلترا الذين يقودهم أمثال ماكدونالد وبيفن ·

قلت ·· وأنا دائما مسحوب من لسانى : ان المقارنة هنا غير صحيحة ، ولا بد لكى تكون صحيحة ان تكون باقى العناصر متشابهة ، فهل النظام فى انجلترا شبيه بالنظام فى مصر ·· هل الثروة ، التعليم ، الحريات ·· ثم هل الوزراء هناك مثل الوزراء هنا ؟

وساد صمت عنيف بعد ان قلت هذا الكلام ·· سكت اسماعيل صدقى رئيس الوزراء ، وسكت انطون الجميل رئيس تحرير الاهرام وأحسست اننى مرة أخرى زودتها حبتين ، وسرعان ما شعرت بالأسف والندم ·· لماذا قلت هذا الكلام ، أقل ما فيه انه قلة ذوق ·· ان اسماعيل صدقى وزير بل رئيس الوزارة فى مصر ، كيف أواجهه بهذا الكلام ·· وأحسست اننى أخطأت ·· كان كلامى صحيحا ما فى هذا ريب ، ولكن

هل لابد ان يقال كل كلام صحيح .. ما أغبانى ! لم أتعلم ويظهر انه لا أمل لى فى أن أتعلم كيف أداور وأنافق وأجامل ٠

وعدت الى مكتبى فى الطابق الثانى من « الأهرام » ، وتركت الباشا القديم العتيق والباشا الجديد يتحدثان ويتناجيان ٠٠ وأخذت أفكر ٠٠ ليتنى ما نزلت الى مكتب انطون الجميل ، ان مصيبتى اننى مندفع لا عن قلة عقل ولا عن قلة روية ، فلعل ما عندى منهما أكثر مما أنا فى حاجة اليه ٠٠ ولكن عن تسرع لا أستطيع له دفعا فى كثير من الأحيان ٠٠ وعدت بخاطرى الى مشرق حياتى فى الوظيفة وكيف ان عبارات كهـــذه كانت السبب فى مضايقتى واضطهادى ٠٠ أتراتى لم أفهم بعد ما يجب أن يكون عليه تصرفى فى الحياة ٠٠ أترى الحياة لم تتغير هى الأخرى ، اننى الآن فى شبابى الناضج ورجولتى المكتملة ٠٠ هل لا بد ان تظل حمية الشباب المبكر بعض طبعى وبعض رأيى وبعض خلقى ؟

وأسفت ٠٠ أسفت لا لأننى قلت هذا الكلام ، ولكن لأننى لا أستطيع أن أقوله من غير أن أتعرض لأذى ، أو يحتمل أن أتعرض لأذى ٠

ومرت أيام ونسيت كل شىء الى ان كان ذات مساء فى شهر يوليو سنة ١٩٤٦ دعيت فيه الى العشاء فى فندق الكونتيننتال ٠٠ وكان الداعى هو الأستاذ على البرير رئيس الهيئات السودانية فى القاهرة ، وكانت الحفلة تكريما للوفد الســـودانى ٠٠ وفى ركن من الاركان جلست مع الاستاذ فكرى أباظة والدكتور محمد مندور والاســتاذ أحمد حســـين وآخرين وجرى الحديث عن التشريعات ـ الجديدة التى أصدرتها حكومة اسماعيل صدقى بتقييد حرية الرأى ، وكانت تشريعات بالغة القسوة ٠٠ وبعد ان انقضت السهرة عدت الى بيتى ٠

وفى الساعة السادسة من الصـــباح سمعت طرقا عنيفا جـدا على الباب ، كاد يحطمه ، فقمت من النوم مذعورا وفتحت الباب ، فاذا بى أمام اثنين من الافندية ، أحدهما بملابس عسكرية ، ضابط بوليس ، وقال الأفندى المدنى ، وعرفت فيمـــا بعد انه الاســـتاذ حسين زكى وكيل النيابة : عايزين نفتش البيت ٠

قلت وقد تماسكت وبدوت مستهينا أو كالمســـتهين : ومن ادرانى انك وكيل نيابة ٠٠ ارنى أوراقك ٠٠ ؟ وقرأت فى أوراقه الأمر الصادر بتفتيش مسكنى ومكتبى ٠

وقال وكيل النيابة : انت متهم بقلب نظام الحكم ، ضحكت ساخرا وقلت : حكم ايه ده اللى أقدر أقلبه أنا ؟

ورجعت إلى السجن كاسفًا وأنا حزين

« ويوهن الليل وأنا مؤرق ثم أنام حتى اذا أصبح الصباح نسيت كل الأوهام والاحتمالات »

ان فى الانسان لقوى كامنة لا تظهر الا عندما تدعو الحاجة الى ظهورها ، وقد يكون يجهلها ، بل انه على التحقيق ليجهلها ، ومن هنا كان الخوف والقلق وأباطيل التخيل والجزع ٠٠ ومن هنا كنت وأنا أنظر الى وكيل النيابة وضابط البوليس اللذين اقتحما بيتى بحكم القانون ، شديد السخرية ٠٠ لست أدرى هل كان هذا من الجرأة أو الشجاعة أو كان كما يقول المثل « لأن السكين كانت سارقانى » ؟ هل كان لأن فى داخلى قوى لم تسمح الظروف بظهورها فلما سمحت فاذا بى ضاحك مستهين قادر على أن أتحمل الصدمة بشجاعة ؟

لست أعرف على التحديد ، وأغلب ظنى أن الأمر كان نوعا من الضن بنفسى أن أتهالك وأضعف ، وكما قلت أكثر من مرة ، اننى أكره أن أكون موضع عطف أو اشفاق من أحد ٠

قال وكيل النيابة فى شىء من الاستعلاء والزهو بالسلطة ، سرعان ما نبت ما يقابله فى نفسى من الجرأة وعدم تمكينه من الاستمتاع بهذه السلطة ٠٠٠ وصاحب السلطة لا يشعر بالاستمتاع بها الا اذا أحس بأن من يمارس سلطته ضده خائف ضارع ٠٠ قال وكيل النيابة : نفتش البيت ٠٠ كل جزء فيه ، واقتحم غرفة مغلقة وسارع ضابط البوليس بالدخول فى لهفة وتأكد من أن أحدا فى البيت لم يخف شيئا وقد سخرت من هذه الحركة فعلا ، فلم يكن لدى ما أخفيه ٠٠ كنت بريئا تماما من الاتهام الموجه لى ، وربما كان هذا اليقين بعض الأسباب التى جعلتنى أكثر

استهانة ، وكأننى أعيش فى مهزلة صغيرة ، ولكنها فى الواقع لم تكن كذلك ، ان بيتى يفتش ، والاتهام قائم ، والى أن يثبت بطلانه لابد أن أعيش فى قلق وتوجس ٠٠ ثم أنا لا أعرف ما عنـد القلم السـياسى من أدلة ٠٠ واذا كانت الأمور تسير كما يجب فليس هناك ما أخافه ، ولكن اصطناع الآدلة وخلقها وترتيبها وتزييفها شيء ممكن ، والا لماذا اتجه النظر الى ولماذا وضعت فى قائمة المتهمين ؟

ومر شريط طويل سريع ٠٠ ان نشاطى العام كله علنى ٠٠ ما أكتبه يقراه الألوف ، ولست متطرفا ولا أنا ممن لا يقدرون المسئولية،اذا نقدت فاننى أختار ألفاظى ، وليس فيها جرح لأحد ٠٠ مرن قلمى ، كما مرن عقلى على أن أنظر الى المسائل نظرة موضوعية خالصة ٠٠٠ نادى الشرقية ، ناد علنى ، والمحاضرات التى تلقى فيه يشهدها المئات ، مجلة « الفصول » مجلة متزنة معقولة تعتمد على الدراسة والتفكير ، ووزارة المعارف تشترك فيها لمدارسها ومكتباتها ٠٠ حديثى مع اسماعيل صدقى باشا ٠٠٠ ربما ! ولكن ماذا فيه ؟ هل كان يتضمن قلب نظام الحكم ؟ تأييدى لمحمد خطاب بك فى مشروع تحديد الملكية الزراعية ٠٠ هل هو السبب ؟ ولكن هذا غير ممكن أيضا لأن خطاب نفسه ، وهو صاحب المشروع ، لم يمسه أذى ٠٠ جماعة النهضة القومية ٠٠ ان أعضاءها جميعا من أصحاب العقـول الراجحة ، وبعضهم من أصدقاء هـــذا العهد وربما من أسـناده ، وكل دراساتنا وأبحاثنا نطبعها ونوزعها ... ماذا اذن ؟ ولم أهتد لشيء .. وقلبت كل احتمال ، فلم أجد أنه يصلح سببا لما أراه الآن ٠٠ تفتيش بيتى وزيارة مبكرة من وكيل نيابة وضابط بوليس وحذر شديد وحرص على مراقبة النوافذ ومراقبة حركاتى وحركات كل من فى البيت ٠

مر هذا كله فى سرعة ، فى لمحة ، فى أقل من لمحة ٠٠ ان العقـل والخيال والتفكير تعمل فى مثل لمح البصر ، وكان وكيل النيابة قد أخذ يبعثر كتبى ، ويفتح أدراج مكتبى ، ويبحث فى كل ركن فيه ٠٠ ومن سوء حظه أن الكتب عندى كثيرة والأوراق لا حصر لها ٠٠ كنت أنظر اليه وهو يقلب ولا يجد شيئا وأشعر باشفاق عليه ، وكنت أساعده فألفت نظره الى ما فات عليه تفتيشه أو أدله على ركن فيه كتب وأوراق ٠٠ كنت مطمئنا جدا الى أنه لن يجد عندى ما يديننى .. ثم عثر على كتاب عنوانه « روسيا الحمراء » فكأنه سقط على كنز ، وأخذه فى فرح أكيد ، وضحكت ٠٠ وساءه الأمر قال : لماذا تضحك ؟ قلت : لأن هذا الكتاب ضد روسيا وقد صدر فى سنة ١٩٤٢ بعد مروره على الرقابة ومؤلفه موظف فى وزارة الخارجية هو الأستاذ عصام محمد سليمان ، وقد أهداه لى ، والاهـــداء

أمامك ٠٠ ولكن وكيل النيابة كان لابد أن يجد شيئا فقال للضابط : خذه معك وضمه الى الحرز ٠٠

وبعد بحث طويل آخر وجد عندى مذكرة مكتوبة بالرونيو باللغة الفرنسية وكان عنوانها « ساعات العمل فى مصر » وابتسم فى وجهى كأنه يرد شماتتى به فضحكت أيضا وقلت له : هل تعرف من هو كاتب هذه المذكرة ؟ انه هو مسيو ليفى سكرتير اتحاد الصناعات وقد رجانى صدقى باشا أن ألخصها وأنشرها فى الاهرام وهى مقدمة الى مكتب العمل الدولى فى جنيف ، والمقصود منها تبرير عدم الخضوع لقرار المكتب بجعل ساعات العمل ثمانية ساعات فى اليوم ٠٠٠ وضحكت ساخرا وقلت له : هذه خدمة أديتها لدولة اسماعيل صدقى باشا رئيس الحكومة وللمسيو ليفى سكرتير اتحاد الصناعات وخدمة للرأسمالية ٠٠

وتابع وكيل النيابة البحث وقد تولاه ضيق شديد لأنه لم يجد ما كان يرجو أن يجده ٠٠ ثم أخذ يقلب فى ورق محفوظ عندى ٠٠ كان بروفات الكتيب الذى ساعدت اسماعيل صدقى فى كتابته دفاعا عن عهده وقد سبق لى فى هذه المذكرات أن رويت قصة هذا الكتيب ٠٠ وكانت فى البروفات تصحيحات بخط صدقى باشا..ونظر فيها وكيل النيابة لمحة وقرأ بعض السطور ثم تركها ، قلت له : لماذا لا تأخذ هذا ؟ هل مهمتك فقط أن تبحث عن الادانة ، أليست مهمتك أن تعرف الحقيقة ؟ لماذا لاتضم هذا أيضا الى أحرازك ، وهو دفاع عن رئيس الحكومة الذى أمرك بتفتيش بيتى ؟ ٠٠

أخد الموقف بينى وبين وكيل النيابة وضابط البوليس يسوء شيئا فشيئا ، وكان يضايقهما أننى مستهين بكل الاجراءات وأبدو شديد الاطمئنان والثقة ، كثير الفكاهة والمرح ٠٠ بدا لى الموقف كأنه تمثيلية ، مبكية فى الواقع ، ولكنى حولتها بنوع من الفكاهة ، الى ملهاة مضحكة ٠٠

وكنت أحسب أن الأمر تفتيش فحسب ، ولكن وكيل النيابة بعد أن فرغ من التفتيش ، قال : تفضل معانا شويه ، وسكت لحظة ثم قال: اعمل حسابك يمكن تغيب عن البيت كام يوم ٠٠

وأدركت أن الأمر اعتقال أيضا ، وأدهشنى أن يكون هذا هو قرار وكيل النيابة قبل ان يراجع ما أخذ من أوراق وقبل أن يحقق معى أو يسألنى ، ولكننى لم أنطق بكلمة من كل ما دار فى ذهنى ، كل ما حدث أننى قلت له فى مرارة وسخرية : كده ٠٠

ولم أضع وقتا ٠٠ ارتديت ملابسى ، واصطحبت الرجلين فى سيارة تاكسى كانت جاهزة أمام البيت ، قال وكيل النيابة : أريد تفتيش مكتبك الخاص ٠٠ وقلت للسائق اذهب الى رقم ١٧ ش شريف باشا وفى مكتبى كانت هناك تلال أخرى من الكتب والورق والصحف والخطابات والملفات وأخذ وكيل النيابة ينبش فى الكتب ويراجع ويقلب ويترك غرفة ليدخل فى غرفة ، وأنا معه ، أرشده أيضاالى ما يفوته وافتح له هذا الدولاب أو ذاك ، وأقول له : لايزال عندك عمل ، تفضل فتش ٠٠ وتعب الرجل ، فكان يقول لى بايماءة من رأسه ان لا ٠٠ ووجد فى ذرج مكتبى خطابا باللغة الانجليزية موجها باسمى من لندن من هيئة اسمها رابطة مكافحة الاستعمار League Against Imperialism فأخذه وقد ظن انه وقع على دليل عظيم فضحكت أيضا ٠٠ ما أكثر ما ضحكت فى هذا اليوم وما أكثر ما تضايق وكيل النيابة ومرافقه ضابط البوليس٠

وبقى أمامه شىء آخر ٠٠ بقى تفتيش مكتبى فى الأهرام ٠٠ وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة حينما صعدنا الى الطابق الثانى من الأهرام ، ومعى وكيل النيابة وضابط البوليس ، والسعاة والفراشون والمحررون والناس ينظرون فى دهشة واشفاق .. وأخذ وكيل النيابة يقلب أيضا فى كتب كثيرة ٠٠ ولابد انه تضايق من كثرة الكتب التى لقيها عندى ٠٠ ولعله ظن انه لن يجد فى مكتبى فى الاهرام كتباولكن لسوء حظه كانت عندى هناك كتب كثيرة وأخذ يقلب فيها واختار منها كتابا عنوانه Can Capitalism Last ? وترجمته هل يمكن أن تدوم الرأسمالية ، وضحكت أيضا ٠٠ كان الكتاب ضخما تزيد صفحاته على ٨٠٠ صفحة وكان باللغة الانجليزية ، ولم يكن الكتاب لى ، كان من كتب جريدة الاهرام التى تتلقاها من دور النشر والفكر فى العالم ، وكان جبرائيل تقلا باشا يعطينى اياها لاقرأها واعلق عليها ، وقد أعطانى هذا الكتاب منذ سنوات ولم أكتب عنه ، ولم أقرأه ٠

وفى أثناء وجود وكيل النيابة فى مكتبى طلب رقما فى التليفون ، وفهمت من الحديث انه يخاطب رئيسه ويبلغه نتائج مهمته وفهمت أيضا ان رئيسه أبدى دهشته حينما قال له وكيل النيابة انه لم يعثر على شىء ذى قيمة ٠

وانتهى التفتيش ، واصطحبنى وكيل النيابة فى سيارة تاكسى الى محكمة الاستئناف فى باب الخلق وهناك فتح محضرا قصيرا لم يتجاوز بضعة أسطر اثبت فيه الأوراق والكتب التى عثر عليها ، وحينما جاء دور

اثبات الخطاب الذى تلقيته من رابطة مكافحة الاستعمار League against Imperialism أثبته الوكيل على انه من رابطة مكافحة الرأسمالية ونبهته الى ماوقع فيه من خطأ وقلت له ان كلمة Imperialism معناها الاستعمار وليس الرأسمالية ولكنه لم يسمع لى واصر على تدوين ما دونه ٠

ثم وجه لى التهمة وهى فى ايجاز العمل على قلب نظام الحكم وانكرتها بطبيعة الحال ٠٠ كان الاجراء صوريا محضا ، وقرر وكيل النيابة حبسى أربعة أيام على ذمة التحقيق ٠٠ أى تحقيق ؟ لست أدرى ؟ ٠ ولكن الأمر طن فى اذنى طنينا عجيبا ٠٠ أنا الآن متهم ومحبوس على ذمة قضية لا أعرف عنها شيئا ، وعلى ذمة تهمة لا وجود لها ، وليس بيد من قرروا حبسى دليل واحد على ادانتى ٠٠ أية مأساة ٠٠ واخذ الموضوع يزداد خشونة فى خاطرى ٠٠ منذ ساعات كنت حرا وأنا الآن سجين ٠٠ سجين لماذا ؟ لست أدرى ، ولا يدرى وكيل النيابة الذى أصدر الأمر بحبسى ، ولا يدرى رئيسه الذى كلفه بتفتيش بيتى والقبض على وحبسى ، ولا يدرى النائب العام ، ولا يدرى رئيس الحكومة التى طلبت التفتيش والقبض ٠٠ من اذن الذى يدرى ؟

وأسفت ، بل حزنت ، لا لأننى محبوس فهذا أيسر شىء ، ولكن لأنه فى الاستطاعة أن يحبس الانسان من غير سبب ، يحبس وهو برىء ٠٠ وسخرت مرة أخرى من كل شىء ٠٠ ان فى حياة الانسان لمحات لست أدرى من القوة أم من الضعف ، لست أدرى من الخوف أو الطمأنينة ، تجعله قادرا على أن يبتسم ويسخر وكل ما حوله مأساة ٠

وقادنى ضابط البوليس الى سجن الاجانب ٠٠ وهناك عرفت بعض التفاصيل عن المهزلة من أولها الى آخرها ٠٠ رأيت فى السجن عشرات ، حالهم مثل حالى ٠٠ هجم عليهم البوليس ومعه النيابة فى نصف الليل وفتشوهم وقادوهم هم الآخرين الى حيث أوجد الآن ٠٠ رأيت الدكتور محمد مندور والاستاذ سلامه موسى والاستاذ أبو بكر نو الدين رئيس اتحاد خريجى الجامعة ، والدكتور محمد بلال ، والاستاذ مصطفى منيب والاستاذ أحمد كامل قطب المحامى ورئيس حزب الفلاح وكثيرين آخرين لم أكن أعرفهم ٠٠ وعلمت أن عدد المقبوض عليهم جاوز المائتين وان منهم من أودع سجونا أخرى ، وان هناك حملة مشابهة وقعت فى الاسكندرية ، وغيرها من المدن فى نفس الوقت وفى نفس الليلة وبنفس التهمة ٠٠ واخذنا الأمر جميعا مأخذ النكتة البارعة الباردة السخيفة واصبح السجن

خلية نحل ناشط ٠٠ ضحكات هنا ولمحات ساخرة هناك ، مجموعة كبيرة من أصحاب الفكر والاهتمام العام وجدوا أنفسهم فجأة دون سبب وقد اجتمعوا معا ، فى سجن ٠٠ هذا صحيح ٠٠ ولكن أبرز ماكان فى الموضوع ليس السجن،كان الاجتماع والضحك والسخرية، وخفف هذا وذاك من أمر القبض والاعتقال والتفتيش وتقييد الحرية ، حتى أصبحت جميعا وراء الصورة ٠٠ كان سلامه موسى يجلس على كرسية يتسائل فى هدوء ويتكلم في بساطة ويشتم ويسخط ويلعن في هدوء وبساطة أيضا ٠٠ وكان مندور لا يكف عن النكتة وهو بجسمه الضخم وتكوينه اللطيف يمضغ الكلام وكأنه لا يتحدث ، ويتحدث وكأنه يمضغ الكلام ولا يريد أن يبين .. كانت غرف السجن ضيقة بصفة عامة وكان قريبا من ميدان المحطة وضجة المدينة تصل الينا لماما ، وبضع شجرات هنا وهناك حولنا وفى جوارنا ، تعطيه صورة المصحة أو المستشفى ، والسجانون يعرفون أى نوع من المسجونين هم ضيوفهم ،فهم طيبون متسامحون لا يكادون يخدشون أو يشتدون أو يأمرون الا بالقدر الذى يرفع عنهم المسئولية ، ومأمور السجن وضباطه هم الآخرون مهذبون ٠٠ وكثر زوارى من أهلى وأصدقائى ، وبين وقت وآخر كنت ادعى الى غرفة المأمور ، حيث أجد من يسأل عنى ، كان الحزن فى عيونهم ، وكان يدهشهم أن يجدونى مرحا ، وكأننى لست فى محنة ٠٠ حتى اذا أقبل الليل ، واصبحت وحدى ونمت فى هذا الفراش الذى لا هو كئيب ولا مريح سرحت بخاطرى فى الأمر كله ٠٠ وتأملت ومع التأمل تبدو الكارثة أضخم ، لانك تعيشها بالعقل والمنطق ٠٠ أنا برىء مما أنامتهم به ٠٠ مافى هذا شك ، لاننى أعرف نفسى قبل أى انسان ، ولكننى ، وأنا برىء ، محبوس ومتهم ٠٠ فى الامكان اذن أن تقع المتناقضات وقد وقعت ٠٠ ليس فى البلاد أحكام عرفية ، ولكنهم استطاعوا تحت ظل القانون العام أن يحبسوا بريئا أو ابرياء ٠٠ ماذا يمنعهم اذن أن يطيلوا هذا الحبس كما يشاءون بحجة التحقيق أو البحث أو التفتيش .. ربما بلغ شهورا ، حتى اذا بلغوا منه غايتهم وهى التأديب أو التخويف أو ماذا مما لا أدريه ، أطلقوا السراح لأن التحقيق انتهى ولم تثبت تهمة ٠٠ وقد يقع الأسوأ .. ان تلفيق التهم سهل ، والذمم الخربة كثيرة ، والسلطان حينما يكون طاغيا يساعد على تخريب الذمم وتلفيق التهم ، ويجد الأعوان الكثيرين ، من الضعاف والطامعين والخائفين ، ومن سوء الحظ انهم كثرة كثيرة .

ويوغل الليل وأنا قلق ثم أنام،حتى اذا أصبح الصباح ، وانضممت

الى اخوانى نسيت كل الاوهام والاحتمالات والمخاوف ٠٠ ان الجماعة تخفف الكثير وتقضى على الكثير ، لا يبقى فى النفس الا هذه القوة النابعة من رؤية وجوه مستبشرة ضاحكة ساخرة ٠٠ ان جانبا كبيرا من قوتنا يأتينا من الاشتراك مع الآخرين. أنت وحدك ضعيف، ولكنك مع غيرك قوى ٠٠ ومن هنا ابتدعوا الحبس الانفرادى لاضعاف المقاومة والاذلال ٠

كان شىء واحد يؤرقنى أكثر من كل شىء ٠ ابى فى القرية النائية ما هو حاله ؟ ترى أى ألم يعصر قلبه ، وهو يرى ابنه البكر الذى علق عليه الآمال ، وانتعشت حتى سنده فى حياته وحقق له الكثير مما كان يرجوه ..هاهو ذا محبوس ، سجين، وهاهو ذا توجه اليه تهمة بشعة ، وانه ليؤمن ويعرف تماما أننى برىء ولكن المعرفة شىء والواقع شىء آخر ، وانه ليقرأ فى الصحف انباء ضخمة عن هذه القضية ، وقد تفننت بعض الصحف فى تضخيمها وابراز عنواناتها واعطائها صورة المؤامرة المحبوكة .. الخلايا الشيوعية تتجمع .. هنرى كورييل يمول الحركة .. البوليس يكشف المؤامرة بمهارة فائقة ٠٠ حملة تفتيش واسعة فى نصف الليل فى وقت واحد .. وهكذا من العنوانات المثيرة .. ولا يستطيع القارىء أن يعرف الا هذا الذى تقوله الصحف على لسان السلطات المسؤولة أو عن رغبة فى الاثارة والضجيج ٠٠ كل شىء كان سيئا بالنسبة للرجل الذى اخذت السن تتقدم به ٠٠ ولم يستطع أن يأتى الى القاهرة لكى يزورنى ، لأنه لا يطيق أن يرانى مسجونا ، وقلت لاعمامى واخوتى . طمنوه ٠٠ ليس الأمر مزعجا كما يتصور ٠٠ انتم ترون اننى أقضى الوقت فى مرح ٠٠ آكل ما أشاء ، وانام فى فراش حسن ومعى اخوانى واصدقائى ٠٠ ولكن قلب الأب ، كيف يستطيع أن يهدأ ولو جمعوا له السموات والأرض لكى يهدأ ٠٠ انه لن يهدأ الا اذا وجد ابنه حرا طليقا ٠

ومرت أربعة أيام ، ولا أحد يطلبنا للتحقيق أو غيره ٠٠ كان واضحا أننا الطبقة الممتازة فى المتهمين ، فقد اختصونا بسجن الأجانب ، بينما ذهب غيرنا الى السجون الكئيبة المظلمة القاسية ٠٠ وحمدنا الله على حظنا الحسن ، حتى الاتهام فيه امتياز ، حتى السجون فيها امتياز ؟ ولكن الحرية ، أغلى مافى الوجود ، هل يخفف من كارثة فقدها انك تخطر فى الحرير ، وتشرب الماء النمير ، وتنام على فراش وثير ٠٠ كلا ، كان كل أولئك شوكا ، وكان القلب يشعر بمرارة وحقد وخوف وحنين ٠٠ وضعف ٠٠ ماأسوأ الضعف ٠٠ انه أقسى من كل الانفعالات البشرية ٠

وفى اليوم الخامس جاءنا من يبلغنا أننا ذاهبون فى المساء الى

محكمة مصر .. وحوالى الساعة الخامسة اخذونا الى محكمة باب الخلق، وفى احدى قاعات محكمة الجنايات ، رصونا فى قفص الاتهام ، بينما امتلأت قاعة الجلسة بالمئات ، ووقف آخرون فى الطرقات وفى آخر القاعة ، والجنود يصرخون ان يجلس كل واقف .. كانت ضجة وصخبا لا مثيل لهما .. المتهمون وعددهم نحو مائتين ملأوا القفص عن آخره حتى كادوا يختنقون فيه أوكاد يختنق بهم .. الضحك والسخرية لا يزالان ، انهم يتحدثون احدهم مع الآخر ويعلقون على مايريدون التعليق عليه .. وفى طرقات المحكمة ، خارج القاعة ، كانت تصل الينا الضجة أيضا ، كانت هى الأخرى غاصة بخلق لا حصر لهم ، لم يسمح لهم بدخول القاعة بعد أن امتلأت .

وفجأة صرخ الحاجب « محكمة » فسكت الجميع ودخل الاستاذ عبد الحميد الوشاحي ، وكان رئيس محكمة مصر حينئذ ، بشريطه الأحمر ونظارته السميكة ، ووجهه الوقور ، ودفس رأسه فى الورق وبدأ فى نظر طلب النيابة تجديد حبس المتهمين ١٤ يوما .. وما ان أخذ ينادى على المتهمين ويستطرد فى الاجراءات المعتادة حتى عاد الضجيج والصخب، وبدا أنه من المستحيل عليه أن يؤدى مهمته فى هذا الجو العاصف .. كان الضجيج يأتى من القاعة ، من صفوف المتفرجين ، كما كان يأتى من قفص الاتهام وصفوف المتهمين .. وكان الراغبون فى الدخول يصطدمون بالجنود الراغبين فى منعهم ، فتقوم المشادات ، وذهبت جهود القاضى عبثا فى اعادة الهدوء الى الجلسة ، فانسحب الى غرفة المداولة ، ورأى أن ينظر القضية فيها .. ووطنت نفسى على ليلة طويلة اقفها حيث أنا فى قفص الاتهام ترى متى يجىء دورى ؛ والمتهمون مائتان ؟ .. ولكننى ماكدت أفيق من هذا الخاطر حتى سمعت الحاجب ينادى على الدكتور محمد مندور والدكتور بلال وآخرين .. قلت : ولماذا هؤلاء قبلنا ؟ .. ولم أكد أتم هذا التساؤل ، حتى نادى الحاجب اسمى ، وانتقلت الى غرفة المداولة ووجدت نفسى امام القاضى الوشاحى ، بينما جلس فى كرسى النيابة الاستاذ مصطفى حسن ، وهو زميل قديم من زملاء الدراسة فى كلية الحقوق .. كانت الغرفة ضيقة ومكتظة .. القاضى ووكيل النيابة والكاتب جالسون ، والمحامون واقفون .. وانا لم أوكل محاميا ، وما حاجتى الى محام ؟ اننى استطيع الدفاع عن نفسى .. الدفاع عن نفسى ضد من وضد ماذا ؟ اننى لم اسمع دليل اتهام ولا واقعة توجه الى .. كنت فى حيرة لا مثيل لها .. لا أعرف لماذا أنا هنا ؟ ولا لماذا أقف هذا الموقف ، وهذا

كان أسوأ مافى المأساة ‥ وسمعت الاستاذ صبرى أبو علم ولم أكن قد رأيته ولا عرفته من قبل يقول للقاضى انه حاضر مع الدكتور مندور والدكتور بلال وعنى وعن آخرين ‥ شعرت بعرفان ليس بعده عرفان ‥ اننى لم أطلب منه أن يدافع عنى ، ولم يطلب أحد باسمى هذا الطلب، ونظرت الى الرجل وقد فاءت الطمأنينة الى قلبى ‥ طمأنينة كاذبة لاشك فى ذلك ، ولكننى تركت هذه الطمأنينة تسرى فى جسدى وقلبى وكيانى ، انها طمأنينة الشعور أن آخرين ممن لا نعرفهم يقدروننا ويرون أننا مظلومون مضطهدون .

كانت مرافعة صبرى أبوعلم قصيرة ‥ قال انه لادليل ضد هؤلاء المتهمين ، فتجديد حبسهم غير جائز الى أن يوجد الدليل ‥ كان القاضى يسمع ورأسه فى الورق، واعتقدت أن كل شىء سينتهى الى الافراج عنا . ان النيابة فعلا لم تقدم أى دليل ، سوى القول بأن عدد المتهمين كبير ، والأوراق المضبوطة كثيرة ، وعدد وكلاء النيابة غير كاف ، ولابد من وقت آخر الى أن يتم تقديم الدليل .

وما ان فرغ صبرى أبو علم من مرافعته القصيرة ، حتى رأيت المحامين الواقفين وكانوا يزيدون على تسعة يتطوعون للدفاع عنى ، ولم أكن اعرف أكثرهم ولم أطلب من أحد منهم أن يدافع عنى ، وشعرت بطمأنينة أخرى وغبطة أكبر واعظم .. ان فى الدنيا لمسات رقيقة تجعلك تسعد لما تحمل من معنى ، لا لما تنتظر ان تؤدى اليه من نتيجة .

قال القاضى : كفايه بقى .. كلكم عن زكى عبد القادر .

قلت له : هل تريد أن تحرمنى حتى من مشاركة زملائى لى ؟ اننى هنا من غير جريمة ومن غير دليل ‥ تبعتوا لى وكيل نيابة يكسر على باب البيت ، .فلما أسأل عن الدليل لا أجد شيئا ، وأنا أسألك الأن وأسأل النيابة فلا تقدم شيئا .. هل تقيد حريتى لأن عدد وكلاء النيابة قليل ولأن القضية كبيرة وعدد المتهمين ضخم ‥ ماذنبى أنا . وما ذنب حريتى ‥

وكنت محتدا ، كان الكلام يخرج من قلبى وكيانى كله ، وكان صوتى كأنه جمع كل ما فى من عزم وقوة وتصميم وسخط واحتجاج ‥ وأمسكنى مصطفى حسن ، هذا الزميل الرقيق الأمين المهذب ، من يدى وقال : يازكى ماتزعلش . .اسكت ‥ اسكت علشان خاطرى ‥ كان كله عطفا ومحبة ومشاركة وربما سخطا وألما ‥

وسكت ، بينما رأيت باب الغـــرفة يضطرب بين الفتح والاغلاق ، الجندى الواقف عليه يرده فى عنف ، وطارق من الخارج يفتحه فى عنف أيضا ، حتى استطاع أن يتغلب على مقاومة الجندى ٠٠ كان الداخل هو الأستاذ أحمد حسين المحامى ٠٠ قال للقاضى : أنا حاضر هنا عن زكى عبد القادر ٠٠ ولم أحضر للدفاع عنه ولـكن حضرت لـكى أروى واقعة شهدتها منذ خمس ليال ، أعنى فى الليلة التى قبض عليه فى صباحها ٠٠

قال : كنا فى حفلة لتكريم الوفد السودانى فى الكونتننتال وكنا نتحدث عن تشريعات صدقى باشا لتقييد الحرية ومكافحة الشيوعية ٠٠ واخذ بعضنا يتحدث عن الشيوعية والنازية والرأسمالية وأيها يصلح لبلادنا ، فقال زكى عبد القادر ولماذا لاندرس كل هذه النظم ونعيها ، ثم نبتدع لانفسنا ولوطننا نظاما خاصا يلائمه ويسير مع تاريخه وتقاليده وتطوره ٠٠ من الخطأ نقل النظم من بلد الى بلد ، بحجة انهــا نجحت فى هذا البلد او ذاك ٠٠ اننا لانقل معرفة ولاذكاء عن غيرنا فلماذا ننقل ؟ لماذا لانبتدع ؟

واحسست مرة ثالثة بشعور عميق جدا من العرفان والشكر ٠

وانتهت المرافعات عند منتصف الليل ، واصــــدر القاضى قراره بتجديد حبس المتهمين كلهم ، المائتين ، ١٤ يوما ٠٠ وعدت الى سـجن الاجانب مع زملائى كاسفا حزينا ٠

قال مندور : كنت فاكر انهم حيفرجوا عنا ٠٠ خد لك شهرين تلاته ٠٠

وأفرج عني بعد اعتقالي سبعة أيام ..

« كنت سعيدا لأنني انطلقت الى حريتي من جديد وكنت حزينا لان هذه الحـــرية لم تصبح ملكي »

عدت الى ســجن الاجانب وأنا ـ كما قلت ـ كاسف حزين .. تبين لي الان فقط كم هو القيد ثقيل ، وازداد شعوري بأن الامر اخطر مما تصورت .. لقد نظر القاضي في طلب تجديد الحبس وكنت اعتقد انه لابد سيرفضه فليس لدى النيابة دليل ، واصـــبح على ان استقبل على الاقل ١٤ يوما أخرى من تقييد حريتي دون ســبب ، ودون ان ارتكب ما يجيز هذا الحبس في ظل القانون والنظام القائمين حينئذ .

وكانت ليــلة مفزعة ، ليس لأنني عدت الى السجن ، ولـكن لانني ازددت ريبة في الاجراءات ، وازددت خوفا من الاتهـــام والتلفيق .. ولم يكن الفزع والاضطراب اشفاقا من السجن ولكن شعورا بالسخط الممزوج بالضعف .. الســخط على اجراء اعتقد انه مخالف للقانون والعــدل والواقع ، والضعف لانني لا استطيع أن ادفعه أو احوله أو أوقفه .. ان أثمن شيء هو الحرية ، وقد فقدتها فماذا بقي اذن مما اخاف عليــه ؟

واصبح الصباح ، وعدنا الى اجتماعنا الصاخب الجميل الساخر ، بل ازدادت سخريتنا واخذ كل منا يبدي ما يشاء من تعليقات ويطلق ما يشاء من فكاهات .. واختفت مرة اخرى أسباب الفزع والقلق .. ألم أقل من قبــل ان الجمــاعة قادرة على أن تقضي على الـكثير من الفزع والقلق ، وقادرة على ان تدفع الى الصدر مزيدا من الطمأنينة والقوة والاستبســال ؟

ان أحدا لم يحقق مع أحد منا .. نحن محبوسون هنا دون أن

نعرف شيئا ودون ان يتاح لنا الدفاع عما يمكن ان يوجه الينا ، ومر يوم آخر .. أصبح عدد الايام التى قيدت فيها حريتنا خمسة أيام ، وفى اليوم السادس وكان يوم الاربعاء » جاءنى ضابط وقال انك مطلوب للتحقيق فى النيابة .. وكان الطلب لى أنا وحدى ، وذهبت فى صحبة الضابط الى دار النيابة فى باب الخلق ، وفى مكتب الاستاذ مصطفى حسن رئيس النيابة ، قابلنى الرجل بشىء كثير من الترحاب .. قال : تفضل ، وعلى مقعد أمام مكتبه جلست ، بينما بدأ هو التحقيق واخذ الكاتب يدون ما يدور .. ومن ملف امامه سحب ورقة واخذ يقرأ ما فيها .. انها تقرير من القلم السياسى .. جاء فيه اننى القيت محاضرة فى نادى الشرقية موضوعها « سلطان الامة » وبعد انتهائها اخذت مجموعة من الحاضرين الى بيتى وقلت لهم ان هذه البلاد لا يطهرها الا الدم الاحمر ، وان هنرى كورييل طلب الى انشاء خلية فى الازهر واننى كلفت ابراهيم ابو الخشب بانشائها ..

سمعت هذا الكلام فكدت أصعق ، كان كذبا مائة فى المائة ، شيئا من الخيال المحض ولم اكن قد سمعت باسم هنرى كورييل الا فى هذا الوقت ولم اكن سمعت باسم ابراهيم أبو الخشب الا فى هذا الوقت .. واكثر من ذلك لم يكن القلم السياسى يعرف بيتى الذى يقول اننى جمعت الناس فيه وقلت لهم ان البلاد لا يغسلها الا الدم الاحمر .. لقد قضى ليلة صدور الامر بالتفتيش والاعتقال ست ساعات تماما يبحث عن بيتى ، ولولا انه آخر الامر التجأ الى نادى الشرقية وايقظ الحارس النائم فيه واوسعه ضربا واهانة ما استطاع ان يعرف بيتى .. ما اذكى هذا البوليس فعلا .. ولكن ما اغباه ايضا .. انه ذكى فى اختلاق الوقائع ، ولكنه غبى غباء كل الملفقين ، فبينما قال ان الناس اجتمعوا فى بيتى ، نسى ان يعرف هذا البيت حتى لا تنكشف الكذبة الصغيرة ..

نظرت فى دهشة وغيظ الى مصطفى حسن ، وادرك الرجل كل شىء .. سألته فى مرارة : هل هذا هو كل الدليل الذى عندك ؟ قال : ليس عندى دليل آخر .. وقطب جبينه فى ألم شعرت انه يعصر قلبه ثم قال فى ضيق : كل القضية بالشكل ده ..

وانتظر ان اجيب ، وتهيأ الكاتب لتسجيل اجابتى ورايت ان الانكار ، مجرد الانكار ، لا يكفى .. ان الصفاقة ، صفاقة الاتهام من غير دليل بلغت حدا لا يطاق وشعرت بكل السخط الذى فى الدنيا كأنما يتحرك ويتجاوب ويتناقض ويضطرم ، واحسست ان الكلمات لا تكفى

.. اندفعت فى كيل الاتهام للسلطات « للحكومة » لرجال البوليس السياسى ، وصفتهم بكل وصف سيىء ، ومع ذلك شعرت بأننى لم اشف غليلى .. وطرأ على مصطفى حسن مادعاه الى ترك مكتبه ، فقال : استمر يا زكى ، قل ماتشاء والكاتب سيسجل كل ما تريده ..

وعاد مصطفى حسن بعد قليل ، وسحب حرز الاوراق والكتب التى جمعها وكيل النيابة وسألنى عن المذكرة الخاصة بساعات العمل واجبت بما سبق ان اوضحته فى هذه المذكرات .. وسألنى عن كتاب « روسيا الحمراء » وكتاب « هل تدوم الرأسمالية » ، واجبت بما سبق ان اوضحته فى شأنها فى هذه المذكرات .. —

وجاء دور الخطاب الذى تلقيته من رابطة مكافحة الاستعمار League Against Imrerialism وخلاصته : اننا نعرف انك من المناهضين للاستعمار ، فاذا كان يروق لك ، فان للرابطة فرعا فى القاهرة فى شارع سكة المغربى ومن أعضائه محمدخطاب ولويس عوض وسلامه موسى الخ .. تستطيع الانضمام اليه اذا شئت .. وكان الخطاب كما قلت واردا من لندن ، ومكتوبا باللغة الانجليزية .

وسألنى مصطفى حسن عنه فقلت : اننى لا أعرف شيئا عن هذه الرابطة ، ولما تلقيت خطابها احتفظت به ، دون ان أسعى للانضمام الى فرع الرابطة فى القاهرة .. وما حاجتى ان افعل ؟ ان عملى فى الصحافة وامكانياتى فى نشر آرائى فى « الاهرام » و « الفصول » وعضويتى فى جماعة النهضة القومية ونشاطى فى نادى الشرقية ودعوتى الى القاء محاضرات فىالاندية الاخرى .. كل هذا يكفل لى نشرا كافيا لآرائى فلا حاجة بى الى الانضمام الى هذه الرابطة أو غيرها ..

والى هنا انتهى التحقيق ، أو هكذا ظننت ، ولكن الاستاذ مصطفى حسن ، ترك مكتبه فترة قصيرة من الوقت ، ثم عاد ، وأحسست انه محرج شديد الحرج .. لقد كنت أعتقد انه سيفرج عنى ، فلا دليل هناك ضدى ، ولا شبهة دليل .. نظرت اليه ونظر الى ، لم يتكلم أو تردد قبل ان يقول لى : سعادة النائب بس بيقول نسأل فى الرابطة دى ، ونشوف اذا كنت انضميت لها أو لا ..

وأدركت كل شيء .. أدركت اننى سأعود الى السجن مرة أخرى، وان الافراج عنى لن يتم الان .. قلت لمصطفى حسن : أريد أن اقابل النائب العام ..

قال ، وهو متألم متضايق شاعر ان كل ما اتخذ من اجـراءات ضدى ظلم تام ، ظلم غشيم ، ليس فيه حتى شيء من اللبـاقة التي تستر الشكل ، قال : لحظة صغيرة ..

وعاد وهو يقول : تفضل ..

وسرت معـه الى غرفة النائب العام .. ولم تكن بعيـدة عن غرفة الاستاذ مصطفى حسن .. دخلت وانا اغلى .. كل المرئيات أمام نظرى متغيرة .. كل الحياة ، كل الكون ، كل الوجود .. القوة التى فى الدنيا كلها أصبحت فى قلبى ، فى كيانى ، فى كل ذرة من جسدى وروحى .. ان حريتى ليست مقيدة فحسب ، اننى أرى ظلما يقع على ولا أستطيع له دفعا .. وكمـا قلت من قبل : ان الضعف هو أسـوأ الانفعـالات الانسانية ، ولكنه أيضا تنبع منه أعظم القوى .. كانت الغرفة فاخرة الأثاث عليها هيبة ومهابة لو دخلتها وأنا فى ظرف عادى ، ولكنها الان أمام نظرى لا تثير الا السخط والخوف والقلق ، ومعها القوة والتحدى.. أجل .. أحسست اننى قوى .. قوى جدا .. كانت القوة تأتينى من براءتى ومن الظلم الواقع على .. دخلت الغرفة التى كم من مرة دخلتها من قبل وانا أزور لبيب عطية باشا النائب العام الاسبق ، منذ عشر سنوات ، وهو يعرض على ان أكون وكيلا للنيابة .. وسرح خاطرى .. وسرعان ما تفاعلت فيه صور عديدة متضاربة وأنا أجد محمود منصور بك (باشا فيما بعد) النائب العام فى كرسيه .. كان يمكن أن أكون أنا الان وكيل نيابة أو رئيس نيابة يطلب الى ان أحقق مع أشخاص مثلى متهمين من غير تهمة ومحبوسين من غير ذنب .. هأنذا الان أدخل الغرفة نفسها وأنا متهم ، وأنا محبوس وأنا مقيدة حريتى .. كان محمود منصور بك جالسا فى هدوء رقيق ، نظارته فى وجهه وطربوشه على رأسه .. الكرسى الجالس عليه وثير ، والمكتب الذى أمامه طويل عريض .. وأمامه أيضا بعض رؤساء النيابة وقد وضعوا أيديهم على صدورهم ، كانهم أمام معلم الكتاب .. رأيت باسيلى موسى وكامل القاويش واقفين ، حينما دخلت أنا ومصطفى حسن .. وانضم مصطفى حسن الى الواقفين ، ولم يدعنى أحد الى الجلوس ، ولكنى جلست فى المقعد الوثير الفاخر الذى كان الى يمين النائب العام ، وغرقت فى الكرسى المريح . بينما كان وجهى يتقد شررا ، وعيناى تومضان ببريق مزعج ، قلت : انت حابسنى ليه يا محمود بيه ؟

كان السؤال تحديا واحتجاجا وسخطا وقلقا وضعفا وقوة ، وكل

ما فى الانسان من متناقضات .. كنت أبدو كأنى أوشك أن أصطدم مع أى انسان ، او أوشك ان افتك بمن يقف فى طريقى ، وفى الوقت نفسه كنت اعرف اننى ضعيف مغلوب على أمرى ، محبوس ومن حولى الجند ومعهم أسلحتهم والقانون ومعه من يفسرونه على نحو ما يشاءون .

أجاب النائب العام دون أن يتخلى عنه هدوئه : بس لما نشوف انضميت للرابطة دى والا لأ ؟

قلت : الواقع اننى لم أنضم اليها ، ولكنى سأريحك من البحث واقول لك اننى انضممت اليها .. تفضل وجه الاتهام لى .. هل مكافحة الاستعمار جريمة منصوص عليها فى القانون ؟

سكت محمود منصور لحظة ثم قال : ولكننا يجب ان نعرف ..

كان هادئا ، بينما كنت أنا فى غيظ وثورة .. قلت : يجب عليك ان تقبض على خطاب بك لانه فعلا عضو فى هذه الرابطة ، اذا كانت مجرد العضوية فيها جريمة . .

قال : لقد امرت بتفتيش بيته .. الآن .

قلت : والآن أنا منتظر منك توجيه التهمة .. ما هى تهمتى ؟ هل هى مكافحة الاستعمار .. لقد قرات فى كتب القانون التى درستها فى كلية الحقوق ان النيابة لا تقبض الا اذا كانت هناك تهمة وتوافر الدليل عليها وخشيت من المتهم على ادلة الجريمة أو خشيت هربه .. وهأنذا محبوس من غير تهمة ومن غير دليل .. وممن ؟ . من النيابة وبأمرها .. هى التى كان يجب ان الجأ اليها اذا جاوز البوليس سلطته أو اعتدى على القانون .. انها مأساة .

خرج محمود منصور قليلا عن هدوئه وقال فى غضب حسبته مصنوعا : وبعدين وياك .. انت تهين النيابة ، وانت تعرف عقوبة هذا ..

قلت له : وماذا يعنينى .. لقد سلبتنى اعز شىء لدى وهو حريتى ، اترانى سأحفل بأى شىء آخر ؟ .

قال وقد هدأ قليلا : اقسم لك بشرفى وذمتى أن النيابة تتحرك بنفسها ومن غير ضغط من احد ، نحن نعمل بوحى من ضمائرنا .

قلت : اذن هذا هو عمل النيابة .. تقبض على الناس من غير تهمة ومن غير دليل ..

قال وهو هادىء ايضا : الا يجوز ان يكشف التحقيق مع المتهمين الآخرين عن شيء يدينك ..

قلت اذا حدث هذا ، استدعنى ، واذا شئت فاقبض على اذا وجدت ان مصلحة التحقيق تتطلب القبض .. اما ان تقيد حريتى ، تعتقلنى ، تحبسنى لاحتمال ان يكون هناك دليل يدمغني فتخريج عجيب للقانون وممارسة لحرفة العدالة لا أرى لها مثيلا .

قال : وماذا اصنع ؟ وكلاء النيابة عددهم محدود جدا ، والمتهمون عددهم كبير ..

قلت : وحريتى أنا لاقيمة لها .. ومتى فرغ وكلاء النيـــابة من عملهم ، وتبين الا صلة لى بهذه القضية كلها ، تفضلت النيابة وافرجت عنى ..

قال : ان انطون الجميل كلمنى فى شأنك ..

قلت محتدا : لا أحب أن أسمع هــذا الكلام .. المسألة لا تخرج عن فرضين .. اما اننى ارتكبت ما يعـــاقب عليه القانون ، وما أحسب انك حينئذ ستترك تطبيق القانون من أجل انطون باشـا ، واما اننى لم ارتكب ما يعاقب عليه القانون ، وحينئذ فلابد ان تفرج عنى دون حاجة الى كلام انطون باشا أو غيره .

قال وقد عاد اليه ابتسامه : انت متضايق من الحبس للدرجة دى .. احسن الناس اتحبسوا . .

قلت : أنا لست متضايقا من الحبس ، ولكننى اشعر بأن الظلم الواقع على يخنقنى .. عندك البوليس .. قوات لا حصر لها .. عندك السلاح ، تستطيع ان تعيدنى الى السجن .. وسأعود ولكننى اقول لك يا محمود بيه ان لحمى مر .. ان حياتى لا قيمة لها .. يمكن ان اموت اذا أضربت عن الطعام ويكون دمى فى عنقك ، كما ان حريتى الآن فى عنقك ..

وامسك بى مصطفى حسن من ذراعى وقال : كفى .. كفى .. قم معى .

ونهضت وقادنى الى مكتبه ، وفى محبة والم ومشـــاركة أصـيلة جميلة قال : لن ادع الامر يطول .. سنبحث امر هذه الرابطة باسرع

ما يكون .. انت زودت أوى مع الراجل (يقصد النائب العام) وهو كان حليم .. عمره ما استحمل حد كده ..

وضحك مصطفى بك وقال : لكن الحق معاك .. وتركنى مصطفى بك وتسلمنى ضابط البوليس واعادنى الى سجن الاجانب ... وتلقانى اخوانى فى ضجة .. سألونى عما حدث .. كان كل منهم يريد أن يعرف كيف يسير التحقيق وما هو هدفه .. كنت الوحيد الذى دعيت الى التحقيق .. وضحك بعضهم وقال : ايوه ياسيدى وراك ضهر ؟ .. اشمعنى انت اللى طلبوك الاول ..

قلت ساخرا : علشان أنا أهم منكم .. اخطر .

ورويت لهم ما حدث ، واقبل المساء ، وجاء الظلام ، واصبحت وحدى ، وآويت الى فراشى ، كانت ضجة خفيفة تجىء من الشارع البعيد ، ضجة تموت أو تكاد مع طول المسافة فتصل لى كأنها الهمس .. وكانت نسائم ساخنة تهب فى هذا الليل القائظ من ليالى شهر يوليو ، وشجر كليل ضعيف رقيق يتمايل على بعد من نافذتى.. والسماء صافية ، النجوم لامعة وسرحت بخاطرى فى حوادث اليوم ، فى حوادث الايام الستة التى قضيتها فى هذا السجن ، وانتقل خاطرى الى نشأتى فى القرية الصغيرة النائية ، الى رفاقى الذين تركتهم ولا يزالون حتى الآن يشقون الارض بفؤوسهم ، الى ابى واهلى الى مشرق اليوم الجميل فى الريف العزيز ، والى مغيبه ، الى حياتى وكيف تحولت من المحاماة والنيابة والقضاء الى الصحافة ، والى اسرتى الصغيرة وكيف تبددت ، والى جهادى المر الطويل ، وكيف شققت طريقى فى الصخر دون سند أو معين من أى احد من أصحاب النفوذ ، وكيف صنت حياتى ، فلم اضعف لم استسلم ولم انافق ولم اكذب فى رأى ابديته .. ولم اكن صنيعة لاحد ولا تكأة لاحد .. وهأنذا أجد آخر المطاف جزاء هذا كله .. وعمقت فى قلبى غمرة من ألم مر .. وساءلت نفسى : لو كنت نافقت وتهاونت وسهرت ولعبت وشربت وقامرت .. اما كان مصيرى يكون افضل من هذا ؟ .

وراجعت كل شىء فى ذاكرة واعية حافظة ، ووجدت ألا فضل لى فى شى من هذا كله ، واننى هكذا خلقت .. جافا بعض الشىء ، خشنا فى بعض الاحيان ، ولكن فى طيبة قلب وسكون نفس وانفساح افق .. لم أفكر يوما فى الانتفاض على القانون ، وانما فكرت أبدا فى ابداء رأيى

والاعتزاز به دون جرح لاحد أو تعريض بأحد .. ألم يكن ابى على حق حينما تمنى لو كنت قد جعلت طريقى فى وظائف النيابة والقضاء ؟..

والآن ان المستقبل أمامى مظلم .. وهذه الكارثة التى حلت بى ، مامداها، ما نهايتها ؟ الى أى طريق تقودنى ..

وتقلبت فى فراشى والامر يزداد أمام عينى غموضا وابهاما .. خلايا فى الازهر ، كوريل وابراهيم ابو الخشب .. ماأجرأهم وماأوقحهم .. اجتماع فى بيتى اقول فيه ان البلاد لا يغسلها الا الدم الاحمر .. أنا الذى يزعجنى منظر فرخة تذبح .. أنا الذى أهرب من رؤية جرح صغير فى اصبع انسان .. انا الذى يمر النسيم الرقيق فاحسب كأنه بعض لمسات قلب بلغ من الرقة حد الرثاء لاحزان الآخرين ، وحد التفكير فى متاعب ناس لا اعرفهم ، ولا تربطنى بهم الا رابطة الآدمية وحدها .. أنا أدعو الى الدم الاحمر ..لو قالوا شيئا آخر لكان معقولا .. ومع ذلك فان هذه هى الاتهامات ، وعلى ان انفيها .. انفى ماذا ؟ انفى وقاحة وجراة واختلاقا وانعدام ضمير لا مثيل له .. واغفيت قليلا ولم انم : اذا كانوا يستطيعون ان يقولوا هذا الكلام فماذا يمنعهم ان يقولوا غيره واسوأ منه .. بل ماذا يمنعهم أن يلفقوا أدلة كما لفقوا اتهامات ..

وازعجنى هذا الخاطر ، وظل النوم يجفونى الى ان جاءنى عن بعد صوت المؤذن فى الفجر يقول « الله اكبر » .. وبدأت اغفو ثم رحت فى نوم عميق .

وفى صباح اليوم التالى ، صحوت نشيطا وليس فى نفسى من مخاوف الليلة شىء وارتددت الى اخوانى اضحك معهم والهو .. نسيت كل شىء ، ووطنت النفس على اننى سأقضى هنا فترة أخرى قد تطول .. حتى اذا كان المساء ، فى الساعة الرابعة بعد الظهر تقريبا ، والشمس شديدة الحرارة ، وأنا وبعض زملائى قد فرغنا من طعامنا ، واخذنا نأكل بعض العنب ، ونحن نضحك ونسخر ، اذا بأحد ضباط البوليس يقول لى أننى مدعو الى دار النيابة فى باب الخلق .. لم أهتم واستمررت فيما كنت فيه من ضحك وأكل وتعمدت أن أتلكأ بينما كان ضابط البوليس يستعجلنى .. دون ان القى بالاً اليه .. ماذا يعنينى منه ؟

بل ماذا يعنينى من أى شىء ؟ اننى محبوس .. ترى ماذا يستطيعون أن يفعلوا بى أسوأ من هذا ؟ قال الضابط وقد استشاط غضبا : اتفضل يا استاذ بقى .. سعادة النائب مستعجل .. قلت له ساخرا :

حـد قال لك اننى عـاوز اروح له .. يا أخى هو انا حا اطير .. انا محبوس ..

وخرجت معه .. وكانت الساعة قد اوشكت على الخامســة ، وقادنى الضابط الى غرفة مصطفى بك حسن .. قال باسما : سعادة النائب عاوزك .. ورافقنى الى غرفة النائب العام ، قال محمود منصور وهو يبتسم : انت لسه زعلان منا ؟

قلت : وايه اللى حيفرحنى منكم ..

قال وهو يبتسم أيضا وموجها كلامه الى مصطفى حسن : احنا فاضل لنا عنده كام يوم يا مصطفى بيه ؟

قال مصطفى حسن : ١١ يوما ياسعادة النايب

قال محمود منصور : احنا اتنازلنا عنهم ..

قلت : انت اتنازلت عنهم .. انت حبستنى ٧ أيام ظلما وعدوانا..

قال محمود منصور : انت لسه زعلان برده ؟

قلت : يا محمود بك أنا خارج من هنا وأنا حزين آسف .. لقد عرفت قيمة حريتى فى هذا لبلد .. تقرير بسيط من مخبر نظير خمسة قروش وارجع تانى هنا .. أنا خارج ، سعيد بحريتى هذا صحيح ، ولكننى متألم لأن حريتى لم تصبح فى أمان ..

واخذ محمود منصور يداعبنى فى لطف ورقة ، وسـلمت عليه وانصرفت .. عدت الى بيتى واسرتى بعد أن ودعت اخوانى فى سجن الاجانب .. كنت اول واحد فى المائتين يحقق معه ويفرج عنه .. وحينما نثرت تراب قدمى على عتبة السجن ، واستقبلت نسيم الحرية كان الليل قد جاء ، والانوار قد أضيئت فى الشوارع والدنيا كلها كانت كأنها تسـتقبلنى .. شعرت كأن كل انسان يعرف اننى كنت محبوسـا ، وهاأنذا الان حر طليق .. كأنما كنت اريد ان اقول لكل انسـان .. أنا مثلك .. حر تماما .. ونظرت الى السماء ، وخيل لى انها مبتهجة لان ظلما رفع عن برىء ..

كنت نهبا لانفعالات لا حصر لها .. كنت سعيدا لاننى انطلقت الى حريتى من جديد ، وكنـت حزينـا لأن حريتى وان كانت معى الآن ، الا أنها ليست ملـكى .. من يدرينى .. قد يطرق بيتى فى أية ليلة أو فى

اى صباح ، ضابط بوليس ووكيل نيابة يقولان لى : **اتفضل معانا** .. اعمل حسابك يمكن تغيب عن البيت كام يوم .. ماذا يمنع ان يقع هذا فى أى وقت ؟ . انه لن يكلفهم شيئا .. ورقة صغيرة يكتبها مخبر يقول فيها ما يشاء ، أو ما يشاء غيره ممن يريدون ان يعبثوا بحريات الناس.

وذهبت الى مكتبى فى « الاهرام » فى الليلة نفسها ، وقابلت انطون باشا وهنانى بالافراج عنى .. وبعد قليل زارنى الاستاذ محمود عزمى ومعه زوجه وكلبها .. كان الكلب يعبث ويجرى هنا وهناك والاستاذ عزمى يقول لى : لقد دهشت للقبض عليك .. ومدام عزمى تقول : اننى لا انسى حملتك على محاضرتى فى قاعة ايوارت عن روسـيا .. لماذا اعتقلوك ؟

قلت : لا اعرف .. ولا يعرف احد .. كما اعتقلوا غيرى تماما ...

وعلمت فى الصباح ان الامر صدر ، بعد اعتقالى ، باغلاق نادى الشرقية وختم غرفه بالشمع الاحمر .. وطلعت الى النادى الذى كان يعج بالزوار ويشرق بمحاضرات فيها لمعة من الفكر والثقافة ، فاذا هو مظلم معتم ، واذا احد جنود البوليس يحرسه ..

ودخلت مكتبى الخاص .. كم اوحشنى .. حرمت منه سبعة أيام ، وحمدت الله أنهم لم يمسوا « الفصول » بأذى ، واستنشقت نسيم الحرية ملء رئتى ، وأنا افتح درج مكتبى وأعيد الاوراق التى بعثروها ، واعيد تنظيم الكتب التى نثروها هنا وهناك ..

كتبت بيان السبعة
برفض مشروع صدقي - بيفن

« ان مبدأ التعويض يجرى فى الحياة كالعرق فى الجسد وكالدم فى العرق ·· المأساة تجرى جنبا الى جنب مع الملهاة »

استأنفت عملى كالمعتاد ، بعد الافراج عنى ·· أخذت أغدو وأروح الى مكتبى فى « الاهرام » كما كنت ، والى مكتبى الخاص كما كنت، وظلت مجلة « الفصول » تصدر كما كانت ·· الا أن نشاط نادى الشرقية أوقف تماما بعد اغلاقه ووضع الحراسة عليه ، وفى الوقت نفسه استمر نشاطى كما كان فى جماعة النهضة القومية ، ولكن لمعة الانطلاق التى كانت طابع كتابتى ورأيى ونشاطى أصابها شىء من الخمول ، الذى يرجع فيما أعتقد الى أثر حادث اعتقالى ، وانى لأقرر هنا ان شيئا من الخوف داخلنى من كل شىء · اننى لم أرتكب مايخالف القانون مما يدعو الى دخولى السجن ، ومع ذلك فقد ذهبت اليه ، وأصبحت أعين القلم السياسى مفتوحة على ·· ترى هل أحسوا بخطئهم وانصرفوا عنى ، أم أحسوا بعناد وقرروا أن يعيدونى مرة أخرى الى السجن ؟ مهما يكن من أمر فقد شعرت ان الانطلاق الذى كان طابعا مميزا لى فى آرائى بدا يزحف عليه نوع من الخمول الكريه ·· لم أغير شيئا من الآراء التى أعتقد أنها كفيلة باصلاح الحال فى مصر ، وظللت مستمسكا بها ، دائم التعبير عنها ، ولكن الخوف ظل ملازما لى فترة من الوقت · ومع الخوف يكون الاضطراب والقلق ، ومع الاضطراب والقلق، لا يكون التعبير فى مثل حدة الصدق والأمانة التى تكون له لو لم يكن الخوف والاضطراب والقلق ··

وضايقنى هذا الوضع مضايقة شديدة ·· أصبحت كل كلمة أكتبها، لا أكتبها ، الا بعد تدقيق وتقليب على مختلف الوجوه ·· ربما يتناولها المتربصون بى على هذا الوجه أو ذاك ، فاعدل عنها الى غيرها ، أو أعدل عن غيرها اليها ·· كانت محنة لا يشعر بها الا من جعل عمله فى الحياة

أن يكتب شيئا ذا قيمة ٠٠ كنت أختنق وأنا أكتب بضعة سطور ، واختنق أكثر اذا كان الموضوع الذى أكتب فيه مما يمس قليلا أو كثيرا شيئا مما يمكن أن يعد دعوة الى تغيير الأوضاع القائمة أو التشكيك فيها ٠

ثم ان حادث اعتقالى هز مركزى فى « الاهرام » الى حد ما ٠٠٠ ولا شك ان أنطون باشا الجميل ومن ورائه مجلس ادارة « الاهرام » لم يكن راضيا عن الحادث ، لانه جر اســـم « الاهرام » فى قضية تتعلق بالشيوعية وقلب نظام الحكم ، وصلة « الاهرام » بالقصر كانت دائما حسنة ٠٠ وتوقعت من وقت الى آخر أن أرى علامة على أننى غير مرغوب فيه للعمل فى جريدة « الاهرام » ٠٠ لم يبد أنطون باشا شيئا من هذا ، ولكننى كنت شديد الحساسية من هذه الناحية ، وظللت شهورا فى قلق مر عنيف ، لا أعرف على التحديد هل أنا مقبول مرغوب فى كما كنت ، أم ان أصحاب الجريدة يحملوننى على مضض ٠٠ ولم أجد ما يساعد على ترجيح فكرة على فكرة ٠٠ كانت الأمور تسير عادية ، ومع مرور الوقت عدت الى طمأنينتى السابقة واستعاد قلمى بعض حريته القديمة ، بعض انطلاقه القديم ٠٠

وهناك شى آخر لابد أن أسجله فى هذه المذكرات ٠٠ هل كانت « قضية الشيوعية الكبرى » كما وصفتها الصحف وكما وصفتها السلطات المسئولة ٠٠٠ هل كانت هذه القضية التى جرفتنى ، فيمن جرفت ، قضية حقيقية أم مجرد اصطناع قصد به تحقيق غرض آخر ؟

لقد استمر التحقيق فى هذه القضية شهورا وشهورا ، وأفرج عن كل المتهمين فيها بعد فترات قصيرة أو طويلة ، وفى مدى علمى لم يقدم أحد ممن اتهم فيها الى المحاكمة ، ومعنى ذلك ان النيابة لم تجد أحدا يمكن أن يدان ٠٠ لماذا اذن كانت القضية ؟ قيل ان صدقى باشا رئيس الوزراء أراد بها أن يخدم المفاوضات التى كان يجريها حينئذ مع انجلترا لتحقيق الجلاء ووحدة مصر والسودان ٠ أراد أن يقول للانجليز ان فى مصر حركة شيوعية ضخمة ، فاذا لم يتسامحوا ، فانها جديرة أن تأكل الأخضر واليابس ٠

ولست أستطيع القطع ما اذا كان هذا الرأى صحيحا أم لا ، ولكن وقوع القبض والاعتقال والاتهام فى أوائل شهر يوليو سنة ١٩٤٦ وتضخم القضية على هذه الصورة ، كل أولئك تم والمفاوضات بين صدقى والانجليز تدور فى مسالك دقيقة ، تتقدم تارة وتتدهور تارة ٠

لقد بدأت هذه المفاوضات فى مايو سنة ١٩٤٦ وقطعت فى أواخر الشهر نفسه ، واستؤنفت فى شهر يوليو من السنة نفسها ، أعنى فى الوقت نفسه الذى وقعت فيه حركة القبض والاعتقال والاتهام ، وسافر صدقى باشا الى لندن فى شهر أكتوبر ومعه ابراهيم عبد الهادى ، حيث أجريا مباحثات مع أرنست بيفن وزير الخارجية البريطانية ، انتهت الى توقيع مشروع معاهدة عرفت باسم مشروع صدقى - بيفن ٠

وحينما عاد صدقى باشا الى القاهرة فى أواخر الشهر قال انه وعد حينما سافر بأن يجىء لمصر بالسودان ، وقد صح ما وعد به وتحققت وحدة مصر والسودان تحت التاج المصرى بصورة نهائية ٠ وكان تصريحا غير موفق ، لانه أولا لا ينطبق على الواقع ، فان المشروع لم يقرر وحدة مصر والسودان ، ولكنه أحيا العمل بمعاهدة ١٨٩٨ ، وهى التى تقضى باشتراك مصر وانجلترا فى ادارة السودان تحت التاج المصرى بصورة تكاد تكون رمزية ٠٠ ثم ان النص أحال الى المستقبل وجعل الأساس رفاهية السودانيين بعد استشارتهم فى الوضع النهائى لبلادهم ، وثانيا لأن التصريح أثار موجة شديدة من الاستياء بين دعاة الانفصال من أهل السودان ، ووقعت مظاهرات عنيفة فى الخرطوم وغيرها من مدن السودان ، وصرح أتلى رئيس الوزارة البريطانية فى مجلس العموم بان تصريح رئيس الوزارة المصرية ليس صحيحا ، وإن ما اتفق عليه ليس نصا نهائيا ، ثم انه لا يعنى وضع السودان تحت التاج المصرى ٠

واضطرب موقف صدقى باشا اضطرابا عنيفا ، واضطرب أيضا موقف حكومته اضطرابا عنيفا ، وعرض صدقى باشا مشروعه على هيئة المفاوضة الرسمية ٠٠ وذات يوم قال لى على الشمسى باشا ، وكان من أعضاء وفد المفاوضة البارزين ان سبعة من أعضاء الهيئة قرروا رفض المشروع ، وأنهم لايريدون أن يرفضوه من غير ابداء الأسباب ٠

ثم استطرد فقال : وسأفضى اليك بالأسباب ، وأرجو أن تصوغها فى بيان واف ، حتى اذا أقره الأعضاء أذعناه ٠

وتطلب استقصاء الأسباب والدقة فى صياغتها أن أزور مع الشمسى باشا ، شريف صبرى باشا فى قصره الأنيق على ضفة النيل ، وكان يوما فى الخريف صافيا جميلا ، ودخلت من الباب الضخم الى قاعة واسعة فاخرة ، وما هى الا دقائق حتى جاء الأمير محمد على وما هى الا دقائق أخرى حتى انصرف ، واختلينا : شريف صبرى باشا وعلى الشمسى باشا

وأنا ٠٠ وكنت أظن ، كما لابد أن الكثيرين كانوا يظنون ، ان عضوية شريف صبرى باشا فى هيئة المفاوضات كانت عضوية فخرية ، ولكن الرجل أخذ يسحب من حقيبته مذكرات ونصوصا ، ويفضى الى بوجهة نظره فى رفض المشروع ، والشمسى باشا من جانبه يساعد فى الحذف أو الاضافة أو التصحيح اذا اقتضى الأمر ٠٠

وأصبح عندى مجمل واف للأسباب ، ووضعت مذكرة الرفض طبقا لما أرادها أصحابها وذات يوم قال لى الشمسى باشا : سأزورك أنا وحسين سرى باشا لكى نطلع على المذكرة ونراجعها مراجعة نهائية ٠

وفى الموعد المحدد كنت أقرأ المذكرة وسرى باشا والشمسى باشا يتابعانها فى دقة وانصات شديدين ٠٠ واقترحا بعض التعديلات ، فأجريتها ، وسلمتها لهما ٠٠

وبعد يومين أبلغت الى صدقى باشا وأذيعت فى الصحف بعد تعديلات أخرى طفيفة ، وكانت موقعة من شريف صبرى ، على ماهر ، عبد الفتاح يحيى ، حسين سرى ، على الشمسى ، أحمد لطفى السيد ، مكرم عبيد ٠

كانت اذاعة المذكرة فى شهر نوفمبر سنة ١٩٤٦ وأخذ الناس يتساءلون من هو كاتب هذه المذكرة ٠٠ قال البعض انه مكرم عبيد ، وقال آخرون بل هو لطفى السيد ، وقال فريق ثالث بل هو أنطون الجميل ٠٠ وكنت أسمع هذا كله ، ولا أنطق بكلمة الى أن كان ذات مساء فى سنة ١٩٤٨ ، وكنا خارجين من جريدة « الاهرام » الشمسى باشا وأنا ـ وكان الشمسى باشا حينئذ عضوا فى مجلس ادارة الاهرام كما سيجىء بعد ـ اذ التقينا بالأستاذ عبد الحليم الغمراوى ، وخف للسلام على الشمسى باشا فقال الشمسى موجها كلامه الى الأستاذ عبد الحليم الغمراوى : اللى كتب مذكرة الرفض دهو ـ مشيرا الى ـ وليس أنطون الجميل ٠

وانصرف الغمراوى وتابع الشمسى باشا حديثه الى فقال : كانوا بيشوفونى كثير فى مكتب أنطون الجميل فافتكروا ان هو اللى كتب المذكرة ٠

قلت : وقالوا ان كاتبها مكرم عبيد تارة ولطفى السيد تارة أخرى ٠

لم أكن أعتقد ان المذكرة تستحق أن يبحث الناس فى أمر كاتبها ، فقد كانت مجرد عرض للأسباب ، وليست فيها براعة ولا شىء غير عادى ،

ولم أكن حريصا قط على أن تنسب لى ٠٠ كانت شيئا بسيطا جدا ، يستطيع أى انسان أن يقوم به ، ومع ذلك شعرت بعرفان عظيم للشمسى باشا حينما حرص فى الوقت المناسب ، على أن يصحح خطأ استقر فى بعض الأذهان ٠٠ وما أكثر الأخطاء التى تستقر فى بعض الأذهان ٠٠ وما أكثر ما تظلم الحقائق فى هذه الدنيا ٠٠ ولكن لا بأس ، فليست هذه أول مرة ، لا يذكر فيها مجهودى ، ولن تكون الأخيرة ، لا بالنسبة لى فحسب ، ولكن بالنسبة للكثيرين غيرى أيضا ٠

وضعف مركز صدقى باشا ضعفا شديدا ، وأصبحت استقالته أمرا لا مفر منه ٠٠ وقد بادر الى حل هيئة المفاوضة بعد اذاعة بيان السبعة الذى أشرت اليه ، وأصبح واضحا ان مشروع صدقى ـ بيفن يلفظ أنفاسه الأخيرة ، بسبب تصريح أتلى ، وبسبب رفض أغلب وفد المفاوضة له ٠٠ أما الشعب فكان واضحا انه منعزل عن هذه الأحداث انعزالا تاما أو يكاد ، وان كان الرأى الغالب فيه كان ضد المشروع بطبيعة الحال ، لانه يقر نظام الدفاع المشترك ٠٠ صحيح انه نص فى البروتوكول الملحق بالمشروع على أن يتم الجلاء عن الأراضى المصرية فى موعد غايته أول سبتمبر سنة ١٩٤٩، ولكن بقيـة المشروع والتحفظات الواردة فيه لم تكن مرضـية للأمانى الشعبية ٠

واضطر صدقى باشا الى تقديم استقالته فى أوائل ديسمبر سـنة ١٩٤٦ أعنى بعد أن أصدر قراره بحل هيئة المفاوضات الرسمية بأقل من أسبوعين ، وعهد الى النقراشى باشا بتأليف الوزارة الجديدة فألفها من السعديين والدستوريين ، معتمدا على مجلس النواب نفسه الذى ألف فى سنة ١٩٤٥ ، وتتابعت عليه أكثر من وزارة وأقر أكثر من سياسة ، ولم تكن مهمة النقراشى باشا هينة ولا لينة ولا هى مما يحسد عليه ، ولكنها كانت قاسية ، قاسية جدا ، فقد سبق له أن ولى الوزارة منـذ بضعة أشهر وتركها اثر حادثة كوبرى عباس ، وانه ليعرف دلالتها ، ويعرف من موقف وزارة صدقى باشا التى تلته الكثير ، ويعرف من هذا وذاك ان مشكلتى الجلاء والسودان ، هما المشكلتان الرئيسيتان اللتان تشـغلان أذهان الشباب خاصـة والشعب عامة ٠٠ وقد أهملت ذكر الأحزاب ، لان التيار الحقيقى فى أعقاب الحرب ـ كما سبق أن قلت ـ كان أضخمه وأقواه وأشده أثرا حاصلا فى جماهير الشعب ، وليس فى أروقة الأحزاب ٠

وحتى من حيث حساب الأحزاب ، لم يكن النقراشى بوزارته ومجلس

نوابه يمثل غير السعديين والدستوريين ، وهم أقلية فى الشعب ، وان كانوا أغلبية فى البرلمان .. كانت التجربة قاسية اذن ، وكان على النقراشى أن يتابع المفاوضة التى تعثرت وأن يحصل على الجلاء المطلوب ، وتحقيق وحدة وادى النيل دون ارتباط بالدفاع المشترك أو بأى شىء يشبهه ، فقد أدرك تماما،مما لقيه صدقى باشا من مصير،ان الشعب يكره هذا الدفاع المشترك وينفر منه نفورا شديدا ، وقرر النقراشى باشا ووزراؤه أن يعرضوا قضية مصر على مجلس الامن بعد أن فشلت محاولة حلها بالمفاوضة المباشرة مع الحكومة البريطانية . واستقبل الشعب هذا القرار بالترحاب ، وكان قد ضاق بمماطلة بريطانيا وتعثر المفاوضات بين الاستمرار والقطع بصورة مهينة للكرامة الوطنية . ولا شك ان النقراشى باشا حينما سافر الى نيويورك فى شهر سبتمبر سنة ١٩٤٧ رئيسا للوفد المصرى الذى تولى عرض القضية ، كان يحظى بتأييد عدد كبير من المصريين ولكن لا يمكن القول بأنه كان يحظى بتأييد شامل ، فقد كان الوفد فى المعارضة ، وكان يشكك فى جدوى هذا المجهود ، وكان الناس ينظرون الى وزارة النقراشى والنظام الذى انبثقت عنه منذ سنة ١٩٤٥ نظرتهم الى ان الوزارة والنظام كليهما قائم على ارضاء القصر ولمصلحته .. وهذه نقطة هامة جدا ، لانها تعنى كبت حرية الشعب وحكمه على غير ارادته .

ومع ذلك فان النقراشى باشا كان صادقا فى مهاجمة بريطانيا أمام مجلس الامن ، وفى حملته على معاهدة سنة ١٩٣٦ ، ولم تنجح القضية أمام المجلس فقد قرر ابقاءها مدرجة فى جدول الأعمال ، وحتى الاقتراحات التى قدمت بالعودة الى المفاوضات لم تجد عددا كافيا من الأصوات لاقرارها .

وعاد النقراشى باشا ، وحاول أنصاره أن يجعلوا من استقباله حادثا شعبيا ، ولكنهم لم ينجحوا الا بقدر محدود جدا ، وظلت كتلة الشعب فى تحفظها ازاء النظام وازاء رئيس الوزارة .

وقبل أن يسافر النقراشى باشا الى نيويورك وعلى التحديد فى شهر مارس سنة ١٩٤٧ ، كنت داخلا الى جريدة « الاهرام » فى الوقت الذى اعتدت فى بعض الأحيان أن أذهب الى مكتبى فيه ، واذا بمحمود عامل الساعة يقول لى ان أنطون باشا سأل عليك .

ودخلت الى مكتبه مباشرة .. قال : دلوقت النقراشى باشا كلمنى فى التليفون ، وبيقول ان جرائد كبيرة مثل التيمز والنيويورك تيمز

والمانشستر جارديان باعته صحفيين ممتازين الى السودان لبحث الحالة فيه واعطاء صورة من الموقف هناك ٠٠ وأوصى أن ترسل « الاهرام » من يقوم بمثل هذه التحريات ، واقترح اسمك ٠

وسكت أنطون باشا لحظة ثم قال : أنا مفهمتش بالضبط هو عايز ايه وأنا باقترح عليك تروح تقابله اذا ماكانش عندك مانع من السفر ، وتفهم منه على التحديد هو عايز ايه ٠

شعرت بغبطة شديدة لا لاننى سأسافر الى السودان ، فقد سبق أن سافرت اليه وقضيت فيه فترة ليست قصيرة وعرفت مختلف التيارات ووجوه الحياة فيه ، ولكن لان النقراشى باشا هو الذى اقترح اسمى ، وكان هذا أبعد مايكون عن خاطرى، فمنذ الحديث العنيف الذىجرى بينى وبينه فى شهر يوليو من سنة ١٩٤٥ ، وكان مزيجا من التهديد والازعاج والتخويف ، لم ألقه ولم يحدث بينى وبينه أى اتصال ، وكان اقتراحه اسمى ، بالنسبة لى ، معناه ان الرجل يثق فى وان مابدا فى حديثه معى من عنف قليل أو كثير ، وما بدا فى حديثى معه من صراحة ضايقته لم يترك كلاهما فى نفسه أثرا سيئا ٠٠ أو لعله كان يسىء الظن بى ، ثم اتضح له ، لست أدرى كيف ، اننى لست جديرا بأن يسىء الظن بى ، بل ان العكس هو الأولى ٠

قلت لأنطون باشا : لا مانع عندى من السفر ، وسأذهب الآن لمقابلة النقراشى باشا ٠

قال أنطون باشا : احنا مش عايزين منهم حاجه ٠٠ بس يقول لنا هو عاوز ايه ٠٠

وعرفت مايتصده أنطون باشا ٠٠ كان الرجل يقصد بقوله « احنا مش عاوزين حاجة » انه لا يريد أن تتكفل الحكومة بنفقات السفر أو بأى شىء ، وان « الاهرام » سيدفع كل النفقات ٠٠ وهذه ميزة كريمة عرفتها فى أنطون باشا وأكبرتها فيه ٠٠ لم يكن يريد أن يكون للحكومة أى فضل على « الاهرام » أو أى تدخل فى شئونه ، بل على النقيض من ذلك ، كان يؤثر أن يكون « الاهرام » هو صاحب الفضل على الحكومة ٠

وخرجت من مكتب أنطون باشا مباشرة الى مكتب النقراشى باشا ، واستقبلنى الرجل فى ابتسامة حلوة وبشاشة وجه كريم ، غسلت كل ماعلق بذهنى من مقابلته القديمة الجافة التى انتهت بما يشبه التهديد ٠

قلت : لقد افضى الى أنطون باشا بالرغبة التى أبديتها دولتك ، ويسرنى ان البيها وان أسافر الى السودان ٠

قال : كل ما أريده ان تعطينى فكرة واضحة عن حقيقة ميول « الناس دول » هل هم معنا أم لا ٠

قلت : انا أسافر من غير صفة رسمية ، فاذا كان فى الجو مفاوضة بشأن السودان ، أو كنت دولتك تريد ان أقوم بأية مهمة تساعد على حل المشكلة كأن أقابل الميرغنى أو المهدى أو الحاكم العام ، فاننى مستعد ان أفعل ثم اننى ليست لى صفة رسمية ، فالخطأ الذى أقع فيه ، اذا وقع ، لايقيد أحدا ٠

أجاب النقراشى باشا فى ابتسامة فيها اقبال اغتبطت له : كلا ، لست أريد شيئا من هذا ، اننى أعتقد انك أمين صائب الحكم غير متحيز٠٠ كل ما أريده تقرير عن حقيقة التيارات الموجودة فى السودان ٠

وشكرت لرئيس الوزارة حسن استقباله وانصرفت وبدأت أعد نفسى للسفر ولكنه لم يتم ، لان وزارة الخارجية البريطانية انهت خدمة سير هدلستون الحاكم العام ، وعينت بدله سير روبرت هاو ٠٠ ووقع هـذا التعيين بعد يومين من مقابلتى للنقراشى باشا ، وفهمت ان سفرى لم يصبح مطلوبا ٠

كان هذا الحادث مضافا اليه مرور مدة طويلة على حادث اعتقالى والافراج عنى دون أن يقع ما يسوءنى سواء من جريدة « الاهرام » أو من السلطات الحاكمة ، مما دفع الى صدرى مزيدا من الطمأنينة وجعلنى أعاود شيئا فشيئا الانطلاق فى ابداء الرأى والتعليق ومضاعفة نشاطى العام ، واهتمامى بمجلة « الفصول » ٠٠ وكانت حينئذ قد بلغت درجة كبيرة من الذيوع والانتشار وكما كانت مجالا لأقلام الكثيرين من أصحاب الفكر والرأى كانت أيضا مجالا لأصحاب الأقلام من الشبان الجدد ٠٠ وكنت أرحب بهم وأعطيهم فرصا متساوية ٠٠ بعضهم بل كلهم تقريبا ، لم تكن لى معرفة سابقة بهم ، جاءونى على غير معرفة ، وقدموا انتاجهم ٠٠ وكنت أقرأه بامعان ، فاذا أجزته نشرته دون احتفال ، بما اذا كان الاسم معروفا أو غير معروف ٠٠ وجرت أقلام عديدة على صفحات الفصول وأصبح للكثير منها اسم وذكر وتألق فيما بعد ٠٠ عثمان العنتبلى ، سعد رضوان ، حسين القبانى ، صلاح الدين الشريف ، موسى صبرى ؛ أحمد حمروش ؛ يحيى أبو بكر ، يوسف الشارونى ، عادل ثابت ، أحمد بهاء الدين ، فتحى

غانم ، نعمان عاشور ، أنور المشرى ، وقد ذكرت الأسماء طبقا لأسبقية الاتصال بالفصول ٠

وكان الأستاذ أحمد بهاء الدين أكثرهم مواظبة وتحمسا ، وأنست له ، وأفسحت له الكثير من الصفحات ، ثم حدث أن زادت مشغولياتى فى « الاهرام » بعد وفاة المرحوم أنطون الجميل باشا كما سيجىء فيما بعد ، فزادت مسئولياته فى الفصول ، اذ أصبح يقوم بأكثر العمل فيها أو كله ٠

وبدأت سنة ١٩٤٧ بداية حسنة ، ولكنها سرعان ماغامت فيهـــا سحب ثقيلة فى حياتى٠٠ وان السنوات كالأيام ، كالأشخاص ،. كالحوادث، منها مايسرك ومنها مايسوءك ٠٠وبقدر ما كان مشرق السنة سعيدا ، بمقدار ما حملت فى وسطها وفى آخرها مأساتين لونت حياتى ٠٠ وكنت أحسب اننى استوفيت حظى من المأساة ٠٠ كنت أحسب ، وأنا مؤمن بمبدأ التعريض ، ان ما أصابنى فى حياتى يكفى لكى أستقبل فيما بقى منها أشياء سعيدة ، أو على الأقل أشياء لا تبلغ درجة المأساة ٠

ولكننى نسيت أن مبدأ التعويض وان كان صحيحا ، الا انه أيضا يجرى فى الحياة كالعرق فى الجسد وكالدم فى العرق ٠٠ وان المآسى لا تتجمع فى مرحلة من الحياة ، كما ان الأشياء السعيدة لا تتجمع فى مرحلة أخرى ٠٠ ان المأساة تسير جنبا الى جنب مع الملهاة ٠٠

فزت بأكثر الأصوات في انتخابات الصحفيين سنة ١٩٤٧

في أوائل سنة ١٩٤٧ زارني الدكتور ابراهيم عبده المشرف على معهد الصحافة ، وقال : أرجو أن ينفسح وقتك لاعطاء بضع محاضرات في المعهد • وشكرت له التفكير في ، وابتهجت فقد أتيحت لي الفرصة للاتصال مرة أخرى بالجامعة ، وقد كانت الجامعة في هواي وخاطري أبدا، كانت عندي أشبه بالمعبد المقدس ، لا يدخله ولا ينبغي أن يدخله الا المطهرون •• لا أقصد المطهرين من رجس الضعف الانساني ، فمن منا ليس فيه هذا الرجس ، ولكنني أقصد المطهرين من أغلال الجهل، الفاهمين ما هو التعليم ، والتعليم الجامعي خاصة •• المطهرين من أهواء التعصب والخوف والجبن ، فحيث تكون الجامعة يكون الانطلاق في الرأي والفهم والشجاعة في ابدائه •

وبدأت أذهب الى معهد الصحافة ، وبدأت ألتقي بالطلاب وأتحدث اليهم •• كان آخر عهدي بالجامعة طالبا فيها في قسم الدكتوراه ، وهأنذا أدخل اليها أستاذا بعد فترة من الوقت حفلت بالمتاعب والمآسي وحفلت أيضا بالجهاد الظافر الموفق •• وهل في استطاعة الانسان أن يفصل المأساة عن الظفر والنجاح ••

ومرت الشهور الاولى من السنة ، حتى اذا جاءت أوائل شهر أبريل، قصدت الى قريتي كعادتي •• كان جو الربيع حلوا ، ونسماته في الريف أعذب النسائم ، سنابل القمح أخذت تنضج ، وتنشر الذهب على الحقول، وقال أبي ، ونحن جالسان على شاطىء الترعة الجميلة الرقيقة ، وأمامنا أشجار الحديقة مزدهرة مورقة ، وأخي شمس الدين قادم من بعيد ، مجهدا •• قال أبي : ان صحة شمس الدين لا تعجبني •• انه يشعر بالتعب من أقل مجهود ••

ولم أكد أجيب حتى كان شمس الدين بلغ حيث كنا جالسين ..
ونظرت فى عينيه التى عهدتهما أبدا صافيتين ، فاذا بى أرى فيهما ظلالا غريبة .. هل رأيتها لأن أبى لفت نظرى الى ضعف صحته ، أم لأنها حقا كانت موجودة ؟ لست أدرى ولكننى شعرت باشفاق شديد نحو أخى الذى يلينى فى السن ، والذى كان معتمدنا الاول فى تدبير شئوننا فى الزراعة .. قلت له : ارح نفسك يا شمس الدين .. خذ كفايتك من الراحة ، لا تجهد نفسك ، فليس هناك ما يستحق أن تجهد نفسك من أجله .. قال أبى : انه لا يكف عن السفر الى الزقازيق .. يتاجر ويرعى شئون الزراعة ويشرف على مخزن الاسمدة .. فهو يجهد نفسه أكثر مما يجب ، وكثيرا مانصحته ولكنه لايسمع ، .

والتفت اليه وقال : هاهو اخوك الاكبر ينصحك بما نصحتك به ابدا ، لعلك تسمع ..

وفى اشراق عين وبصيرة انسان فى قلبه نور ايمان لانهاية له ، قال شمس الدين : خليها على الله ... انا صحتى كويسه والحمد لله ..

وعدت الى القاهرة ، ولم يكن فى ظنى ان الامر خطير ، وبعد نحو أسبوعين رجعت الى القرية ، فاذا أخى راقد فى فراشه ، واذا الاطباء يزورونه ، واذا أبى بعيد عنه ، منعزل ، لا يريد أن يرى ابنه مريضا ، ولا يريد ان يسمع مايقوله الاطباء عنه ، وسمعت ماقالوه ، واختلفوا فى تشخيص المرض ، واعطوه دواء ... قال بعضهم ان الامر يسير وانه سيشفى .

وذهبت الى حيث ابى ، وطمأنته جهد ماستطيع .. كان الرجل يحس بشفافية قلب لايكذب .. نظر الى وسكت ، ثم قال : الله وحده هو الشافى .

وراعنى أن أبى أيضا تسوء صحته .. لمحت فى وجهه خطوط أسى كانت قد ذهبت عنه منذ سنوات .. لماذا عادت وشئوننا على خير مايكون ... المال موفور والمركز محفوظ والمستقبل مملوء بالخير المأمول ... وعدت مرة أخرى الى القاهرة .. ودعت ابى ... قال : يا بنى .. لن أستطيع أن أرافقك الى المحطة ... كان هذا يسعدنى دائما .. الله معك يكتب لك فى كل خطوة سلامة ..

تركته وفى عينى دمع مكتوم ، وفى قلبى اسى لامثيل له .. وحينما

انطلق القطار بعيدا عن القرية ، نظرت اليها وهى ملفوفة فى هذه الغلالة الجميلة من الاشجار الرقيقة الكثيفة ٠٠ هنا اخ على فراش المرض لايعرف الا الله مصيره ، واب منزعج خائف بدأت ظلال الاسى القديم تملأ وجهه ٠٠٠ ترى ماسيكون يوم اعود الى زيارة القرية ٠٠ كان اعمامى واخوتى والاسرة كلها تحيط ابى بخير مايحاط به انسان من رعاية وحب ، ولكن هل يخفف هذا أساه وحزنه واشفاقه على ابنه المريض ٠٠

وعدت بعد ايام ، كان اخى يحتضر ٠٠ لم ينفع الطب ولا الدواء ولا الصلاة والابتهال ٠٠ ذهب فى زهوة الشباب والرجولة ٠٠ كان قد تزوج منذ سنوات قليلة وترك طفلا وطفلة ، لايزالان فى حاجة الى الحنان والرعاية ٠٠

كانت اشق مهمة فى المأساة كلها وقع الخبر على ابى ٠٠ حاولنا جهد ما نستطيع أن نتدرج فى نقله اليه ولكنه قال : أنا عارف ، شمس الدين مات ٠٠ وانفجر يبكى وهو يقول : ابنى ٠٠ ابنى ٠

قلت له وقد جمدت عيناى ، ورأيت أن الموقف فى حاجة الى شىء من هذا الجمود : لماذا تبكى ٠٠ ان أولادك حولك ٠٠ وهذه ارادة الله ٠٠ قم ٠٠ تعال ٠٠ قابل الناس الذين سيأتون لكى يعزوك ٠٠ كيف تريد أن يكون الموقف ٠٠ تدعنا نحن ، وتبكى أنت هنا ٠٠ أنا لا أرضى هذا ٠٠ وفيما يشبه الامر قلت : تعال قم معانا ٠٠

لاول مرة فى حياتى كنت عنيفا معه ٠٠ واستعاد الرجل القوى قوته ٠٠ كفكف دمعه ، واصطحبنا الى السرادق الذى اقمناه ومنحه الله سكينة وصبرا ٠٠ تجلد حتى حسبت كأن كل شىء قد انتهى ، ولكننى لم اكن اعرف ان مافعله كان على حساب صحته واعصابه ٠٠

وانتهى المأتم ، وعدت الى القاهرة كسير القلب ، مشتتا ، أفكر فى الموت والحياة ٠٠ ليست هذه أول مرة صادفت فيها الموت ولن تكون الأخيرة ٠٠ كنا فى اواخر شهر ابريل والحر أخذ يشتد ٠٠ كنا فى هذا الوقت الذى يصعب عليك فيه ان تعرف هل هو الربيع الذاهب ام هو الصيف القادم الذى يملأ ليالى القاهرة بهذه النسمات العذبة الجميلة ٠٠٠ ولكن أية ليال ٠٠٠ كنت مؤرقا مسهدا ، كثير التفكير فى امورنا ٠٠ كنت مشفقا شديد الاشفاق على أبى ، حزينا شديد الحزن على أخى ٠٠ أو هكذا تجرى الحياة ، لاتكاد تستقيم وتهدأ وتلين ، حتى تتكاثف فى جوها السحب والغيوم ٠

وان القوة لتأتينى فى وقت الكوارث اعظم ماتأتى لاى انسان ..
لم يكن احد يعرف مافى نفسى .. كنت أغدو واروح الى عملى وكان لم يحدث شىء .. اغرقت نفسى فى العمل اكثر واكثر .. كان هو الغذاء الوحيد ، وطلب الى الاستاذ زكى طليمات عميد معهد التمثيل العالى ان القى على طلابه بضع محاضرات فى الصحافة ، وزاد عملى اضعافا ، كما امتلأ قلبى احزانا ... كنت أعيش وأنا أحس ان كارثة أخرى على وشك أن تقع .. لا بل كنت مؤمنا انها واقعة لامحالة .. كان وقت وقوعها وحده هو موضع الشك .

وما اسوأ ان تعيش هكذا ... فى انتظار مر .. انتظار لماذا ؟ انتظار للموت .. وساءت صحة أبى شيئا فشيئا ، واستبد به المرض استبدادا متوحشا .. واصطحبته معى الى القاهرة ، وعرضته على أكبر الاطباء الاخصائيين، فاختلف تقديرهم كما هى العادة، ثم اتصل بى أحدهم وقال : سأكشف لك عن الحقيقة .. ابوك لن يعيش الا بضعة اشهر .. كل مجهوداتنا ستكون تخفيف الآلام عنه ... وطفرت الدموع من عينى حينما خلوت الى نفسى .. وضاق هو بالاقامة فى القاهرة ، وتمنى لو يعود الى القرية ، وحاولت أن استبقيه ، راجيا أن ارفه عنه جهد ما أستطيع .. قلت له : تذهب الى المعادى ، انها ضاحية هادئة بالريف ... وفى الطريق اليها مررنا بكلية الطب ونظر الى ابى وقال : كلية الطب ... وكأنه يسخر ثم سكت لحظة فى تأمل سريع خاطف مر وقال : مش قادرين يشفونى .

اشحت بوجهى عنه حتى لايقرأ شيئا من انفعالاتى .. وبلغنا المعادى، وجلسنا فترة فى الكازينو القائم على البحر ، وكنت قد اشتريت قطعة أرض على مقربة منه .. قلت لابى وأنا أحاول أن أسره وأرفع من روحه المعنوية ... انظر الى يسارك ... هذه القطعة لى .. لقد اشتريتها ، سأبنى فيها بيتا ، وستقيم معى ..

ونظر الرجل المجهد المريض الى حيث اشرت . كان فى وجهه اغتباط وفخر وألم ويأس ودمع مكتوم .. نظر ولم يقل شيئا ، سوى انه التفت الى ، وفى وجهه الاعزاز الذى فى الدنيا كلها ، وفيه الالم الذى فى الدنيا كلها ..

وبعد يوم عاد الى القرية بصحبة عمى ... وبعد ايام ، وكنا فى آخر شهر أغسطس ، رجعت الى القرية لازوره ... رأيته قد انتعش

قليلا ، وتعلقت بالامل ... ماأكثر مايخطىء الاطباء .. من يدرى ؟ لعله يعيش ، ولعل علم الاطباء اساطير الاولين ...

وفى المرة التالية التى زرته فيها ، كانت وطأة المرض قد اشتدت عليه ، وتسرب الامل كما يتسرب الماء من بين الاصابع ، ومع ذلك ظللت مؤمنا ان الله سيتولانا برحمة من عنده .. كيف ؟ .. لااعرف ان من الحياة مالاتحب انتؤمن فيه بالحقائق .. تحب ان تتجاوز عن العلم والواقع وكل ماتقع عليه عينك او يعيه عقلك ، وتؤثر ان تعتمد على قوى خفية عنك دون ان تعرفها ، فى السماء وانت ترجوها ، لانك تؤمن انها موجودة .. وتركت ابى وعدت الى القاهرة ، ثم علمت بعد ايام ان الداء اشتد به ، ورجعت مسرعا ، كان وباء الكوليرا قد انتشر فى البلاد ، وبدأ فى الشرقية، فى بلدة القرين التى امر بها احيانا وانا فى طريقى الى قريتى ، واغلقت الطرق وضربت الكردونات على القرى .. وتسرب الوباء الى بقية الوجه البحرى ، وانتقل منه الى الوجه القبلى ومات كثيرون ، واصيب كثيرون ... واصبح السفر مستحيلا الابترخيض خاص .. وقف رجال المرور ورجال الصحة ورجال البوليس عند مداخل الطرق وعلى طولها يمنعون المسافرين اتقاء لانتشار المرض .. وقد « عدت مسرعا » حينما علمت ان الداء اشتد على أبى ، ولكن هذا تعبير غير دقيق ، فقد كان السفر الى الريف مشكلة معقدة .. قلبى متلهف وفؤادى حزين وابى يحتضر ، ولابد ان ازوره مهما يكن الثمن .. وتحايلت حتى استطعت ان انفذ من نقط البوليس والمراقبة الصحية ... كنت مهددا بالمرض ، ولكن ماهو التهديد بالمرض .. ان ابى يموت .. ابى الذى كان ابا وصديقا وانسانا .. انسانا بكل ماتحمل هذه الكلمة من معنى ، وقد احببت فيه « الانسان » اكثر مما احببت الاب والصديق ... ولاشك ان الرجل يتلهف لكى يرانى .. أولاده حوله ، اعمامى حوله ، أولاد عمه .. اسرته الكثيرة العدد تحوطه بكل ما هو فى حاجة اليه من رعاية .. ولكنه يفتقد ابنه الاكبر ، معتمده بعد الله ، وقرة الاشراق فى عينيه وسلام النفس الراضية المؤمنة .. وبلغت القرية ، وقد مالت الشمس عن سمتها ، وانحدرت الى الغرب، كانت الساعة قد بلغت الثالثة بعد الظهر ، ودخلت عليه حيث كان يضطجع فى فراشه مجهدا منهوكا ، لايكاد يتحدث الا بصعوبة .. كان واضحا انه يموت .. وما ان لمحنى حتى قال فى شبه تمتمة : الاستاذ .. الحمد لله .. كتمت الدمع وتجلدت ونظرت الى الرجل الامين الكريم العزيز الصابر الذى امتلأت حياته بالاسى ، كما امتلأت بالفخر والنجاح

·· نظر الى واطال النظر ·· ولم يتكلم ·· قلت له : ستشفى ·· الله معك ·· لم يكن يتحدث ·· كان يرد بنظرات استطيع ان اقرأها ·· ورفعوه من جانب الى جانب وأدواره حين أحسوا انه متعب ، وسمعته يقول : قوم قساة ··

من هؤلاء القساة ؟ · لست ادرى ·· هل كان قد انفلت من هذه الدنيا وبدأت ظلال العالم الاخر تشع عليه سكينة ورضا ، فرأى اننا قوم قساة بالقياس الى الملائكة الرحماء الذين استعدوا للقائه ··· لست ادرى ؟

ثم تمتم : شمس الدين ··

كان واضحا انه لم يصبح معنا ، أصبح مع اينه الذى سبقه ، وأيقنت أن الرجل الطيب يجتاز العتبة بين الموت والحياة·· لست مستطيعا أن أصف من كنت ولا كيف عشت فى هذه اللحظات ·· لقد واجهت الموت من قبل ، ولكننى لم أره بهذه الصورة المزعجة الرقيقة ، كانت الروح تتسلل فى هدوء وسلام ، وتتخلى عن الجسد وكأنها تخرج من اسار مكروه لكى تنطلق فى فضاء لا حد له ، فيه الضباب والنور ·

وقال عمى : سافر انت ، ودع لنا الأمر ·· انه يحتضر ، ولكننا لا نموت حتى يجىء أمر الله ·

ونظرت الى أبى ، ونظر الى ، وخرجت ·· كان وداعا من غير كلام ، ولكنه كان وداعا فيه كل الكلام ·· اجتمعت فيه حياته وحياتى ، زمالته وزمالتى ·· نعم فقد كان زميلا ·· لا أذكر أنه أذانى بكلمة ، بل أذكر أنه احتمل ضيق خلقى وحماقتى وتسرعى فى كثير من الاحيان واذا كنت قد كسبت شيئا فى هذه الدنيا فان لهذا الرجل الذى يحتضر اليوم الفضل الأول فيه ·· نشأت معه بغير عقد ، بغير أحقاد ولا شهوات ولا كراهية ولا بغضاء ·

وبلغت القاهرة ، والقاهرة أمام عينى شوهاء ·· كان منظرا واحدا أمامى لايبرح خاطرى ، وأنا أعمل وأنا أغدو وأنا أروح ·· الغرفة الكئيبة التى يرفرف عليها المرض والموت، والرجل القوى يصارع الداء ولايستطيع ·· « الأستاذ ·· الحمد لله » · الكلمة ترن فى أذنى ، تخف وتلين ، تهدأ وتصرخ ·· كان الرجل يتوقع أن يموت من غير أن يرانى ، فلما رآنى حمد الله على فضله العظيم ·· كان من أدبه أنه لا ينادينى باسمى المجرد ، وأنا ابنه ·

واشتد وباء الكوليرا ، وضاقت المسالك على الناس فى السفر والاقامة، وأنا فى القاهرة أتوقع أن استدعى فى أية لحظة لكى أرى أبى أو لكى اشيعه الى مقره الأخير ٠٠ حتى اذا كان يوم ١٧ أكتوبر سنة ١٩٤٧ عرفت ان أمر الله جاء ، وكان على أن أسافر لكى أشهد تشييع الجنازة ٠ وذهبت محاولاتى عبثا ، فلم أستطع أن أبلغ القرية الا فى المساء ٠٠ كان الطريق مسدودا تماما ، وكان مرورى فيه معجزة أو مايشبه المعجزة ٠٠ وعرفت أن أبى شيع الى مقره الأخير ، وان جلال مشهده كان فوق كل جلال ٠٠ ماذا أقول ؟ كنت أحب أن أكون معه وهو يقطع هذه الرحلة الأخيرة ، هو الذى قطع معى كل مراحل حياتى ، ولكن الله لم يشأ ٠٠ سألت عن تفصيلات كثيرة ٠٠ وأمدونى بها ٠٠ سمعت كل صغيرة وكبيرة عن مرضه وموته وجنازته ٠٠

وعدت الى القاهرة مثقلا حزينا ٠٠ شعرت اننى أسير فى الحياة وكأن لا طعم لها ولا هدف ٠٠ كنت أحب النجاح لان النجاح سيشهده ، كنت أحب أن أسعى وأتعب وأشقى ، حتى اذا أصابنى خير ، كان فرحى به لانه سيسعده ، أبى مات ، فماذا يعنينى أن أنجح أو أفشل ، ماذا يعنينى ان أكسب أو أخسر ٠٠ ان الحياة هى المشاركة ، وقد كان أبى هو الشخص الذى يفرح لى من أعماقه ، ويحزن من أعماقه ، كنت أذود عنه الحزن جهد ما أستطيع ، واستكثر من الفرح جهد ما أستطيع ٠

ما أعجب الحياة ٠٠ انها لأقوى من الموت ٠٠ لفتنى مرة أخرى فى دوامتها ٠٠ كنت أقرأ وصور الموت والأب الذى ذهب تتراقص أمام عينى ، كنت أتكلم وأشرب وآكل وأضحك وأتحدث الى أصحابى، والصور نفسها لا تبرحنى ٠٠ كانت مقيمة معى ، كأنها جزء منى ٠٠ لم أضعف أمام أحد ، فاذا خلوت الى نفسى ، انهمرت دموعى ٠٠ حقا ما أحلى ضعف الانسان ، وما أحلى أن تبكى وأنت حر لا يراك أحد ٠٠ ما أحلى أن تنضو عن جسدك هذا الثوب المستعار ، ثوب القوة من أجل الناس ، وتلبس ثوبك الحقيقى ، ثوب الضعف أمام ملكوت السماء ، الضآلة أمام هـذا الكون العجيب الوسيع ٠٠ أمام لغز الموت والحياة ٠٠ لماذا جئنا ؟ ولماذا نذهب ؟

وتقدمت الأيام ، وأخذت الرؤى الحزينة تبعد عن الصورة وان ظلت أبدا تلونها ٠٠ حتى اذا كان ذات يوم فى شهر نوفمبر سنة ١٩٤٧ زارنى الأستاذ محمد نزيه المحرر فى «الاهرام» وقال : لماذا لا ترشح نفسك فى انتخابات نقابة الصحفيين ٠٠ قلت له : ليس فى خاطرى شىء من هذا ٠ لم أفكر فيه قط ٠ قال انك تتباعد عن الصحفيين من غير داع ٠٠ انهم

يريدونك ٠٠ قلت : ولكن لا صلة لى بهم ٠٠ ليست لى صداقات كافية ولا معارف كافية ٠٠ قال : لا تشغل نفسك بهذا ٠٠ فقط وافق ، واعطنى رسم الترشيح أو اذا شئت دفعته لك ٠

ووافقت بعد حوار طويل ، وفى يوم الانتخابات سرنى وزادنى غبطة وارتياحا ، ان رأيت عشرات وعشرات يدعون لى دون أن أعرف أحدا منهم ، وبدأ أخذ الأصوات ، وأنا جالس ساكت لا أتحرك ٠٠ وهمس فى أذنى الأستاذ محمد نجيب المحرر فى الاهرام : اكتساح ٠٠ وابتسم ٠٠ وأعلنت النتيجة فاذا بى آخذ أكثر الأصوات فى الجمعية العمومية ٠٠ وبدأت بدخولى مجلس نقابة الصحفيين تجربة جديدة ، وقرر المجلس بعد قليل ندبى لتمثيله فى لجنة القيد والتأديب بمحكمة الاستئناف ٠

وانى لأوثر أن أقف بالجزء الأول من هذه المذكرات عند نهاية ١٩٤٧ ، ريثما آخذ أنفاسى ويأخذ القراء أنفاسهم ، فقد تلت ذلك مرحلة جديدة فى حياتى ، ففى أوائل سنة ١٩٤٨ توفى الى رحمة الله أنطون الجميل باشا وآل الى الاشراف على تحرير « الاهرام » فترة طويلة من الوقت حفلت بالزوابع والعواصف ، وامتلأت بالانفعالات الخاصة والعامة ٠٠ واضطرب جو الوطن كأسوأ مايكون الاضطراب ٠٠ عشت فترة فى أشياء كانت غائبة عنى ٠٠ رأيت ألوانا جديدة من الناس ، وكنت أحسب اننى عرفت كل الألوان ٠٠ رأيت ألوانا جديدة من التصرف والسلوك والسعى ، وكنت أحسب أننى رأيت كل الألوان ٠٠ رأيت ألوانا من الاغراض واشتاتا من هنا وهناك تجمعت وكأنها على ميعاد ٠٠ رأيت نفوسا ونفسيات ، وخبرت أعجب مافى الحياة من متناقضات ٠

أوثر أن أقف عند هذا الحد من نشر مذكراتى ، على أن أتابع نشر الجزء الثانى منها ، اذا انفسح الأجل ، وأسعفت الهمة ، وبقى فى السراج زيت ٠٠ على اننى أحب ، قبل أن أختم هذا الجزء ، أن أشير الى رجل طيب أمين رقيق ، هو الأستاذ اسماعيل عثمان أباظة ، رئيس قسم المعارض فى الجمعية الزراعية الملكية ، فقد اتصلت بينى وبينه صداقة طويلة عريقة جميلة ٠٠ وفى أوائل سنة ١٩٤٦ قرر مجلس ادارة الجمعية الزراعية اختيارى مستشارا للنشر تمهيدا لاقامة معرض سنة١٩٤٨، فزادت صلتى به ٠٠ كان الرجل يمثل اصالة أهل الريف وسماحة قلوبهم ونفوسهم٠٠ كنت أنظر اليه وأشعر بالطيبة كيف تبدو من وجهه ، وكأنها خلقت معه ٠٠ مزج رحابة الريف ووراثاته القديمة بشىء من حضارة المدينة ، دون أن تبلغ مساوئها من نفسه قليلا أو كثيرا ٠٠ تقدمت به السن دون أن

يتزوج ·· ولـكنه كان دائم التفكير في الزوج والولد ·· قال ·· هـل أموت دون أن أترك حتى ولو حتة ولد !

ثم تزوج ، وأنجب ولدا ·· وكنت أنظر الى وجهه وهو مبتهج ، فأشكر لله أن منحه ما أراد ·· ولكن لم تمض سوى سنوات قليلة حتى لقى وجه ربه الكريم ·· بعد أن جاء الولد ، كان يفكر فيما يصنع لو وافاه أجله ·· عجيبة هذه الحياة ·· ما من أمل يتحقق ، الا ويكون معه ألم يأخذ منه ويكاد يقتله ·

والآن حين أعود بخاطرى لهذه المرحلة من حياتى التى كتبت مذكراتى عنها ، أسائل نفسى : هل كنت أحب أن تسير حياتى أكثر رخاء وأقل مأساة ، وأرانى أجيب : كلا ، لقد كسبت من المأساة اضعاف ما كسبت من الخـير الذى أصابنى ·· كتبت بأمانة عن نفسى وعن النـاس الذين اتصلت بهم والحوادث التى اتصلت بى أو شاركت فيها ·· لم أحـاول أن أبخس أحدا حقه ، ولم أحاول أن أرتفع على حساب أحد ·· وكما قلت فى هذه المذكرات ، لست بطلا ، ولست أريد أن أكون ·· ان حياتى عادية بسيطة ، ليس فيها الا جهاد انسان أراد أن يعيش دون أن يسأل أحدا معونة أو جاها ، وقد أتيح لى أن أحقق هذا وذاك ، وهما حسبى ·

ولست أدرى مع هذا كله ، ومع دقتى الشديدة فى أن أكون أمينا مع نفسى ومع الناس ·· هل حابيت نفسى أم لا ؟ كنت شديد الحرص الا أفعل ، ولكننى أعرف ان هناك تسللات خفية فى النفس لا نعرفها ولا نحسـها ، ولكنهـا قد تدفعنا الى محاباة أنفسنا دون شعور ، فاذا كان القراء أو كان بعضهم قد أحس بهذا ، فعذرى اننى لم أحس به ، وانني لم أخرج على منهجى فى الصدق ·

بقيت الصور التى رسمتها لبعض من عرفتهم أو اتصلت بهم · والأمر فى شأنها أيضا هو الأمر فى شأن نفسى ·· لقد رسمت هـذه الصور فى موضوعية تامة ·· وحاولت جهدى أن أبعد شعورى الشخصى ، وأنا واثق اننى لم أنجح تماما ، ولابد أن يكون الأمر كذلك ، لان هـذه مذكرات شخصية ، انفعالات انسان ، أكثر مما هى آراء ·· والقياس فى صدق الانفعالات أن يعبر عنها صاحبها كما هى ، لا فى أن تكون صادقة اذا عرضت على مقاييس العقل ، أو مقاييس شخص آخر ، فالعقل شىء والانفعال شىء ، وانفعال انسان آخر بشخص أو شىء ، هو قطعا مغاير لانفعالك انت بهذا الشخص أو الشىء ··

وكل ما أرجوه ألا أكون قد آذيت أحدا أو جرحته ، حيا أو ميتا ، فمن كان مثلى كثير الجروح مؤمنا بضعف الانسان ، لا يمكن أن يقصد الى احداث جرح بأى انســـان آخر ، ولابد أن نفرق بين التصرف وبين الشخص • واذا كنت قد نقدت أو حللت أو اعترضت فى مجال الحوادث السياسية وغيرها فقد فعلت ذلك بروح مجردة من الكراهية والهوى ، وهى جهد مايستطيع انسان وجهد مايطلب منه

محمد زكى عبد القادر

فهرس

دار الكاتب العربى للطباعة والنشر